الخلفاء الراشدين

تأليف
عبد الوهاب النجار

المكتبة التوفيقية
أمام الباب الأخضر - سيدنا الحسين
ت: ٥٩٠٤١٧٥/٥٩٢٢٤١٠

إهـــــــداء ٢٠٠٩
دار الكتب و الوثائق القومية
القاهرة

الخلفاء الراشدين

تأليف
عبد الوهاب النجار

المكتبة التوفيقية
أمام الباب الأخضر - سيدنا الحسين
ت: ٥٩٠٤١٧٥ - ٥٩٢٢٤١٠

بسم الله الرحمن الرحيم

الخلافة فى الإسلام

يقول علماء الاجتماع العمرانى إنه ما اجتمع عدد من الأحياء ، سواء كان هذا العدد من الحيوان أو من بنى الإنسان ، إلا اتخذ له من بين أفراده رئيساً يذعن الجمع لإرادته ويهتدى بهديه ، ويبذل كل فرد نفسه فى الدفاع عنه والمكافحه دونه. واتخاذ الكائنات الحية رئيسا منها أمر طبيعى تنساق إليه بمقتضى الفطرة.

قائد الجماعة من بنى الإنسان إذا كان قد تمكن له الأمر وتوطدت سلطته على الجماعة ، وأوتى من النفوذ ما يحقق له السيادة عليهم ، فنفذ أمره فيهم بمقتضى القهر والغلبة الذين هما من آثار القوة الغضبية كان ملكاً مستبداً وغلب على أحكامه الجور والإجحاف بمن تحت يده فى أحوال دنياهم ، لما يستتبعه شأن القهر والغلبة من حمل القبيل على ما ليس فى طوقهم من أغراضه ومشتهياته. ومن البين أن نشوة الملك وسورة التسلط تحملان صاحبهما على الأشر فى أغلب الأحوال.

فإذا كان الملك يرجع فى أحكامه إلى قواعد يضعها العقلاء ويلزمون الكافة انتهاجها والسير على مقتضاها كان ذلك أرجى لاستقامة الأمر واجتماع الألفة فى الجملة وإن كان الجور ليس بمأمون واستقامة الأحوال ليست بمستيقنة.

أما إذا قام قائد الجماعة على إثر نبوةً وفى عقيب رسالة وعلى نهج شريعة فقد خص فى عرف أهل الإسلام باسم الخليفة ، والمنصب باسم الخلافة أو الإمامة تمييزاً لها عن الملك الذى تجر إليه طبيعة القهر وتغلب عليه سمة الجور.

كان للرسول صلى الله عليه وسلم مهمتان يؤديهما إلى الأمة ؛ إحداهما : أن يبلغ عن الله ما أمره بتبليغه إلى الناس من الأحكام المتعلقة بدينهم ودنياهم وما قصه عليهم من الأخبار والعظات ويبين للناس ما نزل إليهم ، فهو بذلك مشرع عن الله تعالى. الثانية : كونه إماماً للمسلمين يضم قاصية الأمة ويجمع كلمتها ويوجهها إلى الخير ويبعدها عن مزالّ الأقدام ومواطن الشرور ، ويرجعون إليه فى أقضيتهم وحل

مشكلاتهم طبق ما أوحى إليه من ربه جلّ ذكره وما يؤديه إليه اجتهاده فيما ليس عنده فيه وحى ، ثم إنه يقوم بتنفيذ تلك الأحكام.

ولما كان الله تعالى لم يجعل الخلد لبشر ، وكان الموت خاتمة مطاف كل إنسان فى هذه الحياة الدنيا ، وقد قبض الله تعالى رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم إلى جواره ، كان من الحكمة أن لا يترك الناس فوضى لاسراة لهم (كأغنام ذئب نام عنها رعاؤها) - بل لابد للشرع من حارس يخلف المبلغ له فى إقامته بين الأمة وتنفيذ أحكامه فيهم وهو الخليفة.

والخلافة هى النيابة عن صاحب الشريعة فى حفظ الدين وتنفيذ أحكامه وسياسة الدنيا به. والسر فى ذلك استحالة حياة أفراد النوع الإنسانى منفردين ولأن من طبيعة الاجتماع التنافس المفضى إلى التنازع لازدحام الأغراض المتباينة فيحتاج إلى الوازع وهو الشرع. فقد جعل الله تعالى كمال النظام البشرى بالشرائع الإلهية يذعن لها الخاصة والعامة ويراها نافذو البصائر فى شئون الاجتماع العمرانى حاجة من حاجات العقول البشرية بها يكون تقويم الملكات وتعديل مزاجها وحملها على القصد من الأمور بلا تفريط فى شىء ولا إفراط يدعى إلى تجاوز الحدود وتخطى المعالم.

هذه الشرائع يصطفى الله تعالى من خيرة خلقه رسلاً يتلقونها بالوحى عن الملك أو عن الله تعالى ثم يبلغونها للناس ﴿الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس﴾ ويضعون للدائنين بشرائعهم (بأمره) حدوداً عامة لا ترهق الناس مشقة فى رد أعمالهم إليها - كتقويم الملكات والأخلاق والعقائد ، وتحريم الدماء والأموال والأعراض إلا بحقها - على وجه يحمل كل واحد من الناس أن يبتغى فيما آتاه الله الدار الآخرة وأن لا ينسى نصيبه من الدنيا ، وأن يرغب فيما عند الله مستشعراً الرهبة من عقابه (إذا حاد عن النهج القويم) فى يوم تشخص فيه القلوب والأبصار.

انساق المسلمون بمقتضى الفطرة التى لكل جماعة من الأحياء إلى إقامة من يخلف رسول الله فى سياسة أمرهم. فأقاموا عليهم خليفة ، ولم يوجد عند الأمة الإسلامية أمر من أمورها اختلفت فيه الكلمة وتشعبت بشأنه الآراء بمقدار ما كان منها

فى شأن الخلافة. وأظهر مظاهر الاختلاف أمران :

أولهما : البيت الذى يكون منه الخليفة.

ثانيهما : شكل الانتخاب أو الطريقة التى يكون بها انتخاب الخليفة.

(بيت الخلافة) إن الكتاب الكريم لم يعين بيتاً للخلافة ينتخب الخلفاء من أهله ، ولا شعباً من شعوبهم ولا قبيلة من قبائلهم ، وإنما كان يوجه الكلام إلى عموم المسلمين فيما يقرره من الأحكام ، ويطالبهم بتنفيذها فى مثل قوله تعالى : **﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا﴾** وقوله : **﴿وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل﴾** وقوله : **﴿وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم﴾** ومن غير المعقول أن كل واحد من المسلمين بقطع يد السارق أو يقتص من القاتل ، بل المعقول أن ينوب عن جميعهم واحد منهم يتولى ذلك.

أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد روى البخارى حديثاً يسنده إلى معاوية رضى الله تعالى عنه يقول فيه : "إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : **"إن هذا الأمر فى قريش لا يعاديهم أحد إلا كبه الله على وجهه ما أقاموا الدين"**. وعن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : **"لا يزال هذا الأمر فى قريش ما بقى منهم اثنان"**. وفى مقابلة ذلك روى عن أنس بن مالك قوله صلى الله عليه وسلم : **"اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشى كأن رأسه زبيبة"** وهى أدلة متعادلة.

لم ينته الناس من تجهيز النبى صلى الله عليه وسلم ودفنه حتى كان فى الناس فريقان لكل منهما رأى فى شأن الخلافة ؛ فريق يرى عدم تخصيص الخلافة ببيت من البيوت ، والفريق الثانى يرى تخصيصها.

أما رأى أهل التخصيص فقد انشعب إلى شعبتين :

أولاهما : تخصيص الخلافة بقريش بلا فرق بين بطونها.

ثانيهما : تخيصصها بالقرابة القريبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

وأهل القرابة القريبة فى ذلك الحين ، هم العباس بن عبد المطلب من أعمامه وعلى وعقيل ابنا عمه أبى طالب.

أما العباس فلم تتطلع نفسه إلى الخلافه ولم يطلبها ، وأما علي عليه السلام فقد امتاز على أخيه عقيل بأنه كان من السابقين الأولين ، وليس لعقيل ماله من الهجرة والبلاء فى إعزاز الدين والذود عن حوزته والمقامات المحموده فى جهاد عدوه، والصهر إلى رسول الله فى البضعة الطاهرة ، وهى زوجه فاطمة. وكانت وجهة من يخصون أمر الخلافة بالقرابة القريبة الإلقاء بمقاليد الأمر إلى على رضى الله عنه دون غيره من بقية قرابة رسول الله الأقربين. أما الذين يرون أنها حق قريش فحسب فكانوا جمهور أصحاب رسول الله من المهاجرين وبعض الأنصار.

وكان رأى عدم التخصيص فى الخلافة لجمهور الأنصار. فكانوا متطلعين إلى أن يكون الخليفة منهم لأنهم أصحاب دار الهجرة ، وقد آووا ونصروا وآثروا المهاجرين بأموالهم وواسوهم فى الضر ، وقاموا يرمون وراء رسول الله ويوالون من والاه ويعادون من عاداه لا يرغبون بأنفسهم عن نفسه ، وكانوا عيبته التى آوى إليها إذ أخرجه قومه ثانى اثنين ، ولرسول الله المقامات المحمودة فى الثناء عليهم. وقد تلقف هذا الرأى من بعد الأنصار جميع الخوارج الذين كانوا يشقون عصا الطاعة على الخلفاء فى آونة مختلفة ، ويفارقون الجماعات لأسباب يستمسكون بها ويتخذونها ذريعة لخلع ربقة الأئمة. وفى بعض الأحيان يقيمون عليهم خليفة وينادون به أميراً للمؤمنين كقطرى بن الفجاء ، وهو رجل من بنى تميم. وقد كانت تكأة أولئك القوم فيما آتوه أن القصد من إمامه المسلمين إنما هو توجيه الأمة إلى الخير والسير بهم فى سبيل الصلاح والعدول بهم عن الشر وإقامة الدين فيهم واستقرار العدل فى الأحكام، وهذا أمر يحصل بتولية من فيه المقدرة على ذلك والاضطلاع به بقطع النظر عن قومه وقبيلته ، وحجتهم فى ذلك قوله تعالى : ﴿**إن أكرمكم عند الله أتقاكم**﴾.

والذى أراه أن أصحاب هذا الرأى قد يكونون على صواب إذا كان من يختار لهذا المنصب منفرداً بعصبية تؤيده وتقوم بنصره بحيث تكون غالبة لكل قوة سواها ،

لأن الإنسان فى أموره لابد أن يلاحظ الفواعل الطبيعية وما جبل عليه الناس من الانقياد للغالب ذى النفوذ القوى والكلمة المسموعة والعصبية القاهرة فإن هذه هى الأمور التى تبهر عقول الجماعات وتقسر بقية الطوائف على الإذعان. وأما التقى الذى لا حول له ولا قوة. فإن الناس تنفض من حوله ولا يمكن أن يظاهر على أمره.

أما رأى تخصيص هذا الأمر بقريش فإنه الرأى الطبيعى المناسب لذلك الحين ولما وقر فى طبيعة العرب من الإقرار لقريش بالفضل والإذعان لها بالسؤدد لا ينازعها فى ذلك منازع بخلاف غيرها من العرب فإن قبيلة منها لا ترضى أن تطأ عقب قبيلة أخرى وتنقاد لها بأزمتها ، حاشا قريشا. وقد أبان ذلك أبو بكر يوم السقيفة بقوله : "إن هذا الأمر إن تولته الأوس نفسته عليهم الخزرج ، وإن تولته الخزرج نفسته عليهم الأوس. ولا تدين العرب لغير هذا الحىّ من قريش" .

ومن هنا استنتج العلامة ابن خلدون السر فى تخصيص قريش بالخلافة وهو ما كان لهم من العصبية والنفوذ السارى فى جميع قبائل العرب وبطونها يعترفون لهم بالتقدم ، ولا ينكرون عليهم الرياسة فيهم ويستثنونهم إذا افتخروا :

أما الناس ما حاشا قريشا   فإنا نحن أفضلهم فعالا

فإذا كان الخليفة منهم ألقت إليه العرب المقاليد وتقطعت أسباب المعاذير فى الخلاف عليه والنصب له. وقد بنى على هذا الأصل أنه ليس يمتنع أن تكون الخلافة فى غير قريش إذا ذهبت ريحها وعجزت عن حماية بيضة الإسلام وكانت المنعة والقوة لسواها. لأن الشريعة مبنية أحكامها على العلل والحكم فى كل زمن بحسبه.

أما رأى التخصيص بالقرابة القريبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فكان رأى علىّ بن أبى طالب - كرم الله وجهه - وفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن تابع علياً على ذلك فيما بعد لمكانه من قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، غير أنه التفت يمنه ويسرة فلم يجد من يظاهره على أمره ممن يقول ويفعل فحدا به ذلك إلى الانضواء إلى رأى الجمهور والدخول فيما دخل فيه الناس ، وذلك

بعد وفاة فاطمة رضى الله عنها لستة أشهر من وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض الروايات.

والذى أراه وأعتقده هو ما روى من أنه بايعه بعد أيام ، بدليل أنه جعله قائداً على بعض المسلمين حين بيت الكفار أهل المدينة وذلك لشهرين من بيعة أبى بكر.

تولى الخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر وهو تيمى قرشى ، ثم تلاه عمر وهو عدوى قرشى ، ثم جاء بعدهما عثمان بن عفان وهو أموى من بنى عبد مناف وأذعنت الكافة للرأى القائل بأن الخلافة لا تكون إلا فى قريش وأجمع على ذلك أصحاب رسول الله والمسلمون كافة وبقى الرأى الأخير (وهو القائل بتخصيص الخلافة بأهل القرابة القريبة) مهملاً إلى آخر أيام عثمان بن عفان. فطاف على الحواضر الإسلامية طائف من التفريق وانساب إليها دعاة الفتنة ينبهون الناس إلى هذا الرأى ويقبحون من خالفه صارخين صاخبين : "كيف يحرم خلافة الرسول قرابته" !.

يقول غوستاف لوبون : "لبعض الألفاظ والجمل سلطان لا يضعفه العقل ولا يؤثر فيه الدليل ، ألفاظ وجمل ينطقها المتكلم خاشعا أمام الجماعات فلا تكاد تخرج من فيه حتى تعلو الهيبة وجوه الساعين ، وتعنو الوجوه لها احتراما. وكثير يعتقدون أن فيها قوة إلهية. ألفاظ وجمل تثير فى النفوس صوراً لا كيف لها ولا انحصار ، محفوفة بالإكبار والإعظام إيهامها يزيد فى قوتها الخفية فهى آلهة لا تدركها الأبصار قد احتجبت خلف (المظلة) التى ترتعد لهيبتها فرائص العابد إذا تقدم نحوها" . وعلى هذا النمط كانت كلمات المفرقين وعلى هذا النحو سار دعاة الرأى الأخير ، فهاجموا مكان الإحساس من الأمة وملكوا على الناس مشاعرهم وأسمعوا الناس صوتا ملذوذا فى المسامع فأطربوهم بما كانوا يرددون من الجمل ويصوغون من العبارات. وربما تخطى بعضهم حدود الدين ونحل علياً ما لا يتحلى به بشر لينال بذلك فتنة الأمة وينجح فى الكيد للإسلام.

كأنى بالناس فى أطراف بلاد الإسلام وقد تلجلج هذا الأمر فى خواطرهم وإن لم تلكه ألسنتهم وقد اختمر فى نفوسهم وأشعرهم التشوق إليه ما أرهقهم به عمال

الخلافة فى تلك الأطراف المتبذة فى زعمهم فما هى إلا أن وجدت مس الدعوة إلى هذا الرأى حتى هبت لتحقيقه وانتدب له أفواج من الأطراف المختلفة غير حاسبين لعقبى عملهم حسابا. وهذا شأن الجماعات فى كل زمان ومكان تندفع بسهولة إلى الشر ، وتنكمش في أفرادها الذات الشاعرة وتتسلط الذات اللاشاعرة. وتتجه المشاعر والأفكار بعامل التأثر والعدوى نحو غرض واحد وتنقاد إلى فعل ما يخالف منافعها الحقيقية. هذا هو شأن الجماعات فى كل زمان.

كان تنبه الناس لهذا الرأى وهبوبهم إلى تحقيقه بالفعل سبباً لخطوب جسام ومصائب عظام ، فقد سال سيل الجماعات على المدينة فاجترف فى سبيله الخليفة الثالث عثمان بن عفان . وبذلك انبثق على المسلمين سيل من الخطوب لم يمكنهم سده.

ذلك أن دعاة الرأى الأخير والنافخين فى هذا البوق رأوا جانباً من أرض الإسلام لا يثمر فيه هذا الغرس الذى غرسوه. بل تيقنوا أن تخطيهم إلى تلك البلاد إنما هو تخط إلى الآخرة فبقى أهلها غير متأثرين بهذا الرأى ولا راضين عن أهله فهبوا لإخماد أنفاسه والإيقاع بالقائمين به بلا شفقة ولا رحمة.

كان عصارة ذلك أن تصادم أهل الرأيين وفزع كل فريق إلى سيفه وما احتقب من رأى ومكيدة وحسن سياسة فظفر معاوية بن أبى سفيان بالخلافة ، وهو من بنى أمية ، وليس من ذوى القرابة القريبة. وبهذا عاد الأمر كما بدأ واستقر الأمر على الرأى الأوسط بعد خطوب وأهوال يشيب لها فود الزمان.

اختنق هذا الرأى قبل أن يبلغ أشده وكمنت حياته كمون النار فى الحجر كلما وجدت قادحاً وردت وإذا سكنت توارت ، وأهل هذا الرأى قد استكانوا لحكم السيف ولكن على أمل أن ينتهزوا الفرصة إذا رأوها سانحة وأن يشيموا بروق الأمل إذا رأوها لائحة.

ظل أبناء على رضى الله عنه يرون الخلافة إرثاً لهم عن رسول الله لا ينازعهم

فيه إلا ظالم جائر وشيعتهم من ورائهم تحفزهم عليهم وتدفعهم إلى المطالبة. فيخرج الواحد منهم بعد الآخر يتهافتون عليه تهافت الفراش على السراج لا يبالون برءوسهم تطاح ، ودمائهم تستباح ، وأجسامهم، تذروها الرياح. وكأن ما كان يحل بهم من القتل الوَحِيّ ، والتمثيل الذريع ، والتحريق بالنيران والتصليب على الأعواد لا يزيد النار إلا استعاراً ، ويغرى اللاحق باتباع آثار السابق، وكان شيعتهم يجدون بتلك الحوادث مكان القول ذا سعة فيطلقون العنان لألسنتهم وقرائحهم فى تمثيل أهل البيت بين مدرج بدمائه وهارب بدمائه وحريب وسليب ومأسور ومقهور وعقائل بيت الرسول تساق الواحدة منهن سوق السبية الأخيذة. فمن شاء فلينظر إلى شعر الكميت ابن زيد ومن حذا حذوه ففيه بلاغ ومقنع.

والذى أعتقده أن أهل البيت لو خفضوا من عنانهم فى سبيل المطالبة ولم ينصبوا أنفسهم هدفاً للولاة والخلفاء لأتتهم الخلافة منقادة بخطامها لأن فى طبيعة الرعية حب الجديد والاستشراف إلى تغيير الحكام متى طال العهد بهم فلا يجدون بعد بنى أمية سوى أندادهم من بنى هاشم ، وهم على حال سلامة ووفرة عدد وفى حرز أمنة ، ولكنهم كانوا يخاطرون بأنفسهم ومن معهم ويلقون بأنفسهم إلى التهلكة ، وكان ذلك يزيد خصومهم قوة إلى قوتهم ، ويحدث ترات وذحولا عندهم للقبائل المختلفة ويزيدهم ضعفاً ، ويرهقهم ، وهنا بقلة عديدهم وفناء الفريق الأكبر منهم.

لم يكن للعباس مطمع فى الخلافة كما قدمنا ، ولم يكن لشيعة أهل البيت نظر يتوجه إلى أبنائه ، وكان قصارى بنى العباس أن يكونوا مؤازرين لعلى مظاهرين لأبنائه فى طىّ الخفاء على خوف من بنى أمية وملئهم أن يعتروهم بسوء. غير أنه لما توفى هاشم بن محمد بن على عن غير عقب ، وكان قبلة أنظار الشيعة أكثر من بقية العلويين ، زعموا العباسيون حينئذ أنه ألقى بمقاليد أمر الدعوة إلى محمد بن على بن عبد الله بن عباس فهبوا للعمل على إنماء الدعوة لآل البيت فى ظاهر أمرهم ويبطنون أن تكون الدعوة إلى خلافتهم ويحتجزونها دون أهل البيت إذا حق العمل فكانوا يدعون الناس إلى مبايعة الرضا من أهل بيت رسول الله ولا يبوحون لأحد باسمه

زاعمين أن ذلك يوجه نظر بنى أميه إليه ويعرضه للقتل والتشريد لمن تابعه. وقد واتتهم المقادير على حين فترة من الهمم فى بنى أمية ، وانحلال العزائم فى خلفائهم وانشغالهم بالعيش الناعم وملذات الحياة ، واستهانتهم بالأطراف القاصية من مملكتهم واستصغارهم لما يحدث فيها ، وكانت الدعوة التى أخذت صبغة هاشمية بعد أن كانت علوية قد فشت فى نواحى فارس وخراسان فشواً زائداً واشتغل بنو العباس فيها بمهارة زائدة وأوردوا ذكر العباس عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وإشاعة فضله وفضل ابنه عبد الله وما له من الذكر النابه عند أولى العلم والتقوى وما للعباس من الحق فى إرث رسول الله بالعَصَبة دون سائر ذوى قرباه ، إلى غير ذلك من الأمور التى لقحت بها الدعوة العلوية.

وقد وفق العباسيون إلى دعاة مهرة ذوى مقدرة فائقة وجرأة وإقدام وعمدتهم أبو مسلم الخراسانى ، فأدار الأمر بحكمة وباشروا انتقاص الأطراف على عمال بنى أمية الذين كانوا قد وهن أمرهم فأدالهم الله منهم حتى إذا حق الأمر أعلن أبو مسلم اسم عبد الله السفاح بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس خليفة للمسلمين.

إن وجهة الناس كانت إلى العلويين. ولكن لما كان العلويون قد ضعف أمرهم كما قدمنا وكفوا أيديهم فى الجملة عن مباشرة الدعوى ، وكان الذى يدير أمر الدعاة إنما هم بنو العباس ، وهم من قرابة رسول الله القريبة لم يجد الناس غضاضة في المضىّ على أمرهم بالجد فى نقض بناء دولة بنى أمية حتى هوى شامخه وانهار باذخه.

غفل الزمان برهة عن العلويين فحم ذلك الدم الذى كان مطلولا وقوى الضعيف وكبر الصغير وفى أنفسهم من أمر الخلافة ما فيها ، واشتد وجدهم على تراث لم يخرج من يد ناهب إلا ليحصل في يد غاصب أشد قوة وأعضل نابا. فلما آنسوا من أنفسهم بعض القوة وأحسوا بشىء من القدرة على المطالبة لم يلبثوا أن نصبوا أنفسهم حرباً لبنى العباس يشادُّونهم حبل الخلافة. فعادت الحرب العوان إلى حالها الأولى ، وشبت بين الفريقين نار العداوة والبغضاء واستحر القتل فى العلويين ومزقوا كل ممزق لا تعطف بنى العباس عليهم أواصر القربى ولا تثنيهم عن الفتك بهم

لحمة النسب. وكـان للمنصور والرشيد والمتوكل أيدٍ قاسـية فى أخذ العلويين بالعنف وتناولهم بالعسف حتى كان مجـرد اتهام أى رجل من الناس بالميل إلى العلويين كافياً لاستباحة دمه واستلال روحه من بين جنبيه لا يشفع له فى ذلك نباهة قدر ولا ارتفاع ذكر. وقـد كان استواء أحـد العلويين فى بلد قصى على عـرش الخلافة مـغرياً لبنى العباس باستلال نفسه وإخمـاد أنفاسه فر بعض العلويين إلى إفريقية لما رأوا أن السيف يجتاحهم ، وشيعتهم تضـعف عن حمايتهم وحقن دمائهم ، وبعض آخر إلى المغرب الأقصى قبل ذلك. لانتبـاذ هذين القطرين عن مركز صولة العباسـيين وسهولة العمل فيهما لبـعدهما عن النجدة والإغاثة وظاهَرهم على ذلك فى الخفاء أتباعـهم وشيعتهم بتلك الأقطار. فـاطمأنت بهم الحال وأخـذوا الأمر على هينته ومـا زالوا دائبين على العمل حـتى أسسوا الدولة الفاطمـية فى إفريقـية والدولة الإدريسية بالمغـرب الأقصى قبلها. ثم كان لهم دولة أخرى من ملوك الطوائف بالأندلس ببطليوس.

وقد امتدت الدولـة الفاطمية من إفريقيـة إلى مصر والشام وقد قويت شـوكتها واشتد بأسها ، أيام ضعف الدولة العباسـية وانقسامها إلى ممالك بأيدى الترك والديلم وغيرهم. إلى أن انتـهى أمر الدولة الفاطميـة على يد صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة ٥٥٦ هـ.

بقى أمر الدولة العبـاسية يضؤل إلى أن أزيلت من بغداد في خلافـة المستعصم العبـاسى سنة ٦٤٥ هـ على يد هولاكـو خان حين اجـتاح فى طريقه ممـالك الإسلام بنواحى تركستان وفارس وبغداد.

كانت مصر من الممالك التابعة للدولةالعـباسية التى لم يمسها المغول فى إغارتهم فلما دالت دولة بـنى العباس ببـغداد وصل إلى مصـر أحد العـباسيين فـاراً من وجه التتار، واسمه أحمد ابن الخليـفة الناصر لدين الله بن المستنصر العباسى فى سنة ٦٥٩ هـ أيام سلطنة ركن الدين بيـبرس. فـأثبت نسبه وبـايعه السلطان وأهل الحل والعـقد بالخلافة، ثم خرج الخليفة لمقاتلة التتار والعودة إلى بغداد فقتل ولم ينل ما أراد.

وفى سنة ستين وصل إلى مـصر الإمام أحمد بن على بن أبى بكـر ابن الخليفة

المسترشد العباسى وأثبت نسبه فبـايعه السلطان والقضاة وأهل الحل والعقد بالخلافة ، وهو جـد الخلفاء بمـصر إلى أن جـاءت سنة ٩٢٣ هجـرية دخل السلطان سليم شـاه العثمـانى مصر وأزال دولة المماليك. وكان الخلـيفة العباسى بمصـر هو الإمام المتوكل على الله محمـد بن المستمسك بالله يعـقوب فأخذه معـه إلى الأستانة هو وولدى ابن عمه خليل وهما أبو بكر وأحمد ، وبذلك انتهى أمر الخلافة العباسية بمصر.

جاء البيت العثمانى التركى واسـتولى على ممالك كثيرة من ممالك الإسلام ودان للقـائم من العثـمانيين بالـطاعة أهل تلك المـمالك وخفت صـوت الخلافـة. وادعى ملوكـهم على طول الزمان أنـهم خلفاء المسلمين ويـدعى لهم الناس أن آخر الخلفـاء العبـاسيين نزل للسلطان سليم عن الخلافـة وبايعه بها ، وهو كـلام لم يثبت. ولكن القوم نفذت كلمتهم فيمـا تحت أيديهم من الأقطار الإسلامية وشهروا بأنهم الخلفاء ، وعرف أكثر أهل بلاد الإسلام هذه السمة وأذعنوا لها فهى خلافة بالفعل عقدت البيعة بها للشوكـة والقوة إذ كانوا أقدر أهل الإسلام علـى حماية البيضـة وتنفيذ الأحكام. وهذا هو العلة التى استحقت بها قريش الخلافة فى أول الأمر.

بقى أن أقول أن ما يدعيه أهل البيت من استحقاقهم الخلافة بالإرث دعوى غير صحيحـة لا مؤيد لها من عقل ولا شرع. أما العقل فـإن هذا الأمر مناطه رعاية أمر المسلمين على شئونهم العامة على نحو ما بينا فيما سبق يتولاه من يصلح له ويضطلع بأمره. والله لم يجـعل أمر المسلمين ومصـالحهم إرثاً لأحد. وهـذا الكتاب بين أيدينا خـال من دعواهم ، وهذا على لم يدّع الوصـاية من رسـول الله على المسلمين طول حياته ولم يحـتج بعهد رسول الله إليـه بالأمر. وأما الشرع فـقد ورد عن رسول الله صلى الله عليـه وسلم أنه لم يقبل مـن هوذة بن على أن يكون له الأمر من بعـده بل قال : **"الأمر لله يضعه حيث يشاء"**. ولو كان الأمـر لذوى قرابته لجـاء به قرآن ، أو لنص عليه رسول الله ، أو احتج به علىٌ رضى الله عنه

وما كان أبو بكر ليتمادى على اغـتصاب الأمر من أهله ويطرح قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ظهريا بعد ثبوته لديه وتحققه عنده.

شكل الانتخاب

لم يرد فى الكتاب أمر صريح يستبين به الشكل الذى يجب على المسلمين عمله إذا انتخبوا خليفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم سوى الأوامر العامة التى تتناول أمر الخلافة وسواه مثل وصف المسلمين بقوله : ﴿**وأمرهم شورى بينهم**﴾ ولم يرد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بيان نظام خاص يتبعه المسلمون فى انتخاب من يلى أمورهم.

والذى يلوح لى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أراد أن لا يضع للمسلمين شيئا إن وافقهم اليوم ولاءم حالهم فقد لا يوافقهم إذا تبدلت الأحوال وتغير مزاج الأمة. فلم يشأ أن يرهقهم بأمر يشرعه لهم تكون فيه مظنة المشقة عليهم فى يوم من الأيام فوكل ذلك إلى فطنتهم وما لهم من عقل يحلونه فى كل آن بالحل الذى يناسبه زمانهم ومكانهم.

أما طرقهم التى ساروا عليها فهى :

(١) **الطريقة الأولى** : طريقة الانتخاب الاستشارية ، وهى التى اتخذت فى انتخاب الخليفة الأول أبى بكر الصديق رضى الله عنه. ذلك أن الأنصار اجتمعوا فى سقيفة بنى ساعدة يجيلون الرأى فى تولية خليفة بعد رسول الله فى اليوم الثانى من وفاته. وعلم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح من المهاجرين بأمر أصحاب السقيفة وخافوا أن يبت القوم أمراً فيما بينهم يكون فيه تفريق الجماعة أو ما لا يحب المهاجرون ، فأسرعوا إليهم وبعد حوار بينهم والمراجعة على مشهد من الملأ تم انتخاب أبى بكر. ولم يحضر هذا الأمر من المهاجرين سوى الثلاثة الذين ذكرنا لأن القوم كانوا بين واجم لوفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم غير مفكر فى شىء آخر، وبين مشتغل بتجهيزه ودفنه كعلى وبنى هاشم. وإنا تم الأمر على هذا الوجه خشية اتساع الخرق بين المهاجرين والأنصار وتنازعهم فى استحقاقه ، فأراد أبو بكر وعمر عدم انتشار الأمر والعمل بالحزم قبل خروجه من أيديهم.

وقد نظر المجتمعون فى السقيفة فلم يجدوا من السابقين الأولين من المهاجرين الحاضرين بالسقيفة من هو أحق بها وأهل لها سوى أبى بكر لأنه رفيق رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الغار وصديقه ، وقد قدمه رسول الله للصلاة بأصحابه وهى من أهم المناصب وأغلاها قيمة ، كان عمر حريصاً على الإسراع فى جمع الكلمة فمد يده لمبايعة أبى بكر ثم تبعه الناس بعد ذلك ولم يخالف عليه سوى على وفاطمة كما قلنا فيما تقدم وسعد بن عبادة الأنصاري.

يرى المطلع على الشكل الذى حصلت به بيعة أبى بكر أن الاستشارة في أمرها كانت ناقصة نقصاً ظاهراً لأن المعقول فى مثل هذه الحال أن يتخذ المسلمون مكاناً يجتمعون فيه وأن يؤذن الناس به من قبل ؛ غير أن حرص عمر بن الخطاب على الإسراع فى الأمر والمبادرة إلى لمِّ شعث المسلمين جعله يتم على هذا الوجه ، وقد أثر عنه أنه قال : ان بيعة أبى بكر كانت فلتة ولكن وقى الله شرها.

(٢) **الطريقة الثانية** : طريقة العهد من الخليفة إلى آخر فى الأمر من بعده ؛ وهذه هى الطريقة التى سار عليها أبو بكر رضى الله تعالى عنه فى انتخاب عمر ابن الخطاب للخلافة من بعده بعد أن آمر الناس فوافقوه على الرضا بمن عهد إليه واختاره لولاية أمرهم وقد أعلمهم من هو الذى اختاره.

هذه الطريقة صادفت أن وقع الاختيار من أبى بكر على خير من يكون خليفة المسلمين وأشدهم صرامة فى الدين وأكثرهم تحرياً للعدل ، غير أنها طريقة خطرة إذ لا ثقة لأحد بأن يكون كل خليفة محسناً للاختيار كأبى بكر رضى الله تعالى عنه فلا يمكن أن يأمن الناس مغبتها لما فيها من احتمال الخطأ فى الاختيار.

(٣) الطريقة الثالثة - طريقة الاختيار الشورى ، بأن يعين الخليفة فى حياته أفراداً لينتخبوا من بينهم خليفة ؛ وهذه الطريقة التى جرى عليها انتخاب عثمان بن عفان للخلافة. وذلك أن عمر رأى بعين بصيرته أن سادة الناس وقادتهم الذين يتطلعون إلى الخلافة ولا يؤمن انتقاض باقيهم إذا عهد إلى أحدهم على طريقة أبى بكر معه هم القوم الذين عينهم ليختاروا واحداً منهم ويخشى على المسلمين أن تفترق

كلمتـهم إذا افتـرقت بهؤلاء القوم لأن المـسلمين لهم تبع. فأراد أن يعـفى الأمة من تشتيت الآراء ورد الأمر إلى هؤلاء النفـر الذين يخاف على المسلمين منهم ولا يخاف عليهم من المسلمين. وكانوا ستة ووضع لهم نظاماً يسيرون عليه فى اختيار الخليفة من بينهم. وذلك أن يجتمعوا بعد وفاته فى حجرة عائشة رضى الله تعالى عنها ويختاروا الخليفـة فى مدة لا تزيد على ثلاثة أيام وحـتم عليهم الأخذ برأى الأغلبـية وأن على الأقل الانصياع إلى ما رأوه ومن أبى وخالف اسـتحق القتل ، وإذا تساوت الأصوات أخذوا رأى عبـد الله بن عمر على أن لا يكون له من الأمـر شىء فلا يصح أن يكون منتخباً. فـإذا لم يرضوا برأى عبد الله بن عمر كان الراجح رأى الجمـاعة الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف.

وهذه الطريقة مـبدأ نظام صالح لو تناولـها المسلمون بالتـحسين، وإن لم تكن وافية بكل غرض. وما سنّة من بقاء القـوم ثلاثة أيام لانتخاب واحد منهم يشبه بعض الشبه مـا يفعل اليوم فى اختـيار خليفة للبـابا إذا مات. فإنهم يجمـعون الكرادلة فى مكان واحد يمنعونهم الأكل والشرب إلى أن ينتخبوا منهم البابا الجديد.

ومن نظر إلى هذه الطرق الثلاث التى جـرى عليها انتخاب الخلفـاء لم يجد ما يمكن أن يكون نظاماً مستوفى ولم تلـزم الأمة بشىء من ذلك إذ لم يعرف في القاعدة الأولى من لهم حق انـتخـاب الخليـفـة : أهم الأمـة بأسـرها ، أم هم أشـخـاص مخصوصون. وإذا كانوا أشخاصا مخصوصين فمن هم ؟ وما هى الصفات التى يلزم توفرها فيهم ؟

يقول شـراح قاعدة الانتـخاب الأولى : إن الذين لهم حق الانتـخاب هم أهل الحل والعقد وهو أمـر غير مدرك الحدود ، لأن سـامع هذه الكلمة لا يدرى من أهل الحل والعقد ؟ هل هم قـواد الجيوش ، أم ولاة الأمصار ، أو أعيـان الأمة ، أو غير هؤلاء من العلماء والقضاة وغيرهم ، وذلك لم يبين. وعلى ذلك فمن فى نفسه بقية من التطلع إلى الخلافـة يجد مجالا للطعن على خـلافة من يعين بها كمـا حصل من معاوية عندما ولى علىّ الخلافة.

أما الطريقة الثـانية فقد بينا ما فيـها من الخطر ، وما قد يعتـرى العامل بها من الخطأ.

وأما الطريقة الثالثة فهى عبارة عن أن يعهد الخليفة إلى واحد لا يعينه من أناس محصورين يختارهم الإمام. وهى مساوية للطريقـة الثانية وليس كل عصر عصر عمر ، ولا كل خليفة ينظر للأمة نظر عمر.

بويع بعد ذلك لعلى بن أبى طالب بالمدينة حين قدم عليـها الثوار وأهل الشغب من أطراف بلاد الإسلام فقتلوا عثمان وبايعوا علياً وبايعه حاضرو المدينة من أصحاب رسول الله والتـابعين. فوجد بعض أهل البـلاد الأخرى مطعنا على خـلافة على ولم يرضـوا بما رضى به الناس ، ورأوا أنفـسـهم فى حل من منابذته إذ لا بيـعـه له فى أعناقهم ، وأن البـيعة لم تلزمهم بفـعل أهل المدينة. والأمة لم يسبق لهـا أن سمعت احتجاجا كـهذا ، بل كان الخليفة يولى بالمدينة فيطيعه أهل الأمـصار فكان هذا حجته عليهم ، وقد يقال إن فى هذا المذهب إهداراً لأصـوات أهل الأمصار وغيرهم النائين عن المدينة ، وهم بلا شبـهة من أهل الحق والعقد ، وقد يكـونون عدد الناس والأمر لم يوضع له نظام. وهذه الجمل تجد لها مساغاً إلى الأسماع ومنفذاً إلى النفوس.

نبت هذا الرأى فى الشام ووجد تربة صالحـة فنما وأثمر ، وقام على رضى الله عنه لتأييد رأيه وتثبيت بيعته والتـقى الجمعان بصفين وعلى يحمل على يده قرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ومـا يستمسك به من بيعة وفود الأمـصار وحاضرى المدينة ، فلما لفحتهم الحرب بسمومها لجأوا إلى التحكيم فيما شجر بينهم من الأمر، فانتخب كل فريق رجلا لينظر الرجلان فيما شجر بين المسلمين.

والذى أراه أن القوم كـانوا حديثى عهد بالتـوثيقات ووضع الأنظمـة فلم يحدد موضع الـنزاع تحديداً كافيـاً شـافيـاً ، ولم يبين مرجع الحكم بيـاناً يرفع النزاع ، بل وضعوا عقد التحكيم بألفاظ عامة يجد من يريد المخالفة ألف سبيل وسبيل لتأويلها ، فكان هذا التحكيم أشبه باللهو واللعب.

تجاوز الحكمان ما عينا لأجله من الحكم فى الأمر الذى دهم فريقى المسلمين وتكلما فى خلع كل واحد من الحكمين صاحبه ، وكان للخداع والدهاء أكبر حظ من النجاح إذ انفرط عقد جند علىّ ونشز عليه أصحابه ولم يزل معاوية جميع الأمر.

أما أصحاب معاوية فقد رضوا بهذه النتيجة التى آلت إلى تثبيت صاحبهم فى مركزه وخلع على من الخلافة.

وأما أصحاب على ففريق تثاقل عن نصرته ، وفريق خالف عليه وعلى معاوية ورأوا أن التحكيم الذى كانوا يرونه واجباً من قبل إنما هو ضلالة ومروق من الدين ، أولئك القوم هم الخوارج. فقد نصبوا أنفسهم لعداوة على ومعاوية معاً واتخذوا لهم شعاراً هو قولهم : لا حكم إلا لله. وصاروا يبنون عذرهم فى مفارقة على ومجاهرته بالعداوة على مقدمات يزينونها ويخلصون منها إلى تكفيره وتضليله ، ووجوب التوبة عليه حتى يعودوا إلى متابعته على أمره.

فيقولون : إن الخليفة المختار معين من الله تعالى ، فلا ينبغى له أن يشك فى أمره.

ولما كان على هو الخليفة الحق وقد حكم الناس فى أمره فقد شك ومن شك فقد ضل ومن ضل لا يصلح للخلافة. وبعضهم يوجب استتابته وتجديد إسلامه. وأما معاوية فلما تعرض لما ليس له بحق فقد ضل فلا يصلح للخلافة.

انتبذ هؤلاء القوم ناحية وروجوا مقالتهم بين الناس فنما عددهم وكونوا لهم جماعة أعطوها الحق فى انتخاب الخليفة. وأذاعوا فيمن ضوى إلى رأيهم أن مخالفيهم فى الرأى كفار ، واستباحوا دماء الناس وأموالهم ، واندفعوا يقتلون بلا رحمة ولا شفقة. ولم يكن لدعوتهم حدود معينة ، ولا معالم ينتهون إليها ، ولا غاية يبغون الوصول إليها. فانتشر أمرهم واختلفت كلمتهم وجدّ الخلفاء فى استئصالهم وتتبعوهم بين سمع الأرض وبصرها ، وانهالوا عليهم بما عندهم من حول وطول حتى قطعوا دابرهم وأبادوهم بعد حروب حاصدة ووقائع تشيب لهولها الولدان. ولم يعد على

الإسلام من عـملهم منفعـة ، ولم تجن الأمة سوى الويلات والحـرب. ولم تزل لهم بقية إلى اليوم بالمغرب وجزيرة العرب وسواحل المحيط الهندى.

وعلى كل حال فقد انتـهى الأمر باستقرار معاويـة فى الخلافة ومضى على إلى ربه وكان الفوز للسياسة والدهاء. وهنا نقول : لو كـان للخلافة قانون متبع أو قاعدة يجب السيـر عليها فـى انتخاب الخلفـاء لوقى المسلمون التهـوّر فى هذه المزال الخطرة ولساروا على الجادة.

وليس للمؤرخ من حيث هو مؤرخ أن يرجح إحـدى البيعتين على الأخرى لأن كلا من الرجلين قـد بايعه جمع من المسـلمين ولم يتـخط فى عمله حدوداً مـرسـومة يعد مـتجـاوزها ظالما. أما كـون أحد الرجلين أولى من الآخـر لميزات خـاصة ، أو صفات جليلة لا توجد فى الآخر فهذا أمر آخر مناطه التقدير. وينبغى لمن يبت فيه أن يرجع إلى الأوصـاف التى تشترط فى الخـليفة ليـرى أى الرجلين أكثـر جمعـاً لتلك الصفـات. ولما لم يكن فى الشـرع بيـان لشىء من هذا رجع الأمر إلى تكافـؤهما فى القوة وكثرة الأعوان والأنصار ، وهى الأمور الطبـيعية التى لا ينبغى غض النظر عنها كما قدمنا.

استتب الأمر لمعاوية وهو أول خلفاء بنى أمية وكان حريصاً على أن يكون الأمر فى بيتـه فأخذ للأمر عدتـه وأوفد ولاة الأمصار فى حيـاته واستشارهم فـى انتخاب خليفة يلى أمر الناس بعده ، معللا احيتـاطه هذا بخوفه على المسلمين أن تفشوا فيهم الفتن. وقد كان بعض الولاة يعلم ما يرمى إليه فبـادر إلى قصده وحسن له أمر تولية ابنه يزيد ولاية العهـد واتفق بقية الـولاة ومن معهم على هذا الأمـر وكتب له بذلك العهد. وقد اتخذ هذا السبيل غيره من بنى أمية يعهدون بالأمر من بعدهم لأبنائهم أو إخوتهم أو أبناء عمومـتهم. وقد كان معاوية يحاذى فى فـعله ماكان من أبى بكر فى تولية عمر من بعـده ، غير أنه لا مناسبة بين الفعلين فـإن معاوية إنما آثر ولده وحاباه لمكانه من الاتصال به. وأمـا أبو بكر فإنه لم ينظر فى عملـه إلا لمصلحة المسلمين ولم يؤثر بالأمر نسيباً أو قريباً لنسبه أو قرابته ناهيك أن معاوية - بإيثاره ولده يزيد وتخطيه

فى عمله رقاب جلة الصحابة والتابعين وأصحاب السابقة والفضل من الأمة - أوجد فى عمله مغمزاً للطاعنين وأفسح الكلام لأهل الأقاويل ، فنبه بعمله هذا المطامع النائمة فهبت ريح الثورات بعد موته ، وقام الطامعون فى الخلافة ينازعون يزيد حبلها إلى أن مات والأمر على حاله ، وقد عهد إلى ابنه معاوية الثانى بالأمر بعده ، وكان رجلا ضعيف النحيزة مشتغلا بالعبادة فألقى الأمر إلى المسلمين يختارون من شاءوا إلى أن استقرت فى مروان وبنيه وقد ساروا فى أمر الخلافة سيرة معاوية ؛ ربما عهد الواحد منهم بأمر الخلافة إلي واحد من أولاده أو اثنين منهم أو واحد منهم وآخر من بنى عمومته ، وقد جرت سنة الله تعالى أن لا يلى ولاة العهد اثنان إلا جر ذلك نزاعاً وشقاقا. فإن أولهما كان يميل إلى نزع الأمر من ثانيهما لاعتقاده أنه يحدث نفسه فى تعجل الأمر لنفسه ، أو لأن الأول يؤثر ابنه على أخيه فهو يريد إزالته وتنحيته عن ولاية العهد بكل سبيل ، أو بغير ذلك من الاعتبارات. فقد جهد عبد الملك فى تأخير أخيه عبد العزيز والإفضاء بالأمر من بعده إلى ابنه الوليد وولى سليمان بن عبد الملك عمر بن عبد العزيز ثم أخاه يزيد ولاية عهده ، فكان عمر يتألم من أن يلى يزيد أمر المسلمين من بعده. ولولا أن عاجلته المنية لأخرجه من ولاية العهد وعهد بها إلى رجل من غبر بنى أمية. والأمثلة سوى هذه كثيرة.

ذهبت بعد ذلك الدولة الأموية لطيتها وجاءت الدولة العباسية ، فترسم العباسيون فى ولاية العهد خطوات بنى أمية حقبة من الدهر ، إلى أن ذهب شبابها ووافاها دور الضعف والهرم وصار الخليفة ليس له من الخلافة سوى الاسم والأمر فى كل شيء أيدى المتغلبين من الوزراء والقواد والملوك الذين انتقصوا الدولة من أطرافها وأقاموا لهم منها ممالك قبضوا بأيديهم على أعنتها ، فكان أمر الخلافة فى أيدى هؤلاء المتغلبين وليس للخليفة معهم صرف ولا عدل.

لم يحفظ الخلافة الاسمية في ذلك الزمان فى البيت العباسى إلا ما وقر فى نفوس الناس أن حكم الحاكم لا يكون إلا بعهد من الخليفة ليكون عمله وحكمه جارياً على مقتضى الشرع الشريف. فكان الخليفة يولى في مكانه ليعطى الحكام

والملوك العهود التى تكسب عملهم الصفـة الشريعة. ولم يكن بين المسلمين فى ناحية بغداد بيت يسامى البـيت العباسى فى نباهة الشأن لما كـان له من قديم الملك ، ونفوذ الكلمـة والسطوة ، فهذا النـفوذ يمتد سلطانـه لكل شىء قديم ، والروعة الـتى لهذا البيت بحكم الاستمرار ، وعدم حـاجة الملوك إلى تغيير هذا الطراز من الخلفاء الذين يرضون بالاسم من الخلافة ولا يعارضون في شيء من أمور الملك. أقول : لولا هذه الاعتبارات لزالت الخلافه فى تلك الأيام ولم يبق لها اسم ولا رسم.

جاء الملوك من أهل البيت العثمانى التركى وانتحلوا اسم الخلافة بعد فتح مصر سنة ٩٢٢ هـ بزمن طويل والقوم قـد رتبوا أمر الملك وجعلوه لأكبـر موجود من أهل ذلك البيت ، فصار هذا النظام متبعاً فى شأن الخليفة منهم إلى أن جاء مصطفى كمال باشا وألغى الخلافة من البـلاد في شعبان سنة ١٣٤٢هـ[1] وقد أدى هذا الترتيب إلى منازعات كثيـرة سفكت بسببه دماء غزيرة من أهل ذلك الـبيت ، فإن بعض ملوكهم كان يعمد بعد توليته إلى استـئصال إخوته وذوى قرابته ليخلص الملك لبنيه. ولكن لما كان لهم نظام يسيرون عليه فى شأن من يلى الأمر ، فقد حفظ أمر الخلافة والملك فى هذا البيت إلى العهد الأخير.

أما الذين يقـولون بأن الخلافة حق من حـقوق أهل البيت العلوى فـإنهم كانوا يجرون عليها حكم الوراثة فيجعلون الخليـفة أحد أبناء الخليفة المتوفى ويخصون بذلك أكبرهم وقـد ساقت الفرقة الاثنى عشـرية (وعلى مذهبهم جمهـور أهل فارس اليوم) الخلافة فى بنى الحـسين بن على ، وسموا علياً ومن يليه الأئمة ، وكـانوا اثنى عشر آخرهم المهدى المنتظر الذى تغيب بسـرداب بدارهم بالحلة وأنه يجىء آخر الزمان ويملأ الأرض عدلا كما ملئت جوراً.

ولغير الاثنى عشرية طرق أخرى فى سوق الخلافة. وعند الشيعة فى تفصيلاتها اختلاف كبير يخرجنا تتبع الكلام فيه عن القصد.

* * *

(١) مارس ١٩٢٥.

للأستاذ الخضرى كلمة جليلة فى إحدى محاضراته ساقها فى أمر الخلافة ، وما كان بين علماء الإسلام من البحوث المختلفة فى شأنها نسوقها مع بعض تغيير كلما رأينا لزوماً لذلك من زيادة ايضاح أو نحوه ، قال :

لم يكن يُحَلُّ الخلاف فى زمن من الأزمان إلا بالقوة فهى التى تجعل صاحبها صاحب الحق. والناس فى كل زمان يؤلهون القوة ويجعلون باطلها حقاً ويحقرون الضعف ويجعلون حقه باطلا.

تناول العلماء في الدولة العباسية مسألة الخلاف وأدخلوها ضمن مباحث العقائد الدينية. ويخيل إلينا أن أول من وضعها هذا الموضع كان يرى رأى الشيعة فإن الخلافة عندهم من أمور الدين ثم جر إليها المتكلمين وصار أمرها موضوعاً جدلياً كغيره من المسائل الدينية ، وكان النزاع يدور بينهم على ستة أمور.

٢- وجوب نصيب الإمام "أهو واجب على الأمة من طريق السمع كما هو رأى الجمهور ؟ أو من طريق العقل كما هو رأى المعتزلة والزيدية ؟ أو من طريقهما معاً كما هو رأى بعض المعتزلة (وأرانى إلى هذا أميل)[١] أو على الله لحفظ قوانين الشرع كما هو رأى الإمامية ؟ أو على الله ليكون معرفاً لله وصفاته كما هو رأى بعض الإسماعيلية ؟ أو لا يجب كما هو رأى بعض الخوارج ؟ أو يجب عند الأمن لا عند الفتنة كما هو رأى هشام الفُوَطى وأتباعه ؟ أو يجب عند الفتنة دون الأمن كما هو رأى الأصم ومن شايعه من المعتزلة !

٢- شروط الإمام ؛ وقد ذكروا شروطاً لاخلاف فيها وهى : أن يكون شجاعاً ليغزو بنفسه ويعالج الجيوش ويقوى على فتح البلاد ويحمى البيضة. وأن يكون أهلا للقضاء ؛ بأن يكون مسلماً مكلفاً حراً ، عدلا ، ذكراً ، مجتهداً ، ذا رأى وسمع وبصر ونطق. ومنها شروط فيها خلاف ؛ كالقرشية عند الجمهور ، والهاشمية عند الشيعة ، والعلم بجميع مسائل الدين ؛ وظهور معجزة على يده عند بعض الشيعة.

---

(١) كلام المؤلف.

ولما رأى القاضى أبو بكر الباقلانى ما عليه عصبية قريش من الاضمحلال واستبداد ملوك العجم على الخلفاء أسقط شرط القرشية ، وإن كان رأيه هذا موافقاً لرأى الخوارج. وقد بقى الجمهور على اشتراطها وصحة إمامة القرشي ولو كان عاجزاً عن القيام بأمور المسلمين.

وكأنى بأهل هذا الرأى يرون أن الخلافة التى أوجب الشرع إقامتها يكفى فى سقوط الإثم باتخاذها على السبيل الذى تتخذ عليه الآثار القديمة والعاديات فى المتاحف ، ولا أخفى عليكم أن هذا ليس معجباً لى ولا تميل إليه نفسى.

٣- ما تثبت به الإمامة ؛ وهو النص من رسول الله صلى الله عليه وسلم أو من الإمام الموجود وبيعة أهل الحل والعقد ، خلافاً للشيعة. ثم قالوا : لا يحتاج الأمر إلى إجماع أهل الحل والعقد بل يكفى الواحد والاثنان ، وقال بعضهم : لابد أن يكون ذلك أمام بينة عادلة. وهل يجوز تعدد الأئمة أو لا يجوز ؟ وهل يجوز خلعه ولأى شيء يكون ؟

ولا يخفى أن وجوب الأخذ ببيعة واحد أو اثنين فيه خطر وافتيات على أهل الحل والعقد ، والمعقول أن يكون ذلك باتفاق أكثر من حضر منهم على البيعة. وأما جواز تعدد الأئمة ففى النفس منه شيء ، مهما احتج المجيزون له بترامى الأطراف واحتياج البلاد النائية إلى قوة تضبط نواحيها وتؤمّن فجاجها ونحو ذلك من الحجج لأن هذا يحصل باختيار الكفاءة من الولاة.

أما الإمام إذا بويع فإنه لا يجوز خلعه لنحو فسق لما فى مفارقة الجماعة بالخروج على الإمام من الخطر وسفك الدماء والمفاسد. ولكنه إذا كفر فلا رخصة فى الإبقاء عليه بل لابد من خلعه. ومثل ذلك إذا جن.

ولا يذهبن عليكم أن القول بعدم خلع الإمام بالفسق قول لكثير من أصحاب رسول الله عليه السلام ، فقد كان جمهور المسلمين على هذا الرأى فى خلافه يزيد وكثير من الصحابة يساكنونه فى بلده ولم يحركوا ساكناً بعزله حتى بعد أن قتل

الحسين وهو سبط رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وفريق يرى خلاف هذا الرأى كالحسين بن على ومن تابعه وذلك اجتهاد منهم.

٤- من هو الإمام الحق بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ أهو أبو بكر أم على ؟ومعلوم أن الجمهور من المسلمين يقولون : إنه أبو بكر. وأما الشيعة فيقولون : إن علياً معين من قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل وفاته. ويدعون لذلك حديثاً هو أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لعلى : "أنت أخى ووصيى وخليفتى من بعدى" وأنا لا أذهب بكم بعيداً ، بل أقول : إن رسول الله لو كان قد قال هذا القول لاحتج به على يوم بويع أبو بكر واستشهد على ذلك بالمسلمين وإنى لأربأ بعلى رضى الله عنه أن يكون قد عمل على خلاف أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فبايع أبا بكر وهو ليس بالإمام الحق ثم بايع بعد ذلك عمر ثم عثمان.

٥- من هو أفضل الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ ومعلوم أن جمهور المسلمين على أنه أبو بكر الصديق. والشيعة على أنه على بن أبى طالب.
وأما نحن فنقول : علم ذلك عند الذى يعلم سرهم ونجواهم وبيده تقليب قلوبهم له الحكم فى ذلك وهو على كل شىء شهيد.

٦- ما حكم إمامة المفضول مع وجود الفاضل ؟ ولا شك أن الجمهور يقولون بأن الإمامة تكون حينئذ صحيحة وحجتهم رضا الصحابة رضوان الله عليهم وسكوتهم على بيعة يزيد بن معاوية مع وجود من يفضله منهم ومن التابعين. وأما الشيعة فيقولون بعدم صحة بيعته.

وعلى الجملة كانت هذه المناقشات مع حدتها وغوصها على معان جميلة شريفة فى بعض الأحيان ، عديمة الجدوى من الوجهة العملية ، لأن هؤلاء يتجادلون بأسنة الأقلام فى مدارسهم وعلى صفحات كتبهم ، وأولئك يحكمون حد الحسام ولا يلقون بالا لتلك المناقشات كأن شأنها لا يهمهم.

و(السيف أصدق أنباء من الكتب * فى حده الحد بين الجد واللعب)

والخلاصة أن مسألة الخلافة الإسلامية والاستخلاف لم تسر مع الزمن فى طريق يؤمن فيها العثار ؛ بل كان تركها على ما هى عليه من غير حل بيِّن الحدود ترضاه الأمة وتدافع عنه سبباً لأكثر الحوادث التى أضنت المسلمين وأوجدت ما سيرد أمام أعيينا من أنواع الشقاق والحروب المتواصلة التى قلما خلا منها زمن سواء كان ذلك بين بيتين أو بين شخصين" ا هـ. من محاضرات الخضرى بزيادة وتغيير.

نوع الحكم فى الخلافة الإسلامية

إذا نحينا جانبى الإفراض والتفريط فى شأن الخلافة الإسلامية واتخذنا رأى الجمهور نظاماً للحكم فى الخلافة ظهر لنا بذلك نوع غريب من أنواع الحكم

إن الحكومات التى عرفت إلى اليوم أنواع :

١- حكومة يكون الملك فيها مستبداً ، أمره قانون متبع وشرع مطاع لا يراجعه أحد ولا يستشير أحداً. وهذه هى الحكومة الاستبدادية ويسمونها : (حكومة أوتوقراطية) أى حكومة ذاتية.

٢- حكومة ينتخب الملك فيها من بيت خاص سواء كان ذلك على نظام متبع أولا. والملك فيها ليس مقيداً باتباع مجلس من المجالس ، مع وجود مجالس للتشريع وسنّ الأنظمة وإبراء الرأى فى مهام أمور المملكة. وأعضاء هذه المجالس تنتخبها الأمة على قاعدة متبعة ، كانت الحكومة (ارستوقراطية) أو حكومة الأعيان.

٣- إذا كان الملك ينتخب من بيت خاص ، ولكنه لا شأن له بأمور المملكة سوى إمضاء المعاهدات والأوامر ، وأما شئون المملكة فالذى ينظر فيها مجالس تنتخبها الأمة ، ولا يتأتى للملك أن يبت فى أمر إلا بعد عرضه على تلك المجالس وإبراء الرأى فيه وما يستقر عليه رأى المجلس يمضيه الملك ، كانت حكومة شعب ويعبر عنها بقولهم : (حكومة ديمقراطية) وتارة يعبرون عنها بحكومة شورية.

٤- حكومة يكون فيها الرئيس منتخباً من بين الشعب دون بيت خاص ، ويكون انتخابه بواسطة مندوبين من الأمة على نظام خاص لمدة معينة - كثلاث سنين

أو خمس سنين - ومعـه مجالس تنوب عن الأمة ينتخب أعـضاؤها بواسطة الأمة ، تنظر هذه المجالس فى كل شىء والرئيس مقيد بأمرها لا يبت شيئا دونها وليس له إلا إمضاء القوانين والأوامر التى استقر عليها رأى المجالس بمقتضى الدستور المتبع ويمضى المعاهدات الـدولية ونحوها ، وليـس له تصرف فى ماليـة الأمة أو نظامـها ، فـهذه تسمى : (حكومة جمهورية).

* * *

أما الخلافة الإسـلامية وإن اختص الخليفة بأن يكون من قـريش ، ولكن قريشاً بيوت كثيرة جداً ، فهى أشبه بأمـة ولا يختص بالخلافة بيت من بيوتها دون بقيتهم ، وأيضاً فإن الذى ينتخبه رجال الحل والعقد ، وهم جمهور ذوى الرأى فهى من هاتين الجهتين تأخذ شبها من الحكومة الجمهورية.

ومن حيـث إن الخليفـة يلحظ فى انتخـابه الدوام دون أن يكون ذلك إلى زمن معين يكون معزولا عن الخلافة بانقضائه ، تأخذ شبها من الحكومة الملوكية.

ومن حيث إن الخلـيفة مـقيد فى اتبـاع أحكام نصوص الكتـاب الكريم والسنة النبوية ، وأن يقاس النظير على نظيره فى الحـوادث وما أجمع عليه أهل الحل والعقد بما ليس فى كتاب ولا سنة ولم يوجد له نظير يأخذ حكمه ، وليس له أن يضع شرائع من تلقاء نفسه ، تأخذ شبها من الحكومة الدستورية أو الشورية أو (الديموقراطية).

وحينئـذ يمكننا أن نقول فى تقريب وصفـها مع شىء من التجوز والتـساهل فى التعبير : إنها (حكومة ملوكية موحدة النظام لها بعض الشبه بالجمهورية).

انتخاب أبى بكر

لا يجهل أحد أن الأنصار إنما هم الأوس والخزرج. وهما شعبتان كان بينهما فى الجاهلية ما يندر أن يكون مثله بين بنى أب. وكان الخزرج أكثر عدداً ، وكانت الرياسة لسعد بن عبادة من بنى ساعدة وهو أحد النقباء. وكانت دار سعد مما يلى سوق المدينة وعندها سقيفة كانت بالقرب من داره.

لم يلبث الأنصار بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم أن توافوا إلى سقيفة بنى ساعدة ليدبروا رأيهم فى شأن من يكون خليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يريدون أن يلى هذا الأمر رجل منهم ويزووه عن المهاجرين ، وكان سعد بن عبادة مريضاً فأخرجوه معهم وهو لا يقدر أن يسمع الناس ما يقول فكان يبلغ عنه بعض ذوى قرابته ما يقول فى خطبته يرفع به صوته ليسمع الناس. فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه : "يا معشر الأنصار ، لكم سابقة فى الدين وفضيلة فى الإسلام ليست لقبيلة من العرب. إن محمداً عليه السلام لبث بضع عشرة سنة فى قومه يدعوهم إلى عبادة الرحمن وخلع الأنداد والأوثان ، فما آمن به من قومه إلا القليل ، وما كانوا يقدرون أن يمنعوا رسول الله ولا أن يعزوا دينه ولا أن يدفعوا عن أنفسهم ضيما عُمُّوا به ؛ حتى إذا أراد بكم الفضيلة ساق إليكم الكرامة وخصكم بالنعمة فرزقكم الله الإيمان به وبرسوله والمنع له ولأصحابه والإعزاز له ولدينه والجهاد لأعدائه. فكنتم أشد الناس على عدوه منكم وأثقله على عدوه من غيركم ؛ حتى استقامت العرب لأمر الله طوعا وكرها ، وأعطى البعيد المقادة صاغراً داخراً ؛ حتى أثخن الله عز وجل لرسوله بكم الأرض ، ودانت بأسيافكم له العرب ، وتوفاه الله وهو عنكم راض وبكم قرير عين ، استبدوا بهذا الأمر دون سائر الناس فإنه لكم دون الناس".

فأجابوه بأجمعهم أن قد وفقت فى الرأى وأصبت فى القول ولن نعدو ما رأيت نوليك هذا الأمر فإنك فينا مقنع ولصالح المؤمنين رضى.

ثم إنهم ترادوا فى الكلام بينهم ، فقالوا : فإن أبت مهاجرة قريش فقالوا : نحن المهاجرون وصحابه رسول الله الأولون ، ونحن عشيرته وأولياؤه فعلام تنازعوننا

هذا الأمر بعـد ؟ فقالت طائفة منهم : فـإنا نقول إذاً : "منا أمير ومنكم أمـير" ولن نرضى بدون هذا الأمر أبداً. فقال سعد بن عبادة حين سمعها : "هذا أول الوهن".

بينمـا الأنصار يديرون الرأى على وجـوهه ويترادون الكلام فـيما يجـاوبون به المهاجرين ، نبىء عـمر بن الخطاب بأمرهم وما هم عليه من الاستـشراف لهذا الأمر والتحـفز للبيعـة ، فأقبل إلى منزل رسـول الله صلى الله عليه وسلم وأرسل إلى أبى بكر (وكان مع على رضى الله عنه فى جهاز رسول الله عليه السلام) أن اخرج إلى ؛ فراجعه قائلا : إنى مشتغل بجهاز رسول الله ، فرد عليه عمر بأن قد حدث أمر لابد لك من حضوره. فخرج إليه ، فقال : أما علمت أن الأنصار قد اجتمعت فى سقيفه بنى ساعدة يريدون أن يولوا هذا الأمـر سعد بن عبادة. وأحسنهم مـقالة من يقول : "منا أمير ومن قريش أميـر" ؟ فمضيا مسرعين نحوهـم. فلقيـا أبا عبيدة بن الجراح ، فتمـاشوا إليهم ثلاثتـهم فلقيهم عاصم بن عـدى ، وعويم بن ساعدة. فـقالا لهم : ارجعوا فـإنه لا يكون ما تريدون. فلم يصغـوا إلى قولهما حـتى وافوهم مجتـمعين بالسقيفة وقـد هيأ عمر فى نفسه كلاماً يريد أن يقوم به فـيهم. فلما اندفع إليهم يريد ابتداء كلامه قال له أبو بكر : رويداً حتى أتكلم ثم انطق بعد بما أحببت. ثم تكلم أبو بكر : فلم يدع شيئاً مما فى نفس عمر إلا قاله أو زاد عليه. فكان كلامه بعد حمد الله والثناء عليه أن قال :

"إن الله بعث محمداً رسولا إلى خلقه وشهـيداً على أمته ليعبدوا الله ويوحدوه وهم يعبدون من دونه آلهة شتى ويزعمون أنهـا لهم عنده شافعة ، ولهم نافعة ، وإنما هى من حـجر منجـور. ثم قرأ **﴿ويعـبدون من دون الله مـالا يضـرهم ولا ينفعـهم ويقولون هؤلاء شـفعاؤنـا عند الله - وقالوا - ما نعـبدهم إلا ليقـربونا إلى الله زلفى﴾** فعظم علـى العرب أن يتركـوا دين آبائهم ، فخص الله المهـاجرين الأولين من قـومه بتصديقـه والإيمان به والمؤاساة له والصبر مـعه على شدة أذى قومـهم لهم وتكذيبهم إياهم وكل النّاس لهم مـخالف زار عليـهم فلم يستـوحشوا لقلة عـددهم وشنف[1]

(١) شنف كفرح : نظر إلى الشيء كالمعترض.

الناس لهم وإجماع قومهم عليهم ، فهم أول من عبد الله فى الأرض ، وآمن بالله وبالرسول ، وهم أولياؤه وعشيرته وأحق الناس بهذا الأمر من بعده ، ولا ينازعهم ذلك إلا ظالم ، وأنتم يا معشر الأنصار من لا ينكر فضلهم فى الدين ، ولا سابقتهم العظيمة فى الإسلام. رضيكم الله أنصاراً لدينه ورسوله وجعل إليكم هجرته ، وفيكم جلة أزواجه وأصحابه. فليس بعد المهاجرين الأولين عندنا بمنزلتكم. فنحن الأمراء وأنتم الوزراء لا تفتاتون بمشورة ولا تقضى دونكم الأمور.

فقام الحباب بن المنذر بن الجموح فقال : يا معشر الأنصار ، أملكوا عليكم أمركم فإن الناس فى فيئكم وفى ظلكم ، ولن يجترئ مجترئ على خلافكم ولن يصدر الناس إلا عن رأيكم. أنتم أهل العز والثروة ، وأولو العدد والمنعة وذوو البأس والنجدة. وإنما ينظر الناس إلى ما تصنعون. ولا تختلفوا فيفسد عليكم رأيكم ، وينتقض عليكم أمركم. أبى هؤلاء إلا ما سمعتم فمنا أمير ومنهم أمير.

فقال عمر : هيهات لا يجتمع اثنان فى قرن. والله لا ترضى العرب أن يؤمروكم ونبيها من غيركم ، ولكن العرب لا تمنع أن تولى أمرها من كانت النبوة فيهم ، وولى أمورهم منهم ، ولنا بذلك على من أبى من العرب الحجة الظاهرة. من ذا يقارعنا سلطان محمد وإمارته - ونحن أولياؤه وعشيرته - إلا مدل بباطل ومتجانف لإثم أو متورط فى هلكه.

فقام الحباب بن المنذر فقال : يا معشر الأنصار ، أملكوا على أيديكم ولا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه فإن أبوا عليكم ما سألتموه فاجلوه من هذه البلاد وتولوا عليهم هذه الأمور. فأنتم والله أحق بهذا الأمر منهم فإنه بأسيافكم دان لهذا الدين من دان ممن لم يكن يدين ، أنا جُذَيلها المحكك ، وعُذَيقها المرجب أما والله لئن شئتم لنعيدنها جَذَعة.

فقال عمر : إذن يقتلك الله قال : بل إياك يقتل.

فقال أبو عبيدة : يا معشر الأنصار ، إنكم أول من نصر وآزر. فلا تكونوا أول

من بدّل وغير.

فقام بشير بن سعد أبو النعمان بن بشير فقال : يا معشر الأنصار ، إنا والله لئن كنا أولى فضيلة فى جهاد المشركين ، وسابقة فى هذا الدين ، ما أردنا به إلا رضا ربنا ، وطاعة نبينا فى الكدح لأنفسنا فما ينبغى لنا أن نستطيل على الناس بذلك ، ولا نبتغى به من الدنيا عرضاً ، فإن الله ولى المنة علينا بذلك. ألا إن محمداً صلى الله عليه وسلم من قريش وقومه أحق به وأولى. وأيم الله لا يرانى الله أنازعهم هذا الأمر أبدا. فاتقوا الله ولا تخالفوهم ولا تنازعوهم.

فقال أبو بكر : هذا عمر وهذا أبو عبيدة ، فأيهما شئتم فبايعوا ، فقالا : لا والله ولا نتولى هذاالأمر عليك ، فإنك أفضل المهاجرين وثانى اثنين إذ هما فى الغار ، وخليفة رسول الله على الصلاة أفضل دين المسلمين ، فمن ذا ينبغى له أن يتقدمك أو يتولى هذا الأمر عليك ابسط يدك نبايعك. فسبقهما بشير بن سعد فبايعه.

ولما رأت الأوس ما صنع بشير بن سعد ، وما تدعو إليه قريش وما تطلب الخزرج من تأمير سعد بن عبادة. قال بعضهم لبعض وفيهم أسيد بن حضير أحد النقباء : والله لئن وليتها الخزرج عليكم مرة لازالت لهم عليكم بذلك الفضيلة ولا جعلوا لكم معهم نصيباً أبداً ، فقوموا فبايعوا أبا بكر. فقاموا إليه فبايعوه. فانكسر على سعد بن عبادة وعلى الخزرج ما كانوا أجمعوا له من أمرهم. وأقبل الناس يبايعون أبا بكر حتى كادوا يطأون سعد بن عبادة وهو مريض لا يستطيع النهوض. وتخلف عن البيعة على بن أبى طالب ومن معه من بني هاشم ، إذ كانوا مشتغلين بتجهيز رسول الله فلم يحضروا أمر السقيفة ولما ستورده. وأبى سعد بن عبادة المبايعة فتركوه لأبى بكر.

لم يكن المانع لعلى عدم حضور السقيفة فحسب أو اشتغاله بتجهيز رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكنه كان يرى أنه أحق بهذا الأمر من سواه لما له من صهر رسول الله وقرابته وسابقته وحسن بلائه فى الإسلام وإن القوم قد غصبوه حقه وغلبوه

على تراث رسول الله. ويريد أن يبقى على إبائه حتى لا يكون للناس عليه حجة بأنه نزل عن حقه لغيره ثم يترقب فرصة يعيد فيها الحق إلى نصابه.

غير أن الأحوال التى تلت بيعة أبى بكر من ارتداد العرب ونأيهم بجانبهم عن الإسلام ، كانت أكبر من شأن الخلافة ، والشدائد تذهب الأحقاد وتؤلف بين جميع من مسهم أذاها. لذلك أطرح على جانب الكلام فى الخلافة ووضع يده فى يد أبى بكر لدفع الأعراب عن المدينة وتثبيت كلمة الإسلام وتقليم أظافر الشرك الذى طما على الأمة.

أول خطبة لأبى بكر

إن قيام الرؤساء من ملوك وأمراء ووزراء بالخطابة بعد تمام الأمر لهم يعربون عن خطتهم التى يتبعونها فى سياسة أممهم ووجهتهم التى يولون وجوههم شطرها فى حكم شعوبهم ليس بالأمر الحديث. فقد قام أبو بكر بعد توليته الخلافة. فخطب الناس خطبة أبان فيها ما اعتزم على سلوكه فى سياسة الأمة بياناً لا إبهام فيه فقال :

"أيها الناس ، قد وليت عليكم ولست بخير منكم. فإن أحسنت فأعينونى ، وإن صدفت فقومونى. الصدق أمانة والكذب خيانة والضعيف فيكم قوى عندى حتى آخذ له حقه ، والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه إن شاء الله. لا يدع أحد منكم الجهاد فإنه لا يدعه قوم إلا ضربهم الله بالذل ، أطيعونى ما أطعت الله ورسوله ، فإذا عصيت الله فلا طاعة لى عليكم ، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله".

وهذه الكلمة مجمل الطريقة التى اتبعها فى خلافته أخبرهم بواجب عليهم وهو إعانته ، وحق لهم وهو تقويمه إذا صدف عن الحق وفيه ضمان لحريتهم فى القول. أعطاهم عهداً أن يعدل فيهم فلا تمنعه قوة الظالم أن ينصف منه المظلوم ، ولا يمنعه ضعف المظلوم أن ينصفه من ظالمه. حثهم على الجهاد الذى كان لابد منه. أخبرهم أنه خليفة لينفذ الشريعة فإذا عدل عنها فلا طاعة له عليهم.

ترجمة أبى بكر

هو أبو بكر بن قحافة عثمان من بنى تيم بن مرة يجتمع نسبه من رسول الله فى مرة بن كـعب ابن لؤى. وأمه أم الخيـر بنت سلمى بنت صخر بن عـامر من تيم ابن مرة. ولد لسنتين من عام الفيل ، وشب على الأخلاق الفاضلـة حميد السيرة بغضت إليه الخمر فى الجاهلية ، وكان ذا ثراء وبسطة فى الرزق ، وقد ساعدته سعة حاله وما يكسبـه من التجارة على الأفـضال على أهل الحاجـة. وكان قريبـاً من قلوب قريش محبـباً فيهم. وإليـه فى الجاهلية الأشناق وهى الديات والمغارم ، فـإذا احتمل دية أو غرم مغرماً وأخـبر قريشاً صدقوه وأعانوه عليه. وكان أبو بـكر نسابة فى العرب عامة وفى قـريش خاصـة ، راوية لأخبـارهم حـافظاً لأنسابهـم ، عالماً بمفـاخر كل قـوم ومثالبهم. وكان يعرف من أنساب قريش وأخبارها مالا يعرفه غيره. وكان بزازاً يعتمد على الكسب من تجارته فى الجاهليـة والإسلام فبلغ رأس ماله أربعين ألف درهم أنفق منها خمسة وثلاثين ألفاً فى ومعاونة رسوله. وكان يشترى المعذبين من الأرقاء بمكة ، إذ كان يريد سـادتهم فتنتهم عن الإسلام ويعـتقهم. وكان أول مـن أجاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام من الرجال فآمن به وصدقه وتابعه على دينه. وكان حفيـاً أثيراً لديه واحتمل أشد الإيذاء من قـريش حتى لقد هم بالهجرة إلى الحـبشة. فلقيه ابن الدغنه سيد القارة فأجـاره على قريش وقال له : مثلك لا يهاجر إنك تصل الرحم وتصدق الحديث وتكسب المعدوم وتعين على نوائب الدهر. وقد أجازت قريش جواره على أن لا يسـتعلن بصلاته لهم. فـاتخذ بفناء داره مسـجداً يصلى فيـه ويقرأ القرآن. وكان رقيـق القلب بكاء من خشية الله ، فكان النساء والصبـيان من المشركين يسقطون إليه ويعـجبون من قراءته وصلاته. وشكاه رجـال قريش إلى ابن الدغنة فرد عليه أبو بكر جواره راضياً بحماية الله تعإلى له ممن يؤذونه. وقد هاجر مع رسول الله صلى الله عليه وسـلم إلى المدينة. وكان ثانى اثنين إذ همـا فى الغار وشهـد المشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وإنى ليعجبنى قول صديقى رفيق بك العظم رحمـه الله فى كتابه أشهر مشاهير

الإسلام :

"تجسم أبو بكر رضى الله عنه من الفضيلة ، وخلص جوهره من الدغل ، وانفطر على سلامة النفس من شوائب العناد وطهارتها من عمى البصيرة عن إدراك الصواب والمماراة فى الحق ، فقامت لديه الحجة على الشرك وظهرت له محجة الرشد لأول وهلة من دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم الذى تفرس فيه الاستعداد الكامل للإيمان فبادره بالدعوة فلم يتردد ، وعاهده على المظاهرة فقام بما تعهد. ولهذا قال صلى الله عليه وسلم : "ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له كبوة غير أبى بكر" .

أخلاق أبى بكر

ليس من همنا أن نستقصى ما كان عليه أبو بكر رضى الله عنه من أخلاق كريمة وسجايا جميلة ، ولكننا نعمد إلى أظهر أخلاقه أثراً فى أعماله التى استقبلها بعد أن ولى خلافة المسلمين ، وفى معاملتهم وسياستهم. فإن لكل أمير أو رئيس أخلاقا تملكه ويشتهر بها ، وأظهر أخلاق أبى بكر خلقان : الرقة ، وصدق العزيمة.

أما رقته فقد كان هذا الخلق غالباً عليه من أيام جاهليته واستمر معه فى الإسلام ، فقد كان كثير البكاء خشية الله تعالى ، وكم من مرة قام يدافع قريشاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبكى وقد لببوه بردائه قائلين : أنت الذى تريد أن تجعل الآلهة إلهاً واحداً ، وهو يردهم عنه باكياً ويقول : أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله ؟ ولما استشار رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه فى أسرى بدر ، كان رأيه أن يقبل منهم الفداء لأنهم قومه وأهله وقد أظهره الله عليهم وعسى الله أن يهديهم به. وقد مثله رسول الله صلى الله عليه وسلم بإبراهيم عليه السلام إذ قال : **﴿فمن تبعنى فإنه منى ، ومن عصانى فإنك غفور رحيم﴾**.

وسيمر بنا فى كتبه وعهوده مبالغته فى الاستيثاق لأهل العافية والنساء والصبيان ومن ليس لهم شأن فى الحرب ووصيته فيهم بالخير والرفق بهم.

وأما صدق عزيمته فإنه يتجلى واضحاً فيما يرد علينا من ضبطه للأمور وجده فى حفظ البيضة ومجاهدة المشاقين وتسيير دفة الإسلام وسط الخطوب المظلمة وأمواج الفتن المتلاطمة حتى أرساها إلى مرفأ السلامة والأمن. ولم يلحق بربه حتى أعاد الإسلام أقوى ما كان شوكة. وأمنع ما كان جانباً ، وأثبت ما كان أساساً. وكل ذلك بثباته أمام الأخطار واستصغاره الخطوب وتصميم عزيمته ومضائه على الحق.

وأول مواقف أبى بكر إنفاذ جيش أسامة ، وقبل الإفاضة فى الكلام على جيش أسامة أريد أن أعجل بالكلام على ردة العرب بعد الإسلام.

الـــــــردَّة

إن كثيراً من الأعراب المنبثين فى جزيرة العرب كانوا حين وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يتفق لهم من صحبته ما يصفى جواهر نفوسهم مما مازجها من شوائب الشرك ، ولم ينفذ إلى بصائرهم نور الحكم الباهرة المنطوية فى أوامر الإسلام ونواهيه. فزاغت بصائرهم عن أن الزكاة صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، لا يكلفها إلا من آتاهم الله بسطة فى الرزق. وعدوها إتاوة وضريبة يسامون أداءها كما يسوم الجبابرة من الملوك رعاياهم أداء الإتاوات وحمل المغارم. وذهلوا عن بون ما بين الخطتين. فتناجوا بالإثم والعدوان فى منع الزكاة وفشت هذه المقالة فى كثير منهم – وآخرون من دونهم فشت فيهم فاشية سوء وهم الذين قام فيهم متنبئون يضلونهم بغير علم ، كطليحة الأسدى ، والأسود العنسى ، ومسليمة الكذاب ، وسجاح التميمية. ومع أن المانعين للزكاة لم يرفضوا جميع أحكام الإسلام ولكنهم سموا مرتدين لجحدهم ركناً من أركانه.

ثبت على الإسلام أهل المدينة ومكة والطائف ومهاجرة الأعراب وبعض الدائنين بالإسلام فى قليل من الأطراف كعبد القيس.

فلم يكد خبر وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ينتشر فى الآفاق حتى نجم النفاق والشقاق وتطاولت أعناق كثير من قبائل العرب إلى البطش بالمسلمين وطمعوا فى جانبهم وغرتهم الأمانى ، والله غالب على أمرهم.

إنفاد أبى بكر جيش أسامة

بين هذه الفتنة الحالكة وفى معترك هذه الحوادث ، والأنباء بارتداد العرب يتلو بعضها بعضا ، قام أبو بكر بإنفاذ جيش أسامة.

ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان جهز جيشاً لمعاقبة قبائل قضاعة الضاربين فى جهات الشام مما يلى مؤتة لمظاهرتهم الروم على جيش المسلمين فى غزوة مؤتة ، وقد كان أمير الجيش زيد بن حارثة ، وقد استشهد فى تلك الغزوة فجهز جيشا آخر لغزوهم. وقد جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم أمير هذا الجيش أسامة بن زيد ، وكانت سنه ١٨ سنة ، وكان تحت لوائه عدد من جلة الصحابة منهم أبو بكر وعمر. وقد حث رسول الله صلى الله عليه وسلم على خروج جيش أسامة. ولم يقبل فيه مقالة من أراد أن يستبدل به من هو أسن منه ، وقد توفى رسول الله قبل أن يزايل الجيش المدينة فبقى بظاهرها.

خشى المسلمون أن يطمع العرب وأهل النفاق فى مسلمى المدينة إذا فصل جيش أسامة وبقى المسلمون بدون حامية قوية ترد عادية الطامعين فكلموا أبا بكر فى استبقاء جيش أسامة ليكون للمسلمين ردءاً. وقالوا : إن هؤلاء جند المسلمين والعرب على ما ترى قد انتقضت بك فلا ينبغى أن تفرق جماعة المسلمين عنك. فقال : والذى نفسى بيده لو ظننت أن السباع تتخطفنى لأنفذت جيش أسامة كما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وأرسل أسامة عمر بن الخطاب يعرض على أبى بكر تخلف الجيش عن وجهه وعهد بعض المسلمين إلى عمر أن يخاطب أبا بكر فى أن يولى أمر الجيش من هو أسن من أسامة. فلما أفضى عمر إلى الخليفة بما حمل من رسالة أسامة وجنده أبى إلا المضاء فيما أمر به رسول الله واشتد على عمر حتى أخذ بلحيته وقال له : عدمتك أمك. وثكلتك يا ابن الخطاب ، استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم وتأمرنى أن أنزعه !.

تصوّر أبو بكر ما خامر قلوب رجال الجيش وما هو لاصق بنفوسهم من لوثة الجاهلية والأنفة من تأمير من لم تقدمه السن والاستمساك بعرى التفاضل بالأنساب والأمور التى وضعها الإسلام. فرأى أن لا يجيبهم إلى طلبهم وأن يمحو من نفوسهم كل أثر من آثار الكبرياء والتفاضل إلا بالتقوى وصالح العمل ، وأن ينوه بقدر زيد حتى يكون للقوم بخليفتهم أسوة حسنة. ولو أنه أطاع القوم لسن للناس مخالفة أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ولأطمعهم فى أن يطلبوا ما ليس لهم بحق ، وفى ذلك من المضرة ما لا يجهل.

خرج أبو بكر حتى وافى الجيش وشيعهم ماشياً وأسامة راكباً واستأذنه فى أن يسمح لعمر بالبقاء معه بالمدينة يستعين برأيه ، فسمح له بذلك. وقال له أسامة : يا خليفة رسول االله لتركبن أو لأنزلن ؟ فقال : والله لا نزلت ولا أركب ، وما على أن أغبر قدمى ساعة فى سبيل الله ؟

كان فى عمل أبى بكر ما حدا القوم على الرضا بإمرة أسامة إذ رأوه ماشيا فى ركابه غير مفتات عليه فى استبقاء عمر دون إذنه ، فكان عمله خير هاد لهم.

ومن جهة أخرى رأى أبو بكر أن التوقف عن إنفاذ الجيش إلى الوجه الذى أعد له يشعر قلوب العرب ضعف المسلمين عن حماية أنفسهم ، فيطمع الذى فى قلبه مرض ، وإن إنفاذه إمضاء لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وتصوير المسلمين فى النفوس بصورة القوى الجرئ الذى لم يختلج قلبه خوف ولم يستشعر الوجل.

زوّد أبو بكر جيش أسامة نصيحة هذا نصها : "لا تخونوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلا ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا للأكل. وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له. وسوف تقدمون على قوم فحصوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاخفقوهم بالسيف خفقاً ، ثم قال : اندفعوا باسم الله.

نصيحة تخجل أدعياء المدنية الذين يظهرون بمظهر خدام الإنسانية وهم أضرى العوادى عليها ، ويرمون الإسلام بأنه دين الهمجية والوحشية والعسف وعدم احترام الإنسانية وهم فى كل يوم يُصلون الإنسانية من نار الهمجية ضروبا ، ويذيقونها من الوحشية أفانين.

يجدر بالأمم المتمدنة أن تجعل هذه النصيحة أول ما يتزود به الجندى ، وأن تكون القاعدة التى تبنى عليها حقوق الدول والملل.

سار أسامة وشن الغارة على بلاد قضاعة وأحلافهم وغنم منهم واستمر فى بعثه أربعين يوماً ثم عاد. وكان إنفاذ جيش أسامة نهاية الحزم ، فقد فت فى اعضاد المرتدين حين تسامعوا به. وقالوا : لو لم يكن للقوم قوة لم يقذفوا بجيوشهم يرمون بها من بعد عنهم من القبائل ذات الشوكة. غير أن ذلك لم يثن كثيراً من المرتدين عن الانحدار فى مهواة الردة التى زلت فيها أقدامهم.

قتال أبى بكر لأهل الردة

إن الدين الإسلامى يعتبر أهله والداخلون فيه بمثابة جند على تعبية لمنازلة العدو العادى. فمن نكل عن العدو وخام عن اللقاء وولى العدو ظهره إلا متحرفا لقتال أو متحيزاً إلى فئة ، فقد باء بغضب من الله واستحق جزاء الجندى الفار من صفوف الجيش أو المنحاز إلى الأعداء المظاهر لهم. لهذا كان قتال المرتدين إلى أن يفيئوا إلى دينهم أوجب من قتال المخالفين ، ولأن إعطاء الهوادة فى أمرهم يكون مدرجة لمشاقة سواهم حتى تتفرق الكلمة وتنشق العصا وتنفض البيضة وتكون فتنة فى الأرض وفساد كبير.

الدين الإسلامى لا يفرض على متبعيه أتاوة) ، ولا يفرض عليهم حرجاً ولا يخلو حال الأمة من إقامة ولاة وأمراء وبعث بعوث وإطفاء فتن والإنفاق على مصالح عامة ومواساة ضعيف وإعانة ذى حاجة ونحو ذلك من الوجوه التى بينها الكتاب

وجعلها مصارف للصدقات ، ولا مادة لكل هذه الوجوه سوى الزكاة التي هي ركن لا يتحقق الإسلام من امرئ إلا بالإقرار به والعمل بمقتضاه.

لهذا كله كان المانعون للزكاة مساوين في الحكم للجاحدين للدين بعد انضوائهم إليه وانتظامهم في صفوف جنده.

رأى فريق من الصحابة - بعد تواتر الأخبار بارتداد العرب ومنع فريق منهم الزكاة - أن يقبل أبو بكر منهم ما بذلوه وهو الصلاة ليكون ذلك تأليفاً لقلوبهم حتى يرجع جيش أسامة ويشتد ساعد المسلمين ثم يرمى المدبر بالمقبل ، فلم يقبل أبو بكر هذا الرأى لأنه مؤذن بالضعف وثلمة لا يلبث القوم أن يوسعوها بالمطالب حتى يعودوا إلى وثنيتهم الأولى وما كان له أن يبدد ذلك الإرث الذى خلفه رسول الله صلى الله عليه وسلم بمجرد تناوله فقال : "والله لو منعونى عناقاً كانوا يؤدونها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعها" .

إذا صدقت العزائم واتحدت الوجهة وخَلُصَت النيات فى عصابة تحاول مروماً. فهناك يكون النصر القريب والفتح المبين. ناهيك بعصابة قوامها المهاجرون والأنصار ، وهم قوم قد تأدبوا بآداب الدين ، وغلبت على نفوس كثير منهم أخلاق القرآن. وقد تبوأ مكان الرئاسة فيهم أبو بكر الصديق يحف به ويؤازره على سياسة أمره أمثال على وعمر وخالد بن الوليد وعكرمة بن أبى جهل وعمرو بن العاص وخالد بن سعيد والمهاجر بن أبى أمية وأبى عبيدة بن الجراح ويزيد ومعاوية ابني أبى سفيان وعياض بن غنم وحبيب بن سلمة الفهرى وسعد بن أبى وقاص وغيرهم من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم "وكل إذا عُدّ الرجالُ مقدمُ" .

كانت حامية المدينة قليلة بعد ارتحال جيش أسامة. فأخذ أبو بكر بالحزم ولم يشأ أن يعاجل العرب بما اعتزم عليه من إعضاض السيف رقابهم حتى تستقيم له قناتهم ويعودوا إلى الدين الذى مرقوا منه حتى يعود جيش أسامة. فأخذ يطاول فى الأمر - غير أن عبساً وذبيان وغطفان وأسداً وطيئاً قد أعجلوه. وكان بعضهم نازلا بذى القصة وبعضهم بالأبرق بالقرب من المدينة وأرسلوا إليه وفداً يبذلون الصلاة

ويمنعون الزكاة فأبى عليهم أن يجيبهم إلى تفريق ما جمع الله - والظاهر أن الوفد كانت له مهمة أخرى ، وهى تجسس أحوال المسلمين والعلم بما هم عليه من قوة أو ضعف.

عاد الوفد بعد ذلك إلى القوم بجواب أبى بكر وأفضوا إليهم بما رأوه من قلة عدد المسلمين وضعف جانبهم وأطمعوهم فى منازلتهم. غير أن الوفد كان على خطأ فيما أنبأ به القوم ، فقد كان للقوم مدد لا يبصر بالعيون ، وهو قوة الإيمان وصدق اليقين وثبات إرادة القادة ومضاؤهم. يؤازر ضم هذا المدد مدد آخر ، وهو طول التجربة والتمرس بالحرب والاكتواء بنارها فى مختلف الوقائع التى لم ينفضوا عنهم غبارها ، وأن مساعير الحرب من أمثال على وطلحة والزبير وغيرهم من صناديد قريش لا تلين لهم قناة ولا يفلُّ لهم حد.

لم ينم أبو بكر بعد أن رد وفد القوم بالخيبة. بل أخذ يستجيش من تيسر له من المسلمين خشية أن يبيت القوم المدينة ، فجعل على أنصار المدينة علياً وطلحة والزبير وابن مسعود ، وجعلهم على أنقاب المدينة. وأخذ أهل المدينة بحضور المسجد خوف البيات ، ليكون منهم المدد لمن على الأنقاب إذا داهمهم العدو فى ليل أو نهار.

لم يكن إلا ثلاث ليال من عود الوفد حتى طرق القوم المدينة غارة مع الليل. وقد خلفوا بعضهم بذى حِسَى ليكونوا لهم فئة ورداءاً. وكان الذين على الأنقاب قد بثوا نفراً منهم يدرجون بعيداً عنهم ، فلما أحسوا القوم نبهوهم ، وعلم أبو بكر فخرج فى أهل المسجد على النواضح فانهزم أهل الردة وتبعهم المسلمون على الإبل حتى بلغوا ذا حسى خرج عليهم الردء بأنحاء قد نفخوها[1] وجعلوا فيها حبالا ودهدهوها (دحرجوها) فى وجوه إبل المسلمين فنفرت عائدة إلى المدينة لا يملك راكب رأس بعيره ، ولم يصب أحد من المسلمين. ولكن أبا بكر بات على تعبية وهيأ جنده وخرج فى عقب ليلته يريد الأعداء.

---

(١) الأنحاء ، جمع نحى (بسكر النون وسكون الحاء) : الزق.

أما المرتدون فلما رأوا نفار الإبل غرهم ذلك وبعثوا إلى أهل ذى القصة ، وما طلع الفجر إلا وقد وافاهم أبو بكر بجنده وما سمعوا للمسلمين همساً ولا حساً حتى وضعوا السيف فى رقابهم. وما ذر قرن الشمس حتى منح الله المسلمين أكتافهم وغنموا إبلهم ، وكان نصر المسلمين فى هذه الموقعة كنصرهم فى وقعة بدر أول الإسلام فقد عز بها المسلمون وذل المشركون.

جزعت عبس من هذه الوقعة أىّ جزع فطاشت أحلامهم ولم يجدوا إلى نكاية المسلمين سبيلا سوى أن يقتلوا من كان مسلماً فيهم كل قتلة. ومعلوم أنهم بذلك إنما يقتلون أنفسهم ويوهنون جماعتهم ولا يضير ذلك جماعة أبى بكر ، فحلف أبو بكر ليقتلن فى كل قبيلة بمن قتلوا من المسلمين وزيادة.

بينما أبو بكر يعد للقوم ما استطاع من قوة وافاه جيش أسامة فأمرهم بالإقامة بالمدينة ليأخذوا راحتهم ويريحوا ظهرهم ، وخلف أسامة على المدينة حين خروجه لأهل ذى القصة.

وحين أراد أبو بكر الخروج مع الجند للقتال قالوا له : ننشدك الله يا خليفة رسول الله أن تعرض نفسك فإنك إن تصب لم يكن للناس نظام ومقامك أشد على العدو ، فابعث رجلاً فإن أصيب بعثت آخر. فقال : لا والله لا أفعل ولأواسينكم بنفسى.

سار أبو بكر بجنوده كما سار أولا إلى ذى حِسَى وذى القصة حتى نزل على أهل الربذة بالأبرق ، فانهزمت بنو عبس وبنو بكر وأقام بالأبرق أياماً وقد غلب بنى ذبيان على بلادهم وحماها لخيل المسلمين وأرعى سائر الناس الربذة ثم عاد إلى المدينة.

عقد الألوية للقتال

ولما استراح جيش أسامة خرج أبو بكر إلى ذى القصة على بريد من المدينة تلقاء نجد وقطّع الجند وعقد أحد عشر لواء لأحد عشر أميراً وأمر كل أمير أن يستفز مسلمى

القبائل التى يمر بـها ليكون بعضهم فى جنده ويتخـلف بعضهم لحماية قـومهم. وقد حضرت فى تلك الأيام صدقات فكانت عونا.

وهؤلاء هم الأمراء الذين رمى بهم أبو بكر المرتدين :

(١) خالد بن الوليد : وجهه إلى طلحة بن خـويلد الأسدى ببُزَاخَة ، فإذا فرغ من أمره قصد مالك بن نويرة بالبُطاح.

(٢) عكرمة بن أبى جهل : وجهه به إلى مسيلمة الكذاب باليمامة.

(٣) شَرَحْبيل بن حسنة وجهـه فى أثر عكرمة بن أبى جهل ، فإذا فرغ من أمر مسيلمة قصد قضاعة.

(٤) المهاجر بن أبى أمـية : وجهه به إلى جنود الأسود العنـسى بصنعاء اليمن ومعـاونة الأبناء على قتالهم - والأبناء : هم مـولدة الفرس باليمن آمنوا وثبـتوا على إيمانهم وذريتهم بها إلى اليوم.

(٥) حذيفة بن مِحْصَن : وجهه إلى أهل دبا بعمان.

(٦) عرفجة بن هرثمة : وجهته أهل مهرة : وأمره هو وحذيفة أن يجتمعا وكل واحد منهما أمير على صاحبه فيما وجه إليه.

(٧) سويد بن مُقرِّن إلى تهامة باليمن.

(٨) العلاء بن الحضرمى ووجهه إلى البحرين.

(٩) طريفة بن حاجز ووجهه إلى بنى سليم ومن معهم من هوازن.

(١٠) عمرو بن العاص ووجهه إلى قضاعة.

(١١) خالد بن سعيد ووجهه إلى مشارف الشام.

وقد فـصلت الأمراء بجيـوشها من ذى القـصة بعد أن كـتب إلى المرتدين من العرب كـتاباً واحداً أرسله إليهم ليكون لـهم نذيراً بين يدي جيوشه ليكون قـد أعذر

إليهم قبل الإيقـاع بهم. فكان أول منشور عام يقرأ فى مـجامع الناس وأنديتهم. ولما كان هذا المنشور مطولا فنحن نجتزىء بأن نقتطف بعضه وهو ما يتعلق بالمرتدين.

كتب أبى بكر إلى أهل الردة

بعد أن ذكر الله تعـإلى بما هو أهله وذكر رسول الله ووفاته قـال : "وقد بلغنى رجوع من رجع منكم عن دينـه بعد أن أقر بالإسلام وعـمل به اغتراراً بالله وجـهالة بأمره وإجابة للشيطان. قال الله تعإلى : **﴿وإذا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا﴾**. وقال : **﴿إن الشيطان لكم عدو فـاتخذوه عدواً إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصـحاب السعـير﴾**. وإنى قـد بعثت إليكـم فلانا فى جـيش من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان وأمـرته أن لا يقاتل أحداً ولا يقتله حتى يدعوه إلى داعية الله فمن استجاب له وأقـر وكف وعمل صالحاً قبل منه وأعانه عليه ، ومن أبى أمرت أن يقاتله عـلى ذلك ثم لا يبقى على أحد منهم قَدَر عليـه ، وأن يحرقهم بالنار ويقتلهم كل قتلة ، وأن يسبى النسـاء والذرارى ولا يقبل من أحد إلا الإسلام. فمن اتبعه فهو خير له ومن تركه فلن يعجز الله. وقد أمرت رسولى أن يقرأ كتابى فى كل مجمع لكم والداعـية الأذان. فإذا أذن المسلمون فأذنـوا كفّ عنهم وإن أقرّوا قبل منهم وحملهم على ما ينبغى".

ونفذ الكتب مع الرسل أمام الجنود.

عهد أبى بكر إلى القواد

وكتب إلى قواده عهداً صورته واحدة وهى :

"هذا عهد من أبى بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم لفلان حين بعثه فيمن بعثه لقتال من رجع عن الإسلام وعهد إليه أن يتقى الله ما استطاع فى أمره كله سرّه وعلانيته وأمره بالجـد فى أمر الله ومجاهدة من تولى عنه ورجع عن الإسلام إلى أمانى الشيطان بعد أن يعـذر إليهم فيدعوهم بداعية الإسـلام فإن أجابوه أمسك عنهم

وإن لم يجيبوه شن غارته عليهم حتى يقروا له ثم ينبئهم بالذى عليهم والذى لهم فيأخذ ما عليهم ويعطيهم الذى لهم لا ينظرهم ولا يرد المسلمين عن قتال عدوهم. فمن أجاب إلى أمر الله عز وجل وأقر له قبل ذلك منه وأعانه عليه بالمعروف. وإنما يقاتل من كفر بالله على الإقرار بما جاء من عند الله فإذا أجاب إلى الدعوة لم يكن عليه سبيل ، وكان الله حسيبه بعد فيما استسر به. ومن لم يجب داعية الله قتل وقوتل حيث كان وحيث بلغ مراغمة لا يقبل من أحد شيئاً أعطاه إلا الإسلام فمن أجابه وأقر قبل منه وعلمه ومن أبى قاتله فإن أظهره الله عليه قتل منهم كل قتله بالسلاح والنيران ثم قسم ما أفاء الله عليه إلا الخمس فإنه يبلغناه ، وأن يمنع أصحابه العجلة والفساد ، وأن يدخل فيهم حشوا حتى يعرفهم ويعلم ما هم لا يكونوا عيونا ولئلا يؤتى المسلمون من قبلهم ،وأن يقتصد بالمسلمين ويرفق بهم فى السير والمنزل ويتفقدهم ولا يعجل بعضهم عن بعض ويستوصى بالمسلمين فى حسن الصحبه ولين القول" .

طليحة

هو طليحة بن خوليد الأسدى ، علم بمرض رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد حجة الوداع فسولت له نفسه أن يدعى النبوة فى قومه ومن يليهم ليكون له مثل ما لنبى قريش. فتابعة قومه من بنى أسد وأرزت إليهم عبس وذبيان وبعض من جديلة والغوث وطيء لما لها من الحلف فى بنى أسد.

كان عدى بن حاتم الطائى مقيماً بالمدينة وقد خشى على قومه أن يجتاحهم خالد وقد أمر أن يبدأ بهم ، فستأذن أبا بكر فى اللحاق بقومه ليرد من رجع منهم إلى الإسلام وليعين بهم خالدا. فأذن له ، ففارق المدينة إلى قومه وصار يفتلهم فى الذروة والغاب حتى وافقوه على الإسلام ومفارقة طليحة وأرسلوا قومهم الذين مع طليحة ببزاخة وجاء عدى إلى خالد ليتلبث ثلاثا حتى يعود رجال طيء لئلا يعتريهم طليحة بسوء ، ففعل ، ولحق من كان ببزاخة من طيء بجيش خالد ومعهم من خف من

طيء. وأراد خالد أن يقصد جديلة ، فشق ذلـك على عدى ونهنهه عن قصده وأشار عليه بالتلبث حتى يأتى جـديلة لعل الله ينقذهم به كما أنقذ بنى الـغوث قوم عدى ، ففعل خـالد ولم يزل عدى بالقوم حتى جاء إلى خـالد بإسلامهم ، وانضم منهم إلى جيش المسلمين ألف راكب ، فكان عدى خير مولود ولد فى أرض طيء وأعظمه بركة عليهم.

يمم خالد بجيشة ومن انضم إليهم من طيء بزاخة لقتال طليـحة ومن لف لفه وكان طليـحة يسَمِّى المَلَك الذى يزعم أنه يأتيـه بالوحى "ذا النون" وسن لهم الصلاة من قيام وقال : ما يصنع الله بتعفير وجوهكم ، إن الرغوة فوق الصريح.

التقى خالد مع جيـوش طليحة واستحرالقتل بـين الفريقين وعضت الحرب بنى فزارة وقائدها وسيدها عيينة بن حصن يكر على طليحة كلما ضرسته الحرب يقول له: هل جاءك ذو النون ؟ فـيقول : لا. وطليـحة ملتف بكسائه بفناء بيت له من شـعر. فلما استعر أوار الحرب جـاء وقال له : هل جاءك ذو النون ؟ قال : نعم جاءنى وقال "إن لك يوما ستلقـاه ليس لك أوله ولكن لك أخراه ورحا كرحاه وحـديثا لا تنساه" فقـال عيـينه : أرى والله أن لك حديثـا لا تنساه يا بنى فزارة هـذا كذاب. وولى من عسكره ومنح الله المسلمين أكتافهم. وعمـد طليحة - إذ رأى الهزيمة - إلى فرس كان قد أعده فـركبه وأردف زوجته خلفه وقـال : من استطاع أن يفعل كما أفـعل فليفعل وولى وجهه شطر الشام. ثم عاد مسلماً وحـسن إسلامة وكان ذا بلاء في قتال فارس فى أيام عمر.

كان بنو عامر بن صعصعة قريبـاً من ساحة القتال ببزاخة على قادتهم وسادتهم ينظرون إلى القتـال فلما رأوا ما حل بطليـحة وجموعـه أقبلوا يقولون : ندخل فيـما خرجنا منه ونؤمن بالله ورسوله ونسلم لحكمه فى أموالنا وأنفسنا.

وقد كان الذى أعظم أمـر طليحة بعد صغره مـا سنقصه. وهو أن الرجل ادعى النبوة فى حياة رسول الله فأرسل الرسول ضراراً إلى بنى أسد وأمرهم بالقيام على كل

من ارتدّ ، فأشجوا طليحة وأخافوه ، ونزل المسلمون بواردات والمرتدون بسميراء وأمر المسلمين فى نماء وأمر طليحة فى انعكاس ، وهم ضرار أن يأخذ طليحة سلماً وضرب طليحة بالسيف فنبا عنه فشاع أن السيف لا يحيك فى جسده وجاء الخبر بموت رسول الله صلى الله عليه وسلم والناس على ذلك فانفض من كان مع ضرار عنه وعظم أمر طليحة إلى أن كان ما أوردنا.

بنو تميم ومالك بن نويرة

كان رسول الله قد أمَّر على بطون تميم أمراء منهم الزبرقان بن بدر وقيس بن عاصم ووكيع بن مالك بن نويرة ، فلما شاع موت رسول الله صلى الله عليه وسلم كان منهم من بقى على الوفاء بما عاهد عليه الرسول فبعث بالصدقة إلى أبى بكر ، ومنهم من منعها ، ومنهم من تردد. وكان المانع مالك بن نويرة ، وكان اختلاف القوم داعيا لاشتغال بعضهم ببعض.

وبينما القوم على هذه الحال إذ أقبلت عليهم سجاح بنت الحارث ، وكانت نازلة مع أبيها فى بنى تغلب بالجزيرة وأبوها من بنى يربوع من تميم.

كانت هذه المرأة قد ادعت النبوة وتابعها على أمرها جموع من نصارى تغلب فهبطت بهم تريد قتال جند أبى بكر فلما أشرفت على بنى تميم أرسلت إلى مالك بن نويرة سيد بنى يربوع فوادعها وثناها عن قتال أبى بكر وأغراها بمخالفيه من أحياء بنى تميم وتابعها على أمرها وكيع بن مالك وقومه فسجعت لهم قائله : "أعدوا الركاب ، واستعّدوا للنهاب ، ثم أغيروا على الرباب ، فليس دونهم حجاب "فاستعرت نار الحرب فى بنى تميم.

ولما رأت أمرها لم يتم فى بنى تميم قالت لجندها من ربيعة وإياد وسواهم : "عليكم باليمامة ، ودفوا دفيف الحمامة ، فإنها غزوة صرامة ، لا تلحقكم فيها ملامة" فنهدت بمن معها إلى بنى حنيفة ، وهابها مسيلمة وخاف إن هو شغل نفسه

وقومـه بأمرها أن يدهمه من جـيوش أبى بكر داهم ، وتتـخطفه القبـائل من حوله. فأهدى إليها الهدايا ، استأمنها على نفسه حتى يكلمها. فأمنته وأمها فى أربعين وافداً من قوه ، فقـال لها مسيلمـة : لنا نصـف الأرض وكان لقريش نصفـها لو عدلت ، وقد رد الله عليك النصف الذى ردت قريش فحبـاك به ، وكان لها لو قبلت. فقالت : لا يرد النصف من الأجنَف فـاحمل النصف ، إلى خـيل تراها كـالسهف. فـقال مسيلمة : سمـع الله لمن سمع وأطعمه بالخير إذا طمع ، ولا زال أمره فيـما سر نفسه يجتمع. رآكم ربكم فحياكم ، من وحشـة خلاكم ، ويوم دينه أنجاكم. فأحياكم علينا من صلوات معـشر أبرار ، لا أشقـياء ولا فجار ، يقـومون الليل ويصومـون النهار لربكم الكبَّار ، رب الغيوم والأمطار. إلى غير ذلك من الأسجاع. وكان قد شرع لهم الإمـتناع عن النسـاء إذا ولد للرجل ولد ذكـر إلى أن يموت ذلك الولد فـيطلب أبوه غيره.

وقال مـسيلمة لـسجاح : هل أتزوجك وآكل بقـومى وقومك العـرب ؟ قالت نعم، فتـزوجها وأقامت مـعه ثلاثة أيام. ولما رجعت إلى قـومها سـألوها عن أمرها فقالت : إنى وجدته على الحق فـاتبعته وتزوجنى فسألوها عن صداقـها فقالت : لم يعطنى صداقاً. فردوها إليه لأنه قبيح بمـثلها أن يزوج بلا صداق. فلما سألته الصداق دعا مـؤذنها شـبث بن ربعى الرياحى ، فأمـره أن يؤذن فى الناس أنه حط عن الناس صلاتين مما أتى به محمـد : صلاة العشاء الآخرة وصلاة الفجر. وكـان من أصحابها الزبرقان بن بدر وعطارد بن حـاجب وعمرو بن الأهتم وغيلان بن خـرشة وشبث بن ربعى.

انتهى الأمر بين سجاح ومسيلمة على أن يحمل إليها النصف من غلات اليمامة فطلبت أن يسلفها السنة المقبلة فعـجلها بنصف السنة وخلفت على السلف من يجمعه لها وانصرفت إلى الجزيرة.

لما عادت سجاح إلى الجزيرة ندم مالك بن نويرة على ما فعل وحار لا يدرى ما يأتى وما يدع ، وكـذلك بقية مـرتدّة بنى تميم ورؤساؤهم ندمـوا ندماً ظاهراً وأرسلوا الزكاة إلى خـالد. وأما مالك فمنع الزكـاة ورأى أن لا طاقه لقومـه بنى يربوع بخالد وجنوده ، فأمـرهم أن يتفرقوا. فلمـا ورد خالد البطاح لم يجد أحداً ، فـبث سراياه مغرية على من لقـيها منهم ، فجـاءته السرايا بمالك فى نفر من بنى يربوع فحـبسهم خالد ثم أمر بقتلهم فقتلوا ، ويروى فى قتله روايات أخرى.

كان بعض رجـال من جيش خالد قد شـهدوا أن القوم أذنوا حين سمـعوا أذان المسلمين ، وأنهم بذلك قد حقنوا دماءهم وأن قتلهم لا يحل ، ومن أولئك القوم أبو قتادة صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم. فأكبر الأمر ، وزاد ذلك عنده أنه رأى خالد بن الوليد قد تزوج امرأة مالك بن نويرة ، ففارق أبو قتادة خالداً وقدم على أبى بكر ليشكو إليه خالداً فيما خالف فيه. فرأى أبو بكر أن فراق أبى قتادة لخالد خطأ لا ينبغى أن يرخص فيه له ولا لغيره لأنه يكون سـبباً للفشل والجيش فى أرض العدو ، فاشتد على أبى قتادة ورده إلى خالد. وعملُ أبى بكر من أحكم السياسات الحربية.

كثر كـلام المسلمين فى شأن خالد وما صنع ، وجـاء متمم بن نويرة شاكـياً ما صنع خالد بأخيه واشتـد عـمر فى شـأن خـالد عند أبى بكر وأراده على أن يـقيّد منه بمالك وأصحابه. فأبى أبو بكر عليه ذلك. وقال له : "هيه يا عمر ، قد تأول فأخطأ فارفع لسـانك عن خالد" ، ولما عاد خـالد إلى أبى بكر اعتذر مما كـان منه فى شأن مالك ، وسـاق أبو بكر دية مالك بن نويرة. وبانـكسار بنى يربوع عاودت تمـيم كلها الإسلام ورضيت أن تؤدى إلى أبى بكر الزكاة كـما كانت تؤديها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقد كان من سـياسة أبى بكر المبنية عـلى الحكمة أن لا يقيد من عـماله وقواده وَوَزَعتِهِ إذا حـصل منهم أمر فى وجههم لقـتال العدو ، لأن مفاجـأة القائد وهو فى

جهاد عدوّه بالعقاب تخبث نفوس بقية القواد ، وتطمع فيهم الجند ، وتطلق ألسنة العيابين ، وتفسد الأمر.

وهذه السياسة الحكيمة هى التى نراها من الأمم العريقة فى الاستعمار : لا تعجل بمحاسبة عمالها على خطأ كان منهم ، ولا تخذلهم فى أثناء قيامهم بأعمالهم فى خدمتها ، وإنما تتريث فى الأمر حتى إذا سكتت الزوابع ، وكفت ألسن الشكاية وكان الأمر ثابتاً لا شبهة فيه ، عمدت إلى نقل عاملها إلى مكان آخر وربما زادت فى مرتبته حتى لا يتوهم الشاكون أن نقله كان بسعيهم أو إجابة لمطالبهم ، وفى ذلك قطع لمطامع الشاكين. وهى سياسة الإنكليز فى هذا العصر.

بنو حنيفة ومسيلمة

قدمنا أن بنى حنيفة كانوا قد وفدوا على النبى صلى الله عليه وسلم وأسلم الوفد وكان فيهم مسيلمة فى رحالهم يحفظ ظهرهم ، فلما أعطاهم رسول الله العطايا ذكروا له مكان مسيلمة فأعطاه كما أعطى واحداً منهم وقال : أما والله إنه ليس بشرّكم مكاناً يحفظ ضيعة أصحابه. ولما عاد الوفد إلى قومهم ادعى مسيلمة أنه اشرك مع رسول الله فى الرسالة إلى آخر ما بينا.

لما فصل عكرمة بن أبى جهل بجيشه إلى اليمامة لقتال مسيلمة ، أرسل أبو بكر فى أثره شرحبيل ليجتمعا على قتال مسيلمة. فأراد عكرمة أن يذهب بفخر القتال فتعجل وواقعه بنو حنيفة ونكبوه ، ووقف شرحبيل حيث بلغه الخبر وكتب عكرمة إلى أبى بكر بما أصابه ، فقال أبو بكر لعكرمة فى كتاب بعث به إليه : "لا أرينّكَ ولا ترانى ، لاترجع فتوهن الناس ، امض على وجهك حتى تساند حذيفة وعرفجة فقاتل معهما أهل عمان ومهرة ثم تسير أنت وجندك تستبرئون الناس حتى تلتقوا أنتم والمهاجر بن أبى أمية باليمن وحضرموت ، وكتب إلى شرحبيل بالتوقف حتى يأتيه أمره.

كان خالد بن الوليد قد فرغ من أمر بنى يربوع كما قدمنا ، فوجهه أبو بكر إلى اليمامة بمن معه وضمّ إليه جنوداً أخرى ، لأن أمر مسيلمة كان قد استفحل باليمامة ، وانضمّ إليه جنود تبلغ أربعين ألفاً على ما يرويه الطبرى ، اتبعوه عصبية وحفَاظاً لقوميتهم مع إقرارهم بكذبه ، حتى إن بعضهم كان يقول : أشهد أن مسيلمة كذاب ، ولكن كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر.

سار خالد بجنده بعد أن ألحق به من أوعبهم أبو بكر من المقاتلة ، وكان شرحبيل قد فعل فعلة عكرمة فأصابه ما أصابه فلامه خالد ، ثم إن خالداً قدم إلى اليمامة وواقع القوم وحاربهم أشد حرب ، واستماتت بنو حنيفة فى القتال حتى انكشف المسلمون. وكادت الدائرة تكون عليهم لولا أن الله ألهم رجالا من المؤمنين أن صرخوا فى القوم وصدقوا الحملة على بنى حنيفة ، وتبعتهم فئة باعوا أنفسهم لله ، حتى خالطوا مسيلمة فقتلوه. وقد تولى قتله وحْشِيى قاتل حمزة ورجل من الأنصار ؛ فلما رأى بنو حنيفة ذلك داخلهم الوهن ، فلجأوا إلى حصونهم واعتصموا بها ، وكانت النصرة لخالد وجيشه فى النهاية.

بعد أن تمّ الأمر على هذا الوجه جاء إلى خالد مُجاعة بن مرارة فصالحه على أن يحقن دم المقاتلة ، وأن يأخذ ما عندهم من نقود الذهب والفضة والسلاح وربع السبى. وبعد أن تمّ الاتفاق على الصلح ورد على خالد كتاب من أبى بكر يأمره بقتل مقاتلتهم ، وقد كتبت شروط الصلح فوفى خالد للقوم بما عاهدهم عليه.

بعد أن انتهى الصلح على هذا الوجه رجعت بنو حنيفة إلى الإسلام فأرسل خالد وفداً منهم إلى أبى بكر. فقال لهم حين قدموا عليه : ويحكم ما هذا الذى استنزل منكم ما استنزل ؟ قالوا : يا خليفة رسول الله ، قد كان الذى بلغك مما أصابنا. كان امرءاً لم يبارك الله عز وجل له ولا لعشيرته فيه ، ثم سألهم عن بعض أسجاع مسيلمة ، فتلوا عليه شيئاً منها ، فقال : سبحان الله ! والله ما خرج هذا إلا من إلٍّ ولا بَرٍّ فأين يذهب بكم ؟.

وبهذا انتهى أمر بنى حنيفة بعد أن عضت المسلمين حربهم ، وقتل فيها كثير مالمهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان. وأقام خالد بواد من أودية اليمامة يقال له الوَبَر وقد قتل فى هذه الحرب كثير من حفاظ القرآن.

اليمن والأسود العنسى

كان باذان عاملا للفرس على اليمن ، فلما أسلم وأسلمت اليمن أقره رسول الله صلى الله عليه وسلم على ما كان فى يده حتى مات. وبعد وفاته جعل رسول الله ابنه شهراً والياً على صنعاء ، وولى على بقية اليمن عمالا آخرين ، وجعل معاذ ابن جبل معلما ينتقل فى كل ولاية من هذه الولايات.

حدث قبل وفاة رسول الله أن قام رجل من عنس إحدى قبائل قحطان اسمه الأسود العنسى كان كاهناً فتنباً ، وتابعه على أمره قوم من أعراب اليمن ، فاشتدّ بهم ساعده واقتحم بهم بلاد نجران ، فلم تلبث أن دانت له ودخل فى أمره عَوَامٌّ مَذحج ، فكثر سواده وأَمَر أمْرُه.

وكان الرجل رأى أن التريث يفسد عليه أمره ، فرأى أن يبادر الفرصة قبل أن يجتمع أمر المسلمين وتتدبر القبائل فى شأنها. فقصد صنعاء وهى أكبر حواضر اليمن وأكثرها حاضراً وأوسعها ثروة ، فنازل عاملها شهراً وقتله وهزم الأبناء ، وهم مولدة الفرس باليمن. ولم يكن بين خروجه لهذا الأمر واستيلائه على صنعاء سوى خمس وعشرين ليلة ، ثم تزوج بامرأة شهر بن باذان. وصار الرجل لا يميل إلى قوم إلا دخلوا فى أمره أو صانعوه تقية وإبقاء على أنفسهم وذريتهم ، وجعل أمره يستطير استطارة الحريق ، وقد كتب عمال رسول الله إليه بشأن الأسود وما يصنع ، فأرسل عليه السلام كتاباً على يد وبر بن يُحَنَّس إلى من بصنعاء من الأبناء يأمرهم فيه بالقيام على دينهم والنهوض إلى العمل فى أمر الأسود وقتله بكل ما يمكن من الوسائل مصادمة أو غيلة ، وأن يبلغوا من رأوا عنده نجدة وديناً.

عـمل القوم على أمـر رسـول الله صلى الله عليـه وسلم ، فرأوا أمـر الرجل مستصعباً عليهم. وبينما هم على هذه الحال إذ علموا بتغير الأسود على قيس بن عبد يغوث المرادى ، وكـان رئيس جنده وقد خبثت نية الأسـود عليه وأضمـر له الشر ، وأعلمه أن الوحى أتاه وقال له : إن الملك يقول : عمدت إلى قـيس فأكرمته حتى إذا دخل منك كل مدخل وصار فى العز مثلك ، مال ميل عدوك وحاول ملكك وأضمر على الغدر. إنه يقول : يا أسود يا أسود يا سوأة يا سوأة ، اقطف قنتَّه وخذ من قيس أعلاه وإلا سلـبك أو قطف قنتك. فقـال قيس : وأقـسم به ، كذب وذى الخـمار. لأنت أعظم فى نفسى وأجل عندى من أن أحدث بك نفسى. فقال الأسود : أتكذب الملك ؟ قد صدق الملك وعرفت الآن أنك تائب !

انتهـز الأبناء هذه الفرصـة ودعوا قيـساً إلى ما يرون من الفـتك به ، فلبى ثم أفضوا إلى آزاد امرأة الأسـود التى تزوجها بعد شهر بن باذان بأمرهم وقـال من لقيها منهم : يا ابنة العـم قد عـرفت بلاء هذا الرجل عند قـومك قـتل زوجك وطأطأ فى قـومك القتل وسـفل بمن بقى منهم وفـضح النساء ، فـهل عندك من ممالأة عليـه ، إخراجه أو قتله ؟ قالت : نعم ! والله ما خلـق الله شخصاً أبغض إلى منه ، ما يقوم لله على حق ولا ينتهى عن حرمة ، فإذا عزمتم فآذنونى.

وفى هذه الأثناء جاء كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الأبناء عامر بن شهر وغيره ، ووصل كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أهل نجران : عربهم وسواهم ، فانحازوا إلى ناحية يريدون قـتال الأسود ، وكاتبوا من بصنعاء من الأبناء ليعينوا عليه.

غير أن المؤتمرين بقتله عاجلوا الأسود بممـالأة آزاد زوجته وقتلوه فى قصره وهم فيروز وداذَوَيه وقيس. ولما طلع الفجر أعلن قاتلوا الأسود بشعارهم من فوق القصر ، وفر أصـحابه وجـعلوا يترددون بين صنعـاء ونجران. وكـاتب القوم رسـول الله بمقتل الأسود فوافى رسولهم المدينة عقب وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

كان الأسـود قد اسـتغلظ ملكه وثبت أمـره ، ودان له بالطاعة ما بـين صنعاء وسواحل الـيمن إلى عـمل الطائف إلى الأحسـية وعليب. وبموته ظن المسلـمون فى صنعاء وما وليها أن جو البلاد قد صفا ، ولكن لما داهمهم خبر وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم عاد الأمـر إلى أشد مما كان عليه وارتدت العـرب وعادوا إلى الخلاف تابعين لبـعض الرؤساء ، فـبعث أبو بكـر إلى من بقى على إسلامـه من سادةاليـمن ورؤسـائهم يأمرهـم بالثبـات على أمـرهم والوقوف حـيـال المرتدين حـتى توافيـهم النجدات.

وذلك أن قيس بن عـبد يغـوث وهو رئيس جند الأسود والعامـل فى قتله بادر إلى الردة حين علم بوفاة رسـول الله صلى الله عليه وسلم وكـاتب المنهزمين من جند الأسود فاجتمـعوا إليه. وأراد أن يقتل رؤساء الأبناء فصنع وليمـة دعاهم إليها ، فلم يظفر بأحـد منهم سوى داذويه وامتنع فـيروز وخُشْنُش بقـبيلة خَوْلان واستـتب الأمر لقيس بصنعاء. وغـرب عيالات الأبناء فاستـخلصهم فيروز بمعـونة بنى عقيل وعك. واجتـمع لفيروز جـموع من عرب اليمن كـعقيل وعك وغـيرهم ، فنازل قيـساً دون صنعـاء فهـزم قيـس ومن معـه من فل جنود الأسـود ومن خفّ إليه من سـواهم ، وخرجوا إلى مجالاتهم التى كانوا فيها بعد مقتل العنسى يصعدون ويصوبون.

فى أثناء هذا القتال وافى جـيش الإسلام الذى يقوده المهاجر بن أبى أمـية وكان أبو بكر قد بعـثه لقتـال جنود الأسود العنسى ومعـاونة الأبناء. ثم جاء على أثر ذلك عكرمة بن أبى جهل بجنوده بعـد أن انتهى من عمان ومهرة ، ويتـعاون هذه الجيوش هزم الله المرتدين ومنح جنود الإسلام أقـفيتهم ، وأسـر قيس وعمرو بن مـعد يكرب الزبيدى وكان قد ارتد وتـابع الأسود ثم وازر قيسا على قتال المسـلمين ولما جاء عمرو وقيس أسيرين إلى أبى بكر أنب قيسا على عـمله وحقن دمه ووبخ عمرا على ما كان منه وقال لـه : أما تستـحى أنك كل يوم مهـزوم أو مأسور ؟ لو نصـرت هذا الدين لرفعك الله. فـقال : لا جـرم لأقبلنّ ولا أعود ، فـأطلقهمـا ورجعـا إلى قومهـما مؤمنين. وكان لعمرو بن معد يكرب البلاء الحسن فى فتوح نهاوند ، وقد كان عمرو

قد انهزم فى أول ردته من خالد بن سعيد بن العاص وغنم منه خالد سيفه الصمصامة ، وقد بقى إلى عهد الواثق فدفعه إلى صيقل ليسقته فتغير.

ردة كندة

سبب ردة كندة ، اختلاف شجر بين زياد بن لبيد الأنصارى عامل صدقات كندة وبين شيطان بن حجر وأخيه العداء فى ناقة وضع عليها ميسم الصدقة غلطا وأبى زياد أن يردها. واستصرخ شيطان وأخوه قومهما بنى عمرو بن معاوية من كندة فقاموا عصبية لهما وتبعهم غيرهم ، وتعصبت حضرموت والسكون لزياد وكانت الحرب بين الفريقين ، ومال شرحبيل بن السمط وابنه وامرؤ القيس بن عابس إلى زياد فقتل من القوم وسبى. وقام الأشعث وحصره وقومه ، ثم نزلوا على حكمه عدا تسعة منهم وقتل المقاتلة وسبى النساء والذرية وأتى بالأشعث فعفا عنه أبو بكر ورد عليه زوجته وهى أخت أبى بكر وبقى بالمدينة إلى فتح العراق.

ردة أهل البحرين

وإذا يسر الإله سعيدا   لأناس فإنهم سعداء

ليس بين الشقاء والسعادة سوى عقبة لا يقطعها إلا المخفُّون من الشهوات الغالبون على هوى النفس ، المالكون للإرادة المطلقة من سلطان التقليد والشهوة.

وكما مُنِى الإسلام فى أول أمره بقوم قد رانت على قلوبهم أهواؤهم وضعفت نفوسهم عن إطراح سلطان الشهوات والعادات ، فلما لاح لعيونهم فجر كاذب من الآمال مالوا إلى مألفهم القديم ، وأرثوا نار الفتنة وشبوا ضرامها وأبوا إلا الاسترسال فى الرجوع إلى ما كان عليه أباؤهم ؛ فقد رزق أناساً قد استنارت بصائرهم بنور الهدى فكانوا للحق أنصاراً وللإسلام أعوانا : كالجارود بن المعلى العبدى ، وصفوان بن صفوان التميمى ، وعدى بن حاتم الطائى وأمثالهم ممن أراد الله أن يضرب بهم وجوه المرتدين حتى تعلو كلمة الدين. "أشهر مشاهير الإسلام ببعض تصرف".

كان أهل البحرين وهم قبائل من ربيعة قد وفدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حياته ، فأمّر عليهم المنذر بن ساوى. فلما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم كان المنذر مريضا فتوفى فى عقبه ،وارتدّ أهل البحرين كما ارتد غيرهم من العرب.

تمت بكر على ردتها. وأما عبد القيس فكان فيهم الجارود بن المعلى وكان له صحبة برسول الله وفقه فى الدين وصحة عقل ويقين. فجمع قومه وقال لهم يا معشر عبد القيس ، إنى سائلكم عن أمر فأخبرونى إن علمتم ولا تجيبونى إن لم تعلموا!. قالوا : سل عما بدا لك. فقال : أتعلمون أنه كان لله أنبياء فيما مضى ؟ قالوا نعم. قال : تعلمونه أو ترونه. قالوا : لا بل نعلمه. قال : فما فعلوا ؟ قالوا : ماتوا. قال : فإن محمداً صلى الله عليه وسلم مات كما ماتوا. وأنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله. قالوا : ونحن نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وإنك سيدنا وأفضلنا. وثبتوا على إسلامهم.

اجتمعت قبائل ربيعة بالبحرين على الردة ، عدا الجارود ومن تبعه. وقد اجتمع رأيهم على أن يلقوا بمقاليد الملك إلى المنذر بن النعمان بن المنذر الملقب بالغَرور.

قام الحطم بن ضبيعة من بنى بكر بن وائل فى جمع عظيم من المشركين والمرتدين ليستبيحوا حمى الجارود ومن معه من عبد القيس والمسلمين. ونزل القطيف وهَجَر وبعث بعثاً إلى دارين ، وبعثاً إلى جؤاثى وشدد الحصار على المسلمين حتى بلغ منهم الجهد.

بينما كان الحطم يفعل ذلك بمسلمة ناحيته كان العلاء بن الحضرمى يسير إليهم فى الجند الذين معه. فلما كان بحيال اليمامة لحق به ثمامة بن آثال الحنفى فى مسلمة بنى حنيفة ، وقيس بن عاصم المنقرى فى قومه. وأتاه كثير من أهل اليمن فسلك بهم الدهناء حتى إذا كان فى بحبوحتها نزل وأمرالناس بالنزول فى الليل. فما كادت أرجل

القوم تنال الأرض حتى نفـرت الإبل بأحمالها فما بقي عندهم بـعير ولا زاد ولا ماء وأيقن القوم بالهلاك وقد دهمهم من الأمر ما لم يكن لهم فى حساب.

جزع القوم لما أصابهم وحق لهم أن يجزعوا لنفـوس تهلك ضيعة فى غير غناء إذ المكان قفـر لانبات فيه ولا ظل ولا مـاء ، وقد انبتّ ما كان مـوصولا بأيديهم من أسباب الحياة. غـير أن العلاء أمير الجيوش أظهر من رباطة الجـأش والثقة بالله تعالى والرجاء فى غوث هذه العـصابة ما أثاب للقوم بعض الرشد. فلما أصـبح دعا العلاء ربه ودعوا مـعه ، ولم يمض قليل من الزمن حـتى رأوا لمع الماء فمـشوا إليـه وشربوا واغتـسلوا ، وما تعالى النهـار حتى أقبلت الإبل تجـتمع من كل وجه فـأناخت إليهم فسقوها. والذى يخيل إلىَّ أن الإبل كان الجـوع قد أخذ منها فلما ، نزل القوم ظنت أن بالمكان شيئاً من الكلأ فتفرقت تطلب المرعى ، فلما لـم تجد شيئاً بقية ليلها وصدر نهارها ثـابت إلى مجتـمع القوم لعـهدها أن الناس لا ينزلون إلا حـيث يكون الأكل والماء. وقد كتب العلاء بما لقى من عجيب الأمر ووجدان الماء بمفازة الدهناء وما صنع الله لهم من اللطف فى سفرهم.

نزل العلاء حين خلص من الدهناء إلى هجـر وأمر الجارود أن ينزل على الحطم ما يليه واجتمع أهل البحرين إلى الحطم سوى أهل دارين وانحاز المسلمون إلى العلاء وخندق كل على عسكره وكانوا يغدون إلى القتـال ويروحون واستمر الأمر على ذلك شهراً – وبينما هم على هذه الحال إذ سمع المسلمـون ضوضاء في معسكر أعدائهم ، فأرسل العلاد العيـون فأخبر بأن القوم قد شربوا الخمـر من النهار ، فلما أخذت من رؤوسهم أحدثوا ما سـمع من الضجيج ، فرأى العلاء الفرصـة سانحة للإيقاع بهم ، فخـرج بالمسلمين حتى خالط القـوم وهم على حالهم ، وأعلموا السـيف فى رقابهم كيف شاءوا ، وهرب الكفـار بين متردٍّ وناج ومقتـول ومأسور ولم يفلت رجل إلا بما عليه ، وأسر المنذر بن النعمان وقتل الحطم ، وأرسل العلاء إلى من ثبت على إسلامه من أهل تلك النواحى أن يقـعدوا للمنهـزمين بكل طريق ، فـفعلوا ، وغنم مـا كان

بمعكسر أعدائه واتبع العُلاّلَ واجتاز الخليج عند دارين بجيشه لا يغمر الماء سوى أخفاف الإبل والتقوا بمن كان قد ركب السفن من فلّ ذلك العسكر فقتلوهم ولم يبق منهم مخبر وضرب الإسلام بجرانه فى تلك الناحية. وكان مع المسلمين راهب من أهل هَجَر فأسلم وقال : خشيت أن يمسخنى الله بعدها ، فيض فى الرمال ، وتمهيد أثباج البحر ، ودعاء سمعته فى عسكرهم فى الهواء سحراً "اللهم أنت الرحمن الرحيم لا إله غيرك ، والبديع فليس قبلك شىء ، والدائم غير الغافل ، الحى الذى لا يموت ، وخالق ما يرى وما لا يرى وكل يوم أنت فيه فى شأن علمت كل شىء بغير تعلم" فعلمت أن القوم لم يعانوا بالملائكة إلا وهم على حق. وبذلك انتهى قتال المرتدين في هذه الناحية.

ردة أهل عمان ومهرة

كان أهل عمان قد أسلموا فى حياة رسول الله وولى عليهم جيفراً وعبداً ابنى جُلندا ، وكان قد نبغ فى عمان ذو التاج لقيط بن مالك الأزدى وادعى بمثل ما ادعى غيره من المتنبئين – وقد خافه ابنا الجلندا فعاذا بالجبال وكاتبا أبا بكر بشأنه. فبعث إلى هذا الوجه حذيفه بن مُحْصَن وابتعه بعرقجة بن هريمة على الوجه الذى قدمناه. وأرسل فى أثرهما عكرمة بن أبى جهل بعد نكبته باليمامه فلحقهما دون عمان.

أما لقيط فقد جمع جموعه بدبى ووافته جيوش المسلمين. فلما التقى الجمعان كان بينهما من القتال أشده. واستعلى المشركون على المسلمين. وكادت الدبرة تكون عليهم ، وبينما هم على هذه الحال إذ منَّ الله على جيوش الإسلام بمدد اشتدت به سواعدهم ، فوافاهم جيش من بنى ناجية يقودهم الخرِّيت بن راشد وآخر من عبد القيس وعليهم سيحان بن صوحان ، ففت ذلك فى أعضاد المشركين ولم يلبثوا أن ولوا الأدبار والمسلمون يأخذونهم بالسيف في كل سبيل فقتلوا منهم مقتلة قل أن سمع العرب بمثلها فى ماضى حروبهم.

ولما فرغ عكرمة من أمر عمان سار بجيشه ومن انضم إليه من ناجية وعبد القيس وراسب وسعد واقتحم بهم بلاد مهرة فوجد القوم فى جمعين من مهرة مختلفين : أحدهما تحت إمرة سخريت رجل منهم ، والثانى تحت إمرة المصبح أحد بنى محارب.

عمد عكرمة إلى إعمال حيلته فكاتب سخريتا ودعاه إلى الإسلام فأجاب بمن معه. وأما المصبح فلم يقبل ، فشد عكرمة عليه بمن معه وصدق الحملة فى قتال المرتدين رجاء أن يمحو ما لحقه من غضب أبى بكر فى قتال أهل اليمامة ، فهزم جموع المرتدين وغنم المسلمون ما شاءوا ، وأقام بعد ذلك يسكن الناس ، وعاد القوم إلى الإسلام.

كانت حروب سوى ما ذكرنا بين المسلمين وأهل الردة وفى جميعها كان النصر حليف المسلمين.

نرى مما قدمنا أن أبا بكر قام فى شأن الردة وأهلها قياماً محموداً ، وأخذ الأمر بحكمة سامية وهمة نادرة المثال لا توجد إلا فى الأبطال الذين لا يجود بهم الزمان إلا نادراً.

نار تأجّجت في كل ناحية وصقع ، وعصا قد انشقت ، وكلمة تفرقت ، وأمة قد صار أهلها عباديد ، وركب كل حى هواه. فشمر لها أبو بكر ، وضرب المدبر بالمقبل ، ورمى كل نابح بحجره ، وسدّ كل ثغر ، ولقى كل كارثة بأمثال عدتها (كالسيل يقذف جلموداً بجلمود) ، فلم تنقض سنة من ولايته حتى اختنق وليد الفتنة وقد شب عن الطوق ، وأخمد تلك النيران المستعرة كأنما قد قال لها : كونى برداً وسلاما فكانت ، واجتثّ الفتنة من أصولها ، وأدال بطن الأرض ممن على ظهرها من أهل الشقاق ، وأتبعهم بين سمع الأرض وبصرها فجعلهم كأعجاز نخل خاوية ، فهل ترى لهم من باقية ؟

عزيمة صادقة وحسن نظام فى تزجية الجيوش ، وسرعة فى تلقي الأخبار وإلقاء الأوامر ، وقواد قد خرَّجتهم الحروب وصقلهم الوقائع ، وجنود باعوا أنفسهم فى سبيل الله. كل ذلك عوامل نصر قل أن تجتمع لقائد إلا بمعجزة أو توفيق من الله.

من نظر نظرة صادقة فى التاريخ ، لا يتردد فى أن أبا بكر مجدد دين الإسلام وممسك رمقه بإذن الله فى ذلك الوقت الذى عم فيه الذهول وغلبت الدهشة على العقول. وعلى الجملة فإن انتصار جيوش المسلمين على سائر العرب المرتدين قد استأصل من النفوس الطماعة فى الارتداد ، واستأصل البقية الباقية فى أعماق القلوب من الشرك ، ووحَّد وجهة العرب وأيأسهم من كل دين سوى الإسلام ، وجمعهم على الطاعة لولى أمر المسلمين. وكانت ردة العرب وما استتبعت من الحروب بمثابة تمحيص نفى من الأمة الزيغ ، وأخرج الخبث وصفى الإسلام مع الشرك حتى صار الدين خالصاً لله.

ظهور الأمة العربية

لم تظهر الأمة العربية بين الأمم المتحضرة ذات الفتوح والمطامع فى الاستعمار منذ عرفها التاريخ إلى أن انتهى أبو بكر من أصحاب الردة. نعم إن المؤرخين يذكرون عن بعض ملوك اليمن أخباراً غريبة فى الغزو فى بلاد بعيدة ؛ ولكن ذلك لم يحرز من الثقة ما يحقق لهم ذلك المظهر ، ولئن كان ذلك ففى أزمان طال عليها القدم ، وعفى كرّ الغداة ومرّ العشى على تلك الآثار.

لم يكد أبو بكر يُخَلِّصُ يده من أهل الردة حتى أمسك بكلتا يديه بدولتى فارس والروم ، يريد أن يلقى القوم بأيديهم إليه بالطاعة ، وأن يدخلوا فيما دخل فيه أهل الجزيرة العربية. والفرس والروم هما ما هما ضخامة ثروة ، وسموّ مدنية ، واستبحار عمران ، وشموخ عزّ ، وانفساح رقعة ، وقوة بطش ، وخصوبة أرض واستحكام ملك ؛ وما شئت من موجبات السلطان والرفعة والعز.

بعيشك حدثني. ماذا حدث في الأكوان فقلب الوضع وجعل الأصل مُغَلَّباً للفرع ، وصير المأكول آكلا ، وأعاد النبيه خاملا ، والغالب مغلوبا ، والسالب مسلوباً ؟ وبأى سلطان استنسر البغاث ، واستأسدت الأوعال ، وجرت بيض الأفيال النمال ؟ أتجتاح دولتا الشرق والغرب ، وتزلزل عروش القياصرة والأكاسرة ، وتفض بيضة العالم القديم ، وتفل جيوش أوروبا وأسيا وإفريقية بأيدى العرب وهم فى ذلك الحين لفى حرب داخلية قد حصدتهم حصداً ، وأكلت عددهم على ما هم عليه من قلة وذلة ، وسذاجة في العيش ، وعدم دربة فى فنون الحرب النظامية ، وضعف عدة ، وضيق ذات يد ، وقلة عدد بالقياس (فى كل ذلك) على ما عند الدولتين ؟ إنه لمرتقى عال يصعب تسنمه ، ومرام وعر يعز على من رامه ويطول.

كيف تسنَّى للعرب أن يستبيحوا عرين الآساد ، ويدرسوا الحصون الشداد ، والمعاقل ذات العتاد ؛ بعدد لا يزيد عن حامية مدينة من المدن ، أو حرس ناحية من النواحي ؛ مع رقة أحوالهم ، وخشونة عيشهم ، وقلة مددهم ، ونقصهم عن المدافعين فى جميع مواد الحياة ؛ وكل الوسائل والعوامل المادية التى يحرز بها النصر وينال بها الظفر ؟.

قد كان العرب في جميع أطوار حياتهم بحيال فارس لا يهجس فى نفوسهم هاجس بالاستطالة عليها ، أو مساماتها فى الملك ومطاولتها فى السلطان ، بل كان قصارى من سمت به همته إلى الملك وتعلق بأن يكون له ولقومه ما يشبه أحوال الناس. أن يكون لهم تابعاً ، ولأوامر ملوكهم خاضعاً ، ليس به منعة منهم ولا يد له بمدافعتهم عن مراد يريدونه ، وقد كان الروم فى شمال بلادهم ومن صاقبهم من العرب عما لهم على من يليهم من عرب نواجيهم يدينون للرومان بالطاعة ، ويبذلون فى مرضاتهم غاية الاستطاعة. لا يحدّث أحد ملوكهم نفسه بالاستبداد بأمره ولا يطمع فى اقتطاع أمور من يليه دونهم. ومن كان يحلم ببعض ما كان منهم فى عهد

أبى بكر وعـمر ، سكت وبكت ، واحتـسب ذلك منه بعض الأوهام ، أو أضـغاث أحلام. بأى لقاح لقح دم هذه الأمة فوثبت إلى ما وثبت ، وأتت من ضروب خوارق العادات ما أتت ؟.

كأنى بصـائح يصيح : إن تضـعضع حال الدولتين بـسبب الحروب ، وانتـشار المظالم والانقسـامات الدينية فى بعضـها. دفع العرب إلى اجتـياحهمـا والإتيان على ملكهما بالفتح والاستيلاء (ومن لا يسوس الملك يخلعه).

وإنى أجيبـه بأن ذلك قد يكون بعض الأسبـاب وليس يمكن أن يكون كلها. إذ العرب لم ترتق حـالهم إلى أن يكونوا أكثر من أحـد الفريقين عدداً ولا أقـوى عُدَّة. ليس العرب فـيما أتوا بأولى مـن ملوك الهياطلة فى شـرق فارس وخاقـان الترك فى شمالهم ، وهم أمم لهم ملك منسق ، وأمر مجتمع ، وعدد وافـر ، وعدة قوية ، ومدد مـتصل ، وثروة عـريضة ، ومطامع فى الفتح ، وسـابقة صـول فى فارس ، ونكاية فى جنودهم وإيغال فى حدودهم ؛ وليس للعـرب من هذه الشؤون والبواعث ما لهؤلاء القوم ، فما الذى أهاب بالعرب إلى أن يأتوا ما أتوا ، وأحجم بهؤلاء وهم أعلم بحـال جيـرانهم من العرب وأقـوم على شـئونهم ؟ فـلابد أن يكون شىء وراء ذلك. وأيضاً فليس العرب بأولى من إحدى الدولتين بالاستيلاء على أخراهما ، وكل جندهم لا يبلـغ عدده مـا يمـكن أن يجتـمع من إحـدى الولايات ، فكان الأجـدر بإحداهما أن تستولى على الأخرى بطريقـة أسهل من استيلاء العرب وهم أضعف من أهل لاية من الولايات ، وكل منهما تعلم من حال الأخرى ما لا يعلم العرب.

أريد أن أذكر الدافع الذى حدا بالعـرب إلى الفتح ثم أتبعه ببيـان الأسباب التى ساعـدتهم على ذلك ، وسهلت عليهم نيل مـا نالوا بسرعة لم يـعرفها التـاريخ لأمة فاتحة قبلهم ولا بعدهم ، ولا لأمة فى مثل حالهم أو خير منها.

جرأة العرب على الفتح

إن العرب فى أيام باديتهم ، وفى جميع أطوارهم قبل الإسلام ، كانوا ينظرون إلى الروم والفرس نظر الهيبة والاحترام ، يضربون الأمثال بعزهما وسطوتهما وضخامة ملكيهما ، لما ينظرون فى أهلها من حسن الحال ، وقوة السطوة ، وضخامة العمران ، وما عليه حال العرب من الرقة وخشونة العيش وقلة الريف وضعف عُدَّة الحرب ، إذ لا يعرفون منها سوى القوس ، والرماح مشدودة بالعصب ، والسيوف يتقلدونها معلقة بالميسور من قدٍّ أو خرقة. والقوم لم يهجس فى خواطرهم ولم يمر فى خيالهم قبل الإسلام أن يخرجوا من جزيرتهم غازين لجيرانهم ولا أن ينازعوهم الملك.

لا شك أن الإسلام قد بدل أحوال العرب وأنشأهم خَلْقاً جديداً ، وغير ما كانوا عليه من الأخلاق وبدلهم منها أخلاقا لا تلتئم مع الانكماش والانزواء. كانوا قبائل متنافرة ، وبطوناً متدابرة ، يضرب بعضهم رقاب بعض ، لا يبيت أحدهم إلا على حذر ممن بعدت به العصبية من بنى عمه وذوى قرابته. فأزال الإسلام تلك الأضغان التى رانت على القلوب ، واستخرج تلك الأحقاد ، وألف بين قلوبهم فأصبحوا بنعمة الله إخواناً أشداء على أعدائهم ، رُحَماء بينهم. وجعلوا عوامل التفريق دبر آذانهم ، وصاروا على قلب رجل واحد.

ومن المعلوم فى طبيعة الجماعات أن اجتماعهم يحدث فيهم قوة تشجع الجبان وتغرى الناكل بالإقدام. فما قولك فى أمة عظيمة إذا اجتمعت وكانت الشجاعة أخص أوصاف أفرادها ، لا شك فى أنها تقدم على العظائم ، وتستهين بالأخطار ، ولا شك فى أنها تقوم بما لا تقوم به عصبة أوفر منها عدداً وأوفى عدداً.

لا يرجى غير ذلك من عصبة تغلغل في مكان الاعتقاد منها صدق الداعى الذى يدعوها إلى سعـادة الدنيا والآخرة ، وجرى من كل فـرد مجرى دمه فى مـفصباله أن الآخرة خيـر وأبقى ، وأن الله اشترى من المؤمنين أنفسـهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقـتلون ؛ وأن الذين يقتلون فى سبيل الله ليسوا أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما آتاهم الله من فضله ، ويستبشرون بالذين لم يلحقـوا بهم من خلفهم وقـد أوقر فى نفوسـهم أنهم سيفـتحون المدن والأمـصار ، ويجوزون المـمالك والأقطار ، ويأكلون كنوز كـسرى وقـيصر. ووعـد بعض أولئك الأعراب - الوالين على أعقـابهم - أنه سيتحلى بحلى شاهنشاه كـسرى. وكرّر،وعد الله لهم بالنصر على الملوك والاستعلاء على المـالك فى غير موقف حتى لم يبق فى نفس أحد مجـالا للشك ولا محلا للريب. وفوق ذلك قد ذوقـهم حلاوة النصر فى مواطن كثيرة ، أدركوا فيهـا فوزاً لم يكونوا يؤملون بعضه ، وقادهم إلى فتوح باهرة فأرته على يده الأيام ما لم يرهم المنام ؛ وقد استقرّ فى مكان اليقين من نفوسهم أنهم إذا صدقت منهم النيـات فى لقاء عدوهم فاز المقـتول منهم بسعـادة الآخرة ، وأحرز الباقى سعادة الدنيا **﴿قل هل تربصـون بنا إلا إحدى الحسنيين ونحن نـتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا﴾** هذان هما العامـلان اللذان جرّا العرب على المغامرة بحرب أقوى الدول شوكة وأشمخها بنياناً.

أما الاتحاد فأجلى مظاهره أن دين الإسلام عـنوانه التوحيد ، وقد نزلت الآيات الكثيرة حاثّه على الاتحـاد واجتماع الكلمة ، منفرة من التفـرق ، محذرة منه ؛ سواء كان التفرق فى الدين ، أو فى الكلمة والرأى. وقد جاء فى الدين أمور هى رمز أبدى للوحدة كـاتحاد جميع المسلمين فى اسـتقبال مكان واحـد ، يولون وجوههم شطره ، أينما كان الواحد منهم وحيث وجد ، وهو الكعبة. وأوجب على المستطيع منهم حج هذا المكان وقضـاء النسك عنده تأكيداً لمعنى الوحدة مع فـوائد أخرى. وأوجب (على سبـيل الكفاية) اجتـماع أهل المحلة خمس مـرات لأداء الصلوات المكتوبة جمـاعة ،

وذلك فى كل يوم وليلة ، وأوجب اجتماع أهل البلد الواحد فى كل أسبوع مرة لصلاة الجمعة. هذا فضلا عن اجتماعهم عند الأمور المهمة فى سرور أو غيره للصلاة كصلاة العيدين والاستسقاء والكسوف والخسوف وغير ذلك. وإنك لا تكاد تقرأ خطبة من خطب الخلفاء الراشدين إلا وتجد فيها ذكر الاتحاد ، والاتفاق وما نالت الأمة ببركة الاتحاد بعد الاختلاف ، وإنه منّه من منن الله تعالى على الأمة أعتقهم الدين بها من الأهواء المختلفة والآراء المتباينة. أما ما جاء فى الأحاديث فشىء كثير جداً لا يكاد يستقصيه مستقص.

وأما تحققهم صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم فيماجاءهم به من وعد الله لهم بإحدى السعادتين إن قتلوا أو فازوا فيما أخبرهم به من الاستعلاء والتمكن فى الأرض وغلبتهم على دولتى كسرى وقيصر فظاهر من أقوال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما فاهوا به فى حضرة الملوك وقواد الأجناد ، كقول المغيرة بن شعبة لرستم حين قال له : "إنكم ستموتون فيما تطلبون" إذ قال قله المغيرة : "يدخل من قتل منا الجنة ، ومن قتل منكم النار. ويظهر من بقى منا على من بقى منكم" وهذا عبادة بن الصامت قد خوفه المقوقس جموع الروم ، وأن العرب فى لة عددهم لا يقدرون عليهم ، فقال عبادة : "يا هذا لا تغرن نفسك ولا أصحابك أما ما تخوفنا به من جمع الروم وعددهم وكثرتهم وأنا لا نقوى عليهم ، فلعمرى ما هذا الذى تخوفنا بالذى يكسرنا عما نحن فيه ، وإن كا ما قلتم حقاً فذلك والله أرغب ما يكون فى قتالهم وأشد لحرصنا عليهم ، لأن ذلك أعذر لنا عند ربنا إذا قدمنا عليه. إن قتلنا عن آخرنا كان أمكن لنا فى رضوانه وجنته ، وما شىء أقر لأعيننا ولا أحب لنا من ذلك. وإننا منكم حينئذ لعلى إحدى الحسنيين : إما أن تعظم لنا بذلك غنيمة الدنيا إن ظفرنا بكم، أو غنيمة الآخرة إن ظفرتم بنا وإنها لأحب الخصلتين إلينا" الخ

الأمور التى ساعدت العرب على الفتح

قد اختص المسلمون في أول الفتح بأمور ساعدتهم على قصدهم وكانت عوامل

باجتماعها كان فوزهم ، ولم يكن لأعدائهم مثل ما لهم ، فكانت لهم بها الميزة على خصومهم. نذكر منها :

(١) نشاط العرب وخفة أثقالهم لإلفهم خشونة العيش ، وتجافيهم عن الترف ومذاهبه بما ألفوه من سكنى البادية ، وتعودهم الجوع والعطش ، واجتزاؤهم بالقليل مما يمسك الرمق ، فلا يتكلف أحدهم ما يثقل كاهله ، أو يشق على راحلته حمله كما يفعل الجند في الأمم المتحضرة ، فإنهم يحتاجون إلى أصناف منوعة متعددة من المأكول والمشروب وأدوات صحية وعقاقير طبية وعلوفات للماشية وأواني للمياه وكل ذلك مشغلة للجند ، عائق لهم عن سرعة السير.

ولا تنس أن العرب معهم الإبل التى تصبر عن الطعام والشراب أياماً عديدة فلا تعوقها الصحارى ، ولا يتهيبون القفار وهى معهم.

إن الجند المتمدن لا يستطيع السير فى بلاد غير متمدنة إلا إذا كان معه الأحمال من البقسماط واللحوم المحفوظة والسكر والشاى والبن والشمع وفناطيس[1] الماء والخيام والأمتعة وعلف الماشية. وقد كانت حملة المتمة سنة ١٨٩٧ - ١٨٩٨م عددها ١٥٠٠ جندى ، وجمالها أربعة آلاف ، ومعها الجمالة والخدم. أما الرجل من أهل السودان (وهم عرب) فكان الواحد منهم فى غنى عن ذلك كله بجراب فيه شيء من الذرة الجافة أو الدخن يتأبّطه ، وربما كان ذلك مؤونة شهر أو شهرين. وهو فى ذلك يكاد يكون نسخة مطابقة للأصل من المجاهد العربى في عصر الفتح.

(٢) اعتقاد المسلمين بالقضاء والقدر ، وقد رسخ ذلك فى نفوسهم أعظم رسوخ بما جاء فى الكتاب العزيز من مثل قوله : ﴿**ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها**﴾وقوله﴿ **قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل من مضاجعهم**﴾ وقوله : ﴿**إذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون**﴾ وقوله : ﴿**قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا**﴾. فكان هذا الاعتقاد يحدو بهم إلي الاستهانة بالأخطار لأنها لا تقرب أجلا ولا تدنى حيناً. ولهذا

(١) فناطيس : أطلق هذا اللفظ على أوعية توضع فيها المياه لاستعمالها عند الحاجة.

أبدوا من البسالة ضروباً ، ومن الشجاعة والإقدام فنوناً : ولم يكن اعتقادهم ذلك على النحو الذى يتخيله الأوربى فيمن اعتقد هذه العقيدة من أنه تكلة مستسلم ، لا يهم بعمل ، ولا ينشط لنافع ، اعتماداً على القضاء والقدر.

(٣) إن العرب وإن كانوا حديثى عهد بالقتال بالزحف ، ولكن القتال لذلك العهد كان يبدأ بالمبارزة غالباً ، فيبدأ الفارس يطلب قرناً ينازله. وخيل العرب أنجب من خيل الفرس والروم ، فهى تدرك الخصم إذا كرت ، وتفوته إذا فرت. وكانوا أقدر على تصريف الأعنة من سواهم ، ففرس الواحد منهم طوع يده. وكانوا أسد بالنبال رمياً ، وكان لذلك يغلب أن يفوز العربى بالغلب على مبارزة فيكسر ذلك من قلوب مقاتليهم ويوقع الرعب فى نفوسهم من أول الأمر ، وخاصة إذا كان المغلوب رئيس الجند أو ممن شهر بالشجاعة فيهم.

(٤) ما كان للمسلمين من الثروة الواسعة فى عظماء الرجال من القواد ذوى الحنكة والدربة قد خرّجتهم الحروب وثقفتهم الوقائع فبرزوا كما يبرز السيف من الصقال. فإن ما كان فى طبيعة العرب من حب الغزو والإعارات والتلبب للصيال والحفاظ للجار ؛ كل ذلك أرَّث نار الحرب بينهم. وقد كانت وقائع الإسلام من غزوات وسرايا مدرسة عليا زادتهم تبصرة بالحروب ومكائدها وعوّدتهم إحراز الفوز.

وقد جاءت حرب الردة فزادتهم فى الحرب بصيرة ، وفى مكايدها حذقاً ومهارة.

فإذا ذهبنا نعدّ أمثال خالد بن الوليد وخالد بن سعيد وأبى عبيدة بن الجراح وسعد ابن أبى وقاص ويزيد بن أبى سفيان وعلى بن أبى طالب ممن تتجلى فيهم البسالة والحذق فى قيادة الجنود وجدنا عدداً جماً ، وإذا أردنا أن نعد أمثال عمرو بن العاص ومعاوية بن أبى سفيان والمغيرة بن شعبة ممن يغلب عليهم الدهاء وحسن السياسة وجدنا عدداً فوق الكفاية وعلى رأس هؤلاء وأولئك أبو بكر وناهيك الرجل فى الحزم والتقوى وصدق العزيمة والعدل.

إن أمة تضم حاشيتها أمثال من ذكرنا جديرة بأن تتبوأ أعلى مراتب العظمة ، وتحوز أقصى غايات الفخار.

(٥) نجدة العرب واستمساك كثير منهم بأسباب العصبية ذلك أن العرب المنبثين في نواحى الشام الخاضعين للروم ، وكذلك العرب الذين يناوحون الفرس ، لم يبد منهم كبير عناد في مقاومة المسلمين ومقاتلتهم وإن كانوا على غير دينهم فإن الربط التى كانت ترتبط العرب فى تلك الأصقاع بفارس والروم لم تكن مريرة محكمة ، والقوم لم تزل أنفسهم تشعر بأن العرب قومهم وفئتهم التى يرجعون إليها ، فلم يكونوا يحتاجون إلى كبير علاج في دخولهم فى الإسلام أو الدخول فى طاعته. وكان ذلك من الأسباب التى سهلت فتح بعض البقاع وفتت فى أعضاد أعدائه.

(٦) حفظ خط الرجعة. فلا يوغلون فى البلاد قبل أن تدين لهم بالطاعة ويثقوا بأن العدو قد انقطع طمعه من مفاجأتهم من خلف ظهورهم. وكان ذلك في مبدأ الأمر هيناً عليهم فى جهات الشام. فإن الصحراء من خلفهم تكون لهم ملجأ إذا خافوا أن يلحق بهم عدوهم ، ولا يتقدمون خطوة فى أرض عدوهم إلا إذا كانوا قد استولوا على ما على يمينهم وشمالهم من المدن والبلاد ودان لهم بالطاعة وسدوا كل ثغر بالمقاتلة.

وقد كانت تلك القاعدة مرعية عندهم يحرصون عليها كل الحرص.

وقد قال المثنى بن حارثة الشيبانى : "قاتلوا الفرس على حدود أرضهم على أدنى حجر من أرض العرب ، ولا تقاتلوهم بعُقْر دارهم ، فإن يظهر الله المسلمين فلهم ما وراءهم ، وإن كانت الأخرى رجعوا إلى فئة ثم يكونون أعلم بسبيلهم وأجرأ على أرضهم إلى أن يرد الله الكرة عليهم " وقد أقام سعد بن أبى وقاص بمدائن كسرى بعد افتتاحها ، وكذلك عمرو بن العاص أقام بالاسكندرية. فقال عمر بن الخطاب : "لا تجعلوا بينى وبينكم ماء ، متى أردت أن أركب إليكم راحلتى حتى أقدم عليكم قدمت" فتحول سعد إلى الكوفة وتحول عمرو إلى الفسطاط.

(٧) مـا كانت عليـه أحـوال الدولتين : الفارسـية والـرومانيـة من الاعتـلال والاختـلاف. وقد أتيت على شـرح تلك الأحوال فى المحاضـرات الماضيـة بما يترك صورة مصغرة للدولتين فى نفس القارىء.

ذلك أن حـال كل من الدولتـين كـان فى انحطاط وتدهور ، فـقـد فـسـدت الأخلاق، وانحطت الهـيأة الاجتماعـية ، وبدأ التحاسد والتـباغض فى بيت الملك ، وخبثت النيات ، وكثـرت الدسائس بين الأب وابنه والأخ وأخيه ، ونزا على عروش الملك أبناء السوقة والغاصبون. هذا فضلا عن الاختلاف فى الأحوال الدينية ، ودوام المنازعة بين أهل الدولتين ، واستعار نار الحرب ؛ فما تكاد الدولة منهما تغمد السيف من حـرب فى الخـارج حتى تستله على الرعـيـة فى الداخل ، وكل ذلك دعـا إلى تضعضع حال الدولتين وأوجب اختلالهما.

هذا فـضلا عن اسـتـحكام الشـحناء بين أهل البلاد الـداخلة فى حكم الدولة الرومانية وبين الرومـانيين ، وبخاصة فى مصر والشام ، لاخـتلاف القوم فى المذهب الذى يدينون به ، ومباينتهم للرومان فـى ذلك ، واستعلائهم على أهل البلاد بما لهم من السلطة وأخذهم بالعسف. فـالأقباط فى مصر قد عـانوا حكم الأجانب من فرس فيونان فرومان أجيالا متـطاولة ، وقاسوا من ذلك أهوالا ، ويئسوا من قيام الملك فى أحد منهم ، وأيقنوا أنهم مـأكولون على كل حال ، فهان عليـهم الانتقال من سلطة إلى سلطة رجاء أن يجدوا فـترة يجدون فيها راحـة من الضغط والظلم. وكذلك أهل الشام وهم خليط من الآرميين والسريان والأنباط واليهود وغيرهم ، فقد نالهم ما نال المصريين ، فلا يهم أحد من هؤلاء أن يكون الحاكم عربياً أو رومانياً. وإنما يهمهم أن يجدوا مس الراحة. ومما لا خلاف فيه أن المرء يميل بطبعه إلى البعيد عنه ، ويرجو أن ينال النفع منه ، ويتوسم الخير فى القادم المجـهول أكثر مما يظنه فى الحاصل المعلوم ، وبخاصة إذا كان الفرق بينهما ظاهراً كما كانت الحال ظاهرة الفرق بين الروم والعرب؛ فـقد كـانت الرومـان يومـئذ فى أدبـار دولتهم وانحـطاطهم ، وقد فـسـدت آدابهم

وأحكامهم ، والعرب فى إبان إقبال دولتهم ودور نهضتهم ، وقد جعلوا العدل شعارهم ، والمساواة أساس أحكامهم ؛ فكان ذلك من العوامل المساعدة للعرب على افتتاح ما فتحوا فى تلك الجهات.

(٨) كان الرومان مع انقسامهم إلى طوائف وأحزاب فى الدين قد اجتمعوا على اضطهاد اليهود ومضايقتهم مضايقة شديدة ، وقد بلغت البغضاء بين الفريقين أقصى نهايتها ، واليهود يودون بجَدع الأنف أن يصيبوا رغم الرومان ، فكانوا عوناً للعرب يدلونهم على عَوْرات القوم ويرشدونهم إلى مقاتلتهم.

وهذه مدينة السامرة افتتحها أبو عبيدة بن الجراح صلحاً على أن يكون أهلها عيونا للمسلمين على أعدائهم وأطعمهم أرضهم ووضع عنهم جزية رءوسهم.

(٩) إن المسلمين كانوا يفشون العدل فى البلاد التى تدين بطاعتهم ، ويرفقون بالرعية ، ويعفون عما في أيدى المحكومين ؛ وهذا شيء لم يألفوه في حكامهم. فكان شيوع هذه الخلال عنهم يسبقهم ويفتح لهم القلوب قبل فتح المدن والحصون.

(١٠) إن العرب كانوا إذا دخلوا قرية أقروا أهلها على ما هم عليه من دين ومعاملات ، ولا يتقاضون منهم سوى الجزية ثمناً لحمايتهم والدفاع عن حوزتهم وتأمين سبُلهم ، وهى بالطبع ليست إلا جزءاً من الإتاوة التى كانوا يؤدونها إلى حكامهم من الرومان. فكان فى ذلك تخفيف لإصرهم وما عليهم من الأغلال. ويرى ذلك واضحاً فى قول عبادة بن الصامت للمقوقس والقبط لما دعاهم إلى الإسلام : "وإن أبيتم إلا الجزية فأدوها إلينا عن يد وأنتم صاغرون ، وأن نعاملكم على شيء نرضى به نحن وأنتم في كل عام أبدا ما بقينا وبقيتم ، ونقاتل عنكم من ناوأكم وعرض لكم فى شيء من أرضكم ودمائكم وأموالكم ونقوم بذلك عنكم" الخ.

ولما دخلت حمص فى ذمة المسلمين وأدوا الجزية واحتاج المسلمون بعد ذلك إلى

الإجتماع فى اليرموك ردوا إلى أهل حمص ما أخذوا من جزيتهم وقالوا : "قد شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم فأنتم على أمركم "فقال أهل حمص : "لولايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والضيم ، ولندفعن جند هرقل عن المدينة مع عاملكم".

وعلى الجملة إن المسلمين لم يجَّرئهم على الفتح سوى الدين وصحة الاعتقاد بالنصر مع ما كان فيهم من الميزات كالمهارة والفروسية وقوة أبدانهم ونشاطهم وما كانوا عليه من التقشف ومجافاة الترف ومذاهبه. ونبوغ كثير من القواد وذوى الرأى ، مع العدل والقسط والرفق ، واختلال أحوال دولتى الروم والفرس وملل المحكومين من حكامهم. فلم يمض عليهم بضع عشرة سنة حتى اجتاحوا فلسطين والشام ومصر والعراق وفارس وأخذوا يتقصون الأرض التى على الساحل الجنوبى للبحر الأبيض المتوسط بخطوات ثابتة ، وهو أمر لم يعرفه التاريخ لغير العرب.

غزو الفرس

لو أن أبا بكر حين فرغ من أمر أهل الردة أعاد الجيوش إلى بلادها ، وأقر السيوف فى أغمادها ، لما استقام له الأمر طويلا ، ولعاد بعد قليل إلى نشر ما طوى، ولاحتاج إلى ائتناف ما انتهى منه ، وافتقر إلى إطفاء فتن تشب فى الأطراف ، وحروب تستعر نارها فى أرجاء البلاد. لأن قوماً شبوا وشابوا في الجلاد والصدام لا يمكن أن يهدأ ثائر نفوسهم ، بل هم يحرصون على خلق الأعداء فى الداخل إن لم يجدوهم من خارج بلادهم. ولكن الله تعالى خلق لهم الاشتباك مع الفرس ثم الروم ليكون ذلك أدعى إلى توافق القوم وتوازرهم وتناصرهم فانقطعت الحروب فيما بينهم واتصلت بينهم وبين مجاوريهم.

كان ابتداء أمر فارس مع المسلمين أن الملك فى فارس قد أفضى إلى بوران بنت كسرى لفقدان من يصلح من بيت الملك لأن شيرويه كان قد قتل جميع إخوته سوى جوان شير فإنه كان طفلا. فلما مات جوان شير وليت هى الملك بعده فشاع فى

أطراف الأرضين أن فارس لا ملك لها وإنما يلوذون بباب امرأة ، وكان أمر فارس فى اضطراب واختلال مطمع للجيران.

خرج فى تلك الأيام رجلان من بنى بكر بن وائل. أحدهما : المثنى بن حارثة الشيبانى ، وثانيهما : سويد بن قطبة العجلى ، ونزلا فيمن جمعا من العرب بتخوم أرض العجم. فكانا يغيران على الدَّهاقين(١) فيأخذان ما قدرا عليه ، فإذا طلبا أمعنا في البر فلا يتبعها أحد - وكان المثنى يغير من جهة الحيرة ، وسويد من جهة الأُبلّه. وذلك فى خلافة أبى بكر - فكتب المثنى إلى الخليفة يعلمه ضراوته بفارس وينبئه بوهن القوم ويسأله أن يمده بجيش ليؤثر فى فارس.

كان خالد بن الوليد قد انتهى من أمر بنى حنيفة حين ورد كتاب المثنى على أبى بكر فندبه لغزو بلاد فارس وأمره أن يبدأ بثغر الهند وهو يومئذ الأبلة وندب عِيَاض بن غُنْم ليغزو فارس من الشمال ويبدأ بالمضيح في شمال العراق وأمرهما أن لا يستكرها أحداً ممن معهما إذا عزما فانفض عنهما جموع ممن معهما وأمرهما أن يستنفرا من قاتل أهل الردة وأن لا يستعينا بمرتد. ولما استمده خالد وعياض أمد الأول بالقعقاع ابن عمرو التيمى وقال لمن راجعه بقوله : أتمدَّه برجل واحد ؟ - : "لا يغلب جيش فيه مثل هذا !". وأمد الثانى بعبد بغوث الحميرى.

ولما وافى خالداً كتاب أبى بكر وهو باليمامة كتب إلى صاحب الثغر وهو هرمز كتاب إنذار يقول فيه : "أما بعد ، فأسلم تسلم ، أو اعتقد لنفسك وقومك الذمة ، واقرر بالجزية وإلا فلا تلومن إلا نفسك فقد جئتك بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة" ولم يحمل خالد عسكره فى طريق واحد. بل جعلهم ثلاث فرق فسرح المثنى ابن حارثة (وكان قد وافاه فيمن معه) قبله بيومين. ثم عدى بن حاتم وعاصم بن عمرو ، أحدهما قبل صاحبه بيوم. وخرج خالد وقد واعدهم الحفير ليجتمعوا به ليصدعوا عدوّهم مجتمعين.

---

(١) الدهقان (بضم الدال وكسرها) : زعيم فلاحى العجم ورئيس الإقليم.

لم قدم كتاب خالد على هرمز كتب بالخبر إلى أزدشير الملك وجمع جموعه ثم تعجل يريد الكواظم ، وهى من جادة اليمامة فلم يجدها طريق خالد ونبىء أن جموع المسلمين تواعدوا الحفير فيممه يبادرهم إليه وعبَّىء به جيشه.

ولما علم خالد بأمره عدل عنه إلى كاظمة ، فخفّ هرمز إليها ، وكان من أخبث الناس وأشدهم دهاء وأعظمهم نكاية ، تضرب العرب به المثل فى الكفر والخبث لما كان منه من سوء الجوار لهم ، وكلهم عدو له حاقد عليه. وكان هرمز قد بقى فى عسكره وقد قيدوا أنفسهم فى السلاسل آية استبسالهم فى القتال وعدم البراح، وكان الماء فى أيديهم. ولما وافى خالد نزل على غير ماء ، فقيل له فى ذلك فقال : حطوا أثقالكم ثم جالدوهم على الماء فلعمرى ليصيرن الماء لأصبر الفريقين وأكرم الجندين ، ثم تبارز هرمز وخالد ، وكان هرمز قد اتفق مع أصحابه على الغدر بخالد إذا بارزه ، فلما تلاقيا صرعه خالد وخرج أصحاب هرمز لاستلحام خالد فلم يثنه ذلك عن قتله ، وخف القعقاع فى جماعة إلى أصحاب هرمز فأناموهم وشدُّوا القوم فانهزموا.

ثم رحل خالد بجيشة حتى نزل قريباً من موضع البصرة ، وكانت لم تبن في ذلك الوقت.

كان كسرى قد أمد هرمز بجيش تحت قيادة قارن بن قريانس ففصل عن المدائن حتى انتهى الى المذار - على أربعة أيام من البصرة إلى شمالها قرب واسط - فأدركه فلال جيش هرمز من الأهواز والسواد والجيل ، وضوى جميعهم إلى جيش قارن وعسكر جمعه حيث انتهى ، واستعمل قارن على مُجنْبِتَيه قباذ وأنوشجان ، وكانا من قواد هرمز. وخف المثنى وأخوه المعنى إلى خالد بالخبر فقسم الفىء على من أفاء الله عليه ، ونقل من الخمس ما شاء الله ، وبعث ببقيته وبالفتح إلى أبى بكر مع الوليد ابن عقبة ، وبعث معه بالخبر عن اجتماع القوم - مغيثهم ومغاثهم - بالمثنى. وخرج خالد بجيشه حتى التقى وهو على تعبية بجيش قارن فاقتتلوا على حنق وحفيظة

وبدأت الحرب بالمبارزة. فكان أول صريع ، وقتل الأخوان أنوشجان وقُبَاذ ، وهما من ذرية أردشير الأكبر وقتلت الفرس مقتلة عظيمة وانهزموا وأعطى خالد الأسلاب لسالبيها بالغة ما بلغت وقسم الغنيمة وبعث بالخمس والفتح إلى أبى بكر مع سعيد ابن النعمان من بنى عدى.

انتهى خبر الهزيمة إلى كسرى بالمدائن ، فجهز جيشاً كثيفاً بقيادة الأنْدرْ زغر فسار حتى أتى كسكر ثم إلى الولجة وهى فى شمال المدار. ثم حجز بهمن جاذويه فسلك وسط السواد وحشر إلى الأندر زغر من بين الحيرة وكسكر من عرب الضاحية والدهاقين وعسكروا إلى جنب أندر زغر.

أما خالد فلما علم بأمرهم أذن بالرحيل على تعبية بعد أن خلف على القرى حامية تحمى ظهر جيشه وتحفظ عليه خط الرجعة ، ورتب الهجوم على عدوه من ثلاث جهات. جعل جهتين منهما كميناً ، وصادمهم بمن معه فقاتلهم قتالا شديداً حتى ظن الفريقان أن الصبر قد نفد. واستبطأ خالد كمينه. ثم لم يشعر القوم إلا بالكمين قد اكتنف العدو من جانبيه فانهزمت صفوف الأعاجم وأخذهم الكمين من خلفهم ، وخالد بمن معه من بين أيديهم. وانهزم أندر زغر ومات عطشاً. وأصيب فى هذه الوقعة كثير من نصارى بكر بن وائل فغضبوا حمية لقومهم وكاتبوا الفرس ليكونوا عوناً على العرب المسلمين واجتمعوا بأليس وعلى العرب رؤساؤهم وعلى الفرس جابان. وقد أمره جاذويه أن لا ينازل العرب حتى يصل إليه إلا أن يعجلوه.

ولما علم خالد باحتشاد القوم تعجل إليهم وهو لا يظن أن يلقى إلا متنصرة العرب من عجل وتيم اللات وضبيعة وعرب الضاحية ولا يظن أن جابان معهم. فلما أطل عليهم كان الفرس قد هيأوا الطعام وتنادوا له ولم يظهروا الاكتراث لأمر خالد ومن معه وكان خالد على تعبية فأجهضهم عن طعامهم وقاتلهم قتالاً شديداً وكانت جموع المشركين تزيد كلَبا وشدة ، ثقة منهم بأن بهمن جاذويه لاحق بهم فى مدد عظيم. وهجم المسلمون عليهم فكشف المشركون وكانت عليهم الدبرة

وأفحش خـالد فى قتلهم وغنم المسلمـون طعامهم الذي كـان مهيـئا لهم. وكان فـيه الرقاق فلم يعرف كـثير من المسلمين ما هو ، وقالوا : مـا هذه الرقاع البيض ؟ فكان العارفـون منهم يمزحون قائلين هذا رقيـق العيش. وكانت هذه الوقائع فى صـفر من السنة الثانية عشـرة إلا وقعة الأبلة فكانت فى المحرم وكان جيش خـالد قد بلغ ثمانية عشر ألفاً وكـان لا تمر به واقعة إلا كانت التى تليها أعظم منها نصـراً وغنيمة. وكان يوصى بالفلاحين وأهل الأعـمال ولا يظلمهم بل يقرهم فى عـملهم ولا يتصدى إلا للمقاتلة وأهليهم ؛ وكل ذلك عملا بوصـية أبى بكر له. وكان من أمر خالد أنه بعد وقعة الوَلجه خطب فى جنده يرغبهم فى بلاد العجم ويزهدهم فى بلاد العرب وقال :

"ألا ترون إلى الطعـام كرفع التـراب وبالله لو لم يلزمنا الجهـاد فى سبـيل الله والدعـاء إلى الله عـز وجل ولم يكن إلا المعـاش ، لـكان الرأى أن نقـارع على هذا الريف حتـى نكون أولى به ، ونولى الجمـوع والإقلال من تولاه ممن أثَّاقل عـما أنتم عليه" .

ولما فرغ خالد من وقعة أليس نهض فأتى مغيـشياً وقد جلا أهلها عنها وتفرقوا فى السواد وكـان مضراً كالحـيرة وكان فـرات بَادَقْلى ينتهى إليهـا وكانت أليس ، من مسـالحهـا فأصـاب المسلمون بهـا ما لم يصـيبوا مـثله فلقد بـلغ سهم الفـارس ألفاً وخمسمائه درهم سوى النفل الذى نفله خـالد أهل البلاء ؛ ثم أمر بهدمها وكل شىء كان فى حـيزها ، ولما جـاء خمس الغنيمـة إلى أبى بكر وبلغه مـا صنع خالد أخـبر قريش الخبر فقال : "يا معشـر قريش ، عدا أسدكم على الأسد فغلبه على خراذيله. أعجزت النساء أن ينشئن مثل خالد ؟" .

لما علم الازادبه مرزبان الحيرة بما صنع خالد بامغيشيا أيقن أنه غير تاركه ، فتهيأ للحرب وقدم ابنه أمامه ثم خرج فى أثره على عسكر خارجاً من الحيرة وأمر ابنه بسد الفرات. وكان خـالد قد حمل الرجل فى السفن مع الأنفال والأثقـال. فلم يفجأ إلا والسفـن جوانح. فارتـاع المسلمون لهـذا الأمر وقال لـهم الملاحون : إن الفـرس قد

فجروا الأنهار فسلك الماء غير طريقه ولا يجرى الماء إلينا إلا بسد الأنهار. فنهض خالد فى خيل نحو ابن الازاذبة. فلقى خيلا من خيله فجئهم وهم آمنون لغارة خالد فى تلك الساعة فأنامهم بالمقر ثم نهض من فوره وسبق الأخبار حتى لقى بجند من جند ابن الازاذبه على فم فرات بادقلى فقاتلهم وهزمهم وسد الأنهار وسلك الماء سبيله. ثم استلحق خالد عسكره ويمم الحيرة حتى نزل بين الخورنق والنجف.

أما الازاذبة فقد طرقه مصاب ابنه وخبر موت أزدشير فى وقت واحد فهاله الأمر وكان معسكراً بين الغريين والقصر الأبيض فاستخفه الفزع فعبر الفرات هارباً من غير قتال قبل أن تتام أصحاب خالد. فلما لحق بخالد عسكره سار حتى عسكر بهم مكان الازاذبة وجنوده. وأهل الحيرة متحصنون. فأدخل الحيرة الخيل من عسكره وأمر ضرار بن الأزور بمحاصرة أهل القصر الأبيض وفيه إياس بن قبيصة الطائى وضرار بن الخطاب بحصار قصر العدسيين وفيه عدى بن عدى العبادى. وكان ضرار بن مقرن المزنى عاشر عشرة إخوة له محاصراً قصر بنى مازن وفيه ابن أكال ، والمثنى بن حارثة كان محاصراً قصر ابن بقيلة وفيه عمرو بن عبد المسيح ، وقد عهد خالد إلى أمرائه أن يدعوا القوم إلى الإسلام فإن أجابوا قبلوا منهم وإن أبوا أن يؤجلوهم يوماً ، وقال : لا تمكنوا عدوكم من أذانكم فيتربصوا بكم الدوائر ولكن ناجزوهم ولا تردوا المسلمين عن قتال عدوهم ، ففعلوا ، فاختار القوم المنابذة وعمدوا لرمى المسلمين بالخزف فرشقهم المسلمون بالنبل وبنوا غارتهم ففتحوا الدور والديارات فنادى القسيسون. يا أهل القصور ما يقتلنا غيركم فنادى أهل القصور : يا معشر العرب قبلنا واحدة من ثلاث فكفوا عنا. وخرج رؤساء أهل القصور إلى خالد فخلا بأهل كل قصر على حدة ولامهم وكان مما قاله : ويحكم ما أنتم ؟ أعرب فما تنقمون من العرب أو عجم فما تنقمون من الإنصاف والعدل ؟ ثم قال اختاروا واحدة من ثلاث ، أن تدخلوا فى ديننا فلكم مالنا وعليكم ما علينا إن نهضتم وهاجرتم وإن أقمتم فى دياركم أو الجزية أوالمنابذة والمناجزة فقد والله أتيتكم بقوم هم على الموت أحرص منكم

على الحيـاة. فقالوا : بل نعطيك الجزيـة : وصالحوه على مائة وتسـعين ألفا. وبعث خالد بـالفتح والهـدايا إلى أبى بكر. وكانوا أهدوا إلى خـالد هدايا ، فقـبل أبو بكر الهدايا على أن تكون من الجزية ، وكتب إلى خالد أن احسب لهم هديتهم من الجزاء وخذ بقية ما عليهم فقو بها أصحابك - وقد كتب خالد لأهل الحيرة كتاباً هذا نصه :

"بسم الله الرحمن الرحـيم . هذا ما عاهد عليـه خالد بن الوليد عديا وعـمراً ابنى عدى وعمرو بن عـبد المسيح وإياس بن قبيصة وحيـرى بن أكال وهم نقباء أهل الحيرة ورضى بذلك أهل الحيرة وأمـروهم به. عاهدهم على مائة وتسعين ألف درهم تقبل فى كل سنة جـزاء عن أيديهم فى الدنيا رهبانهـم وقسيسـاهم إلا من كان منهم على غير ذى يد حبيساً عن الدنيـا تاركا لها ، وعلى المنعة ، وإن لم يمنعهم فلا شىء عليهم حتى يمنعـهم ، وإن غدروا بفعل أو قول فالذمة منهم بريئـة وكانت كتابة هذا العهد فى شهر ربيع الأول سنة ١٢ هـ" .

ومن طريف ما يحكى فى فتح الحيرة أن رجلا من مـتنصرة العرب اسمه شويل كان قد أسلم على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم فسمع رسول الله يبشر المسلمين بأن قصور الحـيرة ستفـتح عليهم. فسأله أن يعطيـه كرامة بنت عبد المـسيح من سبى الحيـرة حين تفتح. فـقال النبى عليـه السلام : هى لك. فلما أراد خـالد صلح أهل الحيرة جـاء شويل يستنجز خـالدا عدة رسول الله صلى الله عليه وسلم فـشرط خالد عليهم أن يسـلموا كرامـة فشق ذلك على القوم وعلمت كـرامة فقـالت لهم لا يشق عليكم ذلك فإنه رجل أحمق رآنى فى شبيبـتى فظن أن الشباب يدوم فأسلمونى فإنى سأفتدى منه فلما حصلت عند الرجل قالت : ما أريك من عجوز كما ترى ؟ فأدنى. قال لا إلا على حكمى قـالت فلك حكمك. قال فلست لأم شويل إن نقـصتك عن ألف درهم فأظهرت أنها تسـتكثر ذلك لتخدعه ثم أتته بالألف ورجـعت إلى قومها. وتسامع الناس بما كان من شويل فعنفـوه على أن لم يطلب أكثر من ذلك. فقال : ما كنت أرى أن عدداً يزيد على ألف ! وخاصم القوم إلى خالد فقال : كانت نيتى نهاية

العدد وقد ذكـروا أن العدد يزيد على ألف. فقال خالد : أردت أمـراً وأراد الله غيره نأخذ منك بما يظهر وندعك ونيتك.

ولما صـالح خالد أهل الحـيرة. جـاء إليه صلوبا بن نسطونا وهو صـاحب قس الناطف فصالحه على بانقيا وباروسما وضمن له ما عليهما وعلى أرضيهما من شاطىء الفرات على عشرة آلاف دينار ، وكتب لهم خالد كتاباً نصه :

بسم الله الرحمن الرحيم

"هذا كتاب من خالد بن الوليد لصلوبا بن نسطونا وقومه ، إنى عاهدتكم على الجزية والمنعة علـى كل ذى يد بانقيا وباروسما جـميعاً على عـشرة آلاف دينار سوى الخرزة[1] القوى على قوته والمقل على قدر إقلاله فى كل سنة وإنك نقبت على قومك وإن قومك قد رضـوا بك وقد قبلت ومن معى من المسلمـين ورضيت ورضى قومك فلك الذمة والمنعة فإن منعناكم فلنا الجزية وإلا فلا حتى نمنعكم" .

وكان الدهاقون يتربصـون بخالد وينظرون ما يصنع بأهل الحيرة فلما اسـتقام ما بينه وبين الحيريين ، أتته دهاقون البلاد فصـالحوه على ما بين الفلاليج إلى هرمز جرد على ألفى ألف درهم وكتب لهم بذلك كتاباً فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم

"هذا كتاب من خالد بن الوليـد لزاذ بهيش وصلوبا بن نسطونا. إن لكم الذمة وعليكم الجزية وأنتم ضامنون لمن نقبتم عليـه من أهل البهقباذ الأسفل والأوسط على ألفى ألف تقبل في كل سنة عن كل ذى يد سـوى ما على بانقيا وباروسـما وإنكم قد رضيتـمونى والمسلمين وإنا قد رضيناكـم وأهل البهقباذ الأسـفل ومن دخل معكم من أهل البهقباذ الأوسط على أموالكم ليس فيها ما كان لآل كسرى ومن مال ميلهم" .

(١) كذا فى ابن جرير وفى معجم الأدباء لياقوت "مادة بانقيا" كتاب بغير هذه الصورة.

بعد ذلك بعث خالد مسالحه وعليها ضرار بن الأزور وضرار بن الخطاب والمثنى ابن حارثة وضرار بن مقرن والقعقاع بن عـمرو وبُسْر بن أبى رهم وعتيبة بن النهاس. وأمرهم بالغارة والإلحاح فى الوجوه التى وجهوا إليها وكان قد أغزاهم.

ولما استقر خالد على أحد جانبى السـواد. دعا برجل حيرى وآخر نبطى وكتب معهما كتابين : إحداهمـا إلى ملك الفرس مع مُرّة الحيرى وقال : اذهب إليهم فلعل الله يمر عيشـهم أو يسلموا أو ينيبـوا وأعطى النبطى حزقيل كتـابا وقال : اللهم أزهق نفوسهم وكان إلى المرازبة – فأما كتاب الملك فهو :

بسم الله الرحمن الرحيم

من خالد بن الوليد إلى ملوك فارس أما بعد : فالحمد لله الذى حل نظامكم ، ووهن كيدكم وفـرق كلمتكم ولو لم يفعل ذلك بكم كان شـراً لكم فادخلوا فى أمرنا ندعكم وأرضكم ونجوزكم إلى غـيركم وإلا كان ذلك وأنتم كـارهون على غلب على أيدى قوم يحبون الموت كما تحبون الحياة. وصورة الثانى :

بسم الله الرحمن الرحيم

"من خالد بـن الوليد إلى مرازبة فـارس : أما بعـد : فأسلموا تـسلموا. وإلا فاعتـقدوا منى الذمة وأدوا الجزية. وإلا فـقد جئتكم بقـوم يحبون الموت كمـا تحبون شرب الخمر".

وكـان أهل فـارس فى ذلك الحين عـقب موت أردشـيـر مـخـتلفين فى الملك مجتمـعين على قتال خالد متساندين ، وكانـوا بذلك سنة والمسلمون يمخرون ما دون دجلة وليس لأهل فارس فـيما بين الحيـرة ودجلة أمر ، وليست لأحـد منهم ذمة إلا الذين كاتبـوه واكتتـبوا منه وسائر أهل السـواد جلاًء ومتـحصنون ومحـاربون. وكان الفرس ليس منهم سوى المدافعة عن بُهْرسير وهى إحدى المدائن التى سميت بها مدائن كسرى واقـعة فى الجانب الغربى من دجلة أمـام الإيوان الذي كان فى الجهة الشـرقية

منها. فلمـا وردت كتب خالد أحبـوا أن يفرغوا من اختـلافهم فوقع اختـيارهم على رجل من غير بيت الملك يولونه إلى أن يوجد من آل كسرى من يصلح للملك. وكان الذى ولوه هو الفرُّخْزَاذ خَسْرَوْ ولم يستقر له الملك فولوا يَزْدَجِرْد بن شَهْرِيار وكان فى ملكه من الأحداث ما سيأتى.

لما استقام لخالد الأمر فى الناحية التى أثخن فـيها أجمع السير لإغاثة عياض بن غنم الذى أرسله أبو بكر ليفتح الـعراق من شماليه ويلتقى بخـالد ؛ فاتسخلف على الحيـرة القعقـاع بن عمـرو وسار بجنده حتى وافى الأنبـار فوجد الـقوم قد امـتنعوا بحـصونهم وخندقـوا على أنفـسهم وأشـرفوا من أعـالى الحصـون. فأمـر جنده أن يرشقوهم بالنبل فأصابوا فى عدوهم. وكـان خالد رجلا لا يصبر عن الحرب إذا رآها ، فقال لمن مـعه : إنى أرى قوماً لاعلم لهم بالحـرب فارشقوا فى عـيونهم ولا تحروا سواها. فأصيب فى ذلك اليوم ألف عين.

لـم يكتف خـالد بما صنع بل عـمـد إلى أضـيق مكان فى الخندق وعـمـد إلى الضعاف من الإبل فى جيـشه فنحرها وأفعم الخندق بجثثهـا واقتحم المسلمون الخندق وجسرهم عليـه جثث الإبل وصاروا مع أعدائهم داخل الخندق فالتجـأ المشركون إلى الحصن.

وكان رئيس القوم رجل يقـال له شير زاد صاحب ساباط وكان أعـقل أعجمي يومئذ وأسوده وأقنعه فى الناس العرب والعجم. فراسل خالدا فى الصلح على ما أراد فقبل خالد منه على أن يخليه ويلحقه بمأمنه فى جريدة من الخيل ليس معهم من المتاع والأموال شىء ، ووفى له خالد بما صالح عليه.

ولما انتهى أمر الصـلح مع القوم صالح من حولهم واستـخلف الزبرقان بن بدر وسار إلى عين التـمر وبها يومئذ مـهران بن بهرام جوبين فى جـمع عظيم من الفرس والعرب وعقـبة بن أبى عقة فى جمع عظيم من النمـر وتغلب وإياد ومن لف لفهم. فلما سمعوا بقدوم خالد قال عقة لمهران : إن العرب أعلم بقتال العرب فدعنا وخالداً

قال : صدقت لعمرى لأنتم أعلم بقتال العرب وإنكم لمثلنا فى قتال العجم - وقد كان العجم ينظرون إلى العرب بعين الاحتقار والمهانة - فقال من مع مهران من العجم : كيف تقول ما قلت لهذا الكلب ؟ فقال : دعونى فإنى لم أرد إلا ما هو خير لكم وشر لهم. إنه قد جاءكم من قتل ملوككم وفل حدكم فاتقيته بهم. فإن كانت لهم على خالد فهى لكم ، وإن كانت الأخرى لم يبلغوكم حتى يهنوا فنقاتلهم ونحن أقوياء وهم مضعفون. فحمدوا له رأيه. فلزم مهران العين ونزل عقة لخالد على الطريق وعلى ميمنته بجير أحد بنى عبيد بن سعد بن زهير وعلى ميسرته الهذيل بن عمران وبين عقة ومهران غدوة أو روحة ومهران فى الحصن في جند فارس وعقة كالخفير له بجنده. فقدم خالد فى تعبيته ، وقال لمجنبتيه : اكفونا ما معه فإنى حامل ووكل بنفسه حوامى ثم حمل وعقة يقيم صفوفه فاحتضنه فأخذه أسيراً فانهزم جنده قبل القتال ، وأمعن المسلمون فيهم الأسر ، وأمعن كثير من المشركين فى الهرب.

لم يكد الخبر يصل إلى مهران حتى وهنت قوته فترك الحصن ونجا فيمن معه من الفرس. وجاء فلال جيش عقة إلى الحصن فاقتحموه واعتصموا به وكأنما كان اعتصامهم به إنما هو اعتقال وسجن وضرب عليهم حتى يتسلمهم خالد فإنه لما قدم إلى الحصن ومعه عقة وعمرو بن الصعق فى الأسر نزل عليهم وكان القوم يظنون أن خالدا كمغيرة العرب لا يلبث أن يعود أدراجه إذا أصاب مغنما فلما رأوه غيرتاركهم يئسوا من النجاة ونزلوا على حكمه. فأمر بعقة وعمرو بن الصعق فضربت أعناقهما وأجزر السيف بقية من كان معهما وغنم ما حواه حصنهم وسبى السبى. وقد وجد فى بيعتهم أربعين غلاماً يتعلمون الإنجيل عليهم باب مغلق فكسره عنهم وقال : ما أنتم ؟ قالوا رُهُن. فقسمهم فى أهل البلاد منهم أبو زياد مولى ثقيف. ومنهم نصير أبو موسى بن نصير. ومنهم أبو عمرة جد عبد الله بن عبد الأعلى الشاعر وسيرين أبو محمد بن سيرين. وحمران مولى عثمان بن عفان وغيرهم.

وكان خالد أرسل الوليد بن عقبة بالأخماس إلى أبى بكر. فوجه به أبو بكر إلى عياض بن غنم فى جند مددا له.

وبينما كان خالد يفتح الفتوح ويحرر النصر كان عياض لم يعمل شيئاً ولم يدرك غرضاً مما وجه إليه. فقد كان أبو بكر وجهه ليفتح شمال العراق ويكون اجتماعه مع خالد بالحيرة وأيهما سبق إليها كان أميراً على صاحبه، فأتم خالد ما نيط به وشرع يعمل فى عمل عياض. ولما قدم الوليد على عياض بدومة الجندل وجده قد حاصر القوم وحاصروه وأخذوا عليه الطريق. فقال له: الرأى فى بعض الحالات خير من جند كثيف، ابعث إلى خالد فاستمده. ففعل، وقدم رسول عياض على خالد مستغيثاً في أعقاب واقعة العين. فكتب إليه: "من خالد إلى عياض - إياك أريد.

لبث قليلا تأتك الحلائب

يحملن آساداً عليها القاشب

كتائب يتبعها كتائب"

خبر دومة الجندل

خلف خالد على عين التمر - عويم بن الكاهل الأسلمى. وخرج فى تعبيته التى دخل بها العين ويمم دومة الجندل، فلما علم أهل دومة بمسير خالد إليهم استنفروا أحلافهم من بهراء وكلب وغسان وتنوخ والضجاعم. ومن قبل وافاهم وديعة فى كلب وبهراء ومسانده ابن (وبرة) بن رومانس. وأتاهم ابن الحِدْرجان فى الضجاعم وابن الأيهم فى طوائف من غسان وتنوخ فأشجوا عياضاً وشجوا به.

وقد كان للقوم رئيسان: أحدهما أكيدر بن عبد الملك والجودى بن ربيعة، فقال أكيدر: أنا أعلم الناس بخالد، لا أحد أيمن طائراً منه ولا أحَدُّ فى حرب، ولا يرى وجه خالد قوم أبدا قلوا أو كثروا إلا انهزموا عنه؛ فأطيعونى وصالحوا القوم. فأبوا عليه. فقال: لن أمالئكم على حرب خالد. وتركهم وذهب لِطِيَّته.

قد كان فى رأى أكيدر كل الحزم وفي مخالفته الخطل والطيش والغرور.

لا يذهب من ذاكرتنا أن أكـيدراً هذا كان قد صالح رسـول الله صلى الله عليه وسلم على الجـزية ليلة أن أرسل خالداً إليـه فجـاء به فى رجال مـن قومه إذ كـانوا يصيدون البـقر فى ليلة قمراء وقـتل فى تلك الليلة أخا أكيدر. فلمـا مات رسول الله صلى الله عليه وسلم كان فيمن غدر وخاس بالعـقد ، فلما علم خالد بخروج أكيدر أرسل إليه من عارضه فى الطريق وأتى به فضرب عنقه جزاء غدره.

مضى خالد حتى نزل على دومة وعلى المشركين يومئذ الجودى بن ربيعة ووديعة الكلبى وابن رومانـس وابن الأيهم وابن الحدْرجان ، فـجعل خالد دومـة بين عسكره وعسكر عيـاض ، وكان مدده من متنصـرة العرب محيطاً بالحـصن لأنه لم يحملهم. وخـرج الجودى ووديعـة لخـالد وابن الأيهم وابن الحـدرجان لعـيـاض ، فأظفـر الله المسلمين بالفريقين وأثخن كل فيمن يليه من المشـركين ، وأخذ خالد الجودى أسيراً ، وأخذ عيينه ابن حصن وديعة أسيراً كـذلك. وطلب المنهزمة الحصن للالتجاء إليه فلم يحتملهم وغلق أهل الحصن أبوابه وبقى المغيثـون بالعراء بادية مقاتلهم. فأجار عاصم ابن عمـرو ومن معه من تميم حلفاءهم مـن كلب فنجوا. وقتل خالد من كـان خارج الحصن واقتلع بابه وقتل من كان فيه.

أقام خالد بدومـة فظن الأعاجم به الظنون وكاتبهم عـرب الجزيرة غضبـاً لعقة فخرج زَرْمهْـر من بغداد ومعه روزبه يريدان الأنبار واتعدا حـصيداً والخنافس. فكتب الزبرقان وهو على الأنبار إلى القعقاع خليفة خالد على الحيرة بما علمه من أمر العجم والعرب. فبعث القعقاع أعبد بن فـدكى وأمره بالحصيد. وبعث عروة بن الجعد وأمره بالخنافس. وقال لهمـا : إن رأيتما مقدماً فـأقدما. فخرجا فحـالا بين زرمهر وروزبه وبين مقصديهما ، فلما قدم خالد الحيرة علم بالأمر فعجل القعقاع وأبا ليلى بن فدكى إلى روزبه وزمهر فسـبقاه إلى عين التمر ، وقدم على خالد كـتاب من امرىء القيس الكلبى يعلمـه أن الهذيل بن عمـران قد عسكر بالمضـيح ونزل ربيعة بن بجـير بالثنى

وبالبشر في عسكر غضبا بعفة يريدان زروبه وزمهر. فخرج خالد واستخلف على الحيرة عياض بن غنم وأخذ طريق القعقاع وأبى ليلى حتى قدم عليهما بالعين فبعث القعقاع إلى الحصيد وأبا ليلى إلى الخنافس. كان من همه أن يزجيا القوم ليجتمعوا حتى ينازلهم بجمع كثيف هم ومن هب لمعاونتهم من العرب. ولكن القوم لم يجتمعوا ولعلهم فطنوا لنية خالد فأرادوا أن لا ينيلوه مراده.

حصيد

لما رأى القعقاع أن زرمهر وروزبه لا يتحركان قصد الحصيد وعلى من به من العجم والعرب روزبة. فاستغاث بزرمهر فخف إليه بنفسه وخلف على جيشه المهبوذان، والتقى المسلمون بأعدائهم فقتل من العجم مقتلة عظيمة وقتل زرمهر وروزبه وغنم المسلمون غنائم كثيرة وانحاز فلال جيش حصيد إلى الخنافس.

الخنافس

ولما قصد أبو ليلى بن فدكى الخنافس - وبها المهبوذان وجنده ومن ضوى إليهم من فل جيش الحصيد وعلم به المهبوذان ، انهزموا دون قتال وانضموا إلى المضيح وبه الهذيل بن عمران ومن معه (مضيح بنى البرشاء). ولما انتهى إلى خالد ما كان بالحصيد والخنافس كتب إلى قواده وواعد القعقاع ، وأبا ليلى ، وأعبد ، وعروة ليلة وساعة يجتمعون فيها إلى المضيح وهى بين حوران والقلت. فتوافوا إليها فى موعدهم فاتفقوا على أمرهم ويبتوا الهذيل ومن معه من ثلاثة أوجه وهم نائمون فأتوا عليهم وامتلأ الفضاء برمم القتلى فما شبهوا إلا بغنم مصرعة ولم ينج سوى الهذيل فى نفر قليل. وقد أصاب جرير بن عبد الله يوم المضيح عبد العزى بن أبى رهم ولبيد بن جرير ، وكان معهما كتاب من أبى بكر بإسلامهما فوادهما أبو بكر ، وكان عمر رضى الله عنه يعتد على خالد بقتلهما وقتل مالك بن نويرة. وقد سمع عبد العزى فى تلك الليلة يقول :

أقول إذ طرق الصباح بغارة سبحانك اللهم رب محمد

سبحان ربى لا إله غيـــره رب البلاد ورب من يتورد

فكان أبو بكر يقول : كذلك يلقى من ساكن أهل الحرب فى دارهم.

وقـد كان للرجـلين متسع من الأرض يأمنان فـيـه وليس بهـما من ضـرورة تضطرهمـا إلى المقـام فى مسـتنقع المـوت وفى صف أعـداء دينهم والمشـاقين لأهل الإسلام. ومن ظن أنه يصنع صنيـعهما ولا يكـون موطنا نفسه على أن يكون طعـاماً للسيوف فقد ظن عجزاً ، وليس لعمر حق فى الاعتداد بهما على خالد.

الثنى والزميل

لما أصـاب خالد أهل المضـيح بما أصابهم بـه تقدم إلى القـعقـاع وأبى ليلى أن يرتحلا أمامـه وواعدهما الليلة ليفتـرقوا فيها للغـارة على من بالثنى من ثلاثة أوجه ، كما فعل بأهل المضيح ، ففعلوا وأعملوا السيوف فى أهل بياتا وهم نائمون فلم يفلت من الجيش مخبر ، ثم عطف بمثلها على من بالزميل وهو البشر وقد سبق الخبر إليهم ثم عطف من بالبشر إلى الرضاب وكان هناك هلال بن عـقة فانقشع عنها . ولم يلق خالد كيداً.

الفِراض

وهى تخوم العـراق والشام والجزيرة. قـصدها خالد بعـد الرضاب ليكون على بينة من أنه لم يترك وراء جيشه عورة ينالهـم العدو منها ، وقد أفطر فى تلك السَّفَرة فى رمضان لما كان من تتـابع الغزوات واتصالها والأيام والوقائع قد نظمن فـيها نظماً وقد أكثر الرُّجَّاز فى هذه الغزوات.

فلما اجتمعت المسلمون بالفراض حميت الروم واغتاظت واستجاشوا من يليهم من مسالح الفرس يسـتعينون بهم ، واستمدوا تغلب وإيادا والنـمر فأمدوهم وناهدوا خالدا حـتى صار الفرات بينهم وبين المسلمين ، وأجـال الرومان الرأى فقال بعـضهم

لبعـض : هذا رجل يقاتل على دين وله عـقل وعلم والله لينصرن ولنخـذلن. ثم لم ينتفعوا بذلك وعبروا أسفل من خالد وامتازوا ليعلموا من يأتى بحسن ومن يأتى بقبيح وناجزوا خالدا الحرب واقتتلوا قتالا شديداً طويلا ثم انهزمت جموع الروم ومن معهم من العرب ، فقال خـالد : ألحوا عليهم ولا ترَفَّهُوا وقد أفحش فـيهم القتل. وكانت هذه الواقعة آخر حروب خالد بالعراق.

* * *

يحق لنا أن ننظر نظرة متأمـل إلى ما صنعه خالد فى سنته. فإنا نجـده قد فعل فى هذه المدة القصيرة مـا لم يفعله قائد من القواد فى مثل عـدة جنده مع كثرة عديد أعدائه ومـحاربيه وقوة عـددهم. فقد اقـتطع من بلاد العجم حوض نهـر الفرات من سمالى الأبلة إلى الفرات وهى تخوم الشام والعراق والجزيرة شرقى الفرات وأثخن فى جيوش الفـرس والعرب والروم في مواقع كثيـرة لم تهزم له فيها راية ولم ينثن سـيفه عن ضريبته وكان الرعب يسبقه إلى قوم ويسير أمامه فى كل موقعة أجمع عليها حتى أن اسمـه كان بمثـابة مدد للـجيوش. وكـان فى أعمـاله فاتحـاً موطداً لأركـان الملك والاستعمار ، لا مـغيراً ناهباً. فلم تدن له بلد بالطاعة إلا خلف عليهـا حامية لحفظ نظامها ، وأمـيرا لإقامة العدل فـيها ، وآخر يجبى خـراجها من الذمة على مـقتضى كتاب صلحهم.

ومن أحسن مـا يؤثر لخالد من المحـاسن الغراء أنه لم يـكن يتعرض للـفلاحين بسوء ولا يمسهم بأذى. بل كـان يشملهم برأفته ويعمهم برعـايته ويمنعهم ممن يريدهم بسوء لاعتقاده أنهم مادة الأمـة وبهم قوام الدولة. ولهذا صاروا يفضلون حكمه على حكم الفـرس لمـا كـانوا يجـدونه فى عظمـائـهم من الغلظة عليـهـم والإعنات لهم ويستعبدونهم ويذلونهم.

وكما كان خالد رؤوفا بهؤلاء كان شـديد الأخذ للمقاتلة وأهل الحرب لا يصبر على الميدان إذا رآه ولا يدع الجنود ينظر بعضهم إلى بعـض دون أن يشنها غارة شعواء - بل سرعان ما يخرج طالبا كبش الكتيـبة فى بحبوحة الميدان ويدعوه إلى المبارزة ثم ينقض عليه انقضاض البازى على العصفور وفى ذلك بواره فكان عمله هذا يشرد من خلفه من عدوه ويوقع الرعب فى قلوبهم ويكون سبباً للفشل ثم الهزيمة.

قال الأسـتاذ الخضـرى : وعلى الجملة فهـذه السنة كانت لخالد غـرة فى جبين تاريخه. ومما يبين عظيم عـمله ما قاله الهيثم البكـائى قال : كان أهل الأيام من أهل الكوفة يوعدون معاوية عند بعض الذى كان يبلغهم ويقولون : ما شاء معاوية ، نحن أصحاب ذات السـلاسل (وهى أول واقعة بين خالد والفرس) ويسمـون ما بينها وبين الفراض ما يذكرون ما كان بعد احتقاراً لما كان بعد فيما كان قبل.

وإنى ما عجبت من شيء لا يبلغ ذلك عجـبى من أمر أولئك القوم الذين كانوا يتهافتـون على حرب خالد تهافت الفراش على النار ، قد يكون وجـه العذر واضحاً فى أهل ذات السلاسل ومـا بعدها بواقـعتين أو ثلاث ، ولكن مـا عذر أولئك الذين كانـوا يعرفـون أثره فى غيـرهم وميـسمـه فى آناف القبـائل ثم لا يكون منهم إلا أن يهجموا عليه هجوم الحمـار على الأسد ؟ إن البهائم تعرف ريح الليث بما قدرت عليه ولكن هؤلاء القـوم جهلوا ما عـرفتـه البهائم فلـم يكتفوا من الليـث بريحه دون أن يذوقوه.

أينكر ريح الليث حتى يذوقه ... وقد عرفت ريح الليوث البهائم

كان لخـالد في العراق من الوقـائع : (١) ذات السلاسل (٢) والمذار (٣) والولجة. (٤) وأليس وامغشيا. (٥) والمقر وفم فرات بادقلى. (٦) وقصـور الحيـرة. (٧) وذات العيون بالأنبـار وكلواذى. (٨) وعين التمر. (٩) ودومة الجندل وحصيد (١٠, ١١) والخنافس. (١٢) ومضيح بنى البرشاء. (١٣, ١٤) الثنى والزميل. (١٥) الفراض وقد انتظم

جميعها فى سمط لأقل من سنة من خروجـه للقتال. أفما كان فى الناس رجل رشيد يحثهم على المســاومة وبذل ما يريده يحقن على الناس هذا الدم المــار ؟ إن الابتعاد عن طريق خالد نهـاية الحزم ولا يمكن أن يهجس فى خاطرى أن الذين اتقــوه بالفرار من الفـرس كانوا جـبناء أو ضعـفاء لأن الإقـدام الذى لا تقع منه إلقـاء بالنفس إلى التهلكة.

على أن القوم الذين كانوا يجمعــون له ويرصدونه أو ينهدون إليه كان يكون له شبه عذر لو أن الذى يقع فى يده محاربا يجـد منفذاً إلى النجاة أو طريقاً إلى السلامة فيكون القوم قد أقدموا على طمع فى الفوز أو أمل فى النجاة ، إن خانهم الظفر فلم يخنهم عفــو المنتصر. ولكن الرجل مــا كان يقبل لمخـذول عثرة بعد مــا أشرع الرمح وفوّق النبل "بل كان كما قال عمر بن الخطاب لأبى بكر : إن فى سيف خالد رهقا. ولو أننى كنت القائل لقلت : إن فى سيفه قرماً إلى لحوم مخالفيه وزهداً فى موافقيه.

* * *

نعود إلى خالد فى الفراض فنقول : إنه أقــام بعد الموقعة عشرة أيام ثم أذن فى الناس بالرحيل إلى الحيرة لخمس بقين من ذى القعدة ، وأمر عاصم بن عمر أن يسير بالناس وأمر شجرة بن الأعز أن يسوقهم وأظهر أنه فى الساقة. ثم خالف من معه إلى مكة حاجاً يعتــسف البلاد حتى أتى مكة على السَّمتِ فى عدة من أصـحابه فتأتى له من ذلك ما لم يتأت لـدليل خريت ولا رئبال. وقد سلك بأصحــابه طريقاً من طرق أهل الجزيرة لم ير طريق أعجب ولا أشد صعوبة مـنه. فلما قضى نسكه خف مسرعا إلى جنده. فمــاتوافى الجند بالحيرة إلا وقد طلــع عليهم فى أصحابه مع ســاقة الجند فقدما معاً ولا يعلم الجند بحج خالد ومن معه إلا بعد أن رأوهم محلقين رؤوسهم إلا ما كان ممن أفضى إليهم بذلك من أهل الساقة.

وقد انتهى إلى أبى بكر مــا كان من خالد من ترك الجند ومخــالفتهم إلى الحج فأكبر ذلك واعــتده إعجاباً منه بنفسه وبما أتيح له من الظفــر واغتراراً بمن يجاوره من

عدوه واستضعافاً لشأنهم. وصادف فى ذلك الحين أن أبا بكر احتاج إلى أن يرمى الروم بمثل ما رمى فارس ، وقد استمده أمراؤه فأحب أن يرمى غرضين بحجر ، فأمر خالدا بالانصراف إلى الشام مدداً لمن هناك من الأمراء بنصف الجند وأن يخلف المثنى بن حارثة على من معه من الجنود بالعراق فأرسل إلى خالد كتاباً يعاتبه فيه على ما كان منه ويعظه ويأمره بالانصراف إلى الشام وكان فى هذا الكتاب.

سر حتى تأتى جموع المسلمين باليرموك فإنهم قد شُجُّوا وأشَجّوْا. وإياك أن تعود لمثل ما فعلت فإنه لم يشج الجموع بعون الله من الناس شجيك ولم ينزع الشجى من الناس نزعك فَلْيَهْنِئْكَ أبا سليمان النية والحظوة فأتمم يتم الله لك ولا يدخلنك عجب فتخسر وتخذل ، وإياك أن تدل بعمل فإن الله عز وجل له المن وهو ولى الجزاء.

وكان انصراف خالد فى صفر سنة ١٣ هـ.

ابتداء حرب الروم بالشام

كان ابتداء حرب الروم متأخراً عن حرب الفرس. وأول ما كان من ذلك أن أبا بكر رضى الله عنه كان عقد لخالد بن سعيد على جيش حين بعث البعوث إلى أهل الردة. وقد جهد عمر بن الخطاب بأبى بكر أن يصرف خالداً عن العمل له. وقال له : إنه لضعيف التروئه مخذول فلا تستنصر به. فأطاعه أبو بكر فى بعض أمره وخالفه فى بعض ، ذلك أنه أمر خالد بن سعيد أن ينزل بتيماء وأن يدعو من حوله للانضمام إليه ، وأن لا يقبل مرتداً ولا يقاتل إلا من قاتله. وأن لا يبرح مكانه حتى يأتيه أمره.

وكان سبب حنق عمر على خالد بن سعيد أن خالداً كان عاملا لرسول الله صلى الله عليه وسلم على اليمن فقدم بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بشهر والقوم فى مصابرة أهل الردة. وكان لابساً جبة ديباج ، فقال عمر لمن يليه : مزقوا عليه جبته. أيلبس الحرير وهو فى رجالنا فى السلم مهجور ؟ فوجدها خالد فى نفسه

ولقى على بن أبى طالب وعثمان بن عفان فقال : يا بنى عبد مناف لقد طبتم نفساً عن أمركم يليه غيركم. وتربص ببيعة أبى بكر مدة يقول أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم لم يعزلنى حتى قبضه الله. فكان عمر يضطغن ذلك عليه وأبو بكر ولم يحفلها ولم يحتمل عليه.

فصل خالد بن سعيد وجنده وسار حتى نزل على تيماء. فاجتمع إليه جند كثير وبلغ الروم عظم ذلك العسكر فرأوا أن يقذفوا جلموداً بجلمود ويفلوا ذلك الجيش قبل أن يعظم بجموع من عرب الضاحية والحديد بالحديد يفلح.

علم خالد بن سعيد بما صنعت الروم فكتب إلى أبى بكر بهذا الشأن وبنزول من استفزت الروم ونفر إليهم من بهراء وكلب وسليح وتنوخ ولخم وجذام وغسان. فكتب إليه أبو بكر أن أقدم ولا تحجم واستنصر الله. فنهد إليهم خالد فى جموعه فلما داناهم تفرقوا وأعروا منزله فنزله ودخل عامة من تجمع له فى الإسلام. وكتب إلى أبى بكر بما كان. فكتب إليه : أقدم ولا تقتحمن حتى لا تؤتى من خلفك ، فسار فيمن كان خرج معه من تيماء ومن لحق به حتى نزلوا فيما بين آيل وزيزاء والقسطل. فسيرت الروم إليه عسكراً بقيادة بطريق منهم يدعى باهان فهزمه خالد وفض جموعه. وكأن خالداً رأى أن توالى نكايته فى الروم ينبههم إلى شأنهم والجد فى أمره فكتب إلى أبى بكر يستمده حتى لا يفاجئه العدو بجيش لا قبل له به.

وافق كتاب خالد بن سعيد إلى أبى بكر أن قدم إلى المدينة المستنفرون من اليمن ومن بين مكة واليمن وفيهم ذو الكلاع وقدم على أبى بكر أيضاً عكرمة قافلا وغازياً فيمن كان معه من تهامة وعمان والبحرين والسرو فكتب أبو بكر إلى أمراء الصدقات أن يبدلوا من استبدل فكلهم استبدل فسمى جيش البدال وكتب أبو بكر إلى عمرو بن العاص يخيره بين عمله الذى هو فيه أو يوجهه إلى عمل آخر يراه خيراً لدنياه وآخرته. فكتب إليه عمرو : إنى سهم من سهام الإسلام وأنت بعد الله الرامى بها والجامع لها فانظر أشدها وأخشاها وأفضلها فارم بها شيئاً إن جاء من ناحية من

النواحى. وكتب إلى الوليد بن عقبة فأجابه بإيثاره الجهاد. فأوعب أبو بكر إلى خالد ابن سعيد جيشاً فيه الوليد بن عقبة وعكرمة بن أبى جهل وذو الكلاع وغيرهم فوافوا خالد بن سعيد. وعند ذلك اهتاج أبو بكر إلى الشام واعتزم على الجد فى أمر الروم وأرسل الأمراء والجنود لافتتاح الشام.

فى أواخر سنة ١٢ هـ اختار أبو بكر أربعة من خيرة قواد المسلمين لهم جد وهمة وغناء وهم (١) عمرو بن العاص (٢) ويزيد بن أبى سفيان (٣) وأبو عبيدة بن الجراح وهم قرشيون (٤) وشرحبيل بن حسنة وهو قحطانى.

وقد تخير لكل واحد منهم جنده وأمر كل واحد أن يسير فى الطريق التى سماها له وعين لكل واحد منهم الولاية التي يتولاها بعد الفتح فجعل لعمرو بن العاص فلسطين وليزيد بن أبى سفيان دمشق ولأبى عبيدة حمص ولشرحبيل الأردن وكان عدد الجنود التى سيرت إلى الشام سبعاً وعشرين ألفاً على ما رواه الطبرى.

رأى خالد بن سعيد أنه قد عز بمن أمده بهم أبو بكر ، وأن جنود المسلمين وقوادهم قد فصلوا لفتح الشام. فأراد أن يدرك الفوز قبل مقدمهم ويحرز الفخار دونهم فبادر الأمراء بقتال الروم ، واستطرد له باهان وقصد فيمن معه قصد دمشق واقتحم خالد فى الجيش ومعه ذو الكلاع وعكرمة والوليد حتى نزل مرج الصفر بين الواقوصة ودمشق فانطوت عليه مسالح باهان وأخذوا عليه الطريق وهو لا يشعر وزحف له باهان وأصاب سعيد بن خالد فقتله ومن معه. وعلم خالد بالخبر فخرج هارباً فى جريدة وأفلت من أصحابه من أفلت على ظهور الخيل والإبل وقد أجهضوا عن عسكره ، ولم تنته بخالد وأصحابه الهزيمة عن ذى المروة وأقام عكرمة ردءاً للناس يرد عنهم باهان وجنوده. وقد علم أبو بكر بما نكب به خالد بن سعيد فكتب إليه وهو بذى المروة أن أقم مكانك فلعمرى أنك مقدام محجام نجاء من الغمرات لاتخوضها إلى حق ولا تصبر عليه.

ولما علم الروم بقدوم أمراء جيوش المسلمين كاتبوا هرقل فقدم حمص وأراد أن

يشغل قواد المسلمين عن بعضهم بما عنده من الجنود الكثيرة. وأرسل إلى كل قائد أمثال ما عنده، فهابهم المسلمون ورأوا التريث حزماً وكاتبوا أبا بكر وعمرو بن العاص فيما نزل بهم. فأرسل إليهم عمرو أن الرأى الاجتماع وذلك أن مثلنا إذا اجتمع لم يغلب من قلة وإذا نحن تفرقنا لم يبق الرجل منا فى عدد يقرن فيه لأحد ممن استقبلنا وأعدلنا . فاتعدوا اليرموك ليجتمعوا به وهو واد يصب فى الأردن وقد طلع عليهم كتاب أبى بكر أن اجتمعوا فتكونوا عسكراً واحداً وألقوا زحوف المشركين بزحف المسلمين فإنكم أعوان الله والله ناصر من نصره وخاذل من كفره ولن يؤتى مثلكم من قلة وإنما يؤتى العشرة آلاف والزيادة على العشرة آلاف إذا أتوا من تلقاء الذنوب فاحترسوا من الذنوب واجتمعوا باليرموك متساندين وليصل كل رجل منكم بأصحابه.

لما علم هرقل باجتماع المسلمين باليرموك كتب إلى قواده أن اجتمعوا لهم وانزلوا بالروم منزلا واسع التعطن واسع المضرب ضيق المهرب. وبين لكل قائد مكانه من الجيش : من يكون على المقدمة والميمنة والميسرة ومن يكون قائداً عاماً. فصدعوا بأمره ونزلوا الواقوصة وهى على ضفة اليرموك وصار الوادى خندقا لهم وهو لهب لا يدرك غوره - وقد أراد قواد الرومان أن يستفيق الروم ويأنسوا بالمسلمين حين يرون قلتهم وكثرة جند الروم وترجع إليهم أفئدتهم عن طيرتها. ولما نزل الروم منزلهم هذا انتقل المسلمون ونزلوا بحذائهم على طريقهم وليس لهم طريق غيره. فقال عمرو بن العاص : أيها الناس أبشروا احصرت والله الروم وقلما جاء محصور بخير. فأقام المسلمون على حالهم هذا صفرا وشهرى ربيع سنة ١٣ لا يقدرون من الروم على شيء ولا يخلصون إليهم اللهب وهو الواقوصة من ورائهم والخندق من أمامهم.

كان المسلمون فى مبدأ اجتماعهم كتبوا إلى أبى بكر واستمدوه فقال أبو بكر : والله لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد. وكتب إلى خالد الكتاب الذى قدمنا فوافاه إلى الحيرة منصرفه من حجه وأمره أن يسير إلى الشام بشطر الناس وأن

يخلف على الشطر الباقى المثنى بن حارثة. وقال لا تأخذن نجدا إلا تركت له نجدا فإذا فتح الله عليكم فارددهم إلى العراق وأنت معهم ثم ائت على عملك.

ولما أراد خالد أن يفصل بنصف الناس استأثر بأصحاب رسول الله فأبى المثنى إلا أن يكون الأمر على ما كتب أبو بكر فلم يزل به خالد حتى أرضاه. وكان خالد يعتقد أن صرفه عن العراق وفارس إلى الشام إنما كان بسعى عمر حسداً له أن يكون فاتح العراق وفارس. وقد كان إرسال خالد إلى الشام توفيقا من الله تعالى لأبى بكر لأنه كان صاحب اليوم الذى حصلت فيه الصدمة الأولى وتتابعت الفتوح بعده.

سار خالد بمن معه من الجنود من الحيرة حتى نزل على عين التمر فأغار على أهلها فأصاب منهم ثم أغار على جموع من تغلب وكلب على ماء يسمى قراقر. ثم أراد السير مُفوِّزاً من قراقر إلى سُوَى وهو ماء لبهراء من ناحية السماوة. وقراقر ماء لبنى كلب وبينهما خمسة أيام للراكب المفرد المخف ؛ وإنما أراد خالد هذا الطريق لأنه إذا مر فى العمران ودار حول المفازة وجد جموع الروم فى طريقه ؛ وذلك يدعوه إلى منازلتهم وفى ذلك ما يؤخره عن الموعد الذى يريده وهو إغاثة المسلمين باليرموك فالتمس دليلا يسلك به المفازة فدل على رافع بن عميرة الطائى ، فأراده خالد على الانطلاق بالناس فقال رافع : إنك لن تطيق ذلك بالخيل والأثقال والله إن الراكب المفرد ليخافها على نفسه وما يسلكها إلا مغررا. إنها لخمس ليال جياد ولا يصاب فيها ماء مع مضلتها. فقال خالد : ويحك إنه والله إنْ لىَ بُدٌّ من ذلك إنه قد أتتنى من الأمير عزمة بذلك فمر بأمرك. قال : استكثروا من الماء ، من استطاع منكم أن يصر إذن ناقته على ماء فليفعل فإنها المهالك إلا ما دفع الله - أبغنى عشرين جزورا عظاما سمانا مسان. فأتاه خالد بهن فظمَّاهنّ ، حتى إذا أجهدهن عطشا أوردهن فشربن حتى إذا امتلأن عمد إليهن فكممهن لئلا يجتررن ثم أخلى أدبارهن ثم قال لخالد سر فسار بالناس مغذا بالخيول والأثقال فكلما نزل منزلا اقتط أربعا من تلك الشوارف فأخذ ما فى أكراشها فخلطه بما كان من لبن ثم سقى الخيل وسقى الناس مما حملوا

معهم من الماء. فلما كان آخر يوم خشى خالد على أصحابه فقال لرافع : ما عندك ؟ قال أدركت الرى إن شاء الله ليطمئن الناس فلما دنا من العلمين قال للناس : انظروا هل ترون شجيرة من عوسج كقعدة الرجل ؟ فوجدوا جذمها بعد جهد فأشار عليهم بأن يحفروا فى أصلها فحفروا فخرجت لهم أوشال فشربوا وسقوا ظهرهم واتصلت بعد ذلك لخالد المنازل وقد قال بعض القوم فى ذلك :

لله عينا رافع إنى أهتدى ... فوزّ من قراقر إلى سوى

خمسا إذا ما سارها الجيش بكى ... ما سارها قبلك أنسي يرى

ولم يكد خالد يصل إلى سوى حتى صبَّح بهراء بالقتال ، وهم لا يظنون أن أحداً يأتيهم من هذه المفازة المهلكة ، فدهمهم وبعضهم فى صبوحه. ثم أتى أرك فصالحوه ، ثم أتى تدمر فتحصن أهلها ثم صالحوه ، ثم أتى القريتين على مرحلتين من تدمر فقاتلهم فظفر بهم وغنم ، وأتى قصم فصالحه بنو شجعة من قضاعة. وسار فوصل إلى ثنية العقاب عند دمشق ناشراً رايةً سوداء كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم تسمى العقاب ، ثم أتى مرج راهط فصبح غسان فى يوم فصحهم فقتل وسبى، ثم سار إلى بصرى فقاتل من بها فظفر بهم وصالحهم فهى أول مدينة فتحت صالحاً بالشام على يد خالد وجند العراق. ثم بعث بالخمس إلى أبى بكر. ثم سار فأطل على المسلمين فى ربيع الآخر وطلع باهان على الروم ومعه القسوس والشمامسة فكان كل حزب مستبشراً فرحاً بما جاءه من المدد.

واقعة اليرموك

كان المسلمون فى قلة العدد بالنسبة إلى عدد الروم ، فالمقلّ من المؤرخين يجعلهم أربعين ألفاً ، والمكثر يجعلهم ستة وأربعين ألفاً. وأما الروم فعددهم أربعون ومائتا ألف على رواية الطبرى وأقل ما قيل فيهم ما قاله ابن الأثير فى إحدى روايتيه أنهم كانوا مائة ألف. وكان قتال المسلمين على تساند ، كل أمير على جيشه وقد

مكث القسيسون شهراً يحرضون على القتال ويرغبون الروم فيه وينعون لهم النصرانية حتى أحمسوهم. فخرج الروم فى تعبية لم ير مثلها للقتال الذى ليس بعده قتال. فلما رأى خالد هذا الأمر مع تفرق المسلمين على عدة أمراء وأن القوة مجزأة بتعدد الأمراء ؛ خشى أن يدخل على جيش الإسلام الوهن والضعف ، لأنهم إنما يقاتلون عدواً كثير العدد قوى العدة موحد الرأى والكلمة ، ولابد لنيل الظفر من حزامة الرأى واجتماع الكلمة. فقام خالد فى الأمراء ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : هذا يوم من أيام الله لا ينبغى فيه الفخر ولا البغى ، أخلصوا جهادكم وارضوا الله بعملكم ، فإن هذا اليوم له ما بعده. ولا تقاتلوا قوماً على نظام وتعبية وأنتم متساندون ، فإن ذلك لا يحل ولا ينبغى. وأن مَنْ وراءكم لو يعلم علمكم حال بينكم وبين هذا. فاعملوا فى مالم تؤمروا به بالذى ترون أنه رأى من وإليكم ومحبته. قالوا : هات فما الرأى ؟ قال : إن أبا بكر لم يبعثنا إلا وهو يرى أننا سنتياسر ، ولو علم بالذى كان ويكون لما جمعكم. إن الذى أنتم فيه أشد على المسلمين مما قد غشيهم وأنفع للمشركين من أمدادهم. ولقد علمت أن الدنيا فرقت بينكم ، فالله الله ، فقد أفرد كل رجل منكم ببلد لا ينقصه منه أن دان لأحد من أمراء الجنود ، ولا يزيده عليه إن دانوا له. إن تأمير بعضكم لا ينقصكم عند الله ولا عند خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم. هلموا فإن هؤلاء قد تيهئوا وهذا يوم له ما بعده. إن رددناهم إلى خندقهم اليوم لم نزل نردهم ، وإن هزمونا لم نفلح بعدها. فهلموا فلنتعاور الإمارة فليكن عليها بعضنا اليوم والآخر غداً والآخر بعد غد حتى يتأمر كلكم. ودعونى أليكم اليوم فأمّروه. وهم يرونها كخرجاتهم وأن الأمر أطول مما صاروا إليه.

صار خالد أمير المسلمين فى ذلك اليوم. وقد قدمنا أن الروم خرجوا فى تعبية لم ير الراءون أحسن منها ولا أهيب فى العين ، فخرج إليهم خالد فى تعبية لم تعبها العرب قبلها : فخرج فى ستة وثلاثين كردوساً إلى الأربعين. والكردوس هو الجماعة من العسكر ، وظاهر أن كردوس المسلمين فى هذه الوقعة لا يزيد على ألف مقاتل إلا

قليلا. وقد قسم الجيش فجلع على كراديس الميمنة عمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة ، وجعل على كراديس الميسرة يزيد بن أبى سفيان ، وجعل على كراديس القلب أبا عبيدة. وأقام على كل كردوس قائداً من شجعانهم وكان القاضى فى ذلك الجيش أبو هريرة. والقاصّ الذى يعظ الناس ويحرضهم على القتال أبو سفيان بن حرب. فكان يقف على كل كردوس ويقول : "الله الله إنكم ذادة العرب وأنصار الإسلام ، وإنهم ذادة الروم وأنصار الشرك. اللهم إن هذا يوم من أيامك ، اللهم أنزل نصرك على عبادك". وكان المسلمون يقرأون على الجنود فى الصفوف سورة القتال.

وفيما المسلمون فى المصاف قبل أن ينشب القتال خرج قائد القلب من جيش الروم طالبا خالد بن الوليد ، فجاء إليه وكلمه فى بعض الشأن.

ذلك أنه لابد فى كل زمان ومكان من أناس يتزيدون فى الأخبار ويهرفون بما لا يعرفون ، ويؤولون الكلام على ما يخطر على قلوبهم بدون تدبر ولا تحقيق. ولعل بعض القوم أشاعوا فى بلاد الشام أن خالدا فى يده سيف نزل من السماء يهزم به أعداءه أعطاه له رسول الله. وأخذوا ذلك مما اشتهر به بين المسلمين أنه سيف الله. ويظهر أن ذلك القائد (ويسميه الطبرى جرجة بن توذر ، ولعله جورج بن ثيودور) كان يعرف العربية لأنه كلم خالداً بدون ترجمان.

وقف ذلك القائد فقال : يا خالد لا تكذبنى فإن الحر لا يكذب ، ولا تخدعنى فإن الكريم لا يخادع المسترسل. هل أنزل الله على نبيكم سيفاً من السماء فأعطاكه فلا تسله على قوم إلا هزمتهم ؟ قال : لا. قال : فبم سميت سيف الله ؟ قال : إن الله عز وجل بعث فينا نبيه صلى الله عليه وسلم فدعانا فنفرنا عنه ونأينا عنه جميعا. ثم إن بعضنا صدقه وتابعه ، وبعضنا كذبه فكنت فيمن كذبه وباعده وقاتله. ثم إن الله أخذ بقلوبنا ونواصينا فهدانا به فتابعناه ، فقال : "أنت سيف من سيوف الله سله الله على المشركين" ودعا لى بالنصر فسميت سيف الله بذلك فأنا من أشد المسلمين

على المشركين. قال : صدقتنى : ثم أعاد عليه يسأله عن الإسلام وما يأمر به ، وما للداخل فيه من الحقوق وما عليه من الواجبات ، وخالد يجيبه عن كل ما سأل عنه ، فمال مع خالد إلى صفوف المسلمين ، دخل خيمة خالد فاغتسل وتشهد وصلى ركعتين ، وخرج يقاتل مع المسلمين إلى أن قتل عصر ذلك اليوم ما صلى سوى الركعتين.

نعود إلى شأن القتال فنقول : لما مال ذلك القائد مع خالد ظن الروم أنها من قائدهم حملة فحملوا فأزالوا المسلمين عن مواقفهم إلى المحامية وعليهم عكرمة وعمه الحارث بن هشام ، فقال عكرمة : قاتلت رسول الله فى كل موطن وأفر اليوم ؟ ثم نادى : من يبايع على الموت ؟ فبايعه الحارث بن هشام وضرار بن الأزور فى أربعمائة من وجوه المسلمين وفرسانهم. فقاتلوا بين يدى فسطاط خالد حتى ثبتوا جراحه ، فمنهم من برأ ومنهم من قتل. وقد اشتد القتال بين الفريقين النهار كله إلى جنوح الشمس للغروب ، فنهد خالد بالقلب حتى تصافح القوم بالسيوف وصار خالد بمن معه بين خيل الروم ورجلهم ، وكان المكان واسع المطرد ضيق المهرب. تضايقت خيل الروم ؛ فلما وجدت مذهبا ذهبت تشتد فى الصحراء ، وأفرج لها المسلمون وترك فرسانهم الرجالة فى مصافهم وتفرقوا فى كل مذهب لا يلوون على شىء. وأقبل خالد والمسلمون على الرجل ففضوهم ، فكأنما هدم بهم حائط فاقتحموا فى خندقهم فاقتحمه عليهم فعمدوا إلى الواقوصة فهووا فيها. وقد زاد خسارتهم أنه كان فيهم كثير من المقيدين وآخرون مسلسلين للموت ، فكان الجماعة من المسلسلين أو المقيدين إذا هوي واحد منهم فى الواقوصة هوي بقيتهم بِهُوِيِّه ، فكان ذلك نكالا لهم ووبالا عليهم إذ تهافت فى الواقوصة أكثر القتلى.

وقد ذكر الطبرى أنه قد هوى فيها من الروم عشرون ومائة ألف ، وهؤلاء سوى من قتلوا بالمعركة. وقد استمر القتال طول النهار ومعظم الليل. وأصبح خالد

وهو فى رواق رئيس جند الروم. وإنى لأشك فى عـددهم ، ولكن لا شك فى نصر المسلمين.

وقد شق على كثير من عظماء جنود الروم وشجعانهم وقوادهم أن يروا هزيمة جيشهم بأعينهم ، ففضلوا الموت على الحياة : فتزملوا وجلسوا ينتظرو الموت حتى لا يروا اليوم البئيس فقتلوا على حالهم تلك - وهذه هى العادة لم تزل إلى اليوم فى بعض القبائل العربية : إذا غلب الجيش على أمره وحقت عليه الهزيمة عمد الرؤساء إلى التزمل والجلوس حتى يأتى من يقتلهم ليريحوا أنفسهم من عار الهزيمة وتجرع غصص الذل. وقد أبلى المسلمون بلاء حسناً وقتل منهم نحو ثلاثة آلاف فيهم كثير من أجلاء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد شهد اليوم منهم ألف ؛ وفى ذلك اليوم سمع خالد رجلا يقول : ما أكثر الروم وأقل المسلمين ! فقال خالد : ما أقل الروم وأكثر المسلمين إن الجيوش إنما تكثر بالنصر وتقل بالخذلان ، ولوددت أن الأشقر برىء مما به من الوجى وقد أضعف الروم جيوشهم.

وفى أول هذا اليوم ورد كتاب عمر بن الخطاب بوفاه أبى بكر رضى الله عنه وبتولى عمر الخلافة ، وفيه عزْل خالد عن إمارة جيشه وتولية أبى عبيدة بن الجراح. فلما جاء الرسول سئل عما وراءه ، فأخبر بالمدد وبسلامة الأمة ، وأعطى الكتاب لخالد وأسر إليه بما وراءه. فأحمد خالد رأيه ولم يشأ أن يظهر الأمر للناس وهم على حالهم تلك ؛ حتى إذا ما انتهت الوقعة سلم الكتاب إلى أبى عبيدة وسلم عليه بالإمارة. وفى الصبح بعد انتهاء الموقعة أتى خالد بعكرمة وابنه عمر فوضع رأس عكرمة على فخذه ورأس عمر على ساقه ، وصار يقطر فى حلقيهما ويمسح وجههما ويقول : زعم ابن حنتمة أن لا نستشهد ·- يريد عمر رضى الله عنه - وقد قاتل النساء فى ذلك اليوم قتالا شديداً فى بعض الجولات ، وكن يقمن بسقى الجند الماء ومداواة الجرحى وتمريضهم.

ومكان العبرة بعد هذه الموقعة أن جيشاً عدته أربعون ألفاً قد غلب جيشاً فيه خمسة أمثاله ، يفتش الناس عن الأسباب التى دعت إلى ذلك.

أنا لا أبعد بكم إلى شيء ناء ، وإنما أحيلكم على ما قدمنا من الأسباب. وأزيدكم أن جيش المسلمين كان فيه العدد المدرب على الحرب وهم قريبو عهد بالانتصار على الجنود الفارسية ، فأورثهم ذلك ضرارة عليهم. وقد أحبوا أن ينتظموا الروم مع فارس فى سلك ليكون لهم فخر الإثخان فى الدولتين.

قد كان فى حكم المقبول أن يقال : إن الانتصار فى كل من الناحيتين (العراق والشام) سببه ارتباك الدولتين ، غير أن هذا الارتباك لم يمنع الطائفتين عن حشد الجنود التى تفوق المسلمين أضعافا مضاعفة ، ورمى كل ثغر بما يسده من المقاتلة وذوى النجدة. فالأمر الذى ساعد المسلمين كما قدمنا وراء العدد وهو أن الجندى المسلم إنما كان يخوض المعامع وقلبه متأثر بأمرين :

أولهما - ثقته بأن العاقبة له لما قرأه فى الكتاب من عدة النصر وما سمعه من الرسول من التبشير بهذه الفتوح. وهذه الثقة فى قلبه بمنزلة مدد من الله تعالى يؤيده.

ثانيهما - أنه واثق بالعاقبة فى الأخرى فهو إن قتل شهيداً فائز بالحسنى وزيادة ، وإذا عاش ظافراً فذلك خير عجله الله له ، والآخرة خير وأبقى.

ولا تنس براعة القواد وحسن تدبيرهم. فإن أولئك القواد الذين قاموا بهذه الفتوح قد أعجزوا من بعدهم أن يقدم إقدامهم فى مثل حالهم ، وإن أمثالهم فى تاريخ الشرق قليل.

أما خالد فكان واسطة عقد هؤلاء القواد ، وزينة تاريخ أبى بكر. وبانتهاء وقعة اليرموك تمت الأعمال الكبرى التى قامت بين دولة الإسلام فى مقابلة دولتى الفرس والروم فى عهد أبى بكر. وإنما عددنا اليرموك من الأعمال فى عهد أبى بكر ؛ لأنها بدأت وتهيأت فى زمنه ، وبعمله ، وإن كان تمامها فى عهد عمر. وإن الأعمال

الكُبّر التى تمت فى هذا التاريخ القصير الذى لم يمتـد إلى أكثر من سنتين وأربعة أشهر – وهى مدة خـلافة أبى بكر – تشهـد بأن الرجل كان صادق العـزيمة، قوى الإرادة، كبير الهمة ؛ لأنه لا يحمل العظيم من الأمور ويستقل به إلا العظيم.

إدارة البلاد فى عهد أبى بكر

لم يكن للمسلمين بلاد فى عهد أبى بكر سوى شبه جزيرة العرب ، وهى التى كانت تابعة للإدارة الإسـلامية نهائياً. وقد كـان أبو بكر جزأها إلى ولايات ، وجعل على كل ولاية أميراً من قـبله ، وكان الأمير يقيم الصلاة ويقضى فـى القضايا ويقيم الحدود. فكان أمـيراً وقاضياً ومنفذاً يقـوم بعمل الشرطة ، ولم يول أبو بكر قـضاة يتولون القضاء دون الأمراء. وهذه ولاية الجزيرة وولاتها لعهده :

(١) مكة : وأميـرها عتـاب بن أسيد ، وهو الـذى ولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم واستمر مدة أبى بكر.

(٢) الطائف : وأميرها عثمان بن أبى العاص ، ولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقره أبو بكر.

(٣) صنعاء : وأميرها المهاجر بن أبى أمية ، وهو الذى فتحها ووليها بعد انتهاء أمر الردة.

(٤) حضرموت : وواليها زياد بن لبيد.

(٥) خولان : وواليها يَعلَى بن أمية.

(٦) زُبَيْدُ وَرِمَع : وواليهما أبو موسى الأشعرى.

(٧) الجَنَدْ : وأميرها معـاذ بن جبل ، وبها مسجد من بناء مـعاذ ، وقد كانت العرب تحج بمسجد الجند قبل الإسلام.

(٨) نجران : وواليها جرير بن عبد الله.

(٩) جرش : وواليها عبد الله بن ثور.

(١٠) البحرين : وواليها العلاء بن الحضرمى.

أما العراق والشام فكان أمراء الجند هم ولاة الأمر فيها ، ولم يكن أمر التولية فى نواحيها راجعاً إلى أبى بكر. بل كان كل أمير يولى واحداً من قبله على الناحية التى فتحها ليكون نائباً عنه فيها ، ولم يكن الأمر قد استقر فى تلك النواحى استقراراً نهائيا.

ولم يتخذ أبو بكر وزيراً ، وإنما كان عمر يلى له القضاء بالمدينة ولم يكن قاضيا. وكان أبو عبيدة أميناً على بيت المال قبل أن يسير إلى الشام.

ولم يتخذ أبو بكر كاتبا بعينه ، بل كان يكتب له زيد بن ثابت ، وكان يكتب له الأخبار عثمان بن عفان ، وكان يكتب له من حضر كعلى وغيره.

جمع القرآن

وفى عهد أبى بكر جمع القرآن. وذلك أن القتل قد استحرَّ فى القراء فى حروب اليمامة وأهل الردة. فرأى عمر أن يجمع القرآن فى مصحف خشية أن يهلك الحفاظ فيضيع القرآن ، فلم يزل بأبى بكر حتى رضى بذلك ، فدعا زيد بن ثابت فلم يزل به أبو بكر حتى رضى ، وهو الذى قام بجمع القرآن. أخرج البخارى عن زيد ابن ثابت قال : "أرسل إلىَّ أبو بكر مقتل أهل اليمامة وعنده عمر فقال أبو بكر : إن عمر أتانى فقال : إن القتل قد استحر يوم اليمامة بالناس ، وإنى لأخشى أن يستحر القتل بالقراء فى المواطن فيذهب كثير من القرآن ، إلا أن يجمعوه ، وإنى لأرى أن يجمع القرآن.

"قال أبو بكر : فقلت لعمر : كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال عمر : هو والله خير ! فلم يزل عمر يراجعنى حتى شرح الله صدرى لذلك ، فرأيت الذى رأى عمر. قال زيد : وعمر عنده جالس لا يتكلم ،

فقال أبو بكر : إنـك شاب عاقل ولا نتهمك ، وقـد كنت تكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم فـتتبع القرآن فاجـمعه. فوالله لو كلفنى نقل جـبل ما كان أثقل على مما كلفنى به من جمع القرآن ، فقلت : كيف تفعلان شيئاً لم يفعله النبى صلى الله عليه وسـلم ؟ فقال أبو بكر : هـو والله خير. فلم أزل أراجـعه حـتى شرح الله صدرى للذى شرح الله له صدر أبى بكر وعـمر. فتتبعت القرآن أجـمعه من الرقاع، والأكتـاف ، والعَسَب ، وصدور الرجـال ، حتى وجدت من سـور التوبة آيتين عند خـزيمة بن ثابت لم أجدهمـا مع غيـره : ﴿لقـد جاءكم رسـول من أنفـسكم﴾ إلى آخرها. فكانت الصحف التى جمع فيها القرآن عند أبى بكر حتى توفاه الله ، ثم عند عمر حتى توفاه الله ، ثم عند حفصة بنت عمر رضى الله عنها.

وسنذكر عند الكلام علـى عثمان أنه هو الذى اسـتنسخ المصاحف وفرقـها فى الأمصار ، وكـان القرآن قبل ذلك محـفوظاً مرتباً فى الصدور ومـكتوباً آيات وسوراً ليست مجتمعة.

رزق الخليفة

كان أبو بكر يرتزق من استغلال ملكه وعمل يده. وقد ظل مدة ستة أشهر بعد خلافـته وهو على حـاله تلك ، لا ينفق على نفـسه من بيت مـال المسلمين شيـئاً ، فأصبح ذات يوم وعلى سـاعده أبراد وهو ذاهب إلى السوق. فلقيه عمـر فقال : أين تريد ؟ قال : إلى السـوق. قال : تصنع ماذا وقد وليت أمر المسـلمين ؟ قال : فمن أين أطعم عيالى ؟ فـقال : انطلق يفرض لك أبو عبيـدة (أمين بيت المال) فلما ذهب إليه ، قـال : أفرض لك قـوت رجل من المهاجـرين ليس بأفضلهم ولا أوكـسهم ، وكسـوة الشتاء والصـيف إذا أخلقت شيـئا رددته وأخذت غـيره. ففـرضا له كل يوم نصف شاة وما كساه فى الرأس والبطن. أخرجه ابن سعد عن عطاء بن السائب.

وقال الطبرى : قـالت عائشة : كان منزل أبى بـالسُّنْح عند زوجته حبـيبة ابنة خارجة ، وكان قـد حجر عليه من سعفٍ ، فمـا زاد على ذلك حتى تحول إلى منزله

بالمدينة فأقام هناك بالسنح بعد ما بويع له ستة أشهر يغدو على رجليه إلى المدينة ، وربما ركب على فرس له وعليه إزار ورداء ممشق فيوافى المدينة فيصلى الصلوات بالناس ، فإذا صلى العشاء رجع إلى أهله لسُنح. فكان إذا حضر صلى بالناس وإذا لم يحضر صلى بهم عمر بن الخطاب. فكان يقيم يوم الجمعة صدر النهار بالسنح يصبغ رأسه ولحيته ، ثم يروح لقدر الجمعة فيُجمِّعُ بالناس. وكان رجلا تاجراً. فكان يغدو كل يوم إلى السوق فيبيع ويبتاع. وكانت له قطعة غنم تروح عليه ، وربما خرج هو بنفسه فيها ، وربما كفيها فرعيت له وكان يحلب للحى أغنامهم. فلما بويع له بالخلافة قالت جارية من الحى : اليوم لا تُحلب لنا منائح دارنا ، فسمعها أبو بكر فقال : بلى ، لعمرى لأحلبنها لكم وإنى لأرجو أن لا يغيرنى ما دخلت فيه عن خُلُقٍ كنت عليه. فكان يحلب لهم فربما قال للجارية من الحى : يا جارية أتحبين أن أُرْغى لك أو أُصرِّح ؟ فربما قالت : ارْغ ، وربما قالت : صرح ، فأى ذلك قالته فعل. فمكث كذلك بالسُّنْح ستة أشهر ، ثم نزل إلى المدينة فأقام بها. ونظر فى أمره فقال : لا والله لا تصلح أمور الناس على التجارة وما يصلحهم إلا التفرغ لهم والنظر فى شأنهم. ولابد لعيالى مما يصلحهم. فترك التجارة واستنفق من مال المسلمين ما يصلحه ويصلح عياله يوماً بيوم ويحج ويعتمر. وكان الذى فرضوا له فى كل سنة ستة آلاف درهم ، فلما حضرته الوفاة قال : ردوا ما عندنا من مال المسلمين فإنى لا أصيب من هذا المال شيئاً. وإنَّ أرضى التى بمكان كذا وكذا للمسلمين بما أصبت من أموالهم. فدفع ذلك إلى عمر ولقوحا وعبدا صيقلا وقطيفة ما تساوى خمسة دراهم. فقال عمر : لقد أتعب من بعده.

وروى عن عائشة أنها دخلت على أبيها فى مرضه الذى توفى فيه وطلبت إليه أن يعهد بالأمر وهى حزينة كئيبة. فرفع رأسه وقال : "أى أمَّه هذا يوم يُجلَى لى عن غطائى وأشاهد جزائى : إن فرحاً فدائم ، وإن ترحاً فمقيم. إنِّى اضطلعت بإمامة هؤلاء القوم حين كان النكوص إضاعة ، والخذل تفريطا. فشهيدى الله ما كان يقيلنى

إياه ، فتبلغت بصفحتهم وتعللت بدِرّة لقْحَتهم. فأقمت صلاتى معهم لا مختالا أشراً، ولا متكاثراً بطراً. لم أعْدُ سد الجُوعة وَوَرْى العورة وقُواته القوام[1]. حاضرى الله من طوى ممعض تهفو منه الأحشاء وتَجبُ له الأمعاء ، فاضطررت إلى ذلك اضطرار المريض إلى المعيف الآجن. فإذا أنا مت فردى إليهم صحفتهم وعبدهم ولقحتهم ورحاهم ودثارة ما فوقى اتقيت بها البرد ودثارة ما تحتى اتقيت بها نز الأرض ، كان حشوها قطع السعف ا هـ.

وكأن أبا بكر يرى أنه ليس له حق فى أن يأخذ من بيت مال المسلمين شيئاً ، فلهذا أوصى بأرضه للمسلمين فى نظير ما أخذه من أموالهم.

ومناقب أبى بكر كثيرة. منها قول النبى صلى الله عليه وسلم "**مادعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له عنه كبوة غير أبى بكر**". وقد شهد له بالجنة وبعتقه من النار. وأخبر بخلافته تعريضاً لانصاً بقوله لامرأة "**إن لم تجدينى فإنك تجدين أبا بكر**". وشهد المشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعتق سبعة نفر كلهم كانوا يعذبون فى الله : بلال ، وعامر بن فهيرة ، وزنِّيرة ، والنهدية ، وابنها ، وجارية بنى مؤمل ، وأم عبيس. وكان بيت المال معه فى داره. ولما فتح بيت المال بعد وفاته لم يجدوا فيه درهما ولا ديناراً إلا ديناراً واحداً سقط من غراره.

وقال أبو صالح الغفارى : كان عمر يتعهد امرأة عمياء بالمدينة بالليل فيقوم بأمرها ، فكان إذا جاء وجد غيره قد سبقه ، فرصده فإذا هو أبو بكر وهو خليفة.

وقيل : إن زوجته اشتهت حلوى ، فقال لها : ليس لنا ما نشترى به. فقالت. أنا استفضل من نفقتنا عدة أيام ما نشترى به. قال : افعلى. ففعلت ذلك فاجتمع لها فى أيام كثيرة شىء يسير ، فلما عرّفته ذلك ليشترى به حلوى أخذه فرده إلى بيت المال وقال : هذا يفضل عن قوتنا. وأسقط من نفقته بمقدار ما نقصت كل يوم وغرمه من بيت المال من ملك كان له.

---

(١) القوام : ما يعاش به.

وهو أول من سمى ما كتب فيه القرآن مصحفاً ، وأول من فرض له رعتيه نفقة، وأول من سمى خليفة ، وأول من خليفة ولى وأبوه حى.

كان يسوى فى قسمته بين السابقين الأولين والمتأخرين فى الإسلام ، وبين الحر والعبد والذكر والأنثى * من ابن الأثير.

أرزاق الجند

كان جند المسلمين فى عهد أبي بكر متطوعين لا يكلفون الخليفة ولا بيت المال شيئاً ، وإنما ينفقون من أموالهم ابتداء ثم مما يصيبون من الغنائم فإن المقاتلة لهم أربعة أخماس الغنيمة سوى ما يناله القاتل من سلب القتيل. وكان الأمير ينفل أهل البلاء المستازين بالغناء فى الحرب والضراوة على العدو. ولقد كانت الغنائم فى العراق والروم مما يغرى المخلفين باللحاق بإخوانهم ، لأنها كانت شيئاً كثيراً لا عهد لهم به. وحسبنا من ذلك خطبة خالد التى أغراهم فيها على العراق وافتتاحه وحيازته دون فارس ، وأن الأمر لو لم يكن ديناً ولم يكن إلا المعاش لكان فى الحق أن يجالدوهم على ما فى أيديهم. وقد كان أبو بكر يسوى فى العطاء بين الناس ولا يميز أحداً عن أحد ، فقيل له : كيف تسوى بالسابقين الأولين غيرهم ؟ فقال : أولئك قوم عملوا لأنفسهم وسبقوا إلى الدخول فى الدين ابتغاء مرضاة الله فوقع أجرهم على الله. أما أنا فلا أفضل أحداً على أحد. وعذره فى ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما كان يفاضل بين الناس فى العطاء ، لأنه كان أعلم بوجوه المصلحة ، وأجر العطاء مردود إليه يصنع فيه ما شاء ، والناس يرضون منه بكل ما يجيء به ، فإذا حرم أحداً من أهل البلاد رجع وهو راض مكتفياً برضا الله ورسوله عنه. وليس لأبى بكر ما لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

أرزاق العمال

كان يرد لبيت المال خمس الغنائم ، وصدقات المسلمين ، وجزية أهل الذمة ؛

وذلك كله مادة الخلافة يرزق الخليفة منها العمال ، ويعين منها المجاهدين فى سبيل الله ، ويفض ما بقى على أهلها المعينين فى كتاب الله تعالى.

وفاة أبى بكر

مرض أبو بكر بالحمى لسبع خلون من جمادى الآخرة سنة ١٣ هـ. ومكث محموما ١٥ يوما ، وتوفى فى مساء ٢١ جمادى الآخرة سنة ١٣ هـ (٢٢ أغسطس سنة ٦٣٤م) فكانت مدته سنتين وثلاثة أشهر وعشر ليالى ودفن فى حجرة عائشة بجوار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يميل عنه قليلا إلى الجهة الشرقية.

انتخاب عمر للخلافة

لما اشتدَّ على أبى بكر مرضه ، وأحسَّ بدنّو أجله ، خاف على المسلمين أن ينتشر أمرهم وتنحلَّ عقدة اجتماعهم بتنازعهم سبل الخلافة. وقد رأى الناس يوم وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم قد انقسموا فئتين كل منهما يجذب الخلافه إلى حيزه - فكان ذلك حاديا له على النظر للمسلمين والاحتياط لاجتماع كلمتهم ، ولم يشغله ما هو فيه عن النظر فى مصلحتهم من بعده وجمع كلمتهم ، ولو أن أبا بكر ترك مركز الخلافة شاغراً لكان للتصاول عليها مجال ، ولشغل المسلمون عن أعدائهم بأنفسهم ، ولكان وجه التاريخ تغير عما هو عليه اليوم ، ولكانت فتنة القوم بالخلافة أنكى وأشد من فتنة الردة ، ولعادت فتنة الردة جذعة واتسع الفتق على الراتق . .

أدار أبو بكر عينه فى أصحابه يتخير منهم لهذا المنصب رجلا يكون شديداً فى غير عنف ، ليناً فى غير ضعف ، فوجد كثيراً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على ما يجب. غير أن عمر كان أفضلهم فى نفسه ، وأقربهم إلى الصفة التى يجب أن يكون عليها خليفة المسلمين. وكذلك كان عمر في نفوس من استشارهم أبو بكر فى أمر الخلافة ومن يليها.

يقول صاحب أشهر مشاهير الإسلام رحمه الله ، " وممن توفرت فيهم هذه

الصفة من الصحابة الكرام عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب ، إلا أن الأول كان ربما يريد الأمر فيرى فى طريقه عقبة فيدور إليه ، والثانى يرى الاستقامة فلا يبالى بالعقبة تقوم بين يديه ، فهو إلى الشدة أميل منه إلى اللين".

أقول : إن ما ذكره حضرة الفاضل فى وصف الرجلين صحيح ، غير أن عدول أبى بكر عن على إلى عمر لم يكن سببه ما ذكر فحسب. والذى أعتقد أن تريث على فى بيعة أبى بكر واحتجاجه على أحقيته للأمر بقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذى حدا بأبى بكر إلى العدول عنه إلى غيره ؛ لأنه خشى أن يجعلها ميراثا للأعقاب على نظام الأرستقراطية ، فى حين أن أبا بكر كان يراها غير خاصة ببنى هاشم كما يرى على. بل قد صرح بأنه كان يود : أن لو كان سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الأنصار : هل لهم فى هذا الأمر شىء حتى لا يكون قد غلبهم يوم السقيفة بأن كان ألحن منهم بحجته. فهو يود أن لو كان استبرأ لنفسه. ومن كانت هذه حاله كان أحرص على إبعادها عمن يراها تراثاً وطعمة لأهله خاصة. هذا هو الذى أظنه سبباً لما ذكر.

عزم أبو بكر على اختيار عمر. وأحب أن يستوثق للأمر ويوطن أصحاب رسول الله وأهل السابقة على هذا الأمر حتى لا يكون فى نفس أحد منهم حفيظة ، ولئلا يكون قد استخلف عليهم من لا يرضونه. فسأل عبد الرحمن بن عوف فقال : أخبرنى عن عمر بن الخطاب. فقال : ما تسألنى عن أمر إلا وأنت أعلم به منى. فقال : وإن. فقال عبد الرحمن : هو أفضل من رأيك فيه من رجل ، ولكن فيه غلظة. قال أبو بكر : ذلك لأنه يرانى رقيقاً ، ولو أفضى الأمر إليه لترك كثيراً مما هو فيه. ثم دعا عثمان بن عفان فقال : أخبرنى عن عمر. فقال أنت أخبرنا به. فقال : على ذلك يا أبا عبد الله ، أخبرنى عن عمر. فقال : اللهم علمى به أن سريرته خير من علانيته ، وأنه ليس فينا مثله. فقال أبو بكر : رحمك الله أبا عبد الله. لا تذكر مما ذكرت لك شيئاً. قال : أفعل. فقال له أبو بكر : لو تركته ما عدوتك وما أدرى

لعله تاركه ، والخيرة له ألا يلى من أموركم شيئاً ، ولوددت أنى كنت خلوا من أموركم وأنى كنت فيمن مضى من سلفكم. وسأل أسيد بن حضير فقال أسيد : اللهم أعلمه الخير بعدك ، يرضى للرضى ويسخط للسخط ، الذى يسر خير من الذى يعلن ولن يلى هذا الأمر أحد أقوى عليه منه. واستشار غير هؤلاء سعيد بن زيد وجماعة من المهاجرين والأنصار فكلهم قال خيراً وأثنى عليه

ولما تهيأ لأبى بكر ما أراد دعا عثمان بن عفان فأملى عليه :

"بسم الله الرحمن الرحيم * هذا ما عهد أبو بكر بن أبى قحافة إلى المسلمين أما بعد" ثم أغمى عليه فكتب عثمان : "فإنى استخلفت عليكم عمر بن الخطاب ولم آلكم خيراً "ثم أفاق أبو بكر فقال : "اقرأ على. فقرأ عليه فكبر أبو بكر وقال : أراك خفت أن يختلف الناس إن افتُلِتُّ فى غشيتى. قال : نعم. قال : جزاك الله خيراً عن الإسلام وأهله. وأقرها أبو بكر من هذا الوضع.

قال الطبرانى : ثم أشرف على الناس وزوجه أسماء بنت عميس ممسكته. فقال لهم : أترضون بمن أستخلف عليكم ؟ فإنى والله ما ألوت من جهد الرأى ولا وليت ذا قرابة وإنّى قد وليت عليكم عمر بن الخطاب فاسمعوا له وأطيعوا. فقالوا: سمعنا وأطعنا.

ثم دعا أبو بكر بعمر خالياً فقال : إنى مستخلفك من بعدى وموصيك بتقوى الله. إن لله عملا بالليل لا يقبله بالنهار ، وعملا بالنهار لا يقبله بالليل ، وإنه لا تقبل نافلة حتى تؤدى الفريضة فإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق فى الدنيا وثقله عليهم. وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الحق أن يكون ثقيلا. وإنما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامه باتباعهم الباطل وخفته عليهم، وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الباطل أن يكون خفيفاً. إن الله ذكر أهل الجنة فذكرهم بأحسن أعمالهم وتجاوز عن سيئاتهم ، فإذا ذكرتهم قلت : إنى أخاف أن لا أكون من هؤلاء. وذكر أهل النار فذكرهم بأسوأ حالهم ولم يذكر حسناتهم ، فإذا

ذكرتهم قلت : إنى لأرجـو أن لا أكون من هؤلاء. وذكر آية الرحمـة مع آية العذاب ليكون العبد راغباً راهباً ولا يتمنى على الله غير الحق ولا يلقى بيده إلى التهلكة. فإذا حـفظت وصيـتى فـلا يكن غائب أحب إليك مـن الموت وهو آتيك ، وإن ضيـعت وصيتى فلا يكن غائب أبغض إليك من الموت ولست بمعجزه.

ولما خرج عمر من عنده رفع يديه وقال : اللهم إنى لم أرد بذلك إلا صلاحهم وخفت عليهم الفتنة فعملت فيهم بما أنت أعلم به ، واجتهدت لهم رأيا فوليت عليهم خيرهم ، وأقواهم عليهم ، وأحرصهم على ما أرشدهم ، وقد حضرنى من أمرك ما حضـر ، فأخلفنى فـيهم فـهم عبادك ونواصـيهم بيـدك ، أصلح اللهم لهم ولاتهم واجعله من خلفائك الراشدين وأصلح له رعيته.

وكان بدء خلافـة عمر بن الخطاب يوم الثلاثاء ٢٢ جمـادى الثانية سنة ١٣ هـ (٢٣ أغسطس سنة ٦٣٤ م).

ترجمة عمر بن الخطاب

هو عمر بن الخطاب بن نفيل من بنى عدى بن كعب من بنى لؤى. وأمه حنتمة بنت هاشم بن المغيـرة من بنى مخزوم بـن يقظة بن مرة. ولد لثلاث عـشرة سنة من ميلاد رسول الله صلى الله عليـه وسلم. كان عمر ذا شهامة ونجدة وجـرأة وشجاعة. وكانت الشجاعة الأدبية أخص أوصـافه لا يخاف فى الحق لومة لائم ، ولا يقر على كتمانه ولا يعطى هوادة فى باطل يعتقد بطلانه.

كان عمر فى صغره يرعى على أبيه غنمه ويضم إليهن غنيمات لخالات له. وقد روى ابن عـساكـر بسنده : أن عمـر مر بصـجنان (اسم مكان) فقـال : كنت أرعى للخطاب بهذا المكان فكان فظاً غليظاً. فكـنت أرعى أحياناً وأحطب أحياناً فـأصبحت أضرب الناس ليس فوقى أحد إلا رب العالمين. ثم قال :

لا شيء مما ترى تبقى بشاشته　　　يبقى الإله ويودى المال والولد

ولما كبر عمر اشتغل بالتجارة فى ماله وكان يذهب أحياناً إلى الشام متجراً. وقد روى ابن عساكر : أن بطريقا أسره بالشام واستعمله فى بعض عمله فتغفله عمر وقتله وخرج هارباً من الشام. ولم يكن لعمر وفر من المال ، بل كان مقلا من ذلك وحرفته التجارة فى الجاهلية والإسلام إلى أن ولى الخلافة.

كان عمر عزيز الجانب فى قومه مشهوراً بالشدة ، وصدق العزيمة وقوة الشكيمة، وكانت سنه حين البعثة سبعاً وعشرين سنة. ولم يكن قد أشرق نور الإيمان على قلبه فكان ينال المسلمين بالأذى.

كان رسول الله فى مبدأ أمره يتمنى أن يكون له بين المسلمين رجل له عز وشرف وصدق عزيمة يكفكف عنهم المشركين ويكون للمسلمين ردءاً من الأذى : ويرى أن قريع هذه الصفات إنما هو عمر بن الخطاب ، وعمرو بن هشام ، فكان يدعو الله أن يعز الإسلام بأحدهما ، فاستجاب الله له فى عمر.

ذكر فى أسد الغابة بسنده قال : قال لنا عمر بن الخطاب : أتحبون أن أعلمكم كيف كان بدء إسلامى ؟ قلنا نعم. قال : كنت من أشد الناس على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبينا أنا يوماً فى يوم حار شديد الحر بالهاجرة فى بعض طريق مكة، إذ لقينى رجل من قريش فقال : أين تذهب يا ابن الخطاب ؟ أنت تزعم أنك هكذا ، وقد دخل عليك هذا الأمر فى بيتك ، قلت : وما ذاك ؟ قال : أختك قد صبأت ، قال : فرجعت مغضباً ، وقد كان رسول الله يجمع الرجل والرجلين إذا أسلما عند الرجل به قوة فيكونان معه ، ويصيبان من طعامه. وكان قد ضم إلى زوج أختى رجلين. قال : فجئت حتى قرعت الباب. فقيل : من هذا ؟ قلت : ابن الخطاب. قال : وكان القوم جلوساً يقرأون القرآن فى صحيفة معهم ، فلما سمعوا صوتى تبادروا واختفوا وتركوا أو نسوا الصحيفة من أيديهم ، فقامت المرأة ففتحت لى ، فقلت : يا عدوة نفسها ، قد بلغنى أنك صبأت. قال : فأرفع شيئاً فى يدى فأضربها به ، فسال الدم ، فلما رأت المرأة الدم بكت ، ثم قالت: يا بن الخطاب ما

كنت فاعــلا فافعل ، فــقد أسلمت. قال : فــدخلت وأنا مغضــب ، فجلست على السرير ، فنظرت فإذا بكتــاب في ناحية البيت ، فقلت : مــا هذا الكتاب أعطينيه ، فقالت : لا أعطيك ، لست من أهله ، أنت لا تغتسل من الجنابة ولا تتطهر ، وهذا لا يمسه إلا المطهرون ؛ قال : فلم أزل بها حتى أعــطتنيه ، فإذا فيه (بسم الله الرحمن الرحيم) فلمــا مررت بالرحمن الرحيم ، ذعــرت ورميت بالصحيــفة من يدى ، ثم رجعت إلى نفسى فإذا فيها **﴿سبح لله ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم﴾** قال فكلما مــررت باسم من أسماء الله عز وجل ذعرت ثم تراجــعت إلى نفسى حتى إذا بلغت **﴿آمنوا بالله ورسوله وأنفقــوا مما جعلكم مستــخلفين فيه﴾** حــتى بلغت إلى قوله : **﴿إن كنتم مؤمنين﴾** قال : فقــلت أشهد أن لا إله إلا الله وأن محــمداً رسول الله ، فخرج القوم يتبادرون بالتكبير استبشاراً بما سمعوه منى ، وحمدوا الله عز وجل ، ثم قالوا : يابن الخطاب ، أبشر فإن رسول الله دعا يوم الإثنين فقال : "اللهم أعز الإسلام بأحد الرجلين : إما عمرو بن هشام ، وإما عُمَر بن الخطاب ، وإنا نرجو أن تكون دعوة رسول الله لك الخ. وقد قدمنا فيما سبق نحو هذا مع اختلاف يسير.

ولما أعلن عمر إسلامه فى قريش اشــتد الأمر على القوم وكادوا يقتلونه لولا أن أجاره منهم العــاص بن وائل السهمى ، وناله مــا كان يناله المسلمون من الأذى غــير أنهم لم يبلغوا به مبلغهم.

ولما كانت الهجرة كان الناس يخرجون متسللين لا يعلم بخروجهم أحد حتى لا تمنعهم قريش. أما عمر فأعلن أنه مــهاجر وقال : "من أراد أن تَثْكَلَه أمه وتأيم عرسه فليلقنى خلف هذا الوادى" ثم خرج مهاجراً فلم يتبعه أحد.

وقد شــهد مــع رسول الله صلى الله عليــه وسلم المشاهد كلهــا. وكان مــوفق الرأى، ملهماً بالصواب ، وكثيراً مــا كان يشير على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأمر ثم ينزل القــرآن موافقاً لما أشار به ، وكــان هو وأبو بكر بمنزلة وزيرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم. وقد تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم بابنته حفصة ،

وله مقامات حسان فى الحدب على رسول الله صلى الله عليه وسلم والذب عنه ، والشدة على من ناوأه. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : **"لقد كان فيما قبلكم من الأمم محدَّثون فإن يكن فى أمتى أحد فهو عمر"**.

ومن مقاماته المحمودة فى الإسلام يوم السقيفة حين اختلفت الأراء وخشى أن يتفرق أمر المسلمين وتشب نار الفتن فأخمدها بالمبادرة إلى مبايعة أبى كبر. فكان عمله هذا سبباً لنجاة المسلمين من أكبر كارثة كانت تحل بهم لولا يمن نقيبته وصحة نظره بعد معونة الله تعالى. وقد كان لأبى بكر بمنزلة الوزير الأول يؤازره ويعينه ويشير عليه ، وكان أبو بكر يحيل عليه النظر فيما يرفع إليه من القضايا بالمدينة ، فكان قاضياً له وإن لم يتسمَّ باسم قاض.

أول خطبة لعمر

بعد أن بويع عمر بالخلافة بعد وفاة أبى بكر صعد المنبر فقال كلمة قصيرة اشتملت على سياسته التى اعتزم أن يسوس بها الناس فقال بعد حمد الله والثناء عليه بما هو أهله:

" إنما مثل العرب كمثل جمل آنف اتبع قائده فلينظر قائده أين يقوده ، أما أنا فورب الكعبة لأحملنكم على الطريق" .

والجمل الآنف : هو الجمل الذلول المواتى الذى يأنف من الزجر والضرب ويعطى ما عنده من السير عفواً سهلا. وهذا تشخيص حسن للأمة الإسلامية لعهده فإنها كانت سامعة مطواعة إذا أمرت ائتمرت ، وإذا نهيت انتهت ويتبع ذلك المسئولية الكبرى على قائدها فإنه يجب عليه أن يرتاد لها ويصدر فى شأنها بعقل ، ويورد بتمييز حتى لا يورطها في خطر ، ولا يقحمها فى مهلكة ، ولا يهمل شأنها إهمالا لا يكون من ورائه البطر. وقد أراد بالطريق : الطريق الأقوم الذى لا عوج فيه. وقد برَّ بما أقسم به.

فتح فارس وما كان بعد خالد

رحل خالد عن العراق كما أمره أبو بكر وشيعه المثنى ثم قال له خالد : ارجع إلى سلطانك غير مقصر ولا وان. وقد استقام أمر فارس على رأس سنة من مقدم خالد على شهر براز بن أردشير بن شهريار ، فوجه إلى المثنى جنداً كثيفا بقيادة هرمز جاذويه ومعهم فيل. وكتبت المسالح إلى المثنى بإقبال ذلك الجيش ، فخرج المثنى من الحيرة للقاء الجيش وضم إليه مسالحه وجعل على مُجَنِّبتيه أخويه : المعنَّى ومسعوداً وأقام ببابل. وأقبل هرمز وعلى مجنبتيه الكوكبذ والخوكبذ. وقد كتب شهر براز إلى المثنى كتاباً يقول فيه :

"إنى قد بعثت إليك جنداً من وخش أهل فارس. إنما هم رعاة الدجاج والخنازير ولست أقاتلك إلا بهم" فأجابه المثنى : إنما أنت أحد رجلين إما باغ فذلك شر لك. وإما كاذب فأعظم الكذابين عقوبة وفضيحة عند الله وفى الناس الملوك. وأما الذى يدلنا عليه الرأى فإنكم إنما اضطررتم إليهم فالحمد لله الذى رد كيدكم إلى رعاة الدجاج والخنازير ، فجزع الفرس لذلك وقالوا لملكهم : جرأت علينا عدونا بالذى كتبت به إليهم ، فإذا كاتبت أحداً فاستشر.

التقت جموع الفرس وجموع المسلمين ببابل بعدوة الصَّرَاة الدنيا وتقاتلوا قتالاً شديداً. ثم إن المثنى قصد الفيل فى جمع من المسلمين وكان يفرق بين الصفوف والكراديس فأصابوا مقتلة فانهزم الفرس وتبع المسلمون فلَّهم حتى جازوا به مسالحهم وهم يقتلون ويأسرون فيهم حتى انهزموا إلى المدائن.

وقد رأى المثنى أن الفرس غير تاركيه ولابد لهم من مناجزته بجنود لا قبل له بهم ، فخف إلى المدينة ليخبر أبا بكر بالمسلمين وما تم لهم وما يتوقعون ويستأذنه فى الاستعانة بأهل الردة ممن قد ظهرت توبته وندمه ، وكان المثنى قد خلف على من كان معه بشير بن الخصاصبة ، ووافق انصراف المثنى إلى المدينة اضطراب الفرس فى شأن ملكهم ، فشغلهم ذلك عن المثنى وجيشه إلى أن عاد من وجهه ذاك.

ولما قدم المثنى على أبى بكر وجده قد اشتد به المرض ، فلما أخبره الخبر قال عليَّ بعمر ، فلما حضره قال : إنى لأرجو أن أموت فى يومى هذا ، فإن أنا مت فلا تمسين حتى تندب الناس مع المثنى ولا تشغلنكم مصيبة وإن عظمت عن أمر دينكم ووصية ربكم ؛ وقد رأيتنى متوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وما صنعت ولم يصب الخلق بمثله ، ووالله لو أنى آبى عن أمر الله ورسوله لَخَذَلَنا ولعاقبنا فاضطرمت المدينة ناراً. وإن فتح الله على أمراء الشام فأردد أصحاب خالد إلى العراق فإنهم أهله وولاة أمره وحده وأهل الضراوة بهم والجرأة عليهم.

فلما فرغ عمر من أبى بكر ندب الناس مع المثنى قبل صلاة الفجر من الليلة التى مات فيها أبو بكر ، ثم أصبح فبايع الناس. ولما فرغ من أمر البيعة عاد فندب الناس إلى فارس.

كان الناس قد وقر في نفوسهم عظم ملك الفرس وقوة شوكتهم وظفرهم فى الحروب فى الجاهلية ، فكان حرب الفرس أثقل شىء على نفوسهم فاثَّاقلوا فلم ينتدب أحد لذلك الوجه ، وما زال عمر يندب الناس إلى اليوم الرابع ، فكان أول منتدب أبو عبيد بن مسعود الثقفى وسعد بن عبيد الأنصارى ، ثم تتابع الناس بعد ذلك وتكلم المثنى بن حارثة فقال : أيها الناس لا يعظمن عليكم هذا الوجه ، فإنا قد تبحبحنا ريف فارس وغلبناهم على خير شِقَّيِ السواد وشاطرناهم ونلنا منهم واجترأ من قبلنا عليهم ولها إن شاء الله ما بعدها. وقام عمر فقال : إن الحجاز ليس لكم بدار إلا على النُّجْعَةَ ولا يقوى عليه أهله إلا بذلك. أين الطراء المهاجرون عن موعود الله ! سيروا فى الأرض التى وعدكم الله فى الكتاب أن يورثكموها ، فإنه قال : ﴿ليظهره على الدين كله﴾ والله مظهر دينه ومعز ناصره ومولى أهله مواريث الأمم. أين عباد الله الصالحون ؟

فكان بعد ذلك انتداب أبى عبيد. ثم ثنى سعد بن عبيد أو سليط بن قيس.

لما اجتمع ذلك البعث قيل لعمر : أمِّـرْ عليهم رجلا من السابقين من المهاجرين أو الأنصار فقال : والله لا أفعل إن الله إنما رفعكم بسـيفكم وسرعتكم إلى العدو فإذا جبنتم وكرهتم الـلقاء فأولى بالرياسة منكم من سبـق إلى الدفع وأجاب إلى الدعاء ، والله لا أُؤَمِّر عليـهم إلا أولهم انتداباً. ثم دعا أبا عـبيد وسليطاً وسـعداً فقـال : أما إنكما لو سبقتماه لوليتكما ولأدركتمـا بها إلى ما لكما من القُدْمة. فأمر أبا عبيد على الجيش وقال له ؛ اسمع من أصحـاب النبى صلى الله عليه وسلم وأشركهم فى الأمر ولا تجتهد مسرعاً حتى تتـبين ، فإنها الحرب ، والحرب لا يصلحها إلا الرجل المكيث الذى يعرف الفرصة والكف.

عجل المثنى إلى عسكره وأبو عـبيد بمن معه ، وكانوا خـمسة آلاف ، فى أثره وصار أبو عبيد يستنفر من يمر به من العرب لقتـال الفرس فأجابه بشر كثير وقد وصل المثنى إلى الحيرة فى عشر ليال وجاء أبو عبيد بعده بشهر.

النمارق

كانت الفرس مـشغولة عن المسلمين بموت شهـر براز وصارت تولى وتعزل إلى أن عاد المثنى من المدينة إلى الحـيرة ، وكان الفرس قد ولوا رسـتم أمر حرب المسلمين فكتب إلى دهاقين السواد أن يثوروا بالمسلمين ودس فى كل رُسْتَاق رجلا ليثور بأهله، فبعث جابان إلى اليـهقباذ الأسفل - فضم المثنى مسالحـه وحذر. وعجل جابان فنزل النمارق ونزل المثنى بخفان حتى لا يقطع عليه خط الرجـعة إلى أن قدم عليه أبو عبيد ونزل حتى جم الناس وما معهم من الظهر ، ثم تعبأ ونزل على جيش جابان بالنمارق فاقتتلوا قتالا شديداً ثم انهزمت الفرس وأسر جابان ومردان شاه - فأما آسرمردان شاه فقتله ، وأما آسر جابان فقد خدعـه جابان فقال له : إنكم معاشر العرب أهل وفاء ، فهل لك أن تؤمـنى وأعطيك كذا ؟ قال : نعم. قـال : فادخلنى على ملـككم حتى يكون ذلك بمشـهد منه. ففـعل. وأجاز أبو عبـيد أمـانه. ولماعلم بنو تميم أنه الرئيس

قالوا لأبى عبـيد اقتله. قال : مـا ترونى فاعلا معاشـر ربيعة[1] ؟ أيؤمنه صـاحبكم وأقتله أنا ؟ مـعاذ الله ما لزم بعض المسلمين فـقد لزمهم كلهم. وكـان آسره مطر بن فضة التميمى.

قسم أبو عـبيـد الغنائم وبعث بالخمس إلى عـمر ثم نادى بالرحيـل إلى كسكر حيث ينزل نَرْسِي وهو ابن خالة كسرى. وكسكر قطيـعة له وقد ضوى إليه فل جيش جابان وقـد وجه إليه رسـتم وبوران بجيش على رأسه الجـالنوس حين بلغهـما هزيمة جيش جابان ، فـرجا نرسى ومن معه أن يدركـه المدد قبل منازلة المسلمين له. ولكن أبا عبيد عاجلهم وكان المثنى على تعبيتـه التي لقى بها جابان فاقتتلوا أسفل من كسكر بمكان يقال له : السقاطية قتالا شديداً فانهزمت الفرس وفر نرسى وغلب على عسكره وأرضه ، وأخرب أبو عبيد ما كان حـول عسكرهم من كسكر وجمع الغنائم ، فوجد من الأطعمة شيـئاً كثيراً وأخذت خزائـن نرسى فلم يكونوا بشىء مما فى خزائنه أفرح منهم بالنرسيـان لأنه كان يحميه. لا يـأكله بشر ولا يغرسه سواه وأهل بـيته أو ملك الفرس ، فاقتسموه وجعلوا يطعمونه الفلاحين ، وبعثوا بخمسه إلى عمر وكتبوا : إن الله أطعمنا مطاعم الأكاسرة يحمونها وأحببنا أن تروها لتذكروا أنعام الله وأفضاله.

وأقام أبو عـبيد بكسـكر وسرح المثنى وغيـره من القواد يغيـرون على النواحى ويفلون عصائب الجنود التى كانت متفرقة هناك ، وصالحه أهل بعض تلك النواحى ، وجاء فـروخ وفراونداذ من أهل الصلح إلى أبى عـبيد بآنيـة فيـها أطعمـة فارس من الألوان والأخبصة وغيرها فقالوا : هذه كرامة أكرمناك قرى لك. قال : أأكرمتم الجند وقريتموهم مثله ؟ قالوا : لم يتيسر ونحن فاعلون. قال : لا حاجة لنا فى ما لا يسع الجند ، وقدم إليـه آخرون مثل ذلك ، فأبـى وقال : بئس المرء أبو عبيـد إن صحب قوماً من بلادهم أهرقوا دمهم دونه أو لم يهريقوا فاستأثر عليه بشىء يصيبه ؛ لا والله لا يأكل مما أفاء الله عليهم إلا مثل ما يأكل أوساطهم.

---

(١) كذا فى ابن الأثير ، ولعل صحتها مضر لأن آسره تميمى وهو من مضر لا من ربيعة.

وقعة الجسر

جاء خبر الهزيمة إلى رستم فجهز جيشاً آخر عظيماً وعليه بَهْمَنْ جاذويه وأعطاه الراية الكبرى لفارس وهى المسماة دَرَفْش كابيان وعرضها ثمانية أذرع وطولها اثنا عشر ذراعا من جلود النمر. وأقبل أبو عبيد ونزل المروحة ، موضع البرج والعاقول ، فبعث إليه بهمن : إما أن تعبروا إلينا وندعكم والعبور ، وإما تخلوا بيننا وبين العبور. فقال من مع أبى عبيد : دعهم يعبرون إلينا فأبى ولج وقال : لا يكونون أجرأ على الموت منا ، فعبروا على جسر نصبوه في مكان ضيق المطرد والمذهب فاقتتلوا يوماً ، حتى إذا كان آخر النهار واستبطأ رجل من ثقيف الفتح ألف بين الناس فتصافحوا بالسيوف وقصد أبو عبيد الفيل وضربه فخبط الفيل أبا عبيد وقد أسرعت السيوف فى أهل فارس وأصيب منهم ستة آلاف. فلما خبط أبو عبيد انهزم المسلمون وتموا على هزيمتهم وعمد رجل من ثقيف إلى الجسر فقطعه. فانتهى الناس إلى الجسر والسيوف تأخذهم من خلفهم فتهافتوا فى الفرات فأصيب من المسلمين أربعة آلاف من بين غريق وقتيل. وقام المثنى من خلف الناس فى أهل النجدة يحمون ظهورهم ويدافعون عنهم حتى أصلح الجسر وعبر الناس ثم عبر بمن معه إلى المروحة وهو جريح ومعه عدد من حماة الناس جرحى وهذه عاقبة اللجاج والمجازفة فى الحرب.

كان المثنى قد نصح لأبى عبيد وقال له : إنك تقدم على أرض المكر والخديعة والخيانة والجبرية ، تقدم على قوم قد جرءوا على الشر فعلموه وتناسوا الخير فجهلوه، فانظر كيف تكون واخزن لسانك ولا تفشين سرك ، فإن صاحب السر ما ضبطه متحصن لا يؤتي من وجه يكرهه وإذا ضيعه كان بمضيعة.

هرب من الناس بشر كثير على وجوههم وافتضحوا فى أنفسهم واستحيوا مما نزل بهم وبلغ عمر من بعض من آوى إلى المدينة فلم يعنف الفارين وخفف عنهم مصابهم وقال : عباد الله اللهم إن كل مسلم في حلّ منى ، أنا فئة كل مسلم. يرحم الله أبا عبيد : لو كان عبر فاعتصم أو تحيز إلينا ولم يستقتل لكنا له فئة.

أراد أهل فارس العبور للمسلمين لما رأوا من قلتهم وضعفهم بمن قتل منهم أو شرد وأحبوا أن يستأصلوهم. فدهمهم خبر أهمهم وصرفهم عن نيتهم. وهو أن الناس بالمدائن قد ثاروا برستم ونقضوا الذى بينهم وبينه فصاروا فرقتين : الفهلوج على رستم ، وأهل فارس على الفيرزان. وقد كان بين وقعة اليرموك ووقعة الجسر أربعون يوماً.

وقد أخطأ أبو عبيد رحمه الله فى عبور النهر ومخالفته أصحابه ، وقد أمره عمر بأن يستشيرهم وينتهى إلى رأيهم وهم أصحاب رسول الله وبخاصة سليط بن عمرو ، ولم يسمع نصيحة المثنى وهو رجل قد خرجته الوقائع وزاده علما ما رآه من خالد إذ كان معه. وخطأ ثان ما صنعه مرثد الثقفى من قطع الجسر على الناس ، فإن العدو لم يحدث بهم من النكاية ما أحدثه فيهم بعمله ، فكان الصديق الجاهل ، ولا ينفعه اعتذاره بأنه أراد أن يقاتل الناس على ما قاتل عليه أمراؤهم ، فإن لكل مقام مقالا ومثل هذا القول لا يصلح فى وقت الجولة. وإنما يقال للقوم وصفوفهم ثابتة وآذانهم مصغية وهم فى سعة من التدبر وإجالة الرأى ، فأما وقت الهزيمة فلا كلام.

البويب

إن وقعة الجسر قد أكلت جيش المسلمين وعلم عمر أن ليس بالقوم امتناع ولا قوة إذا نازلهم العدو فشرع يبعث الإمداد إلى المثنى منهم جرير بن عبد الله البجلى فى بجيلة وعصمة بن الحارث فيمن تبعه من قومه بنى ضبة. وكتب إلى أهل الردة ولم يوافه فى شعبان أحد إلا رمى به المثنى فتوافى المنجدون إليه فى جمع عظيم. وبلغ رستم والفيرزان ما عليه المثنى وما ينتظر من المدد. فاجتمعا على أن يبعثا مهران الهمذانى إلى الحيرة. وعلم المثنى فخف إلى البويب لموعد من كان بالحيرة من المسلمين وخرجوا منها حين علموا بجند مهران وقد توافت جنود المثنى ومددهم إلى ذلك المكان مما يلى موضع الكوفة وبينه وبين مهران النهر. فكاتبه مهران يخيره فى

العبـور ولكن المثنى رأى العبـرة فى أبى عبيـد وجيشـه فلم يرض أن يكون هو الذى يعبر. فعبر مهران بجنوده وكان ذلك فى رمضان. فنادى المثنى انهدوا لعدوكم. وكان قد عـبأ جيـشه تعبية خالدية. وخطب المثنى فـى المسلمين فقال : إنكم قـوم صوام والصوم مرقة مـضعفة ، وإنى أري من الرأى أن تفطروا ثم تقووا بالطعـام على قتال عدوكم فأفطروا. ورأى رجلا يستوفر ويستقتل من كردوسه فقال : ما شأنه ؟ قالوا : قد فر يوم الجسر ويريد أن يستقتل ، فقرعه بالرمح وقال : لا أبا لك الزم موقفك فإذا أتاك قرنك فأغـنه عن صاحبك ولا تستـقتل. قال : إنى بذلك لجدير. واسـتقر ولزم الصف. وسار المثنى على الرايات يقف بها راية راية يحضـهم ويأمرهم بأمره ويهزهم بأحسن ما فيهم ويقول لكل قـوم : إنى لأرجو أن لا تؤتى العرب اليوم من قبلكم ، والله ما يسـرنى اليوم لنفسى شىء إلا وهو يسـرنى لعامتكم. فـيجيـبونه بمثل ذلك. وأنصفهم المثنى فى القول والفعل وخلـط الناس فى المكروه والمحبوب فلم يستطع أحد أن يعيب له قولا أو عـملا. وقال : إذاكبـرت الرابعة فاحملوا فأعـجلهم أهل فارس عند التكبيرة الأولى وحمى القتال بين الفـريقين واشتد فعمد المثنى إلى أنس بن هلال وقال له : إنك امـرؤ عربى وإن لم تكن على دينى فـإذا رأيتنى حملت على مـهران فاحـمل معى. وذمـر قومـا معـه وأوصى القواد بأمـره وبأن لا يزايلوا أمكنتهـم لئلا ينكشف الجيش وحمل المثنى وخالط القوم وأوغل في صفـوفهم وصبر المسلمون صبراً جميـلا. ولم يزل المثنى يعمل ومن معه فى قـلب الفرس حتى أفناه فقويـت مجنبات المسلمين على من يليـهم وصار المثنى يذمرهم ويـحضهم حـتى هزم الفرس وسبـقهم المثنى إلى جسرهم فقطعه لئلا يعبره أحد منهم.

كان عمل المثنى هـذا خطأ ، لأن القوم وإن كانت الهزيمة قد حـقت عليهم فى عدد كبيـر وقوة عظيمة إذا تتام فَلُّهم فى مكان ووجـدوا من يقودهم وهم واجدون لا محـالة ، عادت لـهم قوتهم وثاب إليـهم نشاطهم إلى القـتال ويصـيرون بعـد ذلك كالشوكة فى جنب جيش المسلمين.

قتل فى هذه الوقعة مهران ، قتله بعض فتيان تغلب وكانوا مع المسلمين ، وتمت الهزيمة على الفرس بقتله ، وأخذ فل المنهزمين يصعد ويصوب إذ جلأهم المثنى عن الجسر وخيل المسلمين تتبعهم ويقتلون منهم فلم تكن وقعة من الوقائع أبقى رمة منها. وقد أصيب من حماة المسلمين عدد كبير بين قتيل وجريح. ومما يؤثر عن المثنى حكمه على نفسه في قطعه الجسر وإخراجه العدو - قال : لقد عجزت عجزة وقى الله شرها بمسابقتي إياهم إلى الجسر وقطعه حتى أحرجتهم ، فإنى غير عائد فلا تعودوا ولا تقتدوا بى أيها الناس فإنها كانت منى زلة. لا ينبغى إحراج أحد إلا من لا يقوى على الامتناع.

ثم أرسل فى أثر المنهزمين من اتبعهم حتى وصلوا إلى السيب - كورة من سواد الكوفة - بعد أن عقد لهم جسراً. وكانت هذه الوقعة من الوقائع الكبرى التى أوقعت الرعب فى قلوب أهل فارس ، واستمكن المسلمون من الغارة فى السواد وانتقضت مسالح الفرس وتشتت أمرهم فى تلك الناحية واجترأ المسلمون عليهم وشنوا الغارة عليهم فيما بين سورا وكسكر والصراة والفلاليج والاستانات. وقد قال عروة بن زيد الخيل فى هذه الوقعة والطبرى ينسبها إلى الأعور الشنى :

هاجت لعروة دار الحى أحزانا — واستبدلت بعد عبد القيس همدانا
وقد أرانا بها والشمل مجتمع — إذ بالنخيلة قتلى جند مهرانا
أيام سار المثنى بالجنود لهم — فقتل القوم من رجل وركبانا
سما لأجناد مهران وشيعته — حتى أبادهم مثنى ووحدانا
ما إن رأينا أميراً بالعراق مضى — مثل المثنى الذى من آل شيبانا
إن المثنى الأمير القرم لا كذب — فى الحرب أشجع من ليث بخفانا

وقد كان عمر من أول أمره حريصا على تعرف حال المسلمين والوقوف على ما عليه الجند من الشئون. فكان يعهد إلى قوم من المسلمين بالكتاب إليه بكل شئونهم

وأحوالهم حتى إذا رأى خللا أو خطلا بادرهم بما يصلحهم لا تأخذه فى ذلك هوادة - لأن الجند والرعية إنما يؤتون من قبل الإهمال والاستهانة بالخلل حتى يقوى ضعيفه ويعظم صغيره.

من ذلك أن المثنى أرسل رجلين من بكر بن وائل فى جند للإغارة على صفين وبها النمر وتغلب على تساند. فأغار جند المسلمين على القوم حتى أقحموا طائفة منهم فى الماء فناشدوهم أن يكفوا عنهم وينادونهم الغرق الغرق. وأخذ عتيبة وفرات البكريان وهما قائدا الجند يذمران الناس وينادیانهم : تغريق بتحريق يذكرانهم بماكان من النمر وتغلب فى أيام الجاهلية إذ حرقوا قوما من بكر بن وائل فى إحدى الغياض. وبعد أن فرغوا من أمر القوم رجعوا إلى المثنى ، وقد كانت لعمر عيون فى كل جيش فكتب إليه العين بما قال عتبة وفرات يوم بنى تغلب والنمر على صفين. فاستقدمهما أمير المؤمنين وأخبراه بأنهما قالا ذلك على وجه أنه مثل وأنهما لم يقولا ذلك على وجه طلب دَحْل الجاهلية فاستحلفهما على ذلك فحلفا أنهما ما أرادا بذلك إلا المثل وإعزاز الإسلام ، فقبل منهما وصدقهما وردهما إلى المثنى. فهكذا يكون حرص الأمراء على صيانة أخلاق الرعية وحياطتها من تسرب الفساد إليها.

كان المثنى اتخذ دليلين : أحدهما أنبارى والآخر حيرى ، فدله الأنبارى على الخنافس وكانت هذه السوق عظيمة يؤمها تجار فارس والسواد فانتهبها المثنى. ثم قدم على سوق بغداد ، أسرى إليه من ليلته ثم صبح السوق فملأ أصحابه أيديهم من الذهب والفضة وحر المتاع وتفرق الناس عن بضائعهم وقتل من كانوا يخفرون السوق من ربيعة وقضاعة ، ثم عاد إلى معسكره ، وكانت عسكره تصوّب وتصعد ولا حامى للبلاد منهم.

ولما بلغ سويد بن قطبة العجلى ما أتيح للمثنى بن حارثة من الظفر يوم مهران أحب أن يكون له من الفخر ما للمثنى فكتب إلى عمر يخبره بوهن الناحية التى هو فيها ويسأله أن يمده بجيش يغزو به الفرس فى ذلك الوجه. فندب عمر لذلك الوجه

عتبة بن غزوان المازنى من أصحاب رسول الله صلي الله عليه وسلم وأمره على جيش فيه ألفا مقاتل من المسلمين وكتب إلى سويد بن قطبة يأمره بأن ينضم إلى عتبة. وقد خرج عمر لتشييع الجيش وأوصى عتبة فقال : "يا عتبة إن إخوانك من المسلمين قد غلبوا على الحيرة وما يليها ، وعبرت خيلهم الفرات حتى وطئت بابل مدينة هاروت وماروت ومنازل الجبارين ، وإن خيلهم اليوم لتغير حتى تشارف المدائن ، وقد بعثتك فى هذا الجيش فاقصد قصد أهل الأهواز فاشغل أهل تلك الناحية أن يمدوا أصحابهم بناحية السواد على إخوانكم الذين هناك وقاتلهم مما يلى الأبلة" فسار عتبة حتى أتى مكان البصرة ، ولم تكن هناك يومئذ إلى الخريبة. وكانت منازل خربة وبها مسالح الفرس تمنع الأعراب من العبث فى تلك الناحية. وموضع البصرة إذ ذاك حجارة سود وحصى. ثم سار حتى نزل على الأبلة وافتتحها عنوة بعد قتال شديد وكتب إلى عمر رضى الله عنه : "أما بعد ، فإن الله وله الحمد فتح علينا الأبلة وهى مرقى سفن البحر من عمان والبحرين وفارس والهند والصين. وأغنمنا ذهبهم وفضتهم وذراريهم وأنا كاتب إليك ببيان ذلك إن شاء الله".

ثم إن عتبة سار حتى أتى إلى المذار وأظهره الله على أهله ووقع مرزبانه فى يده ، فضرب عنقه وأخذ بزيه وفى منطقته الزمرد والياقوت وأرسل بذلك إلى عمر. وقد تباشر المسلمون بذلك وأكبوا على رسول عتبه يسألونه عن أهل البصرة (وكان ذلك ابتداء اختطاطها ونزول المسلمين بها) فقال : إنهم يهيلون الذهب بها هيلا فرغبهم ذلك فى القدوم إليها. وكان ذلك قبل تمصير البصرة.

ثم خرج عتبة إلى فرات البصرة فافتتحها ثم إلى دست ميسان فافتتحها بعد ان قاتل مرزبانها وقتله وهزم من بها من العجم ثم إلى إبرقباذ فافتتحها كذلك ثم عاد إلى مكانه من البصرة. وكاتب عمر يستأذنه فى العود إلى المدينة فأذن له. ثم أرسل بعده المغيرة بن شعبة بالبصرة مدة ثم استبدل به أبا موسى الأشعرى.

أمر القادسية

نظر الفرس فيما دهمهم من أمر العرب الذين يجوسون خلال ديارهم ويفضون مسالحهم ويغيرون على أسواقهم ويحتوون متاجرهم وأمتعتهم وضيقوا على فارس السبل في الوجه الذى هم فيه. فقالوا لرستم والفيرزان : ما تنتظرون والله إلا أن ينزل بنا ونهلك ، والله ماجر هذا الوهن علينا غيركم يا معشر القواد ، لقد فرقتم بين أهل فارس وثبطتموهم عن عدوهم ، والله لولا أن فى قتلكم هلاكنا لعجلنا لكم بالقتل الساعة ، ولئن لم تنتهوا لنهلكنكم ثم نهلك وقد اشتفينا منكم وإنه لم يبلغ من خطركما ان تعزكما فارس على ما أنتم عليه وأن تعرضاها للهلكة. ما بعد بغداد وساباط وتكريت إلا المدائن ، والله لتجتمعان أو لنبدأن بكما قبل أن يشمت بنا شامت.

تفاوض الرجلان ومن معهما من وجوه فارس فى الأمر وعلموا أن كلام أهل فارس الذين كلموهم حق وقالوا : إنما أتينا من تمليك النساء علينا فقالا لبوران بنت كسرى - وكانت عدلا في فارس تلى ملكهم مدة الاختلاف إلى أن يتفقوا - اكتبى لنا نساء كسرى وسراريه ونساء آل كسرى وسراريهم ففعلت وأرسلت إليهن فلم يبق منهن امرأة إلا أتوا بها فأخذوهن بالرجال ووضعوا عليهن العذاب يستدلونهن على رجل من آل كسرى. فقلن لم يبق إلا ولد يدعى يزدجرد من ولد شهريار بن كسرى وأمه من أهل بادوريا. فأتوا بها فدلتهم عليه ، وكان ابن إحدى وعشرين سنة ، فاطمأنت فارس واستوثقوا وملكوه عليهم وتبارى الرؤساء فى طاعته ومعونته. فأخذ أمر القوم بعزيمة وهمة وجيش الجيوش وكتب الكتائب وسمى الجنود لكل مسلحة من المسالح التى كانت لكسرى وسد الثغور وسير جنداً إلى الحيرة والأنبار.

علم بَادُورِيَّا المثنى علم القوم فكاتب عمر بشأنهم وما ينتظر من انتقاض من دان له بالطاعة ممن بين ظهرانيهم. فلم يصل الكتاب إلى عمر حتى انتقض أهل السواد وكفروا من لم يكن فى يده عهد ومن كان له عهد ، فخرج المثنى على حاميته حتى

نزل بذى قــار وتنزل الناس بالطف حتى جـاءهم كـتاب عمـر وفيـه : "أما بـعد ، فاخـرجوا من بين ظهـرى الأعاجم وتفرقـوا فى المياه التى تلى الأعـاجم على حدود أرضكم وأرضـهم ولا تدعـوا فى ربيـعـة أحـداً من أهل النجـدات ولا فـارسـا إلا اجتلبـتموه، فإن أتى طـائعاً وإلا حشرتموه. احـملوا العرب على الجد إذ جـد العجم فلتلقوا جدهم بجدكم ، فأقـام المثنى بمن معه بذى قار ونزل الناس بالخل وشراف إلى غضى. حيال البـصرة ، فكانوا فى أمواه العراق من أولها إلى آخرها مـسالح بعضهم ينظر إلى بعض ويغيث بعضهم بعضا إن كان كون ، وذلك فى ذى القعدة سنة ١٣ هـ وكتب عمر - إلى عماله على الكور والقـبائل - أن لا تدعوا أحداً له سلاح أو فرس أو نجدة أو رأى إلا انتخبتموه ثم وجـهتموه إلي والعجل العجل ، وكان ذلك فى ذى الحجة سنة ١٣ هـ فلم يقفـل من حجه حتى وافته الجنود من كل وجه وناحـية. فأما القبائل التى طرقهـا على مكة والمدينة فقد اجتمعوا علـيه بالمدينة ، وأما من كان على أكثر من نصف الطريق من المدينة فقد لحق بالمثنى.

والذين وافوا عمر أخبروه فيمن وراءهم بالحث وترادف ورود الجنود إلى أن جاء المحرم سنة ١٤ هـ فخرج عـمر بمن اجتمع إليه إلى ماء يدعى صـرار على ثلاثة أميال من المدينة فعكسر به ولا يدرى الناس ما يصنع عــمر ، يسير بهم أم يرجع إلى المدينة ويؤمر رجلا آخر. وقد رغب الناس في الوقوف على نيته.

كان الناس إذا أرادوا علم شيء من عمر فهابوا أن يسألوه رموه بعبد الرحمن بن عوف أو بعثمان بن عفان. وكانوا يدعـون عثمان رديفاً - والعرب تقول ذلك للرجل يرجونه بعد رئيسهم - فإذا أعيا عليهما ذلك الأمر فزعوا إلى العباس بن عبد المطلب. فلما أرادوا معرفـة نيته كلموا عثمـان. فقال لعمر : ما تريد ؟ فنادى الصـلاة جامعة فاجتمع الناس إليه. فأخبرهم الخبر وانتـظر ما يشيرون به. فقال العامة : سر وسر بنا معك.

رأى عمر ذلك منهم والصـواب فى خلافه ، غير أنـه لم يرد أن يخالفهم لأول أمرهم ، بل دخل فى أمرهم إلـى أن يخرجهم من ذلك الرأى برفق فقال : اسـتعدوا وأعـدوا فإنـى سائر إلا أن يجـىء رأي هو أمثل من ذلـك. ثم بعث إلى أهل الرأى فاجـتمع إليـه وجوه أصحـاب النبى صلى الله عليه وسلم وأعـلام العرب. فـقال : أحضرونى الرأى فإنى سائر. فاجـمع ملؤهم على أن يبعث رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقم عمر ويرميه بالجنود ، فإن كان الذى يشتهي من الفتح فهـو الذي يريد ويريدون ، وإلا أعاد رجـلا وندب جنداً آخر ، وفى ذلك مـا يغيظ العـدو ويقر عين المسلمين ويجيء نصـر الله بإنجاز مـوعوده ، فنـادى عمر. الـصلاة جامعة ، فاجتمع الناس إليه وأرسل إلى على - كـرم الله وجهه - وكان قد استخلفه على المدينة فأتاه ، وإلى طلحة وقد بعثه على المقدمة فرجع إليه وعلى المجنبتين الزبير وعبـد الرحمن بن عوف ، فـقام فى الناس فـقال : إن الله عز وجل قـد جمع على الإسلام أهله فألف بين القلوب وجعلهم فيه إخواناً ، والمسلمون فيما بينهم كالجسد لا يخلو منه شـىء من شيء أصـاب غـيـره ، وكـذلك يحق على المسلـمين أن يكونوا وأمـرهم شورى بـينهم بين ذوى الرأى منهم ، فـالناس تبع لمن قـام بهـذا الأمر مـا اجتمعوا عليه ورضوا به لزم الناس وكانوا فيه تبعاً لهم ومن أقام بهذا الأمر تبع لأولى رأيهم ما رأوا لهم ورضـوا به لهم من مكيدة فى حـرب كانوا فيـه تبعـاً لهم. يا أيها الناس ، إنى إنما كنت كرجل منكم حتى صـرفنى ذوو الرأى منكم عن الخروج. فقد رأيت أن أقيم وأبعث رجـلا. وقد أحضرت هذا الأمـر من قدمت ومن خلفت (يريد علياً وطلحة).

أخذ عمر فى إجالة الرأى فى شأن من يتـولى إمارة الجيش وقال : أشيروا على برجل. وكان سعد بن أبى وقاص على صدقـات هوازن وقد كتب إليه عمر قبل ذلك بانتخـاب ذوى النجدة والرأى والسلاح ، فجـاء كتاب سعـد إلى عمر وهو يستـشير الناس فـيمن يبعـثه. يقـول فيـه : قد انتخـبت لك ألف فارس كلهـم له نجدة ورأى وصاحب حيطة يحوط حـريم قومه ، إليهم انتهت أحساب قـومهم ورأيهم. فلما قرأ

عمر الكتاب قـال القوم : قد وجدته. قال : من هو ؟ قالوا : الأسـد عادياً ، سعد ابن مالك. فانتهى عمر إلى قولهم وأحضروه وأمره على حرب العراق ووصاه فقال : لا يغرنك من الله أن قيل خال رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحب رسول الله، فإن الله لا يمحو السيء بالسيء ولكنه يمـحو السيء بالحسن ، وليس من بين الله وبين أحد نسب إلا طاعتـه ، فالناس فى ذات الله سواء ، الله ربهم وهم عبـاده يتفاضلون بالعافيـة ويدركون ما عنده بالطاعة فانظر الأمـر الذى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يلزمه ووصاه بالصـبر ، وسرحه فيمن اجتـمع إليه وهم أربعة آلاف. وكان فى ذلك الجيش حد الأمة العربية وجدها ونجدتـها ورأيها. فإن عمر لم يدع رئيساً ولا ذا رأي ولا ذا سلطة ولا ذا نجدة ولا خطيبـاً ولا شاعراً إلا رماهم به ، فكانت حاشـيتا الجيش تضمان وجوه الناس وغررهم.

وقد أمر سعداً بالمسير وقـال له : إذا انتهيت إلى زرود فانزل بها وهى رمال بين الثعلبية والخريمية على طريق الحاج إلى الكوفة. فلمـا نزل بها تفرق الجند فيما حولها من أمواه تميم وأسد. وانتظر اجتمـاع الناس وأمر عمر. وفى ذلك الوقت توفى المثنى ابن حارثة من جراحة كانت أصابته قبل ذلك.

وقد كان المثنى البادىء بأمر فارس من تلقاء نفسه ، وكان فارساً مغواراً صاحب مكيـدة وغناء في الحرب ، بصـيراً بقـيادة الجند ، شـديد الحذر ، نافـذ الرأى قوى الإرادة؛ موفقاً فـى الحرب ، مظفراً على العدو ، حريصاً على نصـر الإسلام وظهور المسلمين على الفرس. فلـما أحس بدنو أجله كتب وصـيته إلى سعـد بن أبى وقاص يبصره فيها بـأمر العجم ويلقى إليه بزبدة الوقائع التى مخضها ونتيـجة خبرته وتجاربه قبله. فأوصاه أن يقاتل الفرس علـى حدود أرضهم على أدنى حجر من أرض العرب وأدنى مدر من أرض العجم ، فإن يظهـر الله المسلمين عليهم فلهم ما وراءهم ، وإن تكن الأخرى فاءوا إلى فئة ثم يكونون أعلم بـسبيلهم وأجرأ على أرضهم إلى أن يرد الله الكرة لهم. وهى وصية أنضجتها الخبرة وسبكتها التجربة.

سار سعد من زرود حتى نزل بشراف وأرسل المغيرة بن شعبة إلى ناحية الأبلة من أرض العرب وكتب إلى عمر بمنزله وبمنازل الناس ، فكتب إليه عمر : إذاجاءك كتابى هذا فعشر الناس (اجعلوهم عشرة عشرة) وعرف عليهم وأمرعلى أجنادهم وعبهم ومر رؤساء المسلمين فليشهدوا وقدّرهم وهم شهود ، ثم وجههم إلى أصحابهم وواعدهم القادسية واضمم إليك المغيرة فانضم إليه ودعا برؤساء القبائل فأتوه. فقدر الناس وعبأهم بشراف وعرف العرفاء فعرف على كل عشرة رجلا كما كانت العرافات أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمر الأمراء. وأمر على الرايات رجالا من أهل السابقة. وعشر الناس وأمر على الأعشار رجالا من الناس لهم وسائل فى الإسلام وولى الحروب رجالا فولى على مقدماتها ومجنباتها وساقتها ومجرداتها وطلائعها ورجلها وركبانها.

فكان أمراء التعبية يلون الأمير. ويليهم أمراء الأعشار ثم أصحاب الرايات ثم القواد رءوس القبائل ، ولم يفصل سعد من شراف إلا على تعبية وبإذن من عمر. وقد بعث عمر إليهم الأطباء وجعل على قضاء الناس عبد الرحمن بن ربيعة الباهلى وجعل إليه الأقباض وقسمة الفىء وجعل داعيتهم ورائدهم سلمان الفارسى.

فلما فرغ سعد من تعبيته وأعد لكل شىء من أمره جُمَّاعاً ورأساً كتب إلى عمر بذلك. وكان فى تلك الأثناء – قبل إذن عمر في الارتحال إلى القادسية – قدوم المعنى ابن حارثة وسلمى بنت خصفة إلى سعد بوصية المثنى. وكان السبب فى إبطائهما مع أمر المثنى لهما بالتعجل إلى سعد أن الأزاد مرد بعث قابوس بن قابوس بن المنذر إلى القادسية وقال :ادع العرب وأنت ملك على من أجابك كما كان آباؤك. لما علم المعنى به أسرى إليه حتى بيته ومن معه فأنامهم فشغله ذلك عن الإسراع إلى سعد بزرود فلما وقف سعد على الوصية ترحم عليه وولى المعنى على عمله وأوصى بأهل بيته خيراً ، وتزوج سلمى بعد انقضاء عدتها. وكان فى جيش سعد بضعة وسبعون بدرياً وثلاثمائه وبضعة عشر ممن كانت له صحبة فيما بين بيعة الرضوان فما فوق ،

وثلاثمائة ممن شهد الفتح ، وسبعمائه من أبناء الصحابة من جميع أحياء العرب.

وكان كتاب عمر إلى سعد وهو بشراف : "أما بعد . فسر من شراف نحو فارس بمن معك من المسلمين وتوكل على الله واستعن به على أمرك كله. واعلم فيما لديك أنك تقدم على أمة عددهم كثير وعدتهم فاضلة وبأسهم شديد وعلى بلد منيع وإن كان سهلا كؤود لبحوره وفيوضه ودآدئه إلا أن توافقوا غيضاً من فيض. وإذا لقيتم القوم أو أحداً منهم فابدءوهم الشد والضرب ، وإياكم والمناظرة بجموعهم ولا يخدعنكم فإنهم خدعة مكرة أمرهم غير أمركم إلا أن تجادوهم. وإذا انتهيت إلى القادسية والقادسية باب فارس في الجاهلية - وهى أجمع تلك الأبواب لمادتهم ولما يردونه من تلك الأصول وهو منزل رغيب خصيب حصين دونه قناطر وأنهار مقنعة - فتكون مسالحك على أنقابها ويكون الناس بين الحجر والمدر على حافات الحجر وحافات المدر والجراع بينهما. ثم الزم مكانك فلا تبرحه فإنهم إذا أحسوك أنغضهم ورموك بجمعهم الذى يأتي على خيلهم ورجلهم وحدهم وجدهم فإن أنتم صبرتم لعدوكم واحتسبتم لقتاله ونويتم الأمانة رجوت أن تنصروا عليهم ثم لا يجتمع لكم مثلهم أبداً إلا أن يجتمعوا وليست معهم قلوبهم. وإن تكن الأخرى كان الحجر فى أدباركم فانصرفتم من أدنى مدرة من أرضهم إلى أدنى حجر من أرضكم ثم كنتم عليها أجرأ وبها أعلم وكانوا عنها أجبن وبها أجهل حتى يأتى الله بالفتح عليهم ويرد لكم الكرة.

وكتب إليه أيضاً باليوم الذى يرتحل فيه من شراف - وكانت الكتب متواصلة مترادفة بين سعد وعمر رضى الله عنهما.

وقد جاء إلى سعد كتاب عمر يقول له فيه : "واكتب إلى أين بلغ جمعهم ومن رأسهم الذى يلى مصادمتكم. فإنه قد منعنى من بعض ما أردت الكتاب به قلة علمى بما هجمتم عليه والذى استقر أمركم عليه. فصف لنا منازل المسلمين والبلد الذى بينكم وبين المدائن صفة كأنى أنظر إليها. واجعلنى من أمركم على الجلية" .

فكتب إليه سعد بصفة البلدان يقول . "القادسية بين الخندق والعقيق(١) وإن ما عن يسار القادسية بحر أخضر في جوف لاح(٢) إلى الحيرة بين طريقين فأما أحدهما فعلى الظهر ، وأما الآخر فعلى شاطىء النهر يدعى الحضوض(٣) يطلع بمن سلكه على ما بين الخورنق(٤) والحيرة. وإن ما على يمين القادسية إلى الولجة فيض من فيوض مياههم. وإن جميع من صالح المسلمين من أهل السواد قبلى إلب لأهل فارس. قد خفوا لهم واستعدوا لنا وإن الذى أعدوا لمصادمتنا رستم فى أمثال له منهم. فهم يحاولون إنغاضنا وإقحامنا ونحن نحاول إنغاضهم وإبرازهم وأمر الله بعد ماض وقضاؤه مسلم إلى ما قدر لنا وعلينا ، فنسأل الله خير القضاء وخير القدر فى عافية" .

فكتب إليه عمر : "قد جاءنى كتابك وفهمته. فأقم بمكانك حتى ينغض الله لك عدوك واعلم أن لها ما بعدها ، فإن منحك الله أدبارهم فلا تنزع عنهم حتى تقتحم عليهم المدائن فإنه خرابها إن شاء الله" ثم كتب إلى سعد : "إنى قد ألقى فى روعى أنكم إذا لقيتم العدو وهزمتموهم فاطرحوا الشك وآثروا التقية عليه فإن لاعب أحد منكم أحداً من العجم بأمان أو قرفه بإشارة أو بلسان كان لا يدرى الأعجمى ما كلمه به وكان عندهم أمانا فأجروا ذلك له مجرى الأمان وإياكم والضحك والوفاء الوفاء ، فإن الخطأ بالوفاء بقية وإن الخطأ بالغدر الهلكة وفيها وهنكم وقوة عدوكم وذهاب ريحكم وإقبال ريحهم. واعلموا أنى أحذركم أن تكونوا شيناً على المسلمين وسبباً لتوهينهم.

ولما نزل سعد عذيب الهجانات بث الغارات وكان من ذلك سرية فيها الشماخ

---

(١) الخندق : حفير لسابور الملك ببرية الكوفة ، والعقيق :نهر.

(٢) لاح : ضيق.

(٣) الحضوض كصبور . نهر كان بين القادسية والحيرة.

(٤) الخورنق كفدوكس : قصر للنعمان الأكبر ، معرب خورنكاه ، أى موضع الأكل.

الشاعر القيسى فى ثلاثين معروفين بالنجدة والبأس وأميرهم بكير بن عبد الله الليثى وسرحهم فى جوف الليل وأمرهم بالغارة على الحيرة فسروا حتى جاوزوا السليحين وقطعوا جسرها يريدون الحيرة فسمعوا جلبة فأحجموا عن الإقدام وأقاموا كميناً فمرت بهم خيل تقدم تلك الغوغاء فتركوها فنفذت الطريق. وإذا أخت أزاد مرد بن أزاذبه مرزبان الحير تزف إلى صاحب الصنّين وكان من أشراف العجم. فلما انقطعت الخيل عن الزواف والمسلمون كمين في النخل وجازت بهم الأثقال حمل بكير على شيرزاد ابن أزاذبة فقصم صلبه وطارت الخيل على وجوهها. واحتوى المسلمون الأثقال وابنة الأزاذبه وثلاثين امرأة من نساء الدهاقين ومائة امرأة من التوابع ومما لا يدرى قيمته ثم عاجوا فصبحوا سعدا بعذيب الهجانات بما أفاء الله على المسلمين فكبر المسلمون تكبيرة شديدة. فقال سعد : أقسم بالله لقد كبرتم تكبيرة قوم عرفت فيهم العز. ثم فض الغنيمة فى المجاهدين بعد أن نفل الخمس وأعطاهم بقيته، فوقع ذلك منهم موقعاً.

كان كثير من المسلمين يرحلون إلى الغزو بحريمهم وعيالاتهم وذراريهم فأنزل سعد حريمهم فى حامية وأمر عليهم غالب بن عبد الله الليثى ونزل سعد بالقادسية.

كانت الفرس تنظر إلى رستم نظر المستغيث إلى مغيثه وكانت العرب من حين نزولهم إلى القادسية يبثون السرايا فتغير على النعم والدواب وكانوا فى قرم إلى اللحم أما الشعير والحنطة وما ينفع من الحب فقد كان عندهم من ذلك الحب ما يغنيهم أياماً طويلة لو لم يأتهم منه شيء ، وكانوا يسمون الأيام بأسماء ما يأتيهم من اللحمان كيوم الأباقر ويوم الحيتان. فلما تواترت منهم الإغارات فى السواد على دواب الفرس ومن معهم واغتنام مواشيهم ، كتب أهل السواد وعظماء فارس ممن كان له ملك بناحيتهم إلى يزدجرد وعجلوا إليه بالشكوى من العرب وما يعترونهم به من النكبات قائلين : إن العرب قد نزلوا القادسية بأمر ليس يشبه إلا الحرب وإن فعل العرب مذ نزلوها لا يبقى على شيء وقد أخربوا ما بينهم وبين الفرات وليس فيما هنالك أنيس

إلا فى الحصون وقد ذهب الدواب وكل شيء لم تحتمله الحصون من الأطعمة ولم يبق إلا أن يستنزلونا ، فإن أبطأ عنا الغياث أعطيناهم بأيدينا.

وكتب إليه بذلك الملوك الذين لهم ضياع بالظف وهيجوه على بعثة رستم.

أرسل يزدجرد إلى رستم فلماجاء قال له : إنى أريد أن أوجهك فى هذا الوجه وإنما يعد للأمور على قدرها وأنت رجل أهل فارس اليوم وقد ترى ماجاء أهل فارس من أمر لم يأتهم مثله منذ ولى آل أردشير. فأراه أن قد قبل منه وأثنى عليه.

إن اشتراك الملوك مع القواد فى شؤونهم إذا كانوا غير مضطلعين بالحرب عارفين بكل ما يلزم لها لا يعود إلا بالخيبة والخسارة. وهذه العادة الرديئة قد خذلت قواداً من أحسن القواد خبرة وأغزرهم علماً بالحرب وفنونها ومكايدها. فكانت وبالا على الدول. ونحن لم نزل نسمع ما يقوله الخبراء عن إدارة الحرب الروسية العثمانية سنة ١٢٩٤ - ١٢٩٥ هـ إنما كان أكبر أسباب الخذلان فيها أن القواد لم يكونوا أحراراً فى عملهم من تقدم أو تأخر بحسب ما يستلزم الميدان وتقتضيه الأحوال. بل كانت الأوامر من القواد من الآستانة.

من ذلك أن يزدجرد قال لرستم : صف لي العرب وفعلهم منذ نزلوا القادسية وصف لى العجم وما يلقون منهم. فقال رستم : صفة ذئاب صادفت غرة من رعاء فأفسدت فقال : ليس كذلك إنى إنما سألتك رجاء أن تعرب صفتهم فأقويك لتعمل على قدر ذلك فلم تصب. فافهم عنى. إنما مثلهم ومثل أهل فارس كمثل عقاب أوفى على جبل يأوى إليه الطير بالليل فتبيت فى سفحه فى أوكارها فلما أصبحت تجلت الطير فأبصرته يرقبها فإن شذ منها شيء اختطفه فلما أبصرته الطير لم تنهض من مخافته. وجعلت كلما شذ منها طائر اختطفه فلو نهضت نهضة واحدة ردته. وأشد شيء يكون فى ذلك أن تنجو كلها إلا واحداً وإن اختلفت لم تنهض فرقة إلا هلكت. فهذا مثلهم ومثل الأعاجم ، فاعمل على قدر ذلك. فقال له رستم: أيها

الملك ، دعنى فإن العرب لا تزال تهاب العجم ما لم تضرهم بى ، ولعل الدولة أن تثبت بى فيكون الله قد كفى ونكون قد أصبنا المكيدة رأي الحرب. فإن الرأى فيها والمكيدة أنفع من بعض الظفر. فأبى عليه وقال. أى شىء بقى ؟ فقال رستم. إن الأناة في الحرب خير من العجلة وللأناة اليوم موضع. وقتال جيش بعد جيش أمثل من هزيمة بمرة وأشد على عدونا. فلج وأبى فخرج حتى أنزل عسكره بسباط.

رأى رستم أنه يسير فى الحرب برأى غيره ويعمل فيها بمشورة سواه الغائب عنها الجاهل بها فأراد أن يستعفى يزدجرد من قيادة الجيش فى هذا الوجه واختلفت منه إلى الملك الرسل ليرى موضعاً لإعافئه وبعث غيره فلم ينله الملك مأربه .

قد يقال إن عمر كان يوافى سعداً بالنصائح والآراء ، ولا ينتقل من موضعه الذى يكون فيه إلا بأمر منه ، فلماذا لم يكن هذا توهينا لأمر سعد ؟ والجواب على هذا أن عمر من أهل المكيدة فى الحرب والرأى الراجح والبصر النافذ فيها وهو يخشى أن يتورط سعد فيما تورط فيه أبو عبيد يوم الجسر. فكان يحذره مثل ذلك. ولما صار سعد مع العجم وجها لوجه. لم يكن ليأمره بشىء من أمر الحرب لأنه أعلم بها من الغائب عنها. والدليل على أن عمر كان ضليعاً بالحرب ذا كفاءة للقيادة أن أبا بكر رضى الله عنه كان يندم على أنه حين صرف خالد بن الوليد عن العراق إلى الشام لم يكن قد ولى عمر مكانه فجعله بحيال فارس. وكانت أوامر عمر تصدر إلى القائد بأخذ الحيطة والاحتراس والتأنى والحث على الصبر والعدل والزهد فى الدنيا ونحو ذلك مما هو بمنزلة المدد للجيش. والفرق بين الغرضين واضح.

خرج رستم حتى نزل بساباط واجتمع إليه الجند. وجاء العيون إلى سعد بذلك من قبل الحيرة وبنى صلوبا. فأعلم عمر بذلك ، وكثرت الاستغاثة على يزدجرد من أهل السواد وعليهم الإزاذمرد بن الإزاذ به الذى جشعت نفسه وكان ضيقاً لجوجا فاستحث رستم فقال له : أيها الملك ، لقد اضطرنى تضييع الرأى إلى إعظام نفسى وتزيكتها ولو أجد من ذلك بدا لم أتكلم به فأنشدك الله فى أهلك ونفسك وملكك.

دعنى أقم بعسكرى وأسرح الجالينوس : فإن تكن لنا فذلك ، وإلا فإنا على رجل وأبعث غيره حتى إذا لم نجد بدا ولا حيلة صبرنا لهم وقد وهناهم وحسرناهم ونحن جامون. فأبى إلا أن يسير. فكتب إلى فارس وعظمائها أن يرموا حصونهم وأن يعدوا ويستعدوا. وقال في كتابه فكأنكم بالعرب قد وردوا بلادكم ، وقارعوكم عن أرضكم وأبنائكم.

ولما بلغ عمر أن كسرى ولى رستم بن الفَرُّخْزَاذْ حرب المسلمين وفصول رستم بالجند إلى ساباط كتب إلى سعد لا يكربنك ما يأتيك عنهم ولا ما يأتونك به واستعن بالله وتوكل عليه وابعث إليه رجلا من أهل المنظرة والرأى يدعونه فإن الله جاعل دعاءهم توهينا لهم وفلجا عليهم. واكتب إلى فى كل يوم.

ولماجاء أمرعمر إلى سعد اختار من جنده قوما عليهم نجار وآخرين لهم آراء ، فأما الأولون فالنعمان بن مقرن. وبسر بن أبى رهم ، وحمالة بن جوية الكنانى. وحنظلة بن الربيع التميمى ، وفرات بن حيان العجلى ، وعدى بن سهيل ، والمغيرة بن زرارة. وأما الآخرون فعطارد بن حاجب ، والأشعث بن قيس ، والحارث بن حسان ، وعاصم بن عمرو ، وعمرو بن معد يكرب ، والمغيرة بن شعبة ، والمعنى بن حارثة ، فبعثهم دعاة إلى الملك كسرى يزدجرد فسار القوم حتى وصلوا إلى المدائن واستأذنوا فحبسوا ، وبعث يزدجرد إلى وزرائه ووجوه أرضه يستشيرهم فيما يصنع بهم ويقوله لهم. وسمع بهم الناس فحضروهم ينظرون إليهم وعليهم المقطات والبرود وفى أيديهم سياط دقاق وفى أرجلهم النعال وبعد أن أجلسهم قال للترجمان : سلهم ما جاء بكم وما دعاكم إلى غزونا والولوع ببلادنا من أجل أنا أجممناكم وتشاغلنا عنكم اجترأتم علينا ؟ فرد عليه النعمان بن مقرن وكان رئيس الوفد : إن شئتم أجبت عنكم ومن شاء آثرته. فقالوا بل تكلم. وقالوا للملك : كلام هذا الرجل كلامنا فقال النعمان : إن الله رحمنا فأرسل إلينا رسولا يدلنا على الخير ويأمرنا به ، ويعرفنا الشر وينهانا عنه ، ووعدنا على إجابته خيرالدنيا والآخرة فلم يَدْعُ إلى ذلك قبيلة إلا

صاروا فرقتين فرقة تقاربه وفرقة تباعده ولا يدخل معه فى دينه إلا الخواص ، فمكث بذلك ما شاء الله أن يمكث ثـم أمر أن ينبذ إلى من خالفه من العـرب وبدأبهم وفعل فدخلوا مـعه جميـعاً على وجهين مكره عليه فـاغتبط ، وطائع أتاه فازداد ، فـعرفنا جميعاً فضل ماجـاء به على الذى كنا عليه من العداوة والضيق. ثم أمرنا بأن نبدأ بمن يلينا من الأمم فندعوهم إلى الإنصاف فنحن ندعوكم إلى ديننا وهو دين حسّن الحسن وقبّح القبيح كله فـإن أبيتم فأمر من الشر هو أهون من آخر شـر منه الجزاء فإن أبيتم فالمناجزه فإن أجبتم إلى ديننا خلفنا فيكم كتاب الله وأقمناكم عليه أن تحكموا بأحكامه ونرجع عنكم وشأنكم وبـلادكم وإن اتقيتمـونا بالجزاء قبلنا ومنـعناكم وإلا قاتلناكم. فقال يزدجرد : إني لاأعلم في الأرض أمـة كانت أشقى ولا أقل عدداً ولا أسوأ ذات بين منكم. قد كنـا نوكل بكم قرى الضواحى فـيكفوننا إياكم لا تغـزوكم فارس ولا تطمعون أن تقـوموا لهم ، فإن كان عـدد لحق فلا يغرنكم منا ، وإن كان الجـهد قد دعاكم فرضنا لكم قوتاً إلى خصبكم وأكرمنا وجوهكم وكسوناكم وملكنا عليكم ملكا يرفق بكم. فسكت القوم.

فقـام المغيـرة بن زرارة الأسيـدى فقـال : أيها الملك إن هؤلاء رؤوس الـعرب ووجوههم ، وهم أشـراف يستحـيون من الأشراف ، وإنما يكرم الأشـراف الأشراف ويعظم حقوق الأشراف الأشراف ، ويفخم الأشراف الأشراف. وليس كل ما أرسلوا به جمعوه لك ، ولا كل ما تكلمت به أجـابوك عليه. وقد أحسنوا ولا يحسن بمثلهم إلا ذلك ، فجاوبنى لأكون الذى أبلغك ويشهدون على ذلك. أما ما ذكرت من سوء الحال فما كان أحد أسوأ حـالا منا وأما جوعنا فلم يكن يشبه الجوع كنا نأكل الخنافس والجعلان والعـقارب والحيات فنرى ذلك طعامنا وأمـا المنازل فإنما هى ظهر الأرض ، ولا نلبس إلا مـا غزلنا من أوبار الإبل وأشـعار الغنم. دينناأن يقـتل بعضنا بعـضاً ، ويغـير بعـضنا على بعض ، وإن كان أحـدنا ليدفن ابنتـه حيـة كراهيـة أن تأكل من طعامنا، فكانت حالنا قبل اليوم على ما ذكرت ، فـبعث الله إلينا رجلا معروفا نعرف نسبه ونعرف وجهه ومولده ؛ فأرضه خير من أرضنا ، وحسبه خير من حسبنا ، وبيته

أعظم من بيوتنا ، وقبيلته خير من قبـائلنا ، وهو بنفسه كان خيرنا في الحال التى كان فيـها أصدقـنا وأحلمنا. فدعانا إلـى أمر فلم يجبـه أحد أول من ترب كـان له وكان الخليفة من بعـده ، فقال وقلنا ، وصدق وكذبنا ، وزاد ونقصنا ؛ فلم يـقل شيئاً إلا كان ؛ فقذف الله فى قلوبنا التصديق له واتباعـه. فصار فيما بيننا وبين رب العالمين ، فما قال لنا فهو قول الله ، وما أمرنا فهو أمر الله فقال لنا إن ربكم يقول : إنى أنا الله وحـدى لا شريك لى ، كـنت إذ لم يكن شىء ، وكل شىء هالك إلا وجـهى وأنا خلقت كل شىء وإلى يصير كل شىء وإن رحمتـى أدركتكم فبعثت إليكم هذاالرجل لأدلكم على السـبـيل الذى بها أنجيكم بعـد الموت من عـذابى ولأحلكم دارى. دار السلام فنشهد عليه أنه جـاء بالحق من عند الحق. وقال : من تابعكم على هذا فله ما لكم وعليـه ما عليكم ، ومن أبى فـاعرضـوا عليه الجـزية ثم امنعوه مما تمنعـون منه أنفسكم ، ومن أبى فـقاتلوه ، فأنـا الحكم بينكم ، فمن قتل منكـم أدخلته جنتى ، ومن بقى منك أعـقبتـه النصر على من ناوأه. فاخـتر إن شئـت الجزية عن يد وأنت صاغر ، وإن شئت فالسيف ، أو تسلم فتنجى نفسك.

أصابت الكلمات مكان العـزة من نفس كسرى يزدجرد ، ورأى كبـيراً عليه أن ينابذ إليه بالقتال - وهو شاهنشاه الواسع ، الملك العزيز الجانب المهيب السطوة - من قوم ظلوا مستضعفـين لآبائه طول حياتهم لا يأبه لامتلاك أرضهم طامع ، ولا ترغب نفس أحد الملوك فى التـغلب عليهم لقحولة أرضـهم ، وقلة ريفها ، وسوء عـيشهم فيها ، وقلتهم وذلتهم. وأقل عـبد من عبيده أبهى منهم رداء. وأحسن منظراً ، وهو أقوى منهم ناصراً أو أكثر عدداً. وهاجه منهم أن يستقبلوه بطلب الجزية يوديّها صاغراً فعل الذليل المستضعف ، والحقير المستضام. فقال محنقاً : أتستقبلنى بمثل هذا ؟ فقال : ما استقبلت إلا من كلمني ولو كلمنى غيرك لم أستقبلك به فقال كسرى : لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتكم ، لا شىء لكم عندى. ثم قال ائتونى بوقر من تراب فاحملوه على أشـرف هؤلاء ، ثم سوقـوه حـتى يخرج من المدائن. ارجـعـوا إلى صاحـبكم

فأعلموه أنى مرسل إليه رستم حتى يدفنكم ويدفنه فى خندق القادسية ، وينكل بكم وبه من بعد ، ثم أوردكم بلادكم حتى أشغلكم فى أنفسكم بأشد مما نالكم. ثم قال : من أشرفكم ؟ فقال عاصم بن عمرو : أنا. فحملوه وقر التراب على عنقه فحمله حتى أتى راحلته فحمله عليها ، ثم صار هو وأصحابه حتى أتى إلى سعد بالتراب متفائلين بالظفر ، متأولين أن كسرى أعطاهم أرضه. وإنما قصد كسرى أن يعطيهم التراب من الجزية ولا ينالون منه إلا المذلة التى تكون بحمل التراب.

وقد جهد رستم حين بلغه ما صنع كسرى أن يلحق عسكراً بحامل التراب ليأخذوه منه فأخبر بأنه فاتهم إلى المسلمين فأهمه ذلك ورآه فال سوء عليهم. وكان يتعاطى العيافة والتنجيم واعتدها من سوء فعل الملك.

وفى الوقت الذى قرب فيه جيش رستم كان سعد قد بث الطلائع لاستطلاع أحوال الفرس وتقدم إليهم أن يأتوه برجل من الفرس يعلمه علمهم ، وكان فيمن ذهب إلى هذا الوجه عمرو بن معد يكرب الزبيدى وطليحة بن خويلد الأسدى - الذى كان متنبئاً فى بنى أسد أيام الردة - فلما رأوا عسكر الفرس ، وكانوا يعلمون بمقدمهم ، لم يشأ طليحة أن يعود إلى معسكر المسلمين. فقال له أصحابه : ما تريد؟ قال : أريد أن أخاطر القوم أو أهلك. فقالوا : أنت رجل فى نفسك غدر ولن تفلح بعد قتلك عكاشة بن محصن. فارجع بنا. فأبى ومضى حتى دخل عسكر رستم وبات فيه يجوسه وينظر ويتوسم. فلما أدبر الليل أتى فى ناحية العكسر فإذا فرس لم ير فى خيل القوم مثله فانتضى سيفه فقطع مقود الفرس ثم ضمه إلى مقود فرسه ثم حرك فرسه فخرج يعود به. ونذر به عكسر الفرس فتنادوا وركبوا الصعبة والذلول فى طلبه ، وأصبح وقد لحقه فارس من الجند فبعد مصاولة قليلة قتله طليحة ، ثم لحق به آخر فسقاه بكأس الأول ، ثم لحق به ثالث فما زال يصاول حتى استأسر الفارسى ، فسار حتى غشى عسكر المسلمين فجاء إلى سعد ؛ فلما انتهى إليه قال له : ما وراءك

؟ قال : دخلت عساكرهم وجستها منذ الليلة وقد أخذت أفضلهم توسما ، وما أدرى أصبت أم أخطـأت ؟ وها هو ذا. فاستـخبـره وأمنه على دمه إن صـدقه فـاسمح له بذلك. فقال : أخبـركم عن صاحبكم قبل أن أخبركم عـمن قبلى. باشرت الحروب وغشيتها ، وسمعت بالأبطال ولقيتها منذ أنا غلام إلى أن بلغت ما ترى. ولم أر ولم أسمع بمثل هذا. إن رجلا قطع عسكريين لا يجترىء عليـهما الأبطال - وكان طليحة قد جاز عـسكر الجالينوس وعكسر ذى الحـاجب إلى عسكر رستم - إلى عسكـر فيه سبعون ألفـا يخدم الواحد منهم الخمسة إلى العشـرة فما دون ، فلم يرض أن يخرج كما دخل حتى سلب فارس الجند وهتك أطناب بيـته فأنذره فأنذرنا به فطلبناه فأدركه الأول وهو فارس الناس يعدل ألف فارس فقتله فـأدركه الثاني وهو نظيره فقتله ، ثم أدركتـه لا أظنُّنى خلفت بعدى من يعدلنى وأنا الثـائر بالقتيلين ، وهمـا أبناء عمى ، فرأيت الموت فـاستأسرت. ثم أخـبره عن أهل فارس بأن الجند عشـرون ومائة ألف. وبأن الأتباع مثلهم خدام لهم ، وأسلم الرجل وسمى مسلما ، وكان من أهل البلاء.

كان بين خروج رستم من المدائن إلى أن لقى سعـداً أربعة أشهر ، لا يقدم ولا يقاتل رجـاء أن يضجر المـسلمون بمكانهم ، وأن يجهـدوا فينصـرفوا ، وكره قـتالهم مخافة أن يلقى ما لقى من قبله وطاولهم. وجعل الملك يستحثه وينهضه ويقدمه حتى أقحمه.

كان على مـقدمة سـعد زهرة بن الحوية ، وعلـى مجنبتـيه عبـد الله بن المعتم وشرحـبيل بن السـمط الكندى ، وعلى مجـردته عاصم بن عـمرو ، وعلى المرامـية والرجل قائدان من أهل النجدة ، وعلى الطلائع سواد بن مالك. وعلى مقدمة رستم الجالينوس ، وعلى مجنبـتيه الهرمزان ومهـران ، وعلى المجردة ذو الحاجب ، وعلى الطلائع الفيـرزان ، وعلى الرجالة زاذ بن بهيش. فلمـا انتهى رستم إلى العـقيق نزل عليه بحيال عسكر سعـد وتلاحق به العسكر حتى تكاملوا وأخذوا منازلهم والمسلمون

ممسكون عنهم ، وكان مع رستم ثلاثة وثلاثون فيلا مضراةً بالحرب.

ولما أصبح رستم ساير العقيق ليحزر المسلمين ويعرف مقدار عددهم حتى انتهى إلى منقطع العسكر. وأرسل إلى زهرة قائد مقدمة المسلمين فخرج إليه حتى واقفه. فأراده على الصلح ويجعل له جعلا على أن ينصرفوا عنه وجعل يقول : أنتم جيراننا، وقد كانت طائفة منكم فى سلطاننا ، فكنا نحسن جوارهم ونكف الأذى عنهم ، ونوليهم المرافق الكثيرة ، ونحفظهم فى أهل باديتهم ؛ فنرعيهم مراعينا ونميرهم من بلادنا ،ولا نمنعهم من التجارة فى شيء من أرضنا ، وقد كان لهم فى ذلك معاش. يعرض لهم بالصلح ولا يصرح. فقال له زهرة. صدقت قد كان ما تذكر ، وليس أمرنا أمر أولئك ولا طلبتنا طلبتهم ، إننا لم نأتكم لطلب الدنيا إنما طلبتنا وهمتنا الآخرة ، كنا كما ذكرت يدين لكم من ورد عليكم منا ، ونضرع إليكم بطلب ما فى أيديكم ؛ ثم بعث الله تبارك وتعالى إلينا رسولا فدعانا إلى ربه فأجبناه فقال الله لنبيه صلى الله عليه وسلم : إنى قد سلطت هذه الطائفه على من لم يدن بدينى فأنا منتقم بهم منهم ، وأجعل لهم الغلبة عليهم ما داموا مقرين به ، وهو دين الحق لا يرغب عنه أحد إلا ذلّ ، ولا يعتصم به أحد إلا عز. فقال رستم : وما هو ؟ قال : أما عموده الذى لا يصلح منه شيء إلا به "فشهاده أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله" والإقرار بما جاء من عند الله تعالى : قال : ما أحسن هذا ؟ وأى شيء أيضاً ؟ قال : وإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله. قال : حسن ، وأى شيء أيضاً ، قال : والناس بنو آدم وحواء إخوة لأب وأم. قال : ما أحسن هذا. ثم قال له رستم : أرأيت لو أنى رضيت بهذا الأمر وأجبتكم إليه ومعى قومى، كيف يكون أمركم ، أترجعون ؟ قال : أى والله ثم لا نقرب بلادكم أبداً إلا فى تجارة أو حاجة. قال صدقتنى.

لم يكن استرسال رستم معه فى الكلام هذا الاسترسال عن اقتناع أو رضى بما

يقول ، وإنما كان خديعة ليأتي زهرة بآخر ما عـنده ويعرض عليه منتهى أمانيه وأماني القوم الذين هو منهم ، ويدل على ذلك قول رستم له بعد ذلك : والله إن أهل فارس منذ ولي أردشير لم يدعوا أحداً يخرج من عمله من السُّفْلة. كانوا يقولون إذا خرجوا من أعمالـهم تعدوا طورهم وعادوا إلى أشرافـهم. فقال له زهرة : نحن خـير الناس للناس فلا نستطـيع أن نكون كما تقولون. نطيع الله في السفـلة ولا يضرنا من عصى الله فينا.

إن الكلام الحق لابد أن يترك في النـفس أثراً ، مهما حاول الإنسان مـقاومته. فلما انصرف رستم إلى قومه دعا رجال فـارس فذاكرهم ما دار بينه وبين زهرة فحموا من ذلك وأنفوا ونالوا منه ونال منهم.

أرسل سعد إلى المغيرة بن شعبـة ، وبشر بن أبى رهم ، وعرفجة بن هرثمة ، وحذيفـة بن محصن وربعـى بن عامر ،وقرفـة بن زاهر الوائلى. ومذعـور بن عدي العجلى ، ومعبد بن مرة العجلى ، والمضارب بن يزيد العجلي. وكان معبد من دهاة العرب فقال : إنى مرسلكم إلى هؤلاء القوم فمـا عندكم ؟ قالوا : جميعاً : نتبع ما تأمرنا به ونـنتهى إليه ، فإذا جـاءنا أمر لم يكن منك فـيه شيء نظرنا أمثل مـا ينبغى وأنفعه للناس فكلمناهم به. فقال سعد : هذا فعل الحزمة. اذهبوا فتهيأوا. فقال ربعى ابن عامر : إن الأعاجم لهم آراء وآداب ومتى جئناهم جـميعاً يروا أنا قد احتلفنا بهم فلا تزدهم على رجل فمالؤوه على ذلك ، فقـال : سرحونى فسرحه حتى دخل على عسكر رستم فحبسه العسكر حتـى جاء إذن رستم فيه ، وقد أظهر رستم الزينة وبسط البسط والنمـارق ، وجلس رستم على سرير الذهب ولبس زينتـه. وأقبل ربعى على فرس له زباء قصيرة ، ومعه سيف مشـوف وغمده لفافه ثوب خلق ورمحه معلوب. ومعه حجفة من جلود البقر على وجهها قرص جلد أحمر مثل الرغيف ، ومعه قوسه ونبله ورمحه ، وعلـيه درع له كأنها إضاءة ويلمعـة. عباءة بعيره قد جلبـها وتدرعها وشدها على وسطه بسلب وقد شد رأسه بمعجـرته ، وهى نسعة بعيره ، ولرأسه أربع

ضفائر كـأنها قرون الوعلة. ولم يـنزل عن فرسه إلا على البـساط ، ثم أرادوه على وضع سلاحـه فأبى أن يأتيهم إلا كـما يريد وإلا رجع. وأراد أن يستحرجهم فـأقبل يمشى وهو يتـوكأ على رمحـه وزجه نصل يقـارب الخطو وزج الرمح يهتـك النمارق والبسط.

ولما دنا من رستم تعـلق به الحرس وجلس على الأرض. وركز رمحـه بالبساط فقالوا لـه : ما حملك على هذا ؟ فـقال : لا نستحب الجلوس عـلى زينتكم هذه ، فقال له رسـتم : ماجاء بكم ؟ فقـال : الله ابتعثنا والله جاء بنا لنـخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ومن ضيق الدنـيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليـه. فمن قبل ذلك قبلنا ذلك منه ورجعنا عنه وتركناه وأرضه يليـها دوننا ، ومن أبى قاتلناه أبداً حتى نفـضى إلى موعود الله. قال : وما موعود الله ؟ قال : الجنة لمن مـات على قتال من أبى ، والظفر لمن بقى. فقال رسـتم : قد سمعت مـقالتكم. فهل لكم أن تـؤخروا هذا الأمر حتى ننظـر فيه وتنظروا ؟ قال: نعم ، كم أحب إليك ؟ أيومـا أم يومين ؟ قال : لا بل حتى نكاتب أهل رأينا ورؤساء قومنا. وأراد مقاربته ومدافعته. فقال : سن لنا رسول الله صلى الله عليه وسلـم وعمل به أئمتنا أن لا نمـكن الأعداء من آذاننا ، ولا نؤجلهم عـند اللقاء أكثر من ثلاث ، فنحن مترددون عنكم ثلاثا فـانظر فى أمرك وأمرهم ، واختر واحدة من ثلاث بعـد الأجل. اخـتر الإسـلام وندعك وأرضك ، أو الجـزاء فنقبـل ونكف عنك، وإن كنت عن نـصرنا غنياً تـركناك منه ؛ وإن كنت إليه مـحتاجـاً منعناك. أو المنابذة في اليوم الرابع ، ولـسنا نبدؤك فيما بيننا وبين اليـوم الرابع إلا أن تبدأنا ، أنا كفيل لك بذلك على أصحابى. وعلى من ترى. وكـأن رستم عد غريباً أن يضمن له هذا الرجل الزرى الهيـئة سكون الجيش إلى اليوم الرابع ، فقـال له : أسيدهم أنت ؟ قال : لا ، ولكن المسلمين كالجسد بعضهم من بعض ، يجير أدناهم على أعلاهم.

كان رستم قد قـارن بين ما قال زهرة وما قاله ربعى بن عـامر. فرأى اتحاداً فى

الكلمة ، وصدقاً في اللهجة. وفى اعتقادى أنه أراد أن يصرف القوم عن بلاده بأى الوسائل ، وفى نيته أن يخدعهم بقبول دينهم ويصرفهم عن وجههم بكلمة ينطقها ، ثم يكون على ما عليه قومه. ولو وجد من فارس من يعينه على رأيه لفعل. ولكنه خلص إلى أهل فارس ورؤسائهم فقال : ما ترون ؟ هل رأيتم كلاماً قط أوضح ولا أعز من كلام هذا الرجل ؟ قالوا : معاذ الله لك أن تميل إلى شيء من هذا أو تدع دينك لهذا الكلب. أما ترى إلى ثيابه ؟ ثم أخذوا يعيبون رثاثته وتناولوا سلاحه وأداة حربه فعمدوا إلى تجربتها فاستبان فضل ذلك على سلاحهم. فلما رأى منهم ربعى ذلك قال : يا أهل فارس ، إنكم عظمتم اللباس والطعام والشراب وإنا صغرناهن ، ثم رجع إلى أن ينظروا إلى الأجل.

فلما كان اليوم الثانى طلب رستم أن يرسل إليه المسلمون الرجل الذي كان بالأمس (ربعى) فأرسل إليه سعد حذيفة بن محصن ، وكان منه ما كان من ربعى ، لا يكاد أمرهما يختلف. ثم فى اليوم الثالث طلب رستم أن يرسل إليه سعد رجلا له عقل ورأى يكلمه ، فأرسل إليه المغيرة بن شعبة.

جاء المغيرة إلى رستم ومعه وجوه قومه ، عليهم التيجان والثياب المنسوجة بالذهب وبسطهم على غلوة من مجلس رستم. وأقبل المغيرة وله أربع ضفائر يمشى حتى جلس معه على سريره ووسادته ، فوثبوا عليه فترتروه وأنزلوه. فقال : كانت تبلغنا عنكم الأحلام ، ولا أرى قوماً أسفه منكم إنا معشر العرب سواء ، لا يستعبد بعضنا بعضا إلا أن يكون محارباً لصاحبه ، فظننت أنكم تتواسون بينكم كما نتواسى. وكان أحسن من الذى صنعتم أن تخبرونى أن بعضكم أرباب بعض. وأن هذا الأمر لا يستقيم فيكم فلا نصنعه. ولم آتكم ولكن دعوتمونى. اليوم علمت أن أمركم مضمحل ، وأنكم مغلوبون. وأن ملكا لا يقوم على هذه السيرة ولا على هذه العقول. فقال السفلة : صدق والله هذا العربى، وقال الدهاقين : والله لقد رمى بكلام لا يزال عبيدنا ينزعون إليه. قاتل الله أولينا ما كان أحمقهم حين كانوا يصغرون

أمر هـذه الأمة. وقـد رأى رستم أن يأسـو ما صـنعت حاشـيتـه وأن يطيب خـاطره ليستخـرج ما عنده ، فمازحه ليمـحوا ما صنع. فقال له : يا أعرابى إن الحـاشية قد تصنع مالا يوافق الملك فيتراخى عنها مخافة أن يكسرها عما ينبغى من ذلك ، فالأمر على ما تحب من الوفاء وقبول الحق ، ماهذه المـغازل التى معك ؟ (يريد السهام) قال : ما ضر الجمرة أن لا تكون طويلة ، ثم راماهم. قال : ما بال سيفك ؟ قال : رث الكسوة ، حديد المضربة ثم عاطاه سيفه.

بعد ذلك أراد رستم أن يكلمه فيما استقدمه لأجله. فقال له : تكلم أو أتكلم ؟ فقال المغيـرة : أنت الذى بعثت إلينا فتكلم. فـأقام الترجمان بينهـما وتكلم رستم فحمد قومه وعظم أمرهم وطوله وقـال : لم نزل متمكنين فى البلاد ، ظاهرين على الأعداء ، أشرافـاً في الأمم ، فليس لأحد من الملـوك مثل عزنا وشرفـنا وسلطاننا ، ننصر على الناس ولا ينصرون علينا إلا اليوم واليومين ، أوالشهر والشهرين للذنوب، فإذا انتقم الله فرضى رد عـلينا عزنا وجمعنا لعدونا ثم لم يكـن فى الناس أمة أصغر عندنا أمراً منكم كنتم أهل قشف ومعيشـة سيئة لا نراكم شيئاً ولا نعدكم ، وكنتم إذا قحطت أرضكم وأصابتكم السـنة استغثتم بناحية أرضنا فنأمـر لكم بالشيء من التمر والشعير ، ثم نردكـم وقد علمت أنه لم يحملكم على ما صنعـتم إلا ما أصابكم من الجهد فى بلادكم وأنا آمر لأميركم بكسوة وبغل وألف درهم ، وآمر لكل رجل منكم بوقر تمر وبثـوبين وتنصرفون عنا ، فإنى لـست أشتهى أن أقتلكم ولاآسـركم. فتكلم المغيرة بن شعبه فحمد الله وأثنى عليه وقال :

إن الله خالق كل شىء ورازقه فمن صنع شيـئاً فإنما هو يصنعه والذى له ؛ وأما الذى ذكرت به نفسك وأهل بلادك من الظهور على الأعداء والتمكن فى البلاد وعظم السلطان فى الدنيا ، فنحن نعرفه ولسنا ننكره فالله صنعه بكم ووضعه فيكم ، وهو له دونكم.

وأما الذى ذكرت فـينا من سوء الحال وضيـق المعيشة واختـلاف القلوب فنحن نعرفه ولـسنا ننكره ، والله ابتلانا بذلك فـصيرنا إليه ، والدنـيا دول ، ولم يزل أهل

شدائدها يتوقعــون الرخاء حتى يصيروا إليه ، ولم يزل أهل رخائها يـتوقعون الشدائد حتى تنزل بهم ويـصيروا إليه ، وكنتم فـيما آتاكم الله ذوي شكر كان شكركـم يقصر عما أوتيتم وأسلمكـم ضعف الشكر إلى تغير الحال. ولو كنا فيمـا ابتلينا به أهل كفر عظيم ما تتابع علينا مستجلبا من الله رحمة يرفه بها عنا. ولكن الشأن غير ما تذهبون إليه أو كنتم تعرفوننا به.

إن الله تبارك وتعـالى بعث فينا رسولا (ثم ذكر مـاذكره سابقه حـتى انتهى إلى قوله) وإن احـتجت إلينا أن نمـنعك منعناك فكن لنـا عبداً تؤدى الجـزية عن يد وأنت صاغر وإلا السيف إن أبيت.

فاستـشاط رستم غضبا ، وحـلف بالشمس : لا يرتفع لكم الصـبح غداً حتى أقتلكم أجمعين. فانصرف المغيرة.

ثم بعد ذلك أرسل سعد بقية ذوى الـرأى إلى رستم وحبس الثلاثة الذين ذهبوا إليه فكلمهم بمثل مـا تكلم به وكلموه بمثل ما تكلم به سابقـوهم وضرب لهم الأمثال وضربوا له الأمثال كذلك ، ثم تهيأ الفريقان للحرب.

وقد سأل رستم ذلك الوفد : أتعبرون إلينـا أم نعبر إليكم ؟ فقالوا : بل اعبروا إلينا. وأخذ سعد فى الاستعداد - ولما أرادوا عبور العقيق على القنطرة وكانت فى يد المسلمين أبوا عليهم ذلك وقالوا شيء غلبناكم عليه لا نعيده إليكم أبدا بل انظروا لكم معبراً آخر ، فبـاتوا ليلتهم يسكرون العقيق ثم أصبحوا فـعبروه على ما سكروا به من قصب وبراذع وتراب.

عين رستم جيشه ورتب الفيلة فى مواقفها وعليها الرجال فى الصناديق ، وكان يزدجرد قـد رتب الرجال بيـنه وبين رستم بين كل رجـلين مقدار مـا يسمع أحـدهما صوت الآخر فكلما نزل أو ارتحل أو حدث أمر قالـه فقاله الذي يليه حتى يقوله الذى يلى باب الإيوان وفـيه الملك. وهكذا إذا أراد الملـك إصدار أمر إلى رسـتم على هذا

النمط. فكانت الأخبار تعلم ساعة حدوثها لا يغيب عنه شيء في ليل أو نهار.

كان بسعد عرق النسا وحبون قامت له، لا يستطيع معها الركوب ولا الجلوس. فخلف على الناس خالد بن عرفطه. فشغب عليه بعض وجوه الجند. فقال سعد: احملوني واشرفوا بي على الناس. فارتقوا به فأكب مطلعا عليهم وتحت صدره وسادة. وأتي بمن شغب على خالد فهم بهم وشتمهم وقال: أما والله لولا أن عدوكم بحضرتكم لجعلتكم نكالا لغيركم ولا يعود أحد بعدها يحبس المسلمين عن عدوهم ويشاغلهم وهم بإزائه إلا سنت به سنة يؤخذ بها من بعدى - ثم كتب إلى الرايات: إنى قد استخلفت عليكم خالد بن عرفطه، وليس بمعنى أن أكون إلا وجعى الذي يعودنى وما بى من الحبون، فإنى مكب على وجهى وشخصى لكم باد فاسمعوا له وأطيعوا، فإنه إنما يأمركم ويعمل برأيى. فقرىء أمره على الناس فانتهوا إلى رأيه وقبلوا منه وتحاثوا على السمع والطاعة والرضا بما صنع سعد. فكان سعد يرمى بالرقاع فيها أمره ونهيه إلى خالد بن عرفطه وخالد يبلغها من قصد بها لينفذها (فكان أركان حرب لسعد ذلك اليوم).

وقبل أن تنشب الحرب بين الفريقين أرسل سعد إلى الذين انتهى إليهم رأى الناس والذين انتهت إليهم نجدتهم ومن أحرزوا أصناف الفضل، فكان منهم ذوو الرأى النافذ الذين أتوا رستم: المغيرة بن شعبة، وحذيفة بن محصن، وعاصم بن عمرو، وبسر بن أبى رهم، وعرفجة بن هرثمة، وربعى بن عامر، وقرفة بن زاهر، ومذعور بن عدى، ومعبد بن مرة، والمضارب بن يزيد، وطليحة وقيس الأسديان، وغالب بن عبد الله الأسدى. وعمرو بن معد يكرب وأمثالهم، ومن الشعراء: الشماخ والحطيئة وأوس بن مغراء وعبدة بن الطيب وأمثالهم. وقال انطلقوا فقوموا فى الناس بما يحق عليهم عند مواطن البأس فإنكم من العرب بالمكان الذى أنتم به وأنتم شعراء العرب وخطباؤهم وذوو رأيهم ونجدتهم وسادتهم، فسيروا فى الناس فذكروهم وحرضوهم - فما شئت فى ذلك اليوم من خطب حشوها الحث على

الحرب والحض على الطعان والاستبسال بكلام تستأسد منه الأوعال ويستنسر به البغاث ويغلى به دم القلوب وتتوتر له الأعصاب. ومن شعر يؤرث الشر ويوغر الصدور ويهون الموت.

لو تتبعنا ذلك لامتد بنا القول واتسع مجال الكلام وخرجنا عن عهدة ما نحن بصدده.

اتعد سعد مع جنده أن يكبر لهم ثلاث تكبيرات ، والثالثة علامة بدء الحرب والرابعة علامة الزحف العام وإن ذلك يكون بعد صلاة الظهر. فلما أذن المؤذن بصلاة الظهر وأدوا المكتوبة كبر سعد ثلاث تكبيرت ، فلما كبر سعد الثالثة برز أهل النجدات فأنشبوا القتال. وبرز غالب بن عبد الله الأسدى وهو يقول :

قد علمت واردة المسائح ذات اللبان والبنان الواضح

أنى سمام البطل المشايح وفارج الأمر المهم الفادح

وبرز عاصم بن عمرو وهو يقول :

قد علمت بيضاء صفراء اللبب مثل اللجين إذ تغشاه الذهب

أنى امرؤ لا من يعينه السبب مثل على مثلك يغريه العتب

ثم كبر سعد التكبيرة الرابعة وهى علامة الهجوم العام فزحف الجنود واصطدموا صدمة من أشد صدمات الحروب هولاً. وكان أشد شيء لقى منه المسلمون عناء لا يطاق الفيلة. فإنها لما حمل أصحابها خافته الخيل فتفرقت عن الرجالة وكان مبدأ أمرها فى بجيلة ، تؤكل حين فرت عنها خيلها فرقاً من الفيلة. فلما رأى سعد ما حل بهم أعانهم ببنى أسد فصمدوا لها وكانت حلبة الفرس تدور على بنى أسد قبل الهجوم العام. فلما رأى سعد ما حل ببنى أسد من الفيلة أرسل إلى عاصم بن عمرو التميمى وقال : يا معشر بنى تميم ، أما عندكم لهذه الفيلة من حيلة ؟ قالوا : بلى ثم نادى برجال من قومه رماة وآخرين لهم ثقافة فقال للرماة : ذبُّوا ركبان الفيلة عنهم

بالنبل وقال لأهل الثقافة : استدبروا الفيلة وقطعوا وضنها ، ففعل كل فريق ما أمر به ووقعت الصناديق عن ظهور الفيلة ، فلم يبق من ركبان الفيلة راكب إلا قتل. ولما أعريت الفيلة من ركبانها عادت إلى مواقفها ونفس ذلك الكرب عن بنى أسد بعد ما قتل منهم فى ذلك اليوم خمسمائه مقاتل وكانوا ردءاً للناس. واستحر القتال حتى غربت الشمس ثم حتى ذهبت هدأة من الليل. وقد كان الظفر ظاهراً ذلك اليوم فى صفوف الفرس وهذا اليوم يسمى يوم أرماث - وكان فيه عاصم عادية الناس وحاميتهم. وكان ذلك فى المحرم سنة ١٤ هـ يوم الإثنين.

يوم أغواث

ولما أصبح القوم من الغد أصبحوا على تعبية ووكل سعد قوماً بنقل القتلى إلى مُشَرَّف وهو واد بين العذيب وبين عين الشمس ، ووكل آخرين بحمل الجرحى إلى عذيب ليقوم النساء بتمريضهم ومداواتهم وبينما القوم على هذا الحال ولم ينشب القتال إذ طلعت نواصى خيل الإسلام قادمة من الشام. وذلك أن عمر أرسل إلى عبيدة بن الجراح بعد فتح دمشق أن يرد الجند الذين جاءوا من العراق إلى الشام مع خالد بن الوليد ليكونوا عونا لجنود سعد على قتال الفرس. فكان وصولهم إلى جيش المسلمين ذلك اليوم قبل انتشاب القتال وكانوا سته آلاف ، منهم خمسة آلاف من ربيعة ومضر وألف من أفناء اليمن. وكان خالد قد فصل بهم وهم تسعة آلاف قبل اليرموك - وكان الأمير على هذا الجيش عتبة بن أبى وقاص وعلى مقدمته القعقاع بن عمرو ، وعلى مجنبتيه قيس بن هبيرة ، والهزهاز بن عمرو العجلى. وقد عجل القعقاع فطوى حتى قدم المسلمين بالقادسية صبيحة ذلك اليوم.

وقد أراد القعقاع أن يوقع الرعب فى قلوب الفرس فقسم جيشه عشرة أقسام ليردوا على المسلمين قسما بعد قسم ليعلم الفرس أن المدد مواصل على المسلمين فيكون ذلك أدعى إلى انكسار نفوسهم - ثم قدم هو فى القسم الأول ولم يلبث أن باشر القتال ذلك اليوم. وكان قدومه سبباً لتنشيط المسلمين واستبشارهم حتى كأن لم

تكن فيهم مصيبة بالأمس. وقد كان القعقاع فارس يوم أغواث. فإنه حين ورد ساحة الحرب طلب البراز فبرز إليه ذو الحاجب يهمن جاذويه وهو صاحب يوم الجسر الذى قتل فيه أبو عبيد فقتله القعقاع ، ثم برز إليه البير زان والبندوان. فقتل القعقاع أولهما ، وقتل الحارث بن ظبيان ثانيهما وباشر المسلمون العجم بالسيف فاجتلدوا إلى المساء وأكثر المسلمون فيهم القتل ، ولم ير أهل فارس فى قتال هذا اليوم ما يعجبهم ولم تباشر فيلتهم الحرب لأن صناديقها كانت قد تكسرت فلم تصلح حتى أمسى المساء ، وفى هذا اليوم قدم رسول عمر بأربعة أسياف وأربعة أفراس لتقسم على أهل البلاء إن كان سعد لقى حرباً ففضها سعد فى أهل البلاء وفى ذلك يقول الدبيل بن عمرو :

لقد علم الأقــوام أنا أحقهــم ... إذا حصلوا بالمرهفات البــواتر

وما فتئت خيــلى عشية أرمثــوا ... يذودون رهواً عن جموع العشائر

لدن غدوة حتى أتى الليل دونهم ... وقد أفلحت الليــالى الغــوابر

وقال القعقاع :

لم تعرف الخيل العراب سواءنا ... عشية أغواث بجنب القــرادس

عشية رحنــا بالرمــاح كأنها ... على القوم ألوان الطيور الرسارس

ومما صنعه المسلمون فى ذلك اليوم أن بنى عم القعقاع حملوا عشرة عشرة من الرجال على إبل قد ألبسوها الحلال والبراقع وطافت بهم الخيل تحميها فى حملتها على خيول العجم بين الصفين يتشبهون بالفيلة ، فجعلت تلك الإبل لا تصمد لقليل ولا كثير إلا نفرت بهم خيلهم وركبتهم خيول المسلمين وقد استن بهم الناس فى عملهم فلقى الفرس منها ما لقيت خيل المسلمين من الفيلة فى اليوم الأول وقد استحر القتال إلى نصف الليل وكان الظفر للمسلمين واضح الغرّة ذلك اليوم.

وفى ذلك أبلى أبو محجن الثقفى بلاء حسنا ، وذلك أنه كان محبوساً فى منزل سعد بن أبى وقاص لشغبه على خالد بن عرفطة ، فلما كان يوم أغواث قال لسلمى زوج سعد هل لك أن تخلينى وتعيرينى البلقاء ؟ فلله إن سلمنى الله أن أرجع إليك حتى أضع رجلى فى قيدي فأبت ، فقال :

كفي حزناً أن ترتدى الخيل بالقنا — وأترك مشدوداً على وثاقيا

إذا قمت عنانى الحديد وأغلقت — مصاريع دونى قد تصم المناديا

وقد كنت ذا مال كثير وإخوة — فقد تركونى واحداً لا أخاليا

ولله عهد لا أخيس بعهده — لئن فرجت أن لا أزور الحوانيا

فرقت له سلمى وأطلقته وأعطته البلقاء فرس سعد فركبها فحمل على الفرس وكان يقصف الناس قصفا منكراً. وتعجب المسلمون منه وهم لا يعرفونه وكان سعد يقول لولا محبس أبى محجن لقلت أبو محجن وهذه البلقاء حتى إذا انتصف الليل أقبل وأعاد رجليه فى القيد وقال أبياتاً منها :

وليلة قادس لم يشعروا بى — ولم أشعر بمخرجى الزحوفا

فإن أحبس فذلكم بلائى — وإن أترك أذيقهم الحتوفا

وآخر أبياته الأولى يدل على أنه إنما حبس فى الخمر كما هو المشهور وبدليل قوله لزوجة سعد وقد سألته عن سبب حبسه فقال : إنى كنت صاحب شراب فى الجاهلية وأنا امرؤ شاعر يدب الشعر على لسانى ، فقلت :

إذا مت فادفنى إلى جنب كرمة — تروى عظامى حين تسقى عروقها

ولا تَدْفِنّنى فى الفلاة فإننى — أخاف إذا مامت أن لا أذوقها

ولعله كان قد اجتمع عليه الأمران. ولما علم سعد بأمره أطلقه وقال : اذهب

فما أنا مؤاخذك بشىء تقوله حتى تفعله. فقال لا جرم لا أجيب لسانى إلى صفة قبيح أبداً.

يوم عماس

وفى اليوم الثالث أصبح القوم وهم على مواقفهم وقد أصيب من المسلمين ألفان ما بين قتيل وجريح وأحرز المسلمون قتلاهم خلف ظهورهم ووكلوا بهم من يدفنهم وبالجرحى من يبلغهم مكان النساء لتمريضهم وكان النساء والصبيان يحفرون القبور فى يومى أغواث وأرماث.

وقد بات القعقاع يسرب أصحابه وأمرهم أن يعودوا من النهار مائة مائة ليجدد نشاط المسلمين، وكان قتلى فارس بين الصفين لم يوارهم أحد، فكان ذلك مما أشجى الفرس وفت فى عضدهم. وزاد ذلك ما صنعه القعقاع بجنوده وطلوعهم مدداً للمسلمين واقتدى به عاصم بن عمرو ووصل هاشم بن عتبة فى سبعمائة من جند عتبة بن أبى وقاص فصنع صنع القعقاع وكلما جاء جماعة كبر المسلمون.

أما الفرس فقد أصبحوا على مواقفهم وقد أصلحوا توابيت الفيلة فأقبلت ومعها رجال يحمونها أن تقطع وضنها ومن خلفهم رجال تحميهم إذا أرادوا كتيبة دَلَفُوا لها بفيل وأتباعه لينفروا بهم خيلهم. وقد ظن الفرس أن ذلك يكون كما حصل فى يوم الرماث، ولكن خيل المسلمين لم تنفر من الفيلة فعلها فى ذلك اليوم، لأن الفيلة فيه كانت وحدها، فلماكانت فى هذا اليوم والفيلة معها الرجال أنست الخيل ولم تنفر. واستمر القتال شديداً بين العرب والعجم كل فريق منها صابر على شدة القتال والنجدات تصل إلى الفرس ويزدجرد يزجيها ويمدهم بأهل النجدة والبأس من قومه والأمداد تصل على البرد وهم يقوون بها كما قوى المسلمون بهاشم بن عتبة ومن معه، وكان البلاء فيه من الجانبين على السواء.

رأى سعد أن الفيلة قد عادت إلى فعلها فى اليوم الأول فأرسل إلى جماعة من

مسلمة الفرس أسلموا قبيل الحرب فسألهم : هل للفيلة مقاتل ؟ قالوا : نعم مشافرها وعيونها ، فأرسلوا إلى القعقاع وعاصم ابنى عمرو وقال لهما : اكفيانى الفيل الأبيض ، وأرسل إلى الربيل وحمال الأسديين وقال لهما : اكفيانى الفيل الأجرب ، وكانت الفيلة كلها آلفة لاثنيهما. فحمل القعقاع وأخوه على الفيل الذى وجه له ففقأ عينه ونفحه بالسيف فرمي بمشفره ، فلم يكن من الفيل إلا أن يقعى على من خلفه ثم ينقلب بمن على ظهره فيقتلهم المسلمون ، وأما الآخران فعورا الأجرب ورميا بمشفره ففر ووثب فى العقيق فتبعته الفيلة وخرقت صفوف الفرس وألقت من عليها وعبرت العقيق فى أثر الأجرب حتى أتت المدائن بتوابيتها.

ولما ذهبت الفيلة وخلص المسلمون بأهل فارس ومال الظل تزاحف المسلمون وحماهم فرسانهم الذين قاتلوا أول النهار فاجتلدوا على حرد بالسيوف وهم فى ذلك على السواء.

ولما جاء الليل خرج القعقاع بن عمرو التميمى فى جند وزاحف الفرس بغير إذن سعد ثم تبعه كثير من القبائل حتى زحف الجيش كله واشتد القتال وخشعت الأصوات فلم يكن يسمع فى تلك الليلة سوى صليل السيوف كأنه صوت مطارق الحداد على الحديد ، ورأى العرب والعجم أمراً لم يروا مثله قط وانقطعت الأخبار والأصوات عن سعد ورستم وبات سعد بليلة لم يبت مثلها وأقبل على الدعاء للمسلمين بالنصر. فلما أصبح الصبح انتسب الناس فعلم أنهم الأعلون وأصبح الناس وهم حسرى لم تغمض عيونهم ليلتهم كلها.

ولما أصبح القوم أخذ القعقاع يحرض الناس ويقول : إن الدائرة بعد ساعة لمن بدأ القوم فاصبروا ساعة واحملوا عليهم فإن النصر مع الصبر ، فاجتمع إليه جماعة من الرؤساء وتحاضوا على الموت وحملوا فى من يليهم. فاقتتلوا أشد قتال إلى أن جاء الظهر ، وحينئذ بدأ الخلل فى صفوف الفرس فتأخروا وثارت عاصفة فألقت طيارة رستم فى العقيق وانتهى القعقاع إليها فلم يجده لأنه قام عن مكانه حين قلعت طيارته

إلى بغال كانت مهيأة فاستظل بحمل بغل منها وضرب هلال بن عُلَّفَة الحمل الذى تحته رستم وهو لا يدرى به فسقط عليه العدل وضربه هلال فلم يقتله فرمى بنفسه فى العقيق فأخذ هلال برجله فأخرجه وقتله ثم نادى : قتلت رستم ورب الكعبة. فأطاف به الناس وكبروا وانهزم قلب الفرس وتتابعت الهزيمة وغنم المسلمون راية الفرس وهى (درفش كابيان) ثم تتبع المسلمون المنهزمين حتى أجلوهم إلى ما ورء القنطرة. وليلة الهرير لم يمر بالمسلمين ليلة أشد منها هولا مع الفرس ولا غيرهم وقتل فيها من المسلمين نحو ثمانية آلاف ومن الفرس ثلاثون ألفاً.

قال الطبرى : فأما المقترنون فإنهم جشعوا فتهافتوا فى العقيق فوخزهم المسلمون برماحهم فما أفلت منهم مخبر وهم ثلاثون ألفا وكان الذى أخذ (درفش كابيان) ضرار بن الخطاب فعوض منها ثلاثين ألف درهم ، وكانت قيمتها ألف ألف ومائتى ألف. وقد قتل فى اليوم الذى تلا ليلة الهرير عشرة آلاف سوى من قتل فى الأيام قبله.

أما الأسلاب والغنائم في تلك الوقعة فلم يأخذ المسلمون غنيمة مثلها قبلها ولا بعدها. وقد كان سلب رستم سبعين ألف درهم. ولو وجدت قلنسوته لكان ثمنها مائه ألف درهم. وقد تعقب المسلمون المنهزمين فلم يكن بهم منعة ولا مدافعة ولا نجاء. وقد صمد للقتال بعد الهزيمة بضع وثلاثون كتيبة استحيوا من الفرار فعمد لكل كتيبة رئيس من رؤساء المسلمين فى جنده، فمن هذه الكتائب ما استؤصل ومنها ما هرب.

ما بعد الموقعة

بعد أن انتهت الموقعة كتب سعد إلى عمر : "أما بعد فإن الله نصرنا على أهل فارس ومنحهم سنن من قبلهم من أهل دينهم بعد قتال طويل وزلزال شديد ، وقد لقوا المسلمين بعُدّة لم ير الراءون مثل زهائها فلم ينفعهم الله بذلك بل سلبهموه ونقله عنهم إلى المسلمين ، واتبعهم المسلمون على الأنهار ، وعلى طفوف الآجام ، وفى الفجاج. وأصيب من المسلمين سعد بن عبيد القارىء وفلان وفلان ورجال من

المسلمين لا نعلمهم ، الله أعلم بهم ، كانوا يدوون بالقرآن إذا جن عليهم الليل دوى النحل وهم آساد الناس لا يشبههم الأسـود ، ولم يفضل من مضى منهم من بقى إلاّ بفضل الشهادة إذ لم تكتب له" .

كان عمر حـريصاً على تعرف أجناد المسلمين فى القادسـية وكان كل الناس فى شبه جـزيرة العرب يرونها الحـد الفاصل بين العرب والفـرس. ولا يرون أن الإسلام تقوم له قائمة وينتظم للأمة العربية حال إلا بالظفر فيها ، يشترك فى هذا الاعتقاد كل أهل الجزيرة من عدن أبين إلى أبلة إلى البحـرين إلى حدود الشام. حتى الرجل منهم إذا كان له عمل أحجـم عنه حتى يرى ما يكون من شأن حرب القادسـية فلا غرو إذا كان عمر مشغول القلب والبال بها.

كان يخرج كل يوم يتنسم الأخبار من حين يـصبح إلى انتصاف لنهار ثم يرجع إلى منزله. وبـينما هو بسـبيل ذلك ذات يوم لقى البـشير عـمر ، فسـأله من أين ؟ فأخبره. قـال يا عبد الله حدثنى. قال : هزم الله العـدو وعمر يخب معه ويسـتخبره والبشير يسيـر على ناقته ولا يعرفه حتى دخل المدينة. فإذا النـاس يسلمون عليه بإمرة المؤمنين. فقال الرجل هلا أخبرتنى رحمك الله أنـك أميرالمؤمنين ؟ وجعل عمر يقول : لاعليك يا أخى. فهكذا يكون أمراء المؤمنين والخلفاء الراشدون.

قرأ عـمر الكتـاب على الناس وقال : إنـى حريص على أن لا أدع حـاجة إلا سددتها ما اتسع بعضنا لبعض ، فإذا عجز ذلك عنا تآسينا فى عيشنا حتى نستوى فى الكفاف. ولوددت أنكم علمتم من نفسى مثـل الذى وقع فيها لكم. ولست معلمكم إلا بالعمل ، إنى والله ما أنا بمـلك فأستعبدكم ، وإنما أنا عبـدالله عرض على الأمانة فإن أبيتـها ورددتها عليكم واتبعتكـم حتى تشبعوا فى بيوتـكم وترووا سعدت وإن أنا حملتها واستتبعتها إلى بيـتى شقيت ففرحت قليلا وحزنت طويلا وبقيت لا أقال ولا أرد فاستعتب.

وكتب سعد إلـى عمر يقول. " إن أقواماً من أهل السـواد ادّعوا ولم يقم على عهد أهل الأيام لنا ولم يف به أحد علمناه إلا أهل بانقيا وبارسما وأهل أليس الآخرة

وادعى أهل السواد أن فارسا أكرموهم وحشروهم فلم يخالفوا إلينا ولم يذهبوا فى الأرض" ثم كتب كتابا آخر يقول فيه : "إن أهل السواد جلوا فجاءنا من أمسك بعهده ولم يجلب علينا فتممنا لهم ما كان بين المسلمين قبلنا وبينهم وزعموا أن أهل السواد قد لحقوا بالمدائن فأحدث إلينا فيمن تم وفيمن جلا وفيمن ادعى أنه استكره وحشر فهرب ولم يقاتل ، أو استسلم. فأنا فى أرض رغيبة والأرض خلاء من أهلها وعددنا قليل وقد كثر أهل صلحنا وإن أعمر لها وأوهن لعدونا تألفهم" .

فقام عمر فى الناس واستشارهم فيما طلبه سعد. فأجمعوا على أن الوفاء لمن أقام وكف ولم يزده كفه إلا خيراً. وإن من ادعى فصدق أو وفى فبمنزلتهم وإن من كذب نبذ إليهم وأعادوا صلحهم وأن يجعل أمر من جلا إليهم ، فإن شاءوا دعوهم وكانوا لهم ذمة وإن شاءوا تموا على منعهم من أرضهم ولم يعطوهم إلا القتال ، وأن يخيروا من أقام واستسلم الجزاء أو الجلاء. وكذلك الفلاحون. فكتب عمر جواب الكتاب الأول يقول : "أما بعد - فإن الله جل وعلا أنزل فى كل شىء رخصة فى بعض الحالات إلا فى أمرين : العدل فى السيرة والذكر. فأما الذكر فلا رخصة فى بعض الحالات ولم يرض منه إلا بالكثير. وأما الثانى العدل فلا رخصة فيه لقريب ولا بعيد ولا فى شدة ولا رخاء وإن رؤى ليناً فهو أقوى وأطفأ للجور وأقمع للباطل من الجور وإن رؤى شديداً فهو أنكش للكفر. فمن تم على عهده من أهل السواد ولم يعن عليكم بشىء فلهم الذمة وعليهم الجزية. وأما من ادعى أنه استكره ممن لم يخالفهم إليكم أو يذهب فى الأرض فلا تصدقوهم بما ادعوا من ذلك إلا أن تشاءوا فانبذ إليهم وأبلغوهم مأمنهم" .

وكتب إليه جواب الكتاب الثانى :

"أما من أقام ولم يجل وليس لهم عهد فلهم ما لأهل العهد بمقامهم لكم وكفهم عنكم إجابة عدوكم. وكذلك الفلاحون إذا فعلوا ذلك. وكل من ادعى وصدق فلهم الذمة وإن كذبوا نبذ إليهم. وأما من أعان رجلا فذلك أمر جعله الله

لكم فإن شئتم فادعوهم إلى أن يقيموا لكم فى أرضهم ولهم الذمة وعليهم الجزية وإن كرهوا ذلك فأقسموا ما أفاء الله عليكم منهم" .

وهنا أقول لسنا فى حاجة إلى بيان ما تضمنته الكتب وأجوبتها من الأمور الإدارية والنظام البديع وطرق الاستعمار. وإنما العجب أن يصدر عن قوم لا عهد لهم بهذه الأمور ، وإنما يصل إليها الناس بعد الدرس والبحث والتجارب الطويلة" .

فلما عادت كتب عمر عرضوا على من يليهم ممن جلا وتنحى عن السواد أن يتراجعوا ولهم الذمة وعليهم الجزية فتراجعوا وصاروا ذمة كمن تم ولزم خراجهم أثقل. وأنزلوا من ادعى الاستكراه وهرب منزلتهم وعقدوا لهم. وأنزلوا من أقام منزلة ذى العهد. وكذلك الفلاحون. ولم يدخلوا فى الصلح ما كان لآل كسرى ولا ما كان لمن خرج معهم ولم يجبهم إلا إلى واحدة من اثنتين : الإسلام أو الجزاء فصارت فيئاً لمن أفاء الله عليه فهى والصوافى الأولى ملك لمن أفاء الله عليه وسائر السواد ذمة. وأخذوهم بخراج كسرى. وكان على رؤوس الرجال على ما فى أيديهم من الحصة والأموال.

ولم تتأت قسمة ما كان لآل كسرى ومن أقام معهم لأنه كان متفرقاً فى السواد فكان يليه لأهل الفىء من وثقوا به وتراضوا عليه.

ما بعد القادسية

أقام سعد بالقادسية شهرين بعد انتهاء الموقعة. وذلك أمر طبيعى بعد موقعة قاسى فيها الجيش شدائد عظاماً وأهوالاً جساماً واصطلى بنارها جميع الجيش ، فكانوا بعد ذلك كله فى حاجة إلى الجمام والراحة. ولو كان عند سعد جيوش احتياطية لم تشهد الحرب ولم تكتو بنارها لكان فى حكم الحزم أن يرمى الفرس بها قبل أن يأخذوا راحتهم ويدبروا أمرهم ، لأن المعالجة فى مثل هذه الحال حزامة - ولكن القوم كانوا على ما علمنا من قلة عدد وقد قاتلوا عدواً يفوقهم أضعافاً وقد نالوا منه ونال

منهم. فلابد أن يكونوا فى حاجة إلى الراحة والمدد - ومع هذا فما كان احتياج القوم إلى الراحة ليحبسهم شهرين فى القادسية. بل كان أكثر ما لبثهم تطهير النواحى التى غلبوا عليها من الأعداء حتى لا يتركوا وراءهم عورة يخافونها وأن ينتهوا مع من دانوا لهم بالطاعة على حال وأن يستأمروا عمر فى شأنهم وفى الوجه الذى يريد أن يرميهم به والعمل بما ينبغى.

أمر عمر رضى الله عنه سعداً أن يؤم المدائن وعهد إليه أن يخلف النساء والعيال بالعقيق ويجعل معهم كثقاً من الجند وأن يشركهم في كل مغنم ما داموا يخلفون المسلمين فى عيالاتهم - فقدم زهرة بن الحوية إلى اللسان الذى أدلعه البر فى الريف وعليه الكوفة اليوم والحيرة قبل اليوم وكان النخير جان معسكراً به فأرفض ولم يثبت فلحق بأصحابه.

برس

وبعد تقديم زهرة إلى اللسان أتبعه بعبد الله بن المعتم ، ثم شرحبيل بن السمط ثم هشام بن عتبة وقد ولاه عمل خالد بن عرفطة وجعل خالداً على الساقة ثم أتبعهم وكل المسلمين فارس مؤد[1] قد نقل الله إليهم ماكان فى عسكر فارس من سلاح وكراع ومال وكان ارتحاله لأيام بقين من شوال فلما وصلت مقدمة المسلمين (بُرْس) لقيهم جمع من الفرس بصُبْهُرى. فلم يكن بين الفريقين كبير قتال حتى انهزموا إلى بابل ، وبها فل القادسية وجميع رؤساء الفرس كالنخيرجان ومهرجان ومهران الرازى والهرمزان وأشباههم وعليهم الفيرزان. ولما رأى بسطام دهقان برس أن المسلمين قادمون على بلاده وقد هزموا من بإزاء بلده من الفرس بعد أن هزموا عسكرهم الأكبر بالقادسية وقتلوا قائدهم الأعظم وعلم أن بلده حاصل فى قبضتهم وخاف معرة دخولهم عليه عنوة وخشى أن يعتريه أحد منهم بسوء بادر إلى زهرة فاعتقد منه ذمة وعقد له الجسور وأتاه بخبر الذين اجتمعوا ببابل لموافقة المسلمين.

---

(١) المؤدى هو التام عدة الحرب القوى.

يوم بابل - وكوثى

فلما علم زهرة بما أنبأه به بسطام كتب إلى سعد يعلمه بما أجمع عليه الفرس وما أعدوا له. وقد قال الفرس فيما بينهم : نقاتلهم دستا (طابقا) قبل أن نتفرق وذلك ليبلوا عذرا أمام الأمة حتى لا يقال إنهم تفرقوا وتشتت جمعهم وهم في عدة تفوق المسلمين تمكنهم من أن يواقفوهم فخلوا بينهم وبين البلاد جبنا وهلعا - ومعلوم أن جيشاً يقاتل على مثل هذه النية لا يكون مآله سوى الهزيمة ولا تغنيه كثرة العدد شيئاً لأن توطيد الجند العزيمة على النصر وانفساح الآمال بالفوز أمامهم وعظم الثقة بالنصر مدد لا يعادله مدد. وأما ضد ذلك إذا جال فى رؤوس القواد والجنود فهو هزيمة معجلة وخذلان تسلفوه.

التقى الجمعان ببابل بعد أن زجى سعد الجيوش إليها وفى رؤوس الفرس ما بينا والمسلمون كما قد علمنا وأفكارهم ما بينوه ليزدجرد ورستم ورؤساء فارس فلم يكن إلا كلفت الرداء حتى انهزم الفرس ، ثم لم يكن لهم هم سوى الافتراق. فخرج الهرمزان إلى ناحية الأهواز فأخذها وأكلها ومهرجان قذق وخرج الفيرزان حتى نزل على نهاوند وبها كنوز كسرى فاحتواها وأكل الماهين وولى النخيرجان ومهران الرازى وجهيهما شطر المدائن حتى عبرا (بَهُرَسير) إلى جانب دجلة الآخر ثم قطعا الجسر.

أقام سعد أياما ببابل وبلغه أن النخيرجان ومهران قد خلفا شهريار دهقان كوثى لقتال المسلمين في جمع من الجنود. فقدم سعد إليه الجيوش. فالتقى أوائل جموع المسلمين بجنود شهريار فلم يلبثهم أن طلب البراز وقال : "ألا رجل" ألا فارس منكم شديد عظيم يخرج إلى حتى أنكل به ؟ فأخرج له زهرة أبا نباتة بن نائل بن جعشم الأعرجى فخرج إليه. وكلاهما وثيق الخلق إلا أن شهريار مثل الجمل فلما تلاقيا تجالدا ثم تعانقا. فصرع شهريار أبا نباتة وأراد أن يحتز رأسه بخنجره فوقعت إبهام الفارسى فى شدق أبى نباتة فلاكها فاسترخى الفارسى وفتر فانقلب عليه واحتز رأسه واستلبه وأخذ برذونه. وكان يلبس ملابسه ويتحلى بحلاه ويلبس أساوره عند

الحرب ، وهو أول مسلم تزيا بذلك الزى بأمر من سعد بن أبى وقاص.

بهر سير

بهرسير إحدى المدائن السبع التى سميت بها المدائن وهى فى غدوة دجلة الغربية تجاه إيوان كسرى ولم يبق من المدائن سواها إلى عهد صاحب معجم البلدان.

قَدّم سعد زهرة من كوثى إلى بهرسير. فتلقاه شيرزاد بساباط بالصلح وتأدية الجزاء فأرسله إلى سعد حتى قدم معه. ثم سار زهرة حتى أتى إلى المظلم وكان به كتيبة لكسرى تسمى بوران ولعلها بمنزلة ما يسمونه الحرس الملوكى - وكان أهل هذه الكتيبة مدلين بأنفسهم ويقسمون بأن ملك فارس لا يزول ما عشنا ، يفعلون ذلك كل يوم - فلقيهم زهرة بجنوده ففلهم. ثم جاء هاشم بن عتبة بن أبى وقاص إلى المظلم ووقف حتى لحق به سعد ووافق ذلك رجوع (المقرط) وهو أسد كان لكسرى قد ألفه وتخيره من أسود مظلم ساباط فبادر المقرط الناس حتى انتهى فخرج إليه هاشم فقتله بسيفه. وقبل سعد رأس هاشم. فقبل هاشم قدم عمه سعد ولما جاء إلى المظلم قرأ **﴿أولم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال﴾** ، وقدم سعد على بهر سير - وكلما قدمت خيل من خيول الإسلام إليها كبروا إلى أن تنام الجند وكان ذلك فى السنة الخامسة عشرة.

أقام سعد على بهرسير شهرين يحاصرها ويرميها بالمجانيق ويدب إليها بالدبابات ويقاتلونهم بكل عدة. وكان الفرس البادئين بالرمى بالمجانيق والعرادات فاستصنعها سعد وأقام عليها عشرين منجنيقاً فشغلهم بها - ولما طال الأمد على الفرس خرجوا فى رجاله وناشبه وتجردوا للعرب وتبايعوا على الصبر فقاتلتهم المسلمون فلم يثبتوا لهم.

ولما رأى الفرس أن البقاء فى هذه المدينة لا يستقيم تركوها ودخلها المسلمون فلم يجدوا فيهاغير نفر قليل وقعوا أسرى فى أيديهم - وفى مقام سعد على بهرسير.

أرسل سراياه فأغارت فى سواد الفرات فأتت بناس من الفلاحين لا عهد لهم ولا ذمة. فكانوا مائة ألف فقال شيرزاد : إن هؤلاء علوج لأهل فارس لم يحرضوا عليكم فاتركوهم حتى يفرق لكم الرأى. فتركهم سعد بعد أن كتب عليه أسماءهم ثم كتب إلى عمر يقول : "إنا وردنا بهرسير بعد الذى لقينا فيما بين القادسية وبهرسير فلم يأتنا أحد لقتال فبثثت الخيول فجمعت الفلاحين من القرى والآجام فما رأيك" فأجابه "إن من أتاكم من الفلاحين إذا كانوا مقيمين لم يعينوا عليكم فهو أمانهم. ومن هرب فأدركتموه فشأنكم به" فلما ورد كتاب عمر خلى سعد عن أولئك الفلاحين فلم يطلبهم ، ودعاهم إلى الإسلام والرجوع أو الجزاء ولهم الذمة والمنعة فتراجعوا عن الجزية والمنعة فلم يبق فى غربى دجلة إلى أرض العرب سوادى إلا آمن واغتبط بملك الإسلام واستقبلوا الخراج.

المدائن القصوى

ولما دخل سعد بهرسير وكان ذلك فى شهر صفر سنة ١٦ طلب السفن ليعبر عليها من عدوة دجلة الشرقية فلم يجد سفيناً يجيز الناس عليهن فبقى على ذلك أياماً من صفر فجاء بعض أهل فارس ودلهم على مخاضة فخشى سعد ذلك ثم بدا له أن يجيز بهم فى دجلة وقد جاء المدد. فقام فى الناس فقال : "إن عدوكم قد اعتصم منكم بهذا البحر فلا تخلصون إليهم معه وهم يخلصون إليكم إذا شاءوا فينا وشونكم فى سفنهم وليس وراءكم شىء تخافون أن تؤتوا منه فقد كفاكم أهل الأيام وعطلوا ثغورهم وأفنوا ذادتهم. وقد رأيت من الرأى أن تبادروا جهاد العدو بنياتكم قبل أن تحصركم الدنيا. إلا أنى قد عزمت على قطع هذا البحر إليهم. فقالوا جميعاً : عزم الله لنا ولك على الرشد. ثم انتدب الناس ليحموا الفراض حتى يعبر الناس ويتلاحقوا حتى لا يمنعهم الفرس العبور فانتدب أنجاد الناس وأولهم عاصم بن عمرو ذو البأس وانتدب معه ستمائة من أهل النجدات فجعل عاصماً عليهم فصار بهم عاصم وانتدب منهم ستون ليكونوا أولين. فاقتحموا دجلة بخيلهم ورآهم الفرس فاقحموا خيلهم

دجلة ليلاقوهم ويمنعوهم فلقوا عاصماً فى السرعان فصاح عاصم : الرماح الرماح ، اشرعوهـا وتوخوا العيون. فـطعنوهم فى أعينهم فـمن لم يقتل منهم صـاروا عورانا فسـاحلوا بخيلهم فلم تـصل إلى الشاطىء حتى ولـت مدبرة وملك الستـون الفراض وتلاحق سائر الستمائة ثم اقتـحم المسلمون دجلة حـتى صاروا بالعدوة الشرقـية مع الفرس. والذى يظهر أن الفرس باحتوائهم السـفن كانوا آمنين أن يعبر إليهم المسلمون فى زمن قـريب. وأن ذلك لا يكون إلا بعـد أن يحصلوا علـى سفن يجـيزون فيـها إليـهم، فلم يكـن بالقوم اسـتعـداد للقـائهم فى ذلـك الحين ولا على تلك الحـال. فأجهضهم المسلمـون وأعجلوهم عن جمهور أموالهم واقتحمـوا عليهم مدينتهم على هذا الوجه واستولوا على كل ما بقى فى بيت كسرى من الأموال.

وقد قال الطبرى : فـيما هيج سعداً على دعاء الناس لعـبور دجلة - إن علجا فارسياً أتى سعداً فقال ما يقيمك ؟ لا يأتى عليك ثالثة حتى يذهب يزدجرد بكل شىء فى المدائن.

والذى يفهم من ذلك أن سـعداً كان على ثقة من أن القوم قد يئـسوا من المقام فى المدائن وأن حاميتهم لاتصلح للمقاومة ، وإلا كان عمله مخاطرة لا تصح من قائد حريص ولا تلتئم مع تحذير عمر له ذلك التحذير الذى علمناه.

كان يزدجرد قد أحس سوء الحال فرحل عياله إلى حلوان حين فتحت بهرسير. ولما علم بعـبور المسلمين خف حتـى لحق بعياله وخلف مـهران الرازى والنخيـرجان وخرجوا معهم بما قدروا عليه من حر متاعـهم وخفيفه وما قدروا على استخلاصه من بيت المال والنسـاء والذرارى وتركوا فى الخـزائن من الثيـاب والمتاع والآنية والفـضول والألطاف والأدهان شيئـاً لا تعلم قيمته لكثـرته وغادروا ما أعدوا للحصـار من البقر والغنم والأطعمة والأشربة. وكانت كتيبة الأهوال أول داخل المدينة وهى كتيبة عاصم ابن عمرو ثم الخـرساء ، وهى كتيبة القـعقاع بن عمرو وحمـال بن مالك والربيل بن عمـرو - فأخذوا فـى سككها لا يجـدون أحداً إلا من كان بـالقصر الأبـيض. وقد

استجابوا على الذمة وقد نزل سعد القصر الأبيض. وصلى فيه صلاة الفتح وجعله مسجداً ودخله وهو يقول : **﴿كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين كذلك وأورثناها قوماً آخرين فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين﴾**.

فى مثل هذا الدخول الفجائى الذي دخل به المسلمون مدائن كسرى ، وبخاصة إذا كان بحالة غريبة ، يستولى الفزع على الأفئدة وتجيش النفوس إلى الفرار ومفارقة الديار. ولكن كثيراً ممن يستولى على نفوسهم الهلع ويجلون عن أوطانهم لا يذهبون بعيداً عنه حتى تضيق الدنيا فى وجوههم وتحرج صدورهم وتعمى عليهم السبل ثم تنازعهم نفوسهم إلى مألفهم القديم ثم لا يلبثون أن يعودوا ، ولا سيما إذا عرفوا أن من ملأ الخوف قلوبهم منه وظنوه فتاكاً لا يأخذ الناس بعنف ولا يسوسهم بعسف ، بل يبسط المعدلة ويتوخى حسن السيرة. فإنهم حينئذ يعودون إلى وطنهم ويثوب إليهم رشدهم. كذلك كان حال أهل المدائن فإنهم تراجعوا إلى مدينتهم ودخلوا فى ذمة المسلمين إلا من كان من آل كسرى ومن معهم.

ثم جمع سعد ما وجد فى خزائن كسرى من الأموال والغنائم فكان شيئاً كثيراً فخمسه وقسم أربعة الأخماس على المقاتلين ، فكان نصيب الفارس اثنى عشر ألف درهم. وهو شيء لم يكن أحد من العرب يظن أن يراه فى منامه. وكان كل المسلمين فرساناً وبعضهم معه النجائب. ثم قسم سعد دور المدائن على الناس وأنزلهم بها ثم جمع الخمس وأدخل فيه كل شيء أراد أن يعجب منه عمر من ثياب كسرى وحليه وسيفه وماكان يعجب العرب أن يقع إليهم وكان فى ما أرسله إلى عمر أيضاً بساط ذرعه ستون ذراعاً فى مثلها فيه طرق كالصور وفصوص كالأنهار وخلال ذلك كالدير وفى حافاته كالأرض المزروعه والأرض المبقلة بالنبات فى الربيع من الحرير على قضبان الذهب. وقواره بالذهب والفضة وأشباه ذلك - فلما قسم سعد الفيء فى العسكر فضل هذا البساط عنهم ولم تستقم قسمته. فجمع سعد المسلمين فقال : "إن

الله قد ملأ أيديكم وقد عسر قسم هذا البساط ولا يقوى أحد على شرائه ، فأري أن تطيبوا به نفساً لأمير المؤمنين يضعه حيث شاء. ففعلوا. فلما قدم البساط على عمر بالمدينة جمع الناس واستشارهم. فمن مشير بقبضه وآخر مفوض إليه وآخر مرقق. فقام على حين رأى عمر يأبى حتى انتهى إليه فقال : لم تجعل علمك جهلا ويقينك شكا ؟ إنه ليس لك من الدنيا إلا ما أعطيت فأمضيت أو لبست فأبليت أو أكلت فأفنيت. قال : صدقتنى ، فقطعه وفرقه فى الناس - وفى رواية أخرى أنه قال له : يا أمير المؤمنين الأمر كما قالوا ولم يبق إلا التروية. إنك إن تقبله على هذا اليوم لم نعدم في غد من يستحق به ما ليس له. فقال : صدقتنى. وقد أصاب علياً قطعة منه فباعها بعشرين ألفاً وما هى بأجود تلك القطع(١).

ونوى سعد الإقامة بالمدائن وصلى فيها صلاة المقيم وأول جمعة صليت فى العراق كانت بالمدائن فى صفر سنة ١٦ هـ. ثم بث السرايا تغير فيما حول المدائن فى الوجوه كلها. وصدر الأمر من عمر بولاية سعد بن أبى وقاص صلاة ما غلب عليه وحربه وولى النعمان وسويد بن عمرو الخراج أولهما على ما سقت دجلة وثانيهما على ما سقى الفرات. ولما جىء إلى عمر بتلك الأخماس من الغنيمة وفيها زينة كسرى وتاجه وحلاه وأزياؤه التى كان يلبسها للمباهات وبساطه ، أكثر الناس الكلام فى فضل أهل القادسية وحق لهم أن يكثروا ، قال عمر : أولئك أعيان العرب وغررها اجتمع لهم مع الأخطار الذين. هم أهل الأيام وأهل القوادس.

يقول ابن الأثير : كان فى بيت المال ثلاثة آلاف ألف ألف ألف ثلاث مرات أخذ منها رستم عند سيره إلى القادسية النصف وبقى النصف.

والذى أراه أن هذا المقدار يزيد على عشرات المقدار الذى كان موجوداً لأنه يقتضى أن يكون فى خزائن كسرى ثلاثة آلاف بليون وهو مقدار لا يمكن أن يتفق مثله

---

(١) لم يكن من شأن العرب الاحتفاظ بمثل هذه الذخائر. ولو أنهم من أهل هذا العصر المقدرين للآثار والنفائس قدرها لاحتفظوا به على الدهر.

لدولة فى ذلك العهد مهما كان عمرانها مستبحراً وخراجها وافراً.

وما لنا وللكلام ؟ لابد أن نرجع إلى الأرقام فإنها لا تكذب.

قال ابن الأثير نفسه : إن سهم الفارس بلغ فى المدائن اثنى عشر ألف درهم وكان المسلمون جميعاً فرساناً ، فإذا فرضنا أن المسلمين كان عددهم فى ذلك اليوم هو عددهم يوم القادسية بزيادة الربع كان عدد المسلمين الذين كان لهم حظ من غنيمة المدائن ستين ألفاً.

فعلى ذلك يكون عدد النقود التى قسمت على الغانمين ٧٢٠ مليوناً.

فإذا أضيف إلى ذلك الخمس (١٨٠ مليوناً) كان مجموع ذلك ٩٠٠ مليون.

وإذا كان رستم أخذ مقداراً مساوياً له كان ما فى الخزائن من قبل ١٨٠٠ مليون. وبعبارة أخرى بليوناً واحداً وثمانمائه مليون. فأين هذا من ثلاثة ترليونات وهو يزيد عما أدى إليه الحساب مع التساهل ترليونان وثمانية وتسعون بليونا ومائتا مليون.

ماجمع من غنائم أهل المدائن وقسمتها

كان سعد قد جعل على الأقباض عمرو بن عمرو بن مقرن وعلى القسمة سليمان بن ربيعة الباهلى فجمع ما فى القصر والإيوان والدور وأحصى ما يأتيه به الطلب وكان أهل المدائن قد نهبوها عند الهزيمة وهربوا فى كل وجه ، فما أفلت منهم أحد بشىء إلا أدركهم الطلب فأخذوا ما معهم. ورأوا بالمدائن قباباً تركية مملوءة سلالا مختومة برصاص فحسبوه طعاماً فإذا فيها آنية الذهب والفضة وكان الرجل يطوف ليبيع الذهب بالفضة متماثلين ورأوا كافوراً كثيراً فحسبوه ملحاً فعجنوا به فوجوده مراً وأدرك الطلب مع زهرة جماعة من الفرس على جسر النهروان فازدحموا عليه فوقع منهم بغل فى الماء فعجلوا وأكبوا عليه فقال بعض المسلمين. إن لهذا البغل لشأناً فجالدهم المسلمون عليه حتى أخذوه وفيه حلية كسرى : ثيابه وخرزاته ووشاحه ودرعه التى فيها الجوهر وكان يجلس فيها للمباهاة ولحق الكلخ بغلين معهما فارسّيان

فقتلهما وأخذ البغلين فأبلغهما صاحب الأقباض وهو يكتب ما يأتيه به الرجال فقال له : قف حتى ننظر ما معك فحط عنهما فإذا سفطان فيهما تاج كسرى مرصعاً وكان لا يحمله إلا الاسطوانيان وفيه الجوهر وعلى البغل الأخر سفطان فيهما ثياب كسرى التى كان يلبس من الديباج المنسوج بالذهب المنظوم بالجوهر وغير الديباج منسوجا منظوما وأدرك القعقاع بن عمرو فارسياً وأخذ منه عيبتين فى إحداهما خمسة أسياف وفى الأخرى ستة أسياف وأدرع منها درع كسرى ومغافره ، ودرع هرقل ودرع خاقان ملك الترك ودرع داهر ملك الهند ودرع بهرام جوبين ودرع سياوخش ودرع النعمان استلبها الفرس أيام غزاهم خاقان وهرقل وداهر.

وأما النعمان وجوبين فحين هربا من كسرى - والسيوف من سيوف كسرى وهرمز وقباذ وفيروز وهرقل وداهر وبهرام وسياوخش والنعمان فأحضر القعقاع الجميع عند سعد فخيره بين الأسياف فاختار سيف هرقل وأعطاه درع بهرام ونفل سائرها فى الخرساء إلا سيف كسرى والنعمان بعث بهما إلى عمر بن الخطاب لتسمع العرب بذلك. حسبوها فى الأخماس وبعثوا بتاج كسرى وحليته وثيابه إلى عمر ليراه المسلمون وأدرك عصمة بن خالد الضبى رجلين معهما حماران فقتل أحدهما وهرب الآخر فأخذ الحمارين فأتى بهما صاحب الأقباض فإذا على أحدهما سفطان فى أحدهما فرس من ذهب بسرج من فضة وعلى ثفره ولباته الياقوت والزمرد المنظوم على الفضة ولجام كذلك وفارس من فضة مكلل بالجوهر. وفى الآخر ناقة من فضة عليها شليل من ذهب وبطان من ذهب ولها زمام من ذهب وكل ذلك منظوم بالياقوت، وعليها رجل من ذهب مكلل بالجواهر. وكان كسرى يضعها على اسطوانتى التاج.

وأقبل رجل بحق إلى صاحب الأقباض فقال هو والذى معه ما رأينا مثل هذا ما يعدله ما عندنا ولا يقاربه. فقالوا : هل أخذت منه شيئاً ؟ فقال : والله لولا الله ما أتيتكم به. فقالوا : من أنت ؟ فقال : والله لا أخبركم فتحمدونى ولكنى أحمد الله وأرضى بثوابه فأتبعوه رجلا فسأل عنه فإذا هو عامر بن عبد قيس. وقال سعد : والله

إن الجيش لذو أمانة ولولا ما سبق لأهل بدر لقلت إنهم على فضل أهل بدر. لقد تبعت منهم هناة ما أحسبها من هؤلاء.

قال جابر بن عبد الله : والذى لا إله إلا هو ما اطلعنا على أحد من أهل القادسية أنه يريد الدنيا مع الآخرة فلقد اتهمنا ثلاثة نفر فما رأينا كأمانتهم وزهدهم وهم طليحة وعمرو بن معد يكرب وقيس بن المكشوح.

وقال عمر لما قدم عليه بسيف كسرى ومنطقته وبزبرجده : إن قوماً أدوا هذا لذوو أمانة. فقال على. إنك عففت فعفت الرعية. لما جمعت الغنائم قسم سعد الفىء بين الناس بعد ما قسمه وكانوا ستين ألفاً فأصاب الفارس اثنى عشر ألفاً وكلهم كان فارساً ليس فيهم راجل.

وقعة جلولاء

قال ياقوت : طُسُّوجٌ من طساسيج السواد فى طريق خراسان بينها وبين خانقين سبعة فراسخ ، ثم حكاه بالقصر والمد فى قول القعقاع :

ونحن قتلنا فى جلولا أثابراً — ومهران إذ عزت عليه المذاهب

ويوم جلولاء الوقيعة أفنيت — بنو فارس لما حوتها الكتائب

وسبب هذه الوقعة أن الفرس لما انتهوا إلى جلولاء فى هربهم من المدائن إلى هذا الموضع وافترقت الطرق بأهل أذربيجان والباب وأهل الجبال وفارس - ويظهر أن جمهور جيش الفرس كان مجتمعاً من هذه الأقاليم - فقال رؤوس القوم : إنا إذا افترقنا لم نجتمع أبداً وهذا مكان يفرق بيننا. فهلموا فلنجتمع للعرب ولنقاتلهم ، فإن كان الظفر لنا فذاك الذى نحب ، وإن كانت الأخرى نكون قد قضينا الذى علينا.

ويظهر أن القوم فى هذه المرة كانوا قد وطنوا أنفسهم على الاستماتة فى القتال وصدق الحملة فاجتمعوا تحت إمرة مهران الرازى واحتفروا خندقاً حول حصنهم وأحاطوه بحسك الخشب أول أمرهم ثم استبدلوا به حسك الحديد إلا طرقهم. وعلم

سعد بأمرهم فاستأمر عمر فأمـره ، أن يسرح إليهم هاشم بن عتبة فى اثنى عشر ألفاً وأن يجعـل على مقدمـته القـعقاع بن عـمرو. فسـار هاشم في جيـشه وفيـه وجوه المهاجرين والأنصار وأعلام العرب ممن كان ارتد وممن ثبتوا على إسلامهم إلى أن نزل على الفرس بمكانهم هذا.

كاتب الفرس كسـرى يزدجرد وهو بحلوان يعلمونه بأمرهم الذى أجـمعوا عليه فأمدهم بالأموال والرجال وجعل يستنفر الفرس فيما يليه وكلما اجتمع إليه جند بعثهم إليهـم مدداً. وقد عـزم الفرس على المـطاولة لا يخرجـون إلى القتـال إلّا إذا شاءوا والمسلمون محيطون بحصنهم فزاحفهم المسلمون ثمانين زحفاً وهم فى كل مرة ينالون من الفرس. وأمـد سعد المسلمين فلمـا رأى الفرس أن الأمداد متـواصلة إلى عدوهم خافوا أن يصـير المسلمون إلى حال قوة يـضعف الفرس عن منازلتهم مـعها وذلك أن الفرس كانوا أكثر من مـحاصريهم أضعافاً كثيرة وازدياد المـدد على المسلمين يغير من تلك الحال فاعتزموا على القتال وتـقاسموا بالنار على أن لا يفروا وجعلوا في الخندق من ناحيـتهم طرقاً لخيلهـم فأفسدوا بذلك حـصنهم ثم خرجوا للقـتال فاقتتـلوا قتالا شديداً لم يقاتلوا المسـلمين مثله فى موطن من المواطن حتى أنفدوا مـا معهم من نبل ونشاب واطعنوا بـالرماح حتى تقصفـت ثم صاروا إلى السيوف والطبـرزينات فكانوا على هذه الحال صـدر نهارهم إلى الظهـر ، وصلى المسلمون إيماء وقد كـل المسلمون وبلغ التعب بهم أشده. فـجاء القعقاع بن عمرو إلى الـناس فقال : "أهالتكم هذه ؟ قالوا : نعم ، نحن كالون وهم مريحون والكال يـخاف العجز إلا أن يعقب. فقال : إنا حاملون عليهم ومجادوهم وغير كافـين عنهم حتى يفتح الله بيننا وبينهم. فاحملوا حملة رجل واحد حتى تـخالطوهم ولا تكذبن. ثم حمل وحملوا معه فـانفرجوا فما ذب أحد عن باب الخندق وألبسهم الليل سواده فأخذوا يمنة ويسره وجاء إلى المسلمين أمداد فيهم طليحة وقيس بن المكشوح وعمرو بن معد يكرب وحجر بن عدى فوافقوا

القوم وقد تحاجزوا لما أجنهم الليل ، غير أن القعقاع لم يكف بل أمر مناديه أن يقول يا معشر المسلمين هذا أميركم قد دخل الخندق. وقصد أن يقويهم بذلك فحملوا لا يشكون أن هاشما فى الخندق فإذا هم بالقعقاع قد أخذ به وانهزم الفرس يمنة ويسرة فوقعت خيلهم فيما أعدوا من الحسك فعقرت وصاروا رجالة. واتبعهم المسلمون فلم يفلت منهم إلا عدد يسير وذهب جمع الفرس طعمة للسيف وصاروا مصرعين فى المجالات وتلك النواحى حتى تجللت الأرض بهم.

وصار القعقاع فى طلب الفالّة حتى وصل إلى خانقين وقتل بها مهران ثم أخذ ناحية حلوان فى جيش من الأفناء والحمراء. فوجد الملك يزدجرد قد أجفل منها إلى الرى عندما بلغه خبر الهزيمة بجلولاء فنزل القعقاع بحلوان وكانت هذه الوقعة فى ذى القعدة سنة ١٦ هـ. ولم يلق القعقاع كبير قتال دون حلوان وبقى بها إلى أن تحول سعد إلى الكوفة أما غنائم جلولاء ، وما سباه المسلمون من النساء والذرية فكان شيئاً يخرج عن الوصف فكانت سهام المقاتلة تسعة آلاف وتسع دوابّ وفى رواية اثنى عشر ألفاً. وأما السبى فكان شيئاً كثيراً من أحرار فارس حتى أن عمر استعاذ بالله من ذرية سبى جلولاء.

ولما ذهب الخمس إلى عمر كان على حسابه زياد بن أبيه. فقص على عمر أخبار الوقعة وما كان فيها من الأهوال وما فتح الله على المسلمين. فقال له عمر : هل تستطيع أن تقوم فى الناس بمثل ما كلمتنى به ؟ فقال : والله ما على وجه الأرض شخص أهيب فى صدرى منك فكيف لا أقوى على هذا من غيرك ؟ فقام زياد فى الناس وقص عليهم ما فتح الله عليهم وما كان منهم فى حربهم وما صنعوا وما يستأذنون فيه من الانسياح فى بلاد عدوهم فأحسن فى ذلك ما شاء الله أن يحسن. فقال عمر : هذا الخطيب المصقع. فقال زياد : "إن جندنا أطلقوا بالفعال لساننا" وكان زياد شاباً حدثاً فى ذلك الوقت.

ثم كتب عـمر إلى سعد بإقـرار الفلاحين على حالـهم إلا من حارب أو هرب منك إلى عدوك فأدركته وأجر لهم ما أجريت للفلاحين من قبلهم وإذا كتبت إليك فى قوم فأحروا أمثالهم مجراهم. ثم كتب إليـه سعد فى غير الفلاحين. فكتب إليه "أما من سوى الفلاحين فـذلك إليكم ما لم تغنموه - يعنى قسمـته - ومن ترك أرضه من أهل الحرب فـخلاها فـهى لكم فإن دعـوتموهم وقبلتـم منهم الجزاء ورددتموهـم قبل قسمتها فذمة ، وإن لم تدعوهم ففىء لكم لمن أفاء الله ذلك عليه.

فتح تكريت

علم سعد أن الفرس قـد جمعوا جموعا بتكريت اجتمـعوا من الموصل. فسرح إليهم عـبد الله بن المعتم فى جـيش قوامه خمـسة آلاف. فسار أربعا حتى نزل على تكريت وفيها جموع الفرس ومعهم جموع من الروم وإياد وتغلب والنمر وقد خندقوا بها فحصرهم بهـا أربعين يوماً وقد تزاحفوا أربعة وعشرين زحـفا وكانوا أهون شوكة وأخف أمراً مـن أهل جلولاء. ولما أحس الروم أنهم لا يـخرجون مـرة إلا نال منهم المسلمون تركـوا أمراءهم ونقلوا أمتعـتهم إلى السفن ورأى العرب الذيـن معهم ذلك وعلموا أن الـقوم منفض جمـعهم عنهم وأنهـم لا يقوون على المسلمـين بعد ذلك ، فجاءت الـعيون من أياد والنمـر إلى عبد الله بن المعتـم بالخبر وسألوه السـلم للعرب فدعـاهم إلى الإسلام فـاستجـابوا له سراً واتـفق معهـم على أن يأخذوا علـى القوم الأبواب من ناحيـة النهر إذا أخذها بجنده من ناحيـة البر. ففعلوا ونهـد المسلمون لما يليهم وكبروا عـلامة ما بينهم وبين مسلمة ليلتهم فـأخذ جنود الفرس والروم من كل ناحية ولم ينج إلا من أسلم فى تلك الليلة من العرب.

ولم يلبث عبد الله بن المعتم أن أرسل إلى الحصـنين قوة ممن معه عليها الأفكل العنزى إلى الحصنين وبهما جموع من فـارس. وقال له : اسبق الأخبار وسر ما دون القِيْل أحْـيِ الليل. وسرح معـه من كان من الفـرس بتكريت من إياد والنمـر وتغلب فقدمهم وعليهم عتبة بن الوعل وغيـره من أمرائهم فادعى عتبة بالظفر والنفل والقفل

ثم جاء من بعده من أمرائه حتى أخذوا الأبواب وأقبلت سرعان الخيل مع ربعى بن الأفكل فاقتحموا الحصنين فأجاب من استجاب وهرب من لم يستجب ثم عاد القوم وتراجع الهراب واغتبط المقيم وصاروا جميعا ذمة ولهم المنعة.

ما سبذان

ما سبذان عن يمين حلوان إلى همذان.

وأرسل سعد بن أبى وقاص فصيلة أخرى من المدائن يقودها ضرار بن الخطاب لفتح ماسبذان. وذلك أنه قد بلغ سعداً أن أذين بن الهرمزان قد جمع جمعاً فخرج بهم إلى السهل فأرسل إليه ذلك الجيش فالتقى ضرار بن الخطاب بمن معه بالفرس فأخذ أذين وضرب عنقه وشتت شمل جيشه وأثخن فيهم القتل ثم خرج فى طلب الفالة حتى انتهى إلى سيروان فأخذت ما سبذان عنوة فتطاير أهلها فى الجبال ثم عادوا وصاروا ذمة للمسلمين وعليهم الجزاء.

قرقيسيا

بلدة على نهر الخابور وهو يصب فى الفرات ، فهى بين الخابور والفرات.

كان سبب هذه الغزوة أنه لما رجع هاشم بن عتبة عن جلولاء اجتمعت جموع أهل الجزيرة فأمدوا هرقل بجند يساعدونه على أهل حمص وبعثوا جندا إلى أهل هيت. فوجه إليهم سعد عمر بن مالك بن عتبة بن نوفل بن عبد مناف فى جند وعلى مقدمته الحارث بن يزيد العامرى فى غيره من القواد فسار عمر حتى نزل على هيت وقد خندق من بها عليهم خندقاً واعتصموا به - لما رأى عمر امتناع القوم خشى أن يطول عليه الأمد. فخرج فى نصف الجند وكتم خروجه عن الأعداء وأمر أن لا يقوضوا خيامهم حتى لا يعلم الأعداء بقلة المسلمين المحاصرين لهم ثم خلف على من أقام الحارث بن يزيد وذهب هو بمن معه حتى نزل على قرقيسيا على حال غرة من القوم لا يشعرون به فأخذها عنوة. فطلب أهلها أن يقيموا على الجزاء فرضى منهم

بذلك. فلما رأى من بهيت ذلك جزعوا. وكتب عمر إلى الحارث يقول له: إنهم إن استجابوا فخل عنهم فليخرجوا، وإلا فخندق عليهم خندقا يحيط بخندقهم وأبوابه مما يليك حتى أرى رأيي. فسمحوا بالإجابة وانضم الجند إلى عمر، والأعاجم إلى أهل بلادهم.

بعد هذا صار السواد كله في يد المسلمين فمهدوا طريق إدارته وأقاموا الجنود مرابطة في الثغور بينهم وبين الجبال فكان الفلاحون للطرق والجسور والحرث والدلالة مع الجزاء عن أيديهم على قدر طاقتهم. وكانت الدهاقين للجزية عن أيديهم والعمارة، وعلى كلهم الإرشاد وضيافة ابن السبيل من المسلمين وأما من أفاء الله عليهم البلاد فالضيافة كانت لهم خاصة ميراثاً. وكان في صلح عمر لهم أنهم إن غشوا المسلمين لعدوهم برئت منهم الذمة وإن سبوا مسلما أن ينهكوا عقوبة وإن قاتلوا مسلما أن يقتلوا وعلى عمر منعتهم وبرىء عمر إلى كل ذي عهد من معرة الجيوش.

تمصير الكوفة

لما فتح على المسلمين ما فتح من العراق وفارس أوطن المسلمون بمختلف البلدان عنها - وكان كل أمير على ناحية يبعث بالوفود إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه - فكان عمر يرى في أوجه من يرد عليه تغيراً فقال لهم والله ما هيئتكم بالهيئة التي أبدأتم بها ولقد قدمت وفود القادسية والمدائن وإنهما لكما ابدؤوا فما غيركم ؟ فأجابه القوم بأن وخومة البلاد قد أثرت فيهم هذا الأثر وأراد عمر أن يتعرف الأسباب التي أثرت فيهم هذا الأثر وأهمه ذلك فكتب إلى سعد يسأله عن ذلك الذي غير ألوان العرب ولحومهم، فكتب سعد إليه يقول: إن العرب خددهم وكفى ألوانهم وخومة المدائن ودجلة. فكتب إليه عمر إن العرب لا يوافقها إلا ما وافق إبلها من البلدان فابعث سلمان رائداً وحذيفة - وكانا رائدي الجيش - ولم يكن أمر في الجيش إلا أسند إلى من يقوم به - فليرتادوا منزلا برياً بحرياً ليس بيني وبينكم فيه بحر ولا جسر - فبعثهما لذلك فسارا مرتادين غربي الفرات حتى أتيا موضع الكوفة وهو حصباء ورمل مختلطان فأعجبتهما وفيها أديار ثلاثة: دير حرمة - دير أم عمرو - دير

سلسلة. وبينهما خصاص خلال ذلك. فنزلا فيها وصليا ودعوا ثم كتبا إلى سعد بالخبر فأبلغه عمر : فأمره أن يسير بالجنود. فطلب سعد إلى أمراء الجنود بالثغور أن يستخلفوا عليها ويقفلوا إليه ففعلوا وارتحل سعد بالناس حتى عسكر بالكوفة فى المحرم سنة ١٧ هـ (يناير سنة ٦٣٨) وكان بين وقعة المدائن ونزول المسلمين بالكوفة سنة وشهران وقد ترك سعد من رضى بالإقامة بالمدائن ليكونوا مسلحة للمسلمين فى نواحيهم.

كان عمر يريد ممن نزلوا الكوفة أن يكونوا فى خيامهم لأن ذلك أسرع فى انتقالهم إذا مست الحاجة إلى ذلك وليكون ذلك أهيب فى عين عدوهم وأدعى إلى إحجامه عن أمر يهم به إن كان فى رأسه شىء من ذلك. ثم بعد ذلك استأذنوه فى اتخاذ البيوت من القصب فأذن لهم فى ذلك بعد أن عرفوه أنه هو العكرش إذا روى.

ثم أصاب الكوفة بعد ذلك حريق أتى على ثمانين بيتا فاستأذنوه فى البناء باللبن فأذن فيه وقال افعلوا ولا يزيدن أحدكم إلا على ثلاثة أبيات (حجرات) ولا تطاولوا فى البنيان والزموا السنة تلزمكم الدولة. فرجع المستأذنون إلى الكوفة بذلك وكتب إلى أهل البصرة بمثله. وكان على تنزيل الكوفة أبو هيّاج بن مالك وعلى تنزيل البصرة عاصم بن دلف أبو الجرباء. وقد قدر عمر لهما المناهج أربعين ذراعاً وما بين ذلك عشرين ذراعاً والأزقة سبع أذرع والقطائع ستين ذراعا. وأول شىء خطه فيهما وبني المسجدان مسجد الكوفة ومسجد البصرة وقام فى وسطهما رجل شديد النزع فرمى فى كل جهة بسهم وأمر أن يبنى فيما وراء ذلك وبنى ظلة فى مسجد الكوفة على أساطين رخام فى مقدمته كانت فى بعض أبنية الأكاسرة بالحيرة وبنوا لسعد داراً بحيال المسجد وهى قصر الكوفة بينها وبين المسجد طريق منتصف بناها روزبة من آجر بنيان الأكاسرة بالحيرة. وجعل الأسواق على شبه المساجد من سبق إلى مقعد فهو له حتى يقوم منه إلى بيته ويفرغ مما معه.

بلغ عمر أن سعداً قال وقد سمع أصوات الناس من الأسواق سكنوا عنى الصويت وإن الناس يسمونه قصر سعد فبعث محمد بن مسلمة إلى الكوفة وأمره أن

يحرق باب القصر ثم يرجع. فحرق باب القصر واستدعاه سعد فلم يفعل فخرج إليه وعرض عليه نفقة فأبى وبلغه كتاب عمر إليه وفيه : "بلغنى أنك اتخذت قصراً جعلته محصناً ويسمى قصر سعد. بينك وبين الناس باب. فليس بقصرك ولكنه قصر الخبال. انزل منه مما يلى بيوت الأموال واغلقه ولا تجعل على القصر بابا يمنع الناس دخوله" فحلف له سعد ما قال الذى قالوا فرجع محمد فأبلغ عمر وصدقه.

كأنى بصائحين يصيحون ما هذا الحرد الذي استفز عمر إلى أن يزعج محمد ابن مسلمة ويكلفه أن يذرع ما بين المدينة والكوفة لإحراق باب قصر أو باب بيت اتخذه أمير ليكون حجابا بينه وبين من لا يروق منظره ومن لا يحب مقابلته ؟ وهل يريد عمر أن يسكن الناس فى القبور وهم أحياء ؟ ومن ذا الذى حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الزرق ؟ وأى حرج على الناس إذا استطالوا فى البناء وجملوا دورهم بما تتسع له حالهم التى صاروا إليها ؟ ومن المعلوم عند علماء الاقتصاد أنه إذا لم يوجد فى الناس أهل الثراء الذين يروقهم تأثل القصور واتخاذ الشامخ من البنيان والرائع من الزينة والزخرف لا يمكن أن يكون للأمة رقى ولا يوجد فيها من يتعاطى الفنون الجميلة فضلا عن البراعة فيها. فكيف يضيق عمر على الناس واسعاً ولا يأذن لهم فى اتخاذ البنيان من اللبن إلا بعد مؤامرة ثم هو بعد ذلك يأمرهم بعدم الاستطالة فى البنيان وذلك تعطيل للفنون الجميلة ومعارضة لرقى الأمم الذى هو الغاية من العمران ؟

أما أنا فأعرض عن أولئك الصائحين - وإنما أقول لكم - إن القوم على أثر من رسالة قد بهرتهم عجائبها وفى عقب نبوة قد أخذت بنواصيهم وعلى بينة من دين استغرق أفئدتهم وملك عليهم مشاعرهم وهم حديثو عهد بأخوة قد أحكمت عراها واستحصدت مرتها ولم تنجل عن قلوبهم تلك الروعات التى كانوا يسمعونها فى قوله تعالى : ﴿**إنما المؤمنون إخوة**﴾ وفى قوله تعالى : ﴿**فأصبحتم بنعمته إخوانا**﴾ وهذه يد عمر لم تغتسل من دماء الأعاجم والروم الذين كانوا يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله وملوكهم يتخذون المصانع الشامخة والقصور المزخرفة فغرتهم الحياة الدنيا

وسوغوا لأنفسهم استعباد الرعية وتسخير الكافة فى توفير لذاتهم وشهواتهم فأدال الله منهم هؤلاء القــوم وهم على حال أخوة وتواس فيــما بينهم لاميزة لأحــد منهم على الآخر إلا بحسن البلاء أكرمهم عنده الله وفيما بيــنهم أتقاهم لم تبهرهم الدنيا بزخرفها ولم تختلب قلوبهم بنقشها ورقشها. فمــثل عمر يخشى أن يغمس أمثال سعد بن أبى وقاص ومن على شاكلته أيديهم فيما غــمست فارس والروم أيديهم فيه فيديل الله من أهل الإسلام كما أدالهم من جيرانهم بالأمس.

واتخاذ الأبواب دون الأمــير وصعوبة الوصــول إليه أمر لم تجر به عــادة العرب ولم يألفوه فيما بينهم إلى اليوم وعمر يخشى أن يــكون مبدأ جبرية يقترفها سعد تحت ظله ويأخذ الناس بهــا باسمه سرت إليه من أهل فارس. إذا رخص لــه عمر فى أخذ الناس بها كان شــريكا له فى إثمها ومســاهما له فى جزائها. وهم إنما كــانوا يعيرون العجم بالأمس ويحــجونهم بمثل ما يتخوف عليــهم عمر مغبتــه اليوم ولا يحسن فى القادة أن يكونوا ممن يأمرون الناس بالبر وينسون أنفســهم.

إن الأمر الذى أخذ به سعداً مما تطرب له قلوب أهل الاشتراكية المعتدلة وتصغى إليه مسامع الفئــات التى تنشد المساواة وتخفيف ويلات الإنسانية وتــطهير المجتمع من أدران المدنية الجــائرة القاسية وتعبــس له وجوه أهل الأثرة وعباد الأنانيــة ومن يؤلهون الأبهة ويقدسون الخيلاء.

أما تحجيره على أهل المصرين أن يبــتنوا بيوتهم فى أول الأمر ثم تسويغهم ذلك على شرط القصد فى الــبناء وعدم الاستطالة فسببه أن القــوم هم جند الإسلام وأعباء الجهاد وحماة تلك النواحي وذادة الملة وهم على أهــبة النجعة وعلى أوفاز للإغاثة أن دعا داع فى ناحــية من النواحى. والجــندى إذا تأثل العقــار وتبحبح فى اتــخاذ الدور المنجدة بأنواع الزخرف والزينة كان ذلك أدعى إلى ثقل الجــهاد على نفسه ورغبته عن مزايلــة مستــقر راحته وإذا أزعــج من مكانه هذا إلى وجــه من الوجوه أو ناحــية من النواحى كان قلــبه دائم الالتفات إلى مــا خلف وراءه من نعيم وما فــارق من مال هو

عدل نفسه وشقيق روحه. وإنى أقتصر على هذا وأترك لكم الحكم بالإنصاف فى منع أمير المؤمنين وإذا استطاع واحد منكم أن يفهم الصائحين فليفعل وله الأجر.

ومهما كان الشأن في ذلك. فإن عمر وضع تخطيط المصرين على قاعدة صحيحة محكمة فقد وسع طرقها وجعلها على نظام جميل وهى فى شكلها العام تشبه أن تكون كحلوان فى نظامها واتساع طرقها إذا قارنا بين ارتفاع الحيطان فيها وسعة المناهج والطرق لا فى الرواء والزينة - فكانت الكوفة تجمع بين سكنى المدن وهواء البادية وتربتها. وذلك أدعى إلى صحة الأجسام وجودة الهواء لأن سعة الطرق للبلاد بمثابة الرئة للجسم.

ومن المدن التى خططت على نظام أتم مدينة الخرطوم الحالية وقد قسمت درجات فيما يلى النيل الأزرق الدرجة الأولى وراءها الدرجة الثانية فالثالثة فالرابعة وهى فى سعة الشوارع على هذا الترتيب.

وقد بنيت البصرة والكوفة فى سنة واحدة وإن كان أهل البصرة قد نزلوها قبل ذلك وبهذا يجمع بين الأقوال المختلفة فى تحديد العام الذى أسست فيه البصرة فمن قال إن ذلك كان سنة ١٤ هـ فذلك مبدأ نزولها ومن قال سنة ١٧ هـ فذلك عام تمصيرها والبناء فيها على التخطيط الذى وصفنا.

وكانت ثغور الكوفة فى ذلك الزمن أربعة : حلوان وماسذان وقرقيسيا والموصل وأميرها سعد بن أبى وقاص وكانت البصرة ثغراً له أمير خاص يعينه أمير المؤمنين. وقد صار كل من الكوفة والبصرة مركزاً حربياً تفصل منه الجنود لحرب العجم ، ولكل منهما جنود خاصة ترابط فيه لحين الحاجة.

فتح الجزيرة

يراد بالجزيرة هنا ما بين دجلة والفرات من جهة الشام ويسمى جزيرة أقور وهى تشتمل على ديار مضر وديار بكر ومن أمهات مدنها حرَّان والرُّها والرَّقة ورأس عين

ونصيبين وسنجار والخابور وماردين وآمد وميافارقين والموصل وغير ذلك.

وكان الذى أثار فتحها أن عرب الجزيرة قد أمدوا الروم بجموع كثيرة يعاونونهم على المسلمين الذين كانوا يقاتلون الروم بناحية حمص - فأراد عمر أن يخالفهم إلى ديارهم وبلادهم ليشغلهم فى أنفسهم وأهليهم عن نصرة الروم.

وقد نقل ابن جرير الطبرى خبر فتح الجزيرة فقال أول ما أذن عمر للجند بالكوفة بالانسياح أن الروم خرجوا وقد تكاتبوا هم وأهل الجزيرة يريدون أبا عبيدة والمسلمين بحمص فضم أبو عبيدة إليه مسالحه وعسكروا بفناء مدينة حمص وأقبل خالد من قنسرين وانضم إليهم فيمن انضم من أمراء المسالح فاستشارهم أبو عبيدة فى المناجزة أو التحصن إلى مجىء الغياث. فكان خالد يأمره أن يناجزهم وكان سائرهم يأمرونه بأن يتحصن ويكتب إلى عمر فأطاعهم وعصى خالداً وكتب إلى عمر بخروجهم عليه وشغلهم أجناد أهل الشام عنه وقد كان عمر اتخذ على كل مصر على قدره خيولا من فضول أموال المسلمين عدة لكون إن كان. فكان بالكوفة من ذلك أربعة آلاف فرس. فلما وقع الخبر لعمر كتب إلى سعد بن مالك أن اندب الناس مع القعقاع بن عمرو وسرحهم من يومك الذى يأتيك فيه كتابى إلى حمص فإن أبا عبيدة قد أحيط به. وتقدم إليه بالجد والحث. وكتب إليه أيضا أن سرح سهيل بن عدى إلى الجزيرة فى الجند وليأت الرقة فإن أهل الجزيرة هم الذين استثاروا الروم على أهل حمص وإن أهل قرقيسيا لهم سلف وسرح عبد الله بن عتبان إلى نصيبين فإن أهل قرقيسيا لهم سلف ثم لينفضا حران والرها. وسرح الوليد بن عقبة على عرب الجزيرة من ربيعة وتنوخ وسرح عياضا فإن كان قتال فقد جعلت أمرهم جميعا إلى عياض بن غنم. وكان عياض من أهل العراق الذين خرجوا مع خالد بن الوليد منجدين لأهل الشام وممن انصرف أيام انصراف أهل العراق ممدينّ لأهل القادسية وكان يرافد أبا عبيدة فمضى القعقاع فى أربعة آلاف من يومهم الذى أتاهم فيه الكتاب نحو حمص وخرج عياض بن غنم وأمراء الجزيرة فأخذوا طريق الجزيرة على الفراض وغير

الفراض وتوجه كل أمير إلى الكورة التى أمر عليهـا فأتى سهيل الرقة وخرج عمر من المدينة مغـيثا لأبى عبيدة يريـد حمص حتى نزل الجابية. ولما بـلغ أهل الجزيرة الذين أعانوا الروم على أهل حمص واستثاروهم وهم معهم مقيمون عن حديث من بالجزيرة منهم بـأن الجنود قد ضـربت من الكوفة ولـم يدروا : الجزيرة يريدون أم حـمص ؟ أجفلوا فتفـرقوا إلى بلدانهم وإخوانهم وخلوا الروم. ورأى أبو عبيـدة أمراً لما انفضوا غير الأول فاستشار خالداً فى الخروج فأمره بالخروج ففتح الله عليهم. ا هـ.

وعلى هذا الوجـه فتحت الجزيرة على الـصلح وما جرى مجـراه ولم تكن بلد أيسر منها أمراً ولا أسهل منها فتحاً.

كان رسول الله صلى الله عـليه وسلم قد عاهد وفد تغـلب على أن لا ينصروا وليداً فكان ذلك الشرط علـى الوفد وعلى من أوفدهم ولم يلتزمه غيـرهم. فلما جاء عمر ووجـه إليهم الوليـد بن عقبة وأبى أن يقـبل منهم إلا الإسلام حـاجّوه بأنهم لا سبيل عليهم لأنهم لم يعطوا عهداً بذلك ولا شأن له عليهم، فكتب الوليد إلى عمر فى شـأنهم فكتب إليـه عمر : إنمـا ذلك فى جزيزة العـرب لا يقبل مـنهم فيـها إلا الإسلام فدعهم على أن لا ينصروا وليداً واقـبل منهم إذا أسلموا. فقبل منهم على أن لا ينصروا وليـداً ولا يمنعوا أحداً منهم من الإسـلام فأعطى بعضهم ذلـك فأخذوا به وأبى بعضهم إلا الجزاء فرضى منهم بمـا رضى من العباد وتنوخ. على أن رضى القوم بالجـزاء إنما كان باسم صـدقة أنفـة منهم أن يـساموا جـزية. وذلك أن الوليـد أرسل رؤساءهم وديَّانيهم إلى عمر فقال لهم عمر : أدوا الجزية. فقالوا له أبلغنا مأمننا والله إن وضعت علينا الجزاء لندخلن أرض الروم والله لتفـضحنا من بين العرب. فقال أنتم فضحتم أنفسكم وخالفتم أمتكم فيمن خالف وافتضح من عرب الضاحية وتالله لتؤدن وأنتم صغرة قـمأة. ولئن هربتم إلى الروم لأكتبن فـيكم ولأسبينكم. فقـالوا خذ منا شيئاً لا تسميه جزاء. فقال أما نحن فنسميه جزاء وسموه أنتم ما شئتم. فقال على بن

أبى طالب : يا أميـر المؤمنين ألم يضعف عليهـم سعد بن مالك الصدقـة ؟ قال بلى وأصغى إليـه ورضى منهم بالجـزاء على أن يسمى صـدقة. وكان فى بنى تـغلب عز وامتناع وكانوا ينازعون الوليد فهم بهم وقال :

إذا ما عصبت الرأس منى بِمِشْوذٍ ... فَغَيَّك منى تغلب ابنة وائل

فخاف عـمر أن يحرجوه فـيخرجوه إلى أن يسطـو عليهم فعزله وولـى عليهم سواه.

فتح الأهواز[1]

الأهواز تتاخم حدود البـصرة وكان بها الهرمزان وكان مـن أحد بيوتات فارس وأمته بتلك الناحية فكان يغيـر على البلاد التى دانت لحكم المسلمين. فلما علم بذلك عتبة بن غزوان وهو بالبصرة استمد سـعد بن أبي وقاص فأمده بنعيم بن مقرن ونعيم ابن مسعود في عسكر وأمرهما أن يأتيا ميسـان ودستميسان حتى يكونا بينهم وبين نهر تيرى وأرسل عتبة بن غزوان سلمى بن الـقين وحرملة بن مريطة فى جند وأمرهما أن يكونا بين ميـسان ودستميسـان وبين مناذر. وقد دعوا بنى العم بن مـالك وكانوا من حاضرى تلك الجـهة فأجاب رؤساؤهم إلـى أن يكونوا عوناً للمسلمين واتـفقوا على إحداث ثورة بمناذر ونهر تيـرى والهرمزان يومئذ بين نهرتيـري وبين دلث. فلما التقت جيوش المسلمين بجيـوش الهرمزان واشتد القتال بين الفريـقين كان بنو العم قد أخذوا مناذر ونهر تيـرى. ففت ذلك فى عضده وهزم جـنده فقتل المسلمون منـهم ما شاءوا وأسروا منهم عدة ثم عبر الهرمزان بمن بـقى معه من دُجَيلا أمام سوق الأهواز وصار دجيل بين المسلمين ومن معهم من بنى العم وبينه ثم طلب الهرمزان الصلح فعقد معه الصلح على الأهواز كـلها ومهرجـان فذق ما عدا ما فـتحه المسلمـون عنوة. واتخذ المسلمون مناذر ونهرتيرى مسلحتين للبصرة فيهم الجنود مرابطون.

أقام بنو العـم مسلحة للمـسلمين بتلك الناحيـة. ثم شجر اخـتلاف بين بعض

---

(١) الأهواز مجمع كور عدها ياقوت عشراً وهى سوف الأهواز ورامهرمز وأبذج وعسكر تكرم وتستر جندى سابور وسوس وسرق ونهر تيرى ومناذر. وهى مقابلة البصرة

رؤساء بنى العم غالب وكليب وبين الهـرمزان على حدود الأرضين ورؤساء بنى العم يومئذ سلمى وحـرملة وغالب وكليب الوائليان. فقدم سلمـى وحرملة لينظرا الخلاف فوجدا الهرمزان ظالماً لغالب وكليب فحالا بينه وبينهما. فنقض الهرمزان صلحه ومنع ما قبله واستعان بالأكراد فكثُف جنـده وانتهى إلى عتبة بن غـزوان فكتب بذلك إلى عمر فـأمره أن يمدهم بجند من عنده عليهـم حرقوص بن زهير فالتـقى بنو العم وهم على سـادتهم مع جند المسلـمين بجنود الهرمـزان على جسـر سوق الأهواز فـانهزم الهرمزان وجنده وفر إلى رامهر مز وافتتح حرقوص سوق الأهواز ونزل الجبل واتسقت له بلاد سوق الأهواز إلى تستـر ووضع الجزية على أهل البلاد التى افتتـحها وجد فى عمارتها ثم أرسل الهرمزان في الصلح فأجابوه إلى الصلح على ما لم يفتح عنوة وهو رامهرمز وتستر والسوس وجندى سابور والبنيان ومهرجان قذق.

كان عمر يخاف أن يكون نقض أهل الذمـة ما بأيديهم من العهود عن غدر من المسلمين أو ظلم منهم لأهل الذمـة فكتب إلى عتبة : أن يوفد عليـه عشرة رجال من صلحاء جند البصرة. فأوفدهم وفيهـم الأحنف بن قيس ، فسأله عمر عن حال الجند وعن انتقاض من ينتقض بتلك الناحية أعن ظلم هو ؟ فقال : لا بل لغير ظلم والناس على ما تحب فصدقه عمر فيما قال. وقال عمر - وقد رأى فى ثياب الأحنف فضولا - : خصوا وضعوا الفضول مواضعها تريحوا أنفسكم وأموالكم ولا تسرفوا فتخسروا أنفـسكم وأموالكم. وكـتب عمـر إلى عتـبة : أعـزب الناس عن الظلم واتـقوا الله واحذروا أن يدال عليكم لغـدر يكون منكم أو بغى فإنكم إنما أدركـتم بالله ما أدركتم على عهد عاهدكم عليه وقد تقدم لكم فيما أخذ عليكم فأوفوا بعهد الله وقوموا على أمره يكن لكم عوناً وناصراً.

غزو فارس من البحرين

كان المسلمون فى ناحية البصرة والكوفة بإزاء الفرس وقد استقامت الأحوال في الغالب والفرس فى تلك الناحية يؤدون الخراج للمسلمين لا يدخل عليهم ولهم الذمة

والمنعة. وكان عـميد الصلح في تلك الناحيـة من البصرة الهرمزان. وكـان عمر يريد الاكتفاء بما في أيدى المسلمين ويقـول : وددت لو أن بيننا وبين فارس جبلا من نار لا يصلون إلينا ولا نصل إليهم.

وكان العلاء بن الحضـرمى عاملا لعمر على البحرين وكـان له ذكر وشهرة فى أيام حرب أهل الردة ليـست لسعد بن أبى وقاص ، فـلما فتح سعد الـعراق والفرس وظفر بالقادسـية وأزاح الأكاسرة وورَّث المسلمين أرضهم وديارهـم عفى ذلك على ما كان للعـلاء من شهرة وبلاء وكان العـلاء يباريه. فسر العـلاء أن يبلى بلاء يكون فى وزان ما صنعه سعد لئلا يذهب عليه بالشهرة والصيت.

ندب العلاء أهل البـحرين إلى فارس فأسـرعوا فى إجابته ونزلوا عنـدما يسره وفرقهم أجناداً عـلى أحدها الجارود بن المعلى وعلى الآخر السـوار بن همام ، وعلى الثالث خُليد بن المنذر بن ساوى وجعله قائداً عاماً وحملهم على السفن وأجازهم فى البحر إلى فارس دون أن يكون قد أذن له عمر فى ذلك ولم يستأذنه فى شىء من هذا الأمر وكـان عمر يكـره أن يغرر بالمسلمـين أو يجيزهـم إلى عدوهم فى مـاء قبل أن يثخنوا فى ناحيته ويكسروا شوكته.

عبرت تلك الجنود فخرجوا وبإزائهم أهل فارس وعلـيهم الهربذ فاجتمعوا على الجند وحالوا بينهم وبين سفنهم. فقام خليد فى الناس فخطبهم وحثهم وقال :

أما بعـد : فإن الله إذا قضى أمـرا جرت به المقاديـر حتى تصيـبه ، وإن هؤلاء القوم لم يزيدوا على أن دعوكم إلى حربهم وإنما جئتم لمحاربتهم والسفن والأرض لمن غلب فاستعينـوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشـعين - فلما صلوا الظهر شبوا القتال بينهم وبين الفرس فقـتل من قواد المسلمين السوار والجارود. وجعل خليد يذمر القوم ويحرضهم فاشتد القتال فقتل الـفرس مقتلة لم يقتلوا مثلها قبلها ولم يجد المسلمون سـبيلا إلى الرجوع فـى البحر لأن الفرس أغـرقوا سفنهم فخـرجوا يريدون البصرة فوجدوا شهرك قد أخذ عليهم الطرق فعسكروا وامتنعوا.

وصل الخبر إلى عـمر فتذكر مـا قدم بما حدث وخشى أن يصـيب هذ العسكر ماأصاب عسكر أبي عبـيده فاشتد غضبه على العلاء فعزله وكـتب يتوعده وأمره بأمر يشق عليه حمله وهـو : أن يلحق فيمن معه بجند سعـد بن أبى وقاص. وكتب إلى عتبة بن غزوان : أن العلاء بن الحضرمى عمل جنداً من المسلمين فأقطعهم أهل فارس وعصـانى وأظنه لم يرد وجـه الله بذلك فخـشيت عليـهم أن لا ينصروا وأن يغـلبوا وينشبوا فاندب الناس واضممهم إليك قبل أن يجتاحوا.

انتدب له أنجـاداً من الناس كعاصم بن عـمر وعرفجة بن هـرثمة والأحنف بن قيس وسـواهم من أنجاد أهل الإسلام فى اثنـى عشر ألفاً علـى البغال يجنبـون الخيل وعبيهم أبو سبرة بن رهم والمسالح على حـالها بالأهواز فسار لايلقاه معارض إلى أن التقى بجيش خليد وقد كان أهل اصطخر وحدهم وشذاذ من غيرهم هم الذين أخذوا الطرق على جيش خليـد. فلما أقام المسلمون بمكانهم طارت الأخـبار إلى أهل فارس فطار إليـهم من كل فج وناحـية وتوافت إلى الفـرس أمدادهم وتوافت إلـى المسلمين أمدادهم كذلك فـاقتتلوا قتالا شديداً حـالف المسلمين فيه الظفر ونـالوا من الفرس ما شاءوا قتلا وأسرا. وكانت هذه الغزوة سبباً فيما طار بين الناس من شرف نابتة البصرة وكانوا أفضل نوابت الأمصار وأفضل المصرين نابتة ثم انكفأوا بما أصابوا وعاد المنقذون من أهل هجر والبحرين إلى قبائلهم من البصرة.

هنا نلفت نظركـم إلى خطأين. فأما أولهـما : فمن العلاء بن الحـضرمى لأنه أجاز جنده البـحر إلى قوم لهم قوة وشـوكة وليسوا بدون جـنده عدداً وعدة دون أن يكون له بتـلك العدوة وزر أو فئـة. ولم يكن عند السـفن من يمنعهـا من الأعداء أن يعتروها بسوء - فلو أن الهزيمة كانت على جنـده لاستؤصلوا وكانت نكبة دونها نكبة جسر أبى عبيد.

الخطأ الثانـى : ما حصل من أهل فارس بـإحراج جند فى قوة ومنعـة وقد نال منهم. ولو أن القوم وجدوا سـفنهم لأجازوا فيها وخلوا للقـوم ديارهم. ولكن القوم

وهم فى قوة عمدوا إلى المكاشرة وامتنعوا حتى جاءهم المدد وتنقذهم ولم يجدهم ما صنعوه من إغراق السفن ولا أخذ الطرق عليهم ، بل كانت خسارة أهل فارس مضاعفة.

ولما أحرز عتبة الأهواز وذلل الفرس فى ناحيته استأذن عمر في الحج فأذن له. فلما قضى نسكه استعفاه فأبى أن يعفيه وعزم عليه ليرجعن إلى عمله فانصرف فمات ببطن نخلة فدفن به. وبلغ عمر خبره فمر به زائراً وقال : أنا قتلتك ، لولا أنه أجل معلوم وكتاب مرقوم. وأثنى عليه بفضله وولى عمر بدله المغيرة بن شعبة مفتتح سنة ١٨ هـ.

فتح رامهرمز والسوس وتستر

كان يزدجرد بمرو وفى يده ما بقى من بلاد فارس وهو رقعة فسيحة كان فى ميسوره أن يدبر أمرها لو قنع والقوم وادعون راضون به. وعمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه مقصر للمسلمين من عنانهم لا يرضى لهم بالانسياح فيما وراءهم من فارس. غير أن الله تعالى إذا أراد أمراً يسره. فإن يزدجرد لم يسغ الغصة التى رمى بها. فلم يقر له قرار عن استرجاع بلاده فأخذ يحمس أهل فارس ويستثير حميتهم ونخوتهم ويهزهم لاستنقاذ بلادهم ومسح العار اللاحق بهم. فتحركوا لذلك. وكاتب بعضهم بعضاً ودخل أهل الأهواز فى أمر فارس وتعاقدو وتعاهدوا وتواثقوا على النصر. وجاءت الأخبار إلى عمر وإلى المسلمين بالبصرة. فكتب إلى سعد أن ابعث إلى الأهواز بعثاً كثيفاً مع النعمان بن مقرن وعجل وابعث سويد بن مقرن وعبد الله ابن ذى السهمين وجرير بن عبد الله البجلى فلينزلا بإزاء الهرمزان حتى يفرغوا من أمره وكتب إلى أبى موسى أن ابعث إلى الأهواز جنداً كثيفاً ، وأمر عليهم سهل بن عدى وابعث معه البراء بن مالك وعاصم بن عمرو ومجزأة بن ثور وكعب بن سور وعرفجة بن هرثمة وحذيفة بن محصن وعبد الرحمن بن سهل والحصين بن معبد ، وعلى أهل الكوفة وأهل البصرة جميعاً أبو سبرة بن أبى رهم وكل من أتاه ممداً له.

فخف النعمان في أهل الكوفة على البغال يجنبون الخيل حتى انتهى إلى تيرى فجاوزها ثم جاوز مناذر وسوق الأهواز قاصداً رامهرمز. فلما سمع الهرمزان بقصده طمع فى نصر أهل فارس وأراد أن يقتطع النعمان ومن معه وبادره القتال بأربك وقد وردت أوائل الفرس تستر فاقتتلوا قتالا شديداً فانهزم الهرمزان وأخلى رامهرمز ولحق بتستر وأخذ النعمان رامهرمز. ولما وصل أهل البصرة إلى سوق الأهواز جاءهم خبر الوقعة وأن الهرمزان لحق بتستر فمالوا نحوها وراغ النعمان إليها من رامهرمز وقصدنها المسالح التى تركوها خلفهم وكان عليها حرقوص وجزء ولحق بهم سلمى وحرملة من بنى العم ونزل جميعهم على تستر وبها الهرمزان وجنوده من أهل فارس. ثم جاء أبو موسى الأشعرى مدداً للمسلمين فحاصروا الفرس أشهراً وقتل كل من البراء بن مالك ومجزأة بن ثور وكعب بن ثور وأبو تميمة ونفر سواهم فى براز الفرس مائة مقتل سوى من قتل منهم فى غير براز.

وقد زاحف المسلمون الفرس فى حرب تستر ثمانين زحفاً يكون ذلك لهم مرة وعليهم أخرى. فلما كان آخر زحف قال المسلمون يا براء أقسم على ربك ليهزمنهم لنا فقال : اللهم اهزمهم واستشهدنى فهزموهم واقتحموا عليهم خنادقهم ففزع الفرس إلى المدينة وأحاط المسلمون بها وقد ضاقت بهم المدينة.

وبينما المسلمون على ذلك إذ خرج إلى النعمان رجل من المدينة فاستأمنه على أن يدله على مدخل المدينة.

وقال أبو حنيفة الدينورى في الأخبار الطوال أن الرجل إنما كلم أبا موسى الأشعرى وكان اسم الرجل سمينة وكان من أشراف المدينة فقال تؤمننى على نفسى وأهلى وولدى ومالى وضياعى حتى أعمل فى أخذك المدينة عنوة فجعل له ذلك فقال ابعث معى رجلا من أصحابك فندب أبو موسى الناس لذلك الوجه. فقال الأشرس ابن عوف الشيبانى أنا فمضى معه حتى خاض به دجيلا ثم أخرجه فى سرب حتى انتهى به إلى داره ثم أخرجه من داره وقد ألقى عليه طيلاساناً وقال امش ورائى كأنك

من خدمى فـفعل ومر به فـى أقطار المدينة طولا وعرضـاً حتى انتهـى به إلى أحراس أبواب المدينة ثم انطلق حـتى مر به على الهرمزان وهو فى باب قصـره ومعه ناس من مرازبته وشمع أمـامه حتى نظر الرجل إلى جميع ذلك ثـم انصرف إلى داره وأخرجه من السرب وعـاد إلى أبى موسى فأخـبره الأشرس بجـميع ما رأى وقال وجـه معى مائتى رجل حتى أقتل الحرس وأفتح الباب فـانتدب مائتى رجل مع الأشرس وسيمينه حتى دخـلوا من ذلك النقب وخـرجوا فى دار سيـمينه وتأهبـوا للحرب ثم خـرجوا والأشرس أمامهم حـتى أتوا إلى باب المدينة وأقبل أبو موسى فى جـميع الناس حتى وافوا البـاب من خارج فوافى الأشـرس بمن معه وقتـلوا حرس الباب وضربـوا القفل حتى كـسروه ودخل المسلمـون ووضعوا السـيف فيهـم وهرب الهرمزان فى عـظماء مرازبتـه حتى دخلوا الحصـن الذى فى جوف المدينة وامتـنعوا به ولما أحرج الهـرمزان طلب أن يسلم على حكم عـمر يصنع به ما شاء فرضـوا منه بذلك ثم ذهبت طلائع المسلمين فى اتباع الفالة وأخذ ما أحاط بتستر من البلدان.

أما الرجل الذى دل المسلـمين على عورة بلده فلا أدرى سبب فـعلته وليس من شأن الفرس هذا فهل كان له ثأر قبل الهرمزان ؟ لم أقف على ذلك.

وأرسل أبو سبـرة الهرمزان إلى عمر فلـما قدموا به إلى المدينة وكـان فى الوفد أنس بن مـالك والأحنف بن قيـس ، ألبسوه كـسوته من الديـباج الذى فيـه الذهب ووضعوا على رأسه تاجاً يسمى الأزين وألبسوه حليته كيما يراه عمر.

فلما دخلوا المديـنة قصدوا بيت عمر فـلم يجدوه فقيل لهم إنه فـى المسجد مع وفد جاءوا إليه فقصدوا المسجد فلم يجدوه فذهبوا يسألون عنه فقال لهم ولدان المدينة ما تلدُّدُكم تريدون أمير المـؤمنين إنه نائم فى ميمنة المسجد متوسد بـرنسه فذهبوا إليه فوجدوه كما وصفوا ودرته معلقـه فى ذراعه فجلسوا دونه وليس فى المسجد نائم ولا يقظان غيره - فقال الهرمزان : أين عمر ؟ فـأشاروا إليه فقال : وأين حرسه وحجابه عنه ؟ فقـالوا : ليس له حارس ولا حاجـب ولا كاتب ولا ديوان فقال : يـنبغى أن

يكون نبياً - قالوا : لا. بل يعمل عمل الأنبياء. وكثر الناس واستيقظ عمر على الجلبة فاستوى جالسا ثم قال : الهرمزان ؟ قالوا نعم. فتأمله وتأمل ما عليه ثم قال : أعوذ بالله من النار وأستعين الله. قال: الحمد لله الذى أذل بالإسلام هذا وأشباهه. يا معشر المسلمين تمسكوا بهذا الدين واهتدوا بهدى نبيكم ولا تبطرنكم الدنيا فإنها غرارة وقال الوفد : هذا ملك الأهواز فكلمه. فقال : لا حتى لا يبقى عليه من حليته شيء فرمى بكل شيء عليه إلا شيئاً يستره وألبس ثوباً صفيقاً. فقال عمر : هيه يا هرمزان كيف رأيت وبال الغدر وعاقبة أمر الله ؟ فقال : يا عمر إنا كنا وإياكم فى الجاهلية كان الله قد خلى بيننا وبينكم فغلبناكم إذ لم يكن معنا ولا معكم فلماكان معكم غلبتونا - فقال عمر : إنما غلبتمونا فى الجاهلية باجتماعكم وتفرقنا ثم قال عمر : ما حجتك فى انتقاضك مرة بعد مرة فقال : أخاف أن تقتلنى قبل أن أخبرك. قال : لا تخف ذلك واستسقى ماء فأتى به فى إناء غليظ. فقال : لو مت عطشاً ما شربت فى هذا. فأتى به فى إناء يرضاه فجعلت يده ترتجف وقال : أخاف أن أقتل وأنا أشرب الماء. قال عمر لا بأس عليك حتى تشربه فأكفأه. فقال عمر : لا تجمعوا عليه بين القتل والعطش فقال. لا حاجة لى فى لماء. فقال له عمر إنى قاتلك. فقال آمنتنى. فقال عمر كذبت. فقال أنس بن مالك صدق يا أمير المؤمنين. فقال عمر ويحك منى يا أنس أنا أؤمن قاتل البراء ومجزأة بن ثور ؟ والله لتأتينى بمخرج أو لأعاقبنك. قال قلت : لا بأس عليك حتى تخبرنى. وقلت لا بأس عليك حتى تشرب. وقال له من حوله مثل ذلك فأقبل عمر على الهرمزان وقال : خدعتنى والله لا أنخدع إلا لمسلم فأسلم الهرمزان وفرض له عمر فى العطاء على ألفين وأنزله المدينة.

والذى أعتقده أن عمر إنما أنزله المدينة ليكفى المسلمين عواقب غدر الرجل ومكره فإنه كان واسع الحيلة خداعاً كما يتبين من عمله هذا وما كان منه مع المسلمين فى الأهواز. والرجل لم يترك دسائسه وهو بالمدينة حتى كان من أمره ما كان حين

قتل أبو لؤلؤة المجوسى عمر. ولو أنه أقام بعد عمر لتحيل حتى يرجع إلى بلاده ثم يكون له مع المسلمين شأن آخر. فإسلامه كما أعتقد إنما كان تقية ودسيسة على الإسلام والمسلمين. وقد بلغ من قوة مكيدةالرجل أن كان يتحبب إلى عمر ويوهمه أنه يخلص النصح له حتى يكسب ثقته.

خلص عمر إلى الوفد يسأل عن المسلمين وما يعاملون الناس به وخشى أن يكونوا قد اعتروا أحداً من أهل الذمة بسوء وأن يكون الانتقاض له سبب من ذلك فقال للوفد. لعل المسلمين يفضون إلى أهل الذمة بأذى وبأمور لها ما ينتقضون بكم فقالوا ما نعلم إلا وفاء وحسن ملكة. قال فكيف هذا ؟ فقال له الأحنف يا أمير المؤمنين أخبرك أنك نهيتنا عن الانسياح فى البلاد وأمرتنا بالاقتصار على ما فى أيدينا وإن ملك الفرس حى بين أظهرهم وإنهم لا يزالون يساجلوننا ما دام ملكهم فيهم ولم يجتمع ملكان فاتفقا حتى يخرج أحدهما صاحبه. وقد رأيت أنا لم نأخذ شيئاً بعد شىء إلا بانبعاثهم وأن ملكهم هو الذى يبعثهم ولا يزال هذا دأبهم حتى تأذن لنا فَلْنَسح فى بلادهم حتى نزيله عن فارس ونخرجه عن مملكته وعز أمته. فنالك ينقطع رجاء أهل فارس. فقال عمر صدقتنى والله وشرحت لى الأمر عن حقه ثم قدمت الكتب على عمر باجتماع أهل نهاوند على قتال المسلمين. فكان ذلك سببا لإذن عمر للمسلمين بالانسياح فى بلاد فارس.

فتح نهاوند

كان الفرس قد اجتمعوا بنهاوند من بلاد الجبل جنوبى همذان واستشار عمر الهرمزان. فقال : إن فارس اليوم رأس وجناحان فاقطع الجناحين يهن الرأس وذكر له أن الرأس بنهاوند وهو بندار فإن معه أساورة كسرى وأهل أصبهان. فقال عمر كذبت يا عدو الله بل أعمد إلى الرأس أقطعه فإذا قطعه الله لم يعص عليه الجناحان وكتب إلى أبى موسى أن سر بأهل البصرة. وإلى حذيفة بن اليمان أن سر بأهل الكوفة فإذا التقيتم فأميركم النعمان بن مقرن المزنى. وكتب إلى النعمان "بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى النعمان بن مقرن سلام عليك فإنى أحمد

الله إليك الذى لا إله إلا هو. أما بعد. فإنه بلغنى أن جموعاً من الأعاجم كثيرة قد جمعوا لكم بمدينة نهاوند فإذا أتاك كتابى هذا فسر بأمر الله وبعون الله وبنصرالله بمن معك من المسلمين ولا توطئهم وعراً فتؤذيهم ولا تمنعم حقهم فتكفرهم ولا تدخلنهم غيضة فإن رجلا من المسلمين أحب إلى من مائة ألف دينار. والسلام عليك" فسار النعمان فى جند المسلمين وفيهم أعيان الصحابة ووجوه العرب وأنجادهم. لما انتهى إلى نهاوند بث العيون ليتعرفوا له حال ناحيتها فأخبروه بأن القوم قد ألقوا حولهم الحسك وهم ممتنعون.

حط المسلمون فى تلك الناحية وأنشبوا القتال مع الفرس أياماً ثم انحجزوا فى خنادقهم لا يخرجون إلا إذا شاءوا. وخاف المسلمون أن يطول بهم المقام عليهم فكلموا النعمان فى الأمر فجمع أهل الرأى والنجدة فى الجند وأجال معهم الرأى فيما ينبغى أن يصنعه والقوم معتصمون أشد اعتصام بالحصون والخنادق والمدائن والمسلمون لا يقدرون على إنغاضهم وانبعاثهم وإنه إنما يريد أن يحمسهم ويستخرجهم إلى المنابذة وترك التطويل. فقال عمرو بن ثبى وكان أكبرالناس سناً وكانوا يبدأون بذوى الأسنان. فقال : التحصن عليهم أشد من المطاولة عليكم فدعهم ولا تخرجهم وطاولهم وقاتل من أتاك منهم. فردوا عليه جميعاً رأيه وقال عمرو بن معد يكرب : ناهدهم وكاثرهم ولا تخفهم. فردوا عليه رأيه وقالوا إنما تناطح بنا الجدران والجدران لهم أعوان علينا. وقال طليحة الأسدى : قد قالا ولم يصيبا ما أرادا. وأما أنا فأرى أن نبعث خيلا مؤدية فيحدقوا بهم ثم يرموهم لينشبوا القتال ويحمسوهم فإذا استحمسوا واختلطوا بهم وأرادوا الخروج أرزوا إلينا استطراداً فإنا لم نستطرد لهم فى طول ما قائلناهم وإنا إذا فعلنا ذلك رأوا ذلك منا طمعوا فينا ولم يشكوا فى هزيمتنا فخرجوا فجالدونا وجالدناهم حتى يقضى الله فينا وفيهم ما أحب فرضى منه هذا القول. وأمرالقعقاع. ففعل وأنشب القتال فأنغضهم ثم نكص ونكص وظهنا الأعاجم هزيمة فاغتنموها وخرجوا حتى لم يبق منهم سوى من يحرس الأبواب وتقهقر القعقاع إلى المسلمين

حتى انقطع الفرس عن حصنهم وقد أمر النعمان الناس بأن يلزموا الأرض ولا يقاتلوا حتى يأذن لهم وقد رماهم الفرس وفشت فيهم الجراحات وجعلوا يستأذنون فى الهجوم وهو يلبثهم ثم أمر بالهجوم وصار يمشى فى الرايات ويقول : قد علمتم ما أعزكم الله به من هذا الدين ، وما وعدكم من الظهور. وقد أنجز لكم هوادى ما وعدكم وصدوره ، ولم يبق إلا أعجازه وأكارعه والله منجز وعده ومتبع آخر ذلك أوله واذكروا إذ كنتم أذلة وما استقبلتم من هذا الأمر وأنتم أعزة. فأنتم اليوم عباد الله حقاً وأولياؤه. وقد علمتم انقطاعكم من إخوانكم من أهل الكوفة والذى لهم فى ظفركم وعزكم والذى عليهم فى هزيمتكم وذلكم. إلى آخر ما كلمهم وأطال به.

بعثهم فانبعثوا إلى الأعداء فاقتتل الناس بالسيوف اقتتالا شديداً لم يسمع الناس بوقعة يوم قط كانت أشد هولاً منها. وقتل من الفرس فيما بين الزوال والعتمة ما طبق أرض الميدان وما يزلق الناس والدواب. وأصيب النعمان فأخذه أخوه سواد وسجاه بثوبه. وتناول الراية حذيفة بن اليمان ولا يعلم الناس بمصاب النعمان وكتم ذلك من علمه لئلا يهن الناس حتى إذا أقبل الليل انكشف الفرس ولزم المسلمون مجالدتهم فعمى السبيل على الفرس وهووا فى هاوية كانت هناك بعيدة الغور ولم ينج من جموع الفرس سوى الشريد - وكان فيهم الفيرزان فهرب من بين الصرعى وتبعه القعقاع وهو يتعقب الفلال حتى أخذه ووصل القعقاع إلى همذان. وقدهال ذلك أهل البلاد القريبة من نهاوند فصالحوا ودخل المسلمون نهاوند واحتووا ما فيها من الأموال وكان شيئاً كثيراً وأقبل الهربذ صاحب بيت النار يطلب الأمان لنفسه ولمن يريد على أن يؤدى إليهم ما وضع عنده التخيرجان من ذخائر كسرى وهى جوهر كان أعده لنوائب الزمان فأجمع رأى المسلمين على رفعه إلى عمر مع الأخماس وخرج بذلك السائب ابن الأقرع وأدى إليه ذلك. ولم يقبل عمر سفطى الدر بل ردهما على حذيفة ليقسم أثمانهما بين المسلمين ولم يرض بشىء مماخصوه به وهو كنوز كسرى.

وقد بكى عمر لاستشهاد النعمان بكاء شديداً حتى سمع له نشيج. وبعد انتهاء الموقعة أذن عمر للمسلمين بالانسياح فى بلاد الفرس لقطع مادة الشغب وليبأس الملك من عود ملكه إليه حتى لا يكون كالشوكة فى جنب المسلمين. فعين رؤساء الجنود التى تذهب لافتتاح البلدان وأرسل إليهم بالألويه وهم :

(١) الأحنف بن قيس التميمى ووجهه إلى خراسان.

(٢) مجامع بن مسعود السلمى ووجهه إلى أردشير خُرَّه وسابور.

(٣) عثمان بن أبى العاص الثقفى ووجهه إلى اصطخر.

(٤) سارية بن زنيم الكنانى ووجهه إلى فسا ودار بجرد.

(٥) سهيل بن عدوى ووجهه إلى كرمان.

(٦) عاصم بن عمر ووجهه إلى سجستان.

(٧) الحكم بن عمير التغلبى ووجهه إلى مكران.

وقد استعدت هذه الجنود إلى وجهها مفتتح سنة ١٨ هـ.

فتح أصبهان

أصبهان إقليم من نواحى الجبل تجمع بها جمع للفرس فسار إليهم عبدالله بن عبد الله بن عتبة فى جند من المسلمين وصار يغلب على البلاد حولها ويصالح من طلب الصلح منهم حتى انتهى إلى أصبهان وكان بينه وبين ملكها القاذوسبان زحوف وكان ذلك بقاعدة هذا الإقليم وهى (جى) ثم خرج القاذوسبان وقال لعبد الله : لا تقتل أصحابى ولا أقتل أصحابك ولكن ابرز لى فإن قتلتك رجع أصحابك وإن قتلتنى صالحك أصحابى وإن كان أصحابى لا يقع لهم نشابة. فبرز له عبد الله وقال إما أن تحمل على وإما أن أحمل عليك. فقال : أحمل عليك. فوقف له عبدالله وطعنه القاذوسبان فأصاب قربوس سرجه فكسر وقطع السرج واللبب والحزام وأزال اللبد والسرج وعبد الله على الفرس فوقع قائماً واستوى على الفرس عرياً وقال له اثبت ، فحاجزه وقال : ما أحب أن أقاتلك قد رأيتك رجلا كاملا ولكن ارجع معك إلى

عسكرك فـأصالحك وأدفع المدينة إليك عـلى ان من شاء أقام ودفع الجـزية وأقام على ماله وعلى أن تجرى من أخذتم أرضه عنوة مـجراهم ويتراجعون. ومن أبى أن يدخل فيما دخلنا فيه ذهب حيث شاء ولكم أرضه فإن لكم ذلك ودخل أهل جى فى الذمة إلا ثلاثين رجلا من أهل أصبهان خالفوا قومهم وتجمعوا فلحقوا بكرمان.

قال الـطبرانى : وقـدم أبو موسـى الأشعـرى من ناحيـة الأهواز وقد صـالح القاذوسبان عـبد الله ثم قال : ودخل أبو موسى وعبد الله جى وقد جـاء كتاب عمر إلى عبد الله أن سر حتى تقدم إلى سهيل بن عدى على قتال من بكرمان.

وكان كـتاب صلح أصبـهان "بسم الله الرحمن الرحـيم * كتاب من عـبد الله للقاذوسبان وأهل أصـبهان وحواليها. إنكم آمنون ما أديتـم الجزية وعليكم من الجزية بقـدر طاقتكـم فى كل سنة تؤدونهـا إلى الذى يلـى بلادكم عن كل حـالم ، ودلالة المسلم وإصلاح طريقه وقراه يوما وليلـة وحملان الراجل إلى مرحلة ولا تسلطوا على مسلم وللمسلمين نصـحكم وأداء ما عليكم ولكم الأمن ما فعلتم فإذا غـيرتم شيئاً أو غيره مغير منكم ولم تسلموه فلا أمـان لكم ومن سب مسلماً بلغ منه فإن ضربه قتلناه وكتب وشهد عبد الله بن قيس ، وعبد الله بن ورقاء وعصمة بن عبد الله".

فتح أذربيجان

صُقْع جليل ومملكة عظيـمة الغالب عليها الجبال وحدها من بـرذعة مشرقاً إلى ارزنجان مغربا ويتصل حدها من جهة الشمال ببلاد الجبل والديلم وقصبتها تبرز وكانت اقبل مدينة المراغة.

وذلك أن نعيم بن مقرن كان فى همذان بعد أن فتـحها فبلغه أن الفرس تجمعوا بواج روذ بين هـمذان وقـزوين. فخرج إليهم وأنشب القـتال معهم فى ملحمـة كبرى كانت تعدل وقعة نهاوند وهزمهم هزيمة منكرة.

فتح الرى

الرى قصبة بلاد الجبال بينها وبين نيسابور ١٦٠ فرسخاً وإلى قزوين ٢٧ فرسخاً وكانت مدينة عظيمة جداً ويقال فى النسبة إليها رازى.

لما فرغ نعيم من أمر واج الروذ قصد الرى فقهر المجتمعين فى تلك الناحية ثم دانوا له بالصلح وكان الذى ولى الصلح عنهم رئيسهم الزينبى أبو الفرخان وبعد أن تم صلحهم بعث أخاه سويد بن مقرن إلى قومس ، فسار إليها وأخذها سلماً. ومن هنا كاتبه ملك جرجان (وهى مدينة عظيمة بين طبرستان وخراسان) بالصلح فكتب له كتاب صلح وتابعهم على ذلك أهل طبرستان.

فتح الباب

الباب مدينة عظيمة على بحر طبرستان (بحر قنوين) وهى ثغر عظيم.

سار سراقة بن عمرو على رأس جيش إلى الباب وعلى مقدمته عبد الرحمن ابن ربيعة. لما أطل عبد الرحمن على الباب كاتبه ملكها شهر براز مستأمنا ليأتيه فأمنه عبد الرحمن فجاء الملك إليه ويظهر أن هذ الملك كان حكيما عاقلا رأى العبرة فى غيره فلم يقبل أن يكون عبرة لسواه. وقد رأى المسلمين قد غلبوا فارس على العراقيين والأهواز وغيرها وأنه وإن كان فى بلد منيع وثيق الحصون وعنده من الحماة من يقدر على الامتناع مدة غير أن ذلك ينهك قوته ويضعفه عمن يتاخمون حدوده من الأعداء وليس وراءه سوى التسليم لحكم قاهريه وليس وراء ذلك سوى القتل وسبى الذرية فأحب أن يبقى على نفسه ومن معه من الرجال والذرية والنساء وأن يتركوا على حال عافية ليكون ذلك أبقى لهم عاقبة وأعون على مصاولة من وراءهم من الأعداء.

قال الملك لعبد الرحمن : إنى بإزاء عدو كلب وأمم مختلفة لا ينسبون إلى أحساب ، ولا ينبغى لذى الحسب والعقل أن يعين أمثال هؤلاء ولا يستعين بهم على ذوى الأحساب والأصول ، وذو الحسب قريب ذى الحسب حيث كان ولست من

القبح فى شىء ولا من الأرمن وإنكم قد غلبتم على بلادى وأمتى وأنا اليوم منكم وصغوى معكم وبارك الله لنا ولكم وجزيتنا إليكم النصر لكم والقيام بما تحبون ، فلا تذلونا بالجزية فتوهنونا لعدوكم.

كلام جميل وعبارة ناصعة تدل على عقل وبعد غور فى السياسة. وماكان جواب عبد الرحمن إلا أن قال له : فوقى رجل قد أظلك. وجوَّزه. فسار إلى سراقة فلما جاءه وكلمه بمثل ما كلم به عبد الرحمن وقع ذلك من سراقة موقعا فقال له : قد قلت ذلك فيمن كان معك على هذا ما دام عليه ، ولابد من الجزاء ممن يقيم ولا ينهض. فقبل ذلك وصار سنة فيمن كان يحارب العدو من المشركين وفيمن لم يكن عندة الجزاء إلا أن يستنفر فتوضع عنهم الجزاء تلك السنة. وكتب بذلك سراقة إلى عمر فأجازه وحسنه. وكان فى كتاب صلحهم الأمان على أنفسهم وأموالهم. وأن ينفروا لكل غارة وينفذوا لكل أمر ناب أو لم ينب رآه الوالى صلاحاً على أن توضع الجزاء عمن أجاب إلى ذلك إلا الحسر أو الحشر عوض عن جزائهم. ومن استغنى منهم وقعد فعليه مثل ما على أهل أذربيجان من الجزاء والدلالة والنزل يوماً كاملا فإن حشروا وضع ذلك عنهم وإن تركوا أخذوا به. وهذه سنة حسنة في عهد عمر بن الخطاب ، فليست الاستعانة بالمخالفين ووضع جزية الحماية عنهم بدعة جديدة.

ثم وجه سراقة بعد ذلك فصائل إلى الجبال المحيطة بأرمينية موقان وتفليس وجبال اللان لم ينجح أحد منهم فى غزاته سوى بكير بن عبد الله الذى توجه موقان من جبال القبج وأعطاهم الأمان على الجزاء عن كل حالم والدلالة والنزل للمسلم يوماً وليلة - وكان غزو سراقة ومن معه على هذا الوجه لم يخطر لعمر ولا لغيره ببال. لأن جيشاً ليس بالضخم يخرج إلى مثل هذا الوجه بغير زاد ولا مؤونة ثم يلاقى هذه السهولة فى الفتح والنجاح أمر يتعجب منه ، وبخاصة أن هذه الناحية ثغر عظيم حافل بالجند ، والفرس كانوا يتوقعون أن تكون نكاية جند الإسلام في هذه الناحية ، فجاء الأمر على ما لا يشتهون. وقد مات سراقة بعد أن استوثق أهل هذه

الناحية واستحلوا الإسلام. وكان قد استخلف عبد الرحمن بن ربيعة فأقره عمر - وقد غزا عبد الرحمن فيما وراء الباب. فلما قطعه لوجهه ذاك قاله له شهر براز : ما تريد أن تصنع ؟ قال : أريد بلنجر. فقال : إنا نرضى منهم أن يدعونا ، قال : ولكنا لا نرضى منهم بذلك حتى نأتيهم فى ديارهم وتالله إن معنا لأقواما لو يأذن لنا أميرنا فى الإمعان لبلغت بهم الردم. قال : ومن هم ؟ قال : أقوام صحبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخلوا فى هذا الأمر بنية كانوا أصحاب حياء وتكرم فازداد حياؤهم وتكرمهم فلا يزال هذا الأمر دائما لهم ولا يزال النصر معهم حتى يغيرهم من يغلبهم وحتى يلفتوا عن حالهم بمن غيرهم. ثم أخذ عبد الرحمن طريقه حتى غزا بلنجر غزاة لم تتم أيها امرأة ولا ييتم فيها صبى. وبلغ بخيله البيضاء على مائتى فرسخ من بلنجر وذلك أن أهل البلاد لما رأوا هؤلاء القوم قد طلعوا عليهم حال الله بين الترك أهل تلك الناحية وبينه وأوقع الرعب فى قلوبهم فقالوا : لولا أن الملائكة تمنعهم من الموت لم يجترئوا علينا ، فتحصنوا منهم ورجع عبد الرحمن بالغنم والظفر.

فتح خراسان

(بلاد واسعة فى شرقى الفارسية وقصبتها مرو. وبها نيسابور وهراة وبلخ وطالقان ونسا وأبيورد وسرخس وغير ذلك من المدن التى دون نهر جيحون).

سبب هذه الغزوة أن كسرى يزدجرد لما وقعت هزيمة جلولاء خرج يريد الرى وقد جعل له محمل واحد يطبّق ظهر بعيره فإذا سار نام فيه ولم يعرس بالقوم. فلما انتهى إلى الرى وعليها أبان جاذويه وثب عليه فأخذه. فقال له : أتغدر بى ؟ قال : لا ولكن قد تركت ملكك وصار فى يد غيرك فأحببت أن أكتتب على ماكان لى من شيء وما أردت غير ذلك ووصل الأدم واكتتب الصكاك وسجل السجلات بكل ما أعجبه ثم ختم عليها ورد الخاتم. وكره يزدجرد المقام معه فخرج إلى كرمان والنار معه. ثم عزم على خراسان فأتى مرو فنزلها وقد نقل النار فبنى لها بيتاً واتخذ بستانا وبني أزجا فرسخين من مرو إلى البستان واطمأن فى نفسه وأمن أن يؤتى وكاتب الأعاجم فيما لم يفتحه المسلمون فدانوا له حتى أثار أهل فارس والهرمزان فنكثوا وثار أهل الجبال مع الفيرزان فكان ذلك سبباً لتغيير عمر رأيه في الانسياح فى بلاد الفرس فانساح أهل البصرة والكوفة حتى أثخنوا فى الأرض وتوجه الأحنف بن قيس إلى خراسان فأخذ على مهرجان قذق ثم إلى أصبهان وأهل الكوفة محاصر وجى. فدخل خراسان من الطبّسين فافتتح هراة عنوة واستخلف عليها صحار العبدى ثم سار نحو مرو الشاهجان وأرسل دونها قتال وأرسل الحارث بن حسان إلى سرخس. فلما دنا الأحنف من مطرف بن عبد الله بن الشخّير وليس مرو الشاهجان خرج منها يزدجرد إلى مرو الروذ حتى نزلها وحل الأحنف بمرو الشاهجان.

كتب يزدجرد وهو بمرو الروذ إلى خاقان ملك الترك يستمده جنداً يقاتل بهم العرب فأمده. وكتب إلى ملك الصغّد كذلك وإلى ملك الصين يستعينه.

أما الأحنف بن قيس فاستخلف على مرو الشاهجان حارثة بن النعمان الباهلى بعد أن لحقت به أمداد الكوفة على أربعة أمراء وهم : علقمة بن النضر النصرى ،

وربعى بن عامر التميمى ، وعبد الله بن أبى عقيل الثقفى ، وابن أم غزال الهمدانى. ثم خرج الأحنف سائراً نحو مرو الروذ فخرج منها يزدجرد ومر على وجهه بلخ فأقام الأحنف بمرو الروذ وقدم جنود أهل الكوفة إلى بلخ ثم أتبعهم الأحنف فالتقت جنود أهل الكوفة بيزدجرد ومن معه فانهزم يزدجرد وتوجه بمن بقى معه من الفرس إلى النهر فعبره ولحق الأحنف بأهل الكوفة وقد فتح الله عليهم وحصلت بلخ فى أيديهم وتتابع أهل خراسان ممن شذ أو تحصن على الصلح فيما بين نيسابور إلى طخارستان وعاد الأحنف إلى مرو الروذ واستخلف على طخارستان ربيعى بن عامر. ثم كتب الأحنف إلى عمر بفتح خراسان ، فقال : لوددت أنى لم أكن بعثت إليها جنداً ، ولوددت أنه كان بيننا وبينها بحر من نار. وكتب عمر إلى الأحنف : «أما بعد فلا تجاوزن النهر واقتصر على ما دونه وقد عرفتم بأى شىء دخلتم خراسان فداوموا على الذى دخلتم به خراسان يدم لكم النصر وإياكم أن تعبروا فتنغضوا" .

كان عبور يزدجرد قبل أن يستتب لخاقان وعوزك ملك الصغد إنجاد يزدجرد والملوك ترى حقاً عليها إنجاد الملوك. فأقبلت جيوش الترك وحشر أهل فرغانه والصغد وعاد بهم يزدجرد إلى خراسان فلما عبر إلى بلخ خف أهل الكوفة الذين بها إلى مرور الروذ وجاء إليها المغيثون والأحنف بها. وكان الأحنف حين بلغه عبور القوم يخرج يتسمع ليلا فمر برجلين ينقيان علفا وأحدهما يقول للآخر : لو أن الأمير جعل هذا الجبل خلف ظهورنا وتركنا نقاتل العدو من وجه واحد رجوت أن يكون النصر لنا. فأخذهما الأحنف وعمل بها. وجاءت جموع الترك وسواهم فصاروا يقاتلون حتى إذا جاء الليل انشمروا إلى مكان بعيد - ولم يهدأ للأحنف روع حتى علم أين يكونون. ثم خرج ليلة وحده حتى إذا كان بمكان قريب منهم وقف فلما كان وجه الصبح خرج فارس منهم ومعه طبل فطبل به ثم أخذ مكاناً وقف فيه فجاء الأحنف فقتله. ثم خرج الثانى ففعل فعله ثم وقف فقتله الأحنف. ثم خرج الثالث ففعل فعلهما فألحقه بهما وانصرف لا يشعر به أحد من المسلمين. فلما خرج الترك وجدوا فرسانهم قتلى فتطيروا ورجعوا عودهم على بدئهم يؤمون بلادهم وقالوا : لا خير لنا فى قتال هؤلاء.

وفى تلك الأثناء ذهب يزدجرد فيمن معه من الفرس إلى مرو الشاهجان والأحنف لا يعلم به فتحصن منه حارثة بن النعمان ومن معه فحصرهم واستخرج كنوزاً كانت له فأعجل عنها. وأراد أن يستقل فأراد أهل فارس صرفه عن قصده وقالوا له. إن هذا رأى سوء منك إنك إنما تأتي قوماً فى مملكتهم وتدع مملكتك وأرضك وقومك ولكن ارجع بنا إلى هؤلاء القوم فنصالحهم فإنهم أوفياء وأهل دين وهم يلون بلادنا. وإن عدواً يلينا فى بلادنا أحب إلينا ملكه من عدو يلينا فى بلاده ولا دين لهم ولا ندرى ما وفاؤهم. فأبى عليهم وأبو عليه وقاتلوه وهزموه وكاتبوا الأحنف بالخبر فاعترضهم المسلمون والفرس يتنازعونه فأعجلوه عن الأثقال ومضى حتى قطع النهر إلى فرغانة والترك فلم يزل مقيما هناك زمان عمر. وأقبل أهل خراسان على الأحنف يصالحونه ودفعوا إليه الخزائن وتراجعوا إلى بلدانهم وأموالهم على أفضل ما كانوا فى زمان الأكاسرة كأنما هم فى ملكهم إلا أن المسلمين أوفى واعدل عليهم فاغتبطوا وغبطوا.

ولما عاد رسول يزدجرد الذى بعثه إلى ملك الصين أخبره أنه أهدى إليه هدايا وأنه سأله عن القوم الذين غلبوهم على بلادهم وقال له : إنك تذكر قلة منهم وكثرة منكم ولا يبلغ أمثال هؤلاء القليل الذين تصف منكم فيما أسمع من كثرتكم إلا بخير عندهم وشر فيكم ، فقلت : سلنى عما أحببت. فقال. أيفون بالعهد ؟ قلت : نعم قال : وما يقولون لكم قبل أن يقاتلوكم ؟ قلت يدعوننا إلى واحدة من ثلاث : إما دينهم فإن أجبناهم أجرونا مجراهم ، أو الجزية والمنعة أوالمنابذة. قال : فكيف طاعتهم أمراءهم ؟ قلت : أطوع قوم لمرشدهم. قال : فما يحلون وما يحرمون ؟ فأخبرته فقال : أيحرمون ما يحلون أو يحلون ما يحرمون ؟ قلت : لا قال فإن هؤلاء لايهلكون أبداً حتى يحلوا حرامهم ويحرموا حلالهم ثم قال : أخبرنى عن لباسهم فأخبرته. وعن مطاياهم فقلت الخيل العراب ووصفتها فقال نعمت الحصون هذه.

ووصفت له الإبل وبروكها وانبعاثها بحملها فقال : هذه صفة دواب طوال الأعناق. وكتب مع الرسول إلى يزدجرد أنه لم يمنعنى أن أبعث إليك بجيش أوله بمرو وآخره بالصين الجهالة بما يحق على ولكن هؤلاء القوم الذين وصفهم لى رسولك لو يحاولون الجبال لهدوها ولو خلا لهم سر بهم أزالونى ما داموا على ما وصف لى فسالمهم وارض منهم بالمساكنة ولا تهيجهم ما لم يهيجوك.

فتوح أهل البصرة

كان مما فتحه أهل البصرة من البلاد الفارسية - توَّج - فتحها سارية بن زنيم الدؤلى - ثم فتح فساو دار بجرد - وفتح عثمان بن أبى العاص اصطخر - وفتح سهل بن عدى كرمان - وفتح عاصم بن عمرو سجستان - وفتح الحكم بن عمرو التغلبى مكران.

قد نقل الأستاذ الخضرى حديثاً طريفاً هو حديث قيس بن سلمة وكان عمر قد ولاه قيادة جيش لمقاتلة الأكراد ، فسار إليهم وهزمهم. ولماقسم على الجند النفل رأى شيئاً من حليـة. فقال : إن هذا لا يبلغ فيكم شيئاً فتطيب نفوسكم أن نبعث به إلى أمير المؤمنين فإن له برداً ومؤونة ؟ قالوا : نعم ، قد طابت أنفسنا. فجعل تلك الحلية فى سفط ثم بعث برجل من قومه يوصل ذلك إلى عمر. قال الرسول : فأتيت إلى المدينة فإذا عمر يغدى الناس متكئاً على عصا كما يصنع الراعى وهو يدور على القطاع. فلما دفعت إليه قال : اجلس. فجلست فى أدنى الناس فإذا طعام فيه خشونة - طعامى الذى معى أطيب منه فلما فرغ الناس. قال يا يرفأ : ارفع قصاعك ثم أدبر ، فاتبعته ، فدخل داراً ثم دخل حجرة ، فاستأذنت وسلمت ، فأذن لى فدخلت عليه فإذا هو جالس على مسح متكىء على وسادتين من آدم محشوتين ليفاً فنبذ إلى بإحداهما فجلست عليها. فإذا بهو فى صفة فيها بيت عليه سُتَير فقال : يا أم كلثوم غداءنا ، فأخرجت إليه خبزة بزيت فى عرضها ملح لم يدق فقال : يا أم

كلثوم ، ألا تخرجين إلينا فتأكلين معنا من هذا ؟ فقالت إنى أسمع عندك حس رجل قال: نعم. ولا أراه من أهل البلد. قالت : لو أردت أن أخرج إلى الرجال لكسوتنى كما كسا ابن جعفر امرأته ، وكما كسا الزبير امرأته ، وكما كسا طلحة امرأته. قال : أو ما يكفيك أن يقال أم كلثوم بنت على بن أبى طالب وامرأة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - ثم قال : كل فلو كانت راضية لأطعمتك أطيب من هذا - قال : فأكلت قليلا وطعامى الذى معى أطيب منه وأكمل. فما رأيت أحداً أحسن أكلا منه. ما يتلبس طعامه بيده ولا فمه. ثم قال : اسقونا. فجاءوا بعس من سلت. فقال اعط الرجل قال : فشربت قليلا ثم أخذه فشرب حتى قرع القدح جبهته ، فقلت حاجتى يا أمير المؤمنين أنا رسول سلمة بن قيس. قال : مرحباً بسلمة بن قيس ورسوله حدثنى عن المهاجرين كيف هم ؟ فقلت هم كما تحب من السلامة والظفر على عدوهم. قال : كيف أسعارهم ؟ قلت : أرخص أسعار ، قال : كيف اللحم فيهم ؟ فإنها شجرة العرب ولا تصلح العرب إلا بشجرتها ، قلت : البقرة بكذا والشاة بكذا. ثم أدى إليه رسالته وأخبره خبر الحلية التى اختصه بها سلمة. فلما نظر إلى فصوصها وثب ثم جعل يده فى خاصرته. ثم قال : لا أشبع الله إذن بطن عمر ، ثم قال كيف ما جئت به ؟ أما والله لئن تفرق المسلمون فى مشاتيهم قبل أن يقسم هذا فيهم لأفعلن بك وبصاحبك الفاقرة. قال. فارتحلت حتى أتيت سلمة. فقلت : ما بارك الله لى فيما خصصتنى به. أقسم هذا فى الناس قبل أن يصيبنى وإياك فاقرة فقسمه عليهم.

هذه الحكاية لا تخبرنا بحديث لا نعلمه عن عمر فى زهده وتقشفه في منزله وأخذه أهله بذلك ولكنها تنبىء عن زهد فى الدنيا وقد عرضت عليه وخروجه منها وقد تلبست به وتشبثت بأهدابه وذلك ينبىء عن قوة إرادة لا تبلغ إلا بمعونة الله تعالى. فقد كانت الحلية حلاً بلاً له جاءته عن طيب خاطر من أصحابها رضية بها

نفوسهم. ولكنه يرى القوم جند الإسلام وعزه فهو يريد توفير السعادة لهم وإيثارهم بالغنى ليزدادوا رغبة فيما هم بسبيله وهو لا يريد تغيير حاله التى هو فيها لئلا تشغله الدنيا عنهم وتصدف به عن الالتفات إلى أحوالهم - وفوق ذلك فإنه يريد قطع مادة الطموح إلى غنائم المسلمين ونفلهم لئلا يكون أخذ مثل هذه اليوم بحق مدرجة لامتداد يد غيره من بعده إلى أمثالها بغير حق متأولين في تناول ما يتناولون ماكان من عمر من أخذ بعض الغنائم ولا يبعد أن يتأولوا أن ذلك كان صفياً له. فيأخذوا بحقه ما هو باطل ويستحلوا ما هو محرم. فيكون ذلك مدرجة للفساد وفشو الطمع وحب الأثرة وفى ذلك هلاك الراعى والرعية.

وبما تقدم من الفتوح التى سردناها سقطت مملكة فارس نهائياً بيد المسلمين وصار لهم قطعة من الأرض يحدها من الغرب نهر الفرات والخليج الفارسى ومن الشرق نهر جيحون والسند ومن الجنوب المحيط الهندى ومن الشمال بلاد أومينية. وكان افتتاح ذلك كله فى زمن لم يتجاوز سبع سنين ؛ وكان النصر لهم رفيقا فى كل الوقائع التى واقعوا فيها الفرس إلا قليلا. وكان للمسلمين اسم جميل عند عامة الفرس لما رأوا فيهم من العدل والوفاء وحسن الملكة. وكيف لا يكون ذلك رأيهم وعمر يواليهم بالنصائح والعظات ولا يترك فرصة تمر دون تذكيرهم بالوفاء والعدل وحسن السيرة فيما بينهم وفى أهل ذمتهم.

وقد كان شهربراز مع عبد الرحمن بن ربيعة وجاءت شهر براز ياقوتة ثمينة ، فناولها لعبد الرحمن فنظر فيها ثم ردها إليه. فقال شهرباز وهو صاحب الباب : لهذه خير من هذا البلد - يعني مدينة الباب - وأيم الله. لأنتم أحب إليَّ ملكة من آل كسرى ، ولو كنت فى سلطانهم ثم بلغهم خبرها (الياقوتة) لا نتزعوها منى وأيم الله لا يقوم لكم شيء ماوفيتم ووفى ملككم الأكبر.

وإلى هنا ننقل الكلام إلى ما حصل فى أرض الروم في عهد عمر رضى الله عنه.

الفتوح فى بلاد الروم

لم يتفق المؤرخون على ترتيب الوقائع فى مملكة الروم فبعضهم يقدم بعض الوقائع على بعض مع اتفاقهم على حصول تلك الوقائع ونتائجها : والسبب فى هذا الاختلاف تلاحق الوقائع وتواليها فيما بين السنة ١٣ والسنة ١٤ . فربما كان حصول واقعتين فى وقت واحد فيذكر الراوى إحدى الواقعتين ثم يثنى بالأخرى فيتلقف الكاتب ذلك ويرتبهما على حسب ترتيبها فى الذكر ويقدم إحداهما على الأخرى. فإذا جاء راو آخر وعكس الترتيب فى الذكر تبعه مؤرخ آخر وصار على طريقته. وربما فتح البلد الواحد مرتين وفتح بلد آخر بينهما فيذكر الراوى الفتح الأول ثم يذكر فتح البلد الآخر - ثم يأتى راو آخر ويذكر فتح البلد الأخر ويذكر الفتح الثانى. وهكذا.

قال صاحب أشهر مشاهير الإسلام : أما أمراء المسلمين فقد أوغلوا بجيوشهم فى أحشاء البلاد. فنزل أبو عبيدة الجابية ، ونزل شرحبيل الأردن ، ونزل عمرو بن العاص العربة من فلسطين وكان يريد البلقاء ومن ثم اختلف المؤرخون فى كيفية ترتيب الوقائع. فمن قائل إن أول وقعة كانت بين المسلمين والروم وقعة اليرموك ، ومن قائل غير ذلك. والذى قال بالأولى بنى قوله على أن المسلمين لما تفرقوا فى البلاد وراعهم ماجمعه لهم هرقل من الجموع استشاروا فأشار عليهم بالاجتماع فاجتمعوا باليرموك وكتبوا إلى أبى بكر فأمدهم بخالد بن الوليد. ولما وصل إليهم وجد الأمراء متساندين فتأمر عليهم. إلى أن قال :

مع أن إمعان الأمراء بجيوش المسلمين فى الجزء الجنوبى والجنوب الغربى من البلاد ووصول بعضهم إلى الأردن قرب طبرية والبعض الآخر إلى فلسطين ثم اختلاف المؤرخين فى عزل خالد بن الوليد هل كان وهم على دمشق أم في اليرموك. كل هذا يؤيد أن واقعة اليرموك إنما كانت بعد وقائع كثيرة كواقعة مرج الصفر وواقعة أجنادين التى بشر أبو بكر بظفر المسلمين فيها بآخر رمق وواقعة العربة من فلسطين وغيرها ، وأن المسلمين افتتحوا كثيراً من البلاد قبل اليرموك صلحاً أو حرباً. ويؤيد هذا ما

ذكرناه سابقاً على البلاذرى من أن أهل حمص عاهدوا المسلمين على الوفاء لما انجلت حاميتهم عن حمص بقصد الاجتماع مع بقية الجيوش على اليرموك.

ويدل على أن لجيوش المسلمين مع بعض مدن الشام وبلاده وقائع قبل اليرموك قول القعقاع بن عمرو وقد كان فى جيش خالد الذى جاء من العراق :

بدأنا بجمع الصفرين فلم ندع	لغسان أنفاً فوق تلك المناخر
صبيحة صاح الحارثان ومن به	سوى نفر نجتذُّهم بالبواتر
وجئنا إلى بصرى وبصرى مقيمة	فألقت إلينا بالحشى والمعاذر
فضضنا بها أبوابها ، ثم قابلت	بنا العيس فى اليرموك جمع العشائر

فتح دمشق

قدمنا أن وقعة اليرموك كانت فى أول خلافه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وأن الرسول جاء بموت أبى بكر وتولية عمر يوم الواقعة وأسر إلى خالد بالأمر وأن خالدا كتم الأمر إلى تمام الوقعة وانتهائها بالفتح.

فلما انتهى أمر اليرموك ، استخلف أبو عبيدة عليها بشير بن كعب الحميرى وسار حتى نزل بالصفر ، فأتاه الخبر بأن قالة الروم نزلوا بفحل وأن الروم توافى مددهم إلى دمشق ، فكتب إلى عمر بذلك ، فأمر عمر بأن يسير فيبدأ بدمشق فإنها حصن الشام وبيت ملكهم وأن يشغل من بفحل بخيل تكون بإزائهم حتى إذا فتح دمشق عاد إلى فحل فنازل من بها. وقد كتبت فى سنة ١٣٣٦ (١٩٨١م) ما يأتى :

البدء بالقوة الكبرى تسير عليه قواد الجيوش وأهل الفنون الحربية فى هذا الزمن. فقد كان من هم قواد الألمان فى الحرب التى أثاروا عجاجها سنة ١٩١٤ والعالم لم يزل يصطلى بنارها إلى اليوم أن يبدؤا بالقوة الفرنسية وهى القوة الحربية الحقيقية فى ذلك اليوم ليسحقوها غير حاسبين للقوة الروسية التى كانت تتجمع فى

شرق مملكتهم حساباً لأنها بطيئة الحشد لقلة المواصلات واحتياجها إلى الزمن الفسيح لتستكمل عدتها وتتهيأ لخوض أهوال الحرب حاسبين أنهم يفرغون من الجيش الفرنسي فى زمن يسير ثم يتهيأون للجيوش الروسية على هينهم فلما قامت الجيوش البلجيكية فى سبيلهم وصدتهم عن مباغتة الجيش الفرنسى وعوقتهم نحو سبعة عشر يوماً فاستعد الجيش الفرنسى فيها استعداداً كاملا وصار أداة حرب صالحة ولم يدركوا أربتهم منه ، ورأوا روسيا جادة فى مفاجأتهم على حالهم تلك بجيشها العامل ، كفوا عن الإيغال وعمدوا إلى حرب الخنادق ثم وجهوا إلى الجيش الروسى الهائل جيوشاً نازلته وقهرته ثم صارت الحرب إلى الحال التى هى عليها الآن ونحن فى يوم ٥ مارس سنة ١٩١٨.

صدع أبو عبيدة بأمر عمر وهو أن يذهب إلى الشام أولا فيبدأ بها فإذا فتحت سار إلى فحل فإذا فرغ من أمرها سار هو وخالد إلى حمص وترك شرحبيل بن حسنة وعمراً بالأردن وفلسطين. فنزل جيش من المسلمين على فحل وخشى الروم أن يصل المسلمون إليهم فبثقوا الماء حولهم فوحَلَت الأرض وحصروا أنفسهم بأيديهم وسهلوا للمسلمين المقام على حصارهم وكانوا أول محصور.

وقام أبو عبيدة عسكراً بين حمص ودمشق لئلا يأتى المدد من حمص إليها وأرسل جنداً آخر ليكون بين دمشق وفلسطين ليصد المدد إن جاء منها. ونزل أبو عبيدة على ناحية من دمشق وخالد على ناحية وعمرو على ناحية وكان هرقل نازلا قريب حمص.

حصر المسلمون دمشق على هذه الصورة وطمع أهلها فى أن يمدهم هرقل بالجنود فصابروا المسلمين وصبروا على هذا الحصار الشديد سبعين ليلة والمسلمون يزاحفونهم ويرمون عليهم بالمجانيق وهم معتصمون بالمدينة يرجون الغياث. وأرسل هرقل لإنجادهم خيلا فمنعتها خيول المسلمين التى عند حمص ويئس القوم من المعونة.

كان خالد لا ينام ولا ينيم إلا على تعبيـة ولا يخفى عليه من أمر الروم بدمشق شىء وقد اتخذ حبالا كهيئـة السلاليم وأوهاقا. وقد علم أنه ولد للبطريق الذى على دمشق مولود فصنع طعـاما ودعا إليه حماة المدينة فأكلوا وشـربوا وزالوا عن مواقفهم أمنة منهم وثقـة بمنعة حصـونهم. فانتهـز خالد هذه الفرصـة ونهض فيمن مـعه من جنده. وتقدمهم هو والقعقاع بن عمرو ومـذهور بن عدى وأمثالهم وقالوا إذا سمعتم تكبيراً علـى السور فارقوا إلينا واقصـدوا الباب. فلما انتهى إلى البـاب الذى يليه هو وأصحابه رمـوا الشرف بالحبال وعلى ظهـورهم القرب التى قطعوا بهـا الخندق. فلما ثبت لهـم وهقان تسـلق القعـقاع ومـذهور وأثبـتا الأوهاق بالـشرف فـتسلق خـالد وأصحابه. وكان المكان الذي اقتحموا منه أحسن مكان يحيط بدمشق وأشده مدخلا. ولما استـووا على السور حذر خالـد عامة أصحابـة وانحدر معهم وخلـف من يحمى مرتقاهم وأمرهم بالتكبير فكبر الذين على رأس السور فنهد المسلمون إلى الباب ومال إلى الحبال جند كثيـر فارتقوا فيها. وانتهى خالد فيمن معـه إلى أول من يليه فأنامهم وانحدر إلى الباب فقتل البوابين وثار أهل المدينة لا يدرون ما دهمهم واشتغل أهل كل ناحية بمن يـليهم خشية الاقـتحام فلم ينجدوا أهل الـناحية التى بها خـالد وأصحابه وكسر خالد ومن معه إغـلاق الباب بسيوفهم وفتحوا للمسلمـين وأعملوا سيوفهم فى المقاتلة الذين فى ناحية خالد فلم يبق منهم أحد إلا قتل.

لما شد خالد على من يليه وأدرك منهم مـا أراد عنوة اجتمع من أفلت منهم إلى الأبواب التي تلى غيره. وكانوا قبل ذلك قد أرسلوا على المشاطرة فأبوا عليهم ذلك. فلم يدر أهل تلك الأبواب من المسـلمين إلا بالروم قد ألقوا إليهم بأيديـهم يبذلون ما امتنعـوا من الإقرار به من قبل وهـو الصلح على المقاسـمة وهم لا يدرون سببـاً لهذا الرضا بعـد التأبى والامـتناع. فلما قـبلوا منهم قالوا لـهم : ادخلوا فامنعـوا عنا من بالجانب الآخر. فدخل أهل باب بصلح مما يليـهم ودخل خالد مما يليه عنوة ، فالتقى القواد فى وسط دمـشق هذا استعراضاً وانتـهاباً وهذا صلحاً وتسكينا. وأجـروا ناحية

خالد على صلح أهل الأبواب الأخرى. وكان صلح دمشق على المقاسمة فى الدينار والعقار ودينار عن كل رأس. هكذا ذكر كثير من المؤرخين والظاهر أن رواية المقاسمة على العقار ليست صحيحة بدليل قول عمر لأبى عبيدة "وأما الحنطة والشعير التى وجدتموها فى دمشق وكثر مشاجرتكم فيها فهى للمسلمين وأما الذهب والفضة ففيهما الخمس".

وبعد انتهاء فتح دمشق جاء أمر عمر لأبى عبيدة يأمره بصرف جيش العراق إلى العراق فصرفه مع هاشم بن عتبة وأبقى خالد اضاية.

غزوة فحل

لما فتح المسلمون دمشق كان وراءهم جنود الروم فى فحل ولا يتسنى لهم الإيغال فى تلك البلاد ووراءهم فى ذلك المكان قوة رومية لا يستهان بها. فقد قالوا إنهم كانوا ثمانين ألفاً قد حصرتهم المياه والوحول والمسلمون بإزائهم من ورائها ففصل أبو عبيدة بالجيوش وخلف يزيد بن أبى سفيان على دمشق وعلى الناس شرحبيل بن حسنة لأنه ولى الحرب فى الأردن. وجعل خالدا على المقدمة وأبا عبيدة وعمرا على المجنبتين ، وضرار بن الأزور على الخيل ، وعياض بن غنم على الرجل. ولما انتهوا إلى أبى الأعور السلمى وكان بين الأردن ودمشق ليصد المدد فقدموه إلى طبرية فحاصها ونزل سائر الجيش على فحل.

ولما رأى المسلمون أن الروم فى حرز حريز من الوحل الذى جعل الوصول إليهم مستحيلاً كتبوا إلى عمر ليأمرهم بأمره. والمسلمون ناعمون فى ريف الأردن وخيراته والروم في حرزهم كأنهم دودة القز فى برجها الحريرى ، فهم محرومون من كل شىء فيه نعيم ولا يقدرون على الخروج إلا على غرر.

ضاقت على الروم المذاهب فرجوا أن يصيبوا من المسلمين غرة ويوقعوا بهم وظنوا بالمسلمين الغفلة فخرجوا بقيادة قائدهم سقلار غير أن شرحبيل كان حازماً

شديد اليقظة فكان لا يبيت إلا على تعبية واستعداد للحرب. فلما هجم الروم على المسلمين خارج الوحل والماء لم ينظرهم المسلمون بل بادروهم بالشدة وقاتلوهم أشد قتال ليلتهم ويومهم فلما جن عليهم الليل حار الروم وأرادوا الرجوع إلى مكانهم الأول فضلوا ولم يهتدوا إلى الطريق الذى خرجوا منه فانهزموا حيارى وقتل قائدهم الأول (سقلار) وقائدهم الثانى فوقع فيهم الاختلاط وانهزموا فانتهوا فى هزيمتهم إلى الوحل الذي صنعوه بأيديهم ليتقوا به الموت فكان موتهم ذلك الذى جعلوه وقاية لهم. فإنهم لما تورطوا فى الرداغ ركبهم المسلمون وهم لا يردون يد لامس وكان الوحل الذى كرهه المسلمون أكبر عون لهم على الفتك بأعدائهم.

ومن هنا ومما كان باليرموك نعلم أن القيادة فى جيوش الروم لم تكن من الحنكة والدربة على الحرب ومكائده في وزان القيادة فى الجيوش العربية لأن النزول بهم على الواقوصة كان أشد وبالا عليهم من سيوف أعدائهم.

وكذلك بثق الماء حول الجيش فى فحل كان حصاراً لهم فى مقامهم وشركاً لهم فى حربهم. والله يحكم لا معقب لحكمه.

الوقعة بمرج الروم

علم هرقل بما أصاب جنده في دمشق والأردن وما عزم عليه أبو عبيدة من قصد حمص فأراد أن يشغل المسلمين بجيش مع قائده ثيودور وآخر بقيادة القائد شنس. ويظهر أن القائدين كانا على اتفاق فيما يصنعان بأن يقف أحدهما لشغل جيش المسلمين فى الوقت الذى يخالف الآخر إلى دمشق وهى فى قلة من الحامية ليأخذها وينقض على المسلمين ما أبرموا.

وقد التقى الجيشان بجيش المسلمين فى مرج الروم غربى دمشق فنزل أبو عبيدة بإزاء شنس ونزل خالد بإزاء ثيودور. ولما أصبحوا نازلهم شنس ولم يجد خالد لثيودور أثرا ، وعلم أنه قصد دمشق فأمر أبو عبيدة خالداً باقتفاء أثره.

وعلم يزيد بن أبى سفيـان بمقدم جيش الروم فخرج لقتـالهم. ولم يشعر الروم بخالد ومن معـه إلا وقد أتوهم من ورائهم فأخذوا من بين أيديهـم ومن خلفهم فلم ينج منهم إلا الشريـد. ونازل أبو عبيدة ثيودور فقـتله وهزم جيشه وتبعـهم المسلمون يقتلونهم ووصل فل ذلك الجيش إلى حمص.

تحقق هرقـل أنهم بعد ذلك مـوافوه إلى حمص فـيئس من بقاء الـشام فى يده فودعها الوداع الأخـير بقوله (Adeiu Siria) وأمر عـامله على حمص بالتـحصن وأن يطاول المسلمين حـتى يأتى الشتـاء وأن لا ينازلهم إلا في يوم بارد فلا يمر الـشتاء إلا وقد أهلكهم البرد.

فتح حمص

حمص مدينة بين دمشق وحلب.

قصد أبو عبيدة حمص عن طريق بعـلبك وقدم إليها السمط بن الأسود الكندى وقدم خـالد إلى البقاع فـافتتح خـالد بلاد البقاع. ونـزل أهل بعلبك إلى أبى عبـيدة فصالحوه على أن يكون لهم الأمان على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وكتب لهم بذلك كتابا ثم توجـه إلى حمص فنزل عليها وقـاتلهم قتالا شديداً وكـانوا يغادون المسلمين القتـال ويراوحونهم في كل يـوم شديد البرد ولقـى المسلمون برداً شـديداً وطال على الروم الحصار. ولما رأوا أن الشتاء قد انصرمت مدته ولم ينصرف المسلمون عنهم اشتد عليهم الأمر ورجعـوا إلى ما كان يدعوهم إليه بعض مشـايخهم وهم يأبون منه وهو الصلح فطلبوا من أبى عبيدة ذلك فصالحهم على صلح أهل دمشق. ونزل بها السمط ابن الأسود الكندى في بنى معاوية والأشـعث بن ميناس فى السكون والمقداد فى بلى ونزل بهـا غيـرهم. وقد كـان نزول المسلمين في كـل مرفوض جـلا أهله أو سـاحة متروكة.

وقد بعث أبو عبيدة بالأخماس والفتح إلـى عمر مع عبد الله بن مسعود فكتب إليه عمر أن أقم فـى مدينتك وادع أهل القوة والجلد من عرب الشام فـإنى غير تارك البعث إليك بمن يكانفك إن شاء الله.

وغرض عمر من ذلك أن يكون أبو عبيدة فى قوة ومنعة تكف عادية الروم لأن بلده أقرب إلى بلادهم وهى مظنة لأن تكون غرضا لهم ثم بعث أبو عبيدة خالداً إلى الحاضـر - حاضر حلـب - وكان أصناف من العـرب ينزلونه وكان جـمع من الروم عليهم ميناس وهو أعظمـهم بعد هرقل فلاقاهم خالد بالحاضر فهـزمهم وقتل قائدهم ولم يفلت من هذا العسكر أحد.

أما عرب الحاضر فاعتذروا إلى خالد بأنهم حشروا كرهاً ولم يكن من نيتهم أن يقاتلوا فـقبل منهم وتركهم. ولما بلغ عـمر ذلك قال : أمَّرَ خالد نفـسه يرحم الله أبا بكر هو كان أعلم بالـرجال منى. وقال فى حقه وفى حق المـثنى بن حارثة : إنى لم أعز لهما عن ريبة ولكن الناس عظموهما فخشيت أن يوكلوا إليهما.

ثم سار خالد حتى نزل على قِنّسرِين فتحصن أهلها منه فقال لهم : لو كنتم فى السحاب لحملنا الله إليكم أو لأنزلكم إلينا. فنظر القوم فى أمرهم وعلموا أنهم ليسوا بأقوى من أهل الأمصار قبلهم ، فصالحوه على صلح أهل حمص.

ثم فتحت قيسارية على يد معاوية بن أبى سفيان.

ثم فتحت أجنادين على يد عمرو بن العاص وكان بها قائد يقال له أرطبون هو أدهى الروم وأبعد رجالهم غوراً وأنكاهم فعـالا - ولما بلغ عمر بن الخطاب قال : قد رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب فانظروا عم تنفرج. وكان الأرطبون قد أراد تفريق جنود العرب فوضع بالرملة جنداً عظيما ، وبإيليا جنداً عظيما. فكتب عمرو إلى عمر بذلك ووجـه جنوداً إلى كل ناحيـة فيهـا جند الروم وكتـب عمر إلى يزيـد أن يوجه معاوية إلى أهل قيسارية ليشغلهم عن عمرو بن العاص فافتتحها كما قدمنا. وتتابعت

الإمداد على عمرو فأرسل يمد من أقامهم بإزاء جنود الروم بالرملة وأيلة. ومكث مدة لا يقدر من الأرطبون علـى سقطة ولا تشفيه الرسل. فـوليه بنفسه فدخـل عليه كأنه رسول ، فأبلغه ما يريد وسمع كلامه وتأمل حصونه حتى عرف ما أراد.

وقع في نـفس الأرطبـون أن الرسـول عمـرو بن الـعاص ، أو الـرجل الذي يستشيره عـمر في أمر الحرب. فدعا برجل من جنده وأسرَّ إليـه كلاماً. وفطن عمرو للأمر. فقال له قد سـمعت مني وسمعت منك فأما ما قلته فـقد وقع مني موقعاً وأنا واحد من عشرة بعـثنا عمر بن الخطاب مع هذا الوالى لنكاتفه ويشـهدنا أموره فأرجع فآتـيك بهم الآن فـإن رأوا فى الذى عرضت مـثل الذى أرى لقـد رآه أهل العـسكر والأمير ، وإن لم يروه رددتهم إلى مأمنهم وكنت على رأس أمرك. فقال: نعم. ودعا رجلا فساره وقـال اذهب إلى فلان فرده فرجع إليه الرجل وقال لعـمرو انطلق فجيء بأصحابك ، فخرج ورأى أن لا يعود إلى مثلهـا. وبلغت عمر فقال غلبه عمرو ، لله عمرو - وقد استبعد الأستاذ الخضرى أن يغرر رجل حذور كعمرو بنفسه ويترك جيش المسلمين وهو قائده وروحه ويجعله تحت الخطر ، وإنى أوافقه وأقول ماكان ليفعل هذا التغرير ووراءه رجل يقظ حذر كعمر.

اقتتل الروم والمسلمون فى أجنادين قتالاً شـديداً وكثرت بينهم القتلى حتى كان هذا القتال فى شدته يشبه القتال فى اليرموك ثم انهزم الأرطبون بجنوده حتى آوى إلى إيليا وأفرج له المسلمون الذين عليها حتـى دخلها وأقام بها إلى أن فتحت ونزل عمرو أجنادين.

فتح بيت المقدس

لما انتهى عـمرو من أمر أجنادين ترك أهـل إيليا وهى بيت المقدس فـى الحصار وأخذ يتمم فتـح مدن فلسطين وقراها : ففتح غزة ، وَلُدّ ، ونـابلس وبيت جبرين ، ومرج عيون ، ويافـا - فلما أتم هذا الفتح قصد بيت المقـدس والأرطبون ممتنع بها ، فأخذ يخاطبه فى تسليم المدينة فأبى.

وقد جاء فى الطبـرى أن عمراً دعا برجل يعرف الروميـة وأمره أن يأتى أرطبون بكتاب من عـمرو فيه : جـاءنى كتابك وأنت نـظيرى ومثلى فى قـومك لو أخطأتك خصلة ، تجاهلت فضيلتى ، وقد علمت أنى صاحب فتح هذه البلاد واستعدى عليك فلانا وفـلانا. لوزرائه. وأمر الرسول أن يـقرب ويتنكر وقال استمع ما يقـول حتى تخبـرنى به إذا رجعت - فلمـا جمع أرطبون وزراءه وقـرأ عليهم الكتـاب أغربوا فى الضحك. وقـالوا له : من أين علمت أنه ليس بـصاحبها ؟ - فـقال صاحبـها رجل اسمه عمر ثلاثة أحرف. فكتب عمرو إلى عمر يستمده ويقول إنى أعالج حرباً كؤوداً صدومـاً وبلاداً قد ادخـرت لك فرأيك فى هذه الـرواية غرابة ولا يمكن لـلمؤرخ أن يستـند إليها لأنـها لم تبن على أسـاس متين. والذى أراه أنصع ، روايـة أخرى عن الطبرى ؛ هى أن أبا عبيدة حصر أهل بيـت المقدس فطلبوا منه أن يصالحهم على أهل الشام وأن يكون المتـولى للعقد عمـر بن الخطاب. فكتب إليه بذلك فـسار عن المدينة ممداً لهم بعد أن اسـتخلف عليّا عليهـا وقد قال له على أين تخرج بـنفسك إنك تريد عدواً كلبـاً. فقال : إنى أبادر بجـهاد العدو موت العـباس. إنكم لو فقدتم الـعباس لانتقض بكم الشر كما ينتقض أول الحبل.

وكان خروج عمر إلى الشام فى هذه المرة أول خـرجه خرجها وكتب إلى أمراء الشام أن يستخلفوا على ما بأيديهم ويوافوه بالجابية فلقوه بها. فكان أول من لقيه يزيد ابن أبى سفيان ، وأبو عبيدة بن الجراح ، وخالد بن الوليد على الخيول عليهم الديباج والحرير ، فلما رأى عـمر ذلك كبر عليه أن يرى القوم فى زينـة وزخرف وهم قريبوا عهد برسول الله أو خاف عليهم أن يكونوا قد افـتتنوا بالدنيا وزينتها - فنزل عن دابته وأخذ الحجـارة ورماهم بها لا يحـجزه عنهم ما لـهم من مكانه شامخـة وعز باذخ. وقال: سرع ما لُفِتُّم عن رأيكم. إياى وتستقـبلون بهذا الزى وإنما شبعتم منذ سنتين. سرع ما ندت بكم البطنة وتالله لو فعلتمـوها على رأس المائتين لاستبدلت بكم غيركم

فلم يكن من القوم الا أن قالوا : يا أمير المؤمنين إنها يلامعة وإن علينا السلاح - قال فنعم إذن وركب حتى نزل الجابية وبينما عمر بالجابية إذ فزع الناس إلى السلاح فسأل عن شأنهم فقالوا : ألا ترى الخيل والسيوف فنظر فإذا كردوس يلمعون بالسيوف ، فقال : هذه مستأمنة فلا تراعوا وأمنوهم. فإذا هم أهل إيلياء قد جاءوا للصلح.

ذلك أن أهل إيلياء قد اشتد عليهم الحصار وصاروا به فى ضنك شديد وأيقنوا بعد انقطاع المدد عنهم واستيلاء المسلمين على أطراف الشام ومدنها أنهم مأخوذون ولا مطمع لهم فى إنقاذ دولة الروم إياهم بعد أن دالت فى هذه الناحية دولتهم وزالت عن البلاد سلطانهم وأشفقوا أن لا يعطيهم المسلمون ما أعطوا غيرهم من أهل المدن الأخرى من الأمان لما أسلفوا من شدة قتال وقوة مراس ، ولما بذله المسلمون فى حربهم من الدماء. وربما كان القوم قد ظنوا أن المسلمين يرون أن مدينتهم بها البيت المقدس الذى يرى المسلمون تعظيمه. فخافوا أن يغلبوهم عليه ويزيلوا منه معالم الأديان الأخري وينتزعوا منهم كنيستهم العظمى وقبلتهم المقدسة ويحرموهم ذلك بحق الفتح فرأوا توكيداً للأمان وزيادة فى توثيق عرى العهد أن يباشروا ذلك مع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب.

ولما ورد أهل إيليا إلى الجابية أخبروا أنهم نواب الصلح وأن أميرى الجند الرومى قد لحقا بمصر فصالحهم عمر على إيليا وحيزها والرملة وحيزها وكتب لهم بذلك كتباً. وكتب لأهل إيليا كتاباً خاصاً وهذا نصه :

بسم الله الرحمن الرحيم * هذا ما أعطى عبدالله عمر أمير المؤمنين أهل إيليا من الأمان أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من حيزها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود. وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل

المدائن وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوت (وفى رواية اللصوص ولعلها الصحيحة) فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم. ومن أقام منهم فهو آمن وعليه مثل ما على أهل إيليا من الجزية ، ومن أحب من أهل إيليا أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلى بيعهم وصلبهم فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وعلى صلبهم حتى يبلغوا مأمنهم. ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان (هكذا فى جميع ما رأيت من التواريخ) فمن شاء منهم قعد وعليه مثل ما على أهلى إيليا من الجزية ومن شاء سار مع الروم ومن شاء رجع إلى أهله فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم. وعلى ما فى هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذى عليهم مع الجزية * شهد على ذلك خالد ابن الوليد ، وعمرو بن العاص ، وعبد الرحمن بن عوف ، ومعاوية بن أبى سفيان وكتب وحضر سنة ١٥ هـ.

ولما بعث عمر بأمان بيت المقدس وسكنها الجند شخص إلى بيت المقدس من الجابية وكان فرسه قد وجى فأتى ببرذون فركبه فلما سار جعل يتخلج به فنزل عنه وضرب وجهه بطرف ردائه وقال لا علم الله من علمك هذا من الخيلاء. ودعا بفرسه فركبه حتى جاء إلى المسجد الأقصى ليلا فدخله وصلى في محراب داوود ولم يلبث أن طلع الفجر فأمر المؤذن بالإقامة وتقدم فصلى بالناس بسورة ص وصدر بنى إسرائيل ثم انصرف فقال : على بكعب (كعب الأحبار) فلما أتى به قال : أين ترى أن نجعل المصلى ؟ فقال : إلى الصخرة - فقال : ضاهيت والله اليهودية ياكعب. وقد رأيتك وخلعك نعليك. فقال : أحببت أن أباشره بقدمى. فقال : قد رأيتك. بل نجعل قبلته صدره كما جعل رسول الله قبلة مساجدنا صدورها اذهب إليك فإنا لم نؤمر بالصخرة ولكنا أمرنا بالكعبة. ثم قام إلى كناسة كانت قد كانت الروم دفنت فيها بيت المقدس وهو الهيكل فى زمان بنى إسرائيل وقال : يا أيها الناس اصنعوا كما

أصنع وحشا فى أصلها وحشا فى قباء. وسمع تـكبيرة من خلفه. فقالوا ماهذا : فقالوا كبر كعب فكبر الناس بتكبيره فقال : على به. فأتى فسأله عن سبب تكبيره. فقال : يا أمير المؤمنـين إنه قد تنبأ على ما صنعت نبـى منذ خمسمائة سنة ، وسـرد له خبراً ذكره الطبرى كله من الإسرائيليات التي ابتدعها هو وسواه ولا أصل لها.

إن كعبا - ككل يهودى - فرح بدخول المسلمين إلى بيت المقدس وافتتاحه لأن ذلك يشفى بعض ما فى صدورهم من الغلة والحقد على المسيحية والقائمين بها ، وقد كان بيت المقدس محرماً عليهم دخوله والدنو منه. وهم بذلك الفتح ينالون حرية أداء العبادة فيه وهو معبدهم الأول وبلدهم العتيق فلا غرو أن كانوا أكثر الناس فرحاً بهذا الفتح الذى ينيلهم الحرية الدينية.

والعبرة من هذا الفتـح تظهر جلية واضحة من كتاب عمـر بالأمان الذي حشوه الرفق والعدل والحرية وصيانة الدماء والحقـوق فإن بيت المقدس لم يدخل مدينته أحد من الفاتحين كما دخلها خليفة المسـلمين أمير المؤمنين عمر بن الخطاب منذ خلقت إلى ذلك العهد. بل كان الـفاتح يدخلها مخرباً مبيـداً مدمراً عاتياً جباراً سفـاكا لا رحمة عنده ولا شفـقة عليهم لديه. فهـذا بختنصرفى الخـراب الأول وطيطوس فى الخراب الثانى على رأس سبعين سنة ميلادية قد فعـلا الأفاعيل وخربا المدينة والمسجد تخريبا. وأما عمر فقد دخلها كما وصفنا وأعطى أهلها من الأمان ما بينا.

ولما جاءها بعد ذلك (غودوفروا دوبيون) قائد الجيوش الصليبية استن بأهلها سنة وثنى بابل ووثنى رومة فخرب المسجد وأجزر السيف تسعين ألفاً من أهلها المسلمين.

ولما جاء صلاح الدين الأيوبى وأخذها من الصليبيين دخلها دخولا عمريا وأمن أهلها على نفوسـهم وأولادهم ونسائهم وخرجوا منها على فـداء طفيف يؤدونه. وقد تجاوز أخوه أبو بكر العادل عن ذلك المقدار لكثيـر من النساء وكان الثناء عليه عاماً فى أوروبا وعلى أخيه صلاح الدين.

وفى سنة ١٧ هـ أراد عمر رضى الله عنه أن يزور الشام للمرة الثانية فخرج إليها ومعه المهاجرون والأنصار حتى إذا نزل بسرع على حدود الحجاز والشام لقيه أمراء الأجناد فأخبروه أن الأرض سقيمة وكان الطاعون بالشام. فقال عمر لابن عباس اجمع لى المهاجرين الأولين ، قال : فجمعتهم فاستشارهم فاختلفوا عليه ، فمنهم القائل خرجت لوجه تريد فيه الله وما عنده ، ولا نرى أن يصدك عنه بلاء عرض لك. ومنهم القائل : إنه لبلاء وفناء ما نرى أن تقدم عليه. فلما اختلفوا عليه قال : قوموا عنى ، ثم قال لابن عباس اجمع لى مهاجرة الأنصار. فجمعهم له ، فاستشارهم فسلكوا طريق المهاجرين فكأنما سمعوا ما قالوا فقالوا مثله. فلما اختلفوا عليه قال قوموا عنى. ثم قال : اجمع لى مهاجرة الفتح من قريش ، فجمعهم له فاستشارهم فلم يختلف عليه منهم اثنان وقالوا ارجع بالناس فإنه بلاء وفناء. فقال عمر يا ابن عباس اصرخ فى الناس فقل إن أمير المؤمنين مصبح على ظهر ، وأصبحوا عليه فلما اجتمعوا قال : أيها الناس إنى راجع فارجعوا. فقال أبو عبيدة بن الجراح : أفراراً من قدر الله ؟ قال : نعم فراراً من قدر الله إلى قدر الله أرأيت لو أن رجلاً هبط وادياً له عدوتان إحداهما خصبة والأخرى جدبة ، أليس يرعى من رعى الجدبة بقدر الله ويرعى من رعى الخصبة بقدر الله ؟ لو غيرك يقول هذا يا أبا عبيدة. ثم خلا به بناحية دون الناس ، فبينا الناس على ذلك إذ أتى عبد الرحمن بن عوف وكان متخلفاً عن الناس لم يشهدهم بالأمس. فلما أخبر الخبر قال : عندى من هذا علم ، قال عمر : فأنت عندنا الأمين المصدق ، فماذا عندك ؟ قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "إذا سمعتم بهذا الوباء ببلد فلا تقدموا عليه وإذا وقع وأنتم به فلا تخرجوا فراراً منه لا يخرجنكم إلا ذلك ، فقال عمر : لله الحمد ، انصرفوا أيها الناس. فانصرفوا.

كان حصول الطاعون فى ذلك الوقت بعد المجازر البشرية وكثرة القتلى وتعفن الجو وفساده بتلك الجيف أمراً طبيعياً وبخاصة إذا عرفنا أن وسائل الوقاية الصحية لم تكن معروفة فى ذلك الزمن. على أن مجرى اجتماع الجيوش الكثيرة فى مكان واحد

داع إلى فشو الأمراض والأوبئة. وقد اجتمع فى تلك البلاد كثير من الجنود بين روم وعرب فكان لابد من حصول الأوبئة.

وبعد انصراف عمر حصل الطاعون الجارف المعروف بطاعون عمواس وكانت شدته بالشام فهلك به خلق كثير منهم أبو عبيدة بن الجراح وهو أمير الناس، ومعاذ ابن جبل، ويزيد بن أبى سفيان، والحارث بن هشام وقيل استشهد باليرموك. وسهيل بن عمر، وعتبة بن سهيل وأشراف الناس. ولم يرتفع عنهم الوباء إلا بعد أن وليهم عمرو بن العاص فخطب الناس وقال لهم: أيها الناس إن هذا الوجع إذا وقع فإنما يشتعل اشتعال النار فتجنبوا منه فى الجبال: فخرج وخرج الناس فتفرقوا حتى رفعه الله عنهم فبلغ عمر ما فعله عمرو فما كرهه.

أما السر فى اشتداد الطاعون فى دمشق دون سواها من بلدان سورية، فهو أن أهل دمشق إنما يشربون من النهر (نهر بردى) وهو عرضة للتلوث بجراثيم الوباء ونقل العدوى بواسطته سهل جداً وانتشارها مضمون. أما بقية البلاد فيغلب أن يكون شربهم من العيون وهى أقل قابلية للتلوث ونشر المرض وتعميمه وهو السر أيضاً فى أنهم لما ارتفعوا في الجبال كان ذلك سبباً لزواله عنهم.

وأهل دمشق الآن لا يشربون من نهر بردي وإنما يشربون من ماء عين الفيجة ساقوه فى الأنابيب إلى بلدهم وماء نهر بردى يدخل فى جميع بيوتهم ولا ينتفعون منه بالشرب وإنما يستعملونه فى غسل الملابس والأوانى ونحوها.

رأى عمر بعد ارتفاع الطاعون أن يسير إلى الشام لينظر فى أمور الناس بعد هذا المصاب الذى دهمهم. فسار حتى نزل الشام ونظر فى أمور الناس وولى الولاة وورث الأحياء من الأموات. ثم خطبهم خطبة قال: "ألا وإنى قد وليت عليكم وقضيت الذى على فى الذى ولانى الله من أمركم. إلى أن قال فمن علم علم شيء ينبغى العمل به فبلغنا نعمل به إن شاء الله، ولا قوة إلا بالله "وحضرت الصلاة فقال الناس لو أمرت بلالا فأذن. فأمره فأذن فما بقى أحد كان أدرك رسول الله وبلال يؤذن له إلا بكى حتى بل لحيته وبكى من لم يدركه ببكائهم لذكره صلى الله عليه وسلم.

وفى عهد عمر رضى الله عنه فتحت حلب وقنسرين كما قدمنا وأنطاكية وبلاد سواحل الشام كبيروت وطرابلس وغيرها ، ودانت كل هذه البلاد لحكم المسلمين.

وفى عهده كان فتح مصر على يد عمرو بن العاص السهمى. وسنفردها بكلام خاص نستوفى الكلام على ذلك متى جاء وقت ذلك :

هذا ما كان من الفتوح فى عهد عمر بن الخطاب - ومدته لا تزيد عن عشر سنوات. ففتحت فارس كلها ووقف المسلمون من جهة الشرق على نهر السند ونهر جيحون فلم يتعدوهما فى عصره. وفتحت بلاد الشام ومصر وأديرت هذه البلاد على مقتضى العدل الإسلامى فتقبل الناس حكمه مسرورين لأنه قد أزال عنهم جبروت الملوك وعسف الجبابرة.

ولما كانت حياة عمر ممتازة بكثير من الميزات التى جعلتها أساساً عظيما لكثير من المدنية الإسلامية - حسن بنا أن نورد جملا يتعرف منها مقدار هذا الرجل العظيم الذى ساس العرب سياسة لم تعرف لغيره من سائر الناس متأسياً فى ذلك برسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه أبى بكر الصديق رضى الله عنه.

القضاء

قدمنا فى الكلام على أبى بكر رضى الله تعالى عنه أنه لم يتخذ قاضياً فى أيام خلافته ، بل كان القضاء فى يده ، فكان الأمير والقاضى والمنفذ. وبعبارة أوضح كانت فى يده القوات الثلاث : وهى القوة التشريعية ، والقوة القضائية ، والقوة التنفيذية. وليس معنى قولنا إن القوة التشريعية فى يده - أنه كان يأتى الناس بشرع جديد. وإنما معنى ذلك أنه الأمير الذى ينظر فى الكتاب والسنة ويجتهد فى الوقائع التى ليس فيها شىء من النص. وهو الذى يحكم بمقتضى ذلك فهو بهذه المثابة قاض، ثم إنه يمضى ذلك الحكم فهو منفذ.

وقد قدمنا أيضاً أنه كان يفوض إلى عمر النظر فى الوقائع التى كان يدلى بها الخصوم إليه - غير أنه لم يختصه بذلك ويفرغه له ، ولم يكن لعمر اسم قاض فى زمنه.

أما عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقد كان له فى مسائل الفتوح وتدبير أمور الخلافة التى تشعبت ونمت نمواً عظيما فى عهده ، ما يشغله عن التفرغ للقضاء فرأى أن يفرغ نفسه وبعض أمرائه لما هم بصدده فعين قضاة مختصين بفصل الخصومات بين الناس فولى أبا الدرداء معه بالمدينه . وولى شريحاً قضاء الكوفة وولى أبا موسى الأشعرى بالبصرة وقيس بن أبى العاص السهمى قضاء مصر وهو أول قاض بها فى الإسلام. أما بقية الأمصار والولايات فكان القضاء فيها إلى الأمير الذى عليها. وإنما كان عمر حريصا على تفريغ نفسه وبعض أولئك العمال والأمراء لما قصده من تفريغ نفسه وذلك البعض للقيام بأعباء السياسة العامة وأشغالها الكثيرة من الجهاد والفتوح وسد الثغور وحماية البيضة.

وقد كان شريح بن الحارث الكندى قاضى الكوفة من كبار التابعين ظل قاضيا بها خمسا وسبعين سنة لم يتوقف عن قضائه فيها سوى ثلاث سنين فى فتنة ابن الزبير ولما ولى الحجاج استعفاه فأعفاه. ومن طرف قضائه أن عدى بن أرطأه دخل عليه. فقال : إنى رجل من أهل الشام. فقال : مكان سحيق. قال : تزوجت عندكم قال : بالرفاء والبنين. قال : وأردت أن أرحلها. قال : الرجل أحق بأهله. قال : وشرطت لها دارها. قال : الشرط أملك. قال : فاحكم بيننا. قال : قد حكمت.

وقد ساق صاحب العقد الفريد حكاية تزوجه بزينب بن جرير من بنى تميم كيف اضطرته لأن يخطب ليلة زفافها عليه لما بدأته بالخطبه وأنه ظل معها فى أهنأ عيش عشرين سنة لم يعتب عليها فى شىء إلا مرة واحدة - قال وكنت لها ظالما : أخذ المؤذن فى الإقامة بعدما صليت ركعتى الفجر وكنت أمام الحي فإذا بعقرب تدب

فأخذت الإناء فأكفأته عليها ثم قلت يا زينب لا تتحركى حتى آتى. فلو شهدتنى يا شعبى وقد صليت ورجعت فإذا أنا بالعقرب قد ضربتها فدعوت بالكست والملح فجلعت أمغث رصبعها وأقرأ بالحمد والمعوذتين. وكان لى جار من كندة يُفزّع امرأته وبضربها فقلت فى ذلك :

رأيت رجالا يضربون نساءهم فشلت يمينى حين أضرب زينبا

أأضربها فى غير ذنب أتت به فما العدل منى ضرب من ليس مذنبا

فزينب شمس والنساء كواكب إذا طلعت لم تبد منهن كوكبا

أما أبو الدرداء رضى الله تعالى عنه فكان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ومن أعرف من ولاهم عمر القضاء أبو موسى الأشعرى ، وكان مع ذلك ذا بلاء فى الحروب وقيادة الجند وله أثر جميل فى فتوح فارس. وقد كتب إليه عمر رضى الله عنه كتابه المشهور فى القضاء يبين كثيراً من نظام القضاء وأصوله وهو يعتبر بمثابة لائحة داخليه يعمل القضاة بمقتضاها. وهذا نصه :

بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس. سلام عليك ، أما بعد : فإن القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة[1] فافهم إذا أدلى إليك[2] فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له. آس بين الناس[3] فى وجهك وعدلك ومجلسك حتى لا يطمع شريف فى حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك. البينة على

(١) يريد أن يبين له المادة التى يقضى بها وهى لا تعدو ما حده الله وهذا ما أشار إليه بالفريضه المحكمة وما بينه رسوله وهى ما أشار إليه بقوله وسنة متبعة.

(٢) يريد أن يدلى بحجة مهما كان مصيبا وقوله حقا واضحاً فإن كلامه لا ينفعه إذا لم يكن لكلامه نفاذا إلى قلب القاضى وذلك لا يكون إلا بالتقيد لما يقوله الخصوم.

(٣) هذا أساس المساواة التى جاء بها الدين ولا احترام للقضاء بدونها فإن القاضى إذا كان له ضلع مع أحد الخصمين فشت قالة السوء فيه وإن نجا من عواقبها اليوم فليس بناج غداً.

من ادعى واليمين على من أنكر. والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحا أحل حراما أو حرم حلالا[1]. لا يمنعك قضاء قضيته اليوم فـراجعت فيه عقلك وهديت فيه لرشدك أن ترجع إلى الحق فإن الحق قديم ومراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل[2] الفهم الفهـم فيمـا تلجلج فى صـدرك مما ليس فى كتـاب ولا سنة[3]. ثم اعرف الأشـباه والأمثال ، فـقس الأمور عند ذلك واعمد إلى أقـربها إلى الله وأشبهها. واجعل من ادعى حقا غائبا أمدا ينتهى إليه فإن أحضر بـينته وإلا استحللت عليه القضية فإنه أنفى للشك وأجلى للعمى[4]. المسلمون عدول بعضـهم على بعض إلا مجلودا فى حد أو مجربـا عليه شهادة زور أو ظنـينا فى ولاء أو نسب فإن الله تولى منـكم السرائر ودرأ بالبينات والايمـان. وإياك والقلق والضجر والتـأذى بالخصوم والتنكر عند الخـصومات فإن الحق فى مـواطن الحق يعظم به الله الأجر ويحسـن به الذكر. فمن صحت نـيته

---

(١) هذا أمر يوافقه ما اتفقت عليه جميع القوانين من أن كل صلـح يخالف فيه القانون العام فهو باطل لا قيمة له لأن الخصم إذا ملك حق نفسه وسـاغ له التصرف بما شاء فانه لا يملك حق الشارع الذى راعى بـتشريعه العام حق الجمهور.

(٢) يريد بلك أن القاضى لا يتقيد بما فهمه من النصوص فى قضيه فحكم به بل إذا ظهر له وجه الخطأ فى حكمه الأول كان عليه أن يحكم بما ظهر له من الصواب فيما يكون لديه مما يشبه القضيه التى حكم فيها خطأ أولا. لأن الخطأ لا يكون قاعدة. ولأن عـمر حكم فى قضية بحكم ثم بدا له الصـواب فى قضية تشبهـا فلم يغير الحكم السابق. وحكم على مقتضى الصواب فى اللاحق ، وقال : ذاك على ما قضينا وهذا ما نقضى.

(٣) يريد بذلك بيان أصل ثـالث للأحكام وهو القياس وهو أن يلحق مـا لم يعلم حكمه بما علم حكمـه لمشابهة بينهما فى السبب الذى من أجله شرع الحكم. ولهذا يكون من أوجب الواجبات على القاضى أن يكون عارفا بأسرار التشريع حتى يتسنى له هذا الإلحاق ومن ذلك ينتج اشتـراط أن يكون مجتهداً لا مقلداً غيره فى تفسير أو تأويل.

(٤) يشير بذلك إلى جواز التأجيل إذا طلبه الخصم وكان لطلبـه سبب معقول. والذى ذكره من الأسباب هو غيبة الشهود الذين يظهر بهم حقه ثم تقييده بأمد ينتهى إليه إنما كان دفعاً للمشقة التى تحصل لأحد الخصمين بطلب التأجـيل من خصمه الآخـر فى كل جلسة ، فـيظل أبد الدهر تحت رحمـته - لهذا قيـده بأمد يستـحل عليه القضية إذا لم يثبت حقه فيه.

وأقبل على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس. ومن تخلق للناس بما يعلم الله أنه ليس من نفسه شانه الله ، فما ظنك بثواب غير الله فى عاجل رزقه وخزائن رحمته. والسلام.

وهذا الكتاب قد اتخذه جمهور من قضاة المسلمين أساساً لنظمهم القاضئية ، وهو كتاب جليل خليق بذلك.

لم يكن القضاء فى زمن عمر إلا سهلاً بسيطاً مجرداً عن النظم الوضعية الكثيرة ولم يكن للقاضى كاتب ولا سجل ولم توضع للمرافعات أصول كالتى وضعت الآن. فلم تكن الدعاوى بصيغة خاصة وأركان معينة ولابد من سبق إعلان فى مدة خاصة إلى آخر ما وضع من الناس ثم صار عمدة فى القضاء أكثر من الحكم الشرعى المقصود.

سيرة عمر فى عماله

معلوم أن الخليفة فى الأمة قائم بين الله وبين عباده فى إقامة العدل وتأييد الحق وإقامة الدين وسياسة الدنيا به وإلزام كل إنسان حد ماله وما عليه دون بغى عليه أو استطاله منه على سواه.

ولماكان القائم بالخلافة يستحيل عليه أن يباشر كل شىء من ذلك فى البلدان المختلفة والأصقاع النائية فى ملك مترامى الأطراف كان لابد من تفويض ذلك منه إلى عمال يقومون عنه بذلك الأمر فى نواحيهم ويكونون بينه وبين الرعية يطالعونه بأمورهم ويسوسونهم بسياسته.

ولا يعزب عنا أن عمر كان حريصاً على اتباع الكتاب الكريم فيما جاء به والاستنان بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كل قول أو عمل يعلم أنه قاله أو عمله سائراً بسيرته بين الناس سائساً لهم بسياسته ومتحرياً لما أخذ به أبو بكر من ذلك. وقد كان حريصاً كل الحرص على أن يأخذ عماله بسيرته ويؤدبهم بآدابه رعاية للرعية وتحقيقاً لحسن ملكة الإسلام وسماحة الدين وعدله. ويعتد نفسه شريكا للعامل

فى كل هفوة يهفوها قسيما له فى كل جريمة يقترفها ، إنما يأتى ذلك بماله من السلطان الذى يستمده منه ، ويرى نفسه مسؤولا أمام الله عن ذلك.

قال الأستاذ الخضرى : كان عمر ممن يشترون رضا العامة بمصلحة الأمراء. فكان الوالى فى نظره فرداً من الأفراد يجرى حكم العدل عليه كما يجرى على غيره من سائر الناس. فكان حب المساواة لا يعدله شىء من أخلاقه : إذا اشتكى العامل الرعيه جره إلى المحاكمة حيث يقف الشاكى والمشكو منه يسوى بينهما فى الموقف حتى يظهر الحق فإن توجه قبل العامل اقتص منه إن كان هناك داع إلى القصاص أو عامله بما تقضى به الشريعة أو عزله. وإنى أقول : إن هذا الرأى الذى كان يراه عمر واستغرق وجدانه ومشاعره هو الرأى الذى ينص عليه فى قوانين أكثر الأمم عدالة وأسماهم حرية وأحرصهم على المساواة بين أفراد الأمة بعد أن أغرقوا فى العلم والمدنية وساروا فى الحضارة والفلسفة الاجتماعية شوطا بعيداً وأجروا فى سبيل تلك الحرية والمساواة والعدالة أنهاراً من الدماء. وأزاروا المقابر عشرات الألوف فى سبيل تحقيق غرضهم وإن القوانين التى أخذت أخذ هؤلاء الناس واقتبست من قواعدهم ، ثم استثنت بعض ذوى المقامات وأخرجتهم من حكم القانون العام تدل بأوضح دلالة على أن فيها عرقا ينبض إلى الاستعباد والاستبداد، إن لم نقل إنها تميل إلى الاستنبات بجعل فريق من الناس فى نظر قليل منهم كأنواع النبات التى ينصرف فيها مالكها بما يشاء ويهوى - وليس عمر بدعاً فيما كان يصنع : فقد كان مظهراً لا مبتدئاً.

فقد تقرر ذلك بمقتضى قوله تعالى **﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾** وبمقتضى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع **"لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى"** وإنما جعل هذا الخلق ظاهراً في عمر أن الفتوحات قد كثرت والملك قد اتسع فكثرت العمال وطال زمن عمر وحدثت الأحداث وظهرت خطته فى ذلك واضحة.

ومعلوم أن سواس الأمم يختلفون فى شأن مؤاخذة العامل ذي السلطان بما يصدر منه من الهفوات ومجازاته بما يجترم من السيئات لأن فريقا يرون أن التجاوز عن سيئاته وغض الطرف عن زلاته أهيب لمقامه فى نظر الرعية. ومن هذا القبيل

سياسة الدولة الإنجليزية مع عمالها فى المستعمرات لا تكسرهم أمام المحكومين ولا تؤاخذهم بما يصدر منهم من المخالفات لئلا يكون ذلك مدرجة لكثرة مطالب الرعية وكيدها للعمال وتجنيها عليهم أما فى بلاد الإنجليز أنفسهم فإن الحاكم إذا تعدى حد عمله وسام أحد الرعية بأذى فإن القضاء له بالمرصاد والقانون يوفيه جزاءه العادل. وقد كان أبو بكر على هذا الضرب من السياسة مع قواده وعماله فى أيام أهل الردة وقيام الاضطراب فى كل ناحية. وهى حال خاصة يغتفر فيها ما لا يغتفر فى غيرها. وكان عمر يخالفه فى هذا النحو من السياسة ويشير عليه بالاقتصاص من كل مخالف. وإن ما ذكرناه من إحضار سعد بن أبى وقاص من الكوفة لشكوى رفعها بعض من ألبوا عليه فى وقت كان المسلمون فى أشد الحاجة إليه إذ كانت البعوث تضرب على الناس وهم فى التهيؤ لمناهضة العجم الذين جمعوا الجموع لحرب المسلمين وإخراجهم من فارس فلم يكرثه ذلك ولم يشغله عن النظر فى شكوى الشاكين وسعد من نفس عمر بالمنزلة التى دفعت به إلى جعله من أصحاب الشورى الذين ينتخب الخليفة منهم من بعده. وقد قال للمؤمنين : "إن الدليل على ما عندكم من الشر نهوضكم فى هذا الأمر وقد استعدل لكم من استعد - يعنى الفرس - وأيم الله لا يمنعنى ذلك من النظر فيما لديكم وإن نزلوا بكم" . وقد كانت مصلحة العامة عنده فوق كل شىء(١).

كان عمر شديد المراقبة لعماله كثير السؤال عن سيرتهم وأخبارهم يقيم عليهم العيون يوافونه بأخبارهم ولا يتركون خبر سوء يبلغه عن أحدهم دون تحقيقه والتثبت فى شأنه تثبتاً ولا يدع للشك مجالا ولا يغفل أن يرسل إليهم الأوامر تباعاً أن يعدلوا ولا يظلموا ولا يأخذوا بالظنة ولا يبغوا ولا يغدروا.

ولما غدر الهرمزان بعد العهد خشى أن يكون ذلك من ظلم أصابه من المسلمين فاستقدم وفداً من البصرة فيهم الأحنف بن قيس وسأله عن غدره أعن ظلم ؟ قال :

(١) ومن ذلك أنه جلب أبا موسى من البصرة حين شكاه الرجل العنزى . .

لا. فكتب إلى عتبه بن غزوان زيادة فى الوصية ومبالغة فى التوكيد : "اعزب الناس عن الظلم واتقوا واحذروا أن يدال عليكم لغدر يكون منكم أو بغى فإنكم إنما أدركتم بالله ما أدركتم على عهد عاهدكم عليه وقد تقدم إليكم فيما أخذ عليكم فأوفوا بعهد الله وقوموا على أمره يكن لكم عوناً وناصراً".

وبلغه أن حرقوصاً عامله على الأهواز نزل جبلا كؤداً يشق على من رامه والناس يختلفون إليه فكتب إليه "أما بعد : بلغنى أنك نزلت منزلا كؤداً لا تؤتى فيه إلا على مشقة. فأسهل ولا تشق على مسلم ولا معاهد وقم فى أمرك على رجل تدرك الآخرة وتصف لك الدنيا. ولا تدركنك فترة ولا عجلة فتكدر دنياك وتذهب آخرتك".

وخطب عمر فقال : "يا أيها الناس ، إنى والله ما أرسل عمالى إليكم ليضربوا أبشاركم ولا ليأخذوا أموالكم ولكنى أرسلهم إليكم ليعلموكم دينكم وسننكم ويقضوا بينكم بالحق ويحكموا بينكم بالعدل فمن فعل به شىء سوى ذلك فليرفعه إلى ، فوالذى نفس عمر بيده لأقصنه منه" فوثب عمرو بن العاص فقال : يا أمير المؤمنين ، أرأيت إن كان رجلا من أمراء المسلمين على رعيته فأدب بعض رعيته إنك لتقصه منه؟ قال : أى والذى نفس عمر بيده إذن لأقصنه منه ، وكيف لا أقصه منه وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقتص من نفسه ؟ ألا لا تضربوا المسلمين فتذلوهم ولا تجمروهم فتفتنوهم ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم ولا تنزلوهم الغياض فتضيعوهم.

وروى الطبرى أن عمر كان يقول فى عماله : اللهم إنى لم أبعثهم ليضربوا أبشارهم. من ظلمه أميره فلا إمرة عليه دونى. وعن أبى رواحة قال : كتب عمر بن الخطاب إلى العمال : "اجعلوا الناس عندكم فى الحق سواء ، قريبهم كبعيدهم وبعيدهم كقريبهم ، إياكم والرشا والحكم بالهوى وأن تأخذوا الناس عند الغضب فقوموا بالحق ولو ساعة من نهار".

وكان إذا استعمل العمال خرج معهم يشيعهم فيقول : إنى لم أستعملكم على أمة محمد صلى الله عليه وسلم على أشعارهم ولا على أبشارهم ولا تجلدوا العرب فتذلوها ولا تجمروها فتفتنوها ولا تغفلوا عنها فتحرموها. جردوا القرآن وأقلوا الرواية عن محمد صلى الله عليه وسلم وأنا شريككم.

وكان عمر يأمر عماله فى كل سنة أن يوافوه فى الموسم ومن كانت له شكوى أو مظلمة وافاه إلى موسم الحج ورفعها على العامل بحضرته. وهناك ترد إلى المظلوم ظلامته ويشكيه من خصمه. فكان العمال يخافون الافتضاح فى موقف الحج على رؤس الأشهاد ويحدو بهم ذلك الخوف إلى الابتعاد عن الظلم.

ولقد أحضر عمر كثيراً من عماله الذين لهم فضل عظيم فى الفتوح وأثر كبير فى نصرة الدين. فهذا سعد بن أبى وقاص من أخوال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو فاتح القادسية والمدائن والعراق ومدوِّخ الفرس وممصر الكوفة ، اشتكى عليه بعض رعيته فأرسل محمد بن مسلمة يحقق الشكاية علنا وجاء بسعد وخصومه إلى عمر فوجده بريئاً من كل ما قذف به ولكنه عزله احتياطيا. وأوصى عند وفاته أن يولى لأنه لم يعزله لجناية أو خيانة.

والمغيرة بن شعبة ، كان أميراً على البصرة وهو ذو بلاء وغناء في نصرة الدين وفتوح فارس وغيرها ، اتهمه بعض من كان معه بتهمة شنيعة فلم يلبث أن أرسل إليه كتابا عاتبه فيه واستحثه وعزله وأمر غيره. وهو "أما بعد فقد بلغنى نبأ عظيم فبعثت أبا موسى أميراً. فسلم ما فى يدك والعجل العجل". فقدم على عمر ومعه الشهود الذين شكوه فلم تثبت التهمه عليه وأقام عمر الحد عليهم بما فرضه الله لمثلهم.

وهذا عمار بن ياسر ، كان أميراً على الكوفة وهو من السابقين الأولين أنهى إلى عمر قوم من الكوفة أنه لا يحتمل ما هو فيه من الولاية عليهم وأنه ليس بأمير يقدر على هذا العمل. فأمره عمر بأن يقدم عليه فى وفد من أهل الكوفة ، فسألهم عمر عما يشكون من عمار فقال قائلهم. إنه غير كاف ولا عالم بالسياسة وقال قائل

منهم : إنه لا يدرى علام استعمل ؟ فاختبره عمر اختباراً يدل على سعة علمه بفارس ونواحى الكوفة وتصوره موقع كل بلد. فلم يحسن عمار الإجابة فى بعض ما سئل عنه فعزله. ثم دعاه بعد ذلك : فقال له أساءك حين عزلتك ؟فقال : والله ما فرحت حين بعثتنى ولقد ساءنى حين عزلتنى. فقال : لقد علمت ما أنت بصاحب عمل ولكنى تأولت قوله تعالى : ﴿**ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين**﴾.

جاء فى كنز العمال عن عاصم بن أبى النجود أن عمر بن الخطاب كان إذا بعث عماله شرط عليهم : أن لا تركبوا برذوناً ولا تأكلوا نقياً ولا تلبسوا رقيقاً ولا تغلقوا أبوابكم دون حوائج الناس ، إن فعلتم شيئاً من ذلك حلت بكم العقوبة.

أما انتخابه للأمراء وتحريه لأن يكونوا ذوى عفة وقناعة فكان على أتمه وقد تيسر له من هذه الطائفة ما لم يتيسر لغيره. وكان كثير من عماله ينهجون منهجه ويترسمون خطواته فمن عماله سلمان الفارسى على المدائن كان يلبس الصوف ويركب الحمار ببرذعته بغير إكاف ويأكل خبز الشعير. ولما حضرته الوفاة بكى وقال له سعد بن أبى وقاص : يا أبا عبد الله ما يبكيك ؟ فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن فى الآخرة عقبة لا يقطعها إلا المخفون. وأرى هذه الأساودة حولى. فنظروا فلم يجدوا فى البيت إلا إداوة وكوة ومطهرة. وكان أبو عبيدة بن الجراح عامله على الشام يظهر للناس وعليه الصوف الجافى. فعذل فى ذلك فقال : ما كنت بالذى أترك ما كنت عليه فى عصر رسول الله صلى الله عله وسلم.

كان عامله على حمص سعيد بن حذيم. فشكاه أهل حمص إلى عمر وسألوه عزله. وكان عمر يعتقد أنهم ظالمون له فقال اللهم لا تقل فراستى فيهم وجمع بينهم وبينه فقال ما تنقمون منه ؟ قالوا لا يخرج إلينا حتى يرتفع النهار. فقال ما تقول يا سعيد ؟ فقال يا أمير المؤمنين إنه ليس لأهلى خادم. فأعجن عجينى ثم أجلس حتى يختمر ثم أخبز خبزى ثم أتوضأ وأخرج إليهم. قال : وماذا تنقمون منه ؟ قالوا : لا

يجيب بليل. قال قد كنت أكره أن أذكر هذا. إنى جعلت الليل كله لربى وجعلت النهار لهم. قال : ماذا تنقمون منه ؟ قالوا يوم فى الشهر لا يخرج إلينا ؟ قال : نعم. ليس لى خادم فأغسل ثوبى ثم أجففه فأمسى. فقال عمر : الحمد لله لم يقل فراستى فيكم يا أهل حمص فاستوصوا بواليكم خيراً. وبعث إليه بألف دينار يستعين بها فأبقى منها يسيراً وفرق سائرها فى اليتامى والفقراء والمساكين ولم يغير من عادته.

وكان عمر إذا بلغه عن عامل من عماله ريبة فى معصية لم يمهله أن يعزله. لأن استصلاح الرعية بضرره بالعزل خير من الابقاء على ضرر الرعية. من ذلك أنه استعمل النعمان بن نضلة على ميسان من بلاد فارس وكان يقول الشعر فقال :

ألا هل أتى الحسناء إن حليلها ... بميسان يسقى فى زجاج وحنتم
إذا شئت غنتنى دهاقين قرية ... وصناجة تشدو على كل ميسم
فإن كنت ندمانى فبالأكبر اسقنى ... ولا تسقنى بالأكبر المتثلم
لعل أمير المؤمنين يسوءه ... تنادمنا بالجوسق المتهدم

فقال عمر أى والله إنه ليسؤنى ذلك. وعزله. فقدم على عمر وقال : والله ما أحب شيئاً مما قلت ولكنى كنت امرءاً شاعراً وجدت فضلا من القول فقلت فيه الشعر. فقال عمر : والله لا تعمل إلى على عمل ما بقيت وقد أشار المعرى إلى هذه الحادثة بقوله :

أنعمان ما سر ابن حنتمة الذى ... سررت به من شرب ما فى الحنائم

قال الأستاذ الخضرى ولم يمض عامل زمن عمر موثوقاً به فى كل أيامه إلا القليلين ، وفى مقدمتهم أبوعبيدة عامر بن الجراح.

كان عمر قد أقام محمد بن مسلمة مفتشاً عاماً يرسله إلى كل بلد اشتكى على أميره وكان عمر يثق به ثقة تامة وكان أهلا لذلك منه. وقد كان من رأيه أن يحقق الأمر تحقيقاً علنياً على ملأ من الأشهاد إذ لا محل للتأثير فى الشهود والخصوم لأن يد

عمر كانت قوية جداً وقد زاد فى حرية الناس كثيراً ، فما كان أحد يخشى أميراً ولا عمر بن الخطاب. اللهم إلا المريب فإن عقابه عليه كان صارما.

ومما ساس عمر به عماله أنه كان يحصى عليهم أموالهم قبل توليتهم. فإذا زاد لهم مال بعد ولايتهم صادرهم عليه كله أو بعضه - ذلك أنه كان يرى أن لا يتناول العامل من مال الأمة فوق كفايته. فإذا تأثل مالا كان بذلك إما مريباً أخذه من غير حله فبيت مال المسلمين أولى به وفيهم اليتيم والمسكين والضعيف وذو الحاجة. وإما أن يكون راتبه فوق كفايته والمسلمون أولى بما فضل عن كفاية العامل الذى يعمل بالأجر - فمن ذلك أن عمر استعمل عتبة بن أبى سفيان على كنانة فقدم المدينة بمال فقال : ما هذا ياعتبة ؟ قال : مال خرجت به معى تجرت فيه. قال ومالك تخرج المال معك فى هذا الوجه ؟ فصيره فى بيت المال.

ومن ذلك أن خالد بن الوليد أدرب هو وعياض بن غنم إلى بلاد الروم - ثم انتجع الأشعث بن قيس خالداً من العراق فوصله خالد بعشرة آلاف درهم وكان عمر كما نعلم لا يخفى عليه شىء فى عمله ، فكتب إليه بخروج من خرج من العراق إلى الشام وبجائزة من أجيز. فدعا البريد وكتب معه إلى أبى عبيدة أن يقيم خالداً ويعقله بعمامته وينزع قلنسوته حتى يعلمهم من أين أجاز الأشعث أمن ماله أم من إصابة أصابها ، (يعنى المغنم) فإن زعم أنه من إصابة فقد أقر بخيانة. وإن زعم أنها من ماله فقد أسرف واعزله على كل حال واضمم إليك عمله. فكتب أبو عبيدة إلى خالد فقدم عليه ثم جمع الناس وجلس لهم على المنبر. فقام البريد فقال : أمن مالك أجزت بعشرة آلاف أم من إصابة ؟ فلم يجبه حتى أكثر عليه وأبو عبيدة ساكت لا يقول شيئاً. فقام بلال إليه فقال : إن أمير المؤمنين أمر فيك بكذا وكذا ثم تناول قلنسوته فعقله بعمامته فقال ما تقول ؟ أمن مالك أم من إصابة ؟ قال : لا. بل من مالى. فأطلقه وأعاد قلنسوته وعممه بعمامته بيده وقال "نسمع ونطيع لولاتنا ونفخم ونخدم موالينا". وأقام خالد لا يدرى أمعزول هو أم غير معزول ؟ وأبو عبيدة لا

يخبره كـرامة له وكان عمر لما أبطـأ عليه علم بالذى كان. فكتب إلى خـالد بالقدوم عليه. فعـتب خالد على أبى عبيـدة لأنه لم يعلمه بأمر عمـر. ثم إن خالداً قدم إلى المدينة على عـمر فشكاه وقـال : لقد شكوتك للمـسلمين وبالله إنك فى أمرى غـير مجمل يا عمـر. فقال عمر : من أين هذا الثرى ؟ قال من الأنفـال والسهمان ما زاد على الستـين ألفا فهو لك. فـقوم عروضه فكـانت ثمانين ألفا أدخل منـها بيت المال عشرين ألفا. ثم قال : يا خالد والله إنك عـلي لكريم وإنك إلى لحبيب ولن تعاتبنى بعد اليوم على شىء. وكتب عمر إلـى الأمصار "إنى لم أعزل خالداً عن سخطة ولا خيانة ولكن الناس فتنوا به فخفت أن يوكلوا إلـيه وأن يبتلوا به فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصـانع وأن لا يكونوا بعـرض فتنة". ويدل على أنـه عمل ما عـمل لا عن خيانة أو ريبة ، أن عمر قام يوما خطيبا فقال من خطبته "وإنى أعتذر إليكم من خالد ابن الوليد فـإنى أمرته أن يحبس هذا المال على ضـعفة المهاجرين ، فـأعطاه ذا البأس وذاالشرف وذا اللسـان ، فنزعته وأمرت أباعبـيدة" والذى أفهمه مـن قوله هذا أنه لو تحرى بالعطاء أهل الضعف والحاجة من المهاجرين ، ولم يضع عطاءه فى الأشعث بن قيس ونحوه ، لم يجد عمر عليه سبيلا.

ولقد سمع هذه الخطبة أبو عمـرو بن حفص بن المغيرة - وهو ابن عم خالد - فقام فقال : والله ما اعتذرت يا عمر ولقد نزعت عاملا استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم وأغمدت سيفاً سله رسـول الله صلى الله عليه وسلم ووضعت أمراً نصبه رسول الله صلى الله عليه وسـلم وقطعت رحماً وحسدت ابن العم. فـقال عمر إنك قريب القـرابة حديث السن مغضـب فى ابن عمك. ومن كلام عمـر - وقد طعن - "لو أدركت خالد بن الوليـد لوليته فإذا قدمت على ربى فسـألنى من وليت على أمة محمد ؟ قلت أى رب سمعت عبدك ونبيك يقول : خالد بن الوليد سيف من سيوف الله سله على المشركين" وما كان فإنى أفهم أن عمر كان متحاملا على خالد.

وقد ورد أن عمر قاسم سعد بن أبى وقاص ماله وكذلك عمرو بن العاص. قد يجد هذا العمل مجالا للانتقاد من الوجهة النظرية الدينية ، ولكن عمر (كما قال الأستاذ الخضرى) كان يعرف مَنْ مِنْ عماله يستحق هذه العقوبة أن تقع عليه. إذ ماذا يعمل برجل ولاه وهو يعرف مقدار عطائه ورزقه ثم يراه بعد ذلك قد أثرى ثروة لو جمعت أعطياته ما بلغتها ؟ لم ير عمر أمام ذلك إلا هذه المصادرة وقد اكتفى بأن يشاطر العامل ما يملك ، ولست أريد أن أحسن هذه الطريقة.

معاملة عمر للرعية : كانت رأفة عمر ورقته على عامة الناس فى وزان ما كان عليه من الشدة على عماله فكان عمر شديد الاهتمام بأمر الرعية دائم العناية بما يصلحهم وكان يحس من ذلك بمسؤولية عظمى. فكان يقول لو أن جملا هلك ضياعا بشط الفرات لخشيت أن يسأل الله عنه آل الخطاب (يعنى نفسه) وقد قال هشام الكعبى رأيت عمر يحمل ديوان خزاعة حتى ينزل قديداً فنأتيه بقديد ، فلا يغيب عنه امرأة ولا بكر ولا ثيب فيعطيهن فى أيديهن ، ثم يروح فينزل عسفان فيفعل مثل ذلك أيضاً حتى توفى. وقال الحسن البصرى : قال عمر : لئن عشت لأسيرن فى الرعية حولا فإنى أعلم أن للناس حوائج تقطع دونى فأما عمالهم فلا يرفعونها إلى ، وأما هم فلا يصلون إلى ، فأسير إلى الشام فأقيم بها شهرين. ثم عدد الأمصار الكبرى يقيم فى كل منها شهرين (وقد حالت منيته دون هذه السياحة).

وروى أسلم : قال خرجت مع عمر بن الخطاب إلى حرة واقم ، حتى إذا كنا بصرار إذا نار تؤرث فقال : يا أسلم أرى هؤلاء ركباً قصر بهم الليل والبرد انطلق بنا فخرجنا نهرول حتى دنونا منهم ، فإذا امرأة معها صبيان لها وقدر منصوبة على النار وصبيانها يتضاغون. فقال عمر السلام عليكم يا أصحاب الضوء (وكره أن يقول النار) قالت المرأة : وعليك السلام. فقال أأدنو ؟ قالت أدن بخير أودع فقال ما بالكم ؟ قالت قصر بنا الليل والبرد. قال فما بال هؤلاء الصبية يتضاغون ؟ قالت الجوع. قال وأى شىء فى القدر قالت ماء أسكتهم به حتى يناموا ، الله بيننا وبين عمر. فقال :

أى رحمك الله ما يدرى عمر بكم. قالت يتولى أمورنا ويغفل عنا. فأقبل على فقال انطلق بنا فخرجنا نهرول حتى أتينا دار الدقيق فأخرج عدلا فيه كبة شحم فقال احمله على. قلت أنا أحمله عنك قال احمله على (مرتين أو ثلاثاً) كل ذلك أقول أنا أحمله عنك فقال أخر ذلك أنت تحمل عنى وزرى يوم القيامة لا أم لك ، فحملته عليه. فانطلق وانطلقت معه نهرول حتى أتينا إليها فألقى ذلك عندها وأخرج من الدقيق شيئاً وجعل يقول ذرى على وأنا أحرك لك وجعل ينفخ تحت القدر وكان ذا لحية عظيمة فجعلت أنظر إلى الدخان من خلال لحيته حتى أنضج أدم القدر وقال إبغينى شيئاً. فأتته بصحفة فأفرغها فيها وجعل يقول أطعميهم وأنا أسطح لك فلم يزل حتى شبعوا ثم خلى عندها فضل ذلك وقام وقمت معه. فجعلت تقول : جزاك الله خيراً ، أنت أولى بالأمر من أمير المؤمنين. فيقول : قولى خيراً ، إنك إذا جئت أمير المؤمنين وجدتينى هناك إن شاء الله. ثم تنحى ناحية ثم استقبلها وربض مربض السبع. فجعلت أقول إن ذلك لشأناً غير هذا وهو لا يكلمنى حتى رأيت الصبية يصطرعون ويضحكون ثم ناموا وهدأوا فقام وهو يحمد الله ثم أقبل على فقال : يا أسلم إن الجوع أسهرهم وأبكاهم فأحببت ألا أنصرف حتى أرى ما رأيت فيهم.

ومعلوم أن الحوادث الصغيرة كهذه الحادثة تدل على روح الرجل وأحواله النفسية وتنبيء عن شفقته وخوفه أن يكون مقصراً فى حق من وليهم من الرعية ونحن نخجل فى عصرنا هذا ، لأننا لا نجد أميراً كبيراً من الناس يهتم بمرؤوسه عشر معشار هذا الاهتمام ، ولو أن امرأة كهذه رآها مدير أو مأمور لكان أقرب شيء يعمله لها أن يكتب لها محضر تشرد ويقدمها للقضاء ليحكم عليها.

وخطب مرة فقال : أيها الناس إنى قد وليت عليكم ولولا رجاء أن أكون خيركم لكم وأقواكم عليكم وأشدكم استضلاعاً بما ينوب من مهم أموركم ما توليت ذلك منكم ولكفى عمر مهما محزناً انتظار موافقة الحساب بأخذ حقوقكم كيف آخذها

، ووضعها أين أضعها وبالسير فيكم كيف أسير ؟ فربى المستعان فإن عمر أصبح لا يثق بقوة ولا حيلة إن لم يتداركه الله عز وجل برحمته وعونه وتأييده.

وكان رحمه الله ذا سياسة حسنة فى تقويم أخلاق الناس وحملهم على المحبة الواضحة. جاء فى كنز العمال من حديث عتبة بن مسعود قال سمعت : عمر بن الخطاب يقول : إن ناسا كانوا يؤخذون بالوحى فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الوحى قد انقطع وإنما نأخذكم الآن بما ظهر لنا من أعمالكم فمن أظهر لنا خيراً أمنّاه وقربناه وليس لنا من سريرته شىء الله يحاسبه فى سريرته ومن أظهر لنا شراً لم نأمنه ولم نصدقه وإن قال إن سريرته حسنة. فهو بهذه المثابة يهديهم أمثل الطرق ويحذرهم المزال ويواليهم بالنصائح ويرشدهم إلى محجه الخير الواضحة ويبصرهم سنن السعادة ويأمرهم بالتقوى والعدل والتآلف ، وبخاصة قريش فإنه كان لا ينام لهم على أمر ولا يدعهم ساعة من نصيحة فإنهم قدوة الناس وأئمة العرب.

أخرج الطبرى عن ابن عباس أن عمر قال لناس من قريش : بلغنى أنكم تتخذون مجالس ، لا يجلس اثنان معا حتى يقال : من صحابة فلان ، من جلساء فلان ؟ حتى تحوميت المجالس وأيم الله إن هذا لسريع فى دينكم. سريع فى شرفكم. سريع فى ذات بينكم. ولكأنى بمن يأتى بعدكم يقول : هذا رأى فلان. قد قسموا الإسلام أقساما. أفيضوا مجالسكم بينكم وتجالسوا معا فإنه أدوم لألفتكم وأهيب لكم فى الناس اللهم ملونى ومللتهم وأحسست من نفسى وأحسوا منى ، ولا أدرى بأينا يكون الكون ؟ وقد أعلم أن لهم قبيلا منهم فاقبضنى إليك.

ومن جميل سياسته أنه كان لا يرضى من عماله الشدة فى استيفاء الحقوق والتزيد على ماأمر الله أن يؤخذ الناس به ، بل كان يوصيهم بالرفق والأناة والعدل وعدم الإيغال فى العقوبة.

عن ابن عمر قال : كنت مع عمر فى حج فإذا نحن براكب ، قال عمر : أرى هذا يطلبنا. فجاء الرجل فبكى. قال : ما شأنك ، إن كنت غارما أعناك وإن كنت

خائفا أمناك إلا أن تكون قتلت نفسا فتقتل بها ، وإن كنت كرهت جوار قوم حولناك عنهم ؟ قال : إنى شربت الخمر وأنا أحد بنى تميم وإن أبا موسى جلدنى وحلقنى وسود وجهى وطاف بى على الناس. وقال لا تجالسوه ولا تواكلوه فحدثت نفسى بإحدى ثلاث : إما أن أتخذ سيفا فأضرب به أبا موسى ، وإما أن آتيك فتحولنى إلى الشام فإنهم لا يعرفوننى ، وإما أن ألحق بالعدو فآكل معهم وأشرب. فبكى عمر وقال. ما يسرنى أنك فعلت وأن لعمر كذا وكذا. وإنى كنت لأشرب الناس لها فى الجاهلية وإنها ليست كالزنا. وكتب إلى أبى موسى ما صورته سلام عليك. أما بعد ، فإن فلان ابن فلان التميمى أخبرنى بكذا وكذا وأيم الله إنى إن عدت لأسودن وجهك ولأطوفن بك فى الناس فإن أردت أن تعلم حق ما أقول بعد ، فأمر الناس أن يجالسوه ويؤاكلوه فإن تاب فاقبلوا شهادته. وحمله عمر وأعطاه مائتى درهم.

ومع أن عمر قد أرخى للناس طول الحرية وأجرهم رسن المساواة وفرش للعامة صدره ، فقد كان مهيبا فيهم حتى امتلأت صدورهم بهيبته. ولم يجرد عليهم سيفاً ولم يرفع عليهم سوطاً وإنما كانت له درة وهى عصا صغيرة كالمخصرة يستعملها فى تأديب من استحق الأدب منهم وكانت فى يده على الدوام أنى سار. وكان الناس يهابونها أكثر مما يخيفهم السيوف.

روى الطبرى عن إياس بن سلمة عن أبيه قال : مر عمر بن الخطاب فى السوق ومعه الدرة فخفقنى بها خفقة فأصاب طرف ثوبى. فقال : أمط الطريق. فلما كان فى العام المقبل لقينى. فقال : يا سلمة تريد الحج ؟ فقلت : نعم. فأخذ بيدى فانطلق إلى منزله فأعطانى ستمائة درهم وقال استعن بها على حجك ، واعلم أنها بالخفقة الى خفقتك. قلت ياأمير المؤمنين ما ذكرتها. قال : وأنا ما نسيتها. فكان عمر مؤدبا حكيما. قال الخضرى : ولعل درته لم يسلم من خفقها إلا القليل من كبار الصحابة.

روى راشد بن سعد أن عمر بن الخطاب أتى بمال فجعل يقسمه بين الناس فازدحموا عليه فأقبل سعد بن أبي وقاص يزاحم الناس حتى خلص إليه. فعلاه عمر بالدرة. وقال : إنك أقبلت لا تهاب سلطان الله فى الأرض فأحببت أن أعلمك أن سلطان الله لا يهابك. والذى حمل عمر على أن يأتى إلى سعد ما أتى ، غضبه منه لمزاحمته الناس مدلا عليهم بفضله وسابقته وعمر يعشق المساواة ويكره الإدلال على الناس. وقد كانت الرعية كما قلنا تهابه مهابة شديدة. روى أسلم أن نفرا من المسلمين كلموا عبد الرحمن بن عوف فقالوا : كلم عمر بن الخطاب فإنه قد أخشانا حتى والله ما نستطيع أن نديم إليه أبصارنا. فذكر ذلك عبد الرحمن بن عوف لعمر فقال أو قد قالوا ذلك ؟ والله لقد لنت لهم حتى تخوفت الله فى ذلك ، ولقد اشتددت عليهم حتى خشيت الله وأيم الله لأنا أشد منهم فرقا منهم منى.

عفة عمر عن مال المسلمين

كان عمر قد أخذ نفسه وأهله بحال من التقشف وخشونة العيش حتى ساوى البائس الفقير الذى إنما يعيش بما يتبلغ به مما يمسك الرمق ويدفع الجوع. لم تشره نفسه إلى رقيق العيش ونعيم الحياة الدنيا. ولم يهم بمكاثرة الناس في المال ويرى مال المسلمين مرتعا وبيلا على من رعاه فقتر على نفسه تقتيراً جعله موضعاً للانتقاد واعتراض المعترضين - وقد بلغ من شدة احترازه عن أخذ مال المسلمين أن عطاءه ربما قصر به عن بلوغ الكفاية من حاجاته وحاجات أهله. فلا يسمح لنفسه بأن يطلب من المسلمين أن يفرضوا له كفايته. بل كان يلجأ إلى الاقتراض من أمين بيت المال فإذا حل ميعاد الوفاء ولم يجد عنده ما يسد منه احتال له حتى إذا أخذ عطاءه سدد منه.

رأى بعض أصحاب رسول الله ما يعانيه أمير المؤمنين من جهد العيش فاجتمع نفر منهم فيهم عثمان وعلى وطلحة والزبير. وقالوا : لو قلنا لعمر فى زيادة نزيده إياها فى رزقه. فقال عثمان هلم فلنعلم ما عنده من وراء وراء. فأتوا أم المؤمنين حفصة بنت عمر وحدثوها بما اعتزموا عليه وأوصوها ألا تخبر بهم عمر. فلقيته

حفصة وقالت له في ذلك فغضب وقال : من هؤلاء ؟ لأسوءنهم. قالت لا سبيل إلى علمهم قال أنت بيني وبينهم. ما أفضل ما اقتنى رسول الله صلى الله عليه وسلم من الملبس ؟ قالت ثوبين ممشقين كان يلبسهما للوفد والجمع. قال : فأى الطعام ناله عندك أرفع ؟ قالت : حرفا من شعير فصببنا عليه وهو حار أسفل عكة لنا فجعلتهما دسمة حلوة فأكل منها. قال : فأى مبسط بسط عندك كان أوطأ ؟ قالت : كساء ثخين نربعه في الصيف فإذا جاء الشتاء بسطنا نصفه وتدثرنا بنصفه. قال : فأبلغيهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدر فوضع الفضول مواضعها وتبلغ بالترجية. وإنما مثلى ومثل صاحبي كثلاثة سلكوا طريقاً فمضى الأول لسبيله وقد تزود فبلغ المنزل ثم أتبعه الآخر فسلك سبيله فأفضى إليه ثم أتبعهما الثالث فإن لزم طريقهما ورضى بزادهما لحق بهما وإن سلك طريقا غير طريقهما لم يلقهما.

كان عمر مع ذلك لا يسوغ أحداً من أهل بيته أن ينتفع بشيء ليس له فيه حق. روى مالك في الموطأ أن عبد الله وعبيد الله ابني عمر خرجا في جيش إلى العراق فلما قفلا مرا على أبي موسى الأشعري وهو أمير البصرة. فرحب بهما وسهل. ثم قال. لو أقدر لكما على أمر أنفعكما به. ثم قال : بلى ، ههنا مال من مال الله أريد أن أبعث به إلى أمير المؤمنين فأسلفكماه فتبتاعان به متاعا من متاع العراق ثم تبيعانه بالمدينة فتؤديان رأس المال إلى أمير المؤمنين ويكون لكما الربح ، فقالا وددنا ذلك. ففعل وكتب إلى عمر بن الخطاب أن يأخذ منهما المال فلما قدما باعا فأربحا فلما دفعا ذلك إلى عمر قال : أكل الجيش أسلفه ؟ قالا لا. فقال عمر بن الخطاب : ابنا أمير المؤمنين أسلفكما، أديا المال وربحه. فأما عبد الله فسكت ، وأما عبيد الله فقال : ما ينبغي لك يا أمير المؤمنين هذا. لو نقص هذا المال أو هلك لضمناه. فقال عمر أديا فسكت عبد الله وراجعه عبيد الله. فقال رجل من جلساء عمر : يا أمير المؤمنين لو جعلته قراضا. فأخذ عمر رأس المال ونصف ربحه وأخذ عبد الله وعبيد الله نصف ربح المال. قالوا وهو أول قراض في الإسلام.

وقد ذكر الأستاذ الخضرى فى محاضراته أنه - لما ترك ملك الروم الغزو وكاتب عمر وقاربه وسيـر إليه عمرالرسل مع البريد بعثت أم كـلثوم بنت على بن أبى طالب إلى ملكة الروم بطيب ومشـارب وأحناش من أحناش النساء ودسته إلى البـريد فأبلغه لها فأخـذ منه وجاءت امرأة قيصـر وجمعت نساءها وقالـت : هذه هدية امرأة ملك العرب وبنت نبيهم وكاتـبتها وأهدت لها وفيما أهدت لها عقـد فاخر. فلما انتهى به البريد إليه أمر بإمسـاكه ودعا الصلاة جامعة. ، فاجتمعـوا فصلى بهم ركعتين وقال : إنه لا خير فى أمـر أبرم عن غير شورى من أمورى. قولوا فى هديـة أهدتها أم كلثوم لامرأة ملك الـروم فأهدت لها امـرأة ملك الروم. فقال قـائلون : هو لها بـالذى لها وليست امرأة الملك بذمة فتصانع به ولا تحت يدك فتتقيك. وقال آخرون قد كنا نهدى الثيـاب لنستثـيب ونبعث بهـا لتباع ولنصـيب شيئـاً ، فقال : ولكن الرسـول رسول المسلمين والبريد بريدهم والمسلمون عظموها فى صدرها فأمر بردها إلى بيت المال ورد عليها بقدر نفقتها. ا. هـ. ولو أن عمر أرخى العنان لنفسه أو لأهل بيته لرتعوا ولرتع من بعدهـم وكان مال الله تعالى حـبساً على أولـياء الأمور. ومن القـواعد الطبيعـية المؤيدة بالمـشاهد أن الحـاكم إذا امتدت يـده إلى مال الدولة اتـسع الفتق عـلى الراتق واختـل بيت المال أو ماليـة الحكومة وسـرى الخلل فى جـميع فـروع المصالح وجـهر المستتر بالخيانة وانحل النظام.

ومن المعلوم أن الإنسان إذاكان ذا قناعة وعفة عن مال الناس زاهداً فى حقوقهم دعاهم ذلك إلى محبته والرغبة فيه. وإذا كان حاكما حدبوا عليه وأخلصوا فى طاعته نياتهم وكان أكرم عليهم من أنفسهم.

وقد كان عمـر إذا نهى الناس عن أمر من الأمور جمع أهله فـقال : إنى نهيت الناس عن كـذا وكذا وإن الناس ينظرون إليكـم نظر الطير إلى اللحـم وأقسم بالله لا أجد أحداً منكم يفعله إلا أضعفت عليه العقوبة.

ما كان عـمر مع ذلك الذى يضيق على العـامة أو يأخذ الرعية بمـذهبه بل كان يرى أن يحملـهم على الجادة الوسطى وأن يتنـعموا بالطيـبات وإنما كان يأخذ عـماله بمذهبه. فقـد كتب أبو عبيدة إلى عـمر كتابا يخبـره فيه بأنه لا يريد الإقامة بـأنطاكية لطيب هوائها وخوف إخلاد الجند إلى الراحة. فكان من كتاب عمر إليه : وأما قولك إنك لم تقم بأنطاكية لطيب هوائها فالله عز وجل لم يحرم الطيبات على المتقين الذين يعملون الصـالحات. فقال تعالى فى كـتابه العزيز **﴿يا أيهـا الرسل كلوا من الطيـبات واعملوا صالحا إنى بما تعملون عليم﴾** وكان يجب عليك أن تريح المسلمين من تعبهم وتدعهم يرغدون في مطعمهم ويريحون الأبدان النصبة.

ميل عمر للاستـشارة وقبوله النصح: كان عمـر لا يستأثر بالأمـر دون المسلمين ولا يستبـد عليهم فى شأن من الشئون العـامة. فإذا نزل به أمر لا يبرمـه حتى يجمع المسلمين ويحيل الرأى معهم فيه ويستـشيرهم. ومن مأثور قوله : لاخير فى أمر أبرم من غير شورى. وكان مسلكه فى الشورى جميـلا. فإنه كان يستشير العامة أول أمره فيسمع منهم ، ثم يجمع مشايخ أصحاب رسول الله وأصحاب الرأى منهم ثم يفضى إليهم بـالأمر ويسألهم أن يخلـصوا فيه إلى رأى مـحمود ، فمـا استقر علـيه رأيهم أمضاه: وعمله هذا يشـبه النظامات الدستورية فى كثيـر من الممالك النظاية إذ يعرض الأمر على مجلس (النواب) مـثلا ثم بعد أن يقرر بالأغلبية يعـرض على مجلس آخر يسمى فى بعضها مجلس الشيوخ وفى بعضها مجلس اللوردات فإذا انتهى المجلس من تقريره أمـضاه الملك. والفـرق بين عمل عمر وعـمل هذه الممالك أن هذا الأمـر كان اجتـهادا منه وبغيـر نظام متبع ، أو قـوانين مسنونة. وأما فـى الممالك المتمـدنة اليوم فالأمر يـجرى على نظام وقوانين. ومـن قوله في الشورى : يحق عـلى المسلمين أن يكون أمرهم شورى بـينهم وبين ذوى الرأى منهم. فالناس تبع لمن قام بـهذا الأمر ما اجتمعوا عليه ورضوا به لزم الناس وكانوا فـيه تبعا لهم ومن قام بهذا الأمر تبع لأولى رأيهم ما رأوا لهم ورضوا به من مـكيدة فى حرب كانوا فيه تبعا لـهم. فهو فى قوله

هذا قد جعل أولي الأمر منفذين لما رآه أولو الرأى والناس تبع للإمام فيما أخذ به من رأى أولى الرأى.

وكثيراً ماكان يجتهد فى الشيء ويبدى رأيه فيه ثم يأتى أضعف الناس فيبين له وجه الصواب فيقبله ويرجع عن خطأ ما رأى إلى صواب ما استبان له.

رأى الناس بعد توالى الفتوح وكثرة الأموال لديهم قد غالوا فى مهور النساء فلم يعجبه ذلك من أمرهم وعزم على أن يجعل للمهر حداً لا يتجاوزه الناس. فنادته امرأة من أخريات المسجد قائله كيف : وقد قال الله تعالى : **﴿وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئا﴾** فالله يعطينا بالقنطار وأنت تمنعنا الدراهم ياعمر ؟ فقال . أصابت امرأة وأخطأ عمر. وكان يطلب من الناس أن يفضوا إليه بنصائحهم ويبينوا له وجه الحق إذا رأوا منه انحرافا عن القصد. قد ورد أنه قال مرة فى خطبة "أيها الناس إن أحسنت فأعينونى وإن صدفت فقومونى" فقال له رجل من آخريات المسجد : لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا. وفى المناقب عن الحسن رضى الله عنه قال : كان بين عمر بن الخطاب ربين رجل كلام فى شيء فقال له الرجل : اتق الله ، فقال رجل من القوم أتقول لأمير المؤمنين اتق الله ؟ فقال عمر دعه فليقها لى. نعم ما قال. لا خير فيكم إذا لم تقولوها ولا خير فينا إذا لم نقبلها.

وقد كان لعمر خاصة من علية الصحابة وذوى الرأى. منهم العباس بن عبد المطلب وابنه عبد الله وكان لا يكاد يفارقه فى سفر أو حضر وعثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف وعلى بن أبى طالب ونظراؤهم. كان يستشيرهم ويرجع إلى رأيهم.

رأى عمر فى الاجتماعات - كان عمر رضى الله عنه يرى أن ابتعاد الخاصة عن عامة الناس واختصاصهم بأفراد لا يغشى تلك المجالس سواهم أمر غير لائق. لأنه كان يعتبر علية الناس وذوى فضلهم بمنزلة المربى للعامة يقتدون بهم ويترسمون خطواتهم فإذا دفعت العامة عن غشيان مجالس أولى الفضل فاتت الفائدة المقصودة ،

ووجدت هوة بعيدة الغور بين الفريقين. ثم يتبع ذلك أن المجالس يدور فيها الكلام على أنحاء وفنون. فإذا نقل ما يدور فيها إلى الناس نقل على غير وجهه وصرف عن منحاه وظنت بالمجالس وأهلها الظنون. وكان ذلك أدعى إلى سقوط منزلتهم. وفوق هذا فإن ذلك يدعو إلى الاختلاف والتدابر والتناكر لأن من يغشون مجلسا يدلون بعميد ذلك المجلس وكبيره. وذلك مؤد إلى النفاسة وقد نهى عمر عن ذلك ناساً من قريش فيما قدمنا عن ابن عباس. قال الأستاذ الخضرى : والذى خافه عمر على الناس وعلى من يأتى قد وقع فكثرت الآراء المنقولة عن أفراد ذلك العصر ودعا ذلك إلى اختلاف الناس فى الدين اختلافاً عظيما.

تدوين الدواوين وفرض العطاء

أترك الأستاذ الخضرى يتكلم على تدوين الدواوين قال :

من البديهى أن حاجات الدولة تترقى بترقى العمران وامتداد السلطان. وقد كانت دولة الإسلام فى خلافة أبى بكر وصدراً من خلافة عمر فى مبادىء الظهور وسذاجة البيئة وعدم اتساع السلطان ولم يكن لها من الدخل والخرج إلا الصدقة التى كانت تؤخذ من الأغنياء وترد على الفقراء وأما الغنائم والفىء فكانت قليلة لم تحوج أخماسها التى يبعث بها للمدينة إلى صرف العناية وترتيب الشؤون الإدارية على أصول الدولة المترقية يومئذ كفارس والروم. وإنما كانت العناية منصورفة إلى الشؤون الحربية والفنون العسكرية.

ولما توسع المسلمون بالفتح وانتشروا فى الممالك وكثرت موارد الدولة وتبسطت فى مناحى العمران وأخذ يزداد الفىء من الخراج والجزية زيادة لا طاقة للخليفة وأمرائه بضبطها ، ولا قبل له بإحصاء مستحقيها وتوزيع الأعطيات على أربابها بالعدل إلا بضبطها وترتيبها على أصول ثابتة وقيدها فى قيود خاصة دعا عمر رضى الله عنه الصحابة واستشارهم فى كيفية تدوين الديوان فقال على بن أبى طالب : تقسم كل سنة ما اجتمع من مال ولا تمسك منه شيئاً وقال عثمان : أرى مالا كثيراً يسع الناس

وإن لم يحصوا حتى يعرف من أخذ ممن لم يأخذ خشيت أن ينتشر الأمر وقال له الوليد بن هشام بن المغيرة : قد جئت الشام فرأيت ملوكها قد دونوا ديواناً وجندوا جنداً فدون ديواناً وجند جنداً فأخذ بقوله فدعا عقيل بن أبى طالب ومخرمة بن نوفل وجبير بن مطعم وكانوا من نبهاء قريش فأمرهم بتدوين الديوان ففعلوا والديوان هو الدفتر أو مجتمع الصحف والكتاب يكتب فيه أهل الجيش وأهل العطية كما فى القاموس وتوسعوا بمسماه بعد فأطلقوا على كل دفاتر الحكومة الإدارية وغيرها ثم على المكان الذى يكون فيه الديوان ديواناً.

ولما كتبت الدواوين كتب ديوان الشام بالرومية وديوان العراق بالفارسية واستمر إلى عهد عبد الملك بن مروان بالشام والحجاج بن يوسف عامله على العراق ونقل عبد الملك فى الشام الديوان إلى العربية ونقله الحجاج فى العراق إلى العربية.

الوصف على الجملة :

كان عمر يحب رعيته حبا جما ويحب ما يصلحها ويكره ما يفسدها ساسها بسياسة تقربه إلى القلوب فكان عفيفاً عن أموالهم عادلا بينهم مسويا بين الناس لم يكن قوى يطمع أن يأخذ أكثر مما له ولا ضعيف يخاف أن يضيع مه ماله كان حكيما يضع الشيء فى موضعه يشتد حينا ويلين حينا حسبما توحى إليه الأحوال التى هو فيها. عرف العرب معرفة تامة وعرف ما يصلح أنفسها فسيرها فى الطريق الذى لا تألم فيه فصيرها أمة حرة لا تستطيع أن تنظر إلى خسف يلحقها من أى إنسان ولذلك نقول : إن عمر أتعب من بعده فإن النفوس التى تحتمل للعرب ما احتمله عمر قليلة فى الدنيا بأسرها وإلا فأين ذلك الرجل الذى يفنى فى مصلحة رعيته ولا يرى لنفسه من الحقوق إلا كما لأدناهم مع تحمله مشقات الحياة وأتعابها. العربى يستدعى سياسته حكمة عالية : فإنك إن اشتددت معه أذللته فهلك ، وإن لنت معه ليكون رجلا نافعاً لم يكن هناك حد لجفائه ولا لحريته فهو يحتاج إلى عقل كبير يدبره حتى لا تهلكه

الشدة ولا يطغيه اللين ، ولم يكن ذلك العقل الكبير إلا فى رأس عمر بن الخطاب بعد صاحبيه.

نعم قد قام بعده خلفاء راشدون وأئمة مهتدون ولكنهم لم يجمعوا صفات عمر التى كان مجموعها كدواء مركب إذا سقط منه أحد العقاقير فربما أهلك صاحبه لذلك نصرح بأن العرب بعد عمر لم تجتمع على أى خليفه فى أى زمن من الأزمان حتى وقتنا هذا والسبب معقول.

بيت عمر :

تزوج عمر فى الجاهلية زينب ابنة مظعون من بنى جمح من قريش فولدت له عبد الله وعبد الرحمن الأكبر وحفصة أم المؤمنين وتزوج فى الجاهلية مليكة ابنة جرول من خزاعة فأولدها عبد الله وقد فارقها فى هدنة الحديبية تزوج قريبة ابنة أبى أمية من بنى مخزوم وقد فارقها فى الهدنة وتزوج أم حكيم بنت الحارث بن هشام من بنى مخزوم فولدت له فاطمة وتزوج جميلة بنت قيس من الأنصار فولدت له عاصماً وهذه طلقها وتزوج أم كلثوم بنت على فولدت له زيداً ورقية ومات عنها وتزوج لهية وهى امرأة من اليمن فولدت له عبد الرحمن الأصغر وتزوج عاتكة بنت زيد بن عمرو.

وخطب أم كلثوم بنت أبى بكر وهى صغيرة وأرسل فيها إلى عائشة فقالت : الأمر إليك : فقالت أم كلثوم : لا حاجة لى فيه. فقالت عائشة : ترغبين عن أمير المؤمنين ؟ فقالت نعم إنه خشن العيش شديد على النساء فأرسلت عائشة إلى عمرو ابن العاص فأخبرته. فقال أكفيك فأتى عمر فقال : يا أمير المؤمنين بلغنى خبر. أعيذك بالله منه ؟ قال ما هو ؟ قال : خطبت أم كلثوم بنت أبى بكر ؟ قال : نعم أفرغبت بى عنها أم رغبت بها عنى ؟ قال : لا واحدة. ولكنها حدثه نشأت تحت كنف أم المؤمنين فى لين ورفق وفيك غلظة ونحن نهابك وما نقدر أن نردك عن خلق

من أخلاقك فكيف بها إن خالفتك فى شىء فسطوت بها كنت قد خلفت أبا بكر فى ولده بغير ما يحق عليك ؟ قال : فكيف بعائشة وقد كلمتها ؟ قال : أنالك بها وأدلك على خير منها أم كلثوم بنت على بن أبى طالب تعلق منها بنسب من رسول الله صلى الله عليه وسلم وخطب أبان بنت عتبة بن ربيعة فكرهته وقالت يغلق بابه ويمنع خيره ويدخل عابساً ويخرج عابساً.

مقتل عمر

بينما المسلمون مغتبطون بما يفتح عليهم من الأمصار والمدن والممالك شرقى بلاد العرب وغربيها وشماليها إذ فوجئوا بأمير المؤمنين مضرجا بدمه فى محرابه فتبدل صفوهم كدراً وسرورهم حزناً على هذا الخليفة الراشد العادل التقى.

إن رضا الخلائق غاية لا تدرك : فعمر وإن كان أرضى بعدله الخلاق سبحانه وتعالى وشمل عدله من قرب منه ومن نأى عنه من رعيته ، ولكن قلوباً من غير أهل الإسلام كانت مشتملة على مطوية حقد له ، مفعمة بالسخط منه.

كان بالمدينة ملك من ملوك الفرس قد أضاع ملكه وتاجه وعرب المسلمون فيه نكث العهود والخيس بالمواثيق والحنث بالايمان. قد جمع إلى ذلك الخب والدهاء وقد أقام بالمدينة واحداً من الجمهور لا ميزة له على أحد من الناس بعد ذلك العز الباذخ والسلطان العظيم. وهو يسمع بالفتح فى بلاده الفارسية يعقبه الفتح والنصر يحوزه المسلمون يتبعه النصر والغنائم يحوونها يمنة ويسرة فيودع ذلك قلبه حسرة. وكان المسلمون يسبون من أبناء فارس ويتخذون منهم الموالى وقد دفت منهم دافة إلى المدينة وأقاموا بها فى أكناف ساداتهم وخدمة مواليهم وقد كان كثير منهم يختلفون إلى ذلك الملك الذى كن فيهم وهو الهرمزان. وقد كان من سبايا فارس رجل يقال له أبو لؤلؤة عبد المغيرة بن شعبة وكان حاقداً على المسلمين صنعهم ببلاده ويتمنى لو جعلهم الله فى نفس واحدة ليشتفى منهم بالقتل دفعة واحدة. وكان لما ورد على المدينة سبايا

جلولا ، يمسح رؤوسهم ويقول : أكل كبدى عمر. ذلك أن عمر هو الذي يزجى الجيوش إلى فارس ويصرفها إلى البلاد ، وأمرها إليه فى الإصدار والإيراد.

وبينما عمر يطوف يوماً في السوق إذ جاءه فيروز الملقب بأبى لؤلؤة ، وكان نصرانيا ، فقال يا أمير المؤمنين أعنى على المغيرة بن شعبة فإن على خراجاً كثيراً. قال كم خراجك ؟ قال درهمان فى كل يوم. قال : وايش صناعتك قال : نجار نقاش حداد. قال فما أرى خراجك بكثير على ما تصنع من الأعمال. قد بلغنى أنك تقول: لو أردت أن أعمل رحى تطحن بالريح فعلت. قال : نعم. قال : فاعمل لى رحى. قال : لئن سلمت لأعملن لك رحى يتحدث بها من بالمشرق والمغرب. ثم انصرف عنه فقال عمر : لقد توعدنى العبد آنفا. ثم انطلق عمر إلى منزله. فلما كان من الغد جاءه كعب الأحبار فقال : يا أمير المؤمنين اعهد فإنك ميت فى ثلاثة أيام ؟ قال : وما يدريك قال أجده فى كتاب الله التوارة. فقال عمر : آلله إنك لتجد عمر بن الخطاب فى التوراة ؟ قال : اللهم لا ولكن أجد صفتك وحيلتك وإنه قد فنى أجلك. وعمر لا يحس وجعاً ولا ألما. فلما كان من الغد غدا عليه كعب فقال : يا أمير المؤمنين ذهب يوم وبقى يومان. ثم جاءه من غد الغد وقال : ذهب يومان وبقى يوم وليلة وهى لك إلى صبيحتها. ذلك أن كعباً رجل يهودى رأى الإسلام يعلو ويتزايد أمره ولم يقف فى سبيل نموه شىء ولا دين فى بلاد العرب وخرجها. فأسلم لشيئين أولهما أنه رأى اليهودية تضؤل وتضمحل أمام الإسلام فى بلاد العرب والنصرانية ضاغطة عليها فى سورية وبقية المملكة الرومانية. والتظاهر بالإسلام يكسبه عزاً لم يكن له فى قومه ثانيهما أن الرجل من اليهود أهل الكتاب الأول والعلم أيام جاهلية العرب. والتوراة بلسانه دون لسان العرب. وفى أسفارها من المعميات والألغاز ما لا يمكن أن يفقهه العرب ولو لقنوا العبرية فهى إذن مجال فسيح للكذب يلقيه إلى المسلمين ليفسد عليهم أمرهم ويعمى عليهم سبيل الهدى. فهو بذلك أراد أن يضرب عصفورين بحجر. وكذلك كان. فإن الرجل نال بين المسلمين مركزاً عظيما. وقد كان

كثير يرون أن التوراة فيها علم كل شيء وإنه صادق فيما يخبر به ، وبخاصة بعد أن تحقق قوله في عمر. والرجل قد أفاض على المسلمين ثروة واسعة من الإسرائيليات التي ندرى نحن حقيقتها وكان هو لا يدرى من حقيقتها شيئاً سوى أنه مبتدعها. وكان يسند كلامه إلى التوراة والتوراة خالية مما كان يموه به على الناس. وهذه التوراة بين أيدينا نقرؤها وليس فيها شيء مما كان يقوله هذا الرجل لمعاصريه وهو بالأساطير أشبه.

بعد أن تمهد هذا أقول : إن حكاية إخباره بمصرعه على هذا الوجه المروى لو كانت صحيحة ، لم يبق عند الواقف عليها شك في أن هذا الرجل كان واقفاً على ما دبره فيروز أبو لؤلؤة من اغتيال عمر ، وأن خطة السير للوصول إلى قتله كان كعب الأحبار عارفاً بها واقفاً عليها وقوفاً تاماً. وإنما أراد بإخبار عمر على هذا الوجه ، أن تزيد منزلته عند المسلمين وينال الحظوة فيهم وتكون رواياته وحكاياته أكثر قبولا. ولو وجد محقق ذكي وعرض عليه أمر كعب الأحبار وما أخبر به عمر قبل القتل ما نجا كعب من النكال ولعد شريكا للجاني ولكان حقيقاً أن ينفذ فيه قانون الاتفاقات الجنائية الذى شرع فى مصر سنة ١٩١٠.

كان بالمدينة رجل من نصارى الأنبارى أقدمه سعد بن أبى وقاص ليعلم أبناء المسلمين القراءة بالمدينة والكتابة اسمه جفينة. وناحية الأنبار كان تابعة للفرس وللرجل بهم إلف ، فكان يجتمع بالهرمزان ، وفيروز أبى لؤلؤة وقد روى أن عبد الرحمن بن أبى بكر مر بالهرمزان وأبى لؤلؤة وجفينة يتناجون وهم جلوس فلما رأوا عبد الرحمن قاموا وقوفاً فسقط بينهم خنجر له رأسان نصابه فى وسطه ، وهو الخنجر الذى قتل به عمر بعد ذلك.

من اجتماع هذه الأحوال والمناسباب أرى أنه لا يكون بعيداً من الصواب من بعد قتل عمر نتيجة لمؤامرة واتفاق جنائى غمس يده فيه كل من (١) الهرمزان (٢) فيروز أبى لؤلؤة عبد المغيرة بن شعبة (٣) جفينة الأنبارى (٤) كعب الأحبار اليهودى.

ولو كان المسلمون فى شريعتهم إيجاب العقوبة بالقرائن ووجد من يحقق مع من بقى منهم بعد مقتل عمر لكان من المحتمل جداً أن يعاقب كل منهم على ذلك الاتفاق الأثيم. لأنهم فى ذلك الوقت يعتبرون من الرعية المسالمين لا الأعداء المحاربين فليس لهم عذر ولا شبهة عذر فى تدبير ذلك الجرم الفظيع.

كيف قتل عمر ؟

قال الطبرى : فلما كان الصبح خرج عمر إلى الصلاة وكان يوكل بالصفوف رجالا فإذا استوت جاء فكبر ودخل أبو لؤلؤة فى الناس فى يده خنجر له رأسان نصابه فى وسطه فضرب عمر ست ضربات إحداهن تحت سرته وهى التى قتلته وقتل معه كليب بن أبى بكير الليثى وكان خلفه. فلما وجد عمر حر السلاح سقط وقال : أفى الناس عبد الرحمن بن عوف ؟ قالوا : نعم هوذا. قال تقدم فصل ، فصلى عبد الرحمن بن عوف وعمر طريح. ثم احتمل فأدخل داره فدعا عبد الرحمن بن عوف.

ثم نادى عمر ابنه عبد الله وقال اخرج فانظر من قتلنى فقال : يا أميرالمؤمنين قتلك أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة. فحمد الله تعالى أن لم يقتله رجل سجد لله تعالى سجدة ثم قال : يا عبد الله ائذن للناس فجعل يدخل عليه المهاجرون والأنصار فيسلمون عليه فيقول : عن ملأ منكم كان هذا ؟ فيقولون : معاذ الله.

وقد دخل فى الناس كعب الأحبار فقال **﴿الحق من ربك فلا تكونن من الممترين﴾** قد أنبأتك أنك شهيد فقلت من أين لى الشهادة وأنا فى جزيرة العرب.

ويقال إنه لما نظر عمر إلى كعب قال :

فأوعدنى كعب ثلاثا أعدها ... ولا شك أن القول ما قال لى كعب
وما بى حذار الموت ، إنى لميت ... ولكن حذار الذنب يتبعه الذنب

ثم دعى له الطبيب فقال : أى الشراب أحب إليه فجىء له بنقيع التمر فسقاه فخرج على حاله من الجرح ثم سقاه اثنين فخرج على حاله فأيقن أنه ميت ولم يجد

للقضاء حيلة. وقد توفى عمر ليلة الأربعاء لثلاث ليال بقين من ذى الحجة سنة ٢٣ ودفن بكرة يوم الأربعاء فى حجرة عائشة مع صاحبيه بعد أن استأذن عائشة فى ذلك عقيب أن طعن - ولما أدرج فى كفنه ابتدر على وعثمان الصلاة عليه. فقال عبد الرحمن بن عوف : إنكما حريصان على الإمارة. ليس لكما ذلك وإنما هو لصهيب لأنه قد أمره أن يصلى بالناس. فتقدم صهيب فصلى عليه ثم حمل إلى حجرة عائشة فوورى التراب. وكانت مدة خلافته عشر سنوات وستة أشهر وأربعة أيام من ابتداء ٢٢ جمادى الثانية سنة ١٣ إلى ٢٦ ذى الحجة سنة ٢٣ وكانت سنه حين قتل ٦٣ سنة كصاحبيه فى أشهر الأقوال.

أما أبو لؤلؤة فقد جهد الناس أن يقبضوا عليه فأصاب منهم ثلاثة عشر رجلا بجراحات وأعياهم أمره فجاء رجل من بنى تيم وألقى عليه رداء ، فلما علم أنه مأخوذ قتل نفسه.

كيف انتخب عثمان ؟

لما طعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قيل له : يا أمير المؤمنين لو استخلفت. قال من أستخلف ؟ لو كان أبو عبيدة بن الجراح حيا استخلفته فإن سألنى ربى قلت سمعت نبيك يقول : إنه أمين هذه الأمة. ولو كان سالم مولى أبى حذيفة حيا استخلفته. فإن سألنى ربى قلت : سمعت نبيك يقول : إن سالماً شديد الحب لله - فقال له رجل : أدلك عليه. عبد الله بن عمر. فقال : قاتلك الله. والله ما أردت الله بهذا. ويحك. كيف استخلف رجلا عجز عن طلاق امرأته ؟ لا أرب لنا فى أموركم. ما حمدتها فأرغب فيها لأحد من أهل بيتى. إن كان خيراً فقد أصبنا منه وإن كان شراً فشر عنا إلى عمر. بحسب آل عمر أن يحاسب منهم رجل واحد ويسأل عن أمر أمة محمد. أما لقد جهدت نفسى وحرمت أهلى وإن أنج كفافاً لا وزر ولا أجر إنى لسعيد. وأنظر فإن أستخلف فقد استخلف من هو خير منى (يعنى أبا بكر)

وإن أترك فقد ترك من هو خير منى (يعنى رسول الله صلى الله عليه وسلم) ولن يضيع الله دينه فخرجوا.

وكأن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم خافوا أن يقضى عمر نحبه بدون استخلاف فينتشر أمر المسلمين لتطلع كثير من الصحابة إلى هذا الأمر فتكونَ فتنة فى الأرض وفساد كبير ، فراحوا إلى عمر مرة أخرى ، وقالوا : يا أمير المؤمنين لو عهدت عهداً. فقال كنت أجمعت بعد مقالتى لكم أن أنظر فأولى رجلا أمركم هو أحراكم أن يحملكم على الحق (وأشار إلى على) ودهمتنى غشية فرأيت رجلا دخل جنة قد غرسها فجعل يقطف كل غضة ويانعة فيضمه إليه ويصيره تحته فعلمت أن الله غالب أمره ومتوف عمر فما أريد أن أتحملها حيا وميتا ، عليكم هؤلاء الرهط الذين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنهم من أهل الجنة ، سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل منهم ولست مدخله ولكن الستة : على وعثمان ابنا عبد مناف وعبد الرحمن وسعد خالا رسول الله صلى الله عليه وسلم والزبير بن العوام حوارى رسول الله وابن عمته وطلحة الخير بن عبيد الله. فليختاروا منهم رجلا فإذا ولوا واليا فأحسنوا موازرته وأعينوه وإن ائتمن أحداً منكم فليؤد إليه أمانته. وخرجوا. ولقى العباس عليا فقال له لا تدخل معهم. قال أكره الخلاف ، قال : إذا ترى ما تكره.

والذى أراه أن العباس غلب على ظنه أن القوم يفضلون اختيار غير على فإذا حدث ذلك وهو واحد منهم كان عليه فى ذلك غضاضة ورأى ذلك غصة لا يسيغها على إلا على ألم ، ولكنه نفض يده من الأمر واختير واحد من جماعة ليس على واحداً منهم لم يكن الإيثار ظاهراً ولاغضاضة عليه فى ذلك فأراد أن يحتاط لابن أخيه هذا الاحتياط.

فلما أصبح عمر دعا عليا وعثمان وسعدا وعبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام. فقال : إنى نظرت فوجدتكم رؤساء الناس وقادتهم ولا يكون هذا الأمر إلا فيكم وقد قبض رسول الله صلى الله عليه وهو عنكم راض. إنى لا أخاف الناس

عليكم إن استقمتم ولكنى أخاف عليكم اختلافكم فيما بينكم فيختلف الناس ، فانهضوا إلى حجرة عائشة فتشاوروا رجلا منكم. ثم قال : لا تدخلوا حجرة عائشة ولكن كونوا قريبا. ثم وضع رأسه وقد نزفه الدم. فدخلوا فتناجوا ، ثم ارتفعت أصواتهم. فقال عبد الله بن عمر. سبحان الله. إن أمير المؤمنين لم يمت بعد ، فأسمعه فانتبه. فقال : ألا أعرضوا عن هذا أجمعون. فإذا مت فتشاوروا ثلاثة أيام وليصل بالناس صهيب. ولا يأتين اليوم الرابع إلا وعليكم أمير منكم ويحضر عبد الله ابن عمر مشيراً ولا شيء له من الأمر وطلحة شريككم فى الأمر. فإن قدم فى الأيام الثلاثة فأحضروه أمركم وإن مضت الأيام الثلاثة قبل قدومه فاقضوا أمركم. ومن لى بطلحة ؟ فقال سعد بن أبي وقاص : أنا لك به ولا يخالف إن شاء الله فقال عمر : أرجو أن لا يخالف إن شاء الله ، وما أظن أن يلى إلا أحد هذين الرجلين : على وعثمان ، فإن ولى عثمان فرجل فيه لين. وإن ولى على ففيه دعابة ، وأحر به أن يحملهم على طريق الحق. وإن تولوا سعداً فأهلها هو وإلا فليستعن به الوالى. فإنى لم أعزله عن خيانة ولا ضعف ونعم ذوى الرأى عبد لرحمن بن عوف مسدد رشيد له من الله حافظ فاسمعوا منه. وقال لأبى طلحة الأنصارى : يا أبا طلحة ، إن الله عز وجل طالما أعز الإسلام بكم فاختر خمسين رجلا من الأنصار فاستحث هؤلاء الرهط حتى يختاروا رجلا منهم. وقال للمقداد بن الأسود : إذا وضعتمونى فى حفرتى فاجمع هؤلاء الرهط فى بيت حتى يختاروا رجلا منهم. وأدخل علياً وعثمان والزبير وسعداً وعبد الرحمن بن عوف وطلحة إن قدم. وأحضر عبد الله بن عمر وقم على رؤوسهم. فإن اجتمع خمسة ورضوا رجلا وأبى واحد فأشدخ رأسه بالسيف وإن اتفق أربعة فرضوا رجلا منهم وأبى اثنان فاضرب رأسهما بالسيف. فإن رضى ثلاثة رجلا منهم وثلاثة رجلا منهم. فحكموا عبد اللهبن عمر. فأى الفريقين حكم له فليختاروا رجلا منهم. فإن لم يرضوا بحكم عبد الله بن عمر. فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف واقتلوا الباقين إن رغبوا عما اجتمع عليه الناس.

انتخاب خليفة عمر

فلمـا دفن عمر جـمع المقداد أهل الـشورى فى بيت المسـور بن مخـرمة وهم خمسة، معهم عبد الله بن عمر وطلحة غائب ، وأمروا أبا طلحة أن يحجبهم. وجاء عمرو ابن العـاص والمغيرة بن شعبة فجلـسا بالباب. فأقامها سـعد وقال : تريدان أن تقولا حضرنا وكنا فى الشورى. فلما أخذوا فى إجاله الرأى بينهم تنافسوا فى الخلافة وكثر بينهم الكلام. فقال أبو طلحة : أنا كنت لأن تدفعوها أخوف منى لأن تنافسوها ، لا والذى ذهب بنفس عمر لا أزيدكم على الأيـام الثلاثة التى أمرتم ثم أجلس فى بيتى فـأنظر ماذا تصنعون ؟ فـقال عبد الرحمن بـن عوف : أيكم يخرج منهـا نفسه ويتقلدهـا على أن يوليها أفـضلكم ؟ فقال عثـمان : أنا أول من رضى فإنى سـمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول أمين فى الأرض أمين فى السماء. فقال القوم : قد رضينا وعلى ساكت فقال : ما تقـول يا أبا الحسن ؟ فقال : لتؤثرن الحق ولا تتبع الهوى ولا تخص ذا رحـم ولا تألوا لامه. فقال عـبد الرحمن : أعطونى مـواثيقكم على أن تكونوا معى على من بدل وغير ، وأن ترضوا من اخترت لكم على ميثاق الله أن لا أخص ذا رحم لرحمه ولا آلو المسلمين. فأخذ منهم ميثاقاً وأعطاهم مثله.

تقلد عبد الرحمن الأمر على أن يختار أفضل أهل الشورى ، وخلا بعلى وقال له : إنك تقول إنى أحق من حـضر بالأمر لقرابتك وسابـقك وحسن أثرك فى الدين ولم تبعد. ولـكن ، أرأيت لو صرف هذا الأمر عنك فلم تحـضر. من كنت ترى من هؤلاء الرهط أحق بالأمر ؟ قال : عـثمان ثم خلا بعثمان فقـال له : تقول شيخ من بنى عبد مناف وصهر رسول الله صلى الله عليـه وسلم وابن عمه لى سابقة وفضل لم تبـعد. فلم يصـرف هذا الأمر عنى ؟ ولكن لو لـم تحضر فـأى هؤلاء الرهط تراه أحق به ؟ قال : علي ثم خـلا بالزبير فكلمه بمثل مـا كلم به عليا فقال : عـثمان ثم خلا بسعد وقال لـه مثل ذلك فقال : عثمان. فلقى على سـعدا فقال له ﴿واتقوا الله الذى تسـاءلون به والأرحـام إن الله كان عليكـم رقيـبا﴾ أسـألك برحم ابنـى هذا من

رسول الله صلى الله عليه وسلم وبرحم أمى حمزة منك أن لا تكون مع عبد الرحمن لعثمان على ظهيراً فإنى أدلى بما لا يدلى به عثمان.

لم يقتصر عبد الرحمن على ما قدمنا فى الاستشارة فى هذا الأمر بل دار لياليه يلقى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن وافى المدينة من أمراء الأجناد وأشراف الناس يشاورهم ولا يخلو برجل إلا أمره بعثمان. حتى إذا كانت الليلة التى ينتهى فى صبيحتها الأجل أتى دار المسور بن مخرمة وهو ابن أخته فأيقظه عبد الرحمن وقال له : ألا أراك نائما ولم أذق فى هذه الليلة كثير غمض انطلق فادع الزبير وسعداً فدعاهما. فبدأ بالزبير فى آخر المسجد فى الصفة التى تلى دار مروان. فقال للزبير : خل ابنى عبد مناف وهذا الأمر. قال نصيبى لعلى. وقال لسعد : أنا وأنت كلالة : فاجعل نصيبك لى فأختار ، قال. إن اخترت نفسك فنعم ، وإن اخترت عثمان فعلى أحب إلى ، أيها الرجل بايع نفسك وأرحنا وارفع رؤوسنا فقال عبد الرحمن يا أبا اسحاق إنى قد خلعت نفسى منها على أن أختار ولو لم أفعل وجعل الخيار إلى لم أردها ، قال : لا يقوم بعد أبى بكر وعمر أحد فيرضى الناس عنه ثم انصرف الزبير وسعد.

ومن هذا نرى أن الزبير وسعد حالا عن رأيهما الذى قالاه لعبد الرحمن أولا لأنهما كانا قد أشارا عليه بعثمان لو لم يحضر كل منهما الأمر ، وإنى لا أدرى السبب فى هذ العدول وغاية ما يمكننى أن أقوله أن كلا منهما راجع فكره ونظر إلى مصلحة المسلمين ، فرأى أن عليا يكون فى سيرته أقرب إلى منهج عمر من القوة على الحق والبعد عن الانغماس فى الدنيا والاغترار بزينتها ، وأن عثمان فيه رقة ورأفة وقد أخذت منه الشيخوخة مأخذها ومن كان كذلك كان أقرب إلى استكفاء غيره والركون إلى مشورة سواه وهم لا يدرون من يكون ذلك الكافى ؟ ولا يثقون بمنهج المشير - أو يكون على قد أثر كلام على فى سعد - ثم أرسل المسور إلى على فجاء فناجاه حتى فرق بينهما الصبح وكان على لا يشك فى أن الأمر له - فلما صلوا الصبح جمع

رجال الشورى وبعث إلى من حضره من المهاجرين وأهل السابقة والفضل من الأنصار وأمراء الأجناد - فاجتمعوا حتى التج المسجد بأهله ، فقال : أيها الناس ، إن الناس قد أحبوا أن يلحق أهل الأمصار بأمصارهم وقد علموا من أميرهم. فقال سعيد بن زيد : إنا نراك لهاأهلا. فقال أشيروا على بغير هذا. فقال عمار : إن أردت أن لا يختلف المسلمون فبايع عليا فقال المقداد بن الأسود صدق عمار إن بايعت عليا قلنا سمعنا وأطعنا ، فقال عبد الله بن أبى سرح : إن أردت أن لا تختلف قريش فبايع عثمان ، فقال عبد الله بن أبى ربيعة صدق ، إن بايعت عثمان قلنا سمعنا وأطعنا ، فشتم عمار ابن أبى سرح ، وقال : متى كنت تنصح المسلمين ؟ فتكلم بنو هاشم وبنو أمية ، فقال عمار : أيها الناس إن الله عز وجل أكرمنا بنبيه وأعزنا بدينه ، فأنى تصرفون هذا الأمر عن أهل بيت نبيكم ؟ فقال رجل من بنى مخزوم : لقد عدوت طورك يا ابن سمية وما أنت وتأمير قريش لأنفسها ، فقال سعد بن أبى وقاص : يا عبد الرحمن أفرغ قبل أن يفتتن الناس ، فقال عبد الرحمن إنى قد نظرت وشاورت فلا تجعلن أيها الرهط على أنفسكم سبيلا. ودعا عليا ، فقال : عليك عهد الله وميثاقه لتعملن بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخليفتين من بعده ؟ قال أرجو أن أفعل وأعمل بمبلغ علمى وطاقتى ودعا عثمان. فقال له مثل ما قال لعلى ، قال : نعم فبايعه. فقال : على حَبَوْتُه حَبو دَهْرٍ ، ليس هذا أول يوم تظاهرتم فيه علينا فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون : والله ما وليت عثمان إلا ليرد الأمر إليك والله كل يوم هو فى شأن ، فقال عبد الرحمن ياعلى لا تجعل على نفسك سبيلا ، فإنى قد نظرت وشاورت الناس فإذا هم لا يعدلون بعثمان. فخرج على وهو يقول : سيبلغ الكتاب أجله. فقال المقداد : يا عبد الرحمن ، أما والله لقد تركته من الذين يقضون بالحق وبه يعدلون. فقال : يا مقداد ، والله لقد اجتهدت للمسلمين.

قدم بعد ذلك طلحة فى اليوم الذى بويع فيه لعثمان ، فقيل له : بايع عثمان فقال : أكل قريش راض به ؟ قالوا : نعم فأتى عثمان ، فقال له عثمان : أنت على

أمرك إن أبيت رددتها قال : أتردها ؟ قال : نعم ، قال : أكل الناس بايعوك ؟ قال : نعم ، قال : رضيت لا أرغب عما قد أجمعوا عليه وبايع. وقد ورد أن المغيرة بن شعبة قال لعبد الرحمن أصبت إذ بايعت عثمان ، وقال لعثمان لو بايع غيرك ما رضينا فقال له عبد الرحمن : كذبت يا أعور والله لو بايعت غيره لبايعته ولقلت هذه المقالة.

وروى الطبرى في خبر أن عليا تلكأ في بيعة عثمان فقال عبد الرحمن بن عوف : ومن نكث فإنما ينكث على نفسه ، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فيسوتيه أجراً عظيما فرجع على يشق الناس حتى بايع وهو يقول : خدعة وأيما خدعة.

الحالة العامة فى عهد عمر

إن الحالة العامة للمسلمين على عهد عمر بن الخطاب تختلف عنها فى عهد أبى بكر فقد تقوى فى عهد عمر الدين وصارت كلمته العليا فى جزيرة العرب وتوطد الملك للمسلمين وشيدت دعائم الدولة ونسى العرب ما كان بينهم فى الجاهلية من الانقسام والتفرق ومحاربة بعضهم بعضاً وزالت عن أعينهم غشاوة الجهل بأمور الدول وتجردوا عن كثير من تلك السذاجة التى كانت فيهم ، وصارت الأمة الإسلامية سائسة ملك وربة سطوة ومؤسسة دولة ومقننة قانون وصاحبة دين أهاب بها إلى الجد وحملها على مزاحمة أمم التاريخ بالمناكب حتى وسمت بأنها أعظم الأمم.

فى عهد عمر كانت حياة الأمة نامية نمواً عجيباً يتدفق فيضها الحيوى فى جميع عناصرها وأعضائها تدفقا ينعش كل جزء من أجزائها وينمى ذلك الجسم نمواً سريعا يؤذن بانقلاب فى العالم تهتز له أعصاب دول الأرض ويتناول أهل المشارق والمغارب - فاندفعت الأمة فى عصره بما استحدثه فيها الدين من الاتحاد القومى وما رسخ فى اعتقادهم من أنهم الأمة الوارثة للأمم ، وأن الله تعالى سيمكن لها فى الأرض ويجعل أهلها أئمة ويجعلهم الوارثين. فسال سيلهم على أطراف الممالك المجاورة لهم وهم الفرس والروم ، فزلزوا سلطان فارس وتغلغلوا فى أحشائها وطم سيلهم على

بلادها وطغى على ما جاورها من البلدان النائية والأمصار المترامية ووطئت خيلهم بلاداً لم يمر اسمها على خاطرهم وشردوا حامل تاج ملك فارس وثلوا عرشه وأزعجوا القواد والرؤساء حتى درس ذلك الملك وصيروا تلك الدولة الساسانية تاريخا يعبر كأن لم تغن بملوكها البلاد ولم تعن لهيبتهم وجوه العباد.

وأما الدولة الرومانية فقد انتقصوا أطرافها وقلصوا ظلها عن الجزيرة وسورية وجزء من أرمينيا وجميع مصر وبرقة. وفي كل آن لهم غارات فى قراهم وفتكات فى جنودهم وأحشاء بلدهم ويغزونهم فى عقر دارهم وبمرأى ومسمع من عاصمة ملكهم ومستقر عزهم ، بجنود أقل من جنودهم عدداً وعدة ، وهم فى كل مرة يواتيهم الظفر ويسعفهم النصر.

كانت الممالك المجاورة للعرب قد تأصلت فيها جذور الاستبداد ورئم أهلها الاستعباد وقد نسى الرومان مسمى الحرية التى جاهد آباؤهم فى سبل إحرازها جهاد الأبطال وانتزعو حريتهم من أيدى الأباطرة انتزاعا - وقد بخع الفرس بنفوسهم للملوك والرؤساء واستعبدوا لأشراف البلاد. وقد تساوى الفرس والروم فى فقدان مبدأ الاعتماد على النفس وحب الاستقلال الذاتى فى أصول حياتهم وفروعها - ولكن العرب الذين جاسوا خلال ديارهم وألقوا رحالهم بينهم جاءوا إليهم حاملين للحرية التى امتزجت بدمائهم وخالطت جواهر نفوسهم. حتى بلغ من أمرهم أنهم لا يطيقون من أمرهم أن يتفوق عليهم فى شيء من الأشياء. وقد شكا بعض العرب أبا موسى أمير البصرة لأن له جارية يقال لها عقيلة يرفع لها جفنة لغدائها وجفنة لعشائها وهم لا يقدرون على مثل ذلك - وقد كان من ورائهم عمر بن الخطاب يقيد العامة من الأمراء - ويقول بملء فيه على المنبر : من ظلمه أميره فلا إمرة له عليه دونى.

نفث العرب الفاتحون في روع أهل البلاد المفتتحة روحا جديدة وذوقوهم حلاوة الحرية الشخصية. وأشعروا نفوسهم أنهم بشر لا ينحطون فى الحقوق العامة عن مرتبة الأمراء ، حتى بلغ من أمر أحد المصريين أنه لما أهين من ابن عمرو بن العاص أمير

مصر شخص إلى مقر الخلافة يشكو ابن الأمير. فأقاده عمر منه دون محاباة ولا مجاملة لأبيه ولا مراعاة لمكانته وسابقته وحسن بلائه.

عدل شامل ينعم به المواتى ، ويغتبط به العدو ويفيضه عمر على الرعية ما بين برقة ونهر جيحون غرباً وشرقاً ، وما بين القوفاز والأناضول شمالا إلى المحيط الهندى جنوباً ، لا يشعر أحد من الرعية بتميز أحد عليه إلا بالتقوى وحسن البلاء.

خالط العرب هذه الأمم ودال إليهم ذلك الملك العريض ورأوا أبهة الحضارة فأشعرت قلوبهم لزوم الحياة المدنية للأمم الغالبة كما هى سنة الوجود. وليس فى أيديهم من أدوات تلك الحياة سوى الاستعداد الفطرى لقبول الخير والشر. والشرع الإلهى الذى أطلق عقولهم من أسر التقليد وأخرجهم من الظلمات إلى النور. فأخذوا بحكم الطبيعة يقلدون مجاوريهم فى العادات وبدأوا يبارونهم فى مضمار الحياة. وكان أول شيء طمحت نفوسهم إليه تقليد مجاوريهم فى فنون القتال ومحاذاة الروم وفارس فى استصناع الآلات الحربية ليقابلوا القوة بمثلها ويعدوا للفتوح عدتها - ثم تطرقوا إلى الأمور السياسية والإدارية يحتذون مثالهم فيها ويترسمون خطواتهم فى العمل بها. فوضع عمر التاريخ ودون الدواوين على نحو ما كان موجوداً عند الدولتين : الفارسية والرومية. ثم أقبل على ترتيب الولايات وتقسيم الأعمال وانتقاء العمال ، وفرض العطاء وقرر مصرف الفيء فى غير سرف ولا تقتير ، ونشر جناح الأمن وأقام ميزان العدل وقرر أصول الجباية بلا إجحاف فى حقوق الرعية ولاغبن على الدولة. فعم الرخاء وبدأت مظاهر العمران في أنحاء المملكة وانهال الغنى والثروة على الفاتحين وخطوا خطى خفيفة إلى الراحة والنعيم مع الأخذ على الشكائم والتخشوشن بعض الشيء فى المأكل والملبس ، والتوسط فى العيش ، والقصد فى الإنفاق وعدم التبسط فى البذل خوف الأخذ على أيديهم من عمر ، كما يتبين ذلك من صنعه مع خالد إذ أعطى الأشعث بن قيس عشرة آلاف. فكان ذلك سبباً لاعتقاله بفصل عمامته وتقريره عن الدراهم التى أجاز بها ؛ أمن إصابة أم من ماله وعزله على كل حال إذ أقامه عمر بين الخيانة والإسراف وكل لا خير فيه.

ومن جهة أخرى فـإن عمر لم يدع للعرب فى مدته فـرصة تمكنهم من الإخلاد إلى الراحة والإيواء إلى ظل النـعم والسكون تحت كنف الأمصار. والتبـسط فى نعيم الحياة وزخـرف العيش. بل دفع بهم فى معتـرك الحياة الحضرية وزج بهم فى مـعترك الحروب في وقت واحد ، وكانت الحروب أكبـر همهم والتغلب على العدو آثر شىء لديهم فشغلهم عن النـعيم والرفاهة بالفتوح وإلهاهم بادخار الغنـائم عن التمتع بها. وأرجأوا ذلك ريثـما يفلوا من غرب الـدول المجاورة لهم ويأمنوا غائـلة الأمم المغلوبة وانتقاضها عليهم.

استفاد العرب من هذه السياسة العمـرية فى أحوالهم الاجتماعية فلم يسمع فى زمنه ناعق بفـرقه ولا صائح بانقسام ولا داع إلـى تنافر وتدابر ولا هاتف بعصـبية بل كان جزاء من يفعل ذلك الضرب بالسيف - ولـكن اندافع القوم إلى الفتوح وتفرقهم فى أنحاءالممالك وتعجلهم الظهور قبل تأصـل الدين فيهم وتمكنه من نفوس عامتهم. نشأ عنه بعد ذلـك تشويش فى الدين والملك - ومن ذلك عدم الإجهـاز على الوثنية ومحو أثرها من البلدان المفتتحة مع دخول كـثير من أهلها فى الإسلام. فاختفت هذه الآثار حيناً ثم بـدأت تظهر كرة ثانية مـصطبغة بصـبغة أخرى نتج عنهـا تفرق أهواء المسلمين وظهور البدع والمبتدعين وبخـاصة بين الأعاجم من المسلمين أو الذين ظهروا بمظهر الإسلام بسمته.

ومن المعلوم أن الإسلام طم على البلاد بسرعة مدهشة فائقة الوصف. والشىء إذا سار بسرعة لم يكن طروء الخطأ والفساد فيـه مأموناً. كما لو ضاعفت النار بشىء تريد نضجه فإنه وإن نضج ظاهره فى وقت قريب فإن باطنه لم يزل فجا لا أثر للنضج فيه. ولهذا كانت سرعة تأخر الأمة العربية فى الحضارة والرقى بمقدار تقدمها فى ذلك وسرعة فتحها للبلاد.

والذى يمكن أن يكون عذراً لعمر أن سياسته فى تعجل الفتح أول الأمر كان لها فائدة جليلة فى ذلـك الحين. وذلك أنه دفع بالقوم إلى الفتح فى إبان الـظهور واتقاد

جمرة الحماسة فى النفوس قبل أن تطفأ تلك الوقدة وتنحل عقدة الإخاء بين قبائل العرب وترافى أسباب الألفة فأراد أن يساجل القوم قبل أن يلتئم شملهم ويكاثروا العرب بما لا قبل لهم به - فلما نال القصد وأدرك الغاية عمد إلى الإرعاء عليهم وهم بأن لا يرخى لهم طول الفتوح وأن يقنعوا بما أحرزوا ولكن القوم أخطروه بما كان يبدو منهم من الانتقاض ونكث العهود إلى الإذن للمسلمين بقطع مادة الفساد.

ومما يدل على أن عمر كان يسوق الأمة إلى المدنية سوقاً تدريجياً ، ولم يكن يريد بهم الاقتحام في تيارها ما كان منه حين ورد عليه الأحنف بن قيس فى وفد من أهل البصرة فتكلم عنهم فقال : ولقد يعزب عنك ما يحق علينا إنهاؤه إليك مما فيه صلاح العامة. وإنما ينظر الوالى فيما غاب عنه بأعين أهل الخير ويسمع بآذانهم وإنا لم نتزل منزلا بعد منزل حتى أرزنا إلى البر. وإن إخواننا من أهل الكوفة نزلوا فى مثل حدقة البعير الغاسقة من العيون العذاب والجنان الخصاب فتأتيهم ثمارهم غضة ولم تخضد وإنا معشر أهل البصرة نزلنا سبخة هشاشة زعقة نشاشة طرف لها فى الفلاة وطرف لها فى البحر الأجاج يجرى إليها ماء جرى فى مثل مرىء النعامة دارنا فخمة ووظيفتنا ضيقة وعددنا كثير وأشرافنا قليل وأهل البلاء فينا كثير ودرهمنا كبير وقفيزنا صغير ، وقد وسع الله علينا وزادنا فى أرضنا فوسع علينا يا أمير المؤمنين وزدنا وظيفة توظف علينا ونعيش بها فقال عمر. هذا الغلام سيد أهل البصرة. وأمسكه سنة لئلا يحمل الناس على فضل عقله. فيطلب منهم مثل ما عنده فيورطهم. وكذلك فعل مع زياد حين أوفده عليه أبو موسى واحتبسه. فسأله زياد عن السبب. فقال : كرهت أن أحمل الناس على فضل عقلك.

ترجمة عثمان بن عفان

هو عثمـان بن عفان بن أبى العاص بن أمـية بن عبد شمس بن عـبد مناف بن قصى القرشى الأموى ، يجتمع مع رسـول الله صلى الله عليه وسلم فى عبد مناف. يكنى أبا عبد الله وأبا عمـرو ، وثانيهما أشهرهما ، ولد فى السنـة السادسة بعد عام الفيل. وأمه أروى بنت كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس بن عبد مناف. وأمها البيضاء أم حكيم بنت عبد المطلب عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

كان عثمان تاجراً وقد ذهب إلى الشـام مرة فى تجارته. وقد أدر الله تعالى عليه أخلاف الخير فقد كان واسع الـثروة كثيـرالمال - وقد شب على كريم الشـيم وحسن السيرة عـفيفاً حياً مـحبباً فى قومه مـأموناً عنده أثيراً لديهم. أخرج ابن عـساكر عن الشعبى قال : كان عـثمان فى قريش محبباً يوصون إليـه ويعظمونه. وإن كانت المرأة من العرب لترقص ولدها وهى تقول :

أحبك والرحمن　　　حب قريش عثمان

أجاب عثمان إلى الإسلام بدعوة من أبى بكر وكان إسلامه مع الزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله. فهو من السابقين الأولين الذين أحرزوا فضل السبق وفخر القيام بنصـرة الدين. وقد روى ابن الأثيـر فى أسد الغـابة عن ابن عـباس أن قوله تـعالى ﴿**ونزعنا ما فى صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين**﴾ نزلت فى عشرة : أبى بكر وعمر وعثمـان وعلى وطلحة والزبير وسعد وعبد الرحمـن بن عوف وسعيد بن زيد وعبد الله بن مسعود.

كان عثمان فى صـحبته محبباً من رسول الله صلى الله علـيه وسلم كريماً عليه وقد أصهـر إليه رسول الله صلى الله عـليه وسلم بابنته رقـيه بعد إسـلامه. ولما ناله الأذى من قـريش فى الإسـلام هاجر بهـا إلى الحـبشـة. وفى ذلك قال رسـول الله "**صحبهما الله إن عثـمان لأول من هاجر بأهله بعد لوط**". يشير إلى قوله تعالى ﴿**فآمن**

له لوط وقال إنى مهاجر إلى ربى﴾ ثم رجع من الحبشة إلى مكة : فلما كانت الهجرة إلى المدينة هاجر إليها - وهى الهجرة الثانية - وقد بقيت رقية معه إلى أن توفيت بالمدينة فى اليوم الذى أظفر الله المسلمين على مشركى قريش ببدر. ولم يشهدها عثمان لأنه كان قائماً على تمريض زوجته. ولكن رسول الله أسهم له مع الغانمين فعد بدرياً.

شهد عثمان مع رسول الله جميع مشاهده إلا بدرا كما قدمنا وقد زوجه رسول الله بابنته أم كلثوم : ولهذا كان يلقب بذى النورين لأنه كان ختن رسول الله فى ابنتيه رقية وأم كلثوم إلى أن توفيت فى السنة التاسعة من الهجرة وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو أن لنا ثالثة لزوجناك. وهذا يدل على شدة حب رسول الله له وثقته به وسمو مكانته عنده.

ولما كانت بيعة الحديبية كان عثمان سفير رسول الله إلى قريش فلما شاع أن قريشا غدت بعثمان بايع أصحابه تحت الشجرة بيعة الرضوان ثم علم حينذاك أن عثمان حى فقال النبى صلى الله عليه وسلم "**إن عثمان فى حاجة الله وحاجة رسوله**" ثم ضرب بإحدى يديه على الأخرى وقال بيده اليمنى : "**هذه يد عثمان**" فكانت يد رسول الله لعثمان خيراً من أيديهم لأنفسهم.

كان عثمان كريم النفس جواداً بماله سخى اليد فى طاعة الله عز وجل وإعلاء دينه حتى أنه بذل فى تجهيز جيش العسرة من ماله ما لم يبذله أحد فقد جهز ذلك الجيش بألف بعير وخمسين فرساً - وقد أخرج الترمذى عن أنس والحاكم وصححه عن عبد الرحمن بن سمرة قال : جاء عثمان إلى النبى صلى الله عليه وسلم بألف دينار حين جهز جيش العسرة فنثرها فى حجره فجعل رسول الله يقلبها ويقول "**ما ضر عثمان ما صنع بعد اليوم**" مرتين.

ومن مسارعته الى البذل ابتغاء وجه الله تعالى أن بئر رومة كانت ركية ليهودى يبيع المسلمين ماءها. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من يشترى بئر رومة فيجعلها للمسلمين يضرب بدلوه فى دلائلهم وله بها مشرب فى الجنة فأتى عثمان

اليهودى فساومه بها فأبى أن يبيعها كلها. فاشترى نصفها باثنى عشر ألف درهم فجعله للمسلمين فقال له عثمان ؛ إن شئت جعلت على نصيبى قرنين وإن شئت فلى يوم ولك يوم قال بل لك يوم ولى يوم. فجعل المسلمون إذا كان يوم عثمان استقوا ليومين. فلما رأى اليهودى ذلك قال : أفسدت على ركيتى فاشتر النصف الآخر. فاشتراه منه بثمانية آلاف درهم وصارت كلها للمسلمين.

ومن هذاالقبيل أن رسول الله قال : من يزيد فى مسجدنا ؟ فاشترى عثمان موضع خمس سوار فزاده فى المسجد.

وكان عثمان يكتب الوحى لرسول الله صلى الله عليه وسلم وكان لأبى بكر ثم لعمر أمينا كاتبا يستشار فى مهام الأمور ويؤخذ رأيه فى جلائل الأعمال ولما قتل عمر رضى الله تعالى عنه كان أحد الستة الذين قال فيهم عمر : إن رسول الله مات وهو عنهم راض وإنهم رؤساء الناس والناس لهم تبع. وكانت استشاره عبد الرحمن بن عوف للناس فى شأن من يلى الخلافة تتجلى فى الغالب عن أن أكثر المشيرين يطلبون تولية عثمان وقد بويع بالخلافة بعد ذلك فاستقبل بخلافته السنة الرابعة والعشرين (٧ نوفمبر سنة ٦٤٤ م).

أول قضية نظر فيها عثمان

قدمنا أن أبا لؤلؤة فيروز الفارسى غلام المغيرة بن شعبة هو الذى قتل عمر بن الخطاب أمير المؤمنين وقد قتله رجل من بنى تيم أو قتل نفسه لماأعيا القوم القبض عليه، وقد قتل رجلا من المسلمين وجرح ثلاثة عشر رجلا - فلما كان ذلك جاء عبد الرحمن بن أبى بكر وأخبر أنه رأى أبا لؤلؤة قبل قتل عمر بيوم ومعه جفينة وهو رجل نصرانى من أهل الأنبار جاء به سعد بن أبى وقاص ليعلم أبناء المسلمين بالمدينة الكتابة ومعهما الهرمزان ذلك الملك الفارسى - وحاله كما وصفنا - وهم نجى فلما رهقهم عبد الرحمن قاموا وسقط بينهم خنجر له رأسان نصابه فى وسطه ثم قال فانظروا بأى شىء قتل فجاءوا بالخنجر الذى قتل به عمر فإذا هو بالصفة التى وصفه

بها عبد الرحمن. سمع ذلك عبيد الله بن عمر فاعتقد أن أباه قتل بممالأة هؤلاء الثلاثة وأنهم شركاء فى دمه. فأمسك حتى إذا مات عمر - اشتمل عبيد الله على سيفه فأتى الهرمزان فقتله فلما عضه السيف قال لا إله إلا الله ثم مضى حتى أتى جفينة فعلاه بالسيف فصلب بين عينيه ثم قتل ابنة أبى لؤلؤة. ولما علم صهيب بذلك بعث إليه عمرو بن العاص فلم يزل به وعنه ويقول السيف : بأبى وأمى. حتى ناوله إياه وثاوره سعد بن أبى وقاص وجذبه من شعره وأخذ به حتى جاء به إلى صهيب فحبسه فى دار سعد بن أبى وقاص حتى إذا انتهى عثمان من البيعة دعا بعبيد الله بن عمر. وقال لجماعة المهاجرين والأنصار وهو جالس فى ناحيةالمسجد أشيروا على فى هذا الذى فتق فى الإسلام ما فتق. فقال على أرى أن تقتله. فقال بعض المهاجرين : قتل عمر أمس ويقتل ابنه اليوم ؟ فقال عمرو بن العاص يا أمير المؤمنين إن الله قد أعفاك أن يكون هذا الحدث كان ولك على المسلمين سلطان. إنما كان هذا الحدث ولا سلطان لك. قال أنا وليهم وقد جلعتها دية واحتملتها فى مالى.

إن عبيد الله يعتبر من الوجهة الشرعية قاتلا قتل عمداً ولا يمكن أن يعتبر عمله هذا قصاصاً لأنه قتل غير القاتل ومن قتلهم لم يثبت عليهم الاشتراك فى الجناية ثبوتاً شرعياً ولا يتولى القصاص إلا بعد الحكم ولو ثبت اتفاقهم على هذه الجناية لم يكن الحكم الشرعى مبيحا لقتل من قتل والشرع لا يأخذ فى الحدود والعقوبات بالقرائن التى من هذا القبيل فكان عبيد الله مستوجباً للقصاص بلا شبهة - ولم يكن ما أشار به عمرو بن العاص من أن ذلك الأمر حدث فى غير سلطان عثمان كافيا فى نجاته من العقاب ولو أن عمر كان حيا وقد صنع ابنه ما صنع لأمضى فيه حكم الله - غير أن عثمان رأى ما رآه بعض المهاجرين من استفظاع على أثر مقتل أبيه وأن يكون بدء خلافته إدخال المصيبة على آل الخطاب خاصة من بين المسلمين فرأى للخروج من هذا المأزق أن يجعلها دية فى ماله وهو تخلص حسن - وكان رجل من الأنصار يقال له زياد بن لبيد البياض إذا رأى عبيد الله يقول :

ألا ياعبيد الله مـــالك مهـــرب ... ولا ملجأ من ابن أروى ولاخفر
أصبت دمـــا والله فى غير حـله ... حراما وقتل الهرمزان له خـــطر
على غير شىء غير أن قال قائل ... أتتهمون الهرمزان على عـــمر ؟
فقال سفيه والحـــوادث جـــمة ... نعم أتهمه قد أشـــار وقد أمـــر
وكان سلاح العبد فى جوف بيته ... يقلبها ، والأمـــر بالأمر يعتبـــر

شكا عبيد الله زياد بن لبيد إلى عثمان فنهاه فقال :

أباعمرو عبيد الله رهـــــن ... فلا تشكك بقتل الهرمزان
فإنك إن غفرت الجرم عـــنه ... وأسباب الخطأ فرسا رهان
أتعفو إذ عفوت بغير حـق ... فمالك بالذى تحكى يـــدان

فدعا عثمان زياد بن لبيد فنهاه وشد به.

إن الهرمزان وجفينة قتلا مظلومين شرعا ولكن الظروف التى وجد فيها الهرمزان - وما يحتف بسـيرته من الغدر المتكرر وما رواه عبد الرحـــمن بن أبى بكر لا توجد فى القلب موضعا للأسف لما لقيه وعندى أنه لو وجد محقق ماهر لأثبت اشتراك الهرمزان وجفينة وأبى لؤلؤة وكعب الأحبار فى المؤامرة لاغتيال عمر.

أول خطبة لعثمان

قال الطبرى - لما بايع أهـل الشورى عثمان خرج وهو أشدهم كـآبة فأتى منبر رسول الله صلى الله علـيه وسلم فخطب الناس فـحمد الله وأثنى عليـه وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم وقال "إنكم فى دار قلعة وفى بـقية أعمار فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه. فلقد أتيتم صبحتم أو مسيتم ألا وإن الدنيا طويت على الغرور فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور.

واعتبروا بمن مـضى ثم جدوا ولا تغفلوا فإنه لا يغفل عـنكم ، أين أبناء الدنيا

وإخوانهـا الذين أثاروها وعمروها ومـتعوا بهـا طويلا ؟ ألم تلفظهم ؟ ارموا بـالدنيا حيث رمى الله بها. واطلبـوا الآخرة فإن الله قد ضرب لها مثلا والذى هـو خير فقال عز وجل ﴿**واضرب لهم مـثل الحياة الدنيـا كماء أنزلناه من السـماء فاختـلط به نبات الأرض فأصـبح هشيمـا تذروه الرياح وكان الله على كـل شىء مقتـدرا. المال والبنون زينة الحياة الدنيـا والباقيات الصالحات خير عنـد ربك ثواباً وخير أملا**﴾ - وذكر غير الطبرى أنه ارتج عليه.

كتب عثمان إلى الأمراء والأمصار

لما ولى عثمان الخلافة كتب إلى أمراء الأمصار كتاباً عاماً صورته :

"أما بعد. فإن الله أمر الأئمة أن يكونوا رعاة ولم يتقدم إليهم أن يكونوا جباة، وإن صدر هذه الأمة خلقوا رعاة ولم يخلقوا جبـاة وليوشكن أئمتكم أن يصيروا جباة ولا يكونوا رعـاة. فإذا عادوا كـذلك انقطع الحيـاء والأمانة والوفـاء. ألا وإن أعدل السيرة أن تنظروا فى أمور المسلمين وفيما عليهم فتعطوهم مالهم وتأخذوهم بما عليهم ثم تعتنوا بـالذمة فتعطوهم الـذى لهم وتأخذوهم بالذى عليـهم ، ثم العدو الذى تنتابون فاستفتحوا عليهم بالوفاء".

وكتب إلى أمراء الأجناد بالثغور "أما بعـد. فإنكم حماة الإسلام وذادتهم وقد وضع لكم عمر ما لـم يغب عنا بل كان عن ملأ منا ولا يبلغنى عن أحد مـنكم تغيير ولا تبديل فيغيـر الله بكم ولا يستبدل بكم غيركم. فانظـروا كيف تكونون فإنى أنظر فيما ألزمنى الله النظر فيه والقيام عليه".

وكتب إلى عمال الخراج (أما بعـد فإن الله خلق الخلق بالحق فلا يقبل إلا الحق خذوا الحق واعطوا الحق به. والأمانة الأمانة ، قوموا عليها ولا تكونوا أول من يسلبها فتكونوا شركاء من بعدكم إلى ما اكتسبتم. والوفاء الوفاء لا تظلموا اليتيم ولا المعاهد فإن الله خصم لمن ظلمهم".

وكتب إلى العامة من المسلمين بالأمصار "أما بعد فإنما بلغتم ما بلغتم بالاقتداء والاتباع فلا تلفتنكم الدنيا عن أمركم فإن أمر هذه الأمة صائر إلى الابتداع بعد اجتماع ثلاث فيكم: تكامل النعم، وبلوغ أولادكم من السبايا، وقراءة الأعراب والأعاجم القرآن ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : **الكفر فى العجمة فإذا استعجم عليهم أمر تكلفوا وابتدعوا**".

الأمصار والأمراء لأول عهد عثمان

كانت الأمصار الكبرى لآخر عهد عمر وأول عهد عثمان هذه :

(١) مكة ، وأميرها نافع بن الحارث الخزاعى.

(٢) الطائف ، وأميرها سفيان بن عبد الله الثقفى.

(٣) صنعاء ، وأميرها يعلى بن منبه حليف بنى نوفل بن عبد مناف.

(٤) الجند ، وأميرها عبد الله بن أبى ربيعة.

(٥) البحرين وما والاها ، وأميرها عثمان بن أبى العاص الثقفى - وهذه الخمس فى جزيرة العرب.

(٦) الكوفة ، وأميرها المغيرة بن شعبة الثقفى.

(٧) البصرة وأميرها أبو موسى عبد الله بن قيس الأشعرى.

وهاتان بالعراق :

(٨) دمشق ، وأميرها معاوية بن أبى سفيان الأموى.

(٩) حمص ، وأميرها عمير بن سعد.

وهاتان بالشام.

(١٠) مصر ، وأميرها عمرو بن العاص السهمى.

الفتوح فى زمن عثمان

إن جنود الإسلام كانت فى زمن عمر قد فتحت المملكة الفارسية جميعها وبلاد سورية كذلك ومصر. غير أن بعض ما فتح لم يكن الأمر فيه موطداً توطيداً تاما: بل كان أهله يجيبون كل داع إلى شق العصا وخلع اليد من الطاعة فكانت الجنود الإسلامية تقوم بردهم إلى الطاعة فى زمن عثمان وتثبت حكم الإسلام فيها - ولهذا يكون إرجاع تلك البلاد إلى الطاعة فتحاً على التحقيق وللمسلمين فى عهد عثمان فتوح فى بلاد لم تطأها أقدام جنود الإسلام من قبل وسنذكر ذلك إن شاء الله.

إن صديقنا الفاضل رفيق بك العظم لم يمر فى كتابه (أشهر مشاهير الإسلام) بروايات المؤرخين فى الفتح الإسلامى مروراً بسيطاً بل وقف وقفة المدقق الباحث وقد تسنى له الوقوف على تواريخ الأمم التى كان الفتح الإسلامى فى زمن عثمان موجها إليها. وقد أتيح له تحقيق واف شاف فى فتوح بلاد أرمينيا أحببت أن ألم به وأجعله عمدة كلامى فى هذا الباب سواء كان ذلك بأخذ العبارات بنصها أو تلخيصها بحسب ماأراه.

فتح أرمينيا والقوفاز فى عهد عثمان

تحد أرمينيا شمالا بالبحر الأسود وكرجستان. ومن الشرق بكرجستان أيضاً وجزء من بلاد فارس. ومن الجنوب بكردستان والجزيرة. ومن الغرب بآسيا الصغرى. هذه حدود أرمينيا الآن - والعرب كانوا يتوسعون فى هذا الاسم. فربما أدخلوا فى أرمينيا قسما من بلاد القوفاز من جهة الشمال وهو "أران" المشتمل على مقاطعة أريوان وتفليس. وكانوا يسمون هذا القسم باسم الران وهو يمتد شمالا إلى داغستان. وشرقا إلى أذربيجان وبحر الخزر. وأما من جهة الجنوب فكانوا يدخلون فيها قسما من كردستان وهو عمالة بتليس وربما جعلوها من أرمينيا الرابعة التى يجعلون نهاية حدها الجنوبى الجزيرة. ولهذا لم يذكر مؤرخوا العرب فتح القوفاز على حده. بل جعلوه مضمونا إلى فتح أرمينيا.

قال : وقبل أن أبسط الكلام فى جغرافية القوفاز أذكر هنا بعض الأمكنة الشهيرة فى أرمينيا زيادة فى الإيضاح.

فمن مدن أرمينيا الشهيرة : خلاط. وقاليقلا - (التى هى أرزروم أو أرزن الروم كما يقول أبوالفداء (وإلى جهة الغرب منها أرزنجان. ثم أرجيش على بحيرة ووان - وهى فى الطرف الشرقى من البحيرة المسماة باسمها. وفى الجهة الشرقية من سلسلة جبال أرمينيا جبل الجودى - أوراط الذى استوت عليه سفينة نوح ومن أنهارها الفرات وأراس المعروف عند العرب بنهر الرس وينحدر من الجبال قرب أرزروم ويمر فى مقاطعتى القارس وأرزروم ويقطع كرجستان حتى يلتقى مع نهر كور الآتى من أعالى القارص وتفليس ويصبان فى بحر الخزر.

أما بلاد القوفاز - حالا - فتحد شمالا ببلاد الروسيا (ونحن الآن لا ندرى أى حكومة من الحكومات الروسية تجاورها من الشمال بعد أن انقسمت روسيا إلى حكومات عديدة ، والحدود لم تحدد إلى الآن ولم ترسم خريطة للممالك ، وقد دخل فى تركيا بعض هذه البلاد فقد استولت على باطوم والقارص وأردهان ، ودخل فى حكمها مدينة باكو على بحر الخزر ، وإلى الآن فى يوم ١٢ مارس سنة ١٩١٨ لم تجل الحال تماما) وجنوباً العجم وتركيا وآسيا (وعلى ما قدمنا تكون أرمينيا القوقازية التابعة لتركيا) وشرقا بحر الخزر الذى يفصلها عن بقية آسيا الروسية وغربا البحر الأسود. ويسمى العرب هذه البلاد جبال كوه قاف وبلاد القبق وربما دعوها باسم بلاد الران (أرَّان) من تسمية الكل باسم الجزء.

فمن أقسام البلاد الجنوبية أيبريا أوكرجستان وعاصمتها تفليس على نهر كور وهى جزء من بلاد شروان الممتدة شمالا إلى داغستان[1] ويظهر من سياق خبر الفتح فى تاريخ البلاذرى أن العرب كانوا يسمون هذا الجزء كورة جرزان وأنه يمتد غربا إلى آسيا الصغرى - ومن مدن الران الشهيرة الروان ، وفيها كنيسة كبرى للأرمن ومن

(١) تكتب فى التركية بالطاء وتنطق دالا مفخمة.

مدنه المشهورة عند العرب منجليس وجرزان وبردعة والباب. أو باب الأبواب (دربند) والبيلقان. قال الإصطخرى : ليس فى أرّان مدينة أكبر من بردعة والباب وتفليس. ومن أقسامه الشمالية - بلاد الجركس. ويجرى فيها نهر قوبان الذى يصب فى البحر الأسود ونهر كوما - وترك (ته رك) اللذان يصبان فى بحر الخزر. ومن أقسامه داغستان على بحر الخزر ، وفيها يجرى نهر سمور فى السهول الواقعة شمال داغستان. ومن مدنها الشهيرة باكو التى فيها منابع النفط (ولعلها التى يسميها القرمانى فى جغرافيته. باكوية) - ودربند على شاطىء بحر الخزر وهى ذات المضيق المعروف بمضيق دربند الذى اجتازه عبد الرحمن بن ربيعة الباهلى بجيشه إلى السهول الشمالية حيث قتل على نهر. ترك. الذى يسميه العرب نهر بلنجر.

لا خلاف بين المؤرخين فى أن العرب دوخوا أرمينيا مرتين أولاهما على عهد عمر بن الخطاب والثانية على عهد عثمان بن عفان. وقد أيد هذا الكلام تواريخ الأرمن وأشار إليه القس جبرائيل الخانجى فى مختصر تاريخ الأرمن وإن لم يذكر أسماء الفاتحين فى المرتين ولم يعين السنين بالضبط. أما ديفرجى فقد عين مدة الخليفة فأخطأ : والثابت عند مؤرخى العرب أن فتح تلك البلاد فى عهد عمر كان سنة ١٨هـ ٦٣٩ م وأما فتحها فى عهد عثمان فكان فى سنة ٢٦ هـ ٦٤٦م - كما يعلم من مقارنة التواريخ وجعل الطبرى ذلك سنة ٣١.

كان بكير بن عبد الله وعتبة بن فرقد قد فتحا فى خلافةعمر بلاد أذربيجان الواقعة شرقى بلاد أرمينيا - فكتب بكير بالفتح إلى عمر. فكتب عمر إلى سراقة بن عمرو بغزو الباب وعلى مقدمته عبد الرحمن بن ربيعة الباهلى وعلى مجنبتيه ابن أسيد الغفارى وبكير بن عبد الله المتقدم ، على المقاسم سلمان بن ربيعة - وكتب إلى حبيب بن سلمة الفهرى أن يمد سراقة وهو يومئذ بالجزيرة. فلما نهض سراقة من البصرة لوجهه ، تقدم عبد الرحمن إلى أرمينيا الشرقية وفتحها حتى وصل إلى الباب "دربند" على شط بحر الخزر وعليها شديار. فكاتبه واستأمنه "كما قصصنا ذلك من

قبل" - ولما فرغ سراقـة من الباب بعث الأمراء والقواد إلى ما يليـه من بلاد أرمينية. فأرسل بكير ابن عبد الله إلى موقان وحبيب بن سلمة إلى تفليس عاصمة كرجستان. وحذيفـة بن اليمان إلـى بلاد جبال اللان "القـوفاز". فاشتـبكت جنوده فى أرمـينيا وأطرافهـا مع الأمير أوهان بن كامـساركان - وأخيه ديـران - فقتلا وتشتـت جندهما بخيـانة أحد قواد الأرمن المسـمى ساحور ، فإنـه خان أوهان ، وانضم بجيـشه إلى العرب ، كما يقول ديفرجى وصاحب تاريخ الأرمن.

أما حبيب بن سلمة الفهرى الذى قصد كـرجستان وعاصمتها تفليس فنهض له ثيودور أحـد أمراء البلاد ، وكانت البـلاد منقسمـة على بعضها ، وبـذلك سعى فى جمع كلمة الأمراء فى أرمـينيا ودخولهم تحت لوائه لصد المسلمين ففـشل فيما حاول وكان البطريـك استراس يؤازره ويعضـده - فلما رأى أن الأمر علـى غير ما يشـتهى أصابه الغم الشديد ومات غماً وكمداً.

بينما الأرمـن مهتمون فى إقـامة بطريك - غيـر استراس إذ فاجأهـم المسلمون بقيادة حبيب بن سلمة وحاصروا مدينة ، دوفان ، أو - تفين - وفيها كرسى البطريك ويقول ديـفرجى : إن حصـارها بدأ فى نوفـمبر سـنة ٦٣٩ ذى القعـدة سنة ١٨ هـ واستمر إلى اليوم السادس من يناير سنة ٦٤٠ م ٥ المحـرم سنة ١٩ هـ ففتحها حبيب ثم أخذ فى إتمـام فتح أرمينيـا وكردستان ، فـفتح وان ، وبخشوان ، وسـيس على الضفة الثانية من نهر الرس ويسميه الجغرافيون "آراس وآراكس" - ثم سار إلى أرمينيا الغربية ثم عطف على إيبريا التى هى جزء من كرجستان الحالية وأخذ عاصمتها وسائر مدنها الكبرى - وفى أثنـاء ذلك مات سراقة واستخلف عبد الرحمـن بن ربيعة فأقره عمر على ثغر الباب وأمره بغزو الترك ، فسار شمالاً مجتازاً مدينة الباب وبلادها بعد أن استخضع أكثر بلاد الجبل الممتدة على شاطىء بحر الخزر وكان سكانها على جانب عظيم من التوحش والجهالة. وبعد أن اجتاز البـاب أوغلت خيلة فى السهول الشمالية إلى مائتى فرسخ مـن بلنجر (ته رك) ثم عاود ولم يقم له أحد من أهـل تلك الناحية

كانوا يعتقدون أن هؤلاء العرب يموتون ولا يقطع فيهم السلاح. فكانوا يهربون منهم فى الآجام والغياض ، ثم عاد عبد الرحمن إلى الباب. وجعل يردد غزواته فى تلك الناحية إلى أن جرب أحد أهل تلك البلاد قتل المسلمين بأن كمن فى إحدى الغابات ورمى رجلا منهم فقتله. فأخبر قومه بأن هؤلاء المسلمين كالناس يقتلون ويموتون. فطمعوا فى المسلمين واجتمعوا لقتالهم. وقد قتل عبد الرحمن بن ربيعة فى إحدى الوقائع فى بلادهم زمن عثمان. وقد قال الطبرى : إنهم احتفظوا بجسم عبد الرحمن يتبركون به ويستسقون ويستنصرون به إلى الزمن الذى أدركه الطبرى وكان على نهر (ته رك) وأخذ الراية أخوه سلمان وخرج بالناس فسلك طريق جيلان إلى جرجان بأن دار على شواطىء بحر قزوين - وبعضهم سلك طريق الباب إلى أرمينيا.

فكان فتح عبد الرحمن قد بلغ إلى شمالى بلاد القوقاز فى شرق أرمينيا مما يلى بحر الخزر. وأما حبيب فقد بلغ فى فتوحه شمال القوقاز أيضاً مما يلى البحر الأسود كل ذلك فى خلافة عمر فيما بين سنتى ١٨ و ٢٠ هـ إلا أن ذلك الفتح لم يكن إلا فتحاً هيناً غير موطد الدعائم. بل كان فتحاً على الجزية - ولم يكن عند المسلمين من الجند العدد الكافى لسد هذه الثغور وتوطيد الأمن فيها وتثبيت كلمة المسلمين فى نواحيها المتنائية وأطرافها المترامية. وقد كان عمر يظن ذلك كما روى ذلك العلامة ابن خلدون. وقد صدق ظنه - فقد قال ديفرجى : إن المسلمين قد اضطروا عقب ظهور الخزر على نهر ترك - إلى الجلاء عن كل أرمينيا ثم عادوا إليها بقوة أعظم سنة ٦٤٦ سنة ٢٦ هـ وهى السنة التى وجه فيها عثمان حبيبا وسلمان إلى استرداد البلاد وفتح أرمينيا والقوقاز ففتحاها وكان الفتح الأول تمهيداً للفتح الثانى الذى صارت به البلاد تابعة للدولة الإسلامية ولم تنتقض إلا فى فترات قليلة ثم استتب فيها الأمر للمسلمين.

وقد أشار صاحب مختصر تاريخ الأرمن إلى تسليم الأرمن بعد الحرب الثانية للعرب على عهد سنباط بن فارازديروس الذى كان واليا من قبل قيصر القسطنطينية إذ

كان الأرمن طلبوا واليا من قبله على بلادهم بعد اختلال أمر دولة الفرس التى كانت متسلطة عليهم ، وزار سلطانها بعد أن بدأت حروبها مع المسلمين فولى الإمبراطور عليهم فارازديروس والد سنباط وتولى مدة سنة ومات وخلفه ابنه سنباط.

فى خلافة عثمان انتقضت أرمينيا ، والظاهر أن ذلك كان لضعف حاميتها وقلة عددهم وكثرة أهل البلاد ورغبة كبرائهم فى التخلص من أيدى المسلمين ، وساعد على ذلك بعد البلاد عن مركز قوة المسلمين وإبطاء النجدة عنهم ، وكان عثمان قد جمع لمعاوية الشام والجزيرة وثغورها ، وأمره أن يغزو شمشاط وهى أرمينيا الرابعة أو يغزيها ، وقد كان حبيب بن مسلمة الفهرى قد فتحها مع عياض بن غنم فى خلافة عمر فوجهه معاوية فى ستة آلاف مقاتل لفتح أرمينيا فنهض إليها حتى أناخ على قاليقلا سنة ٢٦ هـ وأقام عليها حتى خرج إليه أهلها طالبين الصلح على الأمان والجزية فأجابهم إلى ذلك وجلا من جلا وأقام من أقام.

أقام حبيب بقاليقلا بعد افتتاحها ، وبلغه أن الموريان بطريق أرميناقس قد جمع جموعا عظيمة وانضمت إليه أهل اللان وأفخاز وسمندر من الخزر - فكتب إلى عثمان يسأله المدد - فكتب عثمان إلى معاوية أن يمده بقوم من أهل الشام والجزيرة ممن يرغب فى الجهاد فأمده بألفى رجل أسكنهم قاليقلا وأقطعهم القطائع وجعلهم مرابطة بها - وكتب عثمان أيضاً إلى سعيد بن العاص أمير الكوفة أن يمد حبيب بن مسلمة بجيش عليه سلمان بن ربيعة الباهلى وكان غزاء صاحب إقدام ومكيدة فى الحرب - فسار إليه سلمان بستة آلاف من جند الكوفة وأقبلت الروم ومن معها فنزلوا على الفرات. وقد أبطأ على حبيب المدد ، ورأى حبيب أن يبيت أعداءه على ما يجنده من قلة عله أن يصيب منهم غرة قبل أن يقووا عليه ، فبيتهم واجتاحهم وقتل قائدهم.

ومما يؤثر من شجاعة النساء. وقوة جيش بعضهن، أن أم عبد الله الكلبية زوج حبيب قالت له ليلة أن قام لتبييت جند الروم : أين موعدك ؟ قال : سرادق الطاغية (يعنى الموران) أو الجنة. فلما انتهى إلى السرادق وجدها عنده ولما ورد سلمان بجنوده

وقد فرغ حبيب من أمر عدوه أراد سلمان أن يتأمر على حبيب ومن معه من الجند كما جرت به العادة من أن هذه الناحية كان غـزوها لأهل الكوفة والأمير منهم من قبل ، فأبى عليه حبيب ذلك حتى قال أهل الشام : لقد هممنا بضرب سلمان ، فقال أوس ابن مغزاء وهو من جند سلمان :

فإن تضربوا سلمان نضرب حبيبكم   وإن ترحلوا نحو ابن عفان نرحل

وإن تقسطوا فالثغـــر ثغر أميـرنا   وهذا أميـر فى الكتائب مقـــبل

ونحــن ولاة الثغر كنـــا حـماته   ليالى نرمى كـــل ثغـر ونثكل

ومن ثم افترق القائدان ، فأخذ حبيب فى افـتتاح أرمينيا الغربية ، وسلمان فى افتتاح أرمينيا الشرقية.

فسار سلمان إلى أران ففتح مدينة البيلقـان (فيتقران) صلحا واشترط على أهلها الجزية والخراج ، ثم أتى بردعة وعسكر على نهر الثوثر ، على فرسخ منها فامتنعت عليه وعاناها أياماً فـصالحه أهلها على صلح أهل البلقان. وفتحـوا له أبوابها فدخلها وأقام بهـا ووجه خيله فـفتحت غـيرها من البـلاد والرساتيق فى أران - ودعـا أكراد البوسنجان (أو الـبلاسجان) إلى الإسلام فقاتـلوا فظفر بهم فأقر بعضـهم على الجزية وأدى البعـض الصدقة ممـن دخلوا فى الإسلام ثم سـار إلى مجـمع نهر الكـر (كور بالكاف الثقيلة) والرس (أراس) فعبر الكر ففـتح "قبالة" وكل البلاد التى على الضفة الشمالية من نهـر الكر - ويسميها ديفرجى بلاد سشـاكى - ثم دخل بلاد سشيوان ، وصالحه شكن وشيران والباب. ومن هنا اختلف المؤرخون فبعضهم يقول : إن سلمان انتهى إلى مـدينة الباب ولم يتـجاوزها ، ومن هذا الفريق ابـن خلدون وهو الظاهر. لأن ما وراء الباب أمم كثـيرة قوية وإنما كان خوفهم من المسلمين واعـتقادهم أنهم لا يموتون لأن الملائكة تؤيدهم وتعينهم هو الذى يدفع بهم إلى الهرب من أمامهم. فلما أنسوا بهم وعرفـوا أنهم يموتون اجتمعوا واعـتزموا على قتالهـم ولم يكن مع سلمان

سوى ستة آلاف وهو عدد قليل إذا أوهنه بالغزو فيما وراء الباب لم يؤمن أن يعود القوم إلى حالهم من الانتقاض.

أما حبيب بن سلمة فسار من قاليقلا بعد وصول المدد إليه ونزل (مربالا) فأتاه بطريق خلاط بكتاب عياض بن غنم الذى أمنه به على نفسه وماله وبلاده وقاطعه على أتاوه فأنفذه حبيب له ، ثم نزل منزلا بين الهرك ودشت الورك ، فأتاه بطريق خلاط بالمال وهدية فلم يقبلها. ونزل خلاط ، ثم سار إلى الصيانة فلقيه صاحب مكس وهى ناحية من نواحى البسفرجان فقاطعه على بلاده وكتب له كتاب صلح وأمان. ووجه إلى قرى أرجيش وباذغيس من غلب عليها ثم اجتاز نهر الرس وأتى مرج دبيل وغلب على جميع تلك النواحى. حتى بلغ سراج طير ويفروند. فأتاه بطريق دبيل فصالحه عنها على إتاوه يؤديها على مناصحة المسلمين وقراهم ومعاونتهم على أعدائهم وكتب لهم.

(بسم الله الرحمن الرحيم) هذا كتاب من حبيب بن مسلمة الفهرى لنصارى أهل دبيل ومجوسها ويهودها شاهدهم وغائبهم إنى آمنتكم على أنفسكم وأموالكم وكنائسكم وبيعكم وسور مدينتكم فأنتم آمنون وعلينا الوفاء لكم بالعهد ما وفيتم وأديتم الجزية والخراج. شهد الله وكفى به شهيدا" وختم حبيب بن مسلمة.

وأتاه بطريق البسفرجان فصالحه على جميع بلاده وقصد السيسجان فحاربه أهلها فهزمهم وغلب عليهم ثم سار إلى جرزان فأتاه رسول بطريقها وقدم له هديةوسأله كتاب صلح وأمان. فكتب :

"أما بعد : فإن نقلى "نقولا" رسولكم قدم علىَّ وعلى الذين معى من المؤمنين فذكر عنكم أننا أمة أكرمنا الله وفضلنا. وكذلك فعل الله. وله الحمد كثيراً وصلى الله على محمد نبيه خيرته من خلقه وعليه السلام - وذكرتم أنكم أحببتم سلمنا. وقد قومت هديتكم وحسبتها من جزيتكم وكتبت لكم أماناً واشترطت فيه شروطاً فإن

قبلتم ووفيتم به وإلا فأذنوا بحرب من الله ورسوله والسلام على من اتبع الهدى" .

وقد كان أمراء الإسلام لا يقبلون الهدايا وإنما يحسبونا لأهل الذمة من جزيتهم ولم يقبلها من أهل الذمة إلا عبد الله بن عامر وهو أمير على الكوفة ، فقالوا فيه : ضمها القرشي وكان مضما.

ثم أن حبيباً سار إلى تفليس عاصمة كرجستان فصالحه أهلها وكتب لهم :

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ هذا كتاب من حبيب بن مسلمة لأهل تفليس من منجليس من جرزان القرمز بالأمان على أنفسهم وبيعهم وصوامعهم وصلواتهم ودينهم على إقرار بالصغار والجزية على أهل كل بيت دينار وليس لكم أن تجمعوا بين أهل البيوت تخفيفاً للجزية ، ولا لنا أن نفرقهم استكثاراً منها ولنا نصيحتكم وضلعكم على أعداء الله ورسوله صلى الله عليه وسلم وقرى المسلم المحتاج ليلة بالمعروف من حلال طعام أهل الكتاب. وإن انقطع برجل من المسلمين عندكم فعليكم أداؤه إلى أدنى فئة من المسلمين إلا أن يحال دونهم ، وإن أنبتم وأقمتم الصلاة فإخواننا فى الدين وإلا فالجزية عليكم وإن عرض المسلمين شغل عنكم فقهركم عدوكم فغير مأخوذين بذلك ولا هو ناقض عهدكم : هذا لكم ، وهذا عليكم. شهد الله وكفى به شهيداً" .

ثم إن حبيباً صار يفتح فى بلاد أرمينيا الغربية مما يلى البحر الأسود حتى انتهى إلى بلاد القوقاز فى شمال أرمينيا كما انتهى إلى مثل ذلك سلمان فى شرقيها مما يلى بحر الخزر.

تتمة فتح بلاد فارس

إن بلاد الفرس أو المملكة الفارسية كانت فى أيام العرب تشتمل على بلاد وأرض أوسع مما نسميه اليوم بلاد الفرس ، فقد كان يدخل فيها بلاد البلوجستان ، وبلاد الأفغان وأقليم أذربيجان وكردستان وبعض أرمينيا وهو الجزء الشرقى منها مما

يلى بحر قزوين. وفى مدة عمر بن الخطاب قد فتح المسلمون أكثر ذلك كله. غير أن بعض هذه البلاد قد توطد فيها ملك المسلمين وهو ما يلى ناحيتهم، وبعضه لم يتوطد فيه الملك وهو ما بعد عنهم كجهات المروين وطخارستان وبلخ وسجستان وبعضها لم يكن فتح من قبل.

وقد كان العرب يقسمون المملكة الفارسية إلى أقسام كثيرة يسمونها كورا.

"فالقسم الشمالى منها" مما يلى أرمينيا غرباً والقوقاز شمالا يعرف بكورة أذربيجان ومن مدنة الشهيرة تبريز، وزنجان، والبير، والموقان، والطيلسان. وإلى الشرق منها قزوين الواقعة شمال بلاد الجبل، وكانت تسمى بلاد الديلم. ثم إلى شرقى هذا القسم في الجهة الجنوبية من بحر قزوين، طبرستان وجرجان. ومن مدنها، الشهيرة دماوند - أو دنباوند - واستراباذ والدامغان. وقومس فى جهة الجنوب أبيورد، ونسا، وسرخس، ومرو الشاهجان فى جهة الشمال والشرق من هذا القسم. والجزء الغربى منه يعرف الآن بمازندران.

"والقسم الغربى منها" يعرف بالعراق العجمى وخوزستان، وبلاد الجبل - ومن مدن العراق العجمى الشهيرة : المدائن، والنهروان على نهر دجلة، ومناذر، وقصر شيرين ثم نهاوند. وقاشان، وأصفهان من بلاد الجبل، والأهواز، ورامهرمز والسوس وجند يسابور من خوزستان.

"والقسم الجنوبى منها" يعرف بفارس وكرمان ومكران أو كورة السند "تعرف الآن ببلوجستان" وسجستان وهى بين مكران وخراسان - ومن مدن فارس الشهيرة : اصطخر، وبسا، ودار ابجرد، وكازرون، وجور ثم جيرفت، وهميد، والسيرجان من مدن كرمان، ثم مكران؛ وقنداييل، وفنزبور، وأرمائيل وبيروان، والدبيل "ثغر على المحيط الهندى من كرمان أو السند" ثم زالق على طرف المفارة المعروفة بمفارة كرمان "لعلها صحراء لوط" وزرنج التى يؤخذ منها إلى وادى سناروز،

والكش من ناحية الهند ورشت ، وناشرورز من سجستان.

"والقسم الشمالى الشرقى" يعرف بخراسان وطخارستان وزابلستان ، وهذا القسم أكثره واقع فى أفغانستان الآن ، وكان العرب يقسمونه إلى أقسام كثيرة أو كور فمنها. كورة مرو ، وهراة ، وطوس ، ونيسابور من ولاية خراسان ، وغزنة وكابل من زابلستان. وبلخ من طخارستان، وأشهر مدن جراسان : نيسابور الواقعة فى الجهة الشمالية الغربية ، ومن خراسان وطوس إلى الشمال منها أيضاً. ومن مدن نيسابور وزام ، وبشت ، وباخرز ، وجوين ، وأبرشهر ، وبيهق ، واسفرائن ، وأرغينان وغيرها. ثم هراة ، ومرو الروذ فى الجهة الشرقية من خراسان ، ومدن هذه الجهة بوشنج وباذغيس وطاغون ، وسنج ، وغيرها. أما طخارستان الواقعة شرقى خراسان وشمال زابلستان وجنوب الصاغانيان فإن من مدنها الشهيرة : بلخ وهى عاصمتها وتعد الآن من بلاد التاتار الجنوبية الواقعة جنوبى نهر جيحون. والجورجان. والفارياب والطالقان. وغيرها. وأما زابلستان : فمن مدنها. كابل وغزنة.

وقد تقدم الكلام فى فتح الجزء الأكبر من هذه الجهات فى خلافه عمر بن الخطاب.

فى السنة الثالثة من خلافة عثمان بن عفان انتقضت آمد وبلاد الأكراد. فعزم أبو موسى الأشعرى والى البصرة يومئذ على الخروج لرد القوم إلى الطاعة فحمل ثقلة على أربعين بغلا بعد أن كان يحض الناس على الجهاد والنهوض إليه مشياً. فتألب عليه أهل البصرة. وذهب منهم وفد إلى عثمان فاستعفوه من أبى موسى وتولى كبر ذلك غيلان بن خرشة الضبى. فقال عثمان : من تحبون ؟ فقال غيلان : في كل أحد عوض عن هذا البعد الذى أكل أرضنا وأحيا أمر الجاهلية فينا. وقال إذا أمرت علينا صغيراً كان فيه عوض منه أو مهتراً كان فيه عوض منه ومن بين ذلك من جميع الناس خير منه. وقال : أما منكم خسيس فترفعوه. أما منكم فقير فتجبروه يامعشر قريش ؟ فعزله عثمان ، وولى عبد الله بن عامر بن كريز بن ربيعة القرشى. وهوابن خال

عثمان وكان ابن خمس وعشرين سنة وجمع له جند أبى موسى وجند عثمان بن أبى العاص من عمان والبحرين. فصرف عبيد الله بن معمر عن خراسان وبعثه إلى فارس وولى على خراسان مكانه عمير بن عثمان بن سعد فأثخن فيهاحتى بلغ فرغانة. ولم يدع كورة إلا أصلحها. ثم ولى عليها فى السنة التالية أمين بن أحمر اليشكرى وعلى كرمان عبد الرحمن بن عبيس. واستعمل على سجستان عبد الله بن عمير الليثى فأثخن فيها إلى كابل. ثم عمران بن الفضيل البرجمى وعلى مكران عبيد الله بن معمر فأثخن فيهاحتى بلغ النهر.

ثم إن أهل فارس ثاروا وانتقضوا على عبيد الله بن معمر فسار إليهم والتقى معهم على اصطخر فقتل عبيد الله. وبلغ الخبر ابن عامر فاستنفر أهل البصرة. وسار بالناس إلى فارس وعلى مقدمته عثمان بن أبى العاص وعلى مجنبتيه أبو برزة الأسلمى ومعقل بن يسار، وعلى الخيل عمران بن حصين. وكلهم له صحبة. فلقيته جموع الفرس باصطخر فهزمهم وأوقع بهم وقعة عظيمة وأخذ المدينة عنوة. ثم قصد إلى دار أبجرد ثم إلى مدينة جور وكان هرم بن حيان على حصارها فلما جاء ابن عامر فتحها ورجع إلى اصطخر وقد انتقضت ثانياً فحاصرها حصاراً طالت مدته ورماها بالمجانيق وافتتحها عنوة وأوقع بأهلها وقعة شديدة وهلك فيها أكثر أهل البيوت والأساورة لأنهم كانوا قد لجأوا إليها ووطىء عبد الله بن عامر أهل فارس وطأة صاروا منها فى ذل. وكتب إلى عثمان بالفتح فكتب إليه أن يستعمل على بلاد فارس هرم بن حسان اليشكرى وهرم بن حيان العبدى والخريت بن راشد والمنجاب بن راشد والترجمان الهجيمى. وأمره أن يفرق كور خراسان على جماعة فيجعل الأحنف ابن قيس على المروين. وحبيب بن قرة اليربوعى على بلخ وخالد بن عبد الله بن زهير على هراة وأمين بن أحمر على طوس. وقيس بن هبيرة السلمى على نيسابور. ثم إن عثمان رضى الله عنه قبل موته جمع هذه الولاية لقيس بن هبيرة، واستعمل

أمين بن أحمر على سجستان.

ولما رجع بن عامر إلى البصرة بلغه نقض أهل خراسان للذمة ونكثهم للعهد. فجاءه الأحنف بن قيس وقال له ، أيها الأمير إن عدوك منك هارب ولك هائب والبلاد واسعة فسر فإن الله ناصرك ومعز دينه. فتجهز وسار واستخلف على البصرة زياداً واستعمل على حرب سجستان الربيع بن زياد الحارثى وعلى كرمان مجاشع بن مسعود السلمى وتقدم هو إلى نيسابور وجعل على مقدمته الأحنف بن قيس فأتى الطبسين وهما حصنان وهما بابا خراسان ففتحهما عنوة ثم سير أمراءه إلى أعمال نيسابور ففتحوا زام وقهستان وبيهق وبشت - ثم تقدم وقد سير عبد الله بن عامر وافتتح نيسابور وكل أعمالها وطوس كذلك وهراة كذلك وأعمالها.

وقد سير عبد الله بن عامر الأحنف بن قيس إلى طخارستان فأتى سوانجرد فصالحه أهلها على ثلثمائة ألف درهم ثم مضى إلى مرو والروذ فقاتله أهلها ثم صالحوه وسير سرية فاستولت على رستاق "بغ" فعظم الأمر على أهل طخارستان فاجتمع لقتاله أهل الجوزجان والطالقان والفارياب ومعهم ملك الطاغنيان من (تركستان الشرقية) فقاتلهم الأحنف قتالا شديداً حتى هزمهم وفل جموعهم وفتح تلك الناحية - ثم سار إلى بلخ وهى عاصمة طخارستان ففتحها - ثم قصد خوارزم على نهر جيحون (فى تركستان الغربية) فاستعصت عليه فعاد إلى بلخ.

أما مجاشع بن مسعود السلمى فتوجه إلى كرمان فأتى فى طريقه هيد فافتتحها ثم قصد السيرجان وهى مدينة كرمان فحاصرها أياماً ثم فتحها وفتح جيرفت عنوة ثم سار فى نواحى كرمان ومدنها وقراها فدوخ أهلها وافتتح تلك المدن وأخضع أهل تلك النواحى وقد هرب كثير من أهل كرمان إلى مكران وسجستان فأقطعت العرب أرضهم فعمروها واحتفروا لها القنى وأدوا العشر عنها.

وأما الربيع بن زياد الحارثى الذى سار إلى فتح سجستان ، فإنه قطع المفازة

(لعلها مفازة كوهستان وهى غير قوهستان) فأتى حصن زالق وأغار على أهله فأسر دهقانها فافتدى منه بأن غرز عنزة (أطول من العصى وأقصر من الرمح) وغمرها ذهباً وفضة وصالحه على صلح أهل فارس - ثم فتح كركويه - ثم أتى روشت بقرب ذرنج فقاتله أهلها وأصيب رجال من المسلمين ثم انهزم أهلها - ثم أتى ناشرواذ ثم زرنج فناوله أهلها وقاتلوه فهزمهم وصالحه مرزبانها على مال كثير ودخل المسلمون المدينة ثم ذهب إلى وادي سناروز ثم رجع وأقام فى رزنج سنة وعاد إلى ابن عامر بعد أن استخلف عليهاعاملا. فأخرج أهل زرنج العامل وامتنعوا - فولى ابن عامر عبد الرحمن بن سمرة ابن حبيب عبد شمس على سجستان فخرج إليها وحاصر زرنج فصالحه مرزبانها على ألفى ألف درهم وغلب عبد الرحمن على ما بين زرنج والكش من ناحية الهند ، وغلب من ناحية الرخج على ما بينه وبين الدوان. ولما انتهى إلى الدوان حصرهم فى جبل الزوز ثم صالحهم ودخل على الزوز وهو صنم من ذهب عيناه ياقوتتان فقطع يده وأخذ الياقوتتين ثم قال للمرزبان دونك الذهب والجوهر. وإنما أردت أن أعلمك أنه لا يضر ولا ينفع - وفتح عبد الرحمن كابل وزابلستان وهى ولاية غزنة ، ثم عاد إلى زرنج فأقام بها حتى اضطرب أمر عثمان فاستخلف عليها أمين بن أحمر وانصرف فعاد القوم إلى العصيان.

ولما تم لابن عامر هذا الفتح العظيم قيل له : لم يفتح لأحد ما فتح عليك. قال لا جرم ، لأجعلن شكرى لله على أن أخرج محرما من موقفى هذا. فأحرم بعمرة من نيسابور وقدم على عثمان. واستخلف على خراسان قيس بن الهيثم وخرج بن عامر منها فى سنة ٣٢ فجمع قارن وكان من كبار قواد الفرس جمعاً كثيراً من ناحية الطبسين وأهل باذغيس وهراة وقهستان وأقبل فى أربعين ألفا - فقال قيس لعبد الله بن خازم : ما ترى ؟ قال أري أن نخرج من البلاد وتخليها فإنى أميرها إذا كانت حرب وأخرج كتابا من عبد الله بن عامر قد افتعله فكره قيس مشاغبته وخلاه والبلاد

وذهب إلى ابن عامر فلامه واعتذر قيس مما كان من أمر الكتاب.

أما عبد الله بن خازم فسار إلى قارن فى أربعة آلاف وأمرالجند أن يحملوا الودك. فلما قرب من عسكر قارن قال ليدرج كل منكم على زج رمحه ما كان معه من قطن أو خرقة أو صوف ثم أوسعوه من الودك من دهن أو زيت أو إهالة أو سمن وسار حتى إذا أمسى قدم مقدمة ثم أتبعهم وأمر الناس فأشعلوا النيران فى أطراف الرماح وجعل يقتبس بعضهم من بعض. فأتوا عسكر قارن نصف الليل فناوشوهم وهم آمنون من البيات فرأوا النيران يمنة ويسرة ترتفع وتنخفض وتميل فى كل ناحية فقاموا على دهش فهاجوا وهالهم الأمر وتقدمت المقدمة تناوشهم ثم غشيهم ابن خازم فى جنده فقتل قارن وانهزم جنده فتبعوهم يقتلونهم كيف شاءوا وغنموا عسكرهم وسبوا سبيا كثيراً وكتب بالفتح إلى ابن عامر فرضى وأقره ومازال بها إلى أن انتهت وقعة الجمل.

كانت هذه النواحى مغازى أهل البصرة.

وأما أهل الكوفة فكانت مغازيهم بناحية أذربيجان وأرمينيا كما قدمنا. وفى ناحيه طبرستان - فإن سعيد بن العاص أمير الكوفة من قبل عثمان سنة ٣٠ سار يريد خراسان بجيش فيه جماعة من أبناء أصحاب رسول الله منهم حذيفة بن اليمان والحسن والحسين وعبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عمرو بن العاص وعبد الله بن الزبير وغيرهم وكان ابن عامر قد خرج من البصرة يريد خراسان أيضاً فلما وصل سعيد إليه وجده قد نزل ابرَ شَهَر. فنزل قومس وهى صلح صالحهم عليها حذيفة بن اليمان بعد وقعة نهاوند ولم تنتقض وأتى جرجان فصالحوه على مائتى ألف درهم - ثم إلى طيمية وهى كلها من طبرستان متاخمة جرجان وهى على ساحل بحر الخزر فقاتله أهلها قتالا شديداً حتى وصل صلاة الخوف وضرب يومئذ سعيد أحد المشركين على حبل عاتقه بالسيف فخرج من تحت مرفقه. وحاصرهم فسألوا الأمان

فأعطاهم وافتتح سهل طبرستان والرويان ودنباوند وأعطاه أهل الجبال مالا - ثم كان المسلمون بعد ذلك يغزون طرستان ونواحيها. فربما أعطوا الإتاوة عفواً وربما منعوا فلم يعطوا إلا بعد قتال. وظل أهل بلاد جرجان وطبرستان على شيء من الاستقلال والنزوع إلى الشغب والإباء عن الخضوع لدولة الخلافة مدة الخلفاء الراشدين وصدرا من الدولة الأموية حتى أخضعها يزيد بن المهلب فى خلافة سليمان بن عبد الملك بن مروان.

والذى يظهر للمطلع على التاريخ أن جيوش المسلمين فيما يلى فارس أو المملكة الفارسية كانت قد ضخمت وكثرت كثرة غير متناسبة مع عددهم عند ابتداء الفتح أيام القادسية. يدل على ذلك ما أورده الطبرى من أبيات لابن جعيل مدح بها سعيد بن العاص أمير الكوفة لما عاد من غزوة فى جهات جرجان وطبرستان يقول فيها:

فنعم الفتى أذجال جيلان دونه ... وإذ هبطوا من دستبى ثم أبهرا
تعلم سعيد الخير إن مطيتى ... إذا هبطت اشفقت من أن تعقرا
كأنك يوم الشعب ليث خفية ... تجرد من ليث العرين وأصحرا
تسوس الذى ماساس قبلك واحد ... ثمانين ألفاً دارعين وحسرا

الفتح فى مملكة الروم زمن عثمان

كانت دولة الرومان على أشد الحذر من جيوش المسلمين ناظرة إليهم فى كل حين من عهد اقتطاعهم سورية ومصر من جسم سلطنتهم. وقد عرف قواد المسلمين ذلك الحذر منها فاتجه تيار فتوحهم إلى جهات فارس وأرمينيا فترة من الزمن. إلى أن جاءت سنة ٢٥ و ٢٦ - فعقد معاوية بن أبى سفيان عزيمته على منازلته دولة الروم فى إقليمى قبادوكيا فى الجهة الشرقية من آسيا الصغرى مما يلى أرمينيا - وفريجيا الكبرى على حدود غلاطية ولم يوغل فيما وراء ذلك. ولعل السبب فى عدم إيغاله في تلك

الأصقاع علمه بشـدة حذر الروم واستعدادهم للدفاع عن بلادهم بالـقوى الكبيرة مع قرب تلك النواحى من عاصمة ملكهم وسهولة حشد الجيوش عليه. فهو إذا أقدم فى ذلك الزمن كان ثمن الفتح غالياً - وقد قدمنا مـا كان من إساله حبيب بن مسلمة إلى أرمينيا.

كـان معـاوية ذا شغـف زائد بالاجـهار علـى الدولة البـيزنـطية وفـتح مـدينة القسطنطيـنية وهو يعلم شدة حذر الروم ويـقظتهم ويعلم ما عليـه بلاد الأناضول من كثرة الجبال ووعورة الطرق. فبلوغ غـرضه من طريق البر دونه أهوال مصاعب لا قبل لجيـوش الشام فى ذلك الحين بتـذليلها ، فـاتجه تيار تدبيـره إلى البحـر يريد أن يبلغ حاجته فيه بحمل المسلمين على إثباجه والاستيلاء على المراكز المهمة والنقط النافعة فى الغزو البحرى تمهيداً للقيام بعمله الهائل.

كانت هذه الفكرة تهجس في خاطر معاوية من أيام عمر بن الخطاب فكتب إليه يرغبه فى أن يأذن له فى فـتح قبرص ويذكر له قربها من الساحل وسـهولة ذلك عليه وقال : إن قريـة من قرى حمص ليسمع أهلها نبـاح كلابهم (أهل قبـرص) وصياح دجاجهم[1] فكاد ذلك يأخذ بقلب عـمر ولكنه اتهمه وكتب إلى عـمرو بن العاص - أن صف لى البحر وراكـبه فإن نفسى تنازعنى إليه - فكتب إلـيه عمرو : "إنى رأيت خلقاً كبيراً يـركبه خلق صغير إن ركن خرق القلوب وإن تحرك أزاغ الـعقول يزداد فيه اليقين قلة والشك كثرة. هم فيه كـدود على عود إن مال غرق وإن نجا برق" فلما قرأه عمر كتب إلى معاوية "إنا سمعنا أن بحر الشام يشرف على أطول شىء على الأرض يستـأذن الله فى كل يوم وليلة فى أن يفـيض على الأرض فيـغرقها ، فكـيف أحمل الجنود فى هذا الكافـر المستعصب. وتالله لمسلم أحب إلى ممـا حوت الروم. فإياك أن تعرض لى وقد تقدمت إليك. وقد علمت مـا لقى العلاء منى ولم أتقدم إليه فى مثل ذلك".

---

(١) الجزيرة التى يسمع ذلك منها إنما هى جزيرة أدواد.

سكت معاوية بعد كتاب عمر على مضض فى النفس إلى أن كان زمن عثمان فاستأذن منه. وبعد لأى ما أذن له في غزو الروم فى البحر وذلك سنة ٥٢٧ ، وشرط عليه عثمان أن يندب الناس للغزو ، وأن لا ينتخبهم ولا يقرع بينهم. فمن انتدب جهزه وأعانه فأعد معاوية لذلك أسطولا فى سواحل الشام وأرسل إلى عبد الله بن أبى سرح عامل مصر يومئذ أن يجهز أسطولا آخر ففعل واجتمع الأسطولان على قتل أهل قبرص. وبعد أن دافع أهلها دفاعاً شديداً وقاتلوا المسلمين أشد قتال صالحوا على سبعة آلاف دينار فى كل سنة يؤدون إلى الروم مثلها لا يمنعهم المسلمون عن ذلك ، وليس على المسلمين منعهم ممن أرادهم. وعليهم أن يؤذنوا المسلمين بمسير عدوهم إليهم. ويكون طريق المسلمين إلى العدو عليهم. وليس لذلك معنى سوى أن قبرص صارت بذلك محطة حربية ومستودعاً للمسلمين فى البحر الأبيض المتوسط ونقطة اتصال بين أهل الشام وبين أساطيلهم التى ابتدأت تمخر فى ذلك البحر وتلجأ إلى تلك الجزيرة عند الحاجة. وكان الفتح سنة ٢٨ وحضره من أصحاب رسول الله جماعة منهم عبادة بن الصامت وزوجته أم حرام بنت سلمان. ومن هذا التاريخ صارت دولة الإسلام دولة بحرية كما هى دولة برية وذلك أمر طبيعى لمملكة أحرزت من الشواطىء الواسعة ما أحرزت دولة الخلافة. فإنه قد صار لها شواطىء سورية ومصر وبرقة إلى إفريقية (تونس) في هذا الزمن القليل. وهذه الشواطىء تحتاج إلى الحماية من غارات الأعداء من الرومان وهم أمةعريقة فى البحرية وقيادة الأساطيل.

وقد كان أمير البحر الذى قاد الأساطيل لمعاوية عبد الله بن قيس الحارثى حليف بنى فزارة فغزا خمسين غزاة من بين شاتية وصائفة فى البحر. ولم يغرق فيه أحد ولم ينكب. وكان يدعو الله أن يرزقه العافية فى جنده وأن لا يبتليه بمصاب أحد منهم وقد أجاب الله تعالى دعوته فى جنده دونه.

وقد طار لعبد الله بن قيس ذكر فى سواحل الروم وشواطىء البحر الأبيض

المتوسط واشتهر شهرة عظيمة جداً - حتى إذا أراد الله أن يصيبه وحده خرج فى قارب طليعة فانتهى إلى المرقى من أرض الروم وعليه سؤل يعترون بذلك المكان فتصدق عليهم. وكان معطاءً كريماً فنم عليه جود كفه - فإن امرأة من السؤال رجعت إلى بيتها فقالت للرجال : هل لكم فى عبد الله بن قيس ؟ قالوا : وأين هو ؟ قالت : فى المرقى. قالوا : أى عدوة الله ومن أين تعرفين عبد الله بن قيس ؟ فوبختهم وأعلمتهم أنها سألته فأعطاها عطاء ملك ولم يكن عطاء تاجر. فثاروا إليه فهجموا عليه فقاتلوه وقاتلهم فأصيب وحده وأفلت الملاح حتى أتى أصحابه ، فجاءوا حتى أرقوا والخليفة منهم عن قيس سفيان بن عوف الأزدى فخرج فقاتلهم فضجر وجعل يبعث بأصحابه ويشتمهم فقالت جارية عبد الله : واعبد الله ، ما هكذا كان يقول حين يقاتل. فقال سفيان وكيف كان يقول ؟ قالت : الغمرات ثم ينجلينا ، فترك ما كان يقول إلى ما قالت ، وأصيب فى المسلمين ناس يومئذ.

وقد ذكر سيديو فى تاريخه أن معاوية فتح سنة ٢٩ هـ جزيرة إقريطش (كريد) وجزيرة كوس وجزيرة رودس ، ولم يقل بذلك مؤرخو العرب والظاهر أن هذه الجزر فتحها معاوية فى خلافته أيام هجماته المتتابعة على سواحل الروم وتدميره لأسطولها العظيم ثم محاصرته للقسطنطينية كما سيأتى خبر ذلك كله فى سيرة معاوية ا هـ ، من أشهر مشاهير الإسلام.

مقتل يزدجرد

من الأحداث في عهد عثمان مقتل يزدجرد وانتهاء الملك فى فارس.

اضطربت كلمة المؤرخين فى مقتل يزدجرد ملك الفرس ورويت فى ذلك روايات عديدة رواها الطبرى وتابعه عليها ابن الأثير. أقربها أن يزجرد عزم على قصد خراسان ليجمع الجموع ويسير بهم إلى العرب فسار إلى مرو ومعه الرهن من أولاد الدهاقين ومعه فرخزاد أخو رستم. فلما اعتزم القدوم إلى مرو كاتب ملك الصين

وملك فرغانة وملك كابل وملك الخزر يستمدهم.

وكان الدهقان بمرو ما هويه أبو براز وقد جعل ماهويه ابنه محافظاً للمدينة وقد أراد يزدجرد صرف الدهقنة عن ماهويه إلى ابن أخيه سنجان وشعر بذلك ماهويه فأسر إلى ابنه بمنع يزدجرد عن دخول مرو وأخذ ماهويه فى العمل على إهلاك يزدجرد فكتب إلى نيزك طرخان من ملوك الترك يدعوه إلى الاتفاق على قتل يزدجرد ومصالحة العرب عليه ويضمن له ألف درهم فى كل يوم إن أعانه على ما طلب. فأجاب نيزك إلى ذلك وكاتب يزدجرد يبذل له المعونة والنصرة إذا نحى عنه فرخزاد وجنده. واستشار يزدجرد أصحابه فكل أشار برأى فتنحى عنه فرخزاد وجنده وجاء نيزك فى جند واستقبل الملك ماشيا فأمر له بفرس ودخل عسكر نيزك فى موكب حافل تعزف فيه الموسيقى. فلما توسط الملك عسكر نيزك قال له فيما يحدثه : زوجنى إحدى بناتك حتى أناصحك فى قتال عدوك. فغضب منه يزدجرد وسبه. فعلاه نيزك بمرقعة ففر منه وقتل أصحاب نيزك أصحاب يزدجرد وانتهى الفرار بالملك إلى بيت طحان أو صانع أرحاء عل نهر المرغاب (نهر الطير) فمكث عنده ثلاثة أيام لا يأكل والطحان أو صانع الأرحاء لا يعلم من أمره شيئاً. فقال له : اخرج أيها الشقى فكل طعاماً فقد جعت. فقال : إنى لا أصل إلى ذلك إلا بزمزمة وهى أدعية وصلوات يقوم رجال الدين من المجوس بتلاوتها على الطعام قبل الأكل فأحضر له رجلا فزمزم له ، وأكل فلما رجع المزمزم سمع الناس يتحدثون بهرب يزدجرد واختفائه فسأل عن حليته فوصف له فأخبر الناس بمكانه وانتهى الخبر إلى ماهويه أبو براز فأرسل أحد الأساورة ليقتله. فأنكر الطحان أن يكون عنده. وقال رجل : إنى أشم هاهنا ريح المسك ودخلوا بيت الطحان فإذا يزدجرد قد نزل فى النهر فجروا طرف ثوبه فأخرجوه. فأراد أن يفتدى من قاتله بخاتمه ومنطقته وفيهما غنى الدهر لمن أخذهما فلم يقبل وطلب منه أربعه دراهم على أن يتركه فلم يجدها فطلب أن يذهب به إلى الدهقان أو إلى العرب فإنهم يستبقونه فلم يقبل منه وقتله وألقاه فى المرعاب.

ويقول سيديو فى تاريخه : إن ملك الصين المسمى تائى تسنغ أمد يزدجرد بالجنود وأنه هو الذى سلط عليه من قتله على شاطىء المرغاب. وانقضت بقتله الدولة الساسانية التي استمرت زاهية وأعلامها خافقة على تلك الممالك نحو تسع وعشرين وثلاثمائة سنة. وقال ابن الأثير : وسمع بقتله مطران كان بمرو فجمع النصارى وبنوا له ناووساً وأخرجوه من الماء وكفنوه. وكان ملكه عشرين سنة : منها أربع سنين فى دعة وست عشرة سنة فى تعب من محاربة العرب إياه وغلظتهم عليه ، وكان آخر من ملك من آل أردشير بن بابك ، وصفا الملك بعده للعرب ولك سنة إحدى وثلاثين هـ.

اجتماع أعمال سورية كلها لمعاوية

كان معاوية بن أبى سفيان عاملا على الأردن فى عهد عمر بن الخطاب وكان أخوه يزيد بن أبى سفيان أميراً على دمشق فلما نعاه عمر إلى أبى سفيان فقال : من جعلت على عمله يا أمير المؤمنين ؟ قال : معاوية. فقال : وصلتك رحم. ومات عمر ومعاوية على دمشق والأردن.

وقد كان عياض بن غنم خال أبى عبيدة بن الجراح ومن أبناء عمومته وكان في عهد عمر بن الخطاب قد ولى عملا بالجزيرة وكان شجاعا وقائدا بارعا. فبلغ عمر عنه إتلاف للمال فأحضره عمر وألبسه جبة صوف وأعطاه عصى وجاءه بصرمة من الغنم وقال له : ارع فإن أباك كان راعياً. وبعد مدة صرفه إلى الشام فلحق بأبى عبيدة وكان جواداً كريماً مشهوراً لا يليق شيئاً ولا يمنع أحداً سأله معروفاً. فلما حضر أبو عبيدة استخلف عياضاً على عمله فأقره عمر. وكلم عمر فى ذلك وقيل له عزلت خالداً أو عبت عليه العطاء. وعياض أجود العرب وأعطاهم لا يمنع شيئاً يسأله. فقال عمر عياض فى ماله حتى يخلص إلى مالنا وإنى مع ذلك لم أكن مغيراً أمراً قضاه أبو عبيدة. ومات عياض بعد ذلك. فولى عمر مكانه على حمص سعيد بن جذيم الجمحى ثم مات فولى مكانه عمير بن سعد الأنصارى وتوفى عمر وهو على حمص

ثم إن عمير بن سعد مرض مرضاً شديداً وأضنى فاستعفى عثمان واستأذنه فى الرجوع إلى أهله فأذن له ، وضم عملـه إلى معاوية فكان له حمص ويتبعهـا قنسرين ودمشق والأردن.

وكان عبد الرحـمن بن علقمة بن مجزر الكنائى على فـلسطين. فلما مات فى أيام عثمان ضـمت فلسطين إلى معاوية وبذلك اجتمـعت له كل ولايات سورية وكان معها جزء من الجزيرة.

الفرقة العربية وأسبابها ونتائجها

لابد لمن يريد أن يتـكلم على الأمور التى كـانت سببـاً لتفريق وحـدة المسلمين وتشعب آرائهم فى السيـاسة ، ولـم تقتصر على ذلك حتى أنبت لهـم شعباً فى الدين ومزقتهم كل ممزق. أقول : لابد لمن يريد ذلك من السـير بالأمور من مبدئها والإتيان عليهـا واحدة واحدة. وأن يبـدأ ذلك بأحوال المسلمين فى أمـصارهم ومنشأ مـا كان بينهم وبين ولاتهم وما لهجوا به فى حقهم وما عابوه عليهم ليكون ملماً بالأحوال بدأ ونهاية - هذا وقد أسهب المؤرخون وأصحاب السير والأخبار فى أسباب الفتن والفرقة إسهاباً كثيراً. وقد جاء الطبرى بالكثـير من ذلك فى أخبار مفرقة. ونسق العلامة ابن خلدون أحوال الأمصار وأسباب الفتنة ومبـادئها نسقاً بديعاً في تاريخه وألم بشىء من ذلك في الجزء الأول. وقد حذا حذوه الأستاذ الخضرى وجاء فى محاضراته من ذلك بالكثير الطيب. وكذلك صاحب أشهر مشاهـير الإسلام فقد جمع فى هذا الباب شيئاً كثيراً وأبدى آراء سـديدة. وقد جاء ابن الأثير فى هذا الباب أيضاً بـشىء كثير. وهذه الكتب التى اخترتها مادة لما أورده فى هذا الباب وعمدة أرجع إليها وأنقل عنها مع ما يبدو لى من التعديل أو التحوير أو الزيادة أو نحو ذلك والله المستعان.

هل كان عثمان مسيئاً إلى الناس أو نقص عنهم الرزق في عهده ؟

روى الطبرى عن الحسن البصرى قال : كان عمر بن الخطاب قد حجز على أعلام قريش من المهاجرين الخروج فى البلدان إلا بإذن وأجل. فشكوه. فبلغه. فقال: "ألا إنى قد سننت الإسلام سنّ البعير يبدأ فيكون جدعا ثم ثنيا ثم رباعيا سديساً ثم بازلاً. ألا فهل ينتظر بالبازل إلا النقصان ألا وإن الإسلام قد بزل. ألا وإن قريشاً يريدون أن يتخذوا مال الله معونات دون عباده. ألا فأما وابن الخطاب حى فلا. إنى قائم دون شعب الحرة آخذ بحلاقيم قريش وحجزها أن يتهافتوا إلى النار" . فلما ولى عثمان لم يأخذهم بالذى كان يأخذهم به عمر. فانساحوا فى البلاد. فلما رأوها ورأوا الدنيا ، انقطع من لم يكن له طول ولا مزية فى الإسلام فكان مغموما فى الناس وصاروا أوزاعا إليهم وأملوهم وتقدموا فى ذلك. فقالوا يملكون فنكون قد عرفناهم ، وتقدمنا فى التقرب والانقطاع إليهم. فكان ذلك أول وهن دخل على الإسلام وأول فتنة كانت فى العامة.

وقال الشعبى لم يمت عمر حتى ملته قريش وقد كان حصرهم في المدينة فامتنع عليهم وقال : إن أخوف ما أخافه على هذه الأمة انتشاركم فى البلاد. فإن الرجل ليستأذنه فى الغزو - وهو ممن حبس من المهاجرين ولم يكن فعل ذلك بغيرهم من أهل مكة - فيقول قد كان لك فى غزوك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يبلغك. وخير لك من الغزو اليوم ألا ترى الدنيا ولا تراك. فلما كان عثمان خلى عنهم فاضطربوا فى البلاد وانقطع إليهم الناس فكان أحب إليهم من عمر - وروى الطبرى بسنده قال : لم تمض سنة من إمارة عثمان حتى اتخذ رجال من قريش أموالا فى الأمصار وانقطع إليهم الناس.

والمطلع على ما تقدم يرى أن رأى عمر فى الحجر على قريش أوثق من رأى عثمان فى إرخاء الحبل لهم. ذلك أن قريشا (كما قال الأستاذ الخضرى) كانت بحسب القاعدة التى كانت متبعة كأعضاء الأسرة التى لها الأمر. كبارها مرشحون لأن يلوا الخلافة يوما ما وليس هناك نظام يعين سابقهم ولاحقهم وهم مع ذلك متباعدو

العشائر. ومحـيط المدينة ضيق عن تدبير ما يمكن أن يختلـج فى النفوس من الشغب على الخليفة. أو ما يمكن أن يأتيه آت لإفساد ذات البين.

وقال صـاحب أشهر مـشاهير الإسـلام : أجمع الرواة وأهل الإخبـار على أن عثمان قـضى الشهر الأكبر من خـلافته وهو أحب إلى الناس من عمـر لشدته ورأفة عثمان ولينه. وإقبال الدنيا على الناس على عهده وتبسطهم فى المعيشة وامتلاء أيديهم من المغانم. لكن غلب عليه بنو أمية فى أواخـر مدته. فآثرهم على غيرهم من قريش ووصلهم بالأمـوال الكثيرة فانحـرفت عنه من أجل ذلك القلوب ونظرت إليـه قريش بغيرعين الرضا ونهض لمـناقشته الحساب أهل الأمصار وتخلل ذلك أمـور خفية وجلية أدخلت الناس في غمار فتنة عمياء كانت نتيجـتها ضعف السلطة الشرعية وغلبة القوة والأثرة على الملك إلى اليوم.

أخرج ابن عساكر عن الحسن أنه قال : أدركت عثمان - على ما نقموا عليه - قل ما يأتى على الناس يوم إلا ويقـسمون فيه خيراً ، فيقال لهـم : يا معشر المسلمين أغدوا على أعطياتكم ، فيأخذونها وافـرة ، ثم يقال : أغدوا على أرزاقكم فيأخذوها وافرة. ثم يقال علـى السمن والعسل. الأعطيات جـارية والأرزاق دارة والعدو منفى وذات البين حسن والخير كثير : وما مؤمن يخاف مؤمناً من لقيه فهو أخوه من كان : ألفته ونصيحـته ومودته. قد عهد إليهم أنها ستكون أثرة فـإذا كانت أن تصبروا. قال رسول الله لأسيد بن حضير **"ستلقون بعدى أثره** ، قال فما تأمرنا ؟ قال **تصبروا حتى تلقوا الله ورسوله"** قال الحسن : لو أنهم صبـروا حين رأوها وأخذوا بأمر الله ورسوله لوسعهم ما كانوا فيه من العطاء والرزق والخير الكثير. قالوا لا والله ما نصابرها فوالله ماردوا ولا سلموا. والأخرى كان السيف مـغمداً عن أهل الاسلام ، ما على الأرض ممن يخاف أن يسل عليه سـيفاً حتى سلو على أنفسهـم ، فو الله ما زال مسلولا إلى يوم القيامة ا هـ.

لم يكن عثـمان بالذى ينتهى عند حـد الإذن لقريش بالانسياح فى الـبلاد بعد

الحجر الذي ضربه عليهم عمر ، بل ساعدهم على ذلك حاسبا أنه يقمع بهم الفتنة ويخمد بهم نار الفرقة إذا شبت ويثبت بهم أركان الدولة فكانوا أول جان عليه اجتهاده، ذلك أنه فى سنة ثلاثين أنبأه سعيد بن العاص بأحوال الكوفة وما يشيمه في أهلها من بوارق الفتن واستعدادهم للشر ، فكان فيما قاله عثمان لأهل المدينة أن الناس يتمخضون بالفتنة وإنى والله لأتخلصن لكم الذى لكم حتى أنقله إليكم إن رأيتم ذلك. فهل ترونه ؟ حتى يأتى من شهد من أهل العراق الفتوح فيقيم معه فى قلاده : ففام أولئك وقالوا : كيف تنقل لنا ما أفاء الله علينا من الأرضين يا أمير المؤمنين ؟ فقال : نبيعها ممن شاء بما كان له بالحجار. ففرحوا وفتح الله عليهم به أمراً لم يكن فى حسابهم. فاغتنم بعض قريش ذلك وتأثلوا العقار والمزدرعات وبادلوا من لم يهاجر على سهمانهم بالعراق بما لهم بالحجاز.

ومن ذلك أن طلحة بن عبيد الله جمع ماله من سهمان خيبر وغير ذلك مما له بالحجاز واشترى به من نصيب من شهد القادسية والمدائن ولم يهاجر إلى العراق النشاسنج. واشترى مروان بما كان أعطاه عثمان نهر مروان وهو يومئذ أجمة ، واشترى رجال من القبائل بالعراق بأموالهم التى لهم بجزيرة العرب من أهل المدينة ومكة والطائف ، فهذا سبب أيضا من الأسباب التي وجد بها رجال قريش سبيلا للوجود فى الأمصار. روى الطبرى بسنده قال : اشترى هذا الضرب رجال من كل قبيلة ممن كان له هناك شىء فأراد أن يستبدل به فيما يليه ، فأخذوا وجاز لهم عن تراض منهم ومن الناس وإقرار بالحقوق.

إلا أن الذين لا سابقة لهم ولا قدمة لا يبلغون مبلغ أهل السابقة والقدمة فى المجالس والرياسة والحظوة ثم كانوا يعيبون التفضيل ويجعلونه جفوة وهم فى ذلك يختفون به ولا يكادون يظهرونه لأنه لا حجة لهم والناس عليهم فإذا لحق بهم لاحق من ناشىء أو أعرابى أو محرر استحلى كلامهم ، فكانوا فى زيادة وكان الناس فى نقصان حتى بلغ الشر.

كان المسلمون فى أيام عمر لا يعرفون للشقاق معنى ، ولا يختلفون فيما بينهم

على شيء لفقدان الدواعى إلى ذلك ، وأكبر دواعى نزوع العرب إلى الشر اختلاف رؤسائهم وتنازع كبرائهم ، ثم لا توجد يد قوية شديدة البطش تقف بالمتنازعين عند الحد الذى لا ينبغى أن يتجاوزوه. وقد كان عمر ذلك الخليفة الحازم ، لا تفزعه الأهوال ، ولا تتكاءده الكوارث ولا يهاب عظيما لعظمته. ولا يحجم عن اجتثاث الفتنة من أصولها ويضرب على يد النازع إليها ولو كان آثر الناس لديه وأكرمهم عليه. فكانت روحه تخيف الرؤساء وذوى المطامع. فلا يجد أحد منهم سبيلا إلى نزاع أو شر - هذا إلى ما وقر فى أنفس القوم من الألفة التى عقدها الإسلام بينهم وانشغال أكثر الناس بالجهاد والفتح الذى تتوالى أخباره. ومعلوم أن مسائل الحرب تصرف أفكار الناس إلى التحدث بها والنظر فى نتائجها وعواقبها. إلى ما يتبع ذلك من بسالة الجند وبراعة القواد. وبخاصة إذا كان الجيش متنصراً ظافراً. فإن تلك الأحوال تميت الشقاق ولا تحييه. ولو كان عثمان من ذوى السياسة العالية لرمى بالجنود وكثيرى الكلام فى حرب ضروس يوجه بهم إليها ، ويشغلهم بأنفسهم عنه.

وقد كان العلامة ابن خلدون : لما استكمل الفتح واستكمل للملة الملك ونزل العرب بالأمصار فى حدود ما بينهم وبين الأمم من البصرة والكوفة والشام ومصر ، وكان المختصون بصحابة الرسول صلى الله عليه وسلم والاقتداء بهديه وآدابه المهاجرين والأنصار من قريش وأهل الحجاز ومن ظفر بمثل ذلك من غيرهم. وأما سائر العرب من بنى بكر بن وائل وعبد القيس وسائر ربيعة والأزد وكندة وتميم وقضاعة وغيرهم فلم يكونوا يرون ذلك لأنفسهم مع ما يدين به فضلاؤهم من تفضيل أهل السابقة ومعرفة حقهم وما كانوا فيه من الذهول والدهش لأمر النبوة وتردد الوحي وتنزل الملائكة فلما انحصر ذلك العباب وتنوسى الحال بعض الشيء وذل العدو واستفحل الملك كانت عروق الجاهلية تنبض ووجدوا الرياسة عليهم للمهاجرين والأنصار وقريش وسواهم فأنفت نفوسهم منه. ووافق ذلك أيام عثمان ، فكانوا يظهرون الطعن فى ولاته بالأمصار والمؤاخذة لهم باللحظات والخطوات والاستبطاء

عليهم فى الطاعات والتجنى بسؤال الاستبـدال منهم والعزل ويفيضون فى النكير على عثـمان وفشت المقـالة فى ذلك فى اتبـاعهم وتنادوا بالظـلم من الأمراء فى جهـاتهم وانتهت الأخبار بذلك إلـى الصحابة بالمدينة فارتابوا وأفاضوا فى عزل عـثمان وحمله على عزل أمـرائه وبعث إلى الأمصار من يأتيـه بالخبر فلم يجـدوا أثراً لظلم ولا ظلا لعسف أو جور.

قال آن لنا أن نلم بأحوال المسلمين فى الأمصار وما كان يعمل فيهم من العوامل التى أدت إلى إشعـال نار الفتنة وتأريث جـاحمها حـتى تأججت وأكلت كل أخـضر ويابس وأعيا إطفاؤها ونتج عنها أشـأم ثورة ثارت فى الإسلام والمسلمون يجنون منها اليوم شر ما يجنى ويقاسون أشد ألم من جرائها.

الكوفة

إن الكوفة أول مـصر نزغ الشـيطان بين أهله فى الإسلام. وكـان بدء ذلك أن سعد بن أبى وقاص كان أمير الكوفة فى خلافة عـثمان بوصية من عمر وكان عبد الله ابن مسعود أمين بيت المال فاستقرض سعد من عبد الله بن مسعود من بيت المال مالا. فلما جـاء الأجل أتى ابن مسعود إلى سـعد وقال له : أد المال الذى قبلـك. فقال له سعد : ما أراك إلا ستلقى شرا هل أنت إلا ابن مسعود عبد من هذيل ؟ فقال : أجل ، والله إنى لابن مسعود وإنك لابن حمينة فقال هاشم بن عتبة بن أبى وقاص : أجل ، والله إنكما لصاحبا رسول الله صلى اللهعليـه وسلم ينظر إليكما. فطرح سعد عوداً كـان فى يده - وكـان رجلا فـيه حـدة - ورفع يده وقـال : اللهـم رب السمـوات والأرض. فقال عبـد الله ويلك قل خيراً ولا تلعن. فقال سعـد : أما والله لولا اتقاء الله لدعوت عليك دعـوة لا تخطئك. فولى عبد الله سـريعاً حتى خرج. ولم يتـيسر لسـعد الإسراع بـأداء المال فاستـعان عـبد الله بأناس عـلى استخـراج المال من سـعد واستعان سعد بأناس على استنظاره. وافترقوا وبعضهم يلوم سعداً وبعضهم يلوم عبد الله ووصل الخبر بذلـك إلى عثمان فغضـب عليهما وهم بهمـا ثم ترك ذلك. وعزل

سعداً وأخذ ما عليه وأقر عبد الله بن مسعود وتقدم إليه فى ذلك.

ولماعزل عثمان سعدا ولى الوليد بن عـقبة الكوفة - وكان قبل ذلك عاملا على الجزيرة من عهد عـمر - فلما قدم الوليد كان أحب الناس فـى الناس وأرفقهم بهم. فكان كذلك خمس سنين وليس على داره باب.

حدث فى أثناء ولاية الوليد أن شباباً من شباب الكوفة نقبوا على ابن الحيسمان الخزاعى داره وكاثروه ونذر بهم فخـرج إليهم بسيفه فلما رأى كثـرتهم استصرخ وكان أبو شريح الخـزاعى جاراً له وهو من أصـحاب رسول الله صلى الله عليـه وسلم نقل أهله من المدينة إلى الكوفة ليكون قريباً من الغزو. فلما سمع استصراخ ابن الحيسمان أطل هو وابنه فـإذا هو بأولئك الشبـاب يقولون لجـاره لا تصح فإنما هى ضـربة حتى نريحك وضربوه فـقتلوه وأبو شريح يصيـح بهم وأحاط الناس بهم فأخذوهـم وفيهم زهير بن جندب الأزدى ومورع بن أبى مورع الأسدى وشبيل بن أبى الأزدى فى عهدة فشهد عليهم أبو شريح وابنه أنهم دخلوا عليه فقتله بعضهم. فكتب الوليد إلى عثمان فيـهم وارتحل إليه أبو شـريح ونقل أهله إلى المـدينة ولهذا الحـديث لما كثـر أحدثت القسامة وأخذ يقول ولى المقتول ليفطم الناس عن القتل عن ملأ من الناس يومئذ وقال عثمان القسامة على المدعى عليه وعلـى أوليائه يقسم منهم خمسون رجلا إذا لم تكن بينة فإن نقصت قسـامتهم أو إن نكل منهم رجل واحد ردت قسامتـهم ووليها المدعون فإن حلف منهم خمسون استحقوا وقد ثبت القتل على هؤلاء النفر. فكتب فيه الوليد إلى عثمان فكتب إليـهم فى قتلهم فقتلوا على باب القصر فـى الرحبة - وقد قال فى ذلك عمرو بن عاصم التميمى :

لا تأكلوا أبدا جيرانكم سرفـا ... أهل الدعارة فى ملك ابن عفان

وقال : إن ابن عفان الذى جربتموا ... فطم اللصوص بمحكم الفرقـان

ما زال يعمل بالكتاب مهيمناً ... في كل عنـق منهم وبنـان

ولما قتل هؤلاء الرهط قصاصا بمن قتلوا اضطغن آباؤهم على الوليد لذلك وصاروا يتحينون الفرص للإيقاع به - وكان للوليد سمار يسمرون عنده ومنهم أبو زبيد الطائى كان رجلا نصرانياً معروفاً بشرب الخمر. قد عرفه الوليد أيام نصرانيته وكان مقامه فى تغلب أخواله أيام كان الوليد أميرا عليهم بالجزيرة وكان يغشى الوليد بالجزيرة أيام كان فيها وبالمدينة إذ كان بها. فلما جاء الوليد الكوفة قدم عليه أبو زبيد وكان للوليد عنده يد حين أسلم إذ اضطهده أخواله كراهة لدخوله فى الإسلام فأخذ له الوليد بحقه فشكرها له أبو زيد وانقطع إليه وجاء إليه الكوفة مسلماً معظما على مثل ما كان يأتيه بالجزيرة والمدينة وقد حسن إسلامه فاستدخله الوليد وكان عربيا شاعراً. فأتى آت أبا زينب وأبا مورع وجندبا وهم يحقدون عليه مذ قتل أبناءهم ويضعون له العيون. فقال هل لكم فى الوليد يشارب أبا زبيد ؟ فثاروا فى ذلك وقالوا لأناس من أهل الكوفة هذا أميركم وأبو بكر زبيد خيرته وهما عاكفان على الخمر فقاموا معهم إلى منزل الوليد وليس عليه باب واقتحموا عليه فلم يفجأ إلا بهم فنحى شيئا فأدخله تحت السرير فأدخل بعضهم يده فأخرجه لا يؤامره فإذا طبق عليه تفاريق عنب وإنما نحاه استحياء من أن يرى طبقه وليس عليه إلا تفاريق عنب فأقبل الناس على المرجفين بسيوفهم ويلعنونهم : وأقبل آخرون يقولون فيه. فدعاهم ذلك إلى التجسس والبحث.

ستر عليهم الوليد وطوى ذلك عن عثمان ولم يشأ أن يدخل بين الناس فى ذلك بشىء فسكت وصبر. وجاء جندب ورهط معه إلى ابن مسعود فقالوا : الوليد يعتكف على شرب الخمر. فقال ابن مسعود : من استتر عنا بشىء لم نتتبع عورته ولم نهتك ستره ونمى كلامه إلى الوليد فعاتبه : وقال : أيرضى من مثلك بأن يجيب قوماً موتورين بما أجبت علي ؟ أى شىء أستتر به ؟ إنما يقال هذا للمريب. فتلاحيا وافترقا على تغاضب. وأذاع المرجفون بعكوفه على الخمر وطرحوه على ألسنه الناس.

وقد أتى الوليد بساحر وهو على الكوفة. فأرسل إلى ابن مسعود يسأله عن حده فقال : وما يدريكم أنه ساحر ؟ قالوا يزعم ذاك. قال أساحر أنت ؟ قال : نعم

قال وتدرى ما السحر ؟ قال نعم وثار إلى حمار فجعل يركبه من قبل ذنبه ويريهم أنه يدخل من فمه ويخرج من أسته ويدخل من أستـه ويخرج من فمه. فقال ابن مسعود فاقتله. فانطلق الوليد ، فنادوا فى المسجد أن رجلا يلعب السحر عند الوليد.

جاء جندب - واغتنمها - يقول أين هو حتى أريه فـضربه فقتله ، فاجتمع عبد الله والوليد على حـبسه وكان جندب يـعتذر بأنه ما كـان يعلم أن الوليد سيـقيم الحد على ذلك الساحـر وأنه ظن عطل حده فأراد أن يستـوفيه. وكتب الوليد إلى عـثمان فأجاب : أن استحلفوه بالله ماعلم برأيكم فـيه وأنه لصادق فيما ظن من تعطيل حده وعزروه وخلوا سـبيله. وتقـدم إلى الناس فى أن لا يعمـلوا بالظنون وأن لا يقيـموا الحدود دون السلطان فإنا نقيد المخطىء ، ونؤدب المصيب.

فعل به الوليد ما أمر به غثمان ، وغضب لجندب أصحابه ، واتفقوا فيما بينهم على الكيـد للوليد بالذهاب إلى المدينـة وشكوى الوليد إلى الخليـفة واستعـفائه منه. فجاءوا عثمان فقال لهم تعملون بالظنون وتخطئون فى الإسلام وتخرجون بغير إذن ، ارجعوا. فلما رجعـوا إلى الكوفة لم يبق موتور فى نفسه إلا أتاهم ، فـاجتمعوا على رأى فأصدروه ثم تغفلوا الوليد وكان ليس عليه حجاب فدخل عليه أبو زينب الأزدى وأبو مورع الأسدى وبقيـا معه إلى أن نام فسلا خاتمه من أصبـعه وهو نائم. فلما لم يجد خاتمه بعد أن اسـتيقظ سأل جاريتين له فقالتا جاءك رجـلان وأحدهما كانت يده على يدك ثم حلـتاهما له فـعرف أنهما أبـو زينب وأبو مورع وقال : قـد أرادا داهية فليت شعـري ماذا يريدان وطلبهمـا فلم يجدهما. وكان وجـههما المدينة فقـدما على عثمان ومعهما نفر يعرفهم عثمان ممن قد عزل الوليد عن الأعمال فقال من يشهد قالوا أبو زينب وأبو مورع. وكاع الآخران فقال كيف رأيتمـاه ؟ قالا كنا من غاشيته فدخلنا عليه وهو يقىء الخمر. وفى رواية اعتصرناها من لحيـته وهو يقيئها. فقال : ما يقىء الخمر إلا شاربها. فبعث إليه فلما قدم الوليد رآهما عند عثمان فقال :

ما إن خشيت على أمر خلوت به   فلم أخفك على أمثالها حار

وحلف الوليد وأخبره خبرهم فقال عـثمان نقيم الحدود ويبوء شاهد الزور بالنار فاصبر يا أخى. وأمر سعيد بن العاص فجلده أربعين فأورث ذلك عداوة بين ولديهما والصحـيح أن الذى جلده عبـد الله بن جعفـر إذ أبى الحسن أن يتولـى ذلك. وعزله عثمان عن الـكوفة - وقد كان الوليد مظفـراً في الغزو ما قصر فيـه ولا انتقض عليه أحد حتى عزل. وكان مما زاده عثمان بن عفان على يده أيام ولايته على الكوفه أن رد على كل مملوك بها مبلغاً يستعـينون به من غير أن ينقص مواليهم من أرزاقهم. وأورد الطبرى أن الوليد أدخل على الناس خيراً حتى جعل يقسم للولائد والعبيد ولقد تفجع عليه الأحرار والمماليك كانت تسمع الولائد وعليهن الحداد يقلن :

يا ويلنا قد عـــزل الوليد وجاءنا مجـوعا سـعيـد
ينقص فى الصاع ولا يزيد فجـــوع الإمـــاء والعبيد

وقال بعض شعراء الكوفة :

فررت من الوليد إلى سعيد كأهل الحجر إذ جزعوا فباروا
بلينا من قريش كـل يـوم أمير محـدث أو مستـشـار
لنا نـار نخوفـها فنخشى وليس لهم فلا يخشـون نـار

ولى عثمان بعد الـوليد سعيد بن العاص وكان بقية العـاص بن أمية وكان أهله كثيراً تتابعـوا وكان يتيما نشأ فى حجر عـثمان فلما فتحت الشام قدمـها على معاوية فسأل عنه عمر فيما يتفقد من أمـور الناس. فقالوا : يا أمير المؤمنين هو بدمشق عهد العاهد به وهو مأموم بالموت. فأرسل إلى معاوية : أن ابعث إلى سعيد بن العاص فى منقل فبعث به إليه وهو دنف فما بلغ المدينة حـتى عوفى من مرضه. فقال له عمر : يا ابن أخى قد بلغنى عنك بلاء وصلاح فـازدد يزدك الله خيراً. ثم قال له : هل لك زوجة ؟ قال: لا. فقـال لعثمان : يا أبا عمرو ما منـعك من هذا الغلام أن تزوجه ؟ قال : قد عـرضت عليه فأبى. وبعـد ذلك خرج عمر يسـير فى البر فانتـهى إلى ماء

فلقى عليه أربع نسوة. فقمن له فقال : ما لكن وما أنتن ؟ فقلن بنات سفين بن عويف. وقالت أمهن : هلك رجالنا وإذا هلك الرجال ضاع النساء فضعهن فى أكفائهن. فزوج سعيد بن العاص إحداهن وعبد الرحمن بن عوف الأخرى والوليد بن عقبة الثالثة ، ثم أتاه بنات مسعود بن نعيم النهشلى فقلن هلك رجالنا وبقى الصبيان فضعنا فى أكفائنا فزوج سعيد بن العاص إحداهن وجبير بن مطعم الأخرى وقد كان عمومته ذوى بلاء فى الإسلام وسابقة حسنة وقدمة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يمت عمر حتى كان سعيد من رجال الناس.

قدم سعيد أميراً على الكوفة. ومعه أولئك النفر الذين كادوا للوليد. ومنهم مالك المعروف بالأشتر النخعى. وأبو خشة الغفارى وجندب بن عبد الله وأبو مصعب ابن جثامة. فصعد سعيد المنبر فحمد لله وأثنى عليه وقال : والله لقد بعثت إليكم وإنى لكاره ولكنى لم أجد بداً إذا أمرت أن آتمر. ألا إن الفتنة قد أطلعت خطمها وعينيها ووالله لأضربن وجهها أو تعيننى ، وإنى لرائد لنفسى اليوم - ونزل. وسأل عن أهل الكوفة ، فأقيم على حالها وما عليه أهلها. فكتب إلى عثمان بالذى انتهى إليه : إن أهل الكوفة قد اضطرب أمرهم وغلب أهل الشرف منهم والبيوتات والسابقة والقُدْمة - والغالب على البلاد روادف ردفت وأعراب لحقت حتى ما ينظر إلى ذى شرف وبلاء من نازلتها ولا نابتتها. فكتب إليه عثمان : أما بعد ففضل أهل السابقة والقدمة ممن فتح الله عليه تلك البلاد وليكن من نزلها بسببهم تبعاً لهم إلا أن يكونوا تثاقلوا عن الحق وتركوا القيام به وقام به هؤلاء. واحفظ لكل منزلته وأعطهم جميعا بقسطهم من الحق فإن المعرفة بالناس بها يصاب العدل. فأرسل سعيد إلى وجوه الناس من أهل أيام القادسية فقال : أنتم وجوه من وراءكم والوجه ينبىء عن الجسد. فأبلغونا حاجة ذى الحاجة وخلة ذى الخلة. وأدخل معهم من يحتمل من اللواحق والروادف وخلص بالقراء والمتسمتين فى سمره. فكأنما كانت الكوفه يبساً شملته نار. فانقطع إلى ذلك الضرب حزبهم وفشت القالة والإذاعة. وذلك أمر طبيعى. لأن

أولئك الشاغبين الذين أزالوا سلطان الوليد كانوا يرون أقل جزاء لهم من سعيد أن يشركهم فى سلطانه ولا يصدر إلا بإذنهم ولا يورد إلا عن رأيهم. فلما فاتهم ما أملوا فى سلطانه عادوا سيرتهم الأولى.

كتب سعيد إلى عثمان بأمرهم. فلما وصل إليه كتابه نادى مناديه : الصلاة جامعة . فاجتمعوا فأخبرهم بالذى بلغه سعيد من أول ولايته وبما كتب به إليه وبما جاءه من القالة والإذاعة. فقالوا أصبت فلا تسعفهم فى ذلك ولا تطمعهم فيما ليسوا له بأهل. فإنه إذا نهض فى الأمور من ليس لها بأهل لم يحتملها وأفسدها. وقد أشار عثمان على من بالمدينة أن يستبدلوا بأموالهم فى الحجاز وجزيرة العرب أموالا بنواحى الكوفة وفارس على النحو الذي أوردنا. وقصده من ذلك أن يوجد فى هذه الأمصار قوما من أهل السابقة والفضل ليكونوا سادتهم وقادتهم وتنقطع أطماع غيرهم فى السياسة والرياسة. فلم يجد ذلك نفعا. بل زاد الأمر ونما غرس الفساد.

كان سعيد بن العاص لا يغشاه إلا نازلة أهل الكوفة ووجوه أهل الأيام وأهل القادسية والقراء والمتسمتون. وكان هؤلاء دخلته إذا خلا فإذا جلس مجلسا عاماً دخل عليه كل أحد. فجلس للناس يوماً ، فبينما هم جلوس يتحدثون قال حبيش الأسدى: ما أجود طلحة بن عبيد الله. فقال سعيد : إن من له مثل التشاسنج لحقيق أن يكون جواداً ،والله لو أن لى مثله لأعاشكم الله عيشاً رغداً ، فقال عبد الرحمن بن حبيش وهو حدث : والله لوددت أن هذا الملطاط لك - يعنى ما كان لآل كسرى على الفرات الذى يلى الكوفة - قالوا : فض الله فاك والله لقد هممنا بك ، فقال : أبوه حبيش : غلام فلا تجاوزه. فقالوا يتمنى له من سوادنا ؟ فقال. ويتمنى لك أضعافه. فقالوا : لا يتمنى لنا ولا له فقال ما هذا بكم ! فقالوا أنت والله أمرته بها وثار إليه الأشتر وابن ذى الحنكة وجندب وصعصعة وابن الكواء وكميل وعمير بن ضابىء فأخذوه وهب أبوه ليمنعه منهم فضربوهما حتى غشى عليهما وجعل سعيد يناشدهم وهم لا يلتفتون إليه حتى اشتفوا منهما. وسمعت بذلك بنو أسد فجاءوا

وفيهم طلحة فأحاطوا بالقصر وكثرت القبائل. ففزع الضاربون إلى سعيد وقالوا أفلتنا وتخلصنا ، فخرج سعيد إلى الناس ، فقال : أيها الناس قوم تنازعوا وتهاووا وقد رزق الله العافية ثم قعدوا وعادوا فى حديثهم وتراجعوا وسألهم وردهم ولما أفاق الرجلان قال لهما : أبكما حياة ؟ قالا : قتلتنا غاشيتك ، وقال : لا يغشونى والله أبداً فاحفظا على ألسنتكما ولا تجرئا على الناس. ففعلا. وحفظ عن سعيد أنه قال : إنما هذا السواد بستان قريش ، وكان حاضراً مالك بن كعب الأرحبي والأسود بن يزيد وعلقمة بن قيس النخعيان ومالك الأشتر وغيرهم فزادوا عليه وأساءوا إلى صاحب شرطته فمنعهم سعيد أن يسمروا عنده.

ولما انقطع رجاء أولئك النفر من غشيان مجلسه وقعدوا فى بيوتهم أقبلوا على الإذاعة وشتم عثمان وسعيد حتى لامه أهل الكوفة فى إرخاء الحبل لهم والسكوت عنهم على ما بهم من شر وكتب سعيد وأشرافهم إلى عثمان فى إخراجهم من الكوفة فكتب إليهم : إذا اجتمع ملأكم على ذلك فألحقوهم بمعاوية. فأخرجوهم إليهم فذلوا وانقادوا وخرجوا حتى أتوه. وقد كتب عثمان إلى معاوية. أن أهل الكوفة قد أخرجوا إليك نفراً خلقوا للفتنة فزعهم وقم عليهم فإن آنست منهم رشداً فاقبل منهم وإن أعيوك فارددهم عليهم. فلما قدموا على معاويه رحب بهم وأنزلهم كنيسة تسمى مريم وأجرى عليهم بأمر عثمان وكان يجرى عليهم بالعراق وجعل يتغذى معهم ويتعشى كذلك وطمع فى أن يكون إكرامه لهم قد أصلح من شأنهم. فقال لهم يوماً. إنكم قوم من العرب لكم أسنان وألسنة وقد أدركتم بالإسلام شرفاً وغلبتم الأمم وحويتم مراتبهم ومواريثهم. وقد بلغنى أنكم نقمتم قريشاً. وإن قريشا لو لم تكن عدتم أذلة كما كنتم. إن أئمتكم لكم اليوم جنة فلا تفترقوا عن جنتكم. وإن أئمتكم اليوم يصبرون لكم على الجوز ويحتملون منكم المؤنة. والله لتنتهن أو ليبتلينكم الله بمن يسومكم ثم لا يحمدكم على الصبر ثم تكونون شركاءهم فيما جررتم على الرعية فى

حياتكم وبعد موتكم. فقال رجل من القـوم وهو صعصعة : أما ما ذكرت من قريش فإنها لم تكن أكثر العرب ولا أمنعها فى الجـاهلية فتخوفنا أما ما ذكرت من الجنة فإن الجنة إذا اختـرقت خلص إلينا. فقال مـعاوية عرفتكم. الآن عـلمت أن الذى أغراكم على هـذا قلة العـقول وأنت خطـيب القوم ولا أرى لـك عقـلا. أعظم عليك أمـر الإسلام وأذكرك به وتذكـرنى الجاهلية وقد وعظتك وتزعم لما يجـنبك أنه يخترق ولا ينسب ما يـخترق إلي الجنة أخـزى الله أقواما أعظموا أمـركم ورفعوا إلى خلـيفكم. افقهوا ولا أظنكم تـفقهون أن قريشاً لم تعز فى جاهـلية ولا إسلام إلا بالله عز وجل ولم تكن بأكثـر العرب ولا أظنكم أشدهم ولكنهم كـانوا أكرمهم أحسابا وأمـحضهم أنسابا وأعظمهم أخطاراً وأكملهم مروءة ولم يمتنـعوا فى الجاهلية والناس يأكل بعضهم بعضا إلا بالله الذي لا يستذل من أعز ولا يوضع مـن رفع فبوأهم حرما آمنا يتخطف الناس من حولهم. هل تعرفون عربا أو عجـما سوداً أو حمراً إلا قد أصابه الدهر فى بلده وحرمته بدولة إلا ما كان من قريش فإنه لم يردهم أحد من الناس بكيد إلا جعل الله خده الأسفل حـتى أراد الله أن يستنقذ من أكرم وتبع دينه مـن هوان الدنيا وسوء مرد الآخرة فارتضى لذلك بخير من خلقه ثم ارتـضى له أصحابا فكان خيارهم قريشا ثم بنى هذا الملك عليهم وجعل هذه الخلافة فيهم فلا يصلح ذلك إلا عليهم فكان الله يحوطهم فى الجـاهلية وهم على كفـرهم بالله فتراه لا يحوطهم وهـم على دينه وقد حاطهم في الجاهلية من الملوك الذيـن كانوا يدينونكم ؟ أف لك ولأصحابك. ولو أن متكلما غيرك تكلم ، ولكنك ابتدأت.

وأما أنت يا صـعصعـة فإن قريتك شـر قرى عربيـة أنتنها نبتـاً وأعمقـها وادياً وأعرفها بالشر وألأمها جيرانـاً. لم يسكنها شريف قط ولا وضيع إلا سب بها وكانت عليه هجنـة ثم كانوا أقبح العرب ألقـاباً وألأمه أصهاراً نزاع الأمم وأنتـم جيران الخط وفعلة فارس. حتـى أصابتكم دعوة النبى صلى الله عليه وسلم ونـكبتك دعوته وأنت

نزيع شطير فى عمان لم تسكن البحرين فتشركهم فى دعوة النبى صلى الله عليه وسلم فأنت شر قومك حتى إذا أبرزك الإسلام وخلطك بالناس وحملك على الأمم التى كانت عليك أقبلت تبغى دين الله عوجاً وتنزع إلى اللآمة والذلة ولا يضع ذلك قريشا ولن يضرهم ولا يمنعهم من تأدية ما عليهم إن الشيطان عنكم غير غافل قد عرفكم بالشر من بين أمتكم فأغرى بكم الناس وهو صارعكم. لقد علم أنه لا يستطيع أن يرد بكم قضاء قضاه الله ولا أمراً أراده الله ولا تدركون بالشر أمراً أبداً إلا فتح الله عليكم شراً منه وأخزى. ثم قام وتركهم.

سمع القوم قوله فتذمروا وتقاصرت إليهم نفوسهم. ثم جاءهم معاوية فقال : لاوالله لا ينفع الله بكم أحداً ولا يضره ولا أنتم برجال منفعة ولا مضرة ولكنكم رجال نكير. وبعد فإن أردتم النجاة فالزموا جماعتكم وليسعكم ما وسع الدهماء ولا يبرطنكم الأنعام فإن البطر لا يعترى الخيار اذهبوا حيث شئتم فإنى كاتب إلى أمير المؤمنين فيكم.

ولما أرادوا الخروج دعاهم وقال لهم : إنى معيد عليكم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان معصوماً فولانى وأدخلنى فى أمره ثم استخلف أبو بكر فولانى ثم استخلف عمر فولانى ثم استخلف عثمان فولانى فلم آل لأحد منهم ولم يولنى إلا وهو راض عنى وإنما طلب رسول الله صلى الله عليه وسلم للأعمال أهل الجزاء عن المسلمين والغناء ولم يطلب لها أهل الاجتهاد والجهل بها والضعف عنها. وإن الله ذو سطوات ونقمات يمكر بمن مكر به فلا تعرضوا لأمور وأنتم تعلمون من أنفسكم غير ما تظهرون فإن الله غير تارككم حتى يختبركم ويبدى للناس سرائركم وقد قال عز وجل : **﴿ألم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنّا وهم لا يفتنون﴾**.

ثم كتب معاوية إلى عثمان يقول : إنه قدم على قوم ليست لهم عقول ولا أديان أثقلهم الإسلام وأضجرهم العدل. لا يريدون الله بشىء ولا يتكلمون بحجة إنما همهم الفتنة وأموال أهل الذمة والله مبتليهم ومختبرهم ثم فاضحهم ومخزيهم وليسوا

بالذين ينكون أحداً إلا مع غيرهم فإنه سعيدا ومن قبله عنهم فإنهم ليسوا لأكثر من شغب أو نكير.

خرج بعد ذلك القوم من دمشق فقالوا : لا ترجعوا إلى الكوفة فإنهم يشمتون بكم وميلوا بنا إلى الجزيرة ودعوا العراق والشام فأووا إلى الجزيرة وسمع بهم عبد الرحمن بن خالد بن الوليد. وكان على حمص فدعا بهم وقال يا آلة الشيطان لا مرحباً بكم ولا أهلا. قد رجع الشيطان محسوراً وأنتم بعد نشاط. خسر الله عبد الرحمن إن لم يؤدبكم حتى يحسركم. يا معشر من لا أدرى أعرب أم عجم لا تقولوا لى ما يبلغنى أنكم تقولون لمعاوية أنا ابن خالد بن الوليد أنا ابن من عجمته العاجمات. أنا ابن فاقىء الردة. والله لئن بلغنى يا صعصعة بن ذل أن أحداً ممن معى دق أنفك ثم أمصك لأطيرن بك طيرة بعيدة المهوى. فأقامهم شهراً كلما ركب أمشاهم. فإذا مر به قال يا ابن الحطيئة أعلمت أن من لم يصلحه الخير أصلحه الشر ؟ مالك لا تقول ما كان يبلغنى أنك تقول لسعيد ومعاوية ؟ فيقول ويقولون . نتوب إلى الله. أقلنا أقالك الله. فما زالوا به حتى قال : تاب الله عليكم. وسرح الأشتر إلى عثمان بالتوبة والندم والنزوع عنه وعن أصحابه وقال لهم : ما شئتم فاخرجوا.

وجاء الأمر من عثمان بإعادتهم إلى الكوفة ولكنهم أشفقوا من ذلك فبقوا فى الجزيرة.

وفى تلك الأثناء فرق سعيد العمال والأمراء فيما يليه من فارس فخلت الكوفة من الرؤساء والأشراف وأهل السابقة. وكان سعيد قد خرج إلى عثمان فلم يفجأ الناس إلا بهم قد عادوا إلى بغيهم وفسادهم. فلما أراد سعيد العودة إلى الكوفة تلقوه من الجرعة وردوه لا يريدون دخوله عليهم أميراً. فعاد إلى عثمان. فلم يغير من إرادة القوم وأرادوه على أن يولى عليهم أبا موسى الأشعرى فنزل عندما يريدون وولى عليهم أبا موسى وصرف سعيداً عنهم.

هكذا كانت الحال في الكوفة : غلب فيها الغوغاء على أهل الحلم ، وضعف سلطان الأمراء ، وقلت الطاعة ولم يبق لها فى قلوب القوم من أثر.

البصرة

البصرة هى الحاضرة الثانية للعراق ولم تكن الحال فيها بأحسن من الحال فى الكوفة ، فقد أوردنا فيما سبق تجنيهم على أبى موسى وعيبهم له حتى عزل واستبدل به عبد الله بن عامر. فكان له فى أعمال الفتوح بالكوفة أثر جيد وكانت إمارته تشمل أعمال البصرة وأعمال البحرين لثلاث سنين من إمارته وقد بلغه أن فى عبد القيس رجلاً نازلا على حكيم بن جبلة. وكان حكيم رجلا لصاً إذا قفلت الجيوش خنس عنهم فسعى فى أرض فارس فساداً ، فيغير على أهل الذمة ويتنكر لهم ويعيث فى الأرض ويصيب ما شاء ثم يرجع. فشكاه أهل الذمة وأهل القبلة إلى عثمان فكتب إلى عبد الله بن عامر يأمره بحبس حكيم ومن كان مثله بالبصرة فلا يخرجن منها حتى تأنسوا منه رشداً. فكان لا يستطيع أن يخرج عنها. فلما قدم ذلك الرجل المسمى عبد الله بن سبأ ويكنى بابن السوداء نزل عليه وكان يطرح للناس ولا يصرح ويلقى إليهم تعاليم خبيثة. وأصل هذا الرجل يهودى أظهر الإسلام ليضل الناس فصار يقول لهم : عجيب ممن يقول برجعة المسيح ولا يقول برجعة محمد. فيقبل منه الناس ذلك لأنهم من الجهلة الذين لم يتحققوا بالدين ولم ينلهم تهذيب الصحابة ولم يروضوا أنفسهم على الاقتداء. ثم يقول لهم عجباً لكم أيها المسلمون! يكون فيكم أهل بيت نبيكم يقصون عن أمركم ؟ إلى ما يماثل هذا الكلام الذى يسهل قبله لأنه جاءهم من قبل تعظيم نبيهم ورفعة مقامه على سائر الأنبياء ما هو قريب من ذلك من استهجان ترك آله وإقصائهم عن أمر خلافته. فنمى إلى ابن عامر شىء من خبره. أحضره وسأله من أنت ؟ فقال : رجل من أهل الكتاب رغب فى الإسلام ورغب فى جوارك. فقال ما يبلغنى ذلك فاخرج عنى. فخرج حتى أتى الكوفة فأخرج منها فسار إلى الشام ثم إلى مصر. وهناك وجد مهداً وطيئاً وجواً صالحاً وثرى ثرياً يجود فيه نبات بذره. بعد أن نفث ما نفث بالعراق فنما زرعه وأينع.

كان حمران بن أبان تزوج امـرأة فى عدتها فنكل به عثمان وفرق بيـنهما وسيره إلى البصرة فلزم عبـد الله بن عامر فتذاكروا يوماً الركوب والمرور بعـامر بن عبد قيس وكان رجلا عابداً منقبضا عن الناس على جـانب من الصلاح والخير. فقال حمران : ألا أسبقكم فأخبره ؟ فخرج فدخل عليه وهو يقرأ فى المصحف ، فقال : الأمير أراد أن يمر بك فأحـببت أن أخبـرك ، فلم يقطع قراءته ولم يقـبل عليه. فقـام من عنده خارجا. فلمـا انتهى إلى الباب لقيـه ابن عامر فقال : جئـتك من عند امرىء لا يرى لآل إبراهيم عليـه فضلا. واستـأذن ابن عامر فدخل عليـه وجلس إليه فأطبـق عامر المصحـف وحدثه ساعـة. فقال لـه ابن عامر : ألا تـغشانا ؟ فـقال : سعـد بن أبى العوجاء يحـب الشرف. فقال : ألا نستـعملك ؟ فقال : حصـين بن أبى الحر يحب العمل. فقال : ألا نزوجك ؟ فقال : ربيعة بن عسل يعجبه النساء. فقال ابن عامر : إن هذا يزعم أنك لا ترى لآل إبراهيم عليك فضلا ؟ فصفح المصحف ، فكان أول ما وقع عليـه وافتـتح منه ﴿**إن الله اصطـفى آدم ونوحـا وآل إبـراهيم وآل عـمـران عـلى العالمين**﴾.

فلما رد حـمران إلى المدينة تـتبع ذلك منه فـسعى به وشهـد له أقوام. فسـيره عثمان إلى الشـام ، كان ما سعوا به عند عثمـان أنه لا يرى التزويج ولا يأكل اللحم ولا يشهد الجمعة وكان مع عامر انقباض وكان عمله كله خفية. فلما قدم على معاوية وافقه وعنده ثريده فأكل أكلا عربياً ، فعرف أن الرجل مكذوب عليه. فقال معاوية : يا هذا هل تدرى فيم أخـرجت ؟ قال : لا. قال : أبلغ الخليفـة أنك لا تأكل اللحم ورأيتك وعرفت أن قـد كذب عليك ، وأنك لا ترى التـزويج ، ولا تشهد الجـمعة. قال : أما الجـمعة فإنى أشهـدها فى مؤخر المسجد ثـم أرجع فى أوائل الناس ، وأما التزويج فإنى خرجت وأنا يخطب على. وأمـا اللحم فقد رأيت ولكننى كنت أمرأ لا آكل ذبائح القصـابين منذ رأيت قصابا يجـر شاة إلى مذبحهـا ثم وضع السكين على مذبحها فما زال يقول النفاق حتى وجبت. فقال : فارجع. فقال : لا أرجع إلى بلد استحل أهله منى ما استحلوا ، ولكنى أقيم بهذا البلد الذى اختاره الله لى.

مصر

أما الأمر فى مصر فكان أشد منه فى العراق. فإن عبد الله بن سبأ لما جاء إليها ألقى بذور فتنته وأذاع بين الناس تعاليمه ، بعد أن استفسد كثيراً من أهل البصرة والكوفة ، وخاب أمله من أهل الشام ، فكان يقول لهم فيما يقول : العجب ممن يزعم أن عيسى يرجع ويكذب بأن محمداً يرجع والله تعالى يقول : **﴿إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد﴾** فمحمد أحق بالرجوع من عيسى. فقبل ذلك عنه وبذلك وضع لهم الرجعة فتكلموا فيها بالأخذ والرد طبعاً. ثم قال لهم بعد ذلك أنه كان ألف نبى ولكل نبى وصى وكان على وصى محمد. ثم قال : محمد خاتم الأنبياء وعلى خاتم الأوصياء ، ثم قال بعد ذلك : من أظلم ممن لم يجز وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم ووثب على وصى رسول الله صلى الله عليه وسلم وتناول أمر الأمة ؟ ثم قال لهم بعد ذلك : إن عثمان أخذ الخلافة بغير حق ، وهذا وصى رسول الله ، فانهضوا فى هذا الأمر فحركوه وابدءوا بالطعن على أمرائكم وأظهروا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر تستميلوا الناس وادعوهم إلى هذا الأمر. فبث دعاته وكاتب من كان استفسد فى الأمصار وكاتبوه. ودعوا فى السر إلى ما عليه رأيهم. وجعلوا يكتبون إلى الأمصار بكتب يضعونها فى عيب ولاتهم ويكاتبهم إخوانهم بمثل ذلك ويكتب أهل كل مصر منهم إلى مصر آخر ما يصنعون فيقرؤه أولئك فى أمصارهم وهؤلاء حتى تناولوا بذلك المدينة وأوسعوا الأرض إذاعة وهم يريدون غير ما يظهرون ويسرون غير ما يبدون. فيقول أهل كل مصر إنا لفى عافية مما ابتلى به هؤلاء. إلا أهل المدينة فإنهم جاءهم ذلك عن جميع الأمصار فقالوا : إنا لفى عافية مما فيه الناس.

المدينة مجتمع المهاجرين والأنصار ومركز الخلافة ، ووجوه أهل الأمصار إنما تتجه بالشكاية فى المهمات إليها ويعولون على أهلها فى إزاحة ما بهم من غمة وتفريج ما لحقهم من كرب ، وأهل المدينة يحسون بذلك من أنفسهم ومن أهل

الأمصار. فلا غرو أن حرك ذلك من نفوسهم ودفعهم ذلك إلى مخاطبة أمير المؤمنين عثمان بما دخل على الناس من عماله مما شرحته الشكوى من كل ناحية وصوب - فقالوا يا أمير المؤمنين أيأتيك عن الناس ما يأتينا ؟ قال : لا ، والله ما جاءنى إلا السلامة. فقالوا : إنا قد جاءنا كيت. وكيت وأخبروه بالذى أسقطوا إليهم. فقال : أنتم شركائى وشهود المؤمنين فأشيروا على. فقال نشير عليك أن تبعث رجالا ممن تثق بهم إلى الأمصار حتى يرجعوا إليك بأخبارهم.

رأى عثمان صواب ما أشاروا به ، فدعا محمد بن مسلمة فأرسله إلى الكوفة وأرسل أسامة بن زيد إلى البصرة وأرسل عمار بن ياسر إلى مصر وعبد الله بن عمر إلى الشام وفرق رجالا سواهم فى جهات أخرى ، فذهب كل رجل لطيته ثم رجعوا جميعاً قبل عمار وقالوا : أيها الناس ما أنكرنا شيئاً ولا أنكره أعلام المسلمين ولا عوامهم. وقالوا جميعاً : الأمر أمر المسلمين. إلا أن أمراءهم يقسطون بينهم ويقومون عليهم. واستبطأ الناس عماراً حتى ظنوا أنه اغتيل. فلم يفاجأهم إلا كتاب من عبد الله بن أبى سرح يخبرهم أن عماراً قد استماله قوم بمصر وقد انقطعوا إليه. منهم عبد الله بن السوداء وخالد بن ملجم وسودان بن حمران وكنانة بن بشر. وكان كنانة من المؤلبين على عثمان.

أقول : أما أشد المؤلبين على عثمان بمصر. فهما رجلان : أحدهما محمد بن أبى حذيفة ، وكان الذى أغراه بذلك أنه كان يتيماً فى حجر عثمان فكان عثمان والى أهل بيته ومحتمل كلهم. فسأل محمد عثمان العمل حين ولى ، فقال : يا بنى لو كنت رضا ثم سألتنى العمل لاستعملتك ولكن لست هناك. قال فأذن لى فلأخرج فلأطلب ما يقوتنى. قال اذهب حيث شئت. وجهزه من عنده وحمله وأعطاه. فلما وقع إلى مصر كان فيمن تغير على عثمان أن منعه الولاية. ولا يبعد أن يكون لتولية عبد الله بن عامر أثر فى زيادة حقده على عثمان وإيغاله في بغضه والكيد له.

ثانيهما : محمد بن أبى بكر - ومحمد بن أبى بكر من الإسلام بالمكان العظيم غير أنه قد غره أقوام فطمع وكانت له دالة بمكان أبيه من رسول الله وسابقته وخلافته وأخوة عائشة أم المؤمنين. فلزمه حق فأخذه عثمان من ظهره ولم يدهن فاجتمع محمد بن أبى حذيفة إلى محمد بن أبى بكر وقد ألف بينهما بغض عثمان ومكن بينهما الصداقة.

وأول ما ظهر ذلك منهما حين ركب الناس البحر سنة ٣١ فى غزورة ذات الصوارى وسيأتى خبرها. إذ صلى عبد الله بن أبى سرح بالناس العصر ، فكبر محمد بن أبى حذيفة تكبيراً رفع صوته به حتى فرغ عبد الله بن سعد من صلاته فقال له : ما هذه البدعة والحدث ؟ فقال محمد بن أبى حذيفة : ما هذه بدعة ولا حدث وما بالتكبير بأس. فقال : لا تعودن. فلما صلى المغرب عاد فكبر بصوت أرفع. فأرسل إليه : إنك لغلام أحمق ، أما والله لولا أنى لا أدرى ما يوافق أمير المؤمنين لقاربت بين خطوطك (يريد تقييده). فقال محمد بن أبى حذيفة : والله مالك إلى ذلك سبيل ولو هممت به ما قدرت عليه. قال فكف خير لك. وركب محمد فى مركب ليس فيه معه مسلم وإنما فيه القبط وركب معه فيه محمد بن أبى بكر.

فلما أذن الله بهزيمة الروم ورجع المسلمون جعل محمد بن أبى حذيفة يقول للرجل أما والله لقد تركنا خلفنا جهادا. فيقول الرجل وأى جهاد ؟ فيقول : عثمان ابن عفان فعل كذا وكذا. وأظهر هو ومحمد بن أبى بكر عيب عثمان وما غير وما خالف به أبا بكر وعمر وإن دم عثمان حلال. ويقولان : استعمل عبد الله بن سعد رجلا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أباح دمه ونزل القرآن بكفره وأخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم قوما وأدخلهم ونزع أصحاب رسول الله واستعمل سعيد بن العاص وعبد الله بن عامر - وكنا حين التقى الجمعان أنكل المسلمين فى القتال. فقيل لهما فى ذلك. فقالا كيف نقاتل مع رجل لا ينبغى لنا أن نحكمه ؟ عبد الله بن أبى

سرح أستعمله عثمان وعثمان فعل وفعل. فأفسدا أهل الغزاة. وعلم بذلك عبدالله بن سعد فأرسل ينهاهما أشد النهى.

أما سبب ميل عمار بن ياسر إلى المؤلبين علـى عثمان والطاعنين فيه فإنه كانت عنده موجدة على عثمان. سببها أنـه كان بينه وبين عباس بن عتبة بن أبى لهب كلام أدى إلى تقاذفهما. فضربهما عثـمان على ذلك. وقليل من كان فى قلبه موجدة على إنسان ثم لا يصيخ إلى القول فيه والعيب له.

الشام

أما الحال فى الشام فقد كانت أحـسن منها في هذه الأمصار التى ذكرنا - ذلك أن معاوية من الحزم والضبط بالمكان الذى لا يجـهل. ومثل بضاعة بن السوداء لا تجد نفاقا تحت رعايته وإذا وجدت فإنه يعاجل الداء بحسمه.

كان بالشام حادثة اسـتغلها الثوار المؤلبون فى التشنيع على عـثمان والتأريث له ولعمالـه. غير أن معاوية اسـتأصل الداء من ناحيـته ونحي عنه ما ابتلى بـه غيره من العمال. ولذلـك بقى أهل ولاياته الوسعة على طاعـته والولاء له ملقين إليه بالمـقاليد يصرفهـم كما يهوى وهم لا يخـالفون عن أمره ولا يرغبـون بأنفسهم عن نفـسه ولم تخبث نفوسهم بماخبثت نفوس الناس فى الأمصار.

ذلك أن ابن السـوداء لما جاء إلى الشام وهو مـن الخبث والدهاء بحـيث يعرف مأتى الأمور ويأتى إلى كل شىء من بابه ويفضى إلى كل رجل بما يغلب على ظنه أنه يوافقه. فهو إنمـا يجىء إلى الناس بدسائسه من الجانب الضعيـف الذى يأنسه فيهم - ومعلوم أن أبا ذر رضى الله عنه كان رجـلا صالحاً تقياً متقشـفا لا يحب الإمساك ولا يميل إلى الادخار ذا شفقة على الفقيـر والمسكين. فجاء إليه ابن السوداء وقاله له : يا أبا ذر ، ألا تعجب من معاوية يقول : المال مال الله - ألا إن كل شىء لله. كأنه يريد أن يحتجـنه دون المسلمين ويمحو اسم المسلمين. فـجاء أبو ذر إلى معاوية فـقال : ما

يدعوك إلى أن تسمى مال المسلمين مال الله ؟ قال يرحمك الله يا أبا ذر ألسنا عباد الله؟ والمال ماله والخلق خلقه والأمر أمره ؟ قال : فلا تقله. قال : فإنى لا أقول أنه ليس لله ولكن سأقول مال المسلمين. وأتى ابن السوداء أبا الدرداء - فقال له : من أنت أظنك والله يهوديا - فأتى عبادة بن الصامت. فتعلق به وأتى معاوية. فقال : هذا والله الذى بعث عليك أبا ذر. وقام أبو ذر بالشام وجعل يقول : يا معشر الأغنياء واسوا الفقراء. بشر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله بمكاو من نار تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم فما زال حتى ولع الفقراء بمثل ذلك وأجبوه على الأغنياء. وحتى شكا الأغنياء ما يلقون من الناس.

فكتب معاوية إلى عثمان أن أبا ذر قد أعضل بى وقد كان من أمره كيت وكيت. فكتب إليه عثمان : إن الفتنة قد أخرجت خطمها وعينيها فلم يبق أن تثب فلا تنكأ القرح. وجهز أبا ذر إلى وابعث معه دليلا وزوده وارفق به وكفكف الناس نفسك ما استطعت. فإنك تمسك الأمر ما استمسكت فبعث بأبى ذر ومعه دليل. فلما قدما المدينة ورأى المجالس فى أصل سلع. قال بشر أهل المدينة بغارة شعواء وحرب مذكار. ولما دخل على عثمان قال له : يا أبا ذر. ما لأهل الشام يشكون ذر بك. فأخبره أنه لا ينبغى أن يقال مال الله. ولا ينبغى للأغنياء أن يقتنوا مالا. فقال : يا أبا ذر ، على أن أقضى ما على . وآخذ ما على الرعية ولا أجبرهم على الزهد ، وأن أدعوهم إلى الاجتهاد والاقتصاد. قال أفتأذن لى فى الخروج. فإن المدينة ليست لى بدار قال أو تستبدل الأشرا منها ؟ قال أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أخرج منها إذا سلعا. قال فأنفذ ما أمرك به. فخرج أبو ذر حتى نزل الربذة فخط بها مسجداً وأقطعه عثمان صرمة من الإبل. وأعطاه مملوكين وأجرى عليه كل يوم عطاء وأرسل إليه أن تعاهد المدينة حتى لا ترتد أعرابيا - وذلك أنه كان الأمر فى المسلمين على أن من سكن المدينة حرم التبدى لما فى ذلك من تقليل سواد المسلمين وهجر العلم بالدين والانغماس مع الأعراب الجفاة الغلاظ الأكباد مع بعدهم عن الدين

ومذاهبه وجهلهم بحلاله وحرامه وقد مكث ذلك الأمر دهراً طويلا يرون ذلك. ولولا ما رواه أبو ذر من حديث رسول الله لم يرخص له عثمان فى ذلك.

وقد روى الطبرى سوى ما قدمنا أن أبا ذر كان يختلف إلى المدينة من الربذة مخافة الأعرابية وكان أبو ذر يحب الوحدة والخلوة. فدخل على عثمان وعنده كعب الأحبار. فقال لا ترضوا من الناس بكف الأذى حتى يبذلوا المعروف وقد ينبغى للمؤدى الزكاة أن لا يقتصر عليها حتى يحسن إلى الجيران والإخوان ويصل القرابات. فقال كعب الأحبار : من أدى الفريضة فقد قضى ما عليه ، فقال له أبو ذر : يا بن اليهودية ما أنت وما هاهنا ؟ والله لتسمعن منى أو لأدخلن عليك. ورفع محجنه فضربه فشجه ، فاستوهبه عثمان فوهبه له ، وقال يا أبا ذر اتق الله واكفف يدك ولسانك.

إن الناظر إلى أبى ذر. وهو أول قائل بالاشتراكية فى الإسلام يراه قد أوغل فيها شوطاً بعيداً وانتظم ما بين بابها ومحرابها فى خطوة واحدة. قال صاحب أشهر مشاهير الإسلام : على أن التوسط فى هذا المذهب هو المطلوب وليس هو فوق طاقة النفوس كما يتخيله بعض الشرهين فى المال المغالين فى حب الذات لو استمسك المسلمون بعروته وحملهم الخلفاء على طريقته لكانوا أعز الأمم جانبا وأسعدها حالا. إذ خلق التعاون على البر إذا نشأ بنشوء الأمة وتمكن من نفوسها يصير مع الزمن ملكة راسخة فى الصدر تنمو بنمو الحياة القومية ا هـ.

والذى أراه أن أبا ذر عمد إلى طريقته الاشتراكية غير مبين حدودها ولا معالمها - وطريقة كهذه ربما كان إثمها أكبر من نفعها. لأن أصحاب الجد والعمل يسعون ويكدون ويتعبون أجسامهم وعقولهم ثم لا ينالهم من عملهم إلا كما يناله الكسول المريح ، لا يمكن أن يقبل هذا عاقل ولا يرتاح له نفس عمرانى.

وقد جاء فى شخوص أبى ذر من الشام إلى المدينة ثم إلى الربذة روايات أضرب الطبرى وابن الأثير عن روايتها وسار على ذلك محققو المؤرخين علما منهم

بضعف تلك الروايات - وقد توفى أبو ذر رضى الله عنها بالربذة سنة ٣٢ هـ وكان قد أقام بها ثلاث سنين وقد حضر دفنه جماعة من أصحاب رسول الله فيهم ابن مسعود.

أما الحال فى المدينة فقد كانت أشد. فإن تلك الكتب التى كان يرسلها السبئيون كانت سبباً لكثرة الحديث فى شأن عمال عثمان وفشو القالة حتى تأثرت بذلك نفوس الكثير من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم. وفيهم الحاقد على عثمان لأسباب تخصه والكاره لمكانه. حتى كأن هذه الكتب كانت النار وافقت الحلفاء وقد بلغ الأمر ببعضهم أن واجه عثمان بما يسوءه فكان يتجاوز لهم عن ذلك ويصبر وسيمر بنا شيء من ذلك.

ابتداء العمل فى الفتنة

كان ما تقدم إذاعة باللسان وإشاعة للسوء يالمكاتبات بين الموتورين والساخطين والموضعين فى الفتنة ، فلما اختمرت فكرة الشغب فى النفوس بدأت تظهر بالعمل. وكان بدء ذلك أن سعيد بن العاص ذهب من الكوفة إلى المدينة وقد تفرق رؤساء الناس وأشرافهم فى بلاد فارس إلى أعمالهم وخلت الكوفة منهم فانتهز يزيد بن قيس ذلك وجاء المسجد وهو يريد خلع عثمان فانقض عليه القعقاع بن عمرو فأخذه ويزيد يقول : إنما نستعفى من سعيد ، فقال هذا ما يعرض لكم فيه لا تجلس لهذا ولا يجتمعن إليك واطلب حاجتك فلعمرى لتعطينها. فجلس فى بيته واستأجر رجلا وأعطاه بغلا وكتب إلى القوم الذين بالجزيرة - لا تضعوا كتابى من أيديكم حتى تجيئوا. فأبوا فى أول الأمر حتى خرج مالك بن الحارث الأشتر عاصياً إلى الكوفة. فلما رأوا ذلك منه لحقوا به يريدون الكوفة فقدمها قبلهم ولم يشعر الناس إلا وهو على باب المسجد فى يوم جمعة يقول : أيها الناس إنى قد جئتكم من عند أمير المؤمنين عثمان وتركت سعيداً يريده على نقصان نسائكم إلى مائة درهم ورد أهل البلاء منكم إلى ألفين ، ويقول ما بال أشراف النساء وهذه العلاوة بين هذين العدلين؟ ويزعم أن فيأكم بستان قريش. وقد سايرته مرحلة فما زال يرجز بذلك حتى فارقته يقول :

ويل لأشراف النساء منى صمحمح كأننى من جن

فاستخف الناس بذلك وجعل أهل الحجى والرأى ينهونهم فلا يسمع منهم وأمر يزيد بن قيس منادياً ينادى : من شاء أن يلحق سعيد بن قيس لرد سعيد وطلب أمير غيره فليفعل.

وقام عمر بن حريث خليفة سعيد يعظ الناس ويسكنهم فلم يسمعوا لقوله وقال له القعقاع بن عمرو. أترد السيل عن عبابه ؟ فاردد الفرات عن أدراجه هيهات ، لا والله لا تسكن الغوغاء إلا المشرفية ويوشك أن تنتضى ثم يعسجون عجيج العسدان ويتمنون ما هم فيه فلا يرده الله عليهم أبداً.

خرج القوم إلى الجرعة كما قدمنا ثم قدم سعيد ومعه مولى له فوجد القوم يناهزون الألف. فقالوا له : لا نريد أن تدخل علينا والياً. فقال لهم : هل يخرج الألف لهم عقول إلى رجل واحد ؟ إنما كان يكفى أن ترسلوا لى رجلا وإلى أمير المؤمنين رجلا واحداً ثم رجع وقد قتلوا مولاه. وأخبر عثمان بالذى كان منهم فقال : فمن يريدون ؟ قال : أبا موسى. فقال : قد أثبتنا أبا موسى عليهم ووالله لا نجعل لأحد عذراً ولا نترك لهم حجة ولنصبرن كما أمرنا حتى نبلغ ما يريدون.

وفى رواية للطبرى : أنه اجتمع ناس من المسلمين فتذاكروا أعمال عثمان وما صنع فاجتمع رأيهم على أن يبعثوا إليه رجلا يكلمه ويخبره بأحداثه. فأرسلوا إليه عامر بن عبد الله التميمى الذى يعرف بعامر بن عبد قيس فأتاه فدخل عليه وقال : إن ناساً من المسلمين اجتمعوا فنظروا فى أعمالك فوجدوك قد ركبت أموراً عظاماً فاتق الله عز وجل وتب إليه وانزع عنها. فقال عثمان : انظروا إلى هذا فإن الناس يزعمون أنه قارىء ثم يجرىء فيكلمنى فى المحقرات فوالله ما يدرى أين الله. فقال عامر : أنا لا أدرى أين الله ؟ قال : نعم والله ما تدرى أين الله. قال عامر : بلى والله إنى لأدرى أن الله بالمرصاد لك.

بعد ذلك أرسل عثمان إلى عماله وبعض من معه من غيرهم ليؤامرهم فى هذه الإذاعات التى أزعجته وصيرت أهل المدينة بين المقيم المقعد - فاستقدم معاوية بن أبى سفيان وعبد الله بن سعد بن أبى سرح وسعيد بن العاص (كان بالمدينة) وعبد الله بن عامر. وعمرو بن العاص (وكان بالمدينة) فجمعهم ليشاورهم فى أمره وما طلب إليه. وما بلغه عن عماله منهم - وقال لهم : إن لكل امرىء وزراء ونصحاء وإنكم وزرائى ونصحائي وأهل ثقتى. وقد صنع الناس ما قد رأيتم وطلبوا إلى أن أعزل عمالى وأن أرجع عن جميع ما يكرهون إلى ما يحبون فاجتهدوا رأيكم. وقال عبدالله بن عامر : رأيى لك يا أمير المؤمنين أن تأمرهم بجهاد يشغلهم عنك وأن تجمرهم فى المغازى حتى يذلوا لك فلا يكون همة أحدهم إلا نفسه وماهو فيه من دبر دابته وقمل فروته (ونعم الرأى رأيه). ثم أقبل عثمان على سعيد بن العاص فقال له : ما رأيك ؟ فقال : يا أمير المؤمنين إن كنت تريد رأينا فاحسم عنك الداء واقطع عنك الذي تخاف واعمل برأيي تصب. قال: وما هو ؟- قال: إن لكل قوم قادة متى تهلك بتفرقوا ولا يجتمع لهم أمر (يريد أن ينكل برؤوس أهل الفتن) فقال عثمان : هذا هو الرأى لولا ما فيه. ثم قال لمعاوية ما رأيك ؟ قال يا أمير المؤمنين ما أرى أن ترد عمالك على الكفاية لما قبلهم وأنا ضامن لك قبلى. ثم قال لعبد الله بن سعد ما رأيك ؟ فقال : أرى يا أمير المؤمنين أن الناس أهل طمع فاعطهم من هذا المال تعطف عليك قلوبهم (وهوحق لو اتسع له بيت المال) ثم قال لعمرو بن العاص : ما رأيك ؟ قال : أرى أنك قد ركبت الناس بما يكرهون. فاعتزم أن تعتدل فإن أبيت فاعتزم أن تعتزل. فإن أبيت فاعتزم عزما وامض قدماً - فقال عثمان مالك قمل فروك ، أهذا الجد منك ؟ فسكت عمرو عنه حتى إذا تفرق القوم قال له : لا والله يا أميرالمؤمنين لأنت أعز على من ذلك ولكنى علمت أن سيبلغ الناس قول كل رجل منا. فأردت أن يبلغهم قولى فيثقوا بى. فأقود إليك خيراً أو أدفع عنك شراً.

والذى أعتقده أن مبدأ إحساس القوم بضعف عثمان الكتاب الذى كتبه إلى أهل

الكوفة حين استعفوه من سعيد بن العاص وردوه من الجرعة وقتلوا مولاه وطلبوا أبا موسى والياً عليهم فكتب إليهم عثمان "بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد. فقد أمرت عليكم من اخترتم وأعفيتكم من سعيد. والله لأفرشنكم عرضى ولأبذلن لكم صبرى ولأستصلحنكم بجهدى فلا تدعوا شيئاً أحببتموه لا يعصى الله فيه إلا سألتموه ولا شيئاً كرهتموه لا يعصى الله فيه إلا استعفيتم منه أنزل فيه عند ما أحببتم حتى لا يكون لكم على حجة" وكتب بمثل ذلك إلى الأمصار وهى نغمة جديدة لم يسمع الناس مثلها من عمر بن الخطاب جاءت على إثر شكوى وتذمر. قد تؤثر فى الكريم ولكن اللئم يعتدها ضعفا يزيده ضراوة على الفتنة وولوعا بإشاعة السوء وإذاعته. فهو زلة من عثمان يغفر الله له - وكتاب مفتوح يعلن فيه ضعفه ووهن قوته فلا غرو أن اجترأوا عليه بعده بما اجترأوا.

قبل سرد ما حصل فى شأن الفتنة مما سأسرده أحب أن أدلى بكلمة تنير الموضوع وتلقى عليه شعاعا من الجلاء والوضوح :

مما جرت به سنة الوجود أن أى بلد من البلاد أو مصر من الأمصار لا يخلو من أناس محدودين مغموسين فى الناس لم يتهيأ لهم الظهور ولم يوفقوا لأن يكونوا من أرباب الثراء وهم يزنون أنفسهم بغير ميزانهم ويقدرون لأنفسهم ثمنا لا يسومهم الناس بعشر معشاره فهم راضون عن أنفسهم كل الرضا ساخطون على من عداهم يتبرمون بالفلك ويتسخطون على القدر. ولا ينسبون تأخرهم لعيب فيهم أو نقص فى استعدادهم لتسنم المعالى. ولكنهم يعمدون إلى الدولة والقائمين بها يستذنبونهم فى تأخرهم ويلزمونهم جناية فقرهم وعدم مواتاة الجد لهم. فهم يتمنون تغيير الدولة ويستبطئون أحداث الاستبدال من أهلها ويتكهنون حؤول الأحوال ويوقتون لذلك المواقيت ويتربصون نزول الدوئر لأنهم يستروحون ريح الفرج من ناحية التقلبات ويرون أن حظهم لا يطلق من وثاقه إلا إذا سقط الأمير القائم وقام غيره ممن يمتون إليه بالوسائل قبل الولاية.

إذا لم يكن للمرء في دولة امرىء نصيب ولا حظ تمنى زوالهـــا
وما ذاك من بغـض له غـير أنـــه يرجى سواها فهو يهوى انتقالها

ومن كانوا كذلك يكون لهم ولوع بإشاعة الإشـاعات الرديئة وإذاعة أنباء السوء وتثبيت الظنون وتوهين اليقين واستفـزاز من يمكن استفزازه إلى إحداث الفتن وتعجيل التغيير والتقرب إلى من يظن فيه القدرة على ذلك.

ولا يخلو الحل من أن يكون بالمدينة قوم على هذه الشريطة ينفخون في كل نار، كلما خـبت زادوها سعيراً. ويزيد نـيران حقدهم اشتـعالا ما يرونه من اخـتصاص ذوى السلطـان غيـرهم من أهل البـلاء والغناء في نـظرهم بالتـأميـر على الأمـصار وتقليدهم العمالات وهم قابعون في أكسـار بيوتهم. وقد كان لهم في بعض ما يؤخذ على عثمان حجة يستترون وراءها.

إذا تمهـد هذا فلـيس من البـعيـد أن تكـون إذاعات هذا الـضرب مـن الناس وإشاعاتهم قد بـلغت من الكثرة في المدينة حداً غير قلـوب أصحاب رسول الله على عثمان حتـى تكاتبوا مع الخارجين عن المدينة يقولون لهم : أن اقدمـوا علينا فإن كنتم تريدون الجهـاد فعندنا الجهـاد، وكثر الناس على عثـمان ونالوا منه أقبـح ما نيل من أحد، وأصحاب رسول الله يرون ويسمعـون وليس فيهم أحد ينهى ولا يذب إلا نفراً : زيد بن ثابت، وأبو أسيد الساعدى، وكعب بن مالك وحسان بن ثابت. فاجتمع الناس وكلمـوا على بن أبي طالب. فـدخل على عثمـان فقال : النـاس ورائى وقد كلمونى فيك. والله ما أدرى ما أقول لك وما أعرف شيئاً تجهله ولا أدلك على أمر لا تعرفـه. إنك لتعلم مـا نعلم. ما سـبقناك إلى شيء فـنخبرك عنه ولا خـلونا بشيء فنبلغكه وما خصصنا بأمر دونك. وقد رأيت وسمعت وصحبت رسول الله صلى الله عليه وسلم ونلت صـهره وما ابن أبى قحافة بأولى بـعمل الحق منك ولا ابن الخطاب بأولى بشيء من الخير منك وأنت أقرب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رحماً. ولقد نلت من صهـر رسول الله ما لم ينالا ولا سبقاك إلـى شيء فالله الله في نفسك

فإنك والله ما تبـصر من عمى ولا تعلم من جهل وأن الـطريق لواضح بين وأن أعلام الدين لقائمة. تعلم يا عثمان أن أفضل عباد الله عند الله إمام عادل هُدِى وهَدَى فأقام سنة معلومة وأمات بدعة متروكة ، فو لله إن كلا لبين ، وإن السنن لقائمة لها أعلام، وإن البدع لقائمة لها أعلام ، وإن شـر الناس عند الله إمام جائر ضل وضُلَّ به فأمات سنة مـعلومة وأحيـا بدعة متـروكة. وإنى سمـعت رسول الله صلى الله عليـه وسلم يقول: **"يؤتى يوم القيامة بالإمام الجائر وليس له نصير ولا عاذر فيلقى فى جهنم فيدور كمـا تدور الرحى ثم يرتطـم فى غمرة جـهنم"**. وإنى أحـذرك الله وأحذرك سـطوته ونقماته فإن عذابه شديد أليم، وأحذرك أن تكون إمام هذه الأمة المقتول. فإنه يقال : يقتل فى هذه الأمـة إمام فيفتح عـليها القتل والقـتال إلى يوم القيامـة وتلبس أمورها عليها ويتركهم شيعاً فلا يبصرون الحق لعلـو الباطل يموجون فيها موجاً ويمرجون فيها مرجاً.

سمع عثمان ذلك الكلام فقـال : قد والله علمت ليقولن الذى قلت. أما والله لو كنت مكانى ما عـنفتك ولا أسلمتك ولا عبت عليـك ولا جئت منكراً أن وصلت رحماً وسددت خلة وآويت ضائعا. ووليت شبـيها بمن كان عمر يولى. أنشدك الله يا على هل تعلم أن المـغيرة بن شعـبة ليس هناك ؟ قال : نـعم. قال : فتعلـم أن عمر ولاه؟ قال نعم قال فلم تلومنى أن وليت ابن عامـر فى رحمه وقرابته ؟ قال. على : سأخبرك أن عمر بن الخطاب كان كل من ولى فإنما يطأ على صماخة. أن بلغه حرف جلبه ثم بلغ به أقصى الغاية. وأنت لا تفـعل - ضعفت ورققت على أقربائك - قال عثمان : هل تعلم أن عمر ولى معاوية خلافته كلها. فقد وليته. فقال على : أنشدك الله : هل تعلم أن معاوية كـان أخوف من عمر من يرفأ غلام عـمر منه ؟ قال نعم. قال على : فإن معاوية يقتطع الأمور دونك وأنت تعلمها فيقول للناس هذا أمر عثمان فيبلغك ولا تغير على معاوية. ثم خرج على من عنده.

إذا كان ما فى رواية هذا الحـديث صحيحا (وهى رواية الواقدى نـقلها الطبرى وتابعه عليها ابن الأثير) فإن عثمان لا حجة له فيما يقول - ذلك أن الولاية إنما يقصد

بها مصلحة المسلمين وكفاية المهم من أمورهم فى الناحية التى يكون بها الوالى. أما كون الولاية يقصد بها صلة الرحم وسد خلة ذى الخلة وإيواء الضائع من أقارب الخليفة وذوى رحمه. فلا يمكن أن يوافق عليها أحد. ولقد كان فى بنى عدى ومن هم من ذوى أنساب عمر دنيا ضائعون وذوو خلة لهم رحم ماسة وعرق واشجة، فلم يشأ عمر إيثارهم لقرابتهم أو رحمهم ولا لأى اعتبار آخر، وهؤلاء عمال رسول الله ما كان يختارهم من ذوى قرابته ولا يؤثرهم ابتغاء صلة الرحم فى الأعمال - التى يشترط فيها قبل كل شىء الكفاءة - ولست بهذا أقصد عيب العمال في أعمالهم أو أنتقص من كفاءتهم. وإنما أحاكم جواب عثمان لعلى فيما أجاب به فإنه جواب أراه غير سديد.

ولا يفوتنى قبل أن أترك هذا المقام أن أذكر ما يخالج نفسى أمام هذه العوامل التى كانت تأخذ عثمان من كل ناحية - ذلك أن عثمان كان رجلا سليم القلب طاهر الضمير بعيداً عن الخب والنفاق وسوء الظن بالناس. فكان حسن الظن بأقاربه وذوى رحمه ثم انضاف إلى هذا رقة قلبه وشدة حنانه عليهم وحبه لنفعهم واستيقانه بأنهم يعاونونه على أمره ويؤازرونه على سياسة الرعية وأنهم خير من يقوم له بذلك لحبهم له وعطفهم عليه - كان منه ذلك فى الوقت الذى خمدت فيه جمرة الشباب وانطفأت وقدة الحداثة وقد رهقه ضعف الشيخوخة واستولى عليه تهاون أهل الهرم وتسامحهم واستصغارهم الأمور وإن جلت. فأورث ذلك فى أنفس الناس شيئاً كثيراً.

فإن الصحابة كانوا يرونه يتخطى رقابهم بالأعمال ويوليها ذوى قرابته وفيهم الأحداث ومن لم تقدمهم السن. وفى أبناء الصحابة وأهل السابقة من يرى لنفسه ويرى له أبوه وغير أبيه الأولوية على من يقدم من أقاربه : فأحفظ ذلك عليه القلوب وسهل على الناس سماع الإذاعات وتصديق الإشاعات. فكانت عصارة ذلك ازدياد الجرأة عليه وعيبهم له جهاراً بعد أن كان ذلك خفية. ولم يكن لعثمان جواب مسكت فيما يرد به عن نفسه فكان احتجابه لعمله ودفاعه عنه داعية زيادة الأضطغان عليه لأنه غير كاف ولا شاف.

خرج عثمان على أثر خروج على بعد انتهاء الحديث الذى قدمنا فجلس على المنبر ، فقال : أما بعد فإن لكل شيء آفة ، ولكل أمر عاهة ؛ وإن آفة هذه الأمة وعاهة هذه النعمة عيابون طعانون يرونكم ما تحبون ويسرون ما تكرهون يقولون لكم وتقولون ، أمثال الغنم يتبعون أول ناعق ، أحب مواردها إليها البعيد. لا يشربون إلا نغصاً ولا يردون إلا عكراً لا يقوم لهم رائد. وقد أعيتهم الأمور وتعذرت عليهم المكاسب. ألا فقد والله عبتم على بما أقررتم لابن الخطاب بمثله ولكنه وطئكم برجله وضربكم بيده وقمعكم بلسانه فدنتم له على ما أحببتم أو كرهتم - ولنت لكم وأوطأت لكم كنفى وكففت يدى ولسانى عنكم فاجترأتم على أما والله لأنا أعز نفراً وأقرب ناصراً وأكثر عدداً وأقمن ، إن قلت هلم أتى إلى. ولقد أعددت لكم أقرانكم وأفضلت عليكم فضولا وكشرت لكم عن نابى وأخرجتم منى خلقاً لم أكن أحسنه ومنطقا لم أنطق به. فكفوا عليكم ألسنتكم وطعنكم وعيبكم على ولاتكم فإنى قد كففت عنكم من لو كان هو الذى يكلمكم لرضيتم منه بدون منطقى هذا. ألا فما تفقدون من حقكم ؟ والله ما قصرت فى بلوغ ما كان يبلغ من كان قبلى ومن لم تكونوا تختلفون عليه فَضَلَ فَضْلٌ من مال. فمالى لا أصنع فى الفضل ما أريد ؟ فلم كنت إماما ؟ فقام مروان فقال : إن شئتم حكمنا والله بيننا وبينكم السيف نحن والله وأنتم كما قال الشاعر :

فرشنا لكم أعراضنا فنبت بكم   مغارسكم تبنون فى دمن الثرى

فقال عثمان اسكت لا سُكِّتَ ، دعنى وأصحابى ما منطقك فى هذا ؟ ألم أتقدم إليك أن لا تنطق. فسكت مروان.

وقد أورد الطبرى من رواية سيف عن شيوخه أن معاوية قال لعثمان غداة ودعه وخرج : يا أمير المؤمنين انطلق معى إلى الشام قبل أن يهجم عليك من لا قبل لك به فإن أهل الشام على الأمر لم يزالوا. فقال : أنا لا أبيع جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم بشيء وإن كان فيه قطع خيط عنقى. قال فأبعث إليك جنداً منهم يقيم بين

ظهرانى أهل المدينة لنائبة إن نابت المدينة أو إياك. قال أنا أقتر على جيران رسول الله صلى الله عليه وسلم الأرزاق بجند يساكنهم وأضيق على أهل دار الهجرة والنصرة ؟ قال والله يا أمير المؤمنين لتغتالن أو لتغزين. قال حسبى الله ونعم الوكيل.

فلما خرج معاوية يريد السفر ، فإذا هو بنفر من المهاجرين فيهم طلحة والزبير وعلى. فقام عليهم : متوكئا على قوسه وبعد أن سلم قال : إنكم قد علمتم أن هذا الأمر كان إذ الناس يتغالبون إلى رجال فلم يكن منكم أحد إلا وفى فصيلته من يرأسه ويستبد عليه ويقطع الأمر دونه ولا يشهده ولا يؤامره حتى بعث الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم وأكرم به من ابتعه فكانوا يرئسون من جاء من بعده وأمرهم شورى بنيهم يتفاضلون بالسابقة والقدمة والاجتهاد فإن أخذوا بذلك وأقاموا عليه كان الأمر أمرهم والناس تبع لهم وإن أصغوا إلى الدنيا وطلبوها بالتغالب سلبوا ذلك ورده الله إلى من كان يرأسهم. وإلا فليحذروا الغير فإن الله على البدل قادر وله المشيئة فى ملكه وأمره : إنى قد خلفت فيكم شيخا فاستوصوا به خيراً وكنفوه تكونوا أسعد منه بذلك. ثم ودعهم ومضى. فقال على ما كنت أرى أن فى هذا خيراً. فقال الزبير والله ما كان أعظم فى صدرك وصدورنا منه الغداة.

دور الشدة فى الفتنة

كان تصميم السبئية من أول الأمر أن يثوروا بالأمصار على أثر خروج العمال إلى الموسم ، فلم يتهيأ لهم ذلك ولم ينهض فى هذا الأمر سوى أهل الكوفة فإنهم خرجوا بحجة الاستعفاء من سعيد كما قدمنا ، وقد ردوه من الجرعة وهى مكان فى طريق الذاهب من المدينة إلى الكوفة.

فلما رجع الأمراء إلى أمصارهم لم يكن للسبئية سبيل إلى الخروج. فكاتبوا أشياعهم من أهل الأمصار وتواعدوا على أن يتوافوا بالمدينة لينظروا فيما يريدون وأظهروا أنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر. ويسألون عثمان عن أشياء لتسير فى الناس وتحقق عليه فخرجت وفود من الأمصار الثلاث : الكوفة والبصرة ومصر

حتى قـاربت المدينة. فلما علم عـثمان بمجيئـهم أرسل إليهم رجلين من بنـى مخزوم ليعلما علم القـوم. وكان الرجلان ممن نالهم أدب من عثمان فاصـطبرا ولم يطضغنا. فلما رآهما أولئك القادمون استرسلوا إليهـما وباحوا لهما بذات نفوسهم ، فقالوا إننا نريد أن نسأله عن أشياء زرعناها فى قلوب الناس ثم نرجع إليهم فنزعم لهم أنا قررناه بها فلم يخرج منهـا ولم يتب. ثم نخرج كأنا حجاج ثم نقدم فنحـيط به فنخلعه فإن أبى قتلناه. وكانت إياها. فـرجعا إلى عثمان بالخبر فـضحك وقال اللهم سلم هؤلاء فإنك إن لم تسلمـهم شقوا. وقد أخبـر أهل الأمصار أن ثلاثة من أهل المدينـة معهم على رأيهم وهم : عمار ومحمد بن أبى بكر وابن سهلة (لعلة محمد بن أبى حذيفة) - فكان من قول عثمـان : أما عمار فحمل على عباس بن عتـبة بن أبى لهب وعركه فأدبته ، وأمـا محمد بن أبى بكر فـإنه أعجب حتى رأى أن الحقـوق لا تلزمه ، وأما ابن سهلة فـإنه يتعرض للـبلاء. ثم أرسل عثمـان إلى الكوفيين والبـصريين ونادى : الصلاة جامعة وهم عنده فى أصل المنبر. فأقبل أصحاب رسول الله حتى أحاطوا بهم. فحمـد لله وأثنى عليه وأخبرهـم خبرالقوم. وقام الـرجلان وأخبرا بما سمـعا منهم. فقالوا جميعاً اقتلهم فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من دعا إلى نفسه أو إلى أحد وعلى الناس إمام فعليه لعنة الله فاقتلوه. وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لا أحل لكم إلا ما قـتلتموه وأنا شريكـكم. فقال عثمـان : بل نعفو ونقبل ونـبصرهم بجهدنا ولا نـحاد أحداً حتى يرتكب حـداً أو يبدى كفراً. ثم أخذ يذكـر الأمور التى نقموها عليه وأذاعوها ويجيب عن كل مسألة. فقال: إن هؤلاء ذكروا أموراً قد علموا منها مثل الذى علمتم إلا أنهم زعموا أنهم يذكرونيها ليوجبوها على عند من لا يعلم

١ - قالوا أتم الصلاة فـى السفر (فى المزدلفة) وكـانت لا تتم. ألا وإنى قدمت بلداً فيه أهلـى فأتممت لهذين الأمرين. أو كذلـك هو ؟ قالوا : نعم - وذلك أنه أتم الصلاة فى المزدلفة وهى تقصر فى ذلك الموطن ولو كـان مؤديها مقيما هكذا كان يرى غير عثمان من فقهاء الصحابة.

٢- وقالوا حميت حمى. وإنى والله ما حميت حمى. قبلى والله ما حموا شيئاً لاحد ما حموا إلا ما غلب عليه أهل المدينة ثم لم يمنعوا رعيه أحداً. واقتصروا لصدقات المسلمين يحمونها لئلا يكون بين من يليها وبين أحد تنازع ثم مامنعوا ولانحوا منها أحداً إلا من ساق درهما ومالى من بعير غير راحلتين وملى من ثاغية ولا راغبة. وإنى قد وليت وإنى أكثر العرب بعيراً وشاة فمالى اليوم شاة ولا بعير غير بعيرين لحجى. أكذلك هو ؟ قالوا : اللهم نعم.

٣- وقالوا كان القرآن كتباً فتركتها إلا واحداً - ألا وإن القرآن واحد جاء من عند واحد وإنما أنا فى ذلك تابع لهؤلاء. أكذلك هو ؟ قالوا : نعم.

٤- وقالوا قد رددت الحكم. وقد سيره رسول الله صلى الله عليه وسلم والحكم مكى سيره رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى الطائف ثم رده رسول الله صلى الله عليه وسلم فرسول الله سيره ،ورسول الله رده. أكذلك هو ؟ قالوا : نعم.

(٥) وقالوا استعملت الأحداث. ولم أستعمل إلا مجتمعا محتملا مرضيا ، وهؤلاء أهل عملهم فسلوهم عنه. وهؤلاء أهل بلده. ولقد ولى من قبلى أحدث منهم وقيل فى ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم أشد مما قيل لى فى استعماله أسامة. أكذلك هو ؟ قالوا : نعم.

(٦) وقالوا إنى أعطيت ابن أبى سرح ما أفاء اللهعليه. وإنى إنما نفلته خمس ما أفاءالله عليهم من الخمس وكان مائة ألف وقد نفل مثل ذلك أبو بكر وعمر فزعم الجند أنهم يكرهون ذلك فرددته عليهم وليس ذلك لهم. أكذلك هو ؟ قالوا : نعم.

(٧) وقالوا إنى أحب أهل بيتى ، وأعطيهم. أما حبى فإنهم لم يمل معهم على جور بل أحمل الحقوق عليهم. وأما إعطاؤهم : فإنى إنما أعطيهم من مالى ولا أستحل أموال المسلمين لنفسى ولا لأحد من الناس. ولقد كنت أعطى العطية الكبيرة

الرغيبة من صلب مالى أزمان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر وأنا يومئذ حريص شحيح ، أفحين أتيت على أسنان أهل بيتى وفنى عمرى وودعت الذى لى فى أهلى قال الملحدون ما قالوا ؟ وإنى والله ما حملت على مصر من الأمصار فضلا فيجوز ذلك لمن قاله ، ولقد رددته عليهم وما قدم على إلا الأخماس ، ولا يحل لى منها شىء فولى المسلمون وضعها فى أهلها دونى ولا نفلت من مال الله بفلس منها فما فوقه وما أتبلغ منه ما آكل إلا من مالى.

(٨) وقالوا أعطيت الأرض رجلا وأن هذه الأرضين شاركهم فيها المهاجرون والأنصار أيام افتتحت فمن أقام بمكان من هذه الفتوح فهو أسوة أهله ومن رجع إلى أهله لم يذهب ذلك ما حوى الله له ، فنظرت فى الذى يصيبهم مما أفاء الله عليهم فبعته لهم بأمرهم من رجال أهل عقار ببلاد العرب فنقلت إليهم نصيبهم فهو فى أيديهم دونى. وكان عثمان قد قسم ماله وأرضه فى بنى أمية وجعل ولده كبعض من يعطى فيه. فبدأ ببنى أبى العاص فأعطى آل الحكم رجالهم عشرة آلاف فأخذوا مائة ألف وأعطى بنى عثمان مثل ذلك وقسم فى بنى العاص وفى بنى العيص وفى بنى حرب.

ولانت حاشية عثمان لأولئك الطوائف الذين خرجوا للكيد له وأبى المسلمون إلا قتلهم وأبى هو إلا العفو والصفح عنهم فرجعوا إلى بلادهم على الأمر الذى خرجوا به.

ظن عثمان أن ما أدلى به من الحجج قد أصاب من نفوسهم ، وأن عفوه عنهم يطفىء جمرة اضطغانهم عليه فاكتفى بما قال. ولكن القوم تواعدوا على الشخوص إلى المدينة فى شوال سنة ٣٥ لإنفاذ ما اعتزموا عليه من محاصرة عثمان وخلعه أو قتله إن أبى فخرج أهل مصر فى أربع رفاق عليهم أربعة أمراء - المقل يقول ستمائة والمكثر يقول ألف. وقادتهم هم عبد الرحمن بن عديس البلوى وكنانة بن بشر الليثى وسودان بن حمران السكونى وقتيرة السكونى. وعلى القوم جميعاً الغافقى بن حرب

العكى. وأشفقوا أن يعلموا الناس بخروجهم للشغب والحرب. وإنما خرجوا كالحجاج ومعهم ابن السوداء. ولـو أتيح للقوم رجل يقرأ ما فى الضمير لقرأ لهم آيات الفرح والسـرور الذى لا يعادله سـرور أحد فى العالم واضحة على صفحات قلب ابن السوداء الذى استطاع أن يسخر هؤلاء القوم لتنفيذ مآربه فى أئمة الإسلام والكيد لدينهم. وقد تسنى له أن يشعل القلوب فى الأمصار المترامية وفى مدينة الرسول وهو جالس فى مصر.

يدبرالشر من مصر إلى يمن　　　إلي العراق فأرض الروم فالنوب

والذى أعتقده أنـه قد كان داعية جمعـية تمده وتؤازره وتعينه قد اختـارته لتنفيذ مآربها فى الإسلام لتفسد ما تقدر عليه كما أفسد بولس دين المسيح.

وخرج أهل الكوفة فى أربع فرق وقادتهم : زيد بن صوحان العبدى. والأشتر النخـعى. وزياد بن النضر الحـارثى. وعبـد الله بن الأصم العامـرى من عامـر بن صعصعة وعددهم كعدد أهل مصر وعليهم جميعاً عامر بن الأصم.

وخرج أهل البصـرة فى أربع فرق. وقادتهم : حكيم بن جبـلة العبدى وذريح ابن عباد العبـدى وبشر بن شريح القيسى وابن المحرش الحنـفى. وعددهم كعدد أهل مصر وأميرهم جميعاً حرقوص بن زهير السعدى.

وكانت أهوء أهل الأمصار الثـلاث مختلفة غير متفقة ، فـأما أهل مصر فإنهم كانوا يشتهـون عليا لما بثه فيهم ابن السـوداء ومحمد بن أبى بكر فإنه كـان ربيبا لعلى تزوج أمه بعد أبى بكر وحدب عليه ، وقد وافـقه على ذلك محمد بن أبى حذيفة ، وأما أهل البصـرة فإنهم كانوا يشتهـون أن يكون الخليفة طلحة بن عـبيد الله ، وأهل الكوفة كان هواهم فى الزبير بن العوام فخرجوا وهم على الخروج جميع وفى الأهواء شتى وكـل فرقة لا يشك أحـد منها فى أن الفـلح فى جانبـها وأن أمرها سـيتم دون الآخرين. وصـار كل فريق حتى إذا كـانوا من المدينة على ثلاث تقـدم ناس من أهل

البصرة فتزلـوا ذا خشب. وتقدم ناس من أهل الكوفة فنـزلوا الأعوص وجاءهم ناس من أهل مصر وتـركوا عامتهم بذى المروة. ومـشى فيما بين أهل مصـر وأهل البصرة زياد بن النضـر وعبد الله بن الأصم ، وقالا : لا تـعجلوا ولا تعجلونـا حتى ندخل لكم المدينة ونرتاد ، فإنه قد بلغنا أنهم قـد عسكروا لنا. فوالله إن كان أهل المدينة قد خافونـا واستحلوا قتـالنا ولم يعلموا علمنا فـهم إذا علموا علمنا أشـد وإن أمرنا هذا لباطل. وإن لم يستعدوا لنا ولم يستحلوا قـتالنا ووجدنا ما بلغنا باطلا لنرجعن إليكم بالخبر.

فدخل الرجلان فلقـيا أزواج النبى صلى الله عليه وسلم وعليـاً وطلحة والزبير وقالا : إنما نأتم هذا البيت ونـستعفى هذا الوالى من بعض عمالـنا ما جئنا إلا لذلك وأستأذناهم للناس فى الدخول فكلهم أبى وقال بيض ما يفرخن. وهذا ما آخذه أمارة على وهن عثـمان واقتطاع الناس الأمـر دونه إذ يطلب الإذن من غيره بـدخول المدينة ولو كان عمر ما قدر أحد منه على مثل ذلك.

رجع الرجلان إلى القـوم فأتى من مصر نفـر فأتوا علياً ومن أهل البـصرة نفر فأتوا طلحة ومن أهل الكوفـة نفر فأتوا الزبير وقال كل فريق منهـم إن بايعوا صاحبنا وإلا كدناهم ومزقنا جماعتهم ثم كررنا حتي نبغتهم فجاء المصريون إلى على وعرضوا له بالأمـر فانتهـرهم وطردهم وكذلك فـعل الزبير مـع أهل الكوفة وطلحـة مع أهل البصرة وأغلظوا لهم فى القول. وكان كل من على والزبير قد سرح ابنه إلى عثمان ، وطلحة قد سرح ابنيه كذلك.

خرج القوم بعد سوء الرد من على وطلحـة والزبير وأروهم أنهم راجعون حتى انتهوا إلـى عساكرهم على ثلاث مـراحل من المدينة كي يفتـرق أهل المدينة ثم يكروا راجعين. فلما افتـرق أهل المدينة لرجوعهم وظنوا أن الأمر قد انتـهى. لم يفجأ أهل المدينة إلا بالـقوم يكبرون فى نـواحيهـا ، قد كروا عليـهم فبغـتوهم فنزلـوا مواضع عساكرهم وأحطاوا بعثمان وقالوا من كف يده فهو آمن. فلزم الناس بيوتهم.

جاء على إلى أهل مصر فقال : ما ردكم إلينا ؟ فقالوا أخذنا مع بريد كتاباً بقتلنا. وقال أهل البصرة لطلحة مثل ذلك. أى أن أهل مصر قد أخذوا بريداً بقتلهم، وكذلك أهل الكوفة للزبير. وقال أهل الكوفة وأهل البصرة جئنا ننصر إخواننا ونمنعهم جميعاً. فقال على : كيف علمتم يا أهل الكوفه ويا أهل البصرة بما لقى أهل مصر وقد سرتم مراحل ، ثم طويتم نحونا ؟ هذا والله أمر أبرم بالمدينة. فقالوا : ضعوه كيف شئتم لا حاجة لنا فى هذا الرجل ليعتزلنا. وكان عثمان فى ذلك الوقت يخرج إليهم ويصلى بهم ويصلون خلفه ولا يمنعون أحداً من الاجتماع به ولا يمنعون أحداً من الكلام ، ولكنهم كانوا يسيرون زمراً أشبه بالدوريات فى طرق المدينة يمنعون الناس من الاجتماع.

وكُتب عثمان إلى الأمصار يستمدهم (بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد فإن الله عز وجل بعث محمداً بالحق بشيراً ونذيراً فبلغ عن الله ما أمر به ثم مضي وقد قضى الذى عليه وخلف فينا كتابه فيه حلاله وحرامه وبيان الأمور التى قدر فأمضاها على ما أحب العباد وكرهوا فكان الخليفة أبو بكر رضى الله عنه وعمر رضى الله عنه. ثم أدخلت فى الشورى عن غير علم ولا مسألة عن ملأ من الأمة. ثم أجمع أهل الشورى عن ملأ منهم ومن الناس على غير طلب منى ولا محبة فعملت فيهم بما يعرفون ولا ينكرون تابعاً غير مستتبع متبعاً غير مبتدع مقتدياً غير متكلف. فلما انتهت الأمور وانتكث الشر بأهله بدت ضغائن وأهواء على غير إجرام ولا ترة فيما مضى إلا إمضاء الكتاب. فطلبوا أمراً وأعلنوا غيره بغير حجة ولاعذر. فعابوا على أشياء مما كانوا يرضون وأشياء عن ملأ من أهل المدينة لا يصلح غيرها فصبرت لهم نفسى وكففتها عنهم منذ سنين وأنا أرى وأسمع. فازدادوا على الله عز وجل جرأة حتى أغاروا علينا فى جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم وحرمه وأرض الهجرة وثابت إليهم الأعراب فهم كالأحزاب أيام الأحزاب أو من غزانا بأحد إلا ما يظهرون ، فمن قدر على اللحاق بنا فليلحق).

أتى الكتاب أهل الأمصار فخرجوا على الصعبة والذلول. فأرسل معاوية بن

أبى سفيان حبيب بن سلمة الفهرى بعد تريث. وبعث عبد الله بن أبى سرح من مصر معاوية بن حديج السكونى وخرج من أهل الكوفة القعقاع بن عمرو وقام فى كل بلد محضضون يحضون الناس على إغاثة أهل المدينة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعين لهم بإحسان غير أن هؤلاء المغيثين لم يدركوا لأن الغزاة أنفذوا أمرهم قبل الغوث.

جاء القوم إلى على وقالوا له : إن الله قد أحل لنا دم هذا الرجل. قم معنا إليه فقال : والله لاأقوم معكم. قالوا فلم كتبت إلينا. فقال على : والله ما كتبت إليكم كتابا قط فنظر بعضهم إلى بعض.

والذى يظهر من ذلك. أن من كان بالمدينة ردءا لأهل الفتنة كانوا يكتبون إلى أهل مصر بأن عليا معهم فى الرأى وأن التدبير بإذنه وعلمه فكان المفسدون يتذرعون باسمه لتهييج الناس وإشعال قلوبهم بالحماسة فيما هم بصدده ، ولا يبعد أن تكون الكتب ترسل باسمه إلى مصر ولا يعلم.

وقد كان عمرو بن العاص بالمدينة يؤلب على عثمان ، وقد جاءت رواية عنه أنه كان يؤلب عليه حتى الراعى فى غنمه فى رأس الجبل. فلما كان أول الحصار خرج من المدينة إلى فلسطين فى ناحية السبع حتى جاءه خبر قتل عثمان.

دخل المصريون على عثمان ومعهم الكتاب الذى زعموا أن فيه قتلهم. فقالوا : كتبت فينا بكذا وكذا فقال : إنما هما اثنتان : أن تقيموا على رجلين من المسلمين أو يمينى بالله الذى لاإله إلا هو ما كتبت ولا أمللت ولا علمت. وقد تعلمون أن الكتاب يكتب على لسان الرجل وقد ينقش الخاتم على الخاتم. فقالوا قد والله أحل الله لنا دمك ونقضت العهد والميثاق.

عمل على وعمل مروان مع الخليفة عثمان

كان لما جاء القوم لأول مرة وخشى عثمان شرهم شاع أنهم يريدون قتل عثمان

إن لم ينزع. فجاء إلى على بن أبى طالب فقال : يا ابن عم ، إنه ليس لى مترك وإن قرابتى قريبة ولى حق عظيم عليك وقد جاء ما ترى من هؤلاء القوم وهم مصبحى وأنا أعلم أن لك عند الناس قدراً وأنهم يسمعون منك فأنا أحب أن تركب إليهم وتردهم عنى فإنى لاأحب أن يدخلوا ، فإن ذلك جرأة منهم على ويسمع بذلك غيرهم. فقال على : علام أردهم ؟ فقال : على أن أصير إلى ما أشرت به على ورأيته لى ، ولست أخرج من يديك. فقال على : إنى كلمتك مرة بعد مرة ونقول وتقول وكل ذلك فعل مروان وسعيد وابن عامر ومعاوية أطعتهم وعصيتني. قال فإنى أعصيهم وأطيعك. فركب على وركب معه المهاجرون والأنصار ومازالوا بالقوم حتى رجعوا كما قدمنا وأبى عمار أن يخرج مع من خرج. فلما رجع القوم عاد على إلى عثمان وكلمه كلاما فى نفسه وقال له تكلم كلاما يقره الناس منك ويشهدون عليه ويشهد الله على ما فى قلبك من النزوع والإنابة فإن البلاد قد تمخضت عليك لا آمن ركبا آخرين يقدمون من الكوفة فتقول يا على اركب إليهم ولا أقدر أن أركب إليهم ولا أسمع عذراً ، ويقدم آخرون من البصرة إلخ ، فإن لم أفعل رأيتنى قد قطعت رحمك واستخففت بحقك.

فخرج عثمان فخطب خطبة نزع فيها وأعطى الناس من نفسه التوبة فقال : أما بعد أيها الناس فوالله ما عاب من عاب منكم شيئاً أجهله وما جئت شيئاً إلا وأنا أعرفه ولكن منتنى نفسى وكذبتنى وضل عنى رشدى. ولقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من زل فليتب ومن أخطأ فليتب ولا يتمادى فى الهلكة إن من تمادى فى الجور كان أبعد من الطريق. فأنا أول من اتعظ. أستغفر الله مما فعلت وأتوب إليه. فمثلى نزع وتاب فإذا نزلت فليأتنى أشرافكم فليرونى رأيهم فوالله لئن ردنى الحق عبداً لأستنن بسنة العبد ولأذلن ذل العبد ولأكونن كالمرقوق ، إن ملك صبر وإن أعتق شكر وما عن الله مذهب إلا إليه. فلا يعجزن عنكم خياركم أن يدنوا إلى لئن أبت يمينى لتتابعن شمالى – فرق الناس له وبكوا – فلما نزل وجد فى منزله

مروان وسعيداً ونفراً من بنى أمية ولم يكونوا شهدوا الخطبة : فقال مروان يا أمير المؤمنين أتكلم أو أسكت ؟ فقالت نائلة زوج عثمان بل اسكت فإنهم والله قاتلوه ومؤثموه إنه قد قال مقالة لا ينبغى أن ينزع عنها. فقال عثمان تكلم. فقال مروان بأبى أنت وأمى لوددت أن مقالتك هذه كانت وأنت ممتنع منيع فكنت أول من رضى بها وأعان عليها ولكنك قلت ما قلت حين بلغ الحزام الطبيين وخلف السيل الزبى وحين أعطى الخطة الذليلة الذليل. والله لإقامة على معصية تستغفر الله منها أجمل من توبة تخوف عليها وإنك إن شئت تقربت بالتوبة ولم تقرر بالخطيئة وقد اجتمع إليك على الباب أمثال الجبال من الناس. فقال عثمان اخرج إليهم فكلمهم فإنى أستحى أن أكلمهم.

عند ذلك خرج مروان إلى الباب فقال ما شأنكم ، قد اجتمعتم كأنكم قد جئتم لنهب ؟ شاهت الوجوه. كل إنسان أخذ بأذن صاحبه إلا من أريد. جئتم تريدون أن تنزعوا ملكنا من أيدينا ؟ اخرجوا عنا. أما والله لئن رمتمونا ليمرن عليكم منا أمر لا يسركم ولا تحمدون غب رأيكم ، ارجعوا إلى منازلكم فإنا والله ما نحن بمغلوبين على ما فى أيدينا.

سمع الناس ذلك فرجعوا وذهب بعضهم إلى على وأخبره الخبر فجاء مغضباً حتى دخل على عثمان فقال : أما رضيت من مروان ولا رضى منك إلا بتحرفك عن دينك وعن عقلك مثل جمل الظعينة يقاد حيث يصار به ، والله ما مروان بذى رأى فى دينه ولا فى نفسه ، وأيم الله لأراه سيوردك ثم لا يصدرك وما أنا بعائد بعد مقامى هذا لمعاتبتك ، أذهبت شرفك وغلبت على أمرك - فلما خرج على دخلت على عثمان نائلة زوجه فقالت : أتكلم أو أسكت ؟ قال بل تكلمى ، فقالت قد سمعت قول على لك وإنه ليس يعاودك وقد أطعت مروان يقودك حيث يشاء قال فما أصنع ؟ قالت تتقى الله وحده لا شريك له وتتبع سنن صاحبيك من قبلك ، فإنك متى أطعت مروان قتلك ومروان ليس له عند الناس قدر ولا هيبة ولا محبة وإنما تركك الناس لمكان مروان فأرسل إلى على فاستصلحه فإن له قرابة منك وهو لا

يعصى - فأرسل عثمان إلى على فأبى أن يأتيه وقال : قد أعلمته إني لست بعائد - وبلغ مروان مقالة نائلة فيه ، فجاء إلى عثمان وقال - بعد أن أذن له - إن بنت الفرافصة فقال عثمان لا تذكرنها بحرف فأسوء لك وجهك فهي والله أنصح منك - وخرج عثمان بعد ذلك حتى أتى علياً وسأله أن يؤازره ولا يخذله لما له من حق القرابة والنصره فأبى عليه على ذلك وذكره بما كان منه من عصيانه والإصغاء إلى مشورة مروان فقام عنه عثمان منكراً يقول : خذلتي وقطعت رحمي.

وقد قدمنا أن العائدين من أهل الشغب من الأمصار الثلاث لما عادوا دخل المصريون المدينة وغلبوا أهلها على أمرهم وكان عثمان يخرج من بيته فيصلي بهم لا يمنعونه ذلك - فلم جاءت الجمعة بعد دخولهم المدينة ودخول المصريين بها خرج عثمان فصلى بالناس وكأني به في ذلك الوقت قد أراد أن يظهر من الضعف قوة ومن الوهن جلداً ليقذف الرعب في قلوب المشاغبين فقام على المنبر وقال يا هؤلاء العدى. الله الله. فوالله إن أهل المدينة ليعلمون أنكم ملعونون على لسان محمد صلى الله عليه وسلم فامحوا الخطايا بالصواب فإن الله عز وجل لا يمحو السيء إلا بالحسن فقام محمد بن مسلمة فقال أنا أشهد بذلك - فأخذه حكيم بن جبلة فأقعده. فقام زيد بن ثابت فقال ابغني الكتاب فسار إليه من ناحية أخرى محمد بن أبي قتيرة فأقعده وقال فأفظع. وثار القوم بأجمعهم فحصبوا الناس وحصبوا عثمان حتى صرعوه عن المنبر مغشياً عليه فاحتمل حتى أدخل داره. وكان المصريون لا يطمعون في أحد من أهل المدينة أن يساعدهم إلا في ثلاثة نفر وهم محمد بن أبي بكر ومحمد بن أبي حذيفة وعمار بن ياسر. وشمر ناس من المسلمين فاستقتلوا منهم سعد بن مالك وأبو هريرة وزيد بن ثابت والحسن بن على فأرسل إليهم عثمان بعزمه لما انصرفوا ، فانصرفوا ، وأقبل على ، حتى دخل على عثمان يعوده من صرعته ، وفعل مثل ذلك طلحة والزبير.

ومكث عثمان يصلي بهم إلى عشرين يوماً من نزوله عن المنبر في رواية

الحسن، وإلى ثلاثين يوماً علي رواية سيف عن مشايخه ثم إنهم منعوه الصلاة فصلى بالناس أميرهم الغافقى. دان له المصريون والكوفيون والبصريون وتفرق أهل المدينة فى حيطانهم ولزموا بيوتهم لا يخرج أحد إلا وعليه سيفه يمتنع به من رهق القوم وكان الحصار أربعين يوماً. وفيهن كان القتل ومن تعرض لهم وضعوا فيه السلاح وكانوا قبل لك ثلاثين يوماً يكفون.

من ذلك كله نجد أن عثمان كان فى أخريات أيامه كالميت فى يد الغاسل بين يدى مروان وبطانته من بنى أمية. فكان إذا أعطى الناس من نفسه ووعدهم بالإقلاع عما نقموا منه والنزول عند ما أحبوا وعاد إلى بيته ، فتله مروان فى الذروة والغارب حتى يرده عما بسط آمالهم فيه وقبض يده عما بذل لهم من المعدله وإزاحه العلل. وكان بنو أمية ومنهم مروان يثقون بالمغيثة من الأمصار ويريدونه على مطاولة القوم حتى يأتى المغيثون ويستأصلوا أهل الفتنة ويلتمسون الوسائل للمطاولة جهد استطاعتهم. وكان استبطانه لهؤلاء الرهط من بنى أبيه يثير عليه النفوس ويزيد فى الاضطغان عليه. فكان على الحقيقة موجوداً بين عدوين : عدو داخلى يدفعه إلى المكاره وركوب المركب الخشن بغير رفق ولا شفقة وعدو خارجى لا يرضى منه بالمعاذير ولا يقنعه إلا نفض يده من الخلافة وتركها شورى بين المسلمين ليختاروا لأمرهم من أحبوا - أو أن يسلم إليهم بعض بطانته وخلصائه من ذوى قرابته ليشتفوا منه بالجزاء الذى يستحقونه على جناية يزعمون أنها وقعت من ذلك البعض - وهو مروان بن الحكم - يزعمون أنه افتعل كتاباً من عثمان إلى عبد الله بن أبى سرح يأمره بضرب بعض رؤساء المصريين أو جلدهم والتمثيل بهم وفى ذلك هلاك مروان إذا استمكنوا منه. والثالثة دمه يريقونه.

وكان بنو أمية يرون الشر مقبلا عليهم ونازلا بهم والموت يرقب شيخهم مصبحه وممساه وأهل الفتنة غير تاركيه وأهل المدينة بين مؤلب وساكت وخاذل وهم مع ذلك لا تأخذهم الرأفة بهذا الشيخ الفانى ولا يريدونه على استبقاء حياته والعمل لما فيه

حقن دمه ، مع توفر الذرائع وإمكان الوسائل لو أرادوها. ولعل ذلك كان ضعفا فى الرأى واغتراراً باسم الخلافة وما كان له من الروعة والحرمة فى سالف الزمن ، غافلين عن أن اسم الخلافة فى أخريات أيام عثمان صار حامله من المهانة والذلة بحيث لا يدفع عن نفسه ولا يقوم بالذب عنه أحد. ومن الخذلان الاغترار بذلك بعد أن يصرع الخليفة عن منبر رسول الله بأيدى الغوغاء والمفتونين ولا يغير ذلك المهاجرون والأنصار.

الحصار وما كان فى أيامه

لا شبهة فى أن الحاصرين ما كانوا يريدون فى بدء أمرهم من عثمان سوى أن ينزع من الخلافة يده لتفضى بعد ذلك إلى من يريدون ، ولو أن عثمان طابت نفسه ببغيتهم لانصرفوا إلى أمصارهم مغتبطين بما أدركوا - ولعلهم كانوا لا يتوقعون من عثمان الاستمساك بالأمر إلى الحد الذى انتهى إليه - ولعلهم كانوا يظنون أيضاً أن أعلام أصحاب رسول الله بالمدينة كانوا يبادرون إلى حسم مادة الفتنة بحمل عثمان على الخروج من الأمر تلافيا للفرقة وتحاشياً من سفك الدماء. فكان الأمر على غير ما قدروا وطالت مدة الحصار.

إن أمور الفتن إذا دبرت لا يجهر مدبروها بأسرارهم ولا يذيعونها على الجمهور وهم فى الغالب يسترون ما أجنُّوا ويغشون الدعوة بغشاء جميل والمصريون الذين دبروا هذا الشغب ، وكذلك بقية أهل الأمصار ، قد ألبسوا دعوتهم لباس الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وهو أمر يلذ سماعه لأهل التقوى وتُسْتَفَزُّ به قلوب أهل الصلاح وهم فى الغالب أهل طهاره أخلاق وسلامة ضمير فيندفع كثير منهم فى غمار الناس ولا قصد لهم إلا التعاون على البر والتقوى. ومن هذا القبيل كان بعض أصحاب رسول الله صلى اللهعليه وسلم فى جمع المصريين مثل عمرو بن بديل بن ورقاء الخزاعى صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما نزل القوم ذا خشب فى قدمتهم الأولى كان فيما كتبوا به إلى عثمان :

"بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد ، فاعلم أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، فالله الله ثم الله الله. فإنك على دنيا فاستتم إليها معها آخرة ولا تلبس نصيبك من الآخرة فلا تسوغ لك الدنيا. وأعلم والله أنا لله نغضب وفى الله نرضى وأنا لن نضع سيوفنا عن عواتقنا حتى تأتينا منك توبة مصرحة أو ضلالة مجلحة مبلحة فهذه مقالتنا لك وتقضيتنا إليك ، والله عذيرنا منك. والسلام".

وقد علمنا أن القوم حين ردوا إلى أمصارهم عادوا إلى المدينة على حين غفلة من أهلها. وقد ذكر صاحب أشهر مشاهير الإسلام وغيره أن المصريين زعموا أن عبد الله بن سعد كان قد ضرب رجلا ممن كانوا شكوه إلى عثمان حتى قتله. فلما جاءوا فى قدمتهم الأولى شكوا ذلك إلى عثمان وإلى أعلام أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأزواجه أمهات المؤمنين وقد ألحوا على عثمان بإنصافهم فقال : اختاروا رجلا أولّه مصر عوضاً عن عبد الله بن سعد فاختاروا محمد بن أبى بكر فولاه عثمان مصر كما طلبوا. فلما خرج على بن أبى طالب ومحمد بن مسلمة وغيرهم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من المهاجرين والأنصار لرد أهل الأمصار إلى أمصارهم بالوعد من الخليفة أن يفعل ما يحبون ويرجع عما يكرهون سار جمعهم ثلاثاً ثم كروا راجعين إلى المدينة محتجين بأنهم (المصريين) أخذوا بريدا إلى عبد الله ابن أبى سرح بقتلهم أو جلدهم إلى آخر ما ذكروا ، وإن البريد علام عثمان على جمله وإن الخط خط كاتبه وإن الختم ختمه وإنه بذلك قد أحل لهم دمه وإن أهل البصرة قد رجعوا لنصرة إخوانهم المصريين ومنعهم وشد أزرهم.

وإذا صحت هذه الرواية وأنهم وجدوا البريد على الصفة التى قالوا ، فإني لا أستبعد أن يكون مدبروا الفتنة من المصريين قد وجدوا فى أثناء مقامهم بالمدينة من يستدخلونه على بطانة عثمان بن عفان ويتدسس لهم حتى كتبوا هذا الخطاب وأبردوا به البريد ، وعلم كل هذه الحركات والسكنات كان عندهم وسر ذلك عند إخوانهم من أهل المصرين فلما تلقفوا الكتاب الذى دبروه عادوا وفى أيديهم حجة قوية تبرر ما يطلبون ويتقون بها لوم اللائمين.

قال الطبرى فى رواية : وكتب أهل المدينة إلى عثمان يدعونه إلى التوبة ويحتجون ويقسمون له بالله لا يمسكون عنه أبداً حتى يقتلوه أو يعطيهم ما لزمه من حق الله ، فلما خاف القتل شاور نصحاءه وأهل بيته. فقال لهم : قد صنع ما قد رأيتم ، فما المخرج ؟ فأشار عليه أن يرسل إلى على بن أبى طالب فيطلب إليه أن يردهم عنه ويعطيهم من يرضيهم ليرضيهم حتى تأتيه أمداده. فقال : إن القوم لن يقبلوا التعليل - وهي محملي - وقد كان منى فى قدمتهم الأولى ما كان فمتى أعطهم ذلك يسألونى الوفاء به. فقال مروان : يا أمير المؤمنين مقاربتهم حتى تقوى أمثل من مكاثرتهم على القرب. فأعطهم ما سألوك وطاولهم ما طاولوك فإنهم بغوا عليك فلا عهد لهم.

أرسل عثمان بعد ذلك إلى على. فلما جاء قال : يا أبا الحسن ، إنه قد كان من الناس ما قد رأيت وكان مني ما قد علمت ولست آمنهم على قتلى فارددهم عنى فإن لهم الله عز وجل أن أعتبهم من كل ما يكرهون وأن أعطيهم الحق من نفسى ومن غيرى وإن كان فى ذلك سفك دمى. فقال له على : الناس إلى عدلك أحوج منهم إلى قتلك وإنى أرى قوماً لا يرضون إلا بالرضى. وقد كنت أعطيتهم فى قدمتهم الأولى لترجعن عن جميع ما نقموا فرددتهم عنك ثم لم تف لهم بشىء من ذلك. فلا تغرنى هذه المرة من شىء فإنى معطيهم عليك الحق. قال : نعم ، فأعطهم فوالله لأفين لهم ، فخرج على إلى الناس فقال : أيها الناس ، إنكم إنما طلبتم الحق فقد أعطيتموه. إن عثمان قد زعم أنه منصفكم من نفسه ومن غيره وراجع عن جميع ما تكرهون ، فاقبلوا منه ووكدوا عليه ، فقال الناس قد قبلنا فاستوثق منه لنا فإنا والله لا نرضى بقول دون فعل ، فقال : ذلك لكم. ثم دخل عليه فأخبره. فقال : اضرب بينى وبينهم أجلا يكون لى فيه مهلة ، فإنى لا أقدر على رد ما كرهوا فى يوم واحد. فقال على : ما حضر بالمدينة فلا أجل فيه وما غاب فأجله وصول أمرك. قال : نعم ولكن أجلنى فيما بالمدينة ثلاثة أيام. قال على : نعم. وخرج إلى الناس فأخبرهم بذلك. وكتب بينهم وبين عثمان كتاباً أجله فيه ثلاثاً على أن يرد كل مظلمة ويعزل

كل عامل كرهوه ثم أخذ عليه فى الكتـاب أعظم ما أخذ الله على أحد من خلقه من عهد وميثاق وأشهد عليه ناساً من وجوه المهاجرين والأنصار.

فكف القوم عنه ورجعوا إلى أن يفى لهم بما أعـطاهم من نفسه. وجعل يتأهب للقتال ويستعد بالسلاح وكان قد اتخذ جنداً من رقيق الخمس. وخرج عمرو بن حزم الأنصارى حتى أتى المصريين وهم بذى خُشُب حتى قدموا المدينة. فأرسلوا إلى عثمان : ألم نفـارقك على أنك زعـمت أنك تائب من أحـداثك وراجع عـما كرهـنا منك وأعطيتنا على ذلك عهد الله وميثـاقه ؟ قال : بلى ، أنا على ذلك . قالوا : فما هذا الكتاب الذى وجدنا مع رسولك وكتبت به إلى عاملك ؟ قال : ما فعلت ولا علم لى بما تقـولون. قالوا : بريدك على جـملك وكتـاب كاتبك عليـه خاتمك. فقـال : أما الجمل فمسروق وقد يشبه الخط الخط والخاتم ينقش على الخاتم. قالوا : فإنا لا نعجل عليك وإن كنا قد اتهـمناك. فاعزل عنا عمالـك الفساق واستعمل عـلينا من لا يتهم على دمائنا وأموالنا واردد علينا مظالمنا. فـقال عثمان : ما أرانى إذاً فى شىء إن كنت أستعـمل من هويتهم وأعزل من كـرهتم ، الأمر إذاً أمركم. قالوا : والله لتـفعلن أو لتعزلن أو لتقتلن ، فانظر لنفـسك أودع. فقال : لم أكن لأخلع سربالا سربلنيه الله. اهـ.

والظاهر أن اختـلاف القوم إليه وعـرضهم عليه فى مـدة الحصار كان كـثيراً ، وكذلك اختلاف الصـحابة وإعلامهم إليه وعرضهم مطالب الـقوم عليه والأخذ والرد فى ذلك كان كثيراً متكرراً. دعا عثمـان فى تلك المدة بالأشتر فقال : يا أشتر ما يريد الناس منى ؟ قال : ثلاثاً لـيس من إحداهن بد. قال ما هن ؟ قال يـخيرونك بين أن تخلع لـهم أمرهم فـتقول هـذا أمركم فاخـتاروا له مـن شئتم ، وبـين أن تقص من نفسك، فـإن أبيت فإن القـوم قاتلوك. فقـال : أما من إحداهن بد ؟ قـال : ما من إحداهن بـد فقال : والله لأن أقـدم فتضـرب عنقى أحب إلى من أن أخلـع قميـصاً قمصنيـه الله وأترك أمة محمد يعـدو بعضها على بعض. وأمـا أن أقص من نفسى ،

فوالله لقد علمت أن صاحبى بين يدى كانا يعاقبان ، وما يقوم بدنى بالقصاص. وإما أن تقتلونى. فـوالله لإن قتلتمونى لا تحـابون بعدى أبداً ، ولا تصلون جمـيعاً أبداً ، ولا تقاتلون بعدى عدواً جميعاً أبداً.

كان على حين رجع الشاغبون إلى المدينة وقد قال لعثمان وقال له ، تبرم عثمان بمكانه. فخرج على من المدينة إلى خيبر فأقـام بها ، فلما رأى عثمان شدة القوم عليه وعجز بنى أمـية عن مدافعتهـم عنه وأن أهل المدينة خاذلوه عول على اسـتقدام على فكتب إليه بما رواه أبو العبـاس محمد بن يزيد المبرد ، وهو "أما بعـد فقد بلغ السيل الزبى وجاوز الحزام الطبيين وبلغ الأمر بى أشده" ثم تمثل بهذا البيت :

فإن كنت مأكولا فكن خير آكل وإلا فأدركنى ولما أمزق

وقد رأيـت لخطابه صورة أخـرى وهى : "أما بعـد فقـد بلغ السـيل الزبى ، وجاوز الحزام الطبيين وارتفع أمرالناس فى شـأنى فوق قدره. وزعموا أنهم لا يرضون دون دمى وطمع فى من لا يدفع عن نفسه.

وإنك لم يفجر عليك كفاجر ضعيف ولم يغلبك مثل مغلب

وقد كان يقال : أكل الـسبع خير من افتراس الثعلـب فأقبل علىّ أولىّ – وفى رواية فأقبل إن صديقاً كنت أو عدواً –

فإن كنت مأكولا فكن خير آكل وإلا فأدركنى ولما أمزق

وكان طلحة قد تألف الناس فى غيبة على ، وهم يصدرون عن أمره سراً. فلما جاء على وطلب إليه صرف الناس عنه. ذهب إلى طلحة فى خلوة من الناس ، وقال له : يا طلحة مـا هذا الأمر الذي وقعت فيـه ؟ فقال يا أبا الحسن بعـدما مس الحزام الطبيين. فانصـرف على إلى بيت المال وأعطى الناس. فانصرفوا عن طـلحة وانفضوا من حوله وسر عثمان بذلك ، وجاء طلحة إلى عثمان تائباً فقال : والله ما جئت تائباً ولكن جئت مغلوباً ، فالله حسبك يا طلحة.

اشتد الحصــار على عثمان حتى منعوه الماء ولما أجـهده العطش أرسل إلى على وأزواج رسول الله وإلى غيرهم فحاولت أم حبيبة زوج رسول الله أن تخلص إليه بماء فلم تقدر على ذلك. ولما سـألوها عن دخولها على عثمـان ، قالت : إن وصايا بنى أميـة إلى هذا الرجل ، فأحـببت أن ألقاه فـأسأله عن ذلك كـيلا تهلك أمــوال أيتام وأرامل ، فقالوا : كاذبة ! وأهووا لها وقطعوا حبل البغلة بالسيف فندت بأم حبيبة ، فتلقاها الناس وقد مالت رحالتها فتعـلقوا بها وأخذوها وقد كادت تقتل ، فذهبوا بها إلى بيتها. وتجهزت عائشة للحج هاربة واستتبعت أخاها فأبى. فقالت : أما والله لئن استطعت أن يحـرمهم الله ما يحاولون لأفـعلن. ولام حنظلة الكاتب محـمد بن أبى بكر فى أن تدعوه عائشة أخته إلى الحج فيأبى ويجيب ذؤبان العرب ويتبعهم إلى ما لا يحل فقال ما أنت وذاك يا ابن التميمة. فـقال : يا ابن الخثعمية إن هذا الأمر إن صار إلى التغالب غلبتك عليه بنوعبد مناف ، وانصرف وهو يقول.

عجبت لما يخوض الناس فيه   يرومون الخلافة أن تــزولا

ولو زالت لزال الخير عنهم   ولاقوا بعدها ذلا ذليــلا

وكانوا كاليهود أو النصارى   سواء كلهم ضلوا السبيلا

ولحق الرجل بالكوفة ، وقد كانت عائشـة ممتلئه غيظاً على أهل مصر[1]. وهى وإن كانت ممن يقول فى عثمان وكانت تغضب لمـا يلقيه الشاغبون وتأتى به الإشاعات إلا أنها لم تكن تظن أن الأمر يبلغ إلى هذا الحد. وجاءها مروان بن الحكم فقال : يا أم المؤمنين لو أقمت كـان أجدر أن يراقبوا هذا الرجل. فقـالت : أتريد أن يصنع بى كمـا صنع بأم حبيـبة ثم لا أجد مـن يمنعنى ؟ لا والله ، ولا أعيـر ولا أدرى إلى ما يسلم أمر هؤلاء.

أما على فلما رأى عثمان قد منع من الماء فجاء إلى القوم فى الغلس وقال : يا

(١) والذى أظنه أنها أحست ميل بعض أهل الشغب إلى على ، فتبرمت بمكانهم كراهة لعلى.

أيها الناس ، إن الذى تصنعون لا يشبه أمر المؤمنين ولا أمر الكافرين. لا تقطعوا عن هذا الرجل الماء فإن الروم وفارس لتأسر فتطعم وتسقى ، وما تعرض لكم هذا الرجل فيم تستحلـون حصره وقتله ؟ قالوا لا والله ولا نعمة عين لا نـتركه يأكل ولا يشرب فرمى على بعمامته فى الدار ليعلم عثمـان أنه قد نهض فيما أنهضه. وقد علم طلحة والزبير بما لقى على وأم حبيبة فلزما بيتيهما ولم يحاولا إيصال شىء من الماء إليه.

وفى أثناء الحصار أرسل عثمان عبد الله بن عباس ليحج بالناس. ثم أرسل إليه بكتاب يقـرأ على الناس يوم الحج الأكبر يعلمـهم بما هو فيه من الحصـار الشديد وأن الناس يطلبون دمه ولا يرضون بدونه ويستـنهض من يريد نصرته على اللحاق بالمدينة لتفريج كربه ، ففعل. وجعل عثمان لا يجد إلا قليلا من الماء يؤتى به إليه من دار آل حزم في غفلات ، لأن القوم كانوا يرقبون دار آل حزم.

أشرف بعد ذلك عثمان على الناس لما منعوه من الماء وسلم على الناس فلم يرد أحد عليـه سلامه. فقـال أنشدكم بالله هل تعلمون أنـى اشتريت بئر رومـة من مالى يستعـذب بها فجعلت رشائى منهـا كرشاء رجل من المسلمين ؟ قالوا نعـم. قال فما يمنعنى أن أشرب منها ؟ ثم قال : أنشدكم بالله هل علمتم أنى اشتريت كذا وكذا من الأرض فزدته فى المسجد ؟ قيل نعم. قال : فـهل علمتم أحداً من الناس منع الصلاة فيـه قبلى ؟ ثم ذكر لهم أمـوراً أخرى كانت من رسـول الله له فجعل النـاس يقولون مهلا عن أمير المؤمنين. وكانوا إذا سمعوا الموعظة لأول مرة رقت قلوبهم فإذا تكررت لم تكن لتؤثر فيهم.

استمر الحـصار مشتداً إلى أن علم القوم أن الحاج كـادوا يعودون ووصل إليهم فصول مـن فصل من أهل الأمصار لـنصرة عثمـان وكان أهل الشام قد أثاقـلوا قليلا فأشفق أهل الفتنة أن يفجأوا بالمغيثـة قبل أن يخلصوا إلى أمر وأيقنوا أنهم إن انصرفوا عنه دون أن يفوزوا بطلبهم فقد استهدفوا لـلبلاء وتعرضوا للحتوف فجدوا فى أمرهم وأرادوا قتل عـثمان فدافـعهم من كانـوا فى الدار : الحسن بن على ، وعـبد الله بن

الزبير وابنا طلحة وغـيرهم ممن وطنوا أنفسهم على نصرة عثمـان. فأحرقوا باب الدار وكف عثـمان من مـعه عن القتـال عزم على كـثير منـهم في الانصراف إلى بيـوتهم فانصـرف أكثرهم وكـانت مناوشات بين بعض من فـى الدار وبين المشاغبين كـمروان وعبد الله بن الزبير وغيرهم. وأراد القوم المعـاجلة فدخلوا على عثمان من دار جيرانه آل حزم وكانوا جـماعة فيهـم محمد بن أبى بكر الذى تقـدم إليه مريداً قتلـه فأمسك بلحيته يؤنبه ويـحركها فى يده ، فذكره عثمان بأبيه وأنـه ما كان أبو بكر ليجلس هذا المجلس من عثمان. فلم يصنع شيئاً. وتقدم الغافقى فضربه بحديدة كانت معه. وجاء سودان بن حـمران ليضـربه فأكبت عليـه زوجه نائلة بنت الـفرافصة واتقـت السيف بيدها. فتعمدها ونفح أصابعها فـأطن أصابع يدها. ثم أهوى له بعضهم فضرب عنقه - ثم قالوا ما كـان دمه ليحل لنا دون ماله فانتـهبوه وأذاعوا خبر قتـله بالمدينة وكانت مدة حصاره اثنين وعشرين يوما وكان قتـله لثمان عشرة ليلة خلت من ذى الحجة سنة ٣٥ (٢٠ مايو سنة ٦٥٦) وذلك افتتاح التاريخ المشئوم.

هذا وقـد قدمنا أن مـدة الحصـار كانت أكـثر من هذا ، ولـعل ما هنـاك عدد للحصار على عمومه ، وأماعده اثنين وعشرين يوماً فهو شدة الحصار.

ما قعد بأهل المدينة عن نصر عثمان

أليس عجيباً أن يأتى جماعة من أمصار مختلفة إلى عاصمة الخلافة ودار الهجرة وجوار رسول الله يتألبون على الخليفة ثم يحصرونه وينتهى الأمر بقتله ولا ينتطح فى هذا الأمر عنزان ! مع طول مدة الحصار وانفسـاح أجله وامتداد الزمن واتساعه لعمل ما يمكن ؟ فما الذى قعد بالمهاجرين والأنصار عن نصرته ، والعمل على كف الأيدى عنه ؟.

والذى أقوله إن عثمان قد جرأ القوم على نفسه وأطمعهم فى جانبه بماكان عنده من الرأفة واللين وما رهقه من ضعف الشيـخوخة وبما كان منه من الأمور التى خالف

بها الخليفتين قبله. ولا يجد عنها جواباً مرضيا ولا مقنعا - وقد كان في مقدور المهاجرين والأنصار لو كانوا راضين عنه أن يمنعوه ممن أراده بسوء ويبددوا جموع المصريين الذين تولوا كبر هذا الحادث المشؤوم ، وما كان المصريون - وهم لا يزيدون عن ألف - ليعجزوا أهل المدينة ومن معهم من المهاجرين والأنصار لو كانت قلوبهم مع عثمان.

لا يعزب عنكم ما قدمته من أنه كان فى المدينة قوم يريدن الظهور على حساب الفتن والتقلبات ، وآخرون من دونهم يرون الخليفة حائلا بينهم وبين الأعمال والإمارة، ويرونه يتخطاهم بها إلى ذوى رحمه وقرابته ممن لم تقدمهم ولم تكن لهم سابقة ولا قدمة.

أضف إلى ذلك أموراً : منها أن عثمان لم يستن بسنة عمر فى الاستشارة وأخذ رأى أعلام المهاجرين والأنصار فى كل جليل ودقيق من أمور المسلمين العامة ، بل كان عثمان يفضي بنصيحته واستشارته إلى بنى أمية وهم مسبوقون غير سابقين ويقتدى بآرائهم وينتهى إلى مشورتهم. فلما رأى أعلام الصحابة وأهل الرأى أنه أخرهم وفيهم أضرابه ومن لا يرون له عليهم فضلا ، وأنهم صاروا عنده كقدح الراكب ، أشفقوا أن يكون الأمر إثرة واحتكاراً وأن يجعل أمر المسلمين إلى بنى عمومته من بعده فاضطغنت لذلك القلوب عليه وارتخت الأيدى عن نصرته.

كان أعلام الصحابة يرون أنه يفيض الولاية على أهله دونهم ودون أبنائهم وإن تفضيل قرابته إنما كان لقرابتهم منه ، ويرونه يصل رحمه على حساب المسلمين ويجعل الأمر دولة فى بنى أبيه. ويرون أنه يختصهم بالنفل من الأخماس ولا يفعل ذلك مع غيرهم. ويعطى مروان الآلاف من مال المسلمين ولا يفعل ذلك مع أحد سوى قرابته. وهو فى كل ذلك لا يرد الأمر إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وجماعة المسلمين كما كان يفعل عمر.

لهذا كله كان أهل المدينة - إلا نفراً منهم - يصغون بآذانهم إلى شكاية الشاكين وصخب الصاخبين ويميلون إلى مؤازرتهم على ما يشكون منه ولا ينكرون عليهم شكواهم. وكثير منهم كانوا يقعون فى عثمان وفى بنى أبيه من بنى أمية ويجهرون له بذلك ويتوعدونه بالنكال. وكانوا يلمزونه بالألقاب تحقيراً له فكانوا يسمونه نعثل ، وهو اسم رجل قبطى طويل اللحية كان بالمدينة. فكانوا يشبهون عثمان به فى طول لحيته تحقيراً له.

مر عثمان على جبلة بن عمرو الساعدى وهو فى ندى قومه وفى يد جبلة جامعة فسلم فرد القوم إلا جبلة ، فقال جبلة : لم تردون على رجل فعل كذا وكذا. ثم قال يا نعثل والله لأقتلنك ولأحملنك على قلوص جرباء ولأطرحن هذه الجماعة في عنقك أو لتتركن بطانتك هذه. فقال عثمان : أى بطانة ؟ فو الله إنى لأتخير الناس. فقال : مروان تخيرته ومعاوية تخيرته وعبد الله بن عامر تخيرته وعبد الله بن سعد تخيرته ، منهم من نزل القرآن بذمه وأباح رسول الله صلى الله عليه وسلم دمه، فانصرف عثمان وقد اجترأ عليه الناس بعد ذلك. قال الطبرى : ثم جاءه مرة أخرى وعثمان على المنبر فأنزله.

وقد خطب عثمان فى بعض أيام الفتنة. فقال عمرو بن العاص : يا أمير المؤمنين إنك قد ركبت نهابير وركبنا معك فتب نتب. ثم لما كان بعد ذلك خطب الناس فقام إليه جهجاه الغفارى فصاح : يا عثمان ألا إن هذه شارف قد جئنا بها ، عليها عباءة وجامعة فانزل فلندرعك العباءة ولنطرحك فى الجامعة ولنحملك على الشارف ولنطرحك فى جبل الدخان. فقال عثمان : قبحك الله وقبح ماجئت به. وكان ذلك عن ملأ من الناس.

وكان الشاغبون يحتجون على عثمان بأمور ذكرنا بعضها ضمن رد عثمان ونورد هنا أشهرها مجتمعا ليكون القارىء على ذكر منها :

(١) إقامة الصلاة فى منى وعرفة مع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبيه كانوا يصلونها على القصر. (٢) زيادة النداء الثالث على الزوراء يوم الجمعة. (٣) إخراج أبى ذر من الشام والمدينة إلى الربذة. (٤) سقوط خاتم رسول الله من يده فى بئر اريس. (٥) إفشاؤه العمل والولايات فى أهله وبنى عمه من بنى أمية وما كان من الوليد بن عقبة من شرب الخمر. (٦) صلته لأهله وبنى عمه بالأموال وإقطاعهم القطائع وحملهم على رقاب الناس. (٧) استئثاره برأيه ورأيهم وترك المهاجرين والأنصار لا يستشيرهم ولا يستعملهم. (٨) أنه أعطى مروان خمس غزوة إفريقية. (٩) أنه وصل عبد الله بن خالد بن أسيد بأربعمائة ألف درهم. (١٠) أنه أقطع الحارث بن الحكم موضع سوق بالمدينة كان تصدق به رسول الله صلى الله عليه وسلم على المسلمين. (١١) أنه أعطى أبا سفيان بن حرب مائتى ألف درهم. (١٢) أنه زوج الحارث بن الحكم بنته عائشة فأعطاه مائة ألف من بيت المال. (١٣) أنه حمى الحمى حول المدينة إلا عن بنى أمية. (١٤) أنه رد الحكم بن أبى العاص طريد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وأعطاه مائة ألف درهم. (١٥) مجاوزته الخيزران إلى السوط وهو أول من استعمل السوط وضرب به ظهور الناس. (١٦) تطاوله فى البنيان حتى عدوا سبع دور بناها بالمدينة : لنائلة زوجه دار ولعائشة بنته دار ، ولغيرها من أهله وبناته كل دار (١٧) ضربه عبد الله بن مسعود حتى كسر ضلعاً من أضلاعه.

ولا شك فى أن هذه الأمور بعضها كان يحقده عليه المهاجرون والأنصار وأهل المدينة وقد ولع به الشاغبون وأتوا الناس من الناحية التى يحبون سماع القول منها وكان ذلك سببا لخذلان أهل المدينة إياه.

إن عثمان له عذر في كل شيء أخذوه عليه غير أن من الأعذار ما يكون وجهه واضحاً بينا ، ومنها مالا تقبله النفوس إلا على مضض وهم إنما كانوا يريدون منه فى كل ما نقموا عليه أن يسير فيهم بسيرة عمر بن الخطاب وأبى بكر حتى لقد نصحته أم

سلمى زوج رسول الله بكلام طويل فقال لها : "يا أمنا قد قلت فوعيت ونصحت فاستوصيت. إن هؤلاء النفر رعاع غثرة تطأطأت لهم تطأطؤ الماتح الدلاء وتلددت لهم تلدد المضطر فأرانيهم الحق إخواناً وأراهمونى الباطل شيطاناً. أجررت المرسون منهم رسنه وأبلغت الرائع مسقاه فانفرقوا على فرقا ثلاثا فصامت صمته أنفذ من صول غيره، وساع أعطانى شاهده ومنعنى غائبه ، ومرخص له في مده زينت على قلبه. فأنا منهم بين ألسن لداد وقلوب شداد وسيوف حداد. عذيرى الله، ألا ينهى منهم حليم سفيها ولا عالم جاهلا والله حسبى وحسبهم يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون.

وعلى الجملة فإن قلوب أهل المدينة كانت عامرة ببغضه ولولا ذلك لوجد من يجيد الطعان ، ويغضب لأميرالمؤمنين أن يعتريه بالأذى هؤلاء الفجار الأشرار.

غير أن نفسى غير مطمئنة إلى أن يبلغ الغيظ بأصحاب رسول الله من عثمان عليه أن يخلوا بينه وبين الشاغبين يريقون دمه ويتذامرون عليه بالإثم والعدوان تذامر الإيسار على الجزور. وأن الأمر لكما قال عثمان لعلى : "لولا أن الأمر أمر الجاهلية فقط ولم يكن الإسلام والأخوة لكان حقا عليك أن تنصرنى ولا تخذلنى" .

فعثمان وقع بين عوامل كثيرة : (١) الشاغبون وهم لا يتركون ما في رؤوسهم دون إنفاذة لأن فشلهم خطر عليهم. (٢) أهل المدينة وهم بين خاذل وساكت راضٍ وقليل منهم يؤلبون ويعاونون عليه. (٣) بنو أمية وهم يريدونه على المطاولة إلى أن يصل المغيثون ويحملونه على نقض ما أبرم ، وكلما رأى طريقا للتفريج لا يحبونها حملوه على سدها. (٤) عثمان بمطاوعة بطانته وإحجامه عن إعطاء القوم ما أرادوا وإبائه عن النزول عن الخلافة وإلقاء الأمر يدبرونه كما يشاءون وكان فى ذلك صيانة دمه - ولقد كان له فيما أشار به عليه المغيرة بن شعبة مناص مما لقى لو قدر الله له ذلك ، فإن المغيرة بن شعبة لقى عثمان وهو محصور ، وقال له : يا أمير المؤمنين إنك أمام العامة وقد نزل بك ما ترى. وإنى أعرض عليك خصالا ثلاثا اختر إحداهن : إماأن تخرج فتقاتلهم فإن معك عدداً وقوة وأنت على

الحق وهم على الباطل. وإمـا أن تخرق لك بابا سوى الباب الذي هم عليه ، فـتقعد على رواحلك فتلحق بمكة فإنهم لن يستحلوك وأنت بها. وإما أن تلحق بالشام فإنهم أهل الشام وفيـهم معاوية. فقال عـثمان : أماأن أخرج فأقـاتل ، فلن أكون أول من خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أمته بسفك الدماء. وأما أن أخرج إلى مكة فإنهم لن يستحلونى بها فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "يلحد رجل من قريش بمكة يكون عليه نصف عـذاب العالم ، فلن أكون أنا. وأما أن ألحق بالشام فإنهم أهل الشـام وفيهم معاوية. فلن أفارق دار هجـرتى ومجاورة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

إجمال الأسباب التى أدت إلى قتل عثمان

بعد ذلك التمهيد الذى قدمناه بين يدى قتل الخـليفة عثمان بن عفان وشرحنا به أحوال الأمصار الإسـلامية التى كانت سبيل تـلك الفتنة أو كان السبئـية يستندون إلى شىء كان فيها ، أرى أن أجمل أسباب قـتل عثمان التى يمكن أن تستنتج من الحوادث والوقائع والأحوال التى قدمنا ليكون القارىء على ذكر منها.

السبب الأول من الأسباب التى أفضت إلى قتل عثمان اختلاف رؤساء المسلمين فيما بـينهم وتطلع الباقين من أهل الشورى كـل ليجذب الأمر إلى نفسـه ، واختياره عمن عداه بسبـب ما وجده كل واحد منهم من شيعة تـؤيده وتحطب فى حبله وتريده عليها فلم يدفعـوا عنه دفاعا صحيحا ولم يخذلوا عنه ، بـل كان الساكت منهم يقرأ القارىء فى طى هذا الـسكوت منه كتبا مطولـه - ولم يكونوا على اتفاق فيـما بينهم وبين عثمان ولا على اتفاق فيما بينهم وبين بعضهم. ومعلوم أن الأمم والجماعات إنما تدار أمورهم العامـة برءوس قليلة وبقية الناس لهم تـبع - فإذا لم تكن هذه الرءوس متحدة فى المبدأ والغاية صدرت الأعمال متناقصة متعاكسة بعيدة عن النفع والفلاح.

وان اختلاف رؤساء المسلمين وعدم الإخلاص فيما بينهم هو الذى أفسح مجال الدسائس والسعايات ، فإن إخلاص الرؤساء بعضهم لبعض وتعاونهم فيما بينهم على

قضاء المصالح العامة يقطع على مريد السوء والفساد طريق الفتن والثورات فأما إذا انصدع الشمل وتحولت القلوب وحلت الكراهة محل المحبة والتحاسد محل التناصر ، انفسح المجال لرواد الفتن ومحبى الاضطراب وعلى هذا كانت الحال فى المدينة وهى حاضرة الخلافة ومجتمع رؤساء المسلمين والمرشحين منهم لولاية الأمر فإن من وقف على أحوالهم وما كان يبدو على ألسنتهم من الكلمات الشديدة المؤلمة فى حق عثمان سواء فى وجهه أو فى غيبته يحكم صادقا أن النفوس كانت منطوية على الضغن له. لذلك أفسحوا للأقوال فى عثمان المجال ولم ينه بعضهم بعضاً عن ذلك وكان بعضهم يكاتب السبئية وأهل الشغب ويستقدمهم إلى المدينة. وما كان يليق بأمثالهم أن يجعلوا معولـه على أهل الشقاق دون الأعلام من أصحاب رسول الله الذين فى الأمصار. ولكن الذين كتبوا يستقدمون أهل الشقاق إنما آثروهم لأنهم يعلمون أن أعلام أصحاب الرسول فى الأمصار يكونون أكثر تثبتاً وأقل أقداما على ما يحل. وهم وإن كانوا يكتبون فى الكتب الاستغاثة بأصحاب رسول الله غير أن كتبهم إنما كانت ترد على فئة خاصة مشاقة قلما يكون فيها واحد أو اثنان من أصحاب رسول الله.

ذكر صاحب الإمامة والسياسة أن حويطب بن عبد العزى قال أرسل إلى عثمان حين اشتد حصاره فقال : قد بدا لى أن أتهم نفسى لهؤلاء فات عليا وطلحة والزبير فقل لهم هذا أمركم تولوه واصنعوا فيه ما شئتم. فخرجت حتى جئت عليا فوجدت بابه مثل الجبال من الناس والباب مغلق لا يدخل عليه أحد. ثم انصرفت فأتيت الزبير فوجدته فى منزله ليس ببابه أحد فأخبرته بما أرسلنى به عثمان. فقال قد والله قضى ما عليه أمير المؤمنين هل جئت علياً ؟ قلت: نعم فلم أخلص إليه. فقمنا جميعاً فأتينا طلحة بن عبيد الله فوجدناه فى داره وعنده ابنه محمد فقصصنا عليه ما قال عثمان. فقال قد والله قضى ما عليه أمير المؤمنين. هل جئتم عليا ؟ قلنا نعم فلم نخلص إليه ، فأرسل طلحة إلى الأشتر فأتاه فقال أخبره فأخبرته بما قال عثمان. فقال طلحة - وقد دمعت عيناه - قد والله قضى ما عليه أمير المؤمنين. فقام الأشتر فقال : تبعثون إلينا وجاءنا رسولكم بكتابكم وها هو ذا. فأخرج كتابا فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم. من المهاجرين الأولين وبقية الشورى إلى من بمصر من الصحابة والتابعين. ، أما بعد أن تعالوا إلينا وتداركوا خلافة رسول الله قبل أن يسلبها أهلها. فإن كتاب الله قد بدل وسنة رسوله قد غيرت وأحكام الخليفتين قد بدلت فننشد الله من قرأ كتابنا من بقية أصحاب رسول الله والتابعين بإحسان إلا أقبل إلينا وأخذ الحق لنا وأعطاناه فأقبلوا إلينا إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ؛ وأقيموا الحق على المنهاج الواضح الذي فارقتم عليه نبيكم وفارقكم عليه الخلفاء. غلبنا على حقنا واستولى على فيئنا وحيل بينا وبين أمرنا وكانت الخلافة بعد نبينا خلافة نبوة ورحمة وهى اليوم ملك عضوض من غلب على شىء أكله ، أليس هذا كتابكم إلينا؟ وقال الطبرى إن عثمان رمى بوصيته إلى الزبير فأخذها وانصرف - وفى الزبير خلاف هل أدركه مقتل عثمان أو خرج قبله - وقال عثمان : يا قوم لا يجرمنكم شقاقى أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربى رحيم ودود - اللهم حل بين الأحزاب وبين ما يأملون كما فعل بأشياعهم من قبل. وبعثت ليلى بنت عميس إلى محمد بن أبى بكر ومحمد بن جعفر فقالت : إن المصباح يأكل نفسه ويضيء للناس. فلا تأثما فى أمر تسوقانه إلى من لا يأثم فيكما. فإن هذا الأمر الذى تحاولون اليوم لغيركم غدا. فاتقوا الله أن يكون عملكم اليوم حسرة عليكم. فلجا وخرجا مغضبين يقولان لا ننسى ما صنع بنا عثمان - وتقول ما صنع بكما إلا ما ألزمكما الله فلقيهما سعيد ابن العاص وكان بينه وبين محمد بن أبى بكر شىء فأنكر حين لقيه خارجا من عند ليلى فتمثل له فى تلك الحال بيتاً :

استبق ودك للصديق ولا تكن ... فيئاً يعض بخاذل ملجاجا

فأجابه سعيد متمثلا :

ترون إذا ضربا صميما من الذى ... له جانب ناء عن الجرم معور

ولما قـدم السابق من الحـاج بسلامـة الناس. أخبـر أن الناس جمـيعـا يريدون المصريين وأشياعهم وأنهم يريدون أن يجمـعوا ذلك إلى حجهم. فلما أتاهم ذلك مع ما بلغهم من نفور أهل الأمصار أعلقهم الـشيطان. وقالوا لا يخرجنا مما وقعنا فيه إلا قتل هذا الرجل فيشـتغل بذلك الناس عنا ولم يبق خصلة يرجون بهـا النجاة إلا قتله فراموا الباب فمنعهم من ذلك الحسن وابن الزبير ومحمد بن طلحة ومروان بن الحكم وسعيد بن العاص ومـن كان من أبناء الصحابة أقام معهم واجتـلدوا فناداهم عثمان : الله الله أنتم فى حـل من نصرتى فـأبوا ففـتح الباب وخـرج ومعـه السيف والـترس لينهنههم ، فـتراجعوا وعظم على الفـريقين وأقسم على الصحابة لـيدخلن. فأبوا أن ينصرفوا فدخلـوا فأغلق الباب دون المصريين. وقد كان المغـيرة بن الأخنس بن شريق فيمن حـج ثم تعجل فى نفر حجـوا معه فأردك عثـمان قبل أن يقتل وشهـد المناوشة ودخل فى الدار فيمن دخل وجلس على الباب من داخل وقال : ما عذرنا عند الله أن تركناك ونحن نستطيع أن لا ندعهم حتى نموت. فاتـخذ عثمان القرآن تلك الأيام نجيا يصلى وعـنده المصحف فـإذا أعيـا جلس فقـرأ فيـه ، وكانوا يرون فـيه القـراءة فى المصحف من العبادة.

وقد أثرت كلمات في حق عثمان عن كثـير من كبراء المدينة ، كما قدمنا. كل ذلك يقال ويفعل من غير بيان للأسبـاب التى أدت بهم إلى مثل ذلك بيانا شافيا ومن غيـر نظر إلى ما تحـدثه كلماتهم بـين العامة وبخـاصة إذا صادفت آذانـا مصغـية من مهيجين مثيرين.

السبب الثانى – يقول زهير بن أبى سلمى :

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم

وقد كان عثمـان رجلا قد استولى عليه من الأخلاق الحيـاء واللين : أما حياؤه فكان مشهورا به فى الجاهلية والإسـلام ، وقد قال فى حقه رسول الله صلى الله عليه وسلم **"ألا أستـحى من رجل تسـتحى منـه الملائكة"** ومعلـوم أن خلق الحياء يـحمل صاحـبه على الإغـضاء عن كثـير مما يكره وأمـا اللين فدعاه إلـيه أنه يحب السـلامة

والعافية ويكره الفتن ويخاف أن يكون فاتح بابها على الأمة ويتشاءم من كل أمر يظنه مؤديا إليها. وهو فى كل كتبه وخطبه يحذر الناس الفتنة ويأمرهم بتوقى أسبابها وينهاهم عن التورط فى حبائلها : حتى أن خطبته التى قالها على المنبر لأول مرة لم تخل عن ذكر الفتن ومغباتها وما تستعقب من وبال والتحذير من ذلك.

أما الخلق الأول وهو الحياء فدعاه إلى التسامح مع من يناله بالأذى أو يقصده بالسوء فلا يوجه إلى أحد من المعتدين كلمة تسوءه. لأن صاحب هذا الخلق يخجل أن ينسب إليه قبيح ولو كان دفاعاً ويحب أن يؤثر عنه الجميل من القول والعمل وكم من مرة قد جهد عثمان أن يخرج نفسه عن سيرته الأولى ليكف الناس عنه ويهابوا جانبه ولكن تأبى الطباع على الناقل ، وهذا الخلق الكريم لا يحسن إلا بالمتسمتين وفلاسفة الأخلاق ومن نصبوا أنفسهم ليكونوا قدوة للناس فى العفو والصفح. وأما أهل الحكم والسلطان والقول النافذ فى الرعية فإنهم يحتاجون إلى هيبة تملأ القلوب وتقف بالناس عند حد الإجلال لهم والإعظام لشأنهم والإكبار لمقامهم.

ولا خير فى حلم إذا لم تكن له بوادر تحمى صفوه أن يكدَّرا

هذا عمر بن الخطاب - قد جاء سعد بن مالك وهو يقسم العطاء ينحى الناس ويفرقهم حتى خلص إليه مدلا بماله من سابقة وحسن بلاء فلم يحجز ذلك عمر أن خفقه بالدرة وقال له : جئت لاتهاب سلطان الله فأحببت أن أعلمك أن سلطان الله لا يهابك. فالسلطان أحوج الناس إلى قوة تنحى عنه الضعف وتنكب به عن الذلة. وعثمان لم يكن له حظ من القوة اللائقة بسلطان الخلافة.

أما خلق اللين فقد قبض يده عن زعماء المفسدين وقادة المشاقين الذين دفعوا إليه وثبت عليهم أنهم إنما قدموا للمشاقة والفتنة فلم يتناولهم بعقاب يبين آثار ذنوبهم على صفحات جنوبهم. وقد كان فى مقدوره أن يقطع أعناق الفتنة بنكالهم وقد أمكنه الله من نواصيهم. ولما أراد مشاورة ولاته فى تلافى الخطر أشاروا عليه بما فى بعضه مقنع وحسم لمادة الداء لو أخذ الأمر بالحزم ولم يمل إلى جانب العجز. فلم يعبأ

بالقول. ولم يفر ما خلقوا من خطة الجد. بل اختار جاب اللين خشية أن يكون فاتحاً باب الفتنة التى كان شبحها يخيفه فى كل حركاته وسكناته - واجتزأ من نكال محركى الفتنة ومثيرى عجاجها بأن احتج لنفسه وأبدى عذره فى كل أمر جاءوا لإثباته عليه فى حين أنهم جماعة قد بيتوا الأمر واختمر فى نفوسهم زمناً. والجماعة لا يمكن أن توثر فى نفوسهم الأقوال المعقولة والبراهين القاطعة إذ الجماعات فى العين شخص أصر عن الموعظة مصغ إلى التهييج متلبب لفعل الشر. والجماعات إنما تهاب القوة وتخضع للقسر والقهر فهى معبودها الأول ودينها الذى تدين له. فما زاد عثمان الأمر باعتذاره إلا فساداً وقوى فيهم الجرأة عليه والإقدام على مساخطه . والقوم ليسوا بطلاب حق تنفعهم الذكرى وتقيمهم الحجة على المحجة وإنما هم طالب شر يتطلبون الطريق إليه كلما أعجزهم باب التمسوا غيره. فضعفه هو الذي جرأهم عليه.

السبب الثالث :- ما خالف به عثمان صاحبه عمر فى أعلام قريش : فإن عمر كان يحجر عليهم فى المدينة فلا يسمح لهم أن يفارقوها إلا باذن وأجل فلما جاء عثمان سمح لهم بذلك. وكان هذا مما حببه إليهم أكثر من عمر - ولكن هذا السماح قد جنى على عثمان وترتب عليه ماكان يحذره عمر. فإنه قد اجتمع إلى أعلام قريش أناس ممن لا سابقة لهم فى الإسلام والتصقوا بهم وتقربوا إليهم مقدرين أنه إذا أفضى الأمر إليهم فى يوم من الأيام كانوا أقرب الناس إليهم فنبه بذلك ذكرهم وطار لهم صيت وجرت أسماؤهم على الألسنة.

يشهد لذلك أن أهل البصرة كانوا يحطبون فى حبل طلحة ويجهدون فى أن يلى الخلافة بعد عثمان ، وكان أهل الكوفة يريدون الزبير بن العوام. ولولا اضطراب هؤلاء الرهط فى الأمصار أيام عثمان ما كان لواحد منهم شيعة فى بلد من البلدان.

لا شك فى أن علياً لم يهبط إلى مصر ولا إلى غيرها من البلاد. غير أنه كان له دعاة متطوعون بالدعوة يشيدون بذكره ويروجون أمره فيها وهم عبد الله بن سبأ

الذى استفسد الناس باسمه وأدخل على الأمة ضرباً من الإلحاد على حسابه ومحمد بن أبى بكر ربيبه فإن أسماء بنت عميس زوج أبى بكر تزوجت بعد بعلى بن أبى طالب وابنها محمد بن أبى بكر صغير فربى فى حجرها ورباه على فكان له كالوالد. فلما سقط إلى مصر آوى إلى محمد بن أبى حذيفة وعنده من الحنق على عثمان ما أكل صدره ومحمد بن أبى بكر موتور من عثمان لما قدمنا واتحادهما فى عداوة عثمان يوحد وجهتهما فكانا على الحط على عثمان وتمهيد أمر على ولا يبعد أن يكونا أو أحدهما قد استعمل اسم على فى التأليب على عثمان وإثارة الثائرين عليه وعلى لا يعلم ذلك ، فقد حلف أنه ما كاتب للمصريين كتابا ولا دعاهم. ولما قدمنا كان هوى أهل مصر فى على بن أبى طالب فلم تكن مطالب أهل الأمصار إلا نتيجة لازمة لما سامح به عثمان وانقطاع العامة إلى أولئك الأعلام أو إلى من هو بسبيل منهم رجاء أن يكون لهم شأن نابه وصيت طائر إذا انتقلت الخلافة من عثمان إلى صاحبهم.

لهذا لما تم الأمر لعلى بن أبى طالب صاحب المصريين ولم يتم للأخرين اجتمعا عليه وحارباه وجهدا فى نقض بيعته والتأليب عليه. ، وقد قال الأستاذ الخضرى : لا يمكن من قرأ تفصيل الحوادث التى سبقت قتل عثمان أن ينفى عن أعلام قريش تطلعهم إلى ولاية الأمر – ولكن من الصعب أن يثبت على أحدهم اشتراك حقيقى مع المتآمرين – والذى يؤخذ عليهم "وهوادتهم فى القيام بنصرة عثمان خليفة المسلمين واسترسال بعضهم فى الأقوال التى تحط من قدره حتى وقت اشتداد الأزمة وعلى مسمع من رؤساء الثائرين الذين يشتد هياجهم بمثل هذه الكلمات.

السبب الرابع – هذا السبب أسوقه عن محاضرات الأستاذ الخضرى مع ما يمكن أن يعرض من استدراك أو توضيح مما أراه :

سهولة التأثير فى الجماعات متى أتوا من قبل ما يهوون وما يحبون. وهم فى هذا الحال لا يصطبرون حتى يتثبتوا مما يلقى عليهم. بل سرعان ما يصدقونه ويألمون له إن كان مؤلما ويسرون إن كان ساراً. وقد كان الناس مسلمين يحبون نبيهم أكثر مما

يحبـون أنفسهم ، عرباً يحـبون العدل والمساواة ويـطربون لذكرها. وقد ذوقهـم عمر حلاوة ما يـعشقون من الحـرية والعدل والمساواة وقـوى ذلك فى نفوسهم فـجاء ذلك الشيطان عبد الله بن سبأ إلى القوم من الجهـة التى يألفونها وهى نقطة ضعفهم وصار يضع لهم الكلام في تعظيم الرسول وأهل بيتـه ويعسوبهم على بن أبى طالب ووسمه بأنه وصى رسول الله صلى الله عـليه وسلم كما كان لـكل نبى وصى. وأنه من الحق الواجب أن يعطى الأمر لصاحب الحق لأن من اجترأ عليه فأخذه منه ظالم غاشم. ثم أخذ يذيع ما يدسه مدحاً لعلى بن أبى طالب حـتى سما به إلى درجة لم يطلبها على لنفسه وتخطى بـه طوره إلى أن وضعه موضع الألوهية. وغيـر هذا الأمر الأخير من الكلام يسهل إدخاله فى القلوب وبخاصة إذا كان قد سبقه شىء من الضغينة على من بيده أمر الخلافـة - ولذلك نرى هذا الرجل كان يتتبع من أصـابه من ولاة عثمان أذى فى نفسه أو مالـه ، ويفضى إليه بما رتبه من القول وهيـأه من الإذاعة. ثم جاءهم من قبيل العدل والمساواة وهى كلمات طنانة يؤلهها الجمهور ويصغى إليها الناس. حتى إذا ما أيقن أنه استهوى القوم بما نفث من الرقى ، أخـذ يطعن فى أمراء عثمان مرة بأنهم شبان. ومرة بأنهم من ذوى قرباه ، وأخرى بأنهم ظلمة يسومون الناس خسفاً.

والموتورون - الذين كـانوا يوازرونه ويؤيدونـه لأغراض فى أنفـسهم - تلقـفوا الأمر بحذق ، واشتغـلوا به بمهارة. فصارت شيعتهم في كل مـصر تكتب إلى المصر الآخر بما عندهم من المحزنات التى يتزيدون فيها ما شاءت لهم ضغائنهم وأهواؤهم ، فيقرأ كتابهم على العامة علناً فيستغيثون بالله مما حل بإخوانهم ، ويقولون : نحن فى عافية مما ابتـلى به هؤلاء الناس. وهم لا يعلمون أن إخوانهم بالمصر الآخـر يتوجعون لهم ويحمـدون الله على العافية مما أصيـبوا به. بذلك كله تهيأ لـهم أن يوغروا صدر العامة ممن يجتمع عليهم ، وليس لشىء مما يكتبون صحة. فقد كانوا يعيبون معاوية. وهذا لم يوجده عثمان بـل ولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم وولاه أبو بكر وولاه عمر. ولم نر من العمـال من استمر موثوقاً به من عمر حيـاته كلها إلا أفراداً قليلين

منهم معاوية بن أبى سفيان فقد كان والياً من أول حياة عمر إلى آخرها.

وكانت الشــام أعدل ولايات المسلمين وأهدأها. وإنى لم أقف لهم فــى معاوية على عيب أو عمل منتقد إلا ما قــالوه في مسألة أبى ذر. والمصنف يرى أن عمل أبى ذر وقوله فــيما دعــا إليه لم يكن فــيه مصــيباً ، بل هو يــدعو إلى الشقــاق والخلاف والتكالب على الدنيا والإســهاب في المال لمن لا يستحق. وكانوا يعيــبون عبد الله بن أبى سرح لا لأنه ظالم أو جــائر ولكن لأمر آخر وهو أن النبى صلــى الله عليه وسلم كان قــد أهدر دمه يوم الفتــح لما كان من ردته ثم اســتوهبه منه عــثمان وأتى بــه تائباً مسلماً فعفا عنه. ومعلوم أن رســول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا عفا فإنما أسبل على الذنب ستراً لا يكشف وليس عبد الله بن سعد فيما أتى بأكثر من العدد الجم من الشاغــبين إذا ارتدوا مع قبــائلهم عقب وفاة رســول الله صلى الله عليه وســلم. فهم يعيبون عليه شيئاً أحدث عهداً به منه. وكانوا يعيبونه بتولية الوليد بن عقبة ، وعثمان لم يبتدىء بتوليته ولكنه كان والياً لعمر من قبله على الجزيرة وإنما نقله عثمان منها إلى الكوفة فلما جاء كان أحسن وال سيرة إلى أن شغــبوا عليه وشهدوا عليه بشرب الخمر شهــادة لا يعلم إلا الله إن كــانوا قد بروا بــها أو فجــروا فحــده وعزله عنهــم. وقد استضعــف علي رأى من عد ذلك على عثمان. وقال ما مــعناه لا تكن كمن يطعن نفسه ليصل بالطعنة إلى رديفة ليقتله ! ما لعثمان وللوليد ؟ وما ذنبه إن عثمان قد ولى الوليد ؟ فــلما استوجب الحــد حده وعزله فــما ذنبه فيــما كان عن ملأ مــنا ؟ وكانوا يعيــبون سعــيد بن العــاص وكان باعتــراف أهل الكوفة من أجــود العمال في عــمله وأشدهم تحــرياً للعــدل والقسط فلم تــكن هذه المذام والأمور التــى يتجنون بهــا على العمال موجهة بحق لرفع جور أو إزاحة حــيف، وإنما كان يقصد بها التأثير فى قلوب الناس وهم يتأثرون بســرعة من مثل هذه الأقوال دون احتــياج إلى دليل أو برهان لأن الأدلة والبراهين والحجج العقلية والنتائج المنطقية لا تؤثر فى عقول الجماعات ولا تتفق معها.

وقد ساعد على استفحال الشــر أولياء الأمر وأصحاب الرأى فى الأمصار إذ لم

يبادروا الشر قبل استفحاله ويأخذوا الحيطة من تفاقم الفتنة - لأن أمراء الخليفة لم يكن لهم مثل هذا السلطان. والخليفة آخذ على أيديهم مشفق أن يبسطها فيفتح عليه باب الفتنة الذى يسعى إلى سده جهده حذراً من أن يأمر بذلك ، فضاعت مصلحة الأمة. وإذا أردنا أن نحمل الناس فى ذلك الوقت تبعة أعمالهم وجدنا عثمان أقلهم تبعة فى ذلك لأن الحلم واللين لم يكونا فى زمن من الأزمان مما يتجنى به على أولى الأمر والتبعة يحملها من مهدوا السبيل لذلك التجنى.

هذا رأى الأستاذ الخضرى ومن رأيى أن عثمان يحمل قسطا ليس بالقليل فى شأن تلك الجناية لأنه إذا كان قد عرف من نفسه الرقة واللين فكان الأجدر به أن يترك الأمر لغيره ولا ينكب الأمة بقتله ولا يفجعها هذه الفجيعة الحارة المرة.

وقال صاحب أشهر مشاهير الإسلام : "وأما إفضاؤه إلى بنى أمية بأموره دون غيرهم من أهل الشورى والسابقين واستئثارهم بالسلطة واقتطاعهم الأمور دونه فهو الأمر الذى اهتزت له أعصاب المهاجرين وحذر عاقبته عقلاء المسلمين خوف اصطباغ الدولة بالصبغة الأموية . . ومع تأكد عثمان من عدم رضا المسلمين عن استسلامه لأولئك النفر من أهله وعشيرته وإن أكثر ما هاج المسلمين عليه تسلط هؤلاء عليه واستئثارهم بالأمر الذى لم يكن لهم خاصة بل هو لكل المسلمين لا سيما أولى السابقة منهم والمهاجرين. فقد كان حريصا على أن لا يتخلى عنهم ولا يجيب ملتمس الأمة (من الظلم أن نقول الأمة ولكن الأولى أن يقال أهل الفتنة) فيهم. وليس لهذا الإصرار على ما يظهر لنا من سبب إلا أحد أمرين : إما لأن قومه استلانوا جانبه واستضعفوه فغلبوا على رأيه فيهم وإما لأنه أحس منذ عهد عمر للستة ووقوع الاختيار. بظهور تحزب بين الشعب وتشيع يجر إلى الاختلاف عليه والكيد له. فخشى إن هو انفرد عن قومه وقاطع أهله وعشيرته أن يتوثب عليه عمال الأمصار فلا يجد دون أهله عاصماً مما يأتيه من قبل المتوثبين عليه فاستمسك بذوى قرابته وولاهم على الأمصار ، فلما كثر الإرجاف بهم والطعن عليهم ورغب إليه الناس فى

عزلهم زاد به القلق من جهة ما كان يخامره من الشك فى الشيع فولى شكايتهم ظهره وأصر علـى بقاء الولايات فى ذوى قـرابته وركن إليـهم واعتـمد فى الأمور علـيهم فكانت له ولهم إثرة أنكرهـا عليه الصحابة وعلى ولاته أشـد الإنكار وتذرع الثائرون عليه بـتلك الأحداث إلى خلعـه تخلصاً من سلـطان أهله وكانت الأثرة هى الـسبب الأول في استـفحال أمر الفـتنة التى لما اشتدت نـارها واشتعل أوارها أصـبح إطفاؤها خارجاً عن طوق كبار الصحابة وقادة الناس. وربما ندموا حينذاك على ما تقدم ولات ساعة مـندم. أخرج ابن عساكـر عن الأوزاعى أنه قال : قيل لـعلى بن أبى طالب : أفقتل عـثمان منافقـا ؟ قال لا ولكنه ولى فاستـأثر وجزعنا فأسأنا وكل سـيرجع إلى حكم عدل. فإن تكن الفتنة أصابتنا أو خبطتنا فما شاء الله" ا هـ.

ومن الغريب بعـد ذلك أن تبقى هذه الحادثة سبـبا دائما لتفريق كـلمة المسلمين ففى بعض الأحيـان فرقة عملية تتـوسط فيها السيوف والأسنـة ،وفى بعض الأحيان فرقة كلامية تنتهى دائمـا بعداء ونفور. وليس ذلك إلا لأن المسألة ألبست ثوب الدين وكل حاول الوصـول بما يثبته وما يـختلفه إلى غرض من الأغـراض. ولو نظرنا إلى المسألة بنظر صحيح لقلنا. خليفة من خلفاء المسلمين غضب عليه بعض رعيته بعضهم سيء القصد والبعض الآخر تابع لهم ثم قاموا عليه وحصروه وقتلوه بشكل وحشى لا يتفق مع أصـول الإسلام. ثم نحكم بأنهم أخـطأوا خطأ عظيما ثم ذهـبوا إلى من له الحق أن يدينهـم ولـم يبق متـهم يمكننا الانتـقام منه لسـوء قصده أو نبين الـصواب له لخطئه. وغايه الأمر أن الباقى لنا من كل ذلك هو الاستفادة مما كان ، فالعاقل همه أن يتعلم ويفهم لا أن يحقد على قوم لم تبق منهم باقية.

لا تمكن حماية الأمة من أصحاب المقاصد السيئـة الذين يريدون فتنتها وتهييجها لغير مصلـحتها إلا إن كان فيها من العـقلاء من يحترم رأيهم وتسمع كلمـتهم فإنهم يبصرون قومهم بما يعود عليهم بالخيـر والفلاح. وكل أمة فقدت هؤلاء السراة العقلاء سهل على مـثل ابن سبأ ومن لف لفـه أن يفتنوها ويلفتـوها عما يصلحهـا ويجعلوا

بأسها بينها شديداً. وهم فى كل زمن كثيرون فما ظنك بالأمة إذا كان سراتها ممن يساعد على فتح باب الشر بإغضائه وتهاونه. إن الشر حينئذ يكون مستطيراً والبلاء عظيما وسيمر بنا فى التاريخ من ذلك شىء كثير.

قبل الحصار

أُلخص هنا رواية الطبرى إلى محمد بن مسلمة - قال: خرجت فى نفر من قومى إلى المصريين. وكان رؤساؤهم أربعة: عبد الرحمن بن عديس البلوى. وسودان بن حمران المرادى، وعمرو بن الحمق الخزاعى - وقد كان هذا الاسم غلب حتى كان يقال جيش ابن الحمق - وابن النباع. فدخلت عليهم وهم فى خباء لهم أربعتهم. ورأيت الناس لهم تبعاً. فعظمت حق عثمان وما فى رقابهم من البيعة. وخوفتهم الفتنة. وأعلمتهم أن فى قتله اختلافاً وأمراً عظيما. فلا تكونوا أول من فتحه. وأنه ينزع عن هذه الخصال التى نقمتم عليه فيها وأنا ضامن لذلك. قال القوم: فإن لم ينزع؟ قلت: فأمركم إليكم. فانصرفت عن القوم وهم راضون.

رجعت إلى عثمان فقلت: اخلنى. فأخلانى، فقلت: يا عثمان، اتق الله فى نفسك. فإن هؤلاء القوم إنما قدموا يريدون دمك. وأنت ترى خذلان أصحابك لك. لا، بل هم يقوون عدوك عليك. فأعطانى الرضا. وجزانى خيراً.

أقمت ما شاء الله أن أقيم. وقد تكلم عثمان برجوع المصريين. وذكر أنهم جاءوا لأمر فبلغهم غيره فانصرفوا. فأردت أن آتيه لأعنفه ثم أمسكت. فإذا قائل يقول: إن المصريين قدموا وهم بالسويداء. فأرسل إلى عثمان فقال: يا أبا عبد الرحمن هؤلاء القوم قد رجعوا فما الرأى فيهم؟ قلت لا أدرى إلا أنى أظن أنهم لم يرجعوا لخير. قال: فارجع إليهم فارددهم. قلت: لا والله ما أنا بفاعل. قال: ولم؟ قلت لأنى ضمنت لهم أموراً تنزع عنها فلم تنزع عن حرف منها. فقال: الله المستعان.

جاءنى ابن عـديس ومعه سودان بـن حمران وصاحـباه ، فقالوا : يا أبـا عبد الرحمن ألم تعلم أنك كلمتنا ، ورددتنا ، وزعمت أن صاحبنا نازع عما نكره ؟ قلت بلى. فإذا هم يخـرجون إلى صحيـفة صغيرة فى قـصبة من رصاص يقـولون وجدنا جملا من إبل الصدقة عليـه غلام عثمان ، فأخذنا متاعه ففتـشناه ، فوجدنا فيه هذا الكتاب. فإذا فيه "بسم الله الرحمن الرحيم * أما بعد ، فإذا قدم عليك عبد الرحمن ابن عديس فاجلده مـائة ، واحلق رأسه ولحيته ، وأطل حبسـه ، حتى يأتيك أمرى. وعمر بن الحمق فافعل به مثل ذلك. وسودان بن حمران مثل ذلك. وعروة بن النباع مثل ذلك. قلـت : وما يدريكم أن عثـمان كتب هذا؟ قالـوا : فيفتـات مروان على عثمان بهذا ؟ فـهذا شر. فيخرج من هذا الأمر ، ثم قالوا : انطلق مـعنا إليه ، فقد كلمنا علياً ووعـدنا أن يكلمه إذا صلى الظهر. وذكروا أنهم كلمـوا ناساً من أصحاب رسول الله فأبوا أن يكلموا عثمان.

قال محمد بن مسلمة : ثم دخلت عليه أنا وعلى ، فقلنا : إن هؤلاء المصريين بالباب ، فأذن لهم ومـروان عنده جالس. فقال : دعنى جعلت فداك أكـلمهم. فقال عثمـان. فض الله فاك ، وما كلامك فـى هذا الأمر ؟ فخرج مـروان ، وجعل على يخبره ما وجدوا فى كتابهم. فجعل عـثمان يقسم بالله ما كتب ولا علم ولا شوّر فيه وصدقه محمد بن مسلمة ، فقال على : فـأدخلهم ليسمعوا عذرك ، ثم أقبل عثمان على على يـقول له : إن لى قرابـة ورحماً ، والله لو كنت فـى هذه الحلقة لحللـتها عنك ، فاخرج إليهم فـكلمهم فإنهم يسمعون منك ، فـأبى على ، ودخلوا فقالوا : سلام عليكم ولم يسلموا عليه بالخلافة. ثم قـدموا فى كلامهم ابن عديس ، فذكر ما صنع ابن سعد بمصر. وذكر تحاملا على المسـلمين وأهل الذمة. وذكر استئثاراً منه فى غنائم المسلمين ، فإذا قيل له ذلك قال هذا كتاب أمير المؤمنين إلى.

ذكروا مع ذلك أشياء مما أحدث بالمدينة ومـا خالف به صاحبيه ، وأنهم رحلوا من مصر لا يريدون إلا دمه أو ينزع ، وأن محمد بن مسلمة ردهم وضمن لهم النزوع

عن كل ما تكلموا فيه. (وصدقهم محمد بن مسلمة). قالوا : ثم رجعنا إلى بلادنا نستظهر بالله عز وجل عليك ويكون حجة لنا من بعد حجة ، حتى إذا كنا بالبويب. أخذنا غلامك : فأخذنا كتابك وخاتمك إلى عبد الله بن سعد تأمره فيه بجلد ظهورنا والمثل بنا فى أشعارة وطول الحبس لنا ، وهذا كتابك قال عثمان : والله ما كتبت ولا أمرت ولا شورت ولا علمت. قال محمد بن مسلمة : فقلت وعلى جميعاً : قد صدق. فاستراح لها عثمان. قال المصريون : فمن كتبه ؟ قال : لا أدرى. قالوا : أفيجترأ عليك ، فيبعث غلامك ، وجمل من صدقات المسلمين ، وينقش عليه خاتمك ، ويكتب إلى عاملك بهذه الأمور العظام وأنت لا تعلم ؟ قال نعم. قالوا فليس مثلك يلى. اخلع نفسك من هذا الأمر كما خلعك الله منه. قال : لا أنتزع قميصاً ألبسنيه الله عز وجل وكثرت الأصوات واللغط. فما كنت أظن أنهم يخرجون حتى يواثبوه. وقام على فخرج وخرجت معه وقال للمصريين : اخرجوا فخرجوا. ورجعت إلى منزلى ورجع على إلى منزله. فما برحوا محاصريه حتى قتلوه.

إذا سلمنا رواية محمد بن مسلمة هذه جاءتنا أمور وهى محل العجب وموضع الغرابة.

هذا غلام عثمان حاضر بالمدينة ، وجمل الصدقة الذى وجده المصريون والغلام عليه موجود. فما بال عثمان لا يسأل الغلام عن الشخص الذى سلم إليه الكتاب أو الظرف وهو فيه ؟ وما باله لا يسأله عمن أمره بالمسير إلى مصر. وعن الذى أعطاه جمل الصدقة. وما باله لا يسأل القيم على إبل الصدقة عمن أخذ ذلك الجمل. ولم أخرجه منها بدون إذن أمير المؤمنين ؟ فى هذه الحال كان يتبين الذى افتعل الكتاب. والذى وجه بالغلام إلى مصر. وحينئذ يعرف المصريون أين ثأرهم وحينئذ يقع عليه الجزاء العادل. ويعاقب بنفس العقاب الذى تضمنه الكتاب.

غير أن عثمان لم يفعل. وحينئذ يكون معذوراً من يتهمه بالتهاون.

كيف قتل عثمان ؟

رأى الشاغبون أنه لا مفر لهم من أحد أمرين ليأمنوا على أنفسهم. أحدهما أن يخلع عثمان نفسه من الخلافة فيكون ذلك سبباً لعزل عماله من الخليفة الجديد حتى لا يصطلمهم العمال إذا رجعوا إلى بلادهم : ثانيهما : قتله وذلك يستتبع تغيير عماله قطعاً فينجو كل واحد من العقاب. فلما طالت مدة الحصار ولم يجدهم الاحتجاج على عثمان والتردد عليه مرة بعد مرة أخرى وأحسوا عودة الحاج وفصول من فصل من الأمصار لإغاثته وأن ذلك متى تم خرج الأمر من أيديهم ، وفي ذلك نكالهم ، هموا بالدخول عليه واقتحام داره من بابها ، فاحرقوا الباب وقاتلهم من كانوا بالدار لحماية عثمان غير مصغين لنهيه إياهم عن القتال ، وكان منهم المغير بن شريق والحسن بن على ومحمد بن طلحة وعبد الله بن الزبير ومروان وأبو هريرة. وغيرهم وكان بين الفريقين قتلى وجرحى على باب الدار.

رأى أولئك المحاصرون أن اقتحام الدار من بابها يكلفهم ثمنا غاليا فاقتحموا دار عثمان من غير بابها. بل تسوروا عليه من دار ملاصقة لداره وهى دار عمرو بن حزم حتى ملأوا الدار ولا يدرى من بالباب. فدخل عليه رجل فقال اخلعها وندعك فقال ويحك والله ما كشفت امرأة فى جاهلية ولا إسلام ولا تغنيت ولا تمنيت ولا وضعت يمينى على عورتى منذ بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ولست خالعاً قميصاً كسانيه الله تعالى حتى يكرم الله أهل السعادة ويهين أهل الشقاء. فخرج عنه. ومعنى عبارتة أنه لم يفعل ما يوجب إراقة دمه ولا يكون بسبيل ذلك. ثم دخل عليه ناس ورجعوا ولم يمسوه بأذى آخرهم محمد بن أبى بكر. فقال له عثمان : ويلك أعلى الله تغضب ؟ هل لى إليك جرم ألاحقه أخذته منك. فأخذ محمد لحيته وقال : قد أخزاك الله يا نعثل (اسم رجل قبطى كانوا يشبهون عثمان به لعظم لحيته) فقال : لست بنعثل ، ولكنى عثمان وأمير المؤمنين. فقال : ما أغنى عنك معاوية وفلان وفلان ؟ وقبض على لحيته فقال : يابن أخى ما كان أبوك ليقبض عليها. فقال : لو

رآك أبى تعمل هذه الأعمال لأنكرها عليك. والذى أريد بك أشد من قبضى عليها. فقال عثمان أستنصر الله عليك وأستعين به. فتركه وخرج.

هذا هو الصحيح من أمر محمد معه.

ثار بعد ذلك قتيرة وسودان بن حمران والغافقى فضربه الغافقى بحديدة كانت معه وضرب المصحف الذي كان عثمان يقرأ فيه برجله فاستدار المصحف واستقر بين يديه وسالت عليه الدماء وجاء سودان ليضربه فأكبت عليه نائلة لتتقيه، فنفحها بالسيف فأطن أصابع يدها وولت. وهنا اختلف فيمن ضربه الضربة التى كان بها قتله ففى رواية أنه سودان بن حمران وفى رواية أنه كنانة بن بشر التجيبى. وفى ذلك الوقت دخل غلمة من غلمان عثمان مع القوم لينصروه فلما ضربه سودان ضرب بعض أولئك الغلمان سودان على رقبته فقتله ووثب قتيرة على الغلام فقتله وانتهبوا ما فى البيت وخرجوا ثم أغلقوه على ثلاثة قتلى: عثمان، وسودان، وغلام عثمان.

لما خرج القوم من الحجرة التى ترك فيها عثمان قتيلا، وثب غلام لعثمان على قتيرة فقتله وثار القوم فأخذوا ما وجدوه فى الدار حتى ما على النساء. وأخذ كلثوم التجيبى ملاءة من نائلة فقتله غلام لعثمان. ودخل عمرو بن الحمق على عثمان وبه رمق فوثب على صدره وطعنه تسع طعنات؛ وأرادوا قطع رأسه فصاح بهم النساء فقال ابن عديس اتركوه. وأقبل عمير بن ضابىء فوثب عليه فكسر ضلعاً من أضلاعه وقال: سجنت أبى حتى مات فى السجن. وماج الناس وتنادوا: أدركوا بيت المال ولا تسبقوا إليه فهرب حارساه، وانتهب الناس غرارتين مملوءتين فضة كانتا فيه: وكان قتله لثمانى عشرة ليلة خلت من ذى الحجة سنة خمس وثلاثين، يوم الجمعة.

أما مدة خلافته فهى اثنتا عشرة سنة إلا اثنى عشر يوما، واختلف فى سنه فالمقل يقول خمسا وسبعين سنة والمكثر يقول تسعين سنة.

وسبب اضطغان عمير بن ضابىء على عثمان حتى كسر ضلعه بعد قتله أن أباه

ضابئا استعار أيام ولاية الوليد بن عقبة الكوفة من قوم من الأنصار كلبا يدعى قرحان يصيد الظباء فحبسه عنهم ، وانتزعوه منه قهراً فهجاهم بقوله :

تجشم دونى وفد قرحان خطـة ... تضل لها الوجناء وهى حسير
فباتوا شباعا طاعمين ، كانما ... حباهم ببيت المرزبان أميــــر
فأمكم لا تتركوهـــا وكلبكـم ... فإن عقوق الأمهـات كبيــــر

فاستعدوا عثمان عليه ، فحبسه ومات في سجنه ، وقال وهو فى السجن.

هممت ولم أفعل وكدت وليتنى ... تركت. على عثمان تبكى حلائله
وقائلة قد مات فى السجن ضابىء ... إلا من لخصم لم يجد من يحاوله

لهذا صار ابنه عمير سبئيا

وقد اتفق رأى كميل بن زيـادة وعمير بن ضابىء على الفتك بعثـمان فى حياته فقدما المدينة ، فأما عمير فنكل وتقدم إليه فثاوره فوجأ عثمان وجهه فوقع على إسته، فقـال : أوجعتنى يا أمـير المؤمنين ، فقـال أولست بفاتك ؟ قال : لا والله ، فـقال استقدمنى ، فعفا عنه ، وبقى الرجلان إلى أيام الحجاج فقتلهما وسيجىء ذلك.

دفن عثمان

رويت فى دفن عثمان روايات أدناها إلى الإنسـانية رواية جاء بها ابن الأثير أنه شهد جنازته على وطلحة وزيد بن ثابت وكعب بن مالك وعامة من ثم من أصحابه.

وهناك رواية تقول : إن عـثمان بقى ثلاثة أيام لا يدفن ثـم إن حكيم بن حزام القريشى وجبير بن مطعم كلما علياً فى أن يأذن بدفنه ففعل. فلما سمع بذلك أولئك الثوار قـعدوا له فى الطريـق بالحجارة ليـرجموه إذا مـر. وسمع على بذلـك فأرسل يمنعهم وخرج به ناس يسير عددهم من أهله وغـيرهم فيهم الزبير والحسن وأبو الجهم ابن حذيفة ومروان بين المغرب والعشاء فأتـوا به حائطا من حيطان المدينة خارج البقيع

يقال له حش كوكب فصلى عليه أحد الحاضرين وجاء أناس من الأنصار ليمنعوا من الصلاة عليه ثم تركوا ذلك خوف الفتنة ثم دفن فى ذلك الحائط. فلما كانت أيام خلافه معاوية وصل ذلك الحائط بالبقيع وأمر الناس بالدفن حول قبر عثمان. وهناك روايات أخرى أفظع. فإذا لم تصح الرواية الأولى فإن القوم يكونون قد استعملوا مع عثمان من الوحشية ما يقبح استعماله مع الكفار وعبدة الأوثان ولا يليق صدوره من إنسان فضلا عن مسلم.

علي بن أبي طالب

كيف انتخب ؟ إن الأحوال التى احتفت ببيعة على بن أبي طالب والمناسبات التى حصل فيها انتخابه لم يكن لها نظير فى انتخاب الخلفاء الذين تقدموه ولا بيعتهم فإن بيعة أبى بكر كانت عقب وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم والشمل مجتمع وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من المهاجرين والأنصار شهود يرون ويسمعون لهم أن يبرموا ما اجتمعت عليه الكلمة وأن ينقضوا ما لم يرضوا به. فلم يكن ثمة غير يسير اختلاف ثم ثابت الأحلام وفاءت السكينة وتم الأمر لأبى بكر. ولم يتخلف عن البيعة سوى على بن أبى طالب أياماً أو نحو سبعين ليلة على خلاف فى ذلك ، وسعد بن عبادة من الأنصار وقليل من بنى هاشم تأخروا ثم بايعوا. ومن عدا هؤلاء فقد أعطى يده بالطاعة عن رضى.

وأما عقب وفاة أبى بكر فلم يكن ثم مجال للخلاف. لأن أبا بكر كان قد عهد إلى عمر فرأى المسلمون وجوب طاعته والانتهاء إلى ما صنع. وكان أعلام الصحابة كذلك شهوداً - وعند وفاة عمر كان أعلام قريش والسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار شهوداً. وعمر لم يترك الأمر بين القوم فوضى بل كان قد سن لهم قانون الشورى على علاته ، فأصاب الانتخاب عثمان بن عفان وهو أحد الستة الذين اختارهم عمر ليعينوا واحداً منهم للخلافة ، وقد بين لهم جزاء المخالف منهم وهو القتل.

أما عند موت عثمان بن عفان ، فقد كان كثير من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم غير شاهدين للأمر وكثير منهم أبى عن بيعته ولم يرضوا بالدخول فى طاعته ولم يكن الأمر على حال هدوء وسكون بل كانت الكلمة العليا للثوار على عثمان والأمر النافذ لهم ومن كان مقيماً من أعلام الصحابة فقد نفضوا أيديهم من الأمر بغضة لعثمان وسرهم أن يكفيهم أمره أولئك الثائرون وهم شذاذ من الآفاق وأوزاع متفرقون من أمصار مختلفة وقبائل متباينة لا سابقة لهم ولا قدمة ولا أثر خير

فى الدين - وهم وإن كثروا بالـنسبة إلى أهل المدينة خاصة فليـسوا بالشىء الذى يؤبه له بالقياس إلى أهل الأمصار ومن يتبـعهم من مرابطة الثغور وأجناد الأقطار - أضف إلى ذلك أنهم أهل شـغب وفتنة قد عرف رؤوسهـم بذلك وشهروا بالشربين قـبائلهم وأمصارهم.

لم يكن فى نظر جمهور السبئيـة أليق للخلافة من على. خصوصاً والذى تولى كبر هذه الثورة هم المصـريون وهم شيعة على وهواهم معه فكانت كلمـته غالبة على سائرهم وكأن أهل المدينة كانت أحلام أكثرهم شـاردة عنهم فثابت ، وقد ظلل عثمان جلال الموت. فاجتمع الناس فى المسجد وكـثر الندم والتأسف على عثمان وسقط فى أيديهم وأكـثر الناس على طلحـة والزبير واتهمـوهما بقتلـه وقال الناس لهمـا : أيها الرجلان قد وقعتمـا فى أمر عثمان فخليا عن أنفسكما فقـام طلحة فقال : أيها الناس إنا والله ما نقول اليـوم إلا ما قلناه أمس ، إن عثمان خلط الذنب بالتـوبة حتى كرهنا ولايته وكرهنا أن نقتـله وسرنا وأن نكفاه وقد كثر فيه الـلجاج وأمره إلى الله. ثم قام الزبير فقال : أيها الناس إن الله قد رضى لكم الشورى فأذهب بها الهوى وقد تشاورنا فرضينا علياً فبايعوه. وأما قتل عـثمان فإنا نقول فيـه إن أمره إلى الله ، وقد أحدث أحداثاً والله وليه فيـما كان. وكأن ذلك من الزبير ليدفع عن نفـسه لوم اللائمين كيلا يقال إنه كان يسعى فى هذا الأمر لنفسه ولكى يكافئه على بدفعها عن نفسه كما دفعها هو. فقام الناس وأتوا علياً وقالوا له نبايعك فأنت أحق بها. فقال ليس ذلك إليكم ، إنما هو لأهل الشـورى وأهل بدر فمن اختـاروه فهو الخليـفة فنجتمـع وننظر فى هذا الأمر فانصـرفوا عنه ثم خلصوا نجـياً وقال بعضهـم لبعض : يمضى قتلى عـثمان فى الآفاق والبلاد فيسمعون بقتله ولا يسـمعون أنه بويع لأحد بعده فيثور كل رجل منهم فى ناحية فـارجعوا إلى على فلا تتركـوه حتى يبايع فيسـير مع قتل عثمـان بيعة على فيطـمئن الناس ويسكنـون فرجعوا إلـى علىّ وجاء الأشتـر فقال لعـلى : ابسط يدك نبايعك. فقال له كما قال لهم أولا ، فقال والله لتمدن يدك نبايعك أو لتعصرن عينك

عليها ثالثة ولم يزل به يكلمه ويخوفه الفتنة ويذكر له أنه ليس أحد يشبهه فمد يده فبايعه الأشتر ومن معه وسبقهم طلحة وكانوا قد أتوا به فبايعه ، وقد كان من المهم عند على أن يبايعه طلحة والزبير لأنهما زميلاه - وإذا كان أحد أصحاب الشورى يطمح بنظره إلى الخلافة فهما. وقد كانا يوضعان فى الأمر ولكل منهما شيعة من الثائرين تؤيده وتوازره ، غير أن شيعة علي كانت أعلى صوتاً وأقوى يداً فجاء القوم إلى طلحة فأرادوه على البيعة لعلى فأبى. إلا اجتماع بقية الشورى فأتوا به يلببونه حتى بايع. روى الطبرى عن الزهرى أنه دعاهما إلى البيعة (طلحة والزبير) فتلكأ طلحة فقال مالك الأشتر - وسل سيفه - والله لتبايعن أو لأضربن به ما بين عينيك فبايعه وبايعه الزبير. وروى أن علياً قال لهما : إن أحببتما بايعتكما فقالا بل نبايعك، وقالا بعد ذلك إنما صنعنا ذلك خشية على أنفسنا وقد عرفنا أنه لم يكن ليبايعنا بمعنى أنه عرض البيعة عرضا سابريا من باب المجاملة لا على سبيل الجد. وجىء بسعد بن أبى وقاص فقال : لا أبايع حتى يبايع الناس ، والله ما عليك منى بأس فقال خلوا سبيله. وجىء بعبد الله بن عمر ليبايع ، فقال لا أبايع حتى يبايع الناس ، فقال ائتنى بحميل ، قال : لا أرى حميلا. فقال الأشتر : خل عنى أضرب عنقه ، فقال على : دعوه أنا حميله إنك والله لسىء الخلق صغيراً وكبيراً ، وتخلف عن بيعة على جمع من الأنصار منهم حسان بن ثابت وكعب بن مالك ومسلمة بن مخلد وأبو سعيد الخدرى ومحمد بن سلمة ونعمان بن بشير وزيد بن ثابت ورافع بن خديج وفضلة بن عبيد وكعب بن عجرة وكان هؤلاءعثمانية يميلون إلى عثمان ، وهرب قوم إلى الشام ولم يبايعوا علياً ، وهم عامة بنى أمية ومن معهم ، ولم يبايعه عبد الله بن سلام وصهيب بن سنان وسلمة بن سلامة بن وقش وأسامة بن زيد وقدامة بن مظعون والمغيرة بن شعبة وقد بايعة المغيرة من قريب.

(ترجمة على)

وهو على بن أبى طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف وهو ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم شقيق والده. وأمه فاطمة بنت أسد. ولد قبل الهجرة

باحدى وعشرين سنة أو أكثر. ولما أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم كان على مراهقا وكان مقيما مع الرسول في بيته تخفيفا على أبيه أبي طالب. فكان من أول من أجاب إلى الإسلام وقد أدرك الشرف العظيم ببذله نفسه فداء لرسول الله صلى الله عليه وسلم ببياته على فراشه ليلة خروجه من مكة مهاجراً إلى المدينة حتى لا يرتاب الراصدون فى وجوده فى بيته وذلك ليلة هموا بقتله واتعدوا لذلك ليلتهم ثم هاجر إلى المدينة بعد أن أدى الودائع التى كانت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أهلها. وبعد أن هاجر زوجه النبى صلى الله عليه وسلم من ابنته فاطمة. وقد شهد المشاهد كلها مع رسول الله سوى غزوة تبوك فقد خلفه فى أهله بالمدينة. وقال المنافقون : إنما خلفه استثقالا له وزهادة فيه فخف إلى رسول الله باكيا فطيب خاطره ورده وقال : أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى فرضى بذلك. وقد كان فى كل غزواته ومشاهده مظفراً منصوراً ذا بلاء وغناء له الأثر المحمود والمقام الذي لا يجهل ، شجاعا مقداما على الغمرات لا تكرثه شدة ولا يبالى بمصارعة الموت. وكان يكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم. ولما لحق الرسول بربه كان على يرى نفسه أحق بالخلافة وأولى ممن عداه بأن يلى أمر المسلمين وكان يظن أن الأمر يأتيه عفواً صفواً وأن المسلمين لا يعدلون به غيره لما له من شرف القربى والسابقة والصهر. فتلبث عن طلب البيعة حتى يقوم بدفن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يتفرغ للأمر فلم يفجأ إلا بالمسلمين قد بايعوا أبا بكر وأبى على عن بيعته وقال : أنا أحق بهذا الأمر منكم لا أبايعكم وأونتم أولى بالبيعة لى ، أخذتم هذا الأمر من الأنصار واحتججتم بالقرابة من النبى صلى الله عليه وسلم وتأخذونه منا أهل البيت غصبا ؟ ألستم زعمتم للأنصار أنكم أولى بهذا الأمر منهم لما كان محمد منكم فأعطوكم المقادة وسلموا إليكم الإمارة ؟ فأنا أحتج عليكم بمثل ما احتججتم على الأنصار ، نحن أولى برسول الله حيا وميتا فأنصفونا إن كنتم تؤمنون إلى آخر ما قال فى ذلك. ومكث مدة لم يبايع ثم بايع ولما مات أبو بكر بايع عمر لاستخلاف أبى بكر له وفى نفسه شىء من ذلك. ولما طعن عمر أراد أن يستخلفه وكان يود

تقديمه على غيـره ويرى أنه جدير بأن يحمل الناس على الطريقـة المثلى ، غير أنه لم يرد أن يحمل تبعة الأمـر فجعله شورى بين ستة هو واحد منهم وكـان أكبر ظن عمر فى على أن يكون الأمر إليه غير أنها صرفت عنه إلى عثمان فبايع ولم يخالف. وكان فى مدة أبى بـكر بعد البيـعة موضع ثقـة الخليفة وكـان فى عهد عمـر كالمستـشار له يستشيره عمـر ويستفتيه فى الأحكام الشرعية ويستـدخله فى مهام الأمور ، فكان من خاصته وبطانتـه الذين يستنصحهم ويستنزل رأيهم وينتهى إلـى مشورتهم - وقد كان كذلك لعثمان رضى الله عنه صدراً من خلافـته ثم تغير له فى أواخر حياته ولم تكن علاقتهما حـسنة فى الظاهر وبخاصة فى أيام الفتنة فإن استبطان عثـمان لبنى أمية كان يفسد على على كـثيراً مما كان على يراه نافعاً له. وكانوا يـزهدونه فى على ويخوفونه جانبه.

أورد صاحب الإمامة والسياسة أن عثـمان خرج إلى المسجد فإذا هو بعلى وهو شاك معـصوب الرأس. فقال عثـمان : والله يا أبا الحسن ما أدرى أشتـهى موتك أم أشتهى حـياتك ، فو الله لئن مت مـا أحب أن أبقى بعدك لغيـرك لأنى لا أجد منك خلفا ولئن بقيت لا أعدم طاغيا يتخذك سلما وعضداً يعدك كهفاً وملجأ لا يمنعنى منه إلا مكانه منك ومكانك منه (ولعله يريد محمـد بن أبى بكر) فأنت منى كالابن العاق من أبيه. إن مات فجـعه وإن عاش عقه. فإما سلم فنسالم وإمـا حرب فنحارب. فلا تجعلنى بين السماء والأرض فإنك والله إن قتلتني لا تجد منى خلفاً ولئن قتلتك لا أجد منك خلفاً ولن يلي هذا الأمر بادئ فتنة. فقـال على إن فيما تكلمت به لجواباً ولكنى مشغول بوجعى فأنا أقول كما قال العبد الصالح : فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون. فقـال مروان : إنا والله لنكسرن رماحنا ولنقطعن سـيوفنا ولا يكون فى هذا الأمر خير لمن بعدنا. فقال عثمان : اسكت ما أنت وهذا ؟

وقد استعمل المـؤلبون اسم على للتغرير بالناس حتى يهيجـوا على خليفتهم. وأدى ذلك إلى أن خاطبه أهل مـصر قائلين : إن لم تقم معنا فلم كتبـت إلينا ؟ فتبرأ من الكتابة إليهم وحلف على ذلك. ولما انتهى أمـر عثمان على النحو الذى بيننا بويع

له بالخلافة بالصورة التى وصفنا ، وانتهى الأمر على ذلك بعد خمس ليال قضاها الناس فى أخذ ورد وتردد فى الأمر إلى أن انتهى.

خطته السياسية

وأول خطبة لعلى - صعد على المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : - إن الله عز جل أنزل كتابا هاديا بين فيه الخير والشر فخذوا بالخير ودعوا الشر. الفرائض أدوها إلى الله سبحانه وتعالى يؤدكم إلى الجنة. إن الله حرم حرما غير مجهولة وفضل حرمة المسلم على الحرم كلها وشد بالإخلاص والتوحيد المسلمين والمسلم من سلم الناس من لسانه ويده إلا بالحق. ولا يحل أذى المسلم إلا بما يجب. بادروا أمر العامة. وخاصة أحدكم الموت فإن الناس أمامكم وإنما من خلفكم الساعة تحدوكم تخففوا تلحقوا فإنما ينتظر الناس أخراهم اتقوا الله عباد الله فى عباده وبلاده إنكم مسئولون حتى عن البقاع والبهائم وأطيعوا الله عز وجل ولا تعصوه وإذا رأيتم الخير فخذوا به وإذا رأيتم الشر فدعوه واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض.

والذى تشف عنه خطبته أنه يريد أن ينصرف الناس إلى ما هو مهم لهم ويكفوا عن الخوض فى الشأن الذى كان. وأن يستقبلوا نمطاً من الحكم جديداً. كله إقبال على الآخرة وزهد فى الدنيا وقيام بحدود الله وطاعته فيما أمر به والانتهاء عما نهى عنه. ولو شئنا أن نلخص خطته التى يريد أن يرسمها لهم. لقلنا : يريد أن يقول لهم ارجعوا إلى العهد الذى كنتم عليه أيام رسول الله ، وأقبلوا على الآخرة بكليتكم وأعرضوا عن الدنيا وولوها ظهوركم.

وكان على قد دخل على نائلة زوج عثمان بعد أن لطم ابنيه الحسن والحسين وشتم محمد بن طلحة وعبد الله بن الزبير لظنه الإهمال منهم والتقصير فى الذب عن عثمان. وسأل نائله من قتل عثمان ؟ قالت : لا أدرى ، دخل عليه رجال لا أعرفهم إلا أن أري وجوههم وكان معهم محمد بن أبى بكر. فدعا على محمد بن أبى بكر وسأله عما ذكرت نائلة فقال : صدقت ، وقد والله دخلت عليه فذكر لى أبى فقمت

عنه وأنا تائب إلى الله تعالـى. والله ما قتلته ولا أمسكته فـقالت : اصدق ولكن هو أدخلهم.

وكتبت نائـلة زوج عثمان إلى معـاوية تصف دخول القوم على عثـمان وأخذه المصحف ليتـحرم به وما كان من صنع محـمد بن أبى بكر وأرسلت بقميـص عثمان مضرجا بالدم ممزقا بالخصلة التى نتفها محمد بن أبى بكر من لحيته فعقدت الشعر فى زر القميص وأصابعها ثم دعت بالنعمان بن بشـير الأنصارى فبعثته إلى معاوية. فلقى يزيد بن أسيد أرسله معاوية ممداً لعثمان فى أربعة آلاف فأخبرهم بقتل عثمان فانصرفوا إلى الشام.

طلب الصحابة القود من قتلة عثمان

ولما تمت البيعة لعلى جاءه جماعة من الصحابة وقالوا له : إنا قد اشترطنا إقامة الحدود وأن هؤلاء قد اشتـركوا فى دم هذا الرجل وأحلوا بأنفسهـم. فقال لهم : إنى لست أجهل ما تعـلمون ولكنى كيف أصنع بقوم يملكـوننا ولا نملكهم. ها هم هؤلاء قد ثارت معـهم عبدانكم وثابت إليهم أعـرابكم وهم خلا لكم يسومـونكم ما شاءوا فهل ترون موضـعا لقدرة على شىء بما تريدون ؟ قـالوا لا. قال فلا والله لا أرى إلا رأيا ترونه إن شـاء الله. إن هذا الأمر أمـر جاهليـة وإن لهؤلاء القـوم مادة وذلك أن الشيطان لم يشرع شريعة قط فـيبرح الأرض من أخذ بها. أن الناس من هذا الأمر – أن حرك – على أمور ، فرقة ترى ما ترون : وفرقة ترى ما لا ترون ، وفرقة لا ترى هذا ولا هذا حتى تهـدأ الناس وتقع القلوب مواقـعها وتؤخذ الحقـوق. فاهدأ وأعنى وانظروا ماذا يأتيكم ثم عودوا.

ثم إن علياً اشـتد على قريش وحـال بينهم وبين الخروج من المدينة وإنما هـيجه على ذلك هرب بنى أميـة. وتفرق القوم وبعضهم يقـول والله لئن زاد الأمر لا قدرنا على انتصار من هؤلاء الأشـرار. لترك هذا إلى ما قال على أمثل. وبعـضهم يقول : نقـضى الذى علينا ولا نـؤخره. والله إن عليـاً لمستـغن برأيه وأمـره عنا. لا نراه إلا سيكون على قريش أشد من غيره.

ولما بلغ عليا مقالة القوم قام فحمد الله وأثنى وذكر فضلهم وحاجته إليهم وقال لهم خيراً وأثنى عليهم وتألفهم جهده ثم قال : لا يستغنى الرجل وإن كان ذا مال وولد عن عشيرته ، دفاعهم بأيديهم وألسنتهم. هم أعظم الناس حيطة من ورائه وإليهم سعيه وعطفهم عليه إن أصابته مصيبة أو نزل به بعض مكاره الأمور. ومن يقبض يده عن عشيرته فإنه يقبض يداً واحدة وتقبض عنه أيد كثيرة. ومن بسط يده بالمعروف ابتغاء وجه الله تعالى يخلف الله له ما أنفق فى دنياه ويضاعف له فى آخرته. واعلموا أن لسان صدق يجعله الله للمرء فى الناس خير له من المال. فلا يزدادن أحدكم كبرياء ولا عظمة فى نفسه ولا يغفل أحدكم عن القرابة أن يصلها بالذى لا يزيده إن أمسكه ولا ينقصه إن أهلكه. واعلموا أن الدنيا قد أدبرت والآخرة قد أقبلت. ألا وإن المضمار اليوم والسبق غداً ، ألا وإن السبقة الجنة والغاية النار. ألا إن الأمل يشهى القلب ويكذب الوعد ويأتى بغفلة ويورث حسرة فهو غرور وصاحبه فى عناء فافزعوا إلى قوام دينكم وإتمام صلاتكم وأداء زكاتكم والنصيحة لإمامكم وتعلموا كتاب الله واصدقوا الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأوفوا بالعهد إذا عاهدتم وأدوا الأمانات إذا ائتمنتم ، وارغبوا فى ثواب الله وارهبوا عذابه واعملوا الخير تجزوا بالخير يوم يفوز بالخير من قدم الخير ثم نادى : برئت الذمة من عبد لم يرجع إلى مواليه.

ائتمرت السبأية والأعراب وقالوا : لنا غداً مثلها ولا نستطيع أن نحتج فيهم بشىء. ثم خرج على فى اليوم الثالث. فقال : يا معشر الأعراب الحقوا بمياهكم. فأبت السبأية وأطاعهم الأعراب ودخل على بيته وجاء طلحة والزبير وجماعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال لهم على : دونكم ثأركم فاقتلوهم. فقالوا : عتواً عن ذلك. فقال : هم والله بعد اليوم أعتى وآبى. ثم قال :

ولو أن قومى طاوعتنى سراتهم أمرتهم أمراً يديخ الأعاديا

وقال طلحة : دعنى فلآت البصرة. فلا يفجأك إلا وأنا فى خيل. وقاله الزبير: دعنى فلآت الكوفة فلا يفجأك إلا وأنا فى خيل. فقال : حتى أنظر.

أما على ، فـقد صرفهــما على زعم أن ينظر ، وأحسبه كان يتخـوف جانب الرجلين ويخشى أن يعيــداها عليه جذعة ويستنا به سنة أهل مصــر بعثمان ويكون له معهما يوم كيوم الدار.

نتيجة الفتنة وقتل عثمان فى زمن على

كان المسلــمون قبل انبــثاق هذا البثق واشــتغال جــاحم الفتنة أمرهــم مجتمـعاً وحالهم حسنة يغبطون عليها من كل الأمم : جيوش منتصرة فى جميع الأرجاء وبلاد تفتح وعدل شامل وشمل جامع وبسطة في الغنى والثروة وسطوة مرهوبة ، فلما ربى هذا الأمر حـتى صار أمراً ووقع هذا الحادث الجـلل الذى اصطلم به خليفـة المسلمين ظلماً وعدواناً. كان أول وهن دخل على المسلمين وأول أمر فرق كلمتهم وأوقع بينهم الشحناء وأورثهم البغضاء وصيرهم فرقا مـتنافرة وفئات متدابرة يضرب بعضهم وجوه بعض هو قتل عثمان بن عفان.

يدل على هذا الافتراق أن الأمــة قبل قتل عثمان كـانت على قلب رجل واحد ووجهتهم واحدة لا يفـترقون فى شىء. فلما قتل ظهرت الشيعة وصــاروا أشبه بهيئة معتـرف بها من الأمة غير خـفية ، قام فى مـقابلتها الناصـبة أو العثمانيــة فى الشام وأقليات في الأمصار ، وهم الذين ينزعون إلى تأثيــم على فى شأن عثمان ويحملونه تبعة قتله. وأقلهم طعنا عليه من يقول أنه تهاون فى شأن قتلته فلم يتناولهم بالقصاص الواجب شرعاً.

لم يلبث الأمر طويلا حتى قام الخــوارج ، وهم الذين ينقمون فى باطن أمرهم ولاية قريش ويظهرون الغيرة على الدين والحمية للشريعة ، وهم حرب لعلى ومعاوية معا. ثم افترق هؤلاء الخوارج فرقا فكان منهم : (١) الأزارقة (٢) والنجدات (٣) والعطوية (٤) والأباضيــة وغيرهم وغيرهم إلى ما يربــو على سبعين فرقة. ولم يلبثـوا أن صاروا أصحاب مذاهب فى العقيـدة ويكفرون المسلمين من أهل السنة والجماعة. مما قـصه وشرحه ابن حزم فى كتابه الفصل والشـهر ستأتى فى الملل

والنحل ، والمقريزى فى خططه ومحمد بن يزيد فى كامله. ثم كان انقسام الشيعة إلى طوائف وأصناف كالـزيدية والكيسانية والأمـامية إلى رافضـة وغالية وإلى إسماعـيلية وهكذا.

ولا ريب عندى فى أن هذه الفتنة وما تلاهاما كان بين على وبين عائشة وطلحة والزبير من الحرب ثم بينه وبين معاوية ثـم بين الخلفاء والخوارج وغيرهم من الطوائف التى نبتت وشبـوب الثورات بعد الثورات كل ذلك كان بمثابة مـرض عضال طرأ على الأمة وهى فى عنفـوان شبابها وميعـة فتوتها فوق فيـضها الحيوى وعاقـها أن تقوم بما يجب لمثلهـا من النمو وصدها عن اسـتكمال شبابـها على الحال اللائقـة بها. وعلى الجملة فإن هذه الفتنة كانت شللا فى حياة الأمـة الإسلامية ومصدراً لانحراف مزاجها وثلمة تعرض منهـا جسم تلك الأمة لمختلف الأمراض والعلـل. ولولا تلك الفتنة فى جمـيع الأقطار والأصـقاع ، لرأينـا الأمم التى هى من أعـدى أعداء الإسلام الـيوم وأشدهـن نكاية به أعظم من يـطريه ويتعـصب له ويغلو الـغلو كله فى إعـلاء قدره والإشادة بذكره.

أول عمال على

إن الأيدى التى بايعت علياً بالأمس كانت ملوثة بدم الخلـيفة المقتول وكان أكبر ما يزعمونه من الحـجج على قيامهم هذا واجتراح ما اجتـرحوا من الإثم عماله الذين ملأوا الدنيا عجيجاً بالشكوى منهم وأذاعـوا قالة السوء عن كل أمير منهم فى مصره. فإذا أقر على أولئك العمال على أعمالهـم إلى أن يستوثق له الأمر فى الخلافة وتتسق له الأحوال كان ذلك منه إقراراً للظلم الذى استفزهم الألم منه وأحنقهم الإقرار عليه. وكان بذلك قد سجل على السبأية أنهم قامـوا لسلب الخلافة من صاحبها الشرعى لا لسبب سوى الإفضاء بها إلى على.

بهذا يمكننا أن نفهم السرعة الغريبة التى كانت منه فى مبادرة جميع عمال عثمان بالعزل حتـى كان ذلك أول أعماله ، ولم يتـربص بالأمر وصول البيعـة إليه من أهل

الأمصـار ولم يصغ إلـى تحذير المحـذرين ولا نصح الناصـحين. بل أبى من الإبـقاء عليهم أو أحداً منهم إباء تاما كأنه قد قـر فى نفسه أن هؤلاء العمال لا يصلحون لأن يلوا شيئاً من أمر المسلمين وأن الإبقاء على واحد منهم يوماً كاملا نقص فى دينه. ولو أنه اتأد فى الأمر وعالجه برفق وأناة واصطبر حتى استتب له الأمر وبايعه أهل الأمصار لما كان فى عزل الولاة شىء لأن الخليفة هو الـذى يعطى الولاة سلطانهم فهو حر فى اختيار عماله.

يعجب بعض ذوى البصائر من أهل النقد والرأى الراجح من مبادرته إلى عزل عمال عثمان مع رضاه بتأخير إقامة الحـد على قتلته. أما تعليل ذلك التعجيل فى أمر الأمراء فقـد بينته آنفـا. وأما تأخير الحـد على القتلة فـقد بينه على بنفـسه إذ أوضح لطلحـة والزبير وأصحـاب رسول الله حين طالبوه بـإقامة الحد علـى من شرك فى دم عثمان فبين لهم أن القوم الذين فى أيـديهم دم عثمان يملكون أهل المدينة وأهل المدينة لا يملكونهم وقد ثارت إليـهم العبدان وفاءت إليهم الأعـراب وبأيديهم الحول والطول بالمدينة. وأهلهـا لا يقدرون منهم على شىء. وطـلب إليهم إنظاره حتى تـهدأ الحال ويتمكن من أخذ المجرمين بذنوبهم.

دخل المغيـرة بن شعبـة على على وكان داهيـة أريباً فقـال : إن لك على حق الطاعة والنصيحة وإن الرأى اليوم تحرز به ما فى غد وأن الضياع اليوم تضيع به ما فى غد أقرر معـاوية على عمله وأقرر ابن عامـر على عمله واقرر العمال عـلى أعمالهم حتى إذا أتتك طاعتهم وبيعة الجنود استبدلت أو تركت. قال : حتى أنظر. وعاد إليه من الغـد فقـال إنى أشرت علـيك بالأمس برأى ، وإن الرأى أن تـعاجلهـم بالنزوع فيعرف السامع من غـيره وتستقبل أمرك ثم خرج. وتلقاه ابن عـباس - وكان قد قدم من الحج بعد مقتل عثمان - فقال : رأيت المغيرة خرج من عندك ففيم جاءك ؟ قال : جاءنى أمس بذية وذية وجـاءنى اليوم بذية وذية. فقال : أما أمس فقـد نصحك وأما اليوم فـقد غشك. فـقال له على : ولـم نصحنى ؟ فـقال : لأنك تعلم أن مـعاوية وأصحابه أهل دنيا فمتى تثبتهم لا يبالون بمن ولى هذا الأمر ومتى تعزلهم يقولوا أخذ

هذا الأمر بغـير شورى وهو قتل صـاحبنا ويؤلبون عـليك فينتقض علـيك أهل الشام وأهل العراق مع إنى لا آمن طلحـة والزبير أن يكرا عليك. فقال علـى أما ما ذكرت من إقرارهم فـو الله ما أشك أن ذلك خير فى عـاجل الدنيا ولا صلاحهـا وأما الذى يلزمنى مـن الحق والمعرفة بعـمال عثـمان فو الله لا أولى أحـداً منهم أبداً فإن أقـبلوا فذلك خير لهم وإن أدبروا بذلت لهم السيف. قال ابن عباس : فأطعنى وادخل دارك أو الحق بمالك بيـنبع فإن العـرب تجول وتضطرب علـيك فإنك والله لئن نهـضت مع هؤلاء اليوم ليحمـلنك الناس دم عثمان غداً. فأبى على وقـال لابن عباس : سر إلى الشام فقد وليتكها. فقال ابن عباس : ما هذا برأى ، معاوية رجل من بنى أمية وهو ابن عم عثمان وعامله على الشام ولست آمن أن يضرب عنقى بعثمان وأن أدنى ما هو صانع أن يحبسـنى ويتحكم على. فقال على : ولم ؟ قال لقـرابة ما بينى وبينك وأن كل ما حمل عليك حمل على. ولكن اكتب إلى معاوية فمنه وعده. فأبى على.

فرق عـلى عمالـه على الأمصـار : فأرسل عـثمان بـن حنيف إلى البـصرة ، وعمارة بن شهاب إلى الكوفة ، وعبيد الله بن عباس إلى اليمن ، وقيس بن سعد بن عبادة إلى مصر ، وسهل بن حنيف إلى الشام.

فأما سهل بن حنيف سار حتى أتى تبوك فلقيته خيل فسألوه من أنت ؟ فقال : أمير عـلى الشام. فقالـوا : إن كان عثمان بـعثك فحيـهلاً بك وإن كان غيـره بعثك فارجع. قال : أو ما سمعتم بالذى كان ؟ قالوا : بلى فارجع إلى على فرجع.

وأما قيـس بن سعد ، فإنه سـار حتى أتى أيلة فلقـيته خيل فـقالوا : من أنت فعمد إلى الحيلة وقال : أنا من فاله عثمان فأنا أطلب من آوى إليه وانتصر به. قالوا: من أنت؟ قال قيس بن سعد. فقالوا امض. فمـضى حتى أتى مصر وأظهر أمره فيها فافترق أهل مصر فرقا : فرقة دخلت فى الجماعة وكانوا معه ، وفرقة وقفت واعتزلت إلى خربتـا وقالوا. إن قتل قتلـة عثمان فنحن مـعكم وإلا فنحن على جديلـتنا حتى نحرك أو نصـيب حاجتنا. وفرقة قـالوا . نحن مع على ما لم يقـد إخواننا وهم فى ذلك مع الجماعة. وكتب قيس إلى على بذلك.

وأما عثمان بن حنيف فسار إلى البصرة فلم يرده أحد عن دخولها ولم يوجد فى ذلك لابن عامر رأى ولا حزم ولا استقبال بحرب. وافترق الناس بها فاتبعت فرقة القوم ودخلت فرقة فى الجماعة وفرقة قالت ننظر ما يصنع أهل المدينة فنصنع كما صنعوا.

وأما عمارة بن شهاب فأقبل حتى إذا كان بزبالة لقى طليحة الأسدى وقد خرج يعدو إلى الطلب بدم عثمان. فقال لعمارة : ارجع فإن الناس لا يريدون بأميرهم بدلا وإن أبيت ضربت عنقك فرجع وهو يقول : احذر الخطر ما يماسك. الشر خير من شر منه.

وانطلق عبيد الله بن عباس إلى اليمن فجمع يعلى بن أمية كل شىء من الجباية وتركه وخرج بذلك وهو سائر على حاميته إلى مكة فقدمها بالمال.

اضطراب الحبل

اضطرب الحبل على على وأتاه ما لم يكن يحتسب فأرسل يثبت أبا موسى على الكوفة فجاءه ببيعه أهلها وبين له من أبى البيعة وسخط لما كان ، حتى كأن عليا ناظر إلى أهل الكوفة وقد افترقوا على مثل ما افترق عليه أهل البصرة.

ودعا على طلحة والزبير فقال : إن الذى كنت أحذركم قد وقع يا قوم وإن الأمر الذى وقع لا يدرك إلا بإماتته ، وإنها فتنة كالنار كلما سعرت ازدادت واستثارت. فقالا له فأذن لنا أن نخرج من المدينة فإما أن نكابر وأما أن تدعنا فقال سأمسك الأمر ما استمسك فإذا لم أجد بداً فآخر الدواء الكى. والذى يظهر أن اعتياص الأمور على على كان مما يسرهما. وأن الأمر إذا اضطرب عليه وأعيت مذاهبه ونفض يده من الإمارة طوعا أو كرها أفضى الأمر إلى واحد منهما. وإذا اشترك اثنان أو جماعة فى بغض سلطان ذى سلطان فإنهم لا يحسون بما بينهم فى أشخاصهم من الكراهة والبغض. وإن اشتراكهما فى كراهته يؤلف بينهما ويكون كلحمة النسب ولا يلتفت واحد منهم إلى ما بينه وبين الآخرين إلا إذا فرغوا من العدو المشترك. وكأنى

بعلى كان يقرأ ما يجول فى ضمير كل من طلحة والزبير ولكنه لا يريد أن يفتح باب فتنة جديدة تكون أقرب إليه من سواها.

أرسل على بعد إسال سهل بن حنيف إلى معاوية سبرة الجهنى يطلب إليه أن يبايع فقدم عليه، فلم يرد معاوية جواباً ولم يجبه وجعل كلما تنجز جوابه لم يزد على قوله :

أدم أدامه حصن أوحد بيدى ... حربا ضروسا تشب الجزل والضرما
فى جاركم وبكم إذا كان مقتلة ... شنعاء شيبت الأصداغ واللمما
أعيا المسود بها والسيدون فلم ... يوجد لها غيرنا مولى ولا حكما

حتى إذا كان الشهر الثالث من مقتل عثمان فى صفر دعا معاوية برجل من بنى عبس يدعى قبيصة فدفع إليه طوماراً مختوماً عنوانه (من معاوية إلى على) وقال له إذا دخلت المدينة فاقبض على أسفل الطومار ثم أوصاه بما يقول وسرح رسول على وخرجا فقدما المدينة فى ربيع الأول لغرته. فلما دخلا المدينة رفع العبسى الطومار كما أمره وخرج الناس ينظرون إليه. فتفرقوا إلى منازلهم وقد علموا أن معاوية معترض ومضى الرجل حتى دخل على على فدفع إليه الطومار ففض خاتمه فلم ير فى جوفه كتابة فقال للرسول ما وراءك. قال آمن أنا ؟ قال نعم فإن الرسل آمنة لا تقتل. قال ورائى أنى تركت ستين ألف شيخ يبكى تحت قميص عثمان وهو منصوب لهم قد ألبسوه منبر دمشق. فقال منى يطلبون دم عثمان ؟ ألست موتوراً كترة عثمان ؟ اللهم إنى أبرأ إليك من دم عثمان إلا أن يشاء الله. فإنه إذا أراد أمراً أصابه. اخرج. قال وأنا آمن ؟ قال وأنت آمن. فخرج العبسى، وصاحت السبأية وقالوا هذا الكلب وافد الكلاب اقتلوه. فنادى يا آل مضر يا آل قيس : الخيل والنبل إنى أحلف بالله جل اسمه ليردنها عليكم أربعة آلاف خصى فانظروا كم الفحولة والركاب. وتعاووا عليه ومنعته مضر ويقولون له اسكت، فيقول : لا والله لا يفلح هؤلاء أبداً فلقد أتاهم ما يوعدون، فيقولون اسكت فيقول لقد حل بهم ما يحذرون انتهت والله أعمالهم وذهبت ريحهم، يقول فوالله ما أمسوا حتى عرف الذل فيهم.

(استئذان طلحة والزبير)

جاء طلحة والزبير واستأذنا علياً فى العمرة فأذن لهما وهو يعلم أنهما لا يريدان ذلك وأنهما خرجا كراهة لأمره.

إن الرجلين قد بايعا مكرهين وكان لكل منهما شيعة تريده على الخلافة. وقد أراد كل منها أن يظهر الزهادة فى الولاية حتى لايتهم بالشركة فى دم الخليفة المقتول وحتى لا يؤخذ عليه أمر أو يقول له قائل إنه كان يريدها. ولكن السبأية قد غلبوا على الأمر وكانت الأنظار متجهة إلى على أكثر منهما. فلما فاتهما أمر الولاية العظمى طمعا فى أن يوليهما ويكونا على انتظار ما يأتى به القدر بعد ذلك.

قال ابن قتيبة : إنهما قالا لعلى : هل تدرى يا على علام بايعناك ؟ قال : نعم على السمع والطاعة وعلى ما بايعتما أبا بكر وعمر وعثمان: فقالا : لا ولكن بايعناك على أنا شريكاك فى الأمر ، قال على لا ولكنهما شريكان فى القول والاستقامة والعون على العجز والأود قال : كان الزبير لا يشك فى ولاية العراق وطلحة فى اليمن. فلما استبان لهما أن عليا غير موليهما شيئا أظهرا الشكاة فتكلم الزبير فى ملأ من قريش فقال : هذا جزاؤنا من على قمنا له فى أمر عثمان حتى أثبتنا عليه الذنب وسببنا له القتل وهو جالس فى بيته وكفى الأمر فلما نال بنا ما أراد جعل دوننا غيرنا. فقال طلحة : ما اللوم إلا أنا كنا ثلاثة من أهل الشورى كرهه أحدنا وبايعناه وأعطيناه ما فى أيدينا ومنعنا ما فى يده فأصبحنا قد أخطأنا ما رجونا. وأنهى قولهما إلى على فدعا عبد الله بن عباس وكان استبطنه فقال : قد بلغك قول هذين الرجلين قال نعم بلغنى قولهما قال فما ترى ؟ قال : أرى أنهما أحبا الولاية. فول البصرة الزبير وول طلحة الكوفة. فإنهما ليسا بأقرب إليك من الوليد وابن عامر من عثمان ، فضحك على ثم قال : ويحك إن العراقين بهما الرجال والأموال ومتى تملكا رقاب الناس يستميلان السفيه بالطمع ويضربان الضعيف بالبلاء ويقويان على القوى بالسلطان ولو كنت مستعملا أحداً لضره أو نفعه لاستعملت معاوية على الشام. ولولا ما ظهر لى

من حرصهما على الولاية لكان لى فيهما رأى. قال. ثم أتى طلحة والزبير إلى على فقالا يا أمير المؤمنين ائذن لنا إلى العمرة فإن نقم إلى انقضائها رجعنا إليك وأن تسر نتبعك. فنظر إليهما وقال : نعم ، والله ما العمرة تريدان ، امضيا إلى شأنكما فمضيا.

أحب أهل المدينة بعد ذلك أن يعلموا رأى على فى معاوية وانتقاضة ليعرفوا بذلك رأيه في قتال أهل القبلة ، أيجسر عليه أو ينكل عنه. وقد بلغهم أن الحسن بن على دخل عليه ودعاه إلى القعود وترك الناس. فدسوا عليه زياد بن حنظلة التميمى وكان منقطعاً إليه ، فدخل عليه ثم قال له على : يا زياد : تسير. فقال : لأى شيء؟ فقال : تغزو الشام. فقال زياد : الأناة والرفق أمثل. وقال :

ومن لا يصانع فى أمور كثيرة يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم

فتمثل على وكأنه لا يريده :

متى تجمع القلب الذكى وصارما وأنفاً حميا تجتنبك المظالم

فخرج زياد على الناس وهم ينتظرونه. فقالوا له : ما وراءك ؟ فقال : السيف يا قوم فعرفوا ما هو فاعل. ودعا على ابنه محمد بن الحنفية فدفع إليه اللواء وولى عبد الله بن عباس ميمنته وعمر بن سفيان ميسرته وأبا ليلى عمر بن الجراح مقدمته واستخلف على المدينة قثم بن العباس. وخطب أهل المدينة فدعاهم إلى النهوض فى قتال أهل الفرقة وقال : إن الله عز وجل بعث رسولا مهديا بكتاب ناطق فى أمر قائم واضح ، لا يهلك عنه إلا هالك. وأن المبتدعات والشبهات هن المهلكات إلا من حفظ الله وإن فى سلطان الله عصمة أمركم فأعطوه طاعتكم غير ملوية ولا مستكره بها. والله لتفعلن أو لينقلن الله عنكم سلطان الإسلام ، ثم لا ينقله إليكم أبداً حتى يأرز الأمر إليها. انهضوا إلى القوم الذين يريدون يفرقون جماعتكم لعل الله يصلح بكم ما أفسد أهل الآفاق :

بينما هم كذلك إذ جاء الخبر عن أهل مكة بنحو آخر وتمام على خلاف ، وإن القائم فى ذلك طلحة والزبير وعائشة أم المؤمنين. فقام فى الناس وأعلمهم بما حدث من الفرقة فى مكة وأنبأهم بأنه سيمسك عنهم ويصبر ما لم يخف على جماعة المدينة وأنه يكف إن كفوا واقتصروا على ما بلغه عنهم. وبلغه أنهم يريدون البصرة لمشاهدة الناس والإصلاح ، فتعبأ للخروج إليهم وقال : إن فعلوا هذا فقد انقطع نظام المسلمين ، وما كان عليهم فى المقام فينا مؤونة ولا إكراه. فاشتد الأمر على أهل المدينة واثاقلوا.

وكان على أراد أن ينهض معه عبد الله بن عمر ليكون الناس به أسوة فقال : أنا رجل من أهل المدينة فإن يخرجوا أخرج وإن يقعدوا أقعد. قال : فأعطنى بذلك زعيما فأبى. ورجع إلى المدينة والناس يقولون : لا والله ما ندرى كيف نصنع فإن الأمر لمشتبه علينا ، ونحن ميمون حتى يضىء لنا ويسفر.

وقد قام على فى أهل المدينة ووجوهها واستنهضهم فى القيام معه فنهض معه من أهل بدر ستة نفر.

فأنتم ترون أن الأمور تتعسر عليه من أول يوم ، وأصحابه لم يكونوا على بينه من أمرهم. أما معاوية فلم يتعسر عليه شىء من ذلك ، بل تأتى لأموره بالحزم والصبر والتأنى واستدخال أولى الرأى ، حتى استقام أمره ولم يحدث له ما حصل لعلى.

أمر عائشة

لما قتل عثمان هرب بنو أمية فلحقوا بمكة قبل أن يبايع الناس علياً ، وكان تساقط الهراب إليها وعائشة مقيمة بها ، فاستخبرتهم ، فأجابوها بأن قتل عثمان ولم يجبهم إلى التأمير أحد فقالت عائشة : ولكن أكياس. هذا غب ما كان يدور بينكم من عتاب الاستصلاح. فلما قضت عمرتها وخرجت وانتهت إلى سرف لقيها رجل من أخوالها بنى ليث وكانت واصلة لهم رفيقة عليهم يقال له عبد الله ابن أبى سلمة ويعرف بأمه أم كلاب فقالت : فهيم ؟ فاصم

ودمدم. فقالت: ويحك علينا أو لنا؟ فقال: لا ندرى قتل عثمان فبقوا ثمانيا. قالت: ثم صنعوا ماذا؟ فقال: أخذوا أهل المدينة بالاجتماع على على والقوم الغالبون على المدينة. فرجعت إلى مكة وهى لا تقول شيئًا حتى نزلت على باب المسجد وقصدت للحجر فسترت به. واجتمع الناس إليها فقالت: أيها الناس إن الغوغاء من أهل الأمصار وأهل المياه وعبيد أهل المدينة اجتمعوا. إن عاب الغوغاء على هذا المقتول بالأمس الأرب واستعمال من حدثت سنه وقد استعمل أسنانهم قبله ومواضع من مواضع الحمى حماها لهم وهى أمور قد سبق بها لا يصلح غيرها فتابعهم ونزع لهم عنها استصلاحًا لهم فلم يجدوها حجة أو عذرًا فلجوا وبادروا بالعدوان ونبا فعلهم عن قولهم فسفكوا الدم الحرام واستحلوا البلد الحرام وأخذوا المال الحرام واستحلوا الشهر الحرام والله لأصبع عثمان خير من طباق الأرض أمثالهم فنجاه من اجتماعكم عليه حتى ينكل بهم غيرهم ويشردهم من بعدهم. والله لو أن للذى اعتدوا عليه ذنبًا لخلص منه كما يخلص الذهب من خبثه أو الثوب من دونه إذ ماصوه كما يماص الثوب بالماء. فقال عبد الله بن عامر: ها أنا ذا لها أو طالب. وكان أول مجيب ومنتدب.

لو أن عائشة كانت تقول مثل هذه الخطبة بالمدينة قبل أن تخرج للحج لكان الأمر أرجى للقبول منها. ولكنها إنما ترهب من هذا الأمر كله خلافة على. ولو أن الخليفة كان طلحة أو الزبير لكان فى ذلك رضى لها لأن طلحة تيمى من قومها والزبير زوج أختها.

والذى أحفظها على على وجعلها تكره إمرته أنه كان بينها وبينه فى مدة رسول الله ﷺ جفاء من يوم حديث الإفك إذ تحدث الناس وكثر الكلام واغتم رسول الله لذلك. فقال له علي: لن يضيق الله عليك والنساء غيرها كثير، ولو سألت بريرة لصدقتك عنها. فكان قول على هذا مما غير قلب عائشة وجعلها لا تذكر اسمه. حتى أنها لما ذكرت أن رسول اللهخرج وهو مريض إلى المسجد قالت خرج يتهادى بين العباس ورجل آخر تعنى عليًا. وروى أنها لما بلغها مقتل على قالت:

فألفت عصاها واستقر بها النوى كما قرعينا بالإياب المسافر

وكانت إجابة عبد الله بن عامر أو ما تكلم به الناس بالحجاز، فرفع بنو أمية رءوسهم. وقام معهم الوليد بن عقبة وسائر بنى أمية وعبد الله بن عامر أمير البصرة ويعلى بن أمية قدم من اليمن وطلحة والزبير من المدينة واجتمع ملؤهم بعد مراجعة طويلة على البصرة. وقالت عائشة: أيها الناس إن هذا حدث عظيم وأمر منكر فانهضوا فيه إلى إخوانكم من أهل البصرة فأنكروه فقد كفاكم أهل الشام ما عندهم لعل الله عز وجل يدرك لعثمان وللمسلمين بثأرهم.

وروى الطبرى أن أول من أجاب إلى أمر عائشة عبد الله بن عامر وبنو أمية وكانوا قد سقطوا إليها بعد مقتل عثمان وقد قدم ابن عامر أولا ثم قدم يعلى بن أمية فاتفقا بمكة ومع يعلى ستمائة بعير وستمائة ألف فأناخ بالأبطح معسكرًا وقدم معها طلحة والزبير فلقيا عائشة فقالت ما وراءكما؟ فقالا وراءنا أنا تحملنا بكليتنا هرابًا من المدينة من غوغاء وأعراب وفارقنا قوما حيارى لا يعرفون حقا ولا ينكرون باطلا ولا يمنعون أنفسهم. قالت: فائتمروا أمرًا، ثم انهضوا إلى هذه الغوغاء. ثم تمثلت:

ولو أن قومى طاوعتنى سراتهم لأنقذتهم من الخبال أو الخبل

وقال القوم فيما ائتمروا به: الشام. فقال عبد الله بن عامر قد كفاكم الشام من يستمر فى حوزته. فقال طلحة والزبير: فأين؟ قال البصرة فإن لى بها صنائع ولهم فى طلحة هوى. قالوا قبحك الله فوالله ما كنت بالمسالم ولا بالمحارب، فهلا أقمت كما أقام معاوية فنكتفى بك ونأتى الكوفة فنسد على هؤلاء القوم المذاهب؟ فلم يجدوا عنده جوابًا مقبولا. حتى إذا استقام لهم الرأى على البصرة قالوا: يا أم المؤمنين، دعى المدينة فإن من معنا لا يقرنون تلك الغوغاء التى بها واشخصى معنا إلى البصرة فإنا نأتى بلدًا مضيعا وسيحتجون علينا فى بيعة على بن أبى طالب فتنهضيهم كما أنهضت أهل مكة ثم تقعدين فإن أصلح الله الأمر كان الذين تريدين وإلا احتسبنا ودفعنا عن هذا الأمر بجهدنا حتى يقضى الله ما أراد فلما قالوا ذلك لها

ولم يكن ذلك مستقيمًا إلا بها قالت نعم. وقد كان أزواج النبى ﷺ على قصد المدينة، فلما تحول رأيها إلى البصرة تركن ذلك وانطلق القوم إلى حفصة فقالت: رأيي تبع لرأى عائشة حتى إذا لم يبق إلا الخروج قال لهم يعلى بن أمية: معى ستمائة ألف وستمائة بعير فاركبوها. وقال ابن عامر معى كذا وكذا فتجهزوا به فنادى المنادى: إن أم المؤمنين وطلحة والزبير شاخصون إلى البصرة فمن كان يريد إعزاز الإسلام وقتال المحلين والطلب بثأر عثمان ولم يكن عنده مركب ولم يكن له جهاز فهذا جهاز وهذه نفقة. فحملوا ستمائة رجل على ستمائة من الإبل سوى من كان له مركب وكانوا ألفاً. وتجهزوا بالمال ونادوا بالرحيل واستقلوا ذاهبين. وأرادت حفصة الخروج فأتاها عبد الله بن عمر- وكان شخص إلى مكة بإذن علي معتمرًا-فطلب إليها أن تقعد فقعدت وبعثت تقول لعائشة: عبد الله حال بينى وبين الخروج فقالت يغفر الله لعبد الله، وبعثت أم الفضل بنت الحارث رجلاً من جهينة يدعى ظفرًا، فاستأجرته على أن يطوى ويأتى عليًا بكتاب كتبت به إليه.

وسار معهم مروان وسائر بنى أمية إلا من خشع معهم ولم يزالوا سائرين حتى قاربوا البصرة. كان الزبير وطلحة قد كاتبا ناسًا من أهل البصرة ليدخلوا فيما اعتزما عليه وما جاءا مع عائشة له. فكتبا إلى سعد بن سور «أما بعد فإنك قاضى عمر بن الخطاب وشيخ أهل البصرة، وسيد أهل اليمن وقد كنت غضبت لعثمان من الأذى فاغضب له من القتل والسلام» فأجابها «أما بعد : فإنا غضبنا لعثمان من الأذى والغير باللسان فجاء أمر الغير فيه بالسيف. فإن يك عثمان قتل ظالمًا فما لكما وله، وإن كان قتل مظلومًا فغيركما أولى به، وإن كان أمره أشكل على من شهده فهو على من غاب عنه أشكل" وكتابا إلى الأحنف بن قيس، أما بعد فإنك وافد عمر وسيد مضر وحليم أهل العراق وقد بلغك مصاب عثمان ونحن قادمون عليك والعيان أشفى لك من الخبر والسلام» فأجابهما: أما بعد فإنه لم يتأتنا من قبلكم أمر لا نشك فيه إلا قتل عثمان. وأنتم قادمون علينا فإن يك فى العيان فضل نظرنا فيه ونظرتم وإن لا يكن فيه

فضل فليس فى أيدينا ولا فى أيديكم ثقة والسلام» وكتباً إلى المنذر بن الجارود أما بعد فإن أباك كان رئيساً فى الجاهلية وسيداً فى الإسلام. وإنك من أبيك بمنزلة المصلي من السابق يقال كان أو لحق. وقد قتل عثمان ممن أنت خير منه وغضب له من هو خير منك والسلام» فأجابهما المنذر «أما بعد - فإنه لم يلحقنى بأهل الخير إلا أن أكون خيراً من أهل الشر. وإنما أوجب حق عثمان اليوم حقه أمس. وقد كان بين أظهركم فخذلتموه. فمتى استنبطتم هذا العلم، وبدا لكم هذا الرأى؟

وقد ذكر صاحب الإمامة والسياسة أن القوم في مسيرهم إلى البصرة نزلوا بأوطاس من خيبر، فأشرف عليهم سعيد بن العاص ومعه المغيرة بن شعبة، وقال لعائشة أين تريدين يا أم المؤمنين؟ قالت أريد البصرة. قال وما تصنعين بالبصرة؟ قالت أطلب بدم عثمان قال فهؤلاء قتلة عثمان معك. ثم أقبل على مروان فقال له: وأنت أين تريد أيضاً؟ قال البصرة. قال وما تصنع بها؟ قال أطلب قتلة عثمان. قال فهؤلاء قتلة عثمان معك. إن هذين الرجلين قتلا عثمان (طلحة والزبير) وهما يريدان الأمر لأنفسهما. فلما غلبا عليه قالا: نغسل الدم بالدم والحوبة بالتوبة ثم قال المغيرة بن شعبة: أيها الناس، إن كنتم إنما خرجتم مع أمكم فارجعوا بها خيراً لكم. وإن كنتم غضبتم لعثمان فرؤساؤكم قتلوا عثمان. وإن كنتم نقمتم على على شيئا فبينوا ما نقمتم عليه. أنشدكم الله. فتنتين فى عام واحد؟ فأبوا إلا أن يمضوا بالناس. فلحق سعيد بن العاص باليمن ولحق المغيرة بالطائف، فلم يشهدا شيئا من حروب الجمل ولا صفين. أقول إن الخبر على هذا الوجه غريب وإن من طبيعة الجماعات أنهم لا يطيقون الكلام على مثل هذا الوجه فإنا من هذا الخبر فى شك.

ولما دنوا من البصرة وعلم بقدوهم عثمان بن حنيف أمير البصرة من قبل على ندب رجلين هما عمران بن حصين وأبو الأسود الدؤلى ليسيرا فيعلما ماذا يريد القوم. ولما وصلا استأذنا على عائشة فأذنت لهما واستخبراها عن قدومها فقالت لهما: إن الغوغاء من أهل الأمصار ونزاع أهل القبائل غزوا حرم رسول الله وأحدثوا

فيه الأحداث وأووا فيــه المحدثين واستوجبوا فيه لعنــة الله ولعنة ورسوله، مع ما نالوا من قتل إمام المسلمين بــلا ترة ولا عذر، فاستحلوا الدم الحرام فسفـكوه وانتهبوا المال الحرام وأحلوا البلد الحرام والشهر الحرام ومزقوا الأعراض والجلود وأقاموا فى دار قوم كانوا كارهين لمقامهم ضارين مضرين غير نافعين ولا متقين لا يقدرون على امتناع ولا يأمنون. فخرجت فى المسلمين أعلمهم مــا أتى هؤلاء القوم وما فيه الناس وراءنا وما ينبغى لــهم أن يأتوا فى إصلاح هذا - وقرأت ﴿لا خـير فى كثيـر من نجواهم إلا من زمر بصدقــة أو معروف أو إصلاح بين الناس﴾ نُنْهِضُ فى الإصــلاح ممن أمر الله عز وجل ورسول الله ﷺ الـصغيـر والكبير والذكـر والأنثى. فهـذا شأننا إلى مـعروف نأمركم به ونحضكم عليه، ومنكر ننهاكم عنه ونحثكم على تغييره. ثم سألا طلحة ما أقدمك، فقال المطالبة بدم عثمان، قالا ألم تبايع عليا؟ قال بلى واللج على عنقى وما أستقيل عليا إن هو لم يـحل بيننا وبين قتلة عثمان. ولقيا الزبير فـقال لهما مثل قول طلحة، ثم عاد الرجلان إلى عثمان بن حنيف بما سمعا.

عزم عـثمان بن حنيف علـى منع القوم من البـصرة، فخطب فى الناس فـقال "أيها الناس إنما بايعتم الله، يد الله فوق أيديكم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فـسيؤتيه أجرًا عظيمًا، والله لو عـلم على أن أحدًا أحق بهذا الأمر منه مــا قبله، ولو بايع الناس غيـره لبايع من بايعوا وأطــاع من ولوا وما به إلى أحد من أصحاب رســول الله حاجة وما بأحد عنه غنى ولقد شاركـهم فى محاسنهم وما شاركوه فى محاسنه ولقد بايعه هـذان الرجلان وما يريدان الله. فاستعجلا الفطام قبل الرضاع والرضاع قبل الولادة والولادة قبل الحمل وطلبا ثواب الله من العباد. وقد زعما أنهمــا بايعا مستكرهين فإن كانا اسـتكرها قبل بيعتهمــا وكان رجلين من عرض قريش لهما أن يقــولا. ألا وإن الهدى ما كانت عليه العامة والعامــة على بيعة على. فما ترون؟" فـقال حكيم بن جبلة العبـدى: نرى إن دخلا علينا قاتلناهمــا وإن وقفا تلقيناهــما؟ والله ما أبالى أن أقاتلهــما وحدى وإن كنت أحب الحياة. ومــا أخشى فى

طريق الحق وحشة ولا غيرة ولا غشًا ولا سوء منقلب إلى بعث. وإنها لدعوة قتيلها شهيد وحيها فائز والتعجيل إلى الله قبل الأجر خير من التأخير فى الدنيا، وهذه ربيعة معك.

لم يكن أهل البصرة على رأى واحد. فلما قدم جيش عائشة إلى البصرة خرج إليهما من هم على مثل رأيهم.

وكان عثمان حين أراد أن يقوم على أمره ويجد فى رد أصحاب الجمل أتاه هشام بن عامر وقال له: يا عثمان إن هذا فتق لا يرتق وصدع لا يجبر، فسامحهم حتى يأتى أمر علي ولا تحادهم فأبى ونادى فى الناس بالتهيؤ ولبسوا السلاح واجتمعوا إلى المسجد الجامع وأقبل عثمان على الكيد. فكاد الناس لينظر ما عندهم. ودس إلى الناس رجلا كوفيًا قيسيًا. فقال: أيها الناس. أنا قيس بن العقدية الخميسى. إن هؤلاء القوم الذين جاءوكم. إن كانوا جاءكم خائفين فقد جاءوا من المكان الذى يأمن فيه الطير وإن جاءوا يطلبون دم عثمان فما نحن بقتلة عثمان. أطيعونى فى هؤلاء القوم فردوهم من حيث جاءوا. فقام إليه الأسود بن سريع السعدى فقال: أوزعموا أنا قتلة عثمان رضى الله عنه؟ فإنما فزعوا إلينا ليستعينوا بنا على قتلة عثمان منا ومن غيرنا فإن كان القوم قد أخرجوا من ديارهم كما زعمت فمن يمنعهم أن يخرجوا؟ الرجال أو البلدان؟ فحصبه الناس فعلم عثمان أن لهم بالبصرة ناصراً ممن يقوم معهم. فكره ذلك.

أقبلت عائشة فيمن معها حتى انتهوا إلى المربد ودخلوا من أعلا وأمسكوا ووقفوا حتى خرج عثمان ومن كان معه وجعلوا يتوافدون حتى غص بالناس فقال طلحة فى ميمنة المربد ومعه الزبير وعثمان فى ميسرته. فحمد الله وأثنى عليه وذكر عثمان رضى الله عنه وفضله والبلد وما استحل منه وعظم ما أتى إليه ودعا إلى الطلب بدمه وقال: إن فى ذلك إعزاز دين الله عز وجل وسلطانه وأما الطلب بدم الخليفة المظلوم فهو حد من حدود الله وإنكم إن فعلتم أصبتم وعاد أمركم إليكم وإن تركتم لم يكن لكم سلطان ولم يقم لكم نظام. وتكلم الزبير بمثل ذلك فقال من

بالميمنة: صدقا وبرا، وقال من بالميسرة: فجرا وغدرا وقالا الباطل وأمرا به قد بايعا ثم جاءا يقولان ما يقولان وتحاثا الناس بالتراب وتحاصبوا ومرج أمرهم. فتكلمت عائشة وكانت جهورية الصوت يعلو صوتها كثرة كأنها امرأة جليلة. فحمدت الله عز وجل وأثنت عليه وقالت: كان الناس يتجنون على عثمان رضى الله عنه ويزرون على عماله ويأتوننا بالمدينة فيستشيروننا فيما يخبرنا عنهم ويرون حسنا من كلامنا في صلاح بينهم فننظر في ذلك فنجده بريًا تقيا وفيا ونجدهم فجرة غدرة كذبة يحاولون غير ما يظهرون. فلما قووا على المكابرة كاثروه فاقتحموا عليه داره واستحلوا الدم الحرام والمال الحرام والبلد الحرام بلا ترة ولا عذر. ألا إن مما ينبغى ولا ينبغى لكم غيره أخذ قتلة عثمان رضى الله عنه. وإقامة كتاب الله ليحكم بينهم. فافترق أصحاب عثمان بن حنيف فرقتين: فرقة قالت صدقت وبرت وجاءت والله بالمعروف، وقال الآخرون: كذبتم والله ما نعرف ما تقولون فتحاثوا وتحاصبوا وأرهجوا فلما رأت عائشة ذلك انحدرت وانحدر معها أهل الميمنة مفارقين لعثمان إلى موضع فى المربد وبقى أصحاب عثمان يتدافعون حتى تحاجزوا - ومال بعضهم إلى عائشة، وأخذ عثمان ومن معه على طريق المسجد أقبل جارية بن قدامة السعدى فقال: يا أم المؤمنين، والله لقتل عثمان أهون من خروجك من بيتك على هذا الجمل الملعون عرضة للسلاح. إنه قد كان لك من الله ستر وحرمة فهتكت سترك وأبحت حرمتك. أنه من رأى قتالك فإنه يرى قتلك. إن كنت خرجت طائعة فارجعى إلى منزلك. وإن كنت أتيتنا مستكرهة فاستعينى بالناس. وخرج شاب من بنى سعد إلى طلحة والزبير فقال: أما أنت يا زبير فحواري رسول الله ﷺ. وأما أنت يا طلحة فوقيت رسول الله ﷺ بيدك. وأرى أمكما معكما فهل جئتما بنسائكما؟ قالا: لا. قال: فما أنا منكم فى شئ. واعتزل وقال:

صنتم حلائلكم وقد تم أمركم ... هذا لعمرى قلة الإنصاف
أمرت بجر ذيولها فى بيتها ... فهوت تشق البيد بالإيجاف
عرضًا يقاتل دونها أبناؤها ... بالنبل والخطىّ والأسياف
هتكت بطلحة والزبير ستورها ... هذا المخبر عنهم والكافى

وأقبل غلام من جهينة على محمد بن طلحة - وكان محمد رجلا عابدًا - فقال: أخبرنى عن قتلة عثمان. فقال: نعم، دم عثمان على ثلاثة أثلاث: ثلث على صاحبة الهودج (يعنى عائشة) وثلث على صاحب الجمل الأحمر (يعني أباه طلحة) وثلث على على بن أبى طالب. فقال الغلام: لا أرانى على ضلال. ولحق بعلى وقال:

سألت ابن طلحة عن هالك بجوف المدينة لم يقبر

فقال ثلاثة رهط هم أماتوا ابن عفان واستعبر

فثلث على تلك فى خدرها وثلث على راكب الأحمر

وثلث على ابن أبى طالب ونحن بدوية قرقر

فقلت صدقت على الأولين وأخطات فى الثالث الأزهر

ولما أتم أمر الفريقين على النحو الذى وصفنا. أقبل حكيم بن جبلة وهو على الخيل فأنشب القتال وأشرع أصحاب عائشة رماحهم وأمسكوا ليمسكوا فلم يثنه ولم يثن. فقاتلهم وأصحاب عائشة كافون إلا ما دافعوا عن أنفسهم. وهو يذمر خيله ويقول: إنها قريش ليردنها جبنها والطيش واقتتلوا وأشرف أهل الدور بمن كان له فى أحد الفريقين هوى فكانوا يرمون مخالفيهم بالحجارة. وأمرت عائشة أصحابها فتيامنوا حتى انتهوا إلى مقبرة بنى مازن وثار إليهم الناس حتى حجزهم الليل. ثم جاء أبو الجرباء التميمى فأشار على طلحة ومن معه بمكان أمثل من مكانهم. فساروا إلى مقبرة بنى حصن وباتوا يتأهبون للحرب وأصبح عثمان ومعه جبلة خارجين للحرب وجبله يسب عائشة. ولامه رجل وامرأة فقتلهما. ،والتقى الفريقان وقتل من أصحاب عثمان خلق كثير وفشت الجراحات فى الفريقين ومنادى عائشة يناشدهم ويدعوهم إلى الكف فيأبون إلى أن زالت الشمس وعضتهم الحرب ومسهم الشر. نادوا أصحاب عائشة . . إلى الصلح فأجابوا وتواعدوا وكتبوا بينهم كتابًا على أن يبعثوا رسولا إلى المدينة ليستخبر أهلها. فإن كان طلحة والزبير أكرها على بيعة على خرج عثمان عنهما

وأخلى لهما البصرة وإن لم يكونا أكرها خرج طلحة والزبير عنها وهذا هو الكتاب بالصلح: «بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما اصطلح عليه طلحة والزبير ومن معهما من المؤمنين والمسلمين وعثمان بن حنيف ومن معه من المؤمنين والمسلمين. إن عثمان يقيم حيث أدركه الصلح على ما فى يده وإن طلحة والزبير يقيمان حيث أدركهما الصلح على ما فى أيديهما حتى يرجع أمين الفريقين كعب بن سور من المدينة ولا يضار واحد من الفريقين الآخر فى مسجد ولا سوق ولا طريق ولا فرضة بينهم عيبه مفتوحة حتى يرجع كعب بالخبر فإن رجع بأن القوم أكرهوا طلحة والزبير فالأمر أمرهما، وإن شاء عثمان خرج حتى يلحق بطيته وإن شاء دخل معهما. وإن رجع بأنهما لم يكرها فالأمر أمر عثمان، فإن شاء طلحة والزبير أقاما على طاعة على وإن شاءا خرجا حتى يلحقا بطيتها والمؤمنين أعوان الفالج منهما» فخرج كعب بن سور حتى قدم المدينة يوم الجمعة واجتمع الناس لقدومه فقال: يا أهل المدينة إنى رسول أهل البصرة إليكم أأكره هؤلاء الرجلان على بيعة على أم أتياها طائعين؟ فلم يجبه أحد من القوم إلا ما كان من أسامة بن زيد فإنه قال: اللهم إنهما لم يبايعا إلا وهما كارهان: فوائبه سهل بن حنيف والناس حتى خشى عليه أصحاب رسول الله القتل فقاموا ليمنعوه وفيهم صهيب بن سنان وأبو أيوب بن زيد ومحمد بن مسلمة وصدقوا قوله ومنعوه، وقال له محمد بن مسلمة أما وسعك ما وسعنا من السكوت قال: لا والله ما كنت أرى الأمر يترامى. ثم رجع كعب بما وقف عليه بالمدينة.

من تمام الأمر بالصورة التى وصفنا نعم أن الأمر لا يزداد مبرمه إلا انتكاثا فى يد على والحال تسير على غير نظام. فإن عثمان بن حنيف لم يوله على ذلك المصر ليعقد المعاهدات بينه وبين طوائف المسلمين ولم يأخذ عليه العهد بأن يبذل الشروط التى تقضى إلى ضياع الأمصار. وقد كان الرجل على غير ما يجب فى أمثاله من الأرب وقوة الحجة. ولو كان على شئ من ذلك لاستطاع أن يجمع كلمة أهل البصرة ويملك ناصية أهوائهم حتى يقيموا على طاعة على ويحج طلحة والزبير وعائشة بأن

إقامة الحد إنما هى للإمام ولا ينبغى النهوض إلا فى طاعة إمام وهم قوم نزاع لا إمام لهم ومن كانت فى عنقة بيعة فإنه خارج على إمامة وكان فى وسعة أن يلزم القوم التربص حتى يؤامر عليًا. ومن الخرق في الرأى أن يرخص حكيم بن جبلة فى القتال قبل أن يتقدم إليه إمامه فى ذلك وإن الإمساك كان أحسن فى العاقبة وأرجى فى العافية.

بلغ عليًا الخبر الذى كان بالمدينة على يد كعب بن سور فبادر بالكتاب إلى عثمان يعجزه ويقول له: والله ما أكرها على فرقة ولقد أكرها على جماعة وفضل فإن كان يريدان الخلع فلا عذر لهما وإن كانا يريدان غير ذلك نظرنا ونظرا وجاء كتاب على ورجع كعب بن سور قاضى البصرة بما رأى فى المدينة فأراد طلحة والزبير تنفيذ شروط الصلح، فقال عثمان: أنا لا أخرج واحتج بكتاب على وقال: هذا أمر آخر غير ما كنا فيه فجمع طلحة والزبير الرجال فى ليلة مظلمة باردة ذات رياح وندى ثم قصد المسجد فوافقا صلاة العشاء. وكانوا يؤخرونها فأبطأ عثمان بن حنيف فقدما عبد الرحمن بن عتاب للصلاة، فشهر أصحاب ابن حنيف السلاح فقتلوا ودخلوا على عثمان بن حنيف فضربوه أربعين سوطًا ونتفوا شعر لحيته ورأسه وحاجبه وشعر عينيه وحبسوه ثم أمرت عائشة أن يترك يسير حيث يشاء فترك البصرة وذهب إلى على.

وأصبح حكيم بن جبلة فيمن تبعه يريدون الحرب وكان أتباعه ممن لهم شركة فى فتنة عثمان وعلموا أنهم مقتولون إذا قعدوا. فلما أنشبوا الحرب ونادى منادى عائشة من لم يكن من قتلة عثمان فليكفف عنا فإنا لا نريد إلا قتلة عثمان ولا نريد أحدًا.

واقتتل الفريقان أشد قتل وضرب رجل حكيما فقطع رجله فحبا إليها وأخذ وضرب بها ضاربة فصرعه ثم حبا إليه حتى قتله. واتكأ عليه وجاء رجل من أصحابه فقال له من قتلك؟ قال وسادتى وكان يقف على رجله فى ذلك اليوم ويخطب ويحتج على طلحة والزبير - إلى أن انهزم حرقوص بن زهير فى نفر ممن بقى فلجأوا إلى

قبائلهم. فنادى طلحة والزبير ألا من كان فيهم من قبائلكم أحد ممن غزا المدينة فليأتنا به فجاءوا ببقيتهم يسوقونهم كما تساق الكلاب فقتلوا ولم ينج أحد ممن غزا المدينة من أهل البصرة سوى حرقوص بن زهير السعدى أجاره قومه وأعطوا أجلا فيه - وجاء طلحة والزبير وأعطوا أهل السمع والطاعة من بيت المال وفضلوهم ومنعوا غيرهم فخرجت عبد القيس وكثير من بكر بن وائل حين زووا عنهم الفضول وبادروا بيت المال ودافعهم الناس وأصابوا منهم. وخرج القوم وأقاموا على طريق على. وأقام طلحة والزبير ليس معهما بالبصرة ثار إلا حرقوص. وكتبوا إلى أهل الشام بما صنعوا وصاروا إليه فقالوا - إنا خرجنا لوضع الحرب وإقامة كتاب الله عز وجل بإقامة حدوده فى الشريف والوضيع والكثير والقليل - حتى يكون الله عز وجل هو الذى يردنا عن ذلك - فبايعنا أهل البصرة ونجباؤهم وخالفنا شرارهم ونزاعهم فردونا بالسلاح وقالوا فيما قالوا نأخذ أم المؤمنين رهينة أن أمرتهم بالحق وحثتهم عليه فأعطاهم الله عز وجل سنة المسلمين مرة بعد مرة حتى إذا لم يبق حجة ولا عذر استبسل قتلة أمير المؤمنين فخرجوا إلى مضاجعهم فلم يفلت منهم مخبر إلاحرقوص ابن زهير والله تعالى مقيده إن شاء الله وكانوا كما وصف الله عز وجل وإنا نناشدكم الله فيأنفسكم إلاّ نهضتم بمل ما نهضنا به فلقى الله عز وجل وتلقونه وقد أعذرنا وقضينا الذى علينا. وبعثوا به مع سيار العجلى وكتبوا إلى أهل الكوفة مع رسولهم كتابا طولته وحثتهم على متابعتها.

وكانت الموقعة لخمس ليال بقين من ربيع الآخر سنة ٣٦.

العجب كل العجب من طلاب دم عثمان سواء كانوا من بنى أمية أو من غيرهم كطلحة والزبير فإن هؤلاء القوم إنما كانوا يريدون أن يقتلوا كل من ورد المدينة مع المؤلبين لا يستثنون أحدًا منهم. وهم بذلك يريدون أن يقيدوا بدم عثمان من ثلاثة آلاف من أهل القبلة: إذا راعينا من ثار إليهم من أهل المدينة وعبدانهم وأهل المياه لبلغ المأخوذون بدم عثمان الذين يجب قتلهم من خمسة آلاف إلى ما يزيد على عشرة آلاف. وذلك أمر لا يرضاه الله تعالى ولا تأمر به الشريعة. والله تعالى يقول ﴿ومن

قتل مظلومًا فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف فى القتل﴾. وهذا نهاية الإسراف، ورجوع بالمسلمين إلى أمر الجاهلية ولو نفذنا رأيهم لكان فى الآخذين بثأره العدد الكثير ممن فى أعناقهم دمه كطلحة والزبير وعائشة. لأن كلماتهم التى كانت تصدر منهم فى حق عثمان بالمدينة تعد مددا للمؤلبين وعونا لأهل الفتنة. وقد كان فى حكم الإنصاف أن يعمدوا إلى رؤساء أهل الفتنة وقادتهم ويقتلوهم أو يقاتلوهم.

يؤيد قولى فى طلحة والزبير وعائشة ما ورى الطبرى عن علقمة بن وقاص الليثى قال : لما خرج طلحة والزبير وعائشة رأيت طلحة وأحب المجالس إليه أخلاها وهو ضارب بلحيته على زوره فقلت يا محمد أرى أحب المجالس إليك أخلاها وأنت ضارب بلحيتك إلى زورك إن كرهت شيئا فاجلس. فقال يا علمة بن وقاص بينما نحن يد واحدة على من سوانا إذ صرنا جبلين من حديد يطلب بعضنا بعضا أنه كان منى فى عثمان شئ ليس توبتى إلا أن يسفك دمى فى طلب دمه. فقلت: فرد محمد ابن طلحة فإن لك ضيعة وعيالا فإن نابك شئ يخلفك فقال ما أحب أن أرى أحداً يخف فى هذا الأمر فامنعه. فأتيت محمد بن طلحة فقلت له: لو أقمت فإن حدث به حدث كنت تخلفة فى عياله وضيعته. فقال ما أحب أن أسأل الرجال عنه.

وفى الطبرى أن ابن أم كلاب حين أخبر عائشة ببيعة على قالت: ليت هذه انطبقت على هذه أن تم الأمر لصاحبك، ردونى. وانصرفت إلى مكة وهى تقول قتل والله عثمان مظلومًا والله لأطلبنّ دمه. فقال لها ابن أم كلاب: ولم؟ فوالله إن أول من أمال حرفه لأنت. ولقد كنت تقولين اقتلوا نعثلا فقد كفر. فقالت إنهم استتابوه ثم قتلوه وقد قلت وقالوا وقولى اليوم خير من قولى الأول - فقال أبياتا منها

وأنت أمرت بقتل الإمام وقلت لنا إنه قد كفر
فهنا أطعناك فى قتله وقاتله عندنا من أمر

فهؤلاء الرهط لم يقوموا للطلب بدم عثمان فى الواقع ولكن - كل إلى حيزه يحذب.

وإذا صح أن طلحة كان نادماً على ما كان منه فى حق عثمان فليس السبيل إلى تكفير خطيئته أن يقاتل علياً بل كان يصبر حتى تجتمع كلمة الأمة ثم يعمد إلى أصحاب رسول الله ويدعوهم إلى مؤتمر يديرون الرأى فيه كما يجب أن يصار إليه فى أمر القتلة ورؤرس المؤلبين.

لما بلغ عليا نبأ مسير طلحة والزبير وعائشة إلى البصرة عدل عن المسير إلى الشام ورأى أن يرتق هذا الفتق وحاول أن يدركهم قبل أن يصلوا إليها. فلما انتهى إلى الزبدة أتاه عنهم أنهم قد أمعنوا. فسرى عنه وقال إن أهل الكوفة أشد إلى حبا. وكتب إلى أهل الكوفة.

«بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد فإنى اخترتكم والنزول بين أظهركم لما أعرف من مودتكم وحبكم لله عز وجل ورسوله ﷺ فمن جاءنى ونصرنى فقد أجاب الحق وقضى الذى عليه».

وأرسل إلى الكوفة محمد بن أبى بكر ومحمد بن عوف - وفى رواية محمد ابن جعفر - فمضيا وبقى على بالزبدة يتهيأ وأرسل إلى المدينة فلحقه ما أراد من دابة وسلاح و أمرُ أمره وخطب الناس وقال: إن الله أعزنا بالإسلام ورفعنا به وجعلنا به إخوانا بعد ذلة وقلة وتباغض وتباعد فجرى الناس على ذلك ما شاء الله. الإسلام دينهم، والحق فيهم، والكتاب إمامهم. حتى أصيب هذا الرجل بأيدى هؤلاء القوم الذين نزغهم الشيطان لينزغ بين هذه الأمة إلا أن هذه الأمة لابد مفترقة كما افترقت الأمم قبلهم فنعوذ بالله من شر ما هو كائن. ثم عاد ثانية فقال: ألا إنه لابد مما هو كائن أن يكون إلا إن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة شرها فرقة تنتحلنى ولا تعمل بعملى، فقد أدركتم ورأيتم فالزموا دينكم واهتدوا بهدى نبيكم ﷺ واتبعوا سنته واعرضوا ما أشكل عليكم على القرآن فما عرفه القرآن فالزموه وما نكر فردوه، وارضوا بالله عز وجل ربًا وبالإسلام دينا وبمحمد ﷺ نبيًا وبالقرآن حكماً وإماماً.

ثم سار والناس من القبائل يلاحقون به حتى نزل على ذى قار وقد وافاه عثمان بن حنيف وبلغه ما صنع حكيم بن جبلة وما كان من شأن عثمان فقال: الله أكبر ما ينجينى من طلحة والزبير إذا أصابا ثأرهما أو ينجيهما وقرأ ﴿**ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها**﴾ وأقام يتلوم بذي قار حتى يأتيه أمر عن رسوليه إلى الكوفة.

أما رسولاه فقد وردا الكوفة وأتيا أبا موسى بكتاب على، وقاما فى الناس بأمره فلم يجابا إلى شئ. فلما أمسوا دخل ناس من أهل الحجى على أبى موسى يستشيرونه فقالوا: ما ترى فى الخروج؟ فقال: كان الرأى بالأمس ليس باليوم. إن الذى تهاونتم به فيما مضى هو الذى جر عليكم ما ترون وما بقى. إنما هما أمران: القعود سبيل الآخرة والخروج سبيل الدنيا. فاختاروا، فلم ينفر أحد فغضب محمد ومحمد. وأغلظا لأبى موسى. فقال: والله إن بيعة عثمان لفى عنقى وعنق صاحبكما فإذا كان لابد من قتال. لا نقاتل أحدًا حتى نفرغ من قتلة عثمان حيث كانوا فانطلقا إلى على بذى قار وأخبراه الخبر فأرسل ابن عباس والأشتر إلى الكوفة ليجمعا الناس على أمره ، وكان يأمل أن ينال ما يرجو بالأشتر لمكانه من أهل الكوفة. فقدما على أبى موسى واستعانا عليه بناس، فقام أبو موسى فقال للكوفيين فى خطبة له: أيها الناس إن أصحاب النبى ﷺ الذين صحبوه، فى المواطن أعلم بالله عز وجل وبرسوله ﷺ ممن لم يصحبه، وإن لكم علينا حقًا فأنا مؤديه إليكم كان الرأى أن لا تستخفوا بسلطان الله عز وجل ولا تجترئوا على الله عز وجل. وكان الرأى الثانى أن تأخذوا من قدم عليكم من المدينة فتردوهم إليها حتى يجتمعوا وهم أعلم بمن تصلح له الإمامة منكم ولا تكلفوا الدخول فى هذا، فأما إذا كان ما كان فإنها فتنة صماء النائم فيها خير من اليقظان واليقظان فيها خير من القاعد والقاعد فيها خير من القائم والقائم فيها خير من الراكب فكونوا جرثومة من جراثيم العرب فأغمدوا السيوف وأنصلوا الأسنة وقطعوا الأوتار وآووا المظلوم والمضطهد حتى يلتئم هذا الأمر وتنجلى هذه الفتنة.

عاد بعد ذلك ابن عباس والأشتر بالخبر إلى على فأرسل ابنه الحسن وعمار ابن ياسر إلى الكوفة. فلقيهما مسروق بن الأجدع فأقبل على عمار وقال: يا أبا اليقظان علام قتلتم عثمان؟ فقال: على شتم أعراضنا وضرب أبشارنا فقال والله ما عاقبتم بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لكان خيرًا للصابرين وخرج إليهما أبو موسى فضم الحسن إليه وقال لعمار: يا أبا اليقظان أعدوت على أمير المؤمنين فيمن عدا فأحللت نفسك مع الفجار؟ فقال لم أفعل ولم تسؤنى وقطع عليهما الحسن الحديث وقال: يا أبا موسى لم تثبط الناس عنا؟ فوالله ما أردنا إلا الإصلاح ولا مثل أمير المؤمنين يخاف على شئ. فقال صدقت بأبى أنت وأمى ولكن المستشار مؤتمن، ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول إنها ستكون فتنة. وقد جعلنا الله عز وجل إخوانا وحرم علينا أموالنا ودماءنا وقال ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ... ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيمًا**﴾ وقال عز وجل ﴿**ومن يقتل مؤمنا متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها**﴾ الآية فغضب عمار وقال. يا أيها الناس إنما قال له خاصة أنت فيها قاعدًا خير منك قائما. ورد رجل على عمار ردًا قبيحًا وجاء زيد بن صوحان بكتب عائشة فقرأها على الناس وقال: إنها أمرت بالقرار فى بيتها وأمرنا أن نقاتل الناس حتى لا تكون فتنة وهى تنهانا عن القتال. ورد عليه شبث بن ربعى بأنها إنما تأمر بالخير والإصلاح. وتهاوى الناس بعضهم إلى بعض وجعل أبو موسى يكفكفهم ويأمرهم بالسكون وينصح لهم بأن يتجنبوا الفتنة ولا يدخلوا فيها ويرد عليه زيد بن صوحان بأن ذلك لا يكون حتى يرد الفرات عن سيلة ويتلو ﴿**ألم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا أمنا وهم لا يفتنون**﴾ وقام القعقاع فقال: إن رأى الأمير هو الرأى لو وجد إليه سبيل وإن زيد بن صوحان لا يؤخذ برأيه لأنه من أهل التأليب على عثمان. وإن الرأى أنه لابد من إمام ينتظم به الأمر وإن عليا قد وليه وإنما يدعو إلى الإصلاح فلتنفروا إليه حتى تكونوا بمرأى ومسمع من الأمر. ورد عليه آخرون وافترق الناس فريقين.

ثم قام الحسن بن على فقال: يا أيها الناس، أجيبوا دعوة أميركم وسيروا إلى إخوانكم فإنه سيوجد لهذا الأمر من ينفر إليه، والله لأن ينفر إليه أولو النهى أمثل فى العاجلة وخير فى العاقبة فأجيبوا دعوتنا وأعينونا على ما ابتليتم به فسامح الناس: وقال الحسن: إنى غاد فمن شاء منكم فليخرج على الظهر ومن شاء فليخرج فى الماء، فخرج معه تسعة آلاف ستة آلاف ومئتان فى البر وألفان وثمانمائة فى السفن وجاءت الجنود إلى على بذى قار. فقال لهم: قد دعوتكم لتشهدوا معنا إخواننا من أهل البصرة، فإن يرجعوا فذاك ما نريد، وإن يلجوا داويناهم بالرفق وبايناهم حتى يبدءوا بظلم، ولن ندع أمراً فيه صلاح إلا آثرناه على ما فيه الفساد إن شاء الله.

فلما حضر أهل الكوفة دعا على القعقاع من ساداتهم وكان من أصحاب رسول الله ﷺ وقال له : الق هذين الرجلين يا ابن الحنظلية فادعهما إلى الألفة والجماعة وعظم عليهما الفرقة. وقال له: كيف انت صانع فيم جاءك عنهما مما ليس عندك فيه وصاة منى؟ فقال: نلقاهم بالذى أمرت. فإذا جاء منهما أمر ليس عندك فيه رأى اجتهدنا الرأى وكلمناهم على قدر ما نسمع ونرى أنه ينبغى فقال : أنت لها. وقدم القعقاع البصرة فبدأ بعائشة وقال لها: أى أمه ما أشخصك وما أقدمك هذه البلدة؟ قالت: أى بنى، إصلاح بين الناس. قال فابعثى إلى طلحة والزبير حتى تسمعى كلامى وكلامهما. فبعثت إليهما فجاءا فقال: إنى سألت أم المؤمنين ما أشخصها وأقدمها هذه البلاد فقالت إصلاح بين الناس. فما تقولان أنتما أمتابعان أم مخالفان؟ فقالا متابعان فقال: فأخبرانى ما وجه هذا الإصلاح فوالله إن عرفناه لنصلحن وإن أنكرناه لا نصلح، فقالا : قتلة عثمان فإن هذا إن ترك كان تركا للقرآن وإن عمل كان إحياء للقرآن. فقال: قد قتلتما قتلة عثمان من أهل البصرة وأنتم قبل قتلهم أقرب إلى الإستقامة منكم اليوم. قتلتم ستمائة رجل إلا رجلا، فغضب لهم ستة آلاف واعتزلوكم وخرجوا من بين أظهركم وطلبتم الذى أفلت (حرقوص بن زهير) فمنعه ستة آلاف وهم على رجل. فإن تركتموهم كنتم تاركين لما تقولون، فإن قاتلتموهم

والذين اعتزلوكم فأديلوا عليكم فالذى حذرتم وقربتم به هذا الأمر أعظم مما أراكم تكرهون. وأنتم أحميتم مضر وربيعة من هذه البلاد فاجتمعوا على حربكم وخذلانكم نصرة لهؤلاء كما اجتمع هؤلاء لأهل هذا الحدث العظيم والذنب الكبير. فقالا وقالت عائشة: فما دواء هذا الأمر؟ فقال لا أرى دواء لهذا الأمر إلا التسكين وإذا سكن اختلجوا فإن أنتم بايعتمونا فعلامة خير وتباشير رحمة ودرك بثأر هذا الرجل وعافية وسلامة لهذه الأمة وإن أبيتم إلا مكابرة هذا الأمر واعتسافة كانت علامة شر وذهاب هذا الثأر وبعثة الله فى هذه الأمة هزاهز فآثروا العافية ترزقوها وكونوا مفاتيح الخير كما كنتم تكونون ولا تعرضونا للبلاء ولا تعرضوا له فيصرعنا وإياكم. وأيم الله إنى لأقول هذا وأدعوكم إليه وإنى خائف أن لا يتم حتى يأخذ الله من هذه الأمة التى قل متاعها ونزل بها ما نزل. فإن هذا الأمر الذى حدث أمر ليس يقدر وليس كالأمور ولا كقتل الرجل الرجل ولا النفر الرجل ولا القبيلة الرجل. فقال له القوم: أحسنت وأصبت، فإن جاء على بمثل ما قلت صلح الأمر.

والناظر فى هذا القول يرى أن القعقاع قد تأتى لهذا الأمر بأحسن ما تأتى له رفيق مصلح حاذق درب. وأن هذا القول وقع من نفس عائشة وطلحة والزبير أحسن وقع. وأنه حملهما على إيثار العافية وما فيه الاجتماع ونبذ الفرقة ورتق ما فتقا وما أجمل ذلك لو تم!.

رجع القعقاع إلى على وأعلمه علم القوم وما كان منه ومنهم فأعجبه ذلك وأشرف القوم على الصلح. ثم أمر على بالرحيل بعد أن جمع الناس وخطب فيهم خطبة قال منها: ألا وإنى راحل غداً فارتحلوا ألا ولا يرحلن غداً أحد أعان على عثمان رضى الله عنه بشىء فى شىء من أمور الناس وليغن السفهاء عنى أنفسهم. وقد جاءت وفود قبائل البصرة إلى قبائل الكوفة وهم لا يريدون الحرب ولا يظنونها وأمن الناس بعضهم بعضاً.

من أين جاء الشر؟

لما كان أمـر الصلح لا يسوء أحـدا من الأمة سـوى المجلبين على عثـمان لأن حياتهم لا تكون إلا بدوام الشقاق بين على وخصومة، أشفقوا على أنفسهم أن يكون هذا الصلح على أعناقهم، فـأجتمع منهم رهط ممن سار إلى عثـمان ورضى بسير من سار وخلصوا نجـيًا. منهم علباء بن الهيـتم وعدى بن حاتم وسالم بن ثعلبـة العبسى وسريح بن أوفـى والأشتر وابن السـوداء وخالد بن ملجم وغـيرهم فتـشاوروا فيـما يصنعـون وكان فيمـا قال بعضـهم لبعض: إذا اجتـمع الناس غدا واصطلحـوا فليس الصلح إلا علينا وأشار بعضهم (وهو الأشتر) بقتل على وطلحة حتى تكون هذه بتلك فيغفر الناس لـهم ما أحدثوا بعثمان. فسفه الآخـرون رأيه وكل أبدى رأيًا. فقال لهم ابن السوداء . إن عـزكم فى خلطة الناس فصانعـوهم وإذا التقى الناس غدا فـانشبوا القتال ولا تفرغوهم للنظر فإذا من أنتم مـعه لا يجد بدا من أن يمتنع ويشغل الله عليًا وطلحة والزبير عما تكرهون.

لما وصل على بعد ذلك إلى الـبصرة وقد بيت السبئيـة أمرهم وهو لا يعلم ولا بقية عسكره بما يسرون، أرسل إلى القوم «إن كنتم على ما فارقتم القعقاع عليه فكفوا وأقرونا ننزل وننظر فى هذا الأمر» فنزلوا والقوم لا يشكون فى الصلح ومشت السفراء بين الفريقين وبات الناس ينتظرون العافية من هذا الحدث الجلل فقام السبئية فى الغلس ووضعوا السلاح فى أهل البـصرة وهم غارون فلما كانت الهيعـة سأل طلحة والزبير عن الخبـر، فقالوا طرقنا أهل الـكوفة ليلا. فقـالا قد علمنا أن عليًـا غير منتـه حتى يسفك الدماء ويستحل الحرمة وأنه لن يطاوعنـا. وسأل على عن الخبر. وكان السبئية قد أرصدوا رجلا قريبًا منه يخبره بما يريدون فقال له: ما فجئنا إلا وقوم منهم بيتونا. فرددناهم من حيث جاءوا فوجدنا القوم على رجل فركبونا وثار الناس فقال على: قد علمت أن طلحة والزبير غـير منتهين حتى يسفكا الدماء ويستحـلا الحرمة، وأنهما لن يطاوعانا. ولم يجد الفـريقان بدًا من القتال، إذ لم يكن ثمة مجـال لاستجلاء الواقع ولا تراسل الرؤساء، وتبين الحقيقة يفضى إلى تدارك الأمر.

وكانت عائشة فى هودجها قد جللته الحديد وهي بمكة وجعلت فيه موضعا لعينيها وهى فى عسكر أهل البصرة وثار العسكران لبعضهما وكان القتال في ذلك اليوم من أشد القتال هولاً وصدق كل فريق الحملة على الآخر. وأهل البصرة وشجعانهم وذووا النجدة منهم يلوذون بجمل عائشة ويدافعون عنها حتى لا تصاب بشر، فقتل حوله بشر كثير وقطعت على زمامة أيد كثيرة ولا يدور بخلد أحد من الناس أن ينهزم وراجز أهل البصرة يقول:

نحن بنى ضبة أصحاب الجمل   ننزل بالموت إذا الموت نزل

ننعى ابن عفان بأطراف الأسل   الموت أحلى عندنا من العسل

ردوا علينا شيخنا ثم بجل

ولما رأى على كثرة القتلى حول الجمل وإن الناس يستميتون دونه ولا يسلمونه أبدًا وفيهم عين تطرف، نادى اعقروا الجمل. فجاء إلى الجمل رجل من خلفه وضرب عرقوبه فعقره وسقط الهودج وكأنه قنفد لكثرة ما رمى به من النبل فجاء محمد بن أبى بكر وعمار بن ياسر وقطعا غرضة الرحل واحتملا الهودج فنحياه عن القتلي وخرج بها محمد حتى أدخلها البصرة.

وكان لم ظهر الضعف فى الناس تركهم الزبير بن العوام وولى وجهه شطر المدينة فعلم بمسيره عمرو بن جرموز فاتبعه حتى إذا كان بوادى السباع غافله وقتله.

وقد قتل فى هذه الوقعة المشؤومة عشرة آلاف فيهم كثير من أعلام المسلمين وذوى الغناء والنجدة منهم الزبير وطلحة ومحمد ابنه وعبد الرحمن بن عتاب بن أسيد وكثير غيرهم من قريش. فقد قالوا: قتل حول الجمل سبعون قريشاً.

وكان محمد بن طلحة يحمل ويقول «حم لا ينصرون» فشد عليه جماعة فاشتركوا فى قتله وقال أحدهم.

وأشعث قوام بآيات ربه   قليل الأذى فيما ترى العين مسلم

هتكـت له بالرمح جيب قميصه ... فـخـر صـريـعـا لليـدين وللـفم
يـذكـرنـى حم والـرمـح شـاجـر ... فـهـلا تـلا حـم قـبـل الـتـقـدم
علـى غـيـر شـئ أن ليـس تابـعًـا ... عـليـا ومن لا يـتـبـع الحـق يـنـدم

ولما نقل عمـار ومحمد بن أبى بكر عائـشة قال لها عمـار: كيف رأيت ضرب بنيك يا أمة؟ قـالت من أنت؟ قال ابنك البار عـمار. فقالت لست لك بأم فـقال بلى وإن كرهت. فقالت: فخرتم إن ظفرتم وأتيتم مثل الذى نقمتم والله لن يظفر من كان هذا دأبه. وجاءها على بن أبى طالب فقال: أى أمه يغـفر الله لنا ولكم فقالت: غفر الله لنا ولكم.

وكانت الوقعة يوم الخميس لعشر خلون من جمادى الآخر سنة ٣٦.

وبعد أن انـتهت الموقعـة مر على بين القـتلى، فكلما مـر بمصرع أهل البـصرة وعرفهـم قال: زعموا أنه إنما خـرج معهم السفـهاء والغوغاء وهذا فـلان وفلان ! ثم صلى على القتلى وأمر بدفنهم جميعـا. وبعد ذلك زار عائشة بالبيت الذي نزلت فيه وقعد عندها ثـم أمر بأن تجهز إلى المدينة فجـهزت خير جهاز ثم لما جـاء يوم رحيلها ودعها بنفسه وقالت وسط مشيعيها.

«إنه والله ما كان بينى وبين على فى القديم إلا ما يكون بين المرأة وأحمائها وأنه عندى - على معتبتى - من الأخيار».

وقال على «أيهـا الناس صدقت والله وبرت، أنه ما كان بيـنى وبينها إلا ذلك، وأنها لزوجة نبيكم ﷺ فى الدنيا والآخرة».

وكان خروجها من البصرة يوم السبت لغرة رجب سنة ٣٦ وشيعها أميالا وسرح بنيه معها يوما.

انتهت المـوقعة بظهـور على وانهزام أعدائـه هزيمة منكرة. فمن كـان منهم من

البصـرة أقام مكانه ومن نجا من غـيرهم زايل البصـرة. وأخذ على البيـعة على أهل البصرة، وولى عليـها عبد الله بن عباس وجعل عـلى الخراج وبيت المال زياد بن أبى سفيان

وكانت هذه الوقـعة المشؤومـة أول وقعة تلاقت فيـها جيوش المسـلمين يضرب بعضهم رقاب بعض ويسفك بعضهم دمـاء بعض وكل من الجيشين تحت إمرة كبير من كبـار أصحاب رسول الله ﷺ، فـسهل بعدها أن يقـف المسلم بإزاء المسلم كل منهـما يسفك دم الآخر ويحل قتله بعد أن كان ذلك الموقف فى نظرهم عظيما مهيبًا.

وقد كان الزبير فى بعض خطبة سمى مـا فيه الناس فتنة. فقال له بعض الناس أتسميه فتنة وأنت تقاتل فيه؟ فقال: والله ما وضعت رجلى فى شئ إلا وأنا أعلمه إلا هذا الأمر فإنى لا أدرى أيقبل بى أم يدبر.

نظرة فى وقعة الجمل

أما وقد انتـهت الوقعة التي اتسع بـها الفتق على المسلمين وسـهلت على أهل القبلة أن ينبذ فـريق منهم إلى الفريق الآخر على سواء وجعلتـهم يسلون السيوف كل منهم على الآخر ويسفك بعضهم دم بعض، فلابد للمؤرخ من أن يقف وقفة القاضى المجتهد ويـلقى على هذه الوقعة ومقـدماتها وما احتف بهـا من الأحوال نظرة المدقق ليصدر حكما عادلا يلزم به المخطئ حظه من الخطأ ويحمله تبعة ما أتى باذلا فى ذلك ما يصل إليه اجتـهاده. أما ما لكل من الفريقين عند الله تعالـى فالله وليه وهو يتولى الصالحين ورحمهم الله أجمعين.

أما عائشة أم المؤمنـين فما كان لها أن تتولى كبر هـذا الأمر ولا أن تطالب كما تزعم بدم عثمان فـإن أولياء دم عثمان كثيرون يفوت عـدهم الإحصاء وقد علمت أن معاوية بالشـام غير وان فى أمره ولا متـخاذل فيه وهو على العمل أقـدر منها وأولى بعثمان وأمس به رحمًا وأقرب قرابة وليست رحمها الله ممن جعل الله لهم سلطان هذا

الأمر ولولا وجودها فى هـذا الجيش لماتت الفتنة فى هذه الناحيـة ولم يكن لهم نظام ولا حميـة. فكانت سببًـا لاشتداد البلاء على المـسلمين ومثارًا لأمور أنتـجت الحزن والأسى. وأما طلحة والزبير، فهما كذلك لـيسا من ولاية عثمان فى شئ وقد كانا له بين قائم فى الفتنة مثير حريقها وبين خاذل مشير إشارته أنفذ من الوصول لا يعنيه من الأمر إلا أن يكون الفتنة بيـد غيره ويباشرها سواه حتى تساق إليه الخـلافة ويده نظيفة من الدم كيلا تكون لأحـد عليه سبيل. فلما وقعت الواقـعة وأخطأه ما أمل ورأى أنه كان يسعى لغـيره ويحطب فى حبل سواه رجا أن ينال فى سلـطانه بعض ما يكون له عزاء - وإذا لم تكن إبل فمـعزى - فلما رأى الفائز قد قبض يده عنـه ولم يسوغه ما أراد ندم ولات ساعـة مندم وخرج كل منـهما ليـغسل الدم بالدم ويكـفر عن السيـئة بأفحش منهـا جرمًا وأسوأ منها عـاقبة فسهـلا على عائشة خروجهـا إلى ما ليس من شأنها راجين بلوغ الأرب بمكـانها، فكان الحتف فيما يرجوان، وحـيل بينهم وبين ما يشتهون.

أما على فهـو وإن كان فى أمر عثمـان أقل تأريثا للشر وأذب عنه قـبل اشتداد الأمر إلا أنه لم يكن عنده من الأناة وحسن التأنى للأمور ما يتألف به الشارد ويسلس به قياد الجامع. وإلى أنه أرضى الرجلين ببعض ما فى يده مما ليس فيه معصية لله ولا حيف على الرعية لكان ذلك أجمل أثرًا فى العاقبة وأرجى للسلامة وقد أورد صاحب الإمامة والسـياسة أن عليًا حين أحس بما فى نفـس طلحة والزبير استشـار ابن عباس فأشار عليه أن يولى طلحة البصرة والزبير الكوفة فأبى إشفاقًا منه أن يؤلبا عليه الناس والبصرة والكوفة فـيهما الرجال والمال. على أنه لو أرضاهـما فى أول الأمر حتى إذا اتسق له صنع ما أراد لكان ذلك أحسن فى السياسة وأحقن للدماء وقد مر بنا هذا.

على أن عليًـا لم يكن القـوى على جنده المالك لزمـام عسكره الحذر لـكل ما يخاف، الواقـف على كل ما يحدث فـيما بينهـم. ولقد كان عمـر بن الخطاب وهو بالمدينة واقفًـا على كل صغيرة وكبيـرة من أمر جنده بالعراق وفارس وأرمـينيا والشام

ومصر وتخوم الروم لا يغيب عنه شيء من خيرهم وشرهم. ولكن عليا كان تاركا لشأنهم وهو بين ظهرانيهم يجتمعون ويديرون الأمور ويبيتون الشر ويكيدون له وللمسلمين حتى لقد كان فى ضمن ما ائتمروا به أن يواثبوه ويلحقوه بعثمان ليهدر دمهما ويحقن دم المؤلبين السفاكين الكائدين وهم بمرأى ومسمع منه وهو لا علم له بما يدبرون ولو كان من الضبط لأمره والحيطة فى شؤونه بالمكان الذى يجب أن يكون به ما ساغ للسبئية أن ينشبوا القتال على الوصف الذى بينا، وحسن قول الأستاذ الخضرى رحمه الله فى محاضراته: لا يمكننا أن نبرر عمل الفريقين المتحاربين من كل الوجوه. فإن طلحة والزبير وعائشة خرجوا - كما يقولون - للمطالبة بدم عثمان الذى سفك حرامًا من غير ترة ولا ذنب يوجب ذلك. ولا نرى كيف فهموا أن ذلك ممكن من غير أن يكون للمسلمين إمام يرجع إليه الأمر فى تحقيق هذه القضية وإقامة الحد على من يستحقه؟

إن إعطاء الحق للأفراد فى أن يتجمعوا لإقامة حد قصر الإمام فى إقامته أو اتهم بالهوادة فيه، مفسدة للنظام الذى أسس عليه الإسلام. وإذا كانوا لا يرون الإمامة على صحة فقد كان المفهوم دعوة أهل الحل والعقد من كبار المسلمين أولا للنظر فى أمر الخلافة وإعطائها لمن يرضاه الناس ثم ينظرون بعد ذلك فى إقامة الحد ولكنهم قاموا بصفتهم أفرادًا من كبار الأمة ودعوا الناس إلى أمرهم من غير أن يكون لهم إمام يرجعون إليه. ولا ندرى كيف غاب كل ذلك عنهم مع سابقتهم وفضلهم، ولكنهم يقولون إن الفتن إذا أقبلت تشابهت وإذا أدبرت تبينت. ولم يكن عند على بن أبى طالب من الأناة ما يمكنه من المصابرة حتى يلتئم هذا الصدع بأحسن مما كان. حقيقة إن أولئك الشياطين الذين لا يريدون بالأمة خيراً أعجلوه وأنشبوا الحرب حتى اشتبه الأمر على الفريقين كليهما. ولكن هذا عيب كبير فى قيادة الجيوش أن يكون الرئيس بحيث يمكن فرقة من جيشه أن تعجله عن النظر فيما هو قادم عليه. وإن الخطأ العظيم أن يستعين على بمثل هذه الفرقة السبئية ويجعلها تأوى إلى جنده فى الوقت الذى يطالب الناس فيه من كل جهة بالقصاص من قتلة عثمان فإنهم بالضرورة لا يحسن

فى نظرهم أن يتفق علـى ذلك الناس لأن الإتفاق إنما يقع على رؤوسهم فـهم يبذلون كل جهدهم فى تضييق المسالك على كل من يريد الإصلاح حفظًا لأنفسهم. على أن مجرد وجودهم فى جيشه كاف لأن تحوم الظنون حول اشتراكه فى الدم المسفوك، وإن كان هو ينكر ذلك إنكارًا تامًـا، وهو عندنا الصادق فى قوله. والنتيـجة أن تبعة هذه الحرب يتحملها كل من الفريقين وتبين للناس أنه لا يكفى لبراءة الإنسان من الفعل أن لا يكون قد فـعله بل يجب أن يبتعـد عن ما يحدث الريبة فـى براءته. وليس يكفى الرئيس لتقوية مركزه أن يكون عنده من القوة ما يغلب به من خرج عليه من قومه بل يجب مـع هذا أن يكون عنده مـن حسن الحـيلة والأناة مـا يعـيد الخـارج عليـه إلى حظيرته. والكى لا يكون إلا آخر الدواء. اهـ.

روى الطبرى يسنده إلى طارق بن شهاب قال: خرجنا من الكوفة معتمرين حين أتانا قتـل عثمان رضى الله عـنه، فلما انتهـينا إلى الزبدة وذلك فى وجـه الصبح إذا الرفاق، وإذا بعضـهم يتلوا بعضا. فقلت مـا هذا؟ فقالوا أمير المؤمنـين: فقلت ماله؟ قالوا: غلبة طلحة والزبير. فخرج يعترض لهمـا ليردهما. فبلغه أنهما فاتاه فهو يريد أن يخرج فى آثارهما. فقلت : إنا لله وإنا إليه راجعـون، آتى عليًا فأقاتل معه هذين الرجلين وأم المؤمنين أو أخالفه؟ إن هذا لشديد. فخرجت فأتيته فأقيمت الصلاة بغلس فتقدم فصلى. فلما انصرف أتاه ابنه الحسن فجلس. فقال: قد أمرتك فعصيتنى فتقتل غدًا بمضـيعة لا ناصـر لك. فقال علـى: إنك لا تزال تَخِنُّ خنين الجاريـة وما الذى أمرتنى فعصـيتك؟ قال: أمرتك يوم أحيط بعثمـان رضى الله عنه أن تخرج من المدينة فيقتل ولست بها، ثم أمرتك يوم قتل ألا تبـايع حتييأتيك وفود أهل الأمصار والعرب وبيعة كل مصر. ثم أمرتك حين فعل هذان الرجلان ما فعلا أن تجلس فى بيتك حتى يصطلحوا فـإن كان الفساد كان على يدى غـيرك. فعصيتنى فى ذلك كله. قال: أى بنى أما قـولك: لو خرجت من المدينة حين أحـيط بعثمـان فوالله لقد أحيط بنـا كما أحيط به. وأما قولك: لا نبايع حتى تأتى بيـعة الأمصار. فإن الأمر أمر أهل المدينة، وكرهنا أن يضيع هذا الأمر. وأما قولك: حين خرج طلحة والزبير أن أجلس فى بيتى

حتى يصطلحـوا فإن ذلك كان وهنا على أهل الإسلام والله ما زلت مـقهوراً مذولت منقوصاً لا أصل إلى شـيء مما ينبغي. وأما قولك اجلس فى بيـتك فكيف لى بما قد لزمنى ! أو من تريدنى؟ أتريد أن أكون مثل الضـبع التى يحاط بها ويقال دباب دباب ليسـت هنا حتى يحل عـرقوباها ثم تخـرج وإذا لم أنظر فيـما لزمنى مـن هذا الأمر ويعنينى فمن ينظر فيه؟ فكف عنك أى بنى.

وكأنى به فى هذا الأمر الأخير يقول بمقالة عثمان لا أخلع لباساً ألبسنيه الله عز وجل هو اعتـذار لا يقبله من يريد له وللمـسلمين السلامة، أو هو مـثل اعتذار دول الاستعـمار بأنهم لا مناص لهم من تحمل التـبعة الملقاة على عـاتقهم بإزاء الأمم التى يحتلون بلادها ويهيمنون عليها وعلى مرافقها ومقومات حياتها دون أهلها.

ومن الجميل أن أقول وقد كانت سيرة عـلى فى أصحاب الجمل سيرة رفق بعد الموقعة فقـد كان من ذلك أن لا يقتل مدبرًا ولا يذفف على جـريح ولا يكشف سترا ولا يأخذ مـالا. فقال قـوم يومئذ ما يـحل لنا دماءهم ويحـرم علينا أموالهم. فـقال على: القوم أمثالكم من صفح عنا فهو منا ونحن منه ومن لج حتى يصاب فقتاله منى على الصدر والنحـر وإن لكم فى خمسه لغـنى. فيومئذ تكلـمت الخوارج ولعله أول كلام ظاهر لهم.

على ومعاوية وما كان بينهما

قبل الـكلام على مابين عـلى ومعاوية أريـد أن أسوق كلمـة تعرف بهـا الحالة النفسية لأهل العراق وأهل الشام.

أهل العراق وأهل الشـام: أهل العراق هم أهل المصرين البصـرة والكوفة وهم الذين فتحوا العراق ودوخوا فارس وأرمينيا وفتـحوا الفتوح العظيمة ومصروا المصرين وهم من قبائل كـثيرة. وقد كان أبو بكر حين وجه الجند إلى جـهة العراق وفارس لا يستعين بأهل الردة عـلى قتال الفرس ومن معهم. إلى أن ذهب إلـيه المثنى بن حارثة فى آخر أيام حيـاته وسأله الاستعانه بمن كـان قد ارتد لأن الحاجة ماسة إلـيهم لكثرة

جموع فارس وضخامة حشدهم وما أعدوا لأهل الاسلام من عدة، فلم يل أبو بكر من ذلك شيئًا، بل عهد فى ذلك إلى عمر فلما أفضى الأمر إلى عمر استنفر الناس إلى العراق وندبهم للخروج مع المثنى ثم تتابع الأمر على تزجية الجيوش إلى فارس والعراق. واستعان عمر بمن كان من أهل الردة ممن حسن إسلامة ورغب فى الجهاد، غير أنه لم يكن ليولى أحدًا أمر الحرب ويوصى القواد أن لا يجعلوا أحدًا منهم أميرًا حذر غائلتهم، فلما جاء عثمان سمح لهم بالولايات وقدم كثيرًا منهم فى الحروب يوليهم أمر بعضها وهم من الإسلام بمنزلة دون السابقين الأولين والمهاجرين والأنصار ومن ثبتوا على إسلامهم. فلما ضخم الأمر فى تلك النواحى ونبتت النابتة لهم فى تلك الأمصار لم يكن الدين قد أخذ على شكائمهم وهم بمرأى ومسمع من الفرس وفى أيديهم السبى ويخالطون أهل الذمة فى نواحيهم فأخذوا بعض الشىء من أخذهم وسقط بالمصرين روادف ردفت، وأعراب لحقت، لا سابقة لهم ولا غناء فيهم، وقد وجدوا التقدم لغيرهم فأحفظهم ذلك وجمجموا بما فى نفوسهم من الكراهة لولاية قريش، وقد وجدوا التقدم لغيرهم فأحفظهم ذلك وجمجموا بما فى نفوسهم من الكراهة لولاية قريش، وقد أكلت الحرب ذوى الفضل والسابقة والبلاء إلا قليلا فنقموا تقدم أهل التقدم ثم تدارجوا فى الجهر بما فى نفوسهم وصاروا يتجنون على العمال والولاة الجنايات وكلما كرهوا من أمير أمرًا استعفوا منه، وكلما جاءهم أخذهم بآداب وأحوال لا تتفق مع ما أخذهم به سابقة. فسهل عليه عيب الولاة وإظهار التأفف منهم وواجهوهم بالسوء. كل هذه العوامل أوجدت أهل العراق على أهواء مختلفة، وأغراض متباينة وإدلال على الأمراء وتجن على الرؤساء مطرحين واجب الحشمة ولازم الوقار، لا يبالى أحدهم أن يشذ عن الجماعة ويفرق الكلمة، ومرنوا على هذا الضرب من الفرقة والتخاذل، وصاروا أهل جدال ومقارعة بالحجة وقوة عارضه.

أما أهل الشام فهم أهل الولايات الأربع: فلسطين والأردن ودمشق وحمص

وما يتبعها من الجزيرة وجهات أرمينيا، وهم كأهل العراق فيهم بعض المهاجرين والأنصار وقبائل العرب فتحوا تلك الناحية وحموا ثغرها وقد كثر عددهم غير أن جهاتهم لم تكن كثيرة الانتقاض كنواحى ،فارس ولم تتغير عليهم الولاة والأمراء بل كان الأمير عليهم معاوية بن أبى سفيان جمعت له بعض الولايات الأربع فى مدة عمر واستكملت له فى مدة عثمان، عرفوه أميراً عليهم وعرفوا أنفسهم رعية سامعة مطيعة له، لم تشتتهم الأهواء ولم يمرنوا على سخف الرأى والتجنى على الأمراء.

فمعاوية لم يكن طارئا على أهل الشام بالأمرة ولا جديداً عليهم فى الولاية بل ألفوا طاعتة ويخعوا إليه بنفوسهم وطال حكمه عليهم، وكان راضيا مرضيا فيهم أما على بن أبى طالب فإنه قد ورد العراق على أمراء محالفين له مثبطين عنه منحازين إلى صفوف أعدائه والطالبين لنفسه التى بين جنبيه قد تخالفوا فى شأنه فرقا وتفرقوا عليه حزائق، حتى إذا سمحوا بالدخول فى أمره طوعا أو كرها وأعطوه أيديهم بالطاعة كانوا يرون أنفسهم أصحاب منة عليه وأولياء نعمة أسدوها إليه، ويرون أنفسهم شركاءه فى أمره وقسماءه فى سلطانه، ينازعونه الآراء ولا يجيبون له نداء إلا إذا أطلعهم على خفية أمره وأسهم لهم فى رأيه.

وجند هكذا يكون أمرهم لا يمكن أن يتم لهم أمر أو يبلغوا من نكاية العدو مأربا إذ الطاعة العمياء فى الجنود أول شرط من شروط نجاح القواد وإحرازهم النصر.

إن معرفتنا بكل ما تقدم تحل لنا كثيراً من الأمور التى نراها أشبه بعقدة لا تحل من نجاح معاوية مع تأخره وسابقة على وفضله وغنائه فى الإسلام وإخفاق علي مع ماله من الفضل.

كأنى بمعاوية كان عالمًا جد العلم بالروح الساري فى نفوس أهل العراق والروح المباين له الساري فى أهل الشام. وإن من كان على مثال أهل الشام كان جديراً بالفوز والغلب، إذ الاجتماع فى الرأى، والاتفاق فى الكلمة، والتسليم للرئيس بالطاعة على ما أحب المرء أو كره مدد لا يعادله مدد وعامل قوى من عوامل الفوز.

أما على رضـى الله تعالى عنه فإنـه لم يحسب لهـذه الأمور حسابهـا يوم بايع ويظهر للمطلع أنه لـم يكن على بينه من الحالة النفسيـة لأهل العراق وأهل الشام ولا بالحالة النفـسية لمعاوية ومـاله من المكانة عند القوم الذين هـم فى يده. وأن مما سهل على معاوية القيام بما قام به وكثر الجـموع لديه أنه كان واليًا على جميع ولايات الشام زمنًا مديدًا ولو أنه كان على دمشق وحدها مـا تسنى له أن يقوم فى الأمر على الوجه الذى قام به ولكان له مع على شأن آخر.

يقول أرباب البصر بنواميس الاجتماع وطبيعة الجماعات: أن عمل قواد الجموع على الدوام خـلق الاعتـقاد فى الـنفوس لا فـرق بين أن يكون دينـيًا أو سـياسـيًا أو اجتماعيًا ولا أن يكون محله عملاً أو إنساناً أو رأيًا (روح الاجتماع).

وقد كان مـعاوية قائدًا بهذا المعنى. فـإنه قد خلق فى أهل الشام اعتـقاد إجرام على، وأنه قتل عثمان ظلمًا وعدوانًا وأن دمه فى عنقه، وأن قتاله على ذلك واجب. وقد تأتى لمعاوية فى هذا الأمـر ما لم يكن يحلم به، فإنه نصب قمـيص عثمان وهو مضرج بدمه على منبر دمشق سنة كـاملة وعلى أردانه أصابع نائلة زوجه يعرض ذلك على أنظار الـناس ويستـثير حـميتـهم ويذكى بذلك الأحـقاد فى قلوبهـم على على الغاصب - زعـموا - للخلافة، المحل لدم الخليـفة وقد آوى قتلتـه. ولا شىء يهيج الإحساس ويثبت الاعـتقاد كالصور التى تعرض على الإنسـان. فما بالك بالدم على قميص الخليفة وأصابع زوجته مـدلاة فى ردنه تعرض على الأنظار بكرة وعشيًا. ولم يكن لعلى وسيلة كهذه يؤثر بها فى قلوب أصحابه ويحمسهم بها.

فهذه الأمور وما تقدمها أوجدت لمعاوية نفوذًا شخصيًا فى القوم الذين معه زاده قوة ورسـوخًا ماله من الإمرة والمـلكة فيهم دهرًا طويـلا. لهذا كان معـاوية لا يلقى معارضًا لأوامره ولا معقب لحكمه. بخلاف على فإنه لم يكن له فى جنده هذا النفوذ الذى كان لمعاوية فى جنده.

يقول غـوستاف لوبون مـا معناه. إن قائد الجـماعة يجب عليـه أن يعرف روح

الجماعة البعيدين عنه ليعرفه كيف يسوسهم ويؤثر فيهم وإلا كان عمله ضائعًا. وإن نابليون كان عالمًا بروح الجماعة فى فرنسا ولذلك كان تأثيره عظيمًا فيهم ناجحًا على الدوام. ولكنه لما ذهب روسيا لم يكن عالمًا بأحوالهم فظن أنهم يكونون له على مثال أهل فرنسا وأنه لا يلقى فى إخضاعهم وإلقائهم إليه بالطاعة عناء فكان الأمر على غير ما قدر. اهـ.

والظاهر أن عليًا سيق إلى الأمر وهو غير عالم بما يتنازع أهل العراق من الأهواء، وأنهم ليسوا بأهل جماعة، وأن أحوالهم قد فسدت بخلاف أهل الشام. لذلك لقى العناء الأشد فى أخذ طاعتهم له، وكانت المكيدة فيهم أسهل والتأثير فى حل رابطتهم أسرع. والله يحكم لا معقب لحكمه.

بدء أمر معاوية

ذكر مؤلف (الإمامة والسياسة) أن النعمان بن بشير لما قدم على معاوية بكتاب زوجة عثمان تذكر فيه دخول القوم عليه وما صنع محمد بن أبى بكر من نتف لحيته فى كتاب رقفت فيه وأبلغت حتى إذا سمعه السامع بكى حتى يتصدع قلبه وبقميص عثمان مخضبًا بالدم ممزقًا وعقدت شعر لحيته فى زر القميص. فصعد معاوية المنبر بالشام وجمع الناس ونشر عليهم القميص وذكر ما صنعوه بعثمان فبكى الناس وشهقوا حتى كادت نفوسهم تزهق. ثم دعاهم إلى الطلب بدمه. فقام إليه أهل الشام فقالوا هو ابن عمك وأنت وليه ونحن الطالبون بدمه. فبايعوه أميرًا عليهم. وكتب وبعث الرسل إلى كور الشام وكتب إلى شرحبيل بن السمط الكندى وهو بحمص يأمره أن يبايع له بحمص كما بايع أهل الشام. فلما قرأ شرحبيل كتاب معاوية دعا أناسا من أشراف أهل حمص فقال لهم: ليس من قتل عثمان بأعظم جرما ممن يبايع لمعاوية أميرًا وهذه سقطة ولكننا نبايع له بالخلافة ولا نطلب بدم عثمان مع غير خليفة فبايع لمعاوية بالخلافة هو وأهل حمص. وكتب إلى معاوية: أما بعد فإنك أخطأت خطأ عظيمًا حين كتبت إلى أن أبايعك بالإمرة وإنك تريد أن تطلب دم عثمان الخليفة

المظلوم وأنت غير خليفة وقد بايعت ومن قبلى لك بالخلافة. فلما قرأ معاوية كتابه سره ذلك ودعا الناس وصعد المنبر وأخبرهم بما قال شرحبيل ودعاهم إلى بيعته بالخلافه فأجابوه ولم يختلف عليه أحد.

(شرحبيل بن السمط)

مر بنا أن معاوية لما خالف على أمير المؤمنين على بن أبى طالب لم يبدأ أمره إلا بأن يأخذ البيعة على من قبله بالإمرة عليهم للطلب بدم عثمان. فالخلافة لم تكن مطمح نظره إلى أن وجه نظره إليها شرحبيل بن السمط فمن هو شرحبيل؟ وما مبلغ أثره؟ وما الذى حمله على ذلك؟

أما الرجل فهو شرحبيل بن السمط من بنى معاوية بن عمرو من كندة ثبت هو وابنه على إسلامهما حين ارتدت كندة وقامت الفتنة بينهم وبين لبيد بن زياد الأنصارى بسبب ناقة للعداء بن حجر أخى شيطان بن حجر وضع لبيد عليها ميسم الصدقة خطأ وأبى أن يطلقها لصاحبها. فاستغاث شيطان بقومه وتمادى الخلاف فارتدوا وحاربوا فقام شرحبيل وابنه وتبرآ من قومهما الذين ارتدوا وقال لبنى معاوية: إنه لقبيح بالأحرار التنقل إن الكرام ليلزمون الشبهة فيتكرمون أن يتنقلوا عنها مخافة العار فكيف الانتقال من الأمر الحسن الجميل والحق، إلى الباطل والقبيح، اللهم إنا لا نمالئ قومنا على ذلك. وانتقلا إلى لبيد بن زياد ومعهما امرؤ القيس بن عباس وكانوا يشيرون على لبيد بالرأى والمكيدة فى الحرب فطرق زياد بجنوده مع الليل رؤساء المشاقين فأصاب ملوكهم وهم: مشرح ومخوص وجمد وأبضعة وأختهم العمردة. وكان رسول الله ﷺ يدعوا عليهم حين بلغه أمر ردتهم فانفضت جموعهم وهرب من أطاق الهرب وسبى النساء والذرارى ولما مر السبى بالأشعث بن قيس فكهم وجمع الجموع لقتال المسلمين . وكان له مع المسلمين وقائع انتهت بحصار الأشعث ومن معه بحصن النُّجير فلما عضتهم الحرب واشتد عليهم الحصار خرج الأشعث ومعه تسعة ممن بالحصن ليستأمنوا لأنفسهم ويسلموا الحصن بمن فيه فكتبوا أسماء من يشملهم الأمان

ونسى الأشعث أن يكتب اسمه وأراد لبيد قتله بعد أن قتل المقاتلة من أهل الحصن وسبى غير المقاتلة. فقال أصحابه: أخره حتى يقدم على أبى بكر فهو أعلم بالأمر. فسيره مع السبى. فكان قومه يلعنونه لغدره والسبى يلعنونه. فلما قدم على أبى بكر (وكان النبى ﷺ قد توفى) قال له الأشعث: احتسب فىّ خيرًا وتطلق إسارى وترد على زوجتى (أم فروة أخت أبى بكر) وتقيلنى عثرتى وتفعل فى ما فعلت. بأمثالى تجدنى خير أهل بلادى لدين الله. فحقن أبو بكر دمه عليه ورد عليه أهله وأقام بالمدينة.

كان عمر بن الخطاب قد سير شرحبيل بن السمط إلى سعد بن أبى وقاص بالعراق فكان معه وقدمه سعد وقربه، فحسده الأشعث بن قيس. ولا يبعد أن يكون وجود شرحبيل فى الجيش المحارب للأشعث أيام ردته له أثر فى حسده له واضطغانه عليه.

كان سعد بن أبى وقاص أوفد جرير بن عبد الله على عمر فتدسس له الأشعث بن قيس وقال له: إن قدرت أن تنال من شرحبيل عند عمر فافعل فلما قدم سأله عمر عن الناس فأحسن الثناء على سعد. قال: وقد قال شعراً:

ألا ليتنى والمرء سعد بن مالك وزيراً وابن السمط فى لجة البحر
فيغرق أصحابى وأخرج سالما على ظهر قرقور أنادى أبا بكر

من هذين البيتين فهم عمر أن الناس يتبرمون بمكان زبر وشرحبيل من سعد وكان من شأن عمر الحرص على ألا يبقى لأحد من الناس علة يعتل بها فأرسل إلى سعد أن يرسل إليه زبراً وشرحبيل، فلما قدما عليه أمسك زبراً بالمدينة وسير شرحبيل إلى معاوية بالشام فشرف بها وتقدم وعلا شأنه عند معاوية وعند الناس.

فلما قدم جرير بن عبد الله رسولا من على إلى معاوية وهو ثأر شرحبيل، عزم شرحبيل على إحباط مسعاه ورده خائبًا، فكان مما قاله لمعاوية حين أفضى إليه بما جاء

إليه جرير«كان أمير المؤمنين عثمان خليفتنا فإن قويت على الطلب بدمه وإلا فاعتزلنا» وعمل على مبايعته بالخلافة. وانصرف جرير إلى على وقد قال النجاشى:

شرحبيل ما للدين فارقت أمرنا ... ولكن لبغض المالكى جرير
وقولك ما قد قلت عن أمر أشعث ... فأصبحت كالحادى بغير بعير

مسير عمرو بن العاص إلى معاوية

كان عمرو بن العاص بالمدينة فى بدء الفتنة. ولا تجهل أن عثمان لم يكن مجملا فى شأنه لأن عمرو بن العاص هو الذى فتح مصر وثبت فيها كلمة الإسلام ودان أهلها له بالطاعة أقام واليا عليها بقية أيام عمر. فلما جاء عثمان عزل عمراً عنها وولاها عبد الله بن سعد بن أبى سرح، والفطام عن الولاية شديد. فليس من الغريب أن يكون عمرو بن العاص فى نفسه معتبة على عثمان. فكان عمرو يرمى بكلمات لها وقع الأسنة على عثمان حتى قيل إن عمراً لما بلغه قتله قال: أنا أبو عبد الله. أنا قتلته وأنا بوادى السباع. ومعناه فى ذلك أنه كان يؤلب عليه ويلقى إلى الناس ما يغير قلوبهم عليه حتى قلوب رعاة الشاء فى الجبال وفى الأودية.

خرج عمرو بن العاص من المدينة لما أحيط بعثمان وقال: يا أهل المدينة لا يقيم أحد فيدركه قتل هذا الرجل إلا ضربة الله بذل، من لم يستطع نصره فليهرب وصار إلى فلسطين ومعه ابناه عبد الله ومحمد وأقام بها. فمر به راكب وأخبره بأنه ترك عثمان محصوراً. ثم مر به راكب آخر فأخبره بقتل عثمان وبعد مدة مر به آخر فأنبأه ببيعة على وأن الوليد بن عقبة سأل عليا عن قتله فقال له والله ما أمرت ولا نهيت ولا سرنى ولا ساءنى وأنه آوى ولم يرض (أى القصاص منهم) وإن مروان احتج عليه فقال إن لم تكن أمرت فقد توليت الأمر (أمر المسلمين) وإذا لم تكن قتلت فقد آويت القاتلين. فقال عمرو بن العاص: خلط والله أبو الحسن أنا أبو عبد الله يكون فيها حرب. من حك قرحة نكأها. فقال سلم بن زنباع: يا معشر العرب كان بينكم وبين

العرب باب فكسر فاتخذوا بابا غيره. فقال عمرو: ذلك الذى نريده. ويقول ابن الأثير ثم ارتحل عمرو يبكى كما تبكى المرأة ويقول: واعثماناه أنعى الحياء والدين حتى قدم دمشق.

ويذكر ابن الأثير أن عمراً قال حين بلغه قتل عثمان: إن يل هذا الأمر طلحة فهو فتى العرب سيبا وإن يله ابن أبى طالب فهو أكره من يليه إلى. فلما بلغه بيعة الناس لعلى اشتد عليه الأمر وأقام ينتظر ما يفعل الناس. فبلغه مسير طلحة والزبير وعائشة فتربص حتى أتاه خبر وقعة الجمل وما تم فيها فارتج عليه أمره.

أدار عمرو عينيه فإذا معاوية بالشام يعظم شأن عثمان ويدعو إلى الطلب بدمه وكان معاوية أحب إليه من على. فاستشار ولديه وقال لهما أما على فلا خير لى عنده وهو يدل بسابقته وغير مشركى فى شئ من أمره. فأشار عليه ابنه عبد الله بأن يكف يده ويجلس فى بيته حتى يجتمع الناس. وأشار عليه محمد بأنه لا ينبغى أن يجتمع الناس فى هذا الأمر وليس له فيه صوت. فحمد لكل منهما رأيه وعمل برأى محمد وخرج إلى الشام فحسن لمعاوية ما رأى ومعاوية لا يلتفت إليه. وكأنى بمعاوية وقد تخوف أن يكون الرجل يبطن غير ما يظهر فلم يسترسل إليه حتى يكون على بينه من أمره.

رأى ابناه اعراض معاوية عنه فأشارا عليه بمفارقته. فدخل عمرو على معاوية وكلمة فى هذا الشأن بما كانت عاقبته أن استدناه وأشركه فى أمره وجعله موضع سره ومرد مشورته.

وإنى لأستبعد ما قصه ابن الأثير من أن عمراً قال لمعاوية: والله لعجب لك إنى أرفدك بما أرفدك وأنت معرض عنى ! إن قاتلنا معك نطلب بدم الخليفة إن فى النفس ما فيها حيث تقاتل من تعلم سابقته وفضله وقرابته ولكنا إنما أردنا هذه الدنيا. فصالحه معاوية وعطف عليه. فإنى لأحسن أن المخاطبة على هذا الوجه لا تسمح بها نفس عمرو بل هو يتكرم عنها ولا يقبل ذلك منه معاوية. مهما قيل إن باطن أمر كل منهما كان على ذلك.

(خروج ابن أبى سرح إلى مصر)

فلما خرج عبد الله بن أبى سرح يريد المدينة وثب محمد بن أبى حذيفة على إمارة مصر فأخذها وصلى بالناس. وعلم ابن أبى سرح بالخبر فلم يقدر على الرجوع إلى مصر فأقام بتخومها حتى جاءه خبر قتل عثمان وبيعة على فاسترجع فقال له المخبر كأن ولاية على بن أبى طالب عدلت عندك قتل عثمان. قال أجل فتأمله الرجل وقال كأنك عبد الله بن أبى سرح أمير مصر. قال أجل. قال فإن كان له فى نفسك حاجة فالنجاء النجاء فإن رأى أمير المؤمنين فيك وفى أصحابك سئ ان ظفر بكم قتلكم أو نفاكم عن بلاد المسلمين وهذا بعدى أمير يقدم عليك. قال: ومن هو ؟ قال: قيس بن سعد بن عبادة. فقال عبد الله أبعد الله محمد بن أبى حذيفة فإنه بغى على ابن عمه وسعى عليه وقد كان كفله ورباه وأحسن إليه. فأساء جواره ووثب على عماله وجهز الرجال حتى قتل ثم ولى عليه من هو أبعد منه ومن عثمان، لم يمتعه بسلطان بلاده حولا ولا شهرًا ولم يره أهلا لذلك، فقال الرجل انج بنفسك لا تقتل. فولى عبد الله وجهه شطر الشام ولحق بمعاوية.

وكان على بن أبى طالب لما ولى دعا بقيس بن سعد وقال له: سر إلى مصر فقد وليتكها واخرج إلى رحلك واجمع إليك ثقاتك ومن أحببت أن يصحبك حتى تأتيها ومعك جند فإن ذلك أرعب لعدوك وأعز لوليك. فإذا أنت قدمتها إن شاء الله فأحسن إلى المحسن واشتد على المريب وارفق بالعامة والخاصة فان الرفق يمن. فقال له قيس: يرحمك الله يا أمير المؤمنين، فقد فهمت ما قلت، أما قولك اخرج إليها بجند فوالله لئن لم أدخلها إلا بجند آتيها به من المدينه لا أدخلنها أبدا، فأنا أدع ذلك الجند لك فان أنت احتجت إليهم كانوا منك قريبا وإن أردت أن تبعثهم إلى وجه من وجوهك كانوا عدة لك وأنا أصير إليها بنفسى وأهل بيتى. وأما ما أوصيتنى به من الرفق والإحسان فإن الله عز وجل هو المستعان على ذلك. فخرج قيس بن سعد فى

سبعة نفر من أصحابه حتى دخل مصر، فدخل المنبر فجلس عليه وأمر بكتاب معه من أمير المؤمنين فقرئ على أهل مصر وفيه:

بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله على أمير المؤمنين إلى من بلغه كتابى هذا من المؤمنين والمسلمين سلام عليكم فإنى إليكم أحمد الله الذى لا إله إلا هو. أما بعد فإن الله عز وجل بحسن صنعه وتقديره وتدبيره اختار الإسلام دينًا لنفسه وملائكته ورسله وبعث به الرسل عليهم السلام إلى عباده وخص به من انتخب من خلقه. فكان مما أكرم الله عز وجل به هذه الأمة وخصهم به من الفضيلة أن بعث إليهم محمدًا ﷺ فعلمهم الكتاب والحكمة والفرائض والسنة لكيما يهتدوا وجمعهم لكى لا يتفرقوا وزكاهم لكيما يتطهروا ورفهم لكى لا يجوروا فلما قضى من ذلك ما عليه قبضه الله عز وجل صلوات الله عليه ورحمته وبركاته ثم إن المسلمين استخلفوا به أميرين صالحين عملا بالكتاب والسنة وأحسنا السيرة ولم يعدوا السنة ثم توفاهما الله عز وجل ورضى الله عنهما ثم ولى بعدهما وال فأحدث أحداثا فوجدت الأمة عليه مقالا فقالوا ثم نقموا عليه فغيروا ثم جاءونى فبايعونى فأستهدى الله عز وجل بالهدى وأستعينه على التقوى إلا وإن لكم علينا العمل بكتاب الله وسنة رسول ﷺ والقيام عليكم بحقه والتنفيذ لسنته والنصح لكم بالغيب والله المستعان وحسبنا الله ونعم الوكيل-وقد بعثت إليكم قيس بن سعد بن عبادة أميرًا فوازروه وكانفوه وأعينوه على الحق وقد أمرته بالإحسان إلى محسنكم والشدة على مريبكم والرفق بعوامكم وخواصكم وهو ممن أرضى هديه وأرجو صلاحه ونصيحته أسأل الله عز وجل لنا ولكم عملا زاكيا وثوابًا جزيلا ورحمة واسعة والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته. وكتبه عبيد الله بن أبى رافع فى صفر ٣٦- تم.

ثم إن قيس بن سعد قام خطيباً فحمد الله وأثنى عليه وصلى على محمد ﷺ وقال الحمد لله الذى جاء بالحق وأمات الباطل وكبت الظالمين: أيها الناس إنا قد بايعنا خير من نعلم بعد محمد نبينا ﷺ فقوموا أيها الناس فبايعوا على كتاب الله عز وجل

وسنة رسولـه ﷺ فإن نحن لم نعمـل لكم بذلك فلا بيعـة لنا عليكم. فـقام الناس فبايعوا واستقامت له مصر وبعث عليهـا عماله وتمت مصر على الطاعة إلا جماعة فى خربتـا أعظموا قتل عـثمان واعتـزلوا ينتظرون ماذا يتـم وقالوا له ابعث عمـالك فإن الأرض أرضك لا ننازعك وأمهلنا حتى يتبين الأمر. كذلك مسلمة بن مخلد لم يبايع وعاهد قيسًا أن لا يعـمل شيئا ما بقى واليا على مصر وبـقى فى مصر إلى أن انقضى أمر الجمل. وكان قيـس كافيا، فكان أثقل شئ على معاوية وقـد خشى أن يسير إلى على وقيس خلـفه بمصر - فكتب معـاوية إلى قيس يعظم قـتل عثمان ويطوقـه عليا ويحضه على البـراءة من ذلك ومتابعته على أمره على أن يولـيه العراقين إذا ظفر ولا يعزله ويـولى من أراد من أهله الحجـاز كذلك ويعطيـه ما شاء من الأمـوال فنظر فى الأمر هو ومن معه من أهله بين موافقته ومصـانعته ومطاولته أو معاجلته بالحرب فآثر الموافقـة والمطاولة وكتب إليه - أمـا بعد فإنى لم أقارف شـيئاً مما ذكرتـه وما اطلعت لصاحبى على شئ منه. وأمـا متابعتك فأنظر فيها وليـس هذا مما يسرع إليه وأنا كاف عنك فلا يأتيك شـئ من قبلى تكرهه حتى نرى وترى. وكـان يريد بذلك أن يطمع معاوية فى متابعته حتى يتهيأ له مناجزته ولو أن قيسًا بقى بمصر إلى زمن حرب صفين لكان وجوده شاغـلا لمعاوية ولكان له معه شأن آخر ولكـان أحرى أن ينقض من أمر معاوية كل مبرم.

كتب إليه مـعاوية بعد ذلك إنى لم أرك تدنو فـأعدك سلما ولا تتباعـد فأعدك حربا، وليس مـثلى يصانع المخادع وينخدع لـلمكايد ومعه عدد الرجـال وأعنه الخيل والسلام.

علم قيس أن المدافعة لا تنفع معه. فأظهر مـا فى نفسه وكتب إليه بالرد القبيح والشتم والتصريح بفضل على والوعيد. وكان فيما قاله: «وأما قولك أنى مالئ عليك مصر خـيلا ورجلا فوالله إن لم أشغـلك بنفسك حتى تكون نفـسك أهم إليك، إنك لذو جد والسلام»، فأيـس منه معاوية وثقل عليه مكانه وأخذ يكـيد له من قبل على

فأشاع عنه أنه مالأه ووافقه وأنه صار شيعه له وأنه تأتيه كتبه ورسله وأنه قد مالأ المطالبين بدم عثمان بمصر يجرى عليهم الأرزاق ويوافيهم بالأعطيات. فوصل ذلك إلى على من محمد بن أبى بكر ومحمد بن جعفر وعيونه بالشام. فأعظم على ذلك ولم يشأ أن يصدق فى قيس قولا وتفاوض مع ابنيه وعبد الله بن جعفر فأشار عليه الأخير بعزله.

أما على فتمهل فى العزل. وجاءه بعد ذلك كتاب قيس بن سعد بشأن المعتزلين بخربتا ومن لم يبايع وأنهم كافون عن القتال حتى يتبينوا وخشى من مع على أن تكون ممالأة فاشاروا عليه أن يأمره بقتال الكافين عنه. فأمره بذلك. فلم ير قيس رأيًا وكتب إليه: «متى قاتلناهم ساعدوا عليك عدوك وهم الآن معتزلون والرأى تركهم». فكان ذلك مما يقوى ريبة أصحاب على فى أمر سعد فأشاروا عليه بعزله وبعث محمد ابن أبى بكر أميرًا لمصر ففعل. وغضب قيس وخرج من مصر إلى المدينة وعليها مروان بن الحكم فأخاف قيسًا. فخرج عنها ولحق بعلى وعاتب معاوية مروان فيما فعل وقال له: إنك أمددت عليًا بقيس. ولو أنك أمددته بمائة ألف لكانوا أهون على من قيس وضعفه فيما صنع. أما قيس فلحق بعلى وكشف له الخبر فقبل عذره ووافقه على أمره كله. وكان خروج قيس بحسن تدبير معاوية وسلامة صدر على.

أمر صفين

قال الأستاذ الخضرى : لم تكن واقعة الجمل على شدة هولها وفظاعة أمرها إلا مقدمة لما هو أشد منها هولا وأفظع أمرًا وهو الحرب فى صفين.

انصرف على بن أبى طالب من البصرة إلى الكوفة وبعث إلى جرير بن عبد الله البجلى والأشعث بن قيس الكندى وكانا عاملين لعثمان بفارس أولهما بهمذان والثانى أذربيجان أن يأخذ له كل منهما البيعة على من قبله وأن يوافياه ففعلا وانصرفا إليه. فلما أراد على توجيه الرسول إلى معاوية قال جرير: ابعثنى إليه فإنه لى ود حتى آتيه فأدعوه إلى الدخول فى طاعتك فقال الأشتر لعلى لا تبعثه فوالله لأظن هواه معه فقال

على: دعه حتى ننظر ما يرجع به إلينا. فبعثه إليه وكتب معه كتابا يعلمه فيه اجتماع المهاجرين والأنصار على بيعته ونكث طلحة والزبير وما كان من حربه إياهما ويدعوه إلى الدخول فيما دخل فيه المهاجرون والأنصار من طاعته فشخص إليه جرير فلما قدم عليه ماطله واستنظره ودعا عمراً فاستشاره فيما كتب إليه به. فأشار عليه أن يرسل إلى وجوه أهل الشام ويلزم عليًا دم عثمان ويقاتله بهم ففعل ذلك معاوية وكان أهل الشام لما قدم النعمان بن بشير بقميص عثمان وأصابع زوجه نائلة أصبعان مقطوعتان بالبراجم وشئ من الكف وأصبعان مقطوعتان من أصولهما ونصف الأبهام قد علقوه سنة وآلى الرجال من أهل الشام أن لا يمسهم الماء لغسل إلا من الاحتلام ولا يناموا على الفرش حتى يقتلوا قتلة عثمان ومن عرض دونهم بشيء أو تفنى أرواحهم.

فلما قدم جرير بن عبد الله عليّ على وأخبره الخبر وقع فيه الأشتر وقال: قد كنت نهيتك عن إرساله وأخبرتك بعدوانه وغشه ولو كنت بعثتنى لكان خيراً من هذا الذى أقام عنده ولم يدع بابا يريد فتحه إلا فتحه ولا باباً يخاف منه إلا أغلقه. فقال جرير: لو كنت ثم لقتلوك. ولقد ذكروا أنك من قتلة عثمان. فقال الأشتر: لو أتيتم والله يا جرير لم يعينى جوابهم. ولحملت معاوية على خطة أعجله فيها عن الفكر. ولو أطاعنى فيك أمير المؤمنين لحبسك وأشباهك فى محبس لا تخرجون منه حتى تستقيم هذه الأمور. فخرج جرير بن عبد الله إلى قرقيسياء وكتب إلى معاوية فاستقدمه.

ومعلوم أن الشام من مجامع أجناد المسلمين لأنها ثغر عظيم يجاور الأمة الرومية التى لم تزل حافظة لشىء كثير من قوتها. فكانت الجنود الإسلامية هناك على غاية الاستعداد عاشرهم معاوية طويلا وهو الرجل السياسى المحنك فامتلك قلوبهم وصاروا طوع أمره ما أمرهم ائتمروا به وما نهاهم انتهوا عنه ومثل تلك القوة العظيمة سهلت له أن يرفض بيعة على ويتهمه بالاشتراك فى دم عثمان أو على الأقل بحماية قاتليه حتى آواهم إلى جيشة. ولم يعمل أى عمل فى القصاص منهم. فلما جاء

جرير عليًا وأخبره بما عليه أهل الشام لم يجد على مناصًا من المسير والقتال. فخرج وعسكر بالنخيلة خارج الكوفة وبلغ معاوية خروجه إليه بنفسه فاستشار عمرو بن العاص فأشار عليه أن يخرج بنفسه كذلك وأن لا يغيب عنه برأيه ومكيدته وسار معاوية متمهلا وكتب إلى كل من كان يرى أنه يخاف عليًا أو طعن عليه ومن أعظم دم عثمان واستغواهم عليه. فلما رأى ذلك الوليد بن عقبة بعث إليه.

ألا أبلغ معاوية بن حرب ... فإنك من أخى ثقة مليم
قطعت الدهر كالدم المعنى ... تهدر فى دمشق فما تريم
وإنك والكتاب إلى على ... كدابغة وقد حلم الأديم
يمنيك الإمارة كل ركب ... لإنقاض العراق بها رسيم
وليس أخو التراث بمن توانى ... ولكن طالب الترة الغشوم
ولو كنت القتيل وكان حيا ... لجرد لا ألف ولا سؤوم
ولا نكل عن الأوتار حتى ... يسئ بها ولا برم جثوم
وقومك بالمدينة قد أبيروا ... فهم صرعى كأنهم الهشيم

فدعا معاوية شداد بن قيس كاتبه وقال: ابغنى طومارا فأتاه به فأخذ القلم فقال: لا تعجل. اكتب.

ومستعجب مما يرى عن أناتنا ... ولو زبنته الحرب لم يترعرم

وأرسل به إليه.

أخذ على بجنوده طريق الجزيرة وعبر الفرات من الرقة ومن هناك قدم طلائعة أمامه حتى إذا كانوا بسور الروم التقوا بطلائع معاوية فكانت بين الفريقين مناوشات قليلة ثم تحاجزوا ثم تلاحقت جنود على ومعاوية فعسكر الطائفتان فى سهل صفين وتوافقت الجنود الإسلامية بعضها أمام بعض.

اختار على ثلاثة من رجاله ليذهبوا إلى معاوية يطلبون إليه الطاعة، وهم بشير ابن عمرو الأنصارى وسعيد بن قيس الهمداني وشبث بن ربعى التميمى فساروا حتى دخلوا على معاوية فتكلم بشير بن عمرو وقال: يا معاوية إن الدنيا زائلة وإنك راجع إلى الآخرة وإن الله محاسبك بعملك وجازيك بما قدمت يداك. وإنى أنشدك الله أن تفرق جماعة هذه الأمة وأن تسفك دماءها. فقال له معاوية: هلا أوصيت صاحبك بذلك؟ فقال: إن صاحبى ليس مثلك ، إن صاحبى أحق البرية كلها بهذا الأمر فى الفضل والدين والسابقة فى الإسلام والقرابة من الرسول ﷺ قال فيقول ماذا؟ قال يأمرك بطاعة الله وإجابة ابن عمك إلى ما يدعوك إليه من الحق فإنه أسلم لك فى دنياك وخير لك فى عاقبة أمرك. قال معاوية: ونطل دم عثمان لا والله لا أفعل ذلك أبدًا فقام شبث فقال: يا معاوية إنى قد فهمت ما رددت أنه والله لا يخفى علينا ما تغزو وما تطلب إنك لم تجد شيئًا تستغوى به الناس وتستميل به أهواءهم وتستخلص به طاعتهم إلا قولك: قتل إمامكم مظلومًا فنحن نطلب بدمه فاستجاب لك سفهاء طغام وقد علمنا أنك قد أبطأت عنه بالنصر وأحببت له القتل لهذه المنزلة التى أصبحت تطلب، ورب متمنى أمر وطالبه يحول الله عز وجل دونه بقدرته وربما أوتى المتمنى أمنيته وفوق أمنيته والله مالك فى واحدة منهما خير، لئن أخطأت ما ترجو إنك لشر العرب حالا فى ذلك، ولئن أصبت ما تمنى لا تصيبه حتى تستحل من ربك صلى النار، فاتق الله يا معاوية ودع ما أنت عليه ولا تنازع الأمر أهله. ولم يكن من معاوية جواب على هذه المقالة الشديدة إلا رد أشد وأمره إياهم بالانصراف. فأتوا عليًا وأخبروه بالخبر .

كان القوم جميعًا يهابون أن تلتقي جموع الشام بجموع العراق خوفا من الاستئصال والهلاك فكانت تخرج الفرقة من جيش أهل العراق فتخرج لها مثلها من جيش أهل الشام فيقتتلون، وعلى هذه الحال كان شأنهم فى ذى الحجة سنة ٣٦ فلما أهل المحرم توادع الفريقان إلى انقضائه طمعًا فى الصلح واختلفت بينهما الرسل فى ذلك.

وعلى ذكر الرسل أقول: إن ذا الرأى الحصيف إنما ينتقى الرسل ليعربوا عن ذات نفسه ويكون الواحد منهم رفيقًا محسنًا للسفارة خبيرًا بالتأنى للأمور لا يرى فتقًا

إلا رتقه ولا صدعًا إلا رأبه. وهو عنوان عقل مرسلـه، فإذا لم يحسن اختيار الرسول كان بلاء استقبلـه وانبثقت عليه الأمور، وكان ما يأتيه مـن البلاء على يد رسوله أشد وأنكى مما يأتيه من عدوه.

ونحن أولاء نرى من رسل على ظـهوراً بمظهر العتـو والتجبر يبـدو الشر على وجوههم والقول الجافى من أفواههم كأنما أرسلوا لإشعال النار وإيقاظ الشر وعلى مع ذلك لا يبذل شيئًا يكون الصلح عليـه ولا يريد من معاوية إلا أن يلقى بيده ويستكين استكانه الذليل مع إخشان القول له والاستـعلاء عليه وقد وصى من هو خير من على رسله بإلانة القول والرفق لمن هو شر من معاوية فقد قال الله تعالى لموسى وهارون إذ أرسلهما إلى فرعون ﴿**فقولا له قـولا لينًا لعله يتذكـر أو يخشى**﴾ فليس بعـجيب أن تكون عاقبة هذه الرسائل الفشل.

بعث على عدى بن عـامر ويزيد بن قيس الأرجى وزياد بن خصـفة وشبث بن ربعى - وهو أحد الرسل فى المرة الأولى وربما كان حمقـه سببًا فى عدم النجاح - لما دخلوا على معاويـة بدأ عدى فقال: إنا أتيناك ندعوك إلى أمـر يجمع الله به عز وجل كلمتـنا وأمتنا ويحقـن به الدماء ويصلح به ذات الـبين. إن ابن عمك سيـد المسلمين أفضلهـا سابقة وأحسنـها فى الإسلام أثرًا وقد اسـتجمع له الناس وقـد أرشدهم الله بالذى رأوا فلـم يبق أحد غـيرك وغـير من مـعك، فانتـه يا معـاوية لا يصيـبك الله بأصحابك بيوم كيـوم الجمل . فقال معاوية كإنك إنما جئت متـهدداً ولم تأت مصلحا هيهات يا عدى كلا والله إنى لابن حرب ما يقعقع لى بالشنان وإنك لمن المجلبين على ابن عفان وإنك لمن قتلته وإنى لأرجو أن تـكـون ممن يـقتل الله عـز وجل هيـهات يا عدى قد حلبت بالساعد الأشد. فقال شبث وزياد أتيناك فيما يصلحنا وأياك فأقبلت تضرب لنا الأمثال دع مالا يـنتفع به من القول والفعل وأجبنا فيمـا يعمنا وإياك نفعه. وقال يزيد بن قيس: إنا لـم نأت إلا لنبلغك ما بعثنا به إليك ولنؤدى عنـك ما سمعنا منك ونحن على ذلك لن نـدع أن ننصح لك وأن نذكر ماظننا أن لنا علـيك به حجة

وأنك راجع به إلى الألفة والجماعة إن صاحبنا من قد عرفت وعرف المسلمون فضله ولا أظنه يخفى عليك أن أهل الدين والفضل لن يعدلوا بعلى ولن يميلوا بينك وبينه فاتق الله يا معاوية ولا تخالف عليًا فإنا والله ما رأينا رجلا قط أعمل بالتقوى وأزهد فى الدنيا ولا أجمع لخصال الخير كلها منه فقال معاوية أما بعد، فإنكم دعوتم إلى الطاعة والجماعة. فأما الجماعة التى دعوتم إليها فمعناهما. وأما الطاعة لصاحبكم فإنا لا نراها. إن صاحبكم قتل خليفتنا وفرق جماعتنا وآوى ثأرنا وقتلتنا وصاحبكم يزعم أنه لم يقتله فنحن لا نرد ذلك عليه. أرأيتم قتلة صاحبنا؟ ألستم تعلمون أنهم أصحاب صاحبكم فليدفعهم إلينا فلنقتلهم به ثم نحن نجيبكم إلى الطاعة والجماعة. فقال له شبث. أيسرك يا معاوية أنك أمكنت من عمار تقتله؟ فقال وما يمنعنى من ذلك، والله لو أمكنت من ابن سمية ما قتلته بعثمان ولكن كنت قاتله بنائل مولى عثمان. فقال شبث لا تصل إلى عمار حتى تندر الهام عن كواهل الأقوام وتضيق الأرض الفضاء عليك برحبها فقال معاوية. أنه لو قد كان ذلك كانت الأرض عليك أضيق. وبذلك انتهت هذه السفارة التى لم يكن يظن أن تنتهى إلا بمثل ما انتهت إليه. لأنه كان من الضرورى أن تكون قاعدة الصلح والدعوة شيئًا فى مصلحة كل من الطرفين. يتنزل هذا عن شئ وهذا عن شئ حتى يكون صلحا. أما هذه السفارة فقد كانت دعوة كسوابقها مع ما فى بعض الداعين من هذه الشدة التى تفسد القلوب وتباعد ما بينها.

وأرسل معاوية إلى على حبيب بن مسلمة الفهرى وشرحبيل بن السمط ومعن ابن يزيد بن الأخنس فدخلوا عليه فتكلم حبيب فقال. أما بعد فإن عثمان بن عفان كان خليفة مهديا يعمل بكتاب الله عز وجل وينيب إلى أمر الله فاستثقلتم حياته واستبطأتم وفاته فعدوتم عليه فقتلتموه فادفع إلينا قتلة عثمان إن زعمت أنك لم تقتله نقتلهم به ثم اعتزل أمر الناس فيكون أمرهم شورى بينهم يولى الناس أمرهم من أجمع عليه رأيهم. فقال له: ما أنت لا أم لك والعزل وهذه الأمة، اسكت فإنك لست هناك ولا بأهل له. فقام وقال: والله لترينى بحيث تكره. فقال على: وما أنت

وإن أجلبت بخيلك ورجلك ورجلك لا أبقى الله عليك إن أبقيت على أحْقَرة أو سوءاً اذهب فصوب وصعد ما بدا لك. وقال شرحبيل بن السمط: ما كلامى إلا مثل كلام صاحبى فهل عندك جواب غير الذى أجبت به من قبل؟ فقال على: نعم، فحمد الله وأثنى عليه ثم ذكر بعثة الرسول ﷺ وهدايته للناس ثم قبضه الله إليه واستخلف الناس أبا بكر واستخلف أبو بكر عمر فأحسنا السيرة وعدلا فى الأمة وقد وجدنا عليهما أن توليا علينا، ونحن آل رسول الله، فغفرنا ذلك لهما، وولى عثمان فعمل أشياء عابها الناس عليه. فساروا إليه فقتلوه. ثم أتانى الناس وأنا معتزل أمورهم. فقالوا لى: بايع. فأبيت عليهم. فقالوا لى بايع فإن الأمة لا ترضى إلا بك، وإنا نخاف أن تفعل أن يفترق الناس فبايعتهم فلم يرعنى إلاشقاق رجلين قد بايعانى وخلاف معاوية الذى لم يجعل الله له سابقة فى الدين ولا سلف صدق فى الإسلام طليق بن طليق حزب من هذه الأحزاب لم يزل لله ولرسوله وللمسلمين عدواً هو وأبوه حتى دخلا فى الإسلام كارهين فلا غروا لإخلافكم معه وانقيادكم له وتدعون آل نبيكم الذين لا ينبغى لكم شقاقهم ولا خلافهم ولا أن تعدلوا بهم من الناس أحدًا. إلا أنى أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه، وإماتة الباطل وإحياء معالم الدين. فقال له شرحبيل: أشهد أن عثمان قتل مظلومًا. فقال لهما: لا أقول إنه قتل مظلومًا، ولا أنه قتل ظالمًا. قالا فمن لم يزعم أن عثمان قتل مظلومًا فنحن منه براء. ثم انصرفا. فقال على **﴿فإنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين. وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون﴾**.

لما انسلخ المحرم أمر على من ينادى: ألا إن أمير المؤمنين يقول لكم انى قد استدمتكم لتراجعوا الحق وتنيبوا إليه واحتججت عليكم بكتاب الله فدعوتكم إليه فلم تناهوا عن طغيان. ولم تجيبوا إلى حق: وإنى قد نبذت إليكم على سواء إن الله لا يحب الخائنين. ففزع أهل الشام إلى أمرائهم ورؤسائهم وخرج معاوية وعمرو يكتبان الكتائب ويعبيان الجيوش وفعل على فعلهما. وقال لا تقاتلوهم حتى يقاتلوكم فأنتم

على حجة وتركهم حتى يقاتلوكم حجة أخرى فإذا هزمتموهم فلا تقتلوا مدبرا ولا تجهزوا على جريح ولا تكشفوا عورة ولا تمثلوا بقتيل وإذا وصلتم إلى رحال القوم فلا تهتكوا سترا ولا تدخلوا دارا ولا تأخذوا شيئًا من أموالهم ولا تهيجوا امرأة وإن شتمن أعراضكم وسببن أمراءكم وصلحاءكم فإنهن ضعاف القوى والأنفس، وكان يقول بهذا المعنى لأصحابه فى كل موطن اهـ.

وفى غد ذلك اليوم وهو يوم الأربعاء أول صفر سنة ٣٧ ابتدأت الحرب من غير أن يقف كل الجمعين وجهًا لوجه بل كل يوم يخرج قائد من هنا وقائد من هنا حتى إذا مضت سبعة أيام قال على لجنده ليلة الأربعاء ثامن صفر حتى متى لا نناهض هؤلاء القوم بجمعنا؟ واتفق معهم على ذلك فباتوا يصلحون أمرهم وفى ذلك يقول كعب بن جعيل التغلبى:

أصبحت الأمة فى أمر عجب والملك مجموع غدًا لمن غلب
فقلت قولا صادقًا غير كذب إن غدًا تهلك أعلام العرب

وفى الصباح زحف على بجنود أهل العراق، وزحف له معاوية بجنود أهل الشام وذلك فى يوم مشئوم لا يزال المسلمين يعدونه شؤمًا من لدن ذلك الحادث إلى الآن. تناهض الناس ذلك اليوم واقتتلوا قتالا شديدًا نهارهم كله. ثم انصرفوا عند المساء وكل غير غالب، ثم أعادوا الكرة فى غد ذلك اليوم وكانت حملتهم أشد من اليوم الأول وقد انكشفت ميمنة أهل العراق وانتهت هزيمتهم إلى على فمشى نحو الميسرة فانكشفت عنه مضر فى الميسرة وثبتت ربيعة. ومر به فى ذلك الوقت الأشتر النخعى، فقال له: أئت هؤلاء القوم فقل لهم أين فراركم من الموت؟ فذهب إليه الأشتر وهيج الناس لخوض الغمرات فتابعوه وكروا معه، فأخذ لا يعمد لكتيبة إلا كشفها، ولا لجمع إلا حازه ورده، ولم يزل حتى كشف هذه الجموع المهاجمة وألحقهم بصفوف معاوية بين العصر والمغرب ولم يزل الأشتر فى هجمته حتى وصل إلى حرس معاوية وكان معاوية يقول: أردت فى هذا الوقت أن أنهزم فذكرت قول

الأطنابة:

أبت لـى عـفـتـى وأبـى بـلائـى وإقـدامـى عـلـى البطـل المشـيـح
وإعـطـائـى عـلـى المكـروه مـالـى وأخـذى الحـمـد بـالثـمـن الـربيـح
وقـولـى كلـمـا جـشـأت وجـاشت مـكانـك تحـمـدي أو تـسـتـريحـى

منعني هذا القول من الفرار. وفى هذا اليوم قتل عمار بن ياسر.

ولما أمسى المساء على الفريقين لم ينفصلا بل استمر القتال شديدًا طول الليل ويسمون هذه الليلة ليلة الهرير يشبهونها بليلة القادسية حتى إذا أصبح عليهم صبح يوم الجمعة أخذ الأشتر يزحف بالميمنة ويقاتل بها ويهيج الناس بقوله وعلى يمده بالرجال لما رأى من ظفره. وبينما هم فى هذه الشدة الشديدة إذا بالمصاحف قد رفعت على رؤوس الرماح من قبل أهل الشام وقائل يقول: هذا كتاب الله عز وجل بيننا وبينكم، من لثغور الشام بعد أهل الشام، من لثغور العراق بعد أهل العراق، فلما رأى أهل العراق المصاحف مرفوعة قالوا: نجيب إلى كتاب الله. فقال لهم على: يا عباد الله أمضوا على حقكم وصدقكم، فإن معاوية وعمرو بن العاص وابن أبى معيط وحبيب بن مسلمة وابن أبى سرح والضحاك بن قيس ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن أنا أعرف بهم منكم قد صحبتهم أطفالا وصحبتهم رجالا فكانوا أشر أطفالا وأشر رجالاً. ويحكم إنهم ما رفعوها ثم لا يرفعونها ولا يعملون بما فيها، وما رفعوها لكم إلا خديعة ودهاء ومكيدة. فقالوا ما يسعنا أن ندعى إلى كتاب الله عز وجل فنأبى أن نقبله. وقال مسعر بن فدكى التميمى وأشباه له من القراء أجب إلى كتاب الله إذا دعيت إليه. وإلا ندفعك برمتك إلى القوم أو نفعل كما فعلنا بابن عفان أنه غلبنا أن نعمل بما في كتاب الله عز وجل. والله لتفعلنها أو لنفعلها بك ثم طلبوا منه أن يبعث إلى الأشتر ليترك القتال. فأرسل إليه رسولا. فقال الأشتر للرسول. ليس هذه الساعة التى ينبغى لك أن تزيلنى فيها عن موقفى. إنى قد رجوت أن يفتح لى فلا تعجلنى.

فرجع الرسول بالخبر فما انتهى إليه حتى ارتفع الرهج وعلت الأصوات من قبل الأشتر. فقال له القوم: والله ما نراك إلا أمرته أن يقاتل ثم قالوا ابعث إليه فليأتك وإلا والله اعتزلناك. فقال الرسول ويحك قل للأشتر أقبل فإن الفتنة قد وقعت فلم يسعه إلا المجئ وترك ساحة الحرب. ثم أرسل الأشعث بن قيس ليسأل معاوية عما يريده فلما ذهب إليه قال له معاوية: نرجع ونحن وأنتم إلى ما أمر الله فى كتابه تبعثون منكم رجلا ترضونه ونبعث منا رجلا ثم نأخذ عليهما أن يعملا بما فى كتاب الله لا يعدوانه ثم نتبع ما اتفقا عليه فقال له الأشعث هذا الحق. ثم رجع إلى على فأخبره ، فقال الناس : رضينا وقبلنا . فقال أهل الشام : قد اخترنا عمرا. فقال الأشعث ومن تابعه: وإنا قد رضينا أبا موسى الأشعرى. فقال على: قد عصيتمونى فى أول الأمر فلا تعصونى الآن. وبين لهم تخوفه من أبى موسى الأشعرى لأنه كان يخذل الناس عنه فأبوا إلا إياه فاضطر على للسير على ما رأوا.

روى الطبرى أن الأحنف بن قيس جاء إلى على وقال: يا أمير المؤمنين إنك قد رميت بحجر الأرض وبمن حارب الله ورسوله أنف الإسلام (يريد عمرًا) وإنى قد عجمت هذا الرجل وحلبت أسطره (يعنى أبا موسى) فوجدته كليل الشفرة قريب القعر وإنه لا يصلح لهؤلاء القوم إلا رجل يدنو منهم حتى يصير فى أكفهم ويبعد حتى يصير بمنزلة النجم منهم. فإن أبيت أن تجعلني حكما فاجعلنى ثانيًا أو ثالثًا فإنه لن يعقد عقدة إلا حللتها ولن يحل عقدة أعقدها إلا عقدت لك أخرى أحكم منها فأبى الناس إلا أبا موسى. فقال الأحنف: فإذا أبيتم إلا أبا موسى فأدفئوا ظهره بالرجال.

عقد التحكيم

لما رضى الفريقين بالتحكيم وأفضى بهما الأمر إلى كتابته كتبوا :

بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما تقاضى عليه على أمير المؤمنين. فقال عمرو ابن العاص اكتب اسمه واسم أبيه هو أميركم فأما أميرنا فلا. فاستشار على فى ذلك بنى هاشم وأدخل معهم الأحنف بن قيس. فقال الأحنف لا تمح أمارة المؤمنين فإنى

أتخوف إن محوتها لا ترجع إليك أبدًا. فأبى على ذلك مليًا من النهار ثم إن الأشعث ابن قيس قال: امح هذا الأسم برحه الله فمحى وكتب كتاب الصلح وهو:

«بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما تقاضى عليه على بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان قاضى على على أهل الكوفة ومن معهم من شيعتهم من المؤمنين والمسلمين وقاضى معاوية على أهل الشام ومن كان معهم من المؤمنين والمسلمين إنا ننزل عند حكم الله عز وجل وكتابه ولا يجمع بيننا غيره. وإن كتاب الله عز وجل بيننا من فاتحته إلى خاتمته نحيى ما أحيا ونميت ما أمات فما وجد الحكمان فى كتاب الله عز وجل هما: أبو موسى الأشعرى عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص القرشى عملا به وما لم يجد فى كتاب الله عز وجل فالسنة العادلة الجامعة غير المفرقة» وأخذ الحكمان من على ومعاوية ومن الجندين من العهود والمواثيق والثقة من الناس أنهما آمنان على أنفسهما وأهلهما والأمة لهما أنصار على الذى يتقاضيان عليه وعلى المؤمنين والمسلمين من الطائفتين كلتيهما عهد الله وميثاقه إنا على ما فى هذه الصحيفة. إن قد وجبت قضيتهما على المؤمنين فإن الأمن والاستقامة ووضع السلاح بينهم أينما ساروا على أنفسهم وأهليهم وأموالهم وشاهدهم وغائبهم وعلى عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص عهد الله وميثاقه أن يحكما بين هذه الأمة ولا يرداها فى حرب ولا فرقة حتى يعصيا وأجلا القضاء إلى رمضان وإن أحبا أن يؤخرا ذلك أخراه على تراض منهما وإن توفى أحد الحكمين فإن أمير الشيعة يختار مكانه ولا يألو من أهل المعدلة والقسط وأن مكان القضية الذى يقضيان فيه مكان عدل بين أهل الكوفة وأهل الشام وإن رضيا وأحبا فلا يحضرهما فيه إلا من أراد ويأخذ الحكمان من أرادا من الشهود ثم يكتبان شهادتهما على ما فى هذه الصحيفة وهم أنصار على من ترك هذه الصحيفة وأراد فيه إلحادًا وظلمًا. اللهم إنا نستنصرك على من ترك ما فى هذه الصحيفة".

ويتبع ذلك أسماء الشهود من الفريقين. وكان الكتاب فى ١٥ صفر سنة ٣٧ وروى الطبرى أن ذلك كان فى ١٣ صفر.

الناظر إلى عقد التحكيم الذى أوردنا لا يجد فيه حدودًا مرسومة ولا أعلامًا بينه يهتدى بها الحكم أو الناظر فى أفعال الحكم. ولم يبين فيه حكم ما إذا فارق الحكمان أو أحدهما ما فى كتاب الله أو السنة العادلة. ولا حكم ما إذا اختلفا ولم يتفقا ولم يبين به الشئ الذى يبحثان فيه من أمرهما . وإنى لا أدرى كيف يكون هذا عقد التحكيم؟!

قال الأستاذ الخضرى: وبهذا العقد انتهت واقعة صفين التى قتل فيها من شجعان المسلمين وأنجادهم تسعون ألفًا. وهو عدد لم يذهب مثله ولا قريب منه فى جميع الوقائع الإسلامية من لدن رسول الله ﷺ إلى تاريخها ولولا أن عضتهم الحرب ولفحتهم نيران السلاح لاستؤصلت البقية الباقية وضاعت الثغور. وما يزيد الأسف أن هذه الحرب لم يكن المراد منها الوصول إلى تقرير مبدأ دينى أو رفع حيف حل بالأمة وإنما كان لنصره شخص على شخص فشيعة على تنصره لأنه ابن عم رسول الله ﷺ وأحق الناس بولاية الأمر. وشيعة معاوية تنصره لأنه ولى عثمان وأحق الناس بطلب دمه المسفوك ظلمًا ولا يرون أنه ينبغى لهم مبايعة من آوى إليه قتلته.

إن تهالك كل من الرجلين على ما يزعمه حقًا له كان بالغًا أقصى نهايته فكل منهما يريد بلوغ أربه من الآخر بأى ثمن مهما غلا. إن من عنده ذرة من الشفقة ليذوب قلبه على هذه الأمة رحمة وأسى فقد وجدت بين عاملين يتنازعانها ويغريان أبناءها بعضهم ببعض ويسيلان دماءها أنهارًا ولا تحدث واحدًا منهما نفسه بأنه لا يصل إلى ما يريد إلا على جسر من الجثث يزيد على عشرات الألوف من موافقيه ومخالفيه هم عدة الإسلام وعزه وقوته بهم أعلى الله كلمته وأعز ناصره وليس من الكياسة أن يهلك مثلهم ضيعة فى أمر إن وقع لا يرتفع له ميزان الدين ولا ينخفض. ولو كان الرجلان ممن لا يؤبه لهما وليس لهما فى الدين قدم وحسن بلاء لكان للقلم مجال، ولكنهما بالمحل الرفيع والمكان المكين، وبخاصة على بن أبى طالب وأثره فى الدين وإعزازه. فليس لنا إلا إن نأسى على ما كان ونكل أمر صاحبى العمل إلى الله عز وجل ونسأله لهما الصفح والغفران.

حسن عندى قول المرحوم الأستاذ الخضرى: يظهر للمتتبع أخبار ما بين على ومعاوية أن الرجلين كانا على تباين تام. فعلى يرى لنفسه من الفضل والسابقة والقرابة ما ليس لغيره من سائر الناس حتى أشياخ قريش وأصحاب السابقة منهم وزاد به ذلك الفكر حتى كان يرى أن الأشياخ يعلمون ذلك ويغضون عنه. وكان يرى فى معاوية انحطاطا هائلا عنه. ولماذا؟ لأنه من الطلقاء الذين عادوا رسول الله ﷺ وحاربوه. وربما ظن فيهم أنهم لم يدخلوا فى الإسلام إلا كرهًا حينما لم يجدوا مناصًا من ذلك. وإذا كان الرجل يرى أشياخ قريش دونه قدراً ولم يكن يسلم لهم إلا مرغمًا لأنه لم يجد له أنصاراً، فكيف يرى نفسه أمام رجل يظن به ذلك الظن فى وقت بايعه فيه الناس بالخلافة، وردوا إليه حقه المسلوب منه وقد وجد أنصاراً يؤيدونه.

وكان إذا تكلم عن معاوية أو كاتبه يظهر من كلامه الاحتقار والترفع عنه والازدراء برسله وخاطبهم بأشد ما يخاطب به الإنسان. ولا يظهر أن الرجل قد استحوذ على قلوب نصف الأمة الإسلامية، والمنصف يقول خير نصفى الأمة وأنفعهما وأرضاهما غناء وبلاء، ومثله لاينال إلابالأناة وشئ من المصانعة والسهولة والتجاوز له عن شئ من السلطان يتبحبح فيه وينال من متاع الدنيا ما تشره إليه نفسه، فإنه رجل قد ألف الشرف وأبهة السلطان إلى عز قديم وشرف عريق ورياسة فى الجاهلية آزرتها رياسة فى الإسلام فاتصل القديم بالحديث وهذه أشياء لم ير على أن ينزل إليها.

أما معاوية فإنه كان بدون ريب يرى نفسه عظيما من عظماء قريش، لأنه ابن شيخها أبى سفيان بن حرب أكبر ولد أمية بن عبد شمس بن عبد مناف كما أن عليًا أكبر ولد هاشم بن عبد مناف فهما سيان فى الرفعة النسبية. ثم كان يرى النبى ﷺ والخلفاء الثلاثة من بعده قد وثقوا به ثقة كبرى حتى جمعت له الشام كلها وهى أعظم بلدان المسلمين بعد العراق. فصارت له تلك الرياسة العظيمة والأثر الصالح فى حماية

الثغور الرومية، وهو يعلم أن عليًا لا ينظر إليه بها من قبله بدليل أن أول عمل له كان عزله فرأى أن انضمامه إلى على يحطه عن تلك المنزلة السامية التى نالها ومن يدرى ماذا يكون حاله بعد ذلك من المهانة وقد وجد أمامه شبهًا تفسح له المجال فى تلك المناوأة .

١- أنه لم يفشْتَشَرْ فى تلك البيعة وهو من أعاظم قريش ووال من أكبر الولاة تحت إمرته جند من المسلمين لا يقل عن مئتى ألف.

٢- إن كثيراً من الصحابة رفضوا بيعة على.

٣- إن أول من ندبه إلى الخلافة هم الثائرون على عثمان الذين قتلوه.

٤- إنه آواهم فى جيشه ولم يقتص منهم فأخذ من ذلك أنه ممالئ لهم على فعلتهم كل تلك الشبه جعلته يمتنع عن البيعة ويأخذ لنفسه الحيطة حتى لا يقع فى المذلة والمهانه. شخصان ينظر كل منهما إلى الآخر بهذا النظر لا يمكن اتفاقهما ولا وصولهما إلى طريق رشاد يخفف عن المسلمين ما نزل على رؤوسهم من تلك الفتنة الهائلة. ولم يكن مدار مراسلاتهم بالشئ الذى يصح أن يكون قاعدة صلح بين فريقين لكل منهما قوة تؤيده، فعلى كان يطلب مبايعته ولا يزيد وبغير ذلك لا يصلح حتى إن رسله التى كان يرسله من أهل العراق كانوا يكلمون معاوية بلهجة المحتقر المستخف ومعاوية يطلب أولا أن تسلم قتلة عثمان إليه ليقتص منهم ثم يكون الأمر شورى، وكل الأمرين لا يرضى بهما على: أما قتلة عثمان فإنه إن أرد انتزاعهم من جيشه لا يأمن أن يتعصب لهم قومهم فينقسم جيشه وأما ثانيًا فلأنه لا يترك حقًا قد ثبت له بالبيعة التى رآها تمت وليس لأحد مهما عظم قدره أن يعترض عليها فكيف بمثل معاوية فى نفسه. أضف إلى ذلك أن فرقة السبئية التى كانت تتخلل جند على لم يكن من مصلحتها أن يكون صلح بين الطرفين فهم لا يسكتون عن حمل الحطب لإشعال نار الفتنة كلما قاربت الخمود ولذلك كان لهذا التحكيم الذى اتفق عليه الطرفان نتيجة الفتنة كلما قاربت الخمود ولذلك كان لهذا التحكيم الذى اتفق عليه

الطرفان نتيجة من أسوأ النتائج في جيش على.

نتائج التحكيم

بعد أن كتبت شروط الصلح عاد معاوية بجنده إلى دمشق أما جند على فإن الأشعث بن قيس خرج بكتاب الصلح يقرأه على الناس ويعرضه عليهم يقرؤنه حتى مر به على طائفة من بنى تميم فيهم عروة بن أدية وهو أخو أبى بلال فقرأه عليهم فقال عروة أتحكمون فى أمر الله الرجال؟ لا حكم إلا لله. ثم شد بسيفه فضرب به عجز دابته ضربة خفيفة فغضب للأشعث قومه من اليمن فمشى رؤساء بنى تميم فتنصلوا إليه واعتذروا فقبل وصفح ثم عاد الجيش يريد الكوفة.

روى الطبرى عن عمارة بن ربيعة قال خرجوا مع على إلى صفين وهم متوادون أحباء فرجعوا متباغضين أعداء وما برحوا من عسكرهم بصفين حتى فشى التحكيم ولقد أقبلوا يتدافعون الطريق ويتشاتمون ويضطربون بالسياط يقول الخوارج يا أعداء الله أدهنتم فى أمر الله وحكمتم وقال الآخرون فارقتم إمامنا وفرقتم جماعتنا فلما دخل على الكوفة لم يدخلوا معه حتى أتوا حروراء فنزل بها منهم اثنا عشر ألفا ونادى مناديهم أن أمير القتال شبث بن ربعى التميمى (وهذا الذى كان رسول على إلى معاوية وكان يتوقح فى خطابه ويعجب من معاوية كيف لم يبايع عليًا وهو هو سيد المسلمين وابن عم سيد المرسلين إلى آخر ما قال) وأمير الصلاة عبد الله بن الكواء الشكرى والأمر شورى بعد الفتح والبيعة لله عز وجل والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فبعث إليهم على عبد الله بن عباس وقال له: لا تعجل فى جوابهم وخصومتهم حتى آتيك فخرج إليهم ابن عباس فأقبلوا عليه يكلمونه فلم يصبر عليهم بل قال ما نقتم من الحكمين وقد قال الله عز وجل ﴿**إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما**﴾ فكيف بأمة محمد ﷺ فقالوا له أما ما جعل حكمه إلى الناس وأمر بالنظر فيه والإصلاح له فهو إليهم كما أمربه، وما حكم فأمضه فليس للعباد أن ينظروا فى هذا.

قال ابن عباس فإن الله عز وجل يقول ﴿يحكم به ذوا عدل منكم﴾ فقالوا له أوتجعل الحكم فى الصيد والحدث يكون بين المرأة وزوجها كالحكم فى دماء المسلمين وقالوا إن هذه الآية بيننا، أعدل عندك ابن العاص وهو بالأمس يقاتلنا ويسفك دماءنا فإن كان عدلا فلسنا بعدول ونحن أهل حربه وقد حكمتم فى أمر الله الرجال وقد أمضى الله حكمه فى معاوية وحزبه أن يقتلوا أو يرجعوا وقبيل ذلك ما دعوناهم إلى كتاب الله فأبوه. ثم كتبتم بينكم وبينه كتابًا وجعلتم بينكم وبينه الموادعة والاستفاضة وقد قطع عز وجل الاستفاضة والموادعة بين المسلمين وأهل الحرب منذ نزلت براءة إلا من أقر بالجزية. ثم جاء على فوجد ابن عباس يخاصمهم فقال له انته من كلامهم ألم أنهك؟ ثم سألهم ما أخرجكم علينا؟ حكومتكم يوم صفين. فقال أنشدكم الله ألست قد نهيتكم عن قبول التحكيم فرددتم على رأيى ولما أبيتم إلا ذلك اشترطتم على الحكمين أن يحييا ما أحيا القرآن وأن يميتا ماأمات القرآن فإن حكما بحكم القرآن فليس لنا أن نخالف حكما يحكم بما فى القرآن وإن أبيا فنحن من حكمهما براء قالوا له فخبرنا أتراه عدلا تحكيم الرجال فى الدماء فقال: إنا لسنا حكمنا الرجال إنما حكمنا القرآن وهذا القرآن إنما هو خط مسطور بين دفتين لا ينطق إنما يتكلم به الرجال قالوا: فخبرنا عن الأجل لم جعلته فيما بينك وبينهم قال: ليعلم الجاهل ويتثبت العالم ولعل الله عز وجل يصلح فى هذه الهدنة هذه الأمة، ادخلوا مصركم رحمكم الله. والخوارج يدعون أنهم قالوا إن التحكيم كان منا كفرًا وقد تبنا إلى الله فتب كما تبنا نبايعك وإلا فنحن مخالفون، فبايعهم على وقال ادخلوا فلنمكث ستة أشهر حتى يجئ المال ويسمن الكراع ثم نخرج إلى عدونا. فدخلوا على ذلك.

وتوضيح نظرية هؤلاء القوم أن عليًا كان إمامًا بويع بيعة صحيحة فمن امتنع عن بيعته فهو مرتكب جريمة العصيان والبغى وهم يرون أن مرتكب الكبيرة كافر فإذن يكون معاوية بغى على الإمام العدل وحارب الله ورسوله وحينئذ يكون له ولقومه حد مقرر فى القرآن والحدود المقررة لا معنى للتحكيم فيها لأنه تغيير للمشروع إن قضى

بخلافه. ولما كان معاوية ومن معه يستحقون فى نظرهم هذه العقوبة نصا فاللين معهم ومهادنتهم إدهان فى سبيل الله وتحكيم للرجال فيما لا حكم فيه إلا لله وهذا فى نظرهم جريمة وفاعلها ضال، والضال لا يصلح لخلافة المسلمين فلا خلافة لعلى ولا حرمة لمن اتبعه، فلهم أن يقاتلوهم وهم فى نظرهم كجند معاوية سواء بسواء فانظروا كيف جاءت هؤلاء الناس نتيجة بعض مقدماتها باطل، فلا عجب أن تكون هى أيضًا باطلة. كون جريمة العصيان ومحاربة الله والرسول لها حد مقرر فى كتاب الله فذلك صحيح وأما كون معاوية ومن معه بغاة فذلك شئ يحتاج إلى النظر فإن ادعى أن له شبها فى نفس إمامة الإمام أهى منعقدة أم لم تنعقد فهذا يصح فيه التحكيم وليس تحكيمًا للرجال فى دين الله وإنما هو تحكيم فى صحة وصف ينبنى عليه حكم فإن القاضى الذى ترفع إليه قضية سرقة لا يطلب منه الاجتهاد فى أن السارق تقطع يده أو لا تقطع وإنما يطلب منه الاجتهاد فى معرفة أهذا سارق أم غير سارق فإذا ثبتت له الصفة وجب عليه حتما أن يحكم بقطع اليد فإن قالوا إن التحكيم من على شك فى إمامته والشك لا يجوز له أن يسفك الدماء للمطالبة بأمر مشكوك فى صحته كان هذا باطلا أيضًا لأن صاحب الحق كثيرًا ما يتأكد أن الحق له فإذا رأى من خصمه إنكارًا أو تمسكا بسببه فلا طريق له إلا أن يرفع الأمر لقاض أو لحكمين يكون حكمهم قاطعا لنزاع خصمه.

وعلى الجملة فإن هذه الفئة الجديدة قد بات أمرها على مقدمات لم تنضج فزادوا الطين بله وبعد أن كنا أمام فرقتين صرنا الآن أمام ثلاث فرق يستحل بعضها دماء بعض وصار لعلى عدوان. أو المتتبع لأحوال الخوارج ومقاماتهم فى حروبهم يتأكد أنهم مخدوعون بمظاهرهم أنه الصواب من الرأى حتى صار عندهم من الحقائق الثابتة التى لا ينكرها إلا غاو حائد عن الدين فى نظرهم، وإلا فكيف يؤول فعلهم وما صاروا إليه؟ كان القوم بالأمس يعتقدون فى على أنه سيد المسلمين وأعلمهم وأفقههم فى الدين، واليوم قاموا ينبذون إليه على سواء ويباينونه كل المباينة ويرون أنه

ضال بسبب ما كان منه من التحكيم، وهو لم يصر إليه إلا بمشورتهم، وعن ملأ منهم ويقولون إنه صار لا يستحق أن يكون خليفة ويدينون بأن كل من تابعه حائد عن طريق الرشاد حلال الدم.

اجتماع الحكمين

لما حان أجل اجتماع الحكمين بعث على أربعمائة رجل عليهم شريح بن هانئ الحارثى ومعهم ابن عباس يصلى بهم ويلى أمورهم ،وأبو موسى الأشعرى معهم، وبعث معاوية عمرو بن العاص فى أربعمائة من أهل الشام فتوافوا بدومة الجندل بأذرح. وكان معاوية إذا كتب إلى عمرو جاء الرسول وذهب لا يدرى بماجاء به ولا بما ذهب به أحد ولا يسأله أهل الشام عن شئ. وإذا جاء رسول على جاء أهل العراق إلى ابن عباس فسألوه: ما كتب إليك أمير المؤمنين؟ فإن كتمهم ظنوا به الظنون فقالوا: ما نراه إلا كتب بكذا وكذا. فقال لهم ابن عباس: أما تعقلون؟ أما ترون رسول معاوية يجئ لا يعلم بما جاء به ويرجع لا يعلم بما رجع به أحد ولا يسمع لهم صياح ولا لغط وأنتم عندى كل يوم تظنون الظنون !- وشهد هذه الجماعة عبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومى والمغيرة بن شعبة وسعد بن أبى وقاص.

ولما كان القوم بدومة الجندل أحب المغيرة بن شعبة أن يعرف ما عند كل من الحكمين وهل يمكن اجتماعهما على رأى. فأتى عمرو بن العاص وقال له: يا أبا عبد الله ما رأيك فينا معشر القوم الذين اعتزلوا القتال ولم يشهدوا من هذه الحرب شيئًا؟ فقال إنكم معشر المعتزلة خلف الأبرار وأمام الفجار. وجاء إلى أبى موسى سأله عن شأنه ومن اعتزل الحرب حتى يتبين الحق ويجتمع الناس على إمام فقال أنتم المؤمنون الصالحون حقًا، فقال: إن الرجلين لا يمكن أن يجتمعا.

ومما كان فى اجتماع الحكمين أنها بحثا فيما جاءا لأجله وهو إصلاح ما بين الناس. فتكلم عمرو قال: ألست تعلم أن عثمان قتل مظلومًا؟ قال أبو موسى أشهد.

قال عمرو: ألست تعلم أن معاوية وآل معاوية أولياؤه؟ قال بلى. قال عمرو: فإن الله يقول: ﴿ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف فى القتل إنه كان منصوراً﴾. فما يمنعك من معاوية ولى عثمان يا أبا موسى وبيته فى قريش كما قد علمت ؟ فإن تخوفت أن يقول الناس ولى معاوية وليست له سابقة، فإن لك بذلك حجة: تقول أنى وجدته ولى عثمان الخليفة المظلوم والطالب بدمه الحسن السياسة الحسن التدبير. وهو أخو أم حبيبه زوج رسول الله ﷺ وكان كاتب الوحى لرسول الله وقد صحبه فهو أحد الصحابة. ثم عرض له بالسلطان بقوله: إن ولى أكرمك كرامة لم يكرمها خليفة. فقال أبو موسى: يا عمرو اتق الله. فأما ما ذكرت من شرف معاوية فإن هذا ليس على الشرف يولى أهله. ولو كان على الشرف لكان هذا الأمر لآل أبرهة بن الصباح إنما هو لأهل الدين والفضل مع أنى لو كنت معطيه أفضل قريش أعطيته على بن أبى طالب. وأما قولك أن معاوية ولى دم عثمان فوله هذا الأمر فإنى لم أكن لأوليه معاوية وأدع المهاجرين الأولين. وأما تعريضك لى بالسلطان. فو الله لو خرج لى من سلطانه كله ما وليته وما كانت لأرتشى فى حكم الله عز وجل. ولكنك إن شئت أحيينا اسم عمر بن الخطاب فقال عمرو: إن كنت تحب بيعة ابن عمر فما يمنعك من ابنى وأنت تعرف فضله وصلاحه. فقال إن ابنك رجل ولكنك قد غمسته فى هذه الفتنة. هذه رواية الطبرى.

لا ينتظر من محكمين توليا الحكم بكتاب تحكيم مبهم يشبه مضمونه لغزاً من الألغاز أو أحجية من الأحاجى أن يتكلما فى مثل موضوعهما المشكل إلا بمثل هذا الكلام الذى لا يشفى غليلا ولا يبرئ عليلا وأن تكون المقدمات التى تبنى عليها النتائج والمطالب فجة وليس بينها وبين بعضها ارتباط.

من هذه المناقشة يفهم أن الرجلين قد اتفقا على خلع المتنازعين، ولكنهم اختلفا فمن يخلفهما ويكون أمره جامعًا لكلمة المسلمين، وإني لا أفهم ولا أظن أحدًا يفهم على أى حكم من كتاب الله تعالى يستندان فيما اتفقا عليه ولا بأى سنة استمسكا

وهما إنما وليا على الحكم بمقتضى كتاب الله تعالى وسنة رسوله العادلة الجامعة غير المفرقة-فكان عليهما أن يعمدا إلى مثل قوله تعالى **﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتلوا فأصلحوا بينهما﴾** الخ.

ولما صار الرجلين إلى هذه النقطة قال عمرو لأبى موسى: أخبرنى ما رأيك؟ فقال: رأيى أن نخلع هذين الرجلين ونجعل الأمر شورى بين المسلمين فيختار المسلمون فيختار المسلمين لأنفسهم من أحبوا. فقال له عمرو: فإن الرأى ما رأيت.

كان عمرو قد أخذ أبا موسى من حين التقيا بدومة الجندل بأن يقدمه فى الكلام وفى كل شئ فيقول له: إنك صاحب رسول الله ﷺ وأنت أسن منى فتكلم وأتكلم واغتزى عمرو من ذلك أن يقدمه عند الكلام على خلع ثم يكون هو على رأس أمره.

ولما لم يبق إلا إعلام الناس بما اجتمع عليه رأيهما واتفقت عليه كلمتهما، خرجا وتقدم أبو موسى فحمد الله وأثنى عليه ثم قال «أيها الناس إنا قد نظرنا فى أمر هذه الأمة فلم نر أصلح لأمرها ولا ألم لشعثها من أمر أجمع عليه رأيى ورأى عمرو وهو أن نخلع عليًا ومعاوية وتستقبل هذه الأمة هذا الأمر فيولوا عنهم من أحبوا عليهم وإنى خلعت عليًا ومعاوية فاستقبلوا أمركم وولوا عليكم من رأيتموه لهذا الأمر أهلا » ثم تنحى، وأقبل عمرو فقام مقامه فحمد الله وأثنى عليه، وقال: «إن هذا قال ما قد سمعتم وخلع صاحبه وأنا أخلع صاحبه كما خلعه وأثبت صاحبى معاوية فإنه ولى عثمان والطالب بدمه وأحق الناس بمقامه» فقال أبو موسى: مالك لا وفقك الله غدرت وفجرت. إنما مثلك كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث فقال عمرو : إنما مثلك كمثل الحمار يحمل أسفاراً. وحمل بعض رجال علىّ على عمرو بالسوط، وحمل بعض رجال معاوية عليهم بالسوط ثم تحاجز الفريقان والتمس رجال الشام أبا موسى فإذا هو قد ركب راحلته وذهب إلى مكة.

وقدر روى الطبرى أن أبا موسى لما خرج ليتكلم قال رأيى ورأى عمرو وقد اتفق على أمر نرجوا أن يصلح الله به هذه الأمة. فقال عمرو: صدق وبر، يا أبا

موسى تقدم فتكلم. فقال ابن عباس لأبى موسى أن عَمْراً رجل غادر ولا آمن أن يكون قد أعطاك الرضا فيما بينك وبينه فإذا قمت فى الناس خالفك وكان أبو موسى رجل مغفلا فقال: إنا قد اتفقنا.

ويرى المسعودى أنهما لم يحصل منهما خطبة وإنما كتبا صحيفة فيها خلع على ومعاوية وأن المسلمين يولون عليهم من أحبوا-قال الأستاذ الخضرى: وهذا القول أقرب فى نظرنا إلى المعقول وإن لهج كثير من المؤرخين بذكر الأول. لأن هذه الخطبة على فرض حصولها وإن الخديعة تمت على أبى موسى لم تكن لتفيد معاوية شيئًا لأن الذى ثبته إنما هو حكمه والذى يلزم الأمة بمقتضى الصحيفة إنما هو ما اجتمعا عليه لا ما رضى به أحد الحكمين ولم ينقل أحد أن أبا موسى رضى فى خطابه ببيعة معاوية. أقول وما ذكره المرحوم الشيخ محمد الخضرى بك حسن لو كان الأمر جاريا فيما بين على ومعاوية على مقتضى الحكمة ناهجا منهج المنطق الصحيح، ولكنا نرى الأمر من أوله إلى آخره مشوشا غير منظم ولا مرتب ولا صائر فى سبيل العقل ونهج الفطنة فليس بينهما وثيقة تحكيم واضحة المعالم ظاهرة المناهج مبين فيها أن الخلافة محل الخلاف ومحال النزاع فينطرا فى إثباتها أو إلقائها عن أحد الفريقين أو عنهما. ونقطة النزاع الكبرى وهى التى كانت مفهومة بادى الرأى وهو الاقتصاص من قتلة عثمان قد أغفلت إغفالا شائنا سواء فى صحيفة التحكيم إن كانت تصلح أن تسمى صحيفة أم فى حكم الحكمين فلم يتداولا فى هذا الشأن ولم ينقل أنهما تفاوضا فيه أو أشار إليه باستحسان أو استهجان. ثم إذا كانت هناك صحيفة فأين ذهبت؟ ولم لم تكن لهما محاضر في كل جلسة يثبت فيها كل محاورته للآخر وتحدد فيها نقط النزاع وما دار بشأن كل نقطة.

ومن الوقت الذى جرى فيه عقد التحكيم وعين الحكمان يشعر الإنسان بأن هذا العمل لا يؤدى إلى نتيجة مفيدة. لأن أبا موسى كما يظهر من ماضيه رجل يكره الفتن ويحب للمسلمين السلامة، ويتمنى لو وصل إلى ما يريد من أى طريق يسلكه

سوى إراقة الدماء وقد كان من المثبطين عن على والمخذلين عن نصره ومتابعة الكارهين لمسيره. وقرينه عمرو بن العاص يميل إلى معاوية ويحب تأييده وتثبيت خلافته وهو مع ذلك رجل عرف الدنيا وجالس الملوك وهو حول قلب لا يعى بالأمور ولا تكرثه المعضلات شهر من أول أيامه بسعة الحيلة العقلية وحسن الارتياد للأمور يرى الخداع فى طريق الوصول إلى ما يحب مما يزيد فى أبهته ويؤكد نباهة شأنه. فلا يهمه شئ سوى الوصول إلى مقصوده مهما استعمل فى سبيل ذلك من الخدع. ومثل هذين لا يتفقان.

وما عجبت من شئ فإن أمر أبى موسى أعجب. ذلك أنه كان ينهى الناس عن هذه الفتنة ويأمرهم باعتزالها حتى يتضح المنهج وتستقيم السنن وأن هذه الفتنة النائم فيها خير من اليقظان إلى آخر الحديث. فما باله قد غمس يده فيها من حيث لا يحتسب؟ وأوقف نفسه فيها على ثنية عجز وأوقف المسلمين على سنن الاختلاف. ولولا رحمة من الله لعادت الفتنة جذعة وكان القوم أقرب إلى التفانى والاستئصال بفضل غفلته وسوء تقديره لنفسه ولخصمه - أما كان خيرًا له أن يستعفى ويترك الأمر لمن هو أكفأ منه؟ لم يكن على ليرضى بهذا الحكم الذى اعتقده بحق مخالفًا للكتاب والسنة اللذين عهد إلى الحكمين أن يحكما بهما وقد رضى به معاوية طبعًا.

وسخط الظباء بما نالها   تولد منه رضى الحابل

لأن أقل ما فى الحكم أن ليس لعلى إمامة. وصار الأمر للناس يولون من شاءوا وعنده جند عظيم يختارونه ولا يفضلون عليه أحدًا فقويت آماله في أن يكون خليفة للمسلمين وسلم عليه عمرو وسائر جنده بالخلافة.

رجع ابن عباس وشريح إلى على وأوقفاه على جلية ماتم. وهذا الأمر لا يرضيه كما قدمنا. فكان إذا صلى صلاة الصبح يقنت فيقول: اللهم العن معاوية وعمرا وأبا الأعور وحبيبا وعبد الرحمن بن خالد والضحاك بن قيس والوليد.

وإنى بإزاء هذا القنوت أقـول: إن علياً رحمـه الله قد سن لخصومـه أن يقابلوه بمثل عمله ويتـخذوا من لعنه نوعا من العـبادة فى أعقاب الصلوات فـكان معاوية إذا قنت سب عليا وابن عباس والحسن والحسين والأشتر وصار ذلك سنة فى بنى أمية إلى زمن عمر بن عبد العزيز يأخذون الناس به فى أقطار بلاد الإسلام.

ليس للمؤرخ أمام ما كان من الـفريقين أن يخطئهما فيما صنعا ويلومـهما فيما أتيا وهذا عمر بن الخطاب قد وقع رجل أمامـه فى الفرس فأظهر له النفور من قوله، وقال له: إن الفرس حكمت فـعدلت وعمرت بلاد الله فهم لا يستحـقون ما تقول أو كما قـال. فإذا كان هذا شأنه مـع خصومه من الفـرس فما بال أهل القبلـة يتلاعنون ويأتون بما لا يليق بأمثالهم من الوقيعة فـى أهل دينهم؟ على أن عليًا قد مات واستمر بنو أمية يسبونه فى أعقاب الخطب ستين سنة.

ويذكـر ابن الأثير أن سـعد بن أبى وقـاص كان حـاضراً يوم إعـلان الحكمين أمرهما فـقال لأبى موسى: ما أضعفـك عن عمرو ومكائده ! فقال أبو مـوسى: فما أصنع؟ وافـقنى على أمر ثم نـزع عنه. فقال ابن عـباس: لا ذنب لك يا أبـا موسى الذنبلمن قدمـك فى هذا المقام فقال. غدر فـما أصنع؟ فقال ابن عمـر انظروا إلى ما صار إليه أمر هـذه الأمة، صار إلى رجل لا يبالى ما صنع، وإلى آخـر ضعيف وابن الأثير يصحح أن معـاوية حضر الحكمين وأنه قام عشية فى الناس. فـقال أما بعد من كان متكلما فى هـذا الأمر فليطلع لنا قرنه. قال ابن عمر فـأطلقت حبوتى فأردت أن أقول يتـكلم فيـه رجال قاتلـوك وأباك على الإسلام فـخشيـت أن أقول كلمـة تفرق الجماعـة ويسفك فيـها دم، وكان ما وعـد الله فيه الجنات أحب إلى مـن ذلك. فلما انصرفت إلى المنزل جاء إلى حبيب بن مسلمة فقال. ما منعك أن تتكلم حين سمعت هذا الرجل يتكلم؟ قلت أردت ذلك ثم خشيت. فقال حبيب. وفقت وعصمت.

وأحسب أن حبيبـاً لم يأت إلى ابن عمر من تلقاء نفسه وإنما دسـه عليه معاوية حين بصر به يحـل حبوته أو بلغه ذلك فـأحب أن يعلم ما عنده ويقف عـلى ما كان مزمعًا أن يواجهه به.

شأن الخوارج مع على

رأى على أنه لابد له من معاودة الكرة إلى معاوية وأصحابة. ومعالجة دائهم ولكن صدفه عن ذلك عود الخوارج فى حافرتهم وإجفالهم عن علي وجماعته، ذلك أنهم كانوا يظنون أن عليًا قد وافقهم علي كراهة التحكيم ورؤيته ضلالة. وجاءه إنسان منهم فقال له: إن الناس تحدثوا عنك أنك رجعت لهم عن كفرك فخطب الناس فى صلاة الظهر فذكر أمر الخوارج وعابه فثارت الخوارج فى ناحية المسجد يقولون : لا حكم إلا لله . فقال على :الله أكبر كلمة حق يلتمس بها باطل إما أن لكم عندنا ثلاثًا ما صحبتمونا. لا نمنعكم مساجد الله أن تذكروا فيها اسمه ولا نمنعكم الفئ ما دامت أيديكم مع أيدينا، ولا نقاتلكم حتى تبدؤنا.

عند ذلك اجتمعت الخوارج فى منزل عبد الله بن وهب الراسبى فخطبهم خطبة حثهم بها على الخروج وقال فى خطابة: «فاخرجوا بنا من هذه القربة الظالم أهلها إلى بعض كور هذه الجبال أو إلى بعض هذه المدائن منكرين لهذه البدع المضلة أرادوا أن يولوا أمرهم رجلا فعرضوا الولاية على المتميزين فيهم: فكلهم يأباها. ثم عرضوها على عبد الله بن وهب فقال:هاتوها أما والله لا آخذها رغبة فى الدنيا ولا أدعها فرقا من الموت فبايعوه لعشر خلون من شوال سنة ٣٧ ثم اتفقوا على أن يخرجوا وحدانا مستخفين حتى يجتمعوا فى جسر النهروان وكتب عبد الله بن وهب إلى من بالبصرة منهم يعلمهم بما اجتمعوا عليه ويحثهم على اللحاق بهم فأجابوه. فلما عزموا تعبدوا ليلتهم ويومهم وساروا يوم السبت فخرج شريح بن أوفى العبسى وهو يتلو ﴿**فخرج منها خائفا يترقب قال رب نجنى من القوم الظالمين. ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل**﴾.

ولما خرجت الخوارج جاءت إلى على شيعته ومن بقى على ولائه فبايعوه وقالوا نحن أولياء وليت وأعداء من عاديت.

وبعد أن خرج القوم وعلم على بما كان من أبى موسى وعمرو بن العاص فى

شأن التحكيم خطب أهل الكوفة فقال:

الحمد لله وإن أتى الدهر بالخطب الفادح والحدثان الجليل. وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله. أما بعد فإن المعصية تورث الحسرة وتعقب الندم. وقد كنت أمرتكم فى هذين الرجلين وفى هذه الحكومة أمرى ونحلتكم رأيى لو كان لقصير أمر، ولكن أبيتم إلا ما أردتم فكنت أنا وأنتم، كما قال أخو هوازن.

أمرتهم أمرى بمنعرج اللوى فلم يستبينوا الرُّشد إلا ضحى الغد
فلما عصونى كنت منهم وقد أرى مكان الهدى أو أننى غير مهتد
وهل أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد

ألا إن هذين الرجلين اللذين اخترتموهما حكمين قد نبذا القرآن وراء ظهورهما وأحييا ما أمات القرآن واتبع كل منهما هواه بغير هدى من الله فحكما بغير حجة بينة ولا سنة ماضية واختلفا فى حكمهما وكلاهما لم يرشد فبرئ الله منهما ورسوله وصالح المؤمنين. استعدوا وتأهبوا للمسير إلى الشام وأصبحوا فى معسكرهم إن شاء الله.

وكتب إلى الخوارج بالشخوص معه لحرب أهل الشام. إنما أطمعه فى ذلك منهم أنهم كانوا كارهين للتحكيم زارين على على الرضا به. فما كان جوابهم إلا أن كتبوا إليه.

«أما بعد فإنك لم تغضب لربك وإنما غضبت لنفسك. فإن شهدت على نفسك بالكفر واستقبلت التوبة نظرنا فيما بيننا وبينك وإلا فقد نابذناك على سواء إن الله لا يحب الخائنين.

قرأ على كتاب هؤلاء القوم فأيس من خيرهم واعتزم على إلقاء حبلهم على غاربهم وإن يسير إلى الشام فخرج حتى عسكر بالنخيلة ومن هناك كتب إلى ابن عباس أن يستنفر أهل البصرة ويوجه إليه الجند فقال فيهم ابن عباس بأمر على فلم يقم

منهم سوى ألف وخمسمائة مع الأحنف بن قيس واثاقلوا فخطبهم ابن عباس وحثهم وشدد فى خروج من بقى منهم مع جارية بن قدامة فلم يخرج معه سوى ألف وسبعمائة. وكان ديوان أهل البصرة يحوى ستين ألف مقاتل سوى أبنائهم وعبدانهم ومواليهم. ولم يزل على بالنخيلة حتى أتاه جيش البصرة ثلاثة آلاف ومئتا رجل.

رأى على ذلك فجمع رؤساء الأسباع ووجهاء القبائل من أهل الكوفة وحثهم ورغبهم وأراهم قلة أهل البصرة وتثاقلهم وقال فأعينونى بمناصحة جليلة خالية من الغش وأمرهم أن يكتبوا المقاتلة وأبناء المقاتلة الذين أدركوا القتال والعبدان والموالى فرفعوا إليه ذلك فكانوا أربعين ألف مقاتل وسبعة عشر ألفا من الأبناء وثمانية آلاف من مواليهم وعبيدهم. وكان جميع من معه ثمانية وستين ألفًا بعد أن تم حشد على من البصرة والكوفة والمدائن وغيرها على ما وصفنا سمع أن بعض الجند يقولون لو سار بنا إلى هذه الحرورية فبدأ بهم (يريدون الخوارج)، فإذا فرغنا منهم توجهنا إلى الشام. فقام فيهم خطيبا وبين لهم أن قتال أهل الشام أهم. فتنادى الناس يقولون: يا أمير المؤمنين سر بنا إلى ما أحببت كان أمر الخوارج عجبا فإنهم كانوا يظهرون بمظهر العباد الزهاد الذين لا يرون نصبا فى ذات الله ويتورعون عن تافه الأشياء وما يعد الورع فيه باردا ويتحرجون من ذلك أشد تحرج ثم يأتون أفظع المنكرات وأكبر الكبائر كأنهم لا يدينون بإله ولا يعرفون عدلا ولا شفقة ولا رحمة، فهم كما يقول المثل العامى «يفتون على الأبرة ويبلعون المدرة» وهم فى كل عملهم لا يعجزون عن الإتيان بالآيات من الكتاب يستدلون بها على تبرير علمهم.

وكم من فقيه خابط فى ضلالة ... وحجته فيها الكتاب المنزل

دخل القوم قرية فخرج منها عبد الله بن خباب بن الأرت ومعه امرأته حاملا: فقالوا له : أفزعت؟ فقال: والله لقد أفزعتمونى. فقالوا: لا روع عليك، وسألوه من هو؟ فقالوا: حدثنا عن أبيك عن رسول الله. فحدثهم أن رسول الله ﷺ قال «إن فتنة تكون يموت فيها قلب الرجل كما يموت بدنه يمسى فيها مؤمنا ويصبح فيها كافرا

ويصبح فيها كافرا ويمسى فيها مؤمنا» فقالوا. لهذا الحديث سألناك، فما تقول فى أبى بكر؟ فأثنى عليه وفى عمر فأثنى عليه وفى عـثمان فى أول خلافته وآخرها فقال: إنه كان محـقًا فى أولها وآخرها. وسألـوه عن على قبل التحكيم وبعـده قال: هو أعلم بالله منكم وأشد توقيـا لدينه وأنفذ بصيرة (وكان عبد الله بن خـباب رأى أحدهم وقد سقطت رطبة من نخلة فألقاها فى فيه فأنكروا عليه أن يكون قد أكلها بغير ثمن وبغير إذن صاحبها وقتل أحدهم خنزيرًا فأنكروا عليه لأنه إتلاف لمال أهل الذمة) فقالوا له: والله إنك لتشهد بالهوى وتفضل الرجال علـى أسمائهم لا على أفعالهم والله لنقتلنك قتلة ما قتلناها أحدا قط . فأتوا به فذبحوه وبقروا بطن امرأته عن حملها وكانت متئما وقتلوا ثلاث نسوة مـن طئ وأم سنان الصيداوية فبلغ ذلك عليـا فأرسل رسولا يعلم جلية الخبـر عنهم فقتلوه. ولما جاء الخبـر بذلك قال له أصحابه يا أمـير المؤمنين علام تدع هؤلاء وراءنا يخلفـوننا فى أموالنا وعيالنـا؟ سر بنا إلى القوم فإذا فـرغنا مما بيننا وبينهم سرنا إلى عدونـا من أهل الشام فلم يجد على بدأ من موافقـتهم على مناجزة الخوارج أولا.

سار إلى الخوارج. فلـما لقيهم أرسل إليـهم أن ادفعوا إلينا قتلة إخـواننا منكم نقتلهم بهم ثم أنا تارككم وكاف عنكم حـتى ألقى أهل الشام فلعل الله يقلب قلوبكم ويردكم إلى خيـر مما أنتم عليه من أمركـم. فبعثوا إليـه: كلنا قتلهم وكلنا نـستحل دماءهم ودماءكم. وقد أعذر إليهم على جـهده وأبلغ فى الموعظة والتحذير فى خطب رنانة خطبها فيهم فجعلوا أصابـعهم فى آذانهم وأصروا واستكبروا استكبارا - ثم رفع راية مع أبـى أيوب الأنصارى ونـادى: من جاء هـذه الراية منكـم ممن لم يقـتل ولم يستعـرض فهو آمن ومن انصرف إلـى الكوفة أو إلى المدائن وخرج من هذه الجـماعة فهـو آمن. إنه لا حـاجة لنا بعـد أن نصيـب قتلة إخـواننا منكـم فى سفك دمـائكم فانصرف منهم جمع وآوى إلى على جمع وبقى ابن وهب فى ٢٨٠٠ من أربعة آلاف فقامت رحى الحرب بين الفريقين وانتهت الموقعة فى ذلك اليوم بقتل ابن وهب ومعظم

من معه ووجدوا من جرحاهم نحواً من أربعمائة فأمر بهم على فدفعوا إلى عشائرهم: وقال احملوهم معكم فإذا برءوا فخذوهم معكم إلى الكوفة. ويقول ابن الأثير: إنهم قتلوا فى وقت قصير كإنما قيل لهم موتوا فماتوا. وكان على يحدث أصحابه بمن يخرجون وعلامتهم رجل مخدج فالتمس فوجد فيهم.

تخاذل شيعة على

لما رأى على أنه رتق الفتق من ناحية الخوارج وأراح الناس من شغبهم أراد أن ينهض إلى الشام فقام فى أصحابه فقال:

إن الله قد أحسن بكم وأعز نصركم فتوجهوا من فوركم هذا إلى عدو فى جهاده القربة إلى الله ودرك الوسيلة عنده. حيارى فى الحق جفاة عن الكتاب نكب عن الدين يعمهون فى الطغيان ويعكسون فى غمر الضلال فأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل وتوكلوا على الله وكفى بالله وكيلا وكفى بالله نصيراً فقالوا:

يا أمير المؤمنين نفدت نبالنا وكلت سيوفنا ونصلت أسنة رماحنا وعاد أكثرها قصداً فارجع إلى مصرنا فلنستعد بأحسن عدتنا ولعل أمير المؤمنين يزيد فى عدتنا عدة من هلك منا فإنه أوفى لنا على عدونا. وكان الذى تولى ذلك الكلام الأشعث بن قيس - وهو من أكره الناس للحرب - وإنى لا أدرى لم يخرج الكاره للحرب مع المستعدين لها؟ ومثل هذا لا يكون له عمل سوى التثبيط والتخذيل وقد كان هذا الرجل كذلك من يوم الجمل.

سمع على هذا الكلام وأشفق أن يستكره الناس على النهوض من فورهم فرجع إلى النخيلة وعسكر به وأمر الناس أن يلزموا عسكرهم وأن يوطنوا على الجهاد أنفسهم وأن يقلوا زيارة نسائهم وأبنائهم حتى يسيروا إلى عدوهم. فاقاموا فى معسكرهم أياماً ثم تسللوا من معسكرهم فدخلوا مدينتهم إلا رجالا من وجوه الناس قليلا وتُرك المعسكر خاليا. فلما رأى على ذلك دخل الكوفة وانكسر عليه رأيه وتركهم أياماً حتى

إذا أيس من أن يفعلوا دعا رؤساءهم ووجوههم فسألهم عن رأيهم وما الذى ينظرهم فمنهم المعتل ومنهم المكره وأقلهم من نشط. فقام فيهم خطيبا فقال: «عباد الله ما لكم إذا أمرتكم أن تنفروا اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة وبالذل والهوان من العز وكلما ندبتكم إلى الجهاد دارت أعينكم كأنكم من الموت فى سكرة، وكأن قلوبكم مألوسة فأنتم لا تعقلون، وكأن أبصاركم كمه فأنتم لا تبصرون لله أنتم ما أنتم إلا أسود الشرى فى الدعة وثعالب راوغة حين تدعون إلى البأس. ما أنتم لى بثقة سجيس الليالى ما أنتم بركب يصال بكم ولا ذوى عز يعتصم إليه لعمر الله لبئس حشاش الحرب أنتم إنكم تكادون ولا تكيدون وتنتقص أطرافكم ولا تتحاشون ولا ينام عنكم وأنتم فى غفلة ساهون» ثم بين لهم حقوقهم عليه وحقوقه عليهم واستحثهم فكان كأنما ينفخ فى غير ضرم.

لم يزل على فى القوم يغاديهم بالخطب الطنانة ويراوحهم بالقول الجزل ويثير حميتهم ويستفز نخوهم. فلم يزدهم ذلك إلا إعراضًا عن الحرب ونفارًا منها وما تغنى الأقوال والخطب عن قوم توزعتهم الأهواء وتفرقت بهم السبل يشهدون بقلوب غائبة وأفئدة شاردة وألباب طائرة، قد تراخت أسباب طاعتهم وضعف سلطان إمامهم فى أنفسهم قد استمرأوا مرعى الدعة وآثروا السلامة، وأصبح على لا يدرى لهم طاعة ولا يعرف لهم عصيانًا فهو من أمرهم فى داج من الشك ومظلم من الريب.

شأن معاوية ومحمد بن أبى بكر

لما عزل على قيس بن سعد عن مصر بكيد معاوية وخرق رأى المشيرين على على وولى محمد بن أبى بكر على مصر جاء إليها ولم يلبث شهرًا من مقدمه حتى كتب إلى المعتزلين بخربتا يخيرهم بين الدخول فى طاعته والخروج من مصر فأجابوه: إنا لا نفعل دعنا حتى ننظر ما تصير إليه أمورنا ولا تعجل بحربنا فأبى عليهم فامتنعوا وحذروا أشد الحذر.

كان قيس بن سعد - لما علم بشخوص محمد بن أبى بكر أميرًا على مصر - تلقاه وناجاه فقال. إنك جئت من عند امرئ لا رأى له وليس عزلكم إياى بما نعى أن أنصح لكم وأنا من أمركم هذا على بصيرة، وإنى فى ذلك على الذى كنت أكايد به معاوية وعمرًا وأهل خربتا فكايدهم به فإنك إن تكايدهم بغيره تهلك ووصف له مايأتى وما يدع من أمره فاستغشه محمد بن أبى بكر وخالف كل شئ أمره به وخرج لحرب أهل خربتا فقاتلوه وهزموه ولم يحل منهم بطائل.

علم معاوية بما كان بين محمد بن أبى بكر والمعتزلة بمصر فسره ذلك. وقام معاوية بن حديج السكونى الكندى يطلب دم عثمان فأجابه ناس آخرون وفسدت مصر على محمد بن أبى بكر وعلم على بالأمر فى أثناء هدنة الحكومة فأهمه ذلك وقال: إن مصر لا يصلح لها إلا أحد رجلين هذا الذى عزلناه. والأشتر وكان الأشتر بالجزيرة عاملا لعلى فأرسل إليه بأن مصر قد انتفضت على محمد بن أبى بكر وهو غلام حدث ليس عنده تجربة ولا علم بالأمور فاستخلف على عملك أهل الثقة ممن معك واحضر إلى. فلما جاء إليه ولاه أمر مصر وقال له. اخرج رحمك الله فإنى لو لم أوصك اكتفيت برأيك واستعن بالله على ما أهمك فاخلط الشدة باللين وارفق ما كان الرفق أبلغ واعتزم بالشدة حين لا يغنى عنك إلا الشدة. فخرج وتهيأ للرحلة إلى مصر وأتت معاوية عيونه فأخبره بولاية الأشتر على مصر فعظم عليه ذلك. وبعث إلى الجايستار - وهو رجل من أهل الخراج - فقال له إن الأشتر ولى مصر فإن أنت كفيتنيه لم آخذ منك خراجا ما بقيت - فأتى ذلك الدهقان حتى نزل القلزم فلما انتهى الأشتر إليها استقبله الرجل وقال أنا رجل من أهل الخراج وهذا منزل وهذا طعام وعلف فنزل الأشتر. فلما طعم جاءه بشربة عسل فيها سم فشربه الأشتر فمات - وكان معاوية حين علم بفصول الأشتر يقول لأهل الشام إن الأشتر قد ولى مصر فادعوا الله أن يكفيكموه فكانوا يدعون على الأشتر بكرة وعشيًا. إلى أن جاء الجايستار وأنبأه بمهلك الأشتر فقام معاوية فقال. أما بعد فإن على بن أبى طالب كان

له يمينان قطعت إحداهما يوم صفين (يعنى عمارًا) وقد قطعت الأخرى اليوم (يعنى الأشتر) وقد روى عنه أنه قال حين علم بموت الأشتر. «إن لله جنودًا من عسل».

أما محمد بن أبى بكر فساءه من على أن يعزله عن مصر، فبلغ عليًا مهلك الأشتر وموجدة محمد بن أبى بكر فكتب إليه: «أما بعد فقد بلغنى موجدتك من تسريحى الأشتر إلى عملك. وإنى لم أفعل ذلك استبطاء لك فى الجهاد ولا ازديادًا منى لك فى الجد ولو نزعت ما تحت يدك من سلطانك لوليتك ما هو أيسر عليك فى المؤنة وأعجب إليك ولاية منه. إن الرجل الذى كنت وليته مصر كان لنا نصيحًا وعلى عدونا شديدًا قد استكمل أيامه ولاقى حمامه ونحن عنه راضون فرضى الله عنه وضاعف له الثواب وأحسن له المآب. اصبر لعدوك وشمر للحرب وادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وأكثر ذكر الله والاستعانة به والخوف منه يكفك ما أهمك ويعنك على ما ولاك. أعاننا الله وأياك على ما لا ينال إلا برحمته» فكتب إليه محمد بن أبى بكر «أما بعد فقد انتهى إلى كتاب أمير المؤمنين ففهمته وعرفت ما فيه وليس أحد من الناس بأرضى منى لرأى أمير المؤمنين ولا أجهد على عدوة ولا أرأف بوليه منى. وقد خرجت فعسكرت وآمنت الناس إلا من نصب لنا وأظهر لنا خلافا وأنا متبع أمر أمير المؤمنين وحافظه وملتجىء إليه وقائم به والله المستعان على كل حال والسلام عليك.

لما انصرف أهل الشام من صفين كانوا ينتظرون ما يأتى به الحكمان فلما انتهى أمرهما، بايع أهل الشام معاوية بالخلافة فزاده ذلك توثيقًا فى أمره وقوة إلى قوته. واختلف أهل العراق على على وقعدوا عن أمره فتضاعف عليه اضطراب شؤونه ووهى جانب سلطانه. ولم يكن لمعاوية هم إلا مصر، وكان لأهلها هائبا يخشى أن يتسق لعلى الأمر فيها وأن يستظهر بهم على حربه، مع قربهم، وشدتهم على من كان على رأى عثمان وكان قد علم أن بها قوما ساءهم قتل عثمان وخالفوا، فرجاهم أن يشدوا ساعده حتى إذا انقادت له أمور مصر بأزمتها استظهر بأهلها على حرب على

لعظم خراجها. فدعها معاوية من كان معه من قريش. عمرو بن العاص وحبيب بن سلمة ويسر بن أبى أرطاة والضحاك بن قيس وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد، ومن غيرهم أبا الأعور السلمى وحمزة بن مالك الهمدانى وشرحبيل بن السمط فقال لهم أتدرون لم دعوتكم؟ إنى قد دعوتكم لأمر مهم أحب أن يكون الله قد أعان عليه. فقال قائلهم: إن الله لم يطلع على الغيب أحداً، وما يدرينا ما تريد؟ فقال عمرو: أرى والله أمر هذه البلاد الكثير خراجها والكثير عددها والكثير عدد أهلها أهمك أمرها فدعوتنا تسألنا رأينا فى ذلك، فإن كنت لذلك جمعتنا فاعزم وأقدم ونعم الرأى رأيت ففى افتتاحها عزك وعز أصحابك وكبت عدوك وذل أهل الخلاف عليك فقال معاوية لعمرو: أهمك ما أهمك. يريد بذلك أن هذا الأمر أهم عمراً لأنه جعل له مصر طعمة طول حياته فى مقابلة معاونته ومؤازرته على أمره وما شجر بينه وبين على. ثم قال: إن هذا قد ظن ثم حقق ظنه. فقالوا ولكنا لا ندرى فقال إن أبا عبد الله قد أصاب ثم قال: أما بعد فقد رأيتم كيف صنع الله بكم فى حربكم عدوكم. جاءوكم وهم لا يرون إلا أنهم سيقيضون بيضتكم ويخربون بلادكم ما كانوا يرون إلا أنكم فى أيديهم فردهم الله بغيظهم لم ينالوا خيراً مما أحبوا وحاكمناهم إلى الله فحكم لنا عليهم. ثم جمع لنا كلمتنا، وأصلح ذات بيننا وجعلهم أعداء متفرقين يشهد بعضهم على بعض بالكفر ويسفك بعضهم دم بعض والله إنى لأرجو أن يتم لنا هذا الأمر وقد رأيت أن نحاول أهل مصر، فكيف ترون ارتثاءنا لها؟ فقال عمرو قد أخبرتك عما سألتنى عنه وقد أشرت عليك بما سمعت، فقال معاوية: إن عمراً قد عزم وجزم ولم يسفر فكيف لى أن أصنع؟ فقال: إنى أشير عليك كيف تصنع. أرى أن تبعث جيشاً كثيفا عليهم رجل حازم صارم تأمنه وتثق به، فيأتى مصر حتى يدخلها فإنه سيأتيه من كان من أهلها على رأينا فظاهره على من بها من عدونا فإذا اجتمع بها جندك ومن بها من شيعتك على من بها من أهل حربك رجوت أن يعين الله بنصرك ويظهرك ويظهر فلجك. فقال معاوية فهل عندك سوى هذا؟ فقال لا. فقال معاوية

أرى أن نكتب إلى من هم من أهل صلحنا وعلى مثل رأينا فنثبتهم ونقويهم ونمنيهم مجيئنا إليهم. وإلى أهل عداوتنا فندعوهم إلى صلحنا ونمنيهم شكرنا ونخوفهم حربنا. فإن صلح لنا قيامهم بغير قتال فذاك ما أحببنا وإلا كان حربهم من وراء ذلك كله. إنك يا بن العاص امرؤ بورك لك فى العجلة وأنا أمرؤ بورك لى فى التؤدة.

فقال: افعل ما رأيت فإنى أرى والله أن أمرك وأمرهم يصير إلى الحرب العوان.

فكتب معاوية إلى مسلمة بن مخلد الأنصارى وإلى معاوية بن حديج الكندى وكانا قد خالفا عليًا: «أما بعد فإن الله قد بعثكما لأمرعظيم به أجركما ورفع به ذكركما وزينكما به فى المسلمين طلبكما بدم الخليفة المظلوم وغضبكما لله إذ ترك حكم الكتاب وجاهدتما أهل البغى والعدوان، فأبشرا برضوان الله وعاجل نصر أولياء الله والمواساة لكما فى الدنيا وسلطاننا حتى ينتهى فى ذلك ما يرضيكما ونؤدى به حقكما إلى مايصير أمركما إليه فاصبرا وصابرا عدوكما وادعوا المدبر إلى هداكما وحفظكما فكأن الجيش قد أطل عليكما فانقشع كل ما تكرهان وكان كل ما تهويان والسلام عليكما».

فلما جاء الكتاب، كتب إليه مسلمة عن نفسه وعن معاوية بن حديج «أما بعد فإن هذا الأمر الذى بذلنا له أنفسنا واتبعنا أمر الله فيه أمر نرجو به ثواب ربنا والنصر ممن خالفنا وتعجيل النقمة لمن سعى على إمامنا وطأطأ الركض فى جهادنا ونحن بهذا الحيز من الأرض قد نفينا من كان به من أهل البغى وأنهضنا من كان به من أهل القسط والعدل. وقد ذكرت المواساة فى سلطانك ودنياك وبالله ما ذلك الأمر الذى له نهضنا ولا إياه أردنا فإن يجمع الله لنا ما نطلب ويؤتنا ما تمنينا فإن الدنيا والآخرة لله رب العالمين وقد يؤتيهما الله معا عالما من خلقه كما قال فى كتابه ولا خلف لموعوده ﴿فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين﴾ عجل علينا خيلك ورجلك فإن عدونا قد كان علينا حربا وكنا فيهم قليلا فقد أصبحوا لنا هائبين وأصبحنا لهم مقرنين فإن يؤتنا الله بمدد من قبلك يفتح الله عليكم، ولا حول ولا قوة إلا بالله وحسبنا الله ونعم الوكيل. والسلام عليكم».

جاء هذا الكتـاب إلى معاوية فقـال لعمرو تجهز يـا أبا عبد الله وبعثـة فى ستة آلاف، وأوصاه بالأعذار إلى المخـالفين والتأنى والرفق والقبول ممن أقبل والـعفو عمن أدبر وأن لا يبطش بمكـابر إلا بعد الإعذار إليـه. فلما كـان عمرو بأدنى أرض مـصر اجتمعت إليه العثمانية وكتب عمرو إلى محمد بن أبى بكر.

«أما بعد فتنح عنى بدمك يا ابن أبى بكر: فإنى لا أحب أن يصيبك منى ظفر. إن الناس بهذه البـلاد قد اجتمعـوا على خلافك ورفض أمرك وندمـوا على اتباعك. فهم مسلموك لو قد التقت حلقتا البطان فاخرج منها فإنى لك من الناصحين.

وأرسل إليه معه بكتـاب كان معاوية كتبه إلى محمـد بن أبى بكر صورته «أما بعد فإن غب البـغى والظلم عظيم الوبال وإن سفك الدم الحرام لا يسلـم صاحبه من النقمة فى الدنيـا، ومن التبعة الموبقة فى الآخرة. وإنا لا نعـلم أحدًا كان أعظم على عثمـان بغيًا ولا أسوأ له عيـبًا ولا أشد عليه خـلافا منك: سعيت عليـه فى الساعين وسفكت دمه فى الســافكين ثم أنت تظن أنى عنك نائم أو ناس لك حتى تـأتى فتأمّر علـى بلاد أنت فـيـهـا جـارى وجل أهلهـا أنصـارى يـرون رأيى ويرقـبـون قـولى ويستصرخوننى عليك. وقد بعث إليك قومًا عـناقاً عليك يستسقون دمك يتقربون إلى الله بجهادك وقد أعطوا الله عـهدًا ليمثلن بك ولو لم يكن منهم إليـك سوى قتلك ما حذرتك ولا أنذرتك ولأحببت أن يقتلوك بظلمك وقـطيعتك وعدوك على عثمان يوم يطعن بمشاقصك بين خشمائـه وأوداجة. ولكن أكره أن يمثل بقرشى ولن يسلمك الله من القصاص أبدًا أينما كنت والسلام».

فلما جاء إلى محمد كتابهما أرسلهـما إلى على وكتب معهما «أما بعد فإن ابن العاص قد نزل أدانى مـصر»، واجتمع إليه أهل البلد جلهـم ممن كان يرى رأيهم وقد جاء فى جـيش لجب حراب. وقـد رأيت ممن قبلى بعـض الفشل، فإن كـان لك فى أرض مصر حاجةفـأمدنى بالرجال والأموال والسلام» فكتب إليه علـى يهون عليه أمر ابن العاص وأن خـروج من خرج إليه إنما هو فى مـصلحته. وأمـره أن لا يفشل وإن

فشل من قبلـه وأن يحصن القرية ويضم إليه شيـعته ويقاتلهم بجـهده، ووعده أمداده بالرجال سريعا. ونال من معاوية وعمرو ما شاء أن ينال وأمره أن يجيبهما عن كتابهما إن كان لم يحبهما وأن يندب إليه كنانة بن بشر.

أما محمد بن أبى بكر فكتب إلى معاوية «أما بعد فقد أتانى كتابك تذكرني من أمر عثمان أمـراً لا أعتذر إليك منه وتأمرنى التنحى عنك كـأنك لى ناصح وتخوفنى المثلة كأنك شـفيق وأنا أرجو أن تكون لى الدائرة عـليكم فأجتاحكم فـى الوقعة وأن تؤتوا النصـر ويكن لكم الأمر فى الـدنيا فكم لعـمرى من ظالم قد نـصرتم وكم من مؤمن قـد قتلتم ومثلتـم به وإلى الله مصيركـم ومصيرهم وإلى الله مـرد الأمور وهو أرحم الراحمين وهو المستعان على ما تصفون» وكتب إلى عمرو بن العاص: «زعمت أنك تكره أن يصيبنى منك ظفر وأشهد أنك من المبطلين وتزعم أنك لى نصيح وأقسم أنك عندي ظنين. وتـزعم أن أهل البلد قد رفضـوا رأيى وأمرى وندموا علـى اتباعى فأولئـك لك وللشيطـان الرجيم أوليـاء . . .» وقام محـمد بن أبى بـكر فى الناس يستجـيشهم ويؤلبـهم ويبعث فيهم الحـماسة ويهزهم بالـقول. فنفر منهم ألفـان معه ومثلهم مع كنانة بن بشر واستقبل عمرو بن العاص ومن معه وتقدم إليه كنانة بن بشر وكان عمرو قد سـرح جيشه كتائب فصار كنانة يضـرب فى هذه الكتائب ويردها إلى عمـرو حتى قرب منه فـاستدعى مـعاوية بن حديج الـسكونى فجاءه فى مـثل الدهم فأحاطوا بكنانة بن بشر ومن معه وعطفت عليـه أهل الشام فقاتلهم ابن بشر ومن معه حتى قتل. ثم جاء عمرو إلى محمد بن أبى بكر وقد تفرق عنه أكثر من معه لما بلغهم ما حل بابن بشر ومن معه واستمروا فى التفرق حتى لم يبق معه أحد فخرج يمشى فى الطريق حـتى انتهى إلى خـربة فدخل فيـها ودل عليه بـعض القبط وهم لا يعـرفونه فدخل عليه معـاوية بن حديج فى أصحابه فأخرجوه وقد كاد يمـوت عطشا وقام عبد الرحمن بن أبى بكر وقال أتقتلون أخى فأرسل عمرو إلى معاوية بن حديج أن يأتى به إلى الفسطاط حـيا. فقال أكذلك قتـلتم كنانه بن بشر وأبقى أنا محـمد بن أبى بكر؟

أكفاركـم خير من أولئكم؟ فطلب محمد أن يسقـوه فقال لا سقاه الله شـربة ماء أن سقاك قطرة مـاء منعتم عثمـان الماء وقتلتموه صائمـاً محرماً حتى تلقـاه الله بالرحيق المحتوم، والله لأقتلنك يـا ابن أبى بكر ويسقيك الله الحميم والغسـاق ونال كل منهما من الآخر وانتهى الأمر بأن قـتله وأدخله جيفة حمار ثم أحرقـه. ولما بلغ ذلك عائشة جزعت عليه وقنتت على معاوية وعمرو دبر كل صلاة وضمت عيال محمد إليها.

أما على فلم يوفق لإخراج الجنود لإغاثة محمد بن أبى بكر إلا بعد شدة. وقد انتدب له ألفان ولم يسيروا قليلا حتى جاء الخبر بقتل محمد بن أبى بكر ووقوع مصر فى يد معاوية. فأرسل إلى القوم من ردهم من الطريق وحزن على محمد بن أبى بكر حزنًا كثيـرا. ولم يجد عليا ما صاغ من الخطب وصنف من القـول فى الاستنهاض. وقد سر معاوية وأهل الشام بما كان سرورا عظيما.

كانت مصر لمعـاوية قوة كبيرة ولم يقنع بالاسـتيلاء عليها، بل عمـد إلى تجهيز الجيوش إلى أطراف على ينتقصها: فأرسل النعمان بن بشير إلى عين التمر وبها مالك ابن كعب مسلحـة لعلى ففزع إلى على يستـمده لكفاح المغيرين فأمـر الناس باللحاق واستنهضهم فتثـاقلوا فقام على فيهم بهذه الخطبة (يا أهل الكوفة كلـما سمعتم بمنسر من مناسر أهل الشام أظلكم انجحر كل أمرئ منـكم فى بيته وأغلق بابه انجحار الضبع فى وجارها. المغرور من غررتموه. ولمن فاز منكم فاز بالسهم الأخيب. لا أحرار عند النداء ولا إخوان ثقة عند النجا. إنا لله وإنا إليـه راجعون. ماذا منيت بكم. عمى لا تبصرون وبكم لا تنطقون صم لا تسمعون إنا لله وإنا إليه راجعون.

وقد وجـه معـاوية أيضًا سـفيان بـن عوف فى سـتة آلاف للإغارة عـلى هيت والأنبار والمدائن فسار حـتى أتى هيت فلم يجد بها أحدًا ثم أتى الأنبـار وبها مسلحة لعلى فغلبهم على أمرهم واحتملوا ما بها من الأموال وعادوا إلى معاوية.

ووجه عبد الله بن مسعدة إلى تيماء وأمره أن يصدق من مر به من أهل البوادى وأن يقتل من امتنع ثم يأتى مكة والمدينة. فوجه إليه على جيشًا يقدمه المسيب بن نجية

الفزارى فلقى ابن مسعدة بتيماء فاقتتلوا قتالا شديدًا وانتهى الأمر بأن سهل لهم المسيب طريق الفرار ولم يلحقهم فاتهم بالغش.

ووجه معاوية الضحاك بن قيس للإغارة على بوادى البصرة فأغار عليها.

ووجه بسر بن أبى أرطأة فى ثلاثة آلاف إلى الحجاز واليمن فسار حتى أتى المدينة وملكها وبايع أهلها لمعاوية ثم أتى مكة فبايع أهلها كذلك، ثم قدم حتى أتى اليمن وعليها عبيد الله بن عباس واليًا لعلى. فلما علم بمقدم بسر بن أرطاة فر إلى الكوفة واستخلف على صنعاء فجاء بسر وقتل ابنين صغيرين لعبيد الله بن عباس قالوا: إنه ذبحهما وقد جنت أمهما لمصابهما وهوله ورئيت وهى بالأسواق تنشدها وتقول

يا من أحس بابنى اللذين هما كدرّتين تشظى عنهما الصدفُ

وكان بُسر مسرفًا فى القتل لشيعة على، سفاكا للدماء، فقد قتل كثيرًا من المسلمين فى وجهه هذا وهدم دورًا كثيرة فى مكة والمدينة وقد وجه إليه علىّ جارية بن قدامة فى ألفين ووهب بن مسعود فى ألفين فخاف منهما وهرب حتى أتى بمكة وقد قتل على فى تلك الأثناء وحملهم جارية بن قدامة على بيعة الحسن وكذلك أهل المدينة.

على هذا النمط كانت الأحوال: معاوية يتسق له الأمر ويضخم ملكه ويزداد قوة إلى قوته وتؤاتيه الأقدار ويرافقه التوفيق، وعلى تضطرب عليه الأحوال وتتعذر السبل وتنتقص أطرافه وتقتل شيعته وأهل طاعته وتلتوى عليه الأمور حتى أن أكثر المؤرخين يذكرون أن عبد الله بن عباس قد فارق عليًا إلى مكة. لأن عليًا سمع فيه الوشايات وقبل عليه السعايات من الساعين إليه بأنه احتجن الأموال دونه وخان فى بيت المال. وقد روى الطبرى أن الساعى بذلك أبو الأسود الدؤلى وكان ابن عباس عابه فأصغى على إلى قوله، فاحتمل ابن عباس ثقله وما كان معه من مال ولحق بمكة فى جوار أخواله من بنى هلال. وذلك تقدير العزيز العليم.

جواب سؤال

يعتلج نفسى سؤال كلما استعرضت الأحوال التى كانت فى أخريات زمان عثمان وفى مدة على وما بعدها وهو: لم اختص المصرين البصرة والكوفة بقيام الخوارج دون الشام ومصر. ولم كان أهلوها بهذه الأخلاق من النزوع عن الطاعة والخلاف لأمر الإمام؟

هذا السؤال مهم جداً وجوابه أهم ويحتاج إلى الإفاضة والشرح فى البحث والتنقيب عن غوامض كثيرة وربط الأسباب بمسبباتها. غير أنى أجتزئ بأن أقول كلمة موجزة تكون بمنزلة الإشارة، وأعتمد على ذهن القارئ فى الإكفاء بهذا الإجمال.

يقول علماء الأخلاق وأهل البصر بعلم الاجتماع : إن ماضى الأمة لا يموت أبداً ولكنه يكون حيا فيها وفى أعقابها، وإن الروح العامة للأحياء من الأمة إنما هى مؤلفة من أفكار الأموات. ومعلوم أن المسلمين قد غلبوا الفرس واحتووا أموالهم ونساءهم وذراريهم، واتخذوا النساء الفارسيات زوجات وأولدوهن أكثر أولادهم فى تلك النواحى. فنشأت نابته تلك الأقطار بين آباء وأمهات من جنسين متباينين فى المدنية والأخلاق والآداب والعادات والمعتقدات ومن دمين مختلفين يحمل كل منهما صفات متنافرة وعقائد متضاربة. ومثل هذا النسل تتفكك فيه أواصر الروح الوراثى وتوجد فيه أفكار متناقضة كل منها يجذب قواه إلى ناحيته. ومعلوم أن الفرس قد اعتنقوا أدياناً مختلفة واصطبغوا بصبغات متنافرة فهم قوم يجمعون بين الصابئية والمجوسية والإباحية. ولهم ولوع باختلاف الأساليب الدينية يمثلها خيالهم ولم يكن لهم ثبات على دين خاص أو نحلة معينة بل كانوا فى جميع أدوار حياتهم متأثرين بعوامل الجذب والدفع بين النحل والأديان. فلما نشأ هذا الجيل المولد بين العرب والفرس نشأ مختلط المزاج سريع التأثر بالعقائد. يلبس لباس الدين والتقوى التى ورثها من الآباء ولكنه يريد أن يجذب هذا اللباس ويوسع فيه حتى يحيط بكل ما انتقل إليه بطريق الوراثة من الأهواء المضلة التى يعجز عن التخلى عنها ولا يقدر على

مفارقتها. وليس الدين عنده دينًا إن لم يتسع له ولما حمله بالوراثة من النزعات والنزغات وليس فى وسعه أن يقاوم تلك العوامل الداخلية التى تدفعه إلى العمل على هذا النحو فهو يأتى ما يأتى باعتقاد قوى وفكرة لا شك فيها أنه على حق ليس وراءه إلا الضلال وعلى ذلك يكون مزاجه العقلى والأخلاقى وآدابه التى يأخذ نفسه بها مزيجًا مركبًا من عناصر شتى.

ولهذا يقول علماء الاجتماع: إن الشعب الصحيح لا وجود له إلا عند القوم الأولين. وأما الأمم المتحضرة فإن كثرة اختلاط التناسل ووحدة البيئة ولدت منها شعوبا تاريخية جديدة تشبه الشعوب الصحيحة. وإن صفات الشعب النفسية ثابتة ثبات صفاته الجسمانية وتنتقل بالوراثة على قاعدة واحدة وبالاستمرار. وإن المولد رجل تتجاذبه مؤثرات مختلفة من الوراثة والذكاء والآداب والأخلاق.

فإذا كانت أمة كلها أو جلها على هذا النحو من التناسل بين أبوين مختلفين كل الاختلاف على هذا النحو الذى ذكرنا كان قيادها صعبًا وإن البيئة إذا كانت بهذا الوصف أثرت بطريق العدوى فى من لم يكن مولدًا واندمج كثير بحكم التقاليد وتغلب روح الجماعة فى ذلك المزاج المختلط فتنعدم شخصيته ويكون متأثرًا بالروح العام للجماعة التى هو فيها.

وقد قال غوستاف لوبون «أمة أهلها كلهم مولد لا تساس» فليس عجيبًا أن تعتاص على علىّ سياسة هؤلاء القوم وأن ينزع منهم نازع فى كل يوم إلى الخوارج وانتحال نحلة جديدة وتأويل الدين على مقتضى ما يجول بخواطرهم لأنهم مدفوعون إلى هذا الضرب بعوامل الوراثة التى فيهم.

أما أهل الشام فلم يكونوا كذلك لأنهم لم يكونوا يستكثرون من إيلاد السبايا من جهة، ومن جهة أخرى فإن الروميات متدينات بالدين المسيحى وهو دين يأمر بالخير وينهى عن الشر وأهل تلك الناحية قد بعد عهدهم بالوثنية ولم ينقلبوا فى الأهواء والبدع تقلب الفرس. فكان المزاج الدينى للأمهات قريبًا من مزاج الآباء فلم

يكن التباين كثيرًا من هذه الناحية فكانوا أبعد من البدع التى تختلق في العراق.

مقتل على بن أبى طالب

كان الخوارج يرون فى على بن أبى طالب عدوًا لدودًا وخصمًا خصيما. فاجتمع منهم عبد الرحمن بن ملجم المرادى والبرك بن عبد الله وعمرو بن بكر التميمى فتذاكروا أمر للناس وعابوا ولاتهم ثم ذكروا أهل النهر فترحموا عليهم وقالوا ما تصنع بالبقاء بعدهم شيئًا إخوانا الذين كانوا دعاة الناس لعبادة ربهم والذين كانوا لا يخافون فى الله لومة لائم، فلو شرينا أنفسنا فأتينا أئمة الضلالة فالتمسنا قتلهم فأرحنا منهم البلاد وثأرنا بهم إخواننا فقال ابن ملجم: أنا أكفيكم على بن أبى طالب وكان من أهل مصر. وقال البرك بن عبد الله: أنا أكفيكم معاوية بن أبى سفيان. وقال عمرو بن أبى بكر أنا أكفيكم عمرو بن العاص. فتعاهدوا وتواثقوا بالله لا ينكص رجل منهم عن صاحبه حتى يقتله أو يموت دونه. فأخذوا أسيافهم فسموها واتعدوا لسبع عشر تخلو من رمضان أن يثب كل واحد منهم على صاحبه الذى توجه إليه. وأقبل كل واحد منهم إلى المصر الذى فيه صاحبه الذى يطلب.

فأما ابن ملجم فكان عداده فى كندة فخرج فلقى أصحابه بالكوفة وكاتمهم أمره كراهة أن يظهروا شيئًا من أمره فرأى ذات يوم أصحابنا من تيم الرباب وكان على قتل منهم يوم النهر عشرة فذكروا قتالهم. ورأى من يومه ذلك امرأة من تيم الرباب يقال لها قطام ابنة الشجنة وقد قتل على أباها وأخاها يوم النهر وكانت فائقة الجمال فلما رآها التبست بعقله ونسى حاجته التى جاء لها ثم خطبها. فقالت لا أتزوج حتى تشفى لى. فقال وما يشفيك قالت: ثلاثة آلاف وعبد وقينة وقتل على بن أبى طالب. فقال: هو مهر لك، أما قتل على فلا أراك ذكرته لى وأنت تريدينى. قالت: بلى، التمس غرته فإن أصبت شفيت نفسك ونفسى « ويهنئك العيش معى وإن قتلت فما عند الله خير من الدنيا وزينتها وزينة أهلها. قال: فوالله ما جاء بى إلى هذا المصر إلا قتل على، فلك ما سألت. قالت: إنى أطلب لك من يسند ظهرك ويساعدك على

أمرك. فبعثت إلـى رجل من قومها يقال له وردان فكلمته فـأجابها. وأتى ابن ملجم رجلا من أشجع يقـال له شبيب بن بجرة فقال له هل لك فـي شرف الدنيا والأخرة؟ قال ومـا ذاك؟ قال قتل عـلى بن أبى طالب قال ثـكلتك أمك لقـد جئت شيـئا إدا، فكيف تقدر على على؟ قال أكمن له في المسجـد فإذا خرج لصلاة الغداة شددنا عليه فقتلناه فإن نجونـا شفينا أنفسنا وأدركنا ثأرنا وإن قتلنا فما عنـد الله خير من الدنيا وما فيهـا. قال ويحك لو كان غيـر على لكان أهون على، قد عـرفت بلاءه في الإسلام وسابقته مع النبى ﷺ وما أجدنى أنشرح لقتله. قال أما تعلم أنه قتل أهل النهر العباد الصالحين؟ قال بلى. قـال فنقتله بمن قتل من إخواننا. فأجـابه فجاءوا قطام وهى فى المسجد الأعظم مـعتكفة فقالوا لـها قد أجمع رأينا على قتـل على. فقالت إذا أردتم ذلك فأتونى. ثم عـاد إليها ابن ملجم فى لـيلة الجمعة التى قـتل فى صبيحتـها على فقال: هذه الليلة التى واعـدت فيها صاحبى أن يقتل كل واحد منـا صاحبه. فدعت لهم بالحرير فعصبتهم به وأخذوا أسيافـهم وجلسوا مقابل السدة التى يخرج منها على فلما خرج ضربه شبيب بالسيف فوقع سـيفه بعضادة الباب وضربه ابن ملجم فى قرنه بالسيف وهرب وردان.

فأما وردان فقد جاء منزله وأخبر رجلا من قومه الخبر فقتله الرجل. وأما شبيب فدخل غمار الناس ونجا. وأما ابن ملجم فشدوا عليه فأخذوه.

وأما علـى بن أبى طالب فتـأخر وقال: لا يفـوتكم الرجل. وأدخل علـيه ابن ملجم فقال له: أى عدو الله ألم أحسن إليك؟ قـال بلى. قال فما حملك على هذا؟ قال: شحذته أربعين صباحًا وسـألت الله أن يقتل به شر خلقه . فقال على: لا أراك إلا مقتولا، ولا أراك إلا من شر خلقه.

وكان ابن ملجم حين ضرب عليًـا بالسيف قال: الحكم لله يا على، لا لك ولا لأصحابك وقد قال على بعد ضربه: النفس بالنفس إن أنا مت فاقتلوه كما قتلنى وإن بقيت رأيت فيه رأيى. وقالت أم كـلثوم بنت على وهى تبكى: أى عدو الله، لا بأس

على أبى، والله مخزيك. قال فعلى من تبكين؟ والله لقد اشتريته بألف وسممته بألف ولو كانت هذه الضربة على جميع أهل المصر ما بقى منهم أحد.

ودخل جندب بن عبد الله على على فقال: يا أمير المؤمنين إن فقدناك ولا نفقدك فنبايع الحسن؟ قال ما آمركم ولا أنهاكم أنتم أبصر. فرد عليه مثلها. فدعا حسنًا وحسينًا فقال: أوصيكما بتقوى الله وألا تبغيا الدنيا وإن بغتكما، ولا تبكيا على شئ زوى عنكما، وقولا الحق وارحما اليتيم وأغيثا الملهوف واصنعا للأخرة وكونا للظالم خصما وللمظلوم ناصراً. اعملا بما في الكتاب ولا تأخذكما فى الله لومة لائم. ثم نظر إلى محمد بن الحنفية فقال: هل حفظت ما أوصيت به أخويك؟ قال: نعم فقال إنى أوصيك بمثله وأوصيك بتوقير أخويك لعظيم حقهما عليك فاتبع أمرهما ولا تقطع أمرًا دونهما. ومازال يوصيهم بمحاسن الأخلاق والتقوى، ومازال يقول لا إله إلا الله حتى قبض صبيحة يوم الأحد ١٧ رمضان سنة ٤٠. وكان قد نهاهم عن المثلة وقال: يا بنى عبد المطلب، لا ألفينكم تخوضون دماء المسلمين تقولون قتل أمير المؤمنين قتل أمير المؤمنين، ألا لا يقتلن إلا قاتلى. انظر يا حسن إن أنامت من ضربته هذه فاضربه بضربة ولا تمثل بالرجل فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: إياكم والمثلة ولو أنها بالكلب العقور. فلما قبض بعث الحسن إلى ابن ملجم. قال للحسن هل لك فى خصلة إنى والله ما أعطيت الله عهدًا إلا وفيت به. إنى قد كنت أعطيت الله عهدًا عند الحطيم أن أقتل عليًا ومعاوية أو أموت دونهما. فإن شئت خليت بينى وبينه ولك الله على إن لم أقتله أو قتلته ثم بقيت أن آتيك حتى أضع يدى فى يدك. فقال الحسن: أما والله حتى تعاين النار فلا. ثم قدمه فقتله وأخذه الناس فأدرجوه فى بوارى ثم أحرقوه بالنار.

وأما البرك فإنه قعد لمعاوية فى الليلة التى ضرب فيها على، فلما خرج ليصلى الصبح شد عليه بسيفه فوقع فى إليته ولم يقتله، فأخذ. فقال لمعاوية: عندى خبر أسرك به فإن أخبرتك به أنافعى ذلك عندك؟ قال: نعم. قال: إن أخًا لى قتل عليًا

فى مثل هذه الليلة. قال: فلعله لم يقدر على ذلك؟ قال: بلى، إن عليًا يخرج وليس معه حرس. فأمر به فقتل. وأرسل معاوية إلى الساعدى وكان طبيبًا فقال: إن ضربتك مسمومة فإما أن أحمى حديدة فأضعها موضع السيف طبيبًا فقال: إن ضربتك مسمومة فإما أن أحمي حديدة فأضعها موضع السيف وإما أن أسقيك شربة تقطع عنك الولد وتبرأ منها. فقال: أما النار فلا صبر لى عليها، وأما الولد فإن فى يزيد وعبد الله ما تقر به عينى فسقاه تلك الشربة وبرأ ولم يولد له بعدها. وأمر معاوية باتخاذ المقصورات وحرس الليل والشرط تقوم على رأسه إذا سجد.

وأما عمرو بن بكر فجلس لعمرو بن العاص فى تلك الليلة وكان اشتكى من مغس أصاب بطنه فلم يخرج وكان خارجة بن حذافة صاحب شرطته فأمره أن يصلى بالناس فشد عليه وهو يرى أنه عمرو فضربه فقتله. فأخذه الناس وانطلقوا به إلى عمرو يسلمون عليه بالأمرة. فقال من هذا؟ قالوا: عمرو. قال: فمن قتلت؟ قالوا: خارجة بن حذافة. قال: أما والله يا فاسق ماظننته غيرك. فقال عمرو: أردتنى وأراد الله خارجة. وقدمه فقتله.

وبلغ معاوية ما كان بمصر فكتب إلى عمرو:

وقتل وأسباب المنايا كثيرة ... منية شيخ من لؤى بن غالب
فيا عمرو مهلا إنما أنت عمه ... وصاحبه دون الرجال الأقارب
نجوت وقد بل المرادى سيفه ... من ابن أبى شيخ الأباطح طالب
ويضربنى بالسيف آخر مثله ... فكانت علينا تلك ضربة لازب

ولما انتهى إلى عائشة قتل على تمثلت :

فألقت عصاها واستقر بها النوى ... كما قر عينا بالأياب المسافر

ثم قالت: من قتله؟ فقيل: رجل من مراد، فقالت:

فأن يك نائيا فلقد نعاه		غلام ليس فى فيه تراب

فالت زينب بنت أبى سلمة: ألعلى تقولين هذا؟ فقالت: إنى أنسى فإذا نسيب فذكرونى.

وقد قال ابن أبى مياس المرودى فى قتل علي:

ولم أر مهرا ساقه ذو سماحة		كمهر قطام من فصيح وأعجم
ثلاثة آلاف وعبد وقنية		وضرب علي بالحسام المسمم
فلا مهر أغلى من علي وإن غلا		ولا قتل إلا دون قتل ابن ملجم

وقد رثاه أبو الأسود الدؤلي بقوله:

ألا بلغ معاوية بن حرب		فلا قرت عيون الشامتينا
أفي شهر الصيام فجعتمونا		بخير الناس طراً أجمعينا

فى أبيات غيرهذه. ومعلوم أن مخاطبة معاوية بهذه الكلمة أمر فى غير محله، لأنه لا ذنب له في ذلك، وإنما قتله الخوارج، وقد استوفى معاوية حصته من المؤامرة.

وقد كان على قد بلغ من العمر ثلاثًا وستين سنة وكانت خلافته خمس سنين إلا ثلاثة أشهر.

وقد روى الطبرى بسنده إلى خالد بن جابر قال: سمعت الحسن يقول - لما قتل على عليه السلام - وقد قام خطيبا «لقد قتلتم الليلة رجلا فى ليلة نزل فيها القرآن وفيها رفع عيسى ابن مريم عليه السلام وفيها قتل يوشع بن نون فتى موسى عليه السلام. والله ما سبقه أحد كان قبله ولا يدركه أحد يكون بعده والله إن كان رسول الله ﷺ ليبعثه فى السرية وجبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره والله ما ترك صفراء ولا بيضاء إلا ثمانمائة أو سبعمائة أرصدها لخادمه» ومعلوم أن يوشع لم يقتل، وأما كون عيسى رفع فى مثل تلك الليلة فلم أقف عليه.

وإنى هنا أتعجل بكلمة صغيرة هي: أننا إذا نظرنا إلى على من جانب الدين وحب الحق والزهد فى الدنيا والإعراض عن زخارفها وزينتها وجدناه يمشى فى صف أبى بكر وعمر لا يتخلف عنهما قيد خطوة. وإذا نظرنا إليه من جهة الفقه فى أحكام الدين والعلم بجزئيات فروع الشريعة وجدناه يسبقهما أما من حيث تدبير الملك وسياسة الرعية ومقاربة العامة والتنبة لدقائق السياسة والأخذ على شكائم القوم والأحاطة بأحوالهم. فإنه يتأخر عن الرجلين فى هذا المقام. مع سعة درايته وقوة عارضته لأن الأقوال فى السياسة وحسن الملكة والإعراب عن دقائق ذلك شئ، وإفاضة ذلك على الرعية وبسط النفوذ على الكافة وإخضاعهم للإرادة شئ آخر. وقد يمر بنا شئ من ذلك ومن عدم نجاحه فى جمع كلمة الأمة والسر فى ذلك سوء الأحوال التى تولى فيها.

وعندى أن الوقت لو صفا لعلى رضى الله عنه وواتته المقادير باستتباب الراحة واجتماع الكلمة، لأذاق الأمة حلاوة العدل وحملهم على الجادة وسار بهم فى طريق الفتوح وبسط نفوذ الإسلام وإعزاز كلمته بما لم يدع مقالا لقائل ولله فى خلقه شئون.

ويكفى من ينظر فى أمر على أنه لم يوجد عنده من المال سوى سبعمائة درهم كان أرصدها لشراء خادم له لم يكن عنده سواها وفى رعيته من يملك عشرات الألاف ومئات الآلاف. ولم يكن مترفهًا فى معيشته ولا متوسعًا كما كان معاوية أو عثمان بل كان من طراز أبى بكر وعمر.

بيـــت على

تزوج على بن أبى طالب:

(١) فاطمة بنت رسول الله ﷺ وهى أول زوجاته ولم يتزوج عليها حتى توفيت عنده. وكان له منها الحسن والحسين وزينب الكبرى وأم كلثوم الكبرى وهى زوج عمر بن الخطاب.

(٢) أم البنين بنت حزام من بنى عامر بن كلاب، فولدت له العباس وجعفر وعبد الله وعثمان.

(٣) ليلى بنت مسعود التميمية، فولدت له عبيد الله وأبا بكر.

(٤) أسماء بنت عميس الخثعمية، فولدت له يحيى ومحمداً الأصغر.

(٥) الصهباء بنت ربيعة من بنى جشم بن بكر وهى أم ولد من سبى تغلب ولدت له عمر ورقية.

(٦) أمامة بنت أبى العاص بن الربيع وأمها زينب بنت رسول الله ﷺ، فولدت له محمداً الأوسط.

(٧) خولة بنت جعفر الحنفية، فولدت له محمداً الشهير بابن الحنفية.

(٨) أم سعيد بنت عروة بن مسعود، فولدت له أم الحسين ورملة الكبرى.

(٩) محياة بنت امرئ القيس الكلبية، ولدت له جارية ماتت صغيرة.

وكان له بنات منهن: أم هانئ، وميمونة، وزينب الصغرى، ورملة الصغرى وأم كلثوم الصغرى، وفاطمة، وأمامة، وخديجة، وأم الكرام، وأم سلمة، وأم جعفر، وجمانة، ونفيسة أمهاتهن أمهات أولاد شتى. وكان النسل من ولده الخمسة: الحسن، والحسين، ومحمد بن الحنيفة، والعباس، وعمر.

صفة على وأخلاقه

هنا أترك الكلام لصديقى المرحوم الخضرى بك يقول كلمة فى ذلك: يخطر ببال من فحص عن تاريخ الخلفاء الراشدين وعلم تفاصيل أحوالهم هذا السؤال. كيف دانت قريش لشيخين، أولهما من بنى تيم بن كعب والثانى من بنى عدى وخضعت لهم الخضوع التام، فصار القوم بقلب واحد فى سبيل نصرة الإسلام وعلو شأنه حتى إذا آلت لبنى عبد مناف ووليها اثنان منهم نغصت على أولهما حياته فى آخر عمره،

لم يصف الأمر لثانيهما في جميع حياته، بل كانت مدة حياته اختلاف وفرقة مع ما هو معلوم من قرب بنى عبد مناف للرسول ﷺ فهم عشيرته الأدنون وسادة قريش في جاهليتهم كما سادوا عليهم فى الإسلام ذلك إلى ما امتاز به ثانيهما من المميزات الكبرى التى لم تجتمع فى غيره؟ لابد لذلك من أسباب. أما ما كان من أمر عثمان فقد بينا أسبابه فيما مضى، وأما أمر على فإنا سنجيب عنه الآن ببيان ما كان من خلق على وما كان من الأحوال التى أحاطت به.

كان على ممتازًا بخصال قلما اجتمعت لغيره، وهى:

الشجاعة - الفقة - الفصاحة.

فأما الشجاعة فقد كان محله منها لا يجهل . وقف المواقف المعهودة وخاض غمرات الموت لا يبالى أوقع على الموت أم وقع الموت عليه؟ وأول ما عرف من شجاعته موضع رسول الله ﷺ ليلة الهجرة وهو يعلم أن قومًا يترصدون حتى إذا خرج يقتلونه، فلم يكن ذلك مما يضعف قلبه أو يؤثر فى نفسه. ثم فى بدر وما بعدها من المشاهد كان علمًا لا يخفى مكانه، يبارز الأقران فلا يقفون له، ويفرق الجماعات بشدة هجماته وقد أتاه الله من قوة العضل وثبات الجنان القسط الأوفر. أغمد سيفه مدة أربع وعشرين سنة حتى إذا جاءت خلافته جرده على مخالفيه ففعل به الأفاعيل، وكان الناس يهابون مواقفته ويخشون مبارزته لما يعلمون من شدة صولته وقوة ضربته.

وأما الفقه فلم يكن مقامه فيه بالمجهول صحب رسول الله ﷺ منذ صباه وأخذ عنه القرآن، وكان يكتب له مع ما أوتيه من ذكاء بنى عبد مناف ثم بنى هاشم، ولم يزل معه إلى أن توفى عليه السلام كل هذا أكسبه قوة فى استنباط الأحكام الدينية فكان الخلفاء أبو بكر وعمر وعثمان يستشيرونه فى الأحكام ويرجعون إلى رأيه إذا خالفهم فى بعض الأحيان، وأكثر من عرف ذلك عنه عمر بن الخطاب.

وأما الفصاحة فيعرف مقداره فيها من خطبة ومكاتباته التى جمع منها السيد الرضى جملة عظيمة فى الكتاب الموسوم بنهج البلاغة، وقد وصفه شارحه الأستاذ الشيخ محمد عبده بقوله:

كنت كلما انتقلت من موضع منه إلى موضع أحس بتغيير المشاهد وتحول المعاهد فتارة كنت أجدنى فى عالم يعمره من المعانى أرواح عالية فى حلل من العبارات الزاهية تطوف على النفوس الزاكية وتدنو من القلوب الصافية توحى إليها رشادها وتقوم مرادها وتنفر بها عن مداحض المزال إلى جواد الفضل والكمال.

وطوراً كانت تنكشف لى الجمل عن وجوه باسرة وأنياب كاشرة وأرواح فى أشباح النمور ومخالب النسور قد تحفزت للوثاب ثم انقضت للاختلاب، فخلبت القلوب عين هواها وأخذت الخواطر دون مرماها. واغتالت فاسد الأهواء وباطل الأراء. وأحيانًا كنت أشهد أن عقلا نورانيا لا يشبه خلقا جسدانيا، فصل عن الموكب الآلهى واتصل بالروح الإنسانى، فخلعه عن غاشيات الطبيعة وسما به إلى الملكوت الأعلى ونما به إلى مشهد النور الأجلى، وسكن به إلى عمار جانب التقديس بعد استخلاصه من شوائب التلبيس.

وآنات كأنى أسمع خطيب الحكمة ينادى بأعلياء الكلمة وأولياء أمر الأمة يعرفهم مواقع الصواب ويبصرهم مواضع الارتياب ويحذرهم مزالق الاضطراب ويرشدهم إلى دقائق السياسة ويصعدهم شرف التدبير وشرف بهم على حسن المصير وقد جمع الكتاب من الحكمة شيئًا كثيراً.

هذه الصفات العالية مع ما منحه من شرف القرابة للرسول ﷺ ومصاهرته له، جعلته يرى لنفسه فضلا على سائر قريش صغيرها وكبيرها شيخها وفتاها. ويرى بذلك له الحق فى ولاية الأمر دونهم فقد قال: لقد تقمصها فلان وهو يعلم أن محلى منها محل القطب من الرحى ينحدر عنى السيل ولا يرقى إلى الطير. وقال: فوالله مازلت مدفوعا عن حقى مستأثرًا على منذ قبض الله نبيه ﷺ حتى يوم الناس هذا.

وهناك طبيعة فى الناس - أنهم لا يميلون إلى شخص يرى لنفسه التفوق ومزيد الفضل وإنما يقرب إلى قلوبهم من يقول وليت عليكم ولست بخيركم.

إن تلك الأمور التى يراها على لنفسه جعلته يقتنع بأن الحق فيما يراه، وافقه عليه غيره أم خالفه - ومن هذا شأنه لا يلجأ إلى الاستشارة فيما هو صانع - وهذا شئ شديد لا تقبله نفس الكبراء والأشياخ - وروى أنه لما بويع عتب عليه طلحة والزبير من ترك مشورتهما والاستعانة فى الأمور بهما فقال لهما: لقد نقمتما يسيرا وأرجأتما كثيرا. ألا تخبرانى أى شئ لكما فيه حق دفعتكما عنه وأى قسم استأثرت عليكما به. أم أى حق رفعه إلى أحد المسلمين ضعفت عنه أم جهلته أم أخطأت ما به؟ والله ما كانت لى فى الخلافة رغبة ولا فى الولاية أربة ولكنكم دعوتمونى إليها، فلما أفضت إلى نظرت إلى كتاب الله وما وضع لنا وأمرنا بالحكم به فاتبعته وما استسن النبى ﷺ فاقتديته فلم أحتج فى ذلك إلى رأيكما ولا رأى غيركما ولا وقع حكم جهلته أستشيركما وإخوانى المسلمين ولو كان ذلك لم أرغب عنكما ولا عن غيركما وأما ما ذكرتما من أمر الأسوة فإن هذا الأمر لم أحكم فيه أنا برأيى ولا وليته هوى منى بل وجدت أنا وأنتما ما جاء به رسول الله ﷺ قد فرغ منه، احتج إليكما: قد فرغ الله من قسمه وأمضى إلى حكمه، فليس لكما والله عندى ولا لغيركما فى هذا عتبى. أخذ الله بقلوبنا وقلوبكما إلى الحق وألهمنا وإياكم الصبر. وأى نفس تصبر على مثل هذا!»؟.

لما رفعت قضية عبيد الله بن عمر فى قتله الهرمزان إلى عثمان كان من رأى على قتله ولكن عثمان قضى بخلاف رأيه وحكم بالدية والتزمها فى ماله وهو خليفة قضاؤه محترم صوابًا كان أم خطأ فلما آل الأمر إلى على كان يريد قتل عبيد الله بعد أن مضى على القصة تلك المدة الطويلة فلم يكن من عبيد الله إلا أن لحق بمعاوية وكان من قواده العظام بصفين.

كان لعثمان قطائع أقطعها الناس ولم يكن ذلك من رأى على، فقال بعد خلافته: والله لو وجدته قد تزوج به النساء وملك به الإماء لرددته، فإن العدل سعة ومن ضاق عليه العدل فالجور عليه أضيق.

بويع بولاية الأمصار من علية قريش وذوى الرأى والدهاء فيها فأشار عليه مشيروه أن لا يعجل بنزعهم من أمصارهم حتى يتم أمره، فلم يسمع لأحد قولا بل عجل بنزعهم وأظهر سوء الرأى فيهم حتى خيل إليهم أنه لو ملك كانت مصيبة كبرى فناءوه وكانوا عليه يدًا واحدة.

أراد فى هذه الأحوال أن يحمل الناس على مثل حد السيف مع ما سبق لهم من مضادة الخليفة وثقتهم فى أنفسهم أنه لولاهم ما بويع فلم يحتملوا ذلك له حتى قالوا: أرض بالتحكيم وإلا فعلنا بك ما فعلنا بعثمان. ولما ولى ابن عباس على البصرة نظر بعضهم إلى بعض وقالوا فثم ابن العباس على الحجاز وعبيد الله بن العباس على اليمن وعبد الله بن عباس على البصرة ففيم قتلنا ابن عفان؟ وكانت سآمته منهم وسآمتهم منه تزداد كل يوم حتى لم يكن له على أنفسهم سلطان. يدعوهم فلا يجيبون ويستصرخهم فلا يفزعون وجيش خصمه قاده كبراء قريش وعظماؤها فأرهقوهم بالطاعة وملكوا قلوبهم بالرفق فلم يكن لها بين الطائفتين توازن عند الخصومة. كان معاوية يتساهل بعض الشئ لرءوس أجناده ويفيض عليهم العطاء ما يجعل رقابهم خاضعة له وعلى يحاسبهم على النقير والقطمير فى وقت هو محتاج إليهم فيه حتى كان سببًا فى تغيير قلب ابن عباس عليه وفرقته له فترك البصرة وذهب إلى مكة. وليس شأن على فى ذلك شأن عمر فإن عمر كان يشتد على عماله والأمة كلها معه وأما على فكان معظم الأمة عليه فضلا عن أن كثيرًا من التهم كانت تلصق بعماله من قوم يشون بهم كالحال فى قيس بن سعد وعبد الله بن عباس.

وعلى الجملة فإن أكبر الأسباب فى عدم استقامة الأمر لعلى يرجع إلى عقيدته فى نفسه وثقته المتناهية بما يراه واستغنائه عن رأى الأشياخ من قريش وشدته عليهم شدة لم يعد لها ما يهون أمرها وعدم إعطائه الظروف التى كان فيها حقها من السياسة والحال السيئة التى تولى فيها فإنها كانت تفسره على غير ما عرف عنه من الكياسة وسداد السياسة. ا. هـ بيعض التصرف.

مبايعة الحسن بن على

لما قتل على بايع الناس ابنه الحسن بالخلافة. وأول من بايعه قيس بن سعد فقال له: ابسط يدك أبايعك على كتاب الله عز وجل وسنة نبيه، وقتال المحلين . فقال له الحسن رضى الله عنه : على كتاب الله وسنة نبيه ؛وقتال المحلين . فقال له الحسن رضى الله عنه : على كتاب الله وسنة نبيه ؛ فإن ذلك يأتى من وراء كل شرط. فبايعه وسكت وبايعه الناس.

وكان علي رضى الله تعالى عنه قد استطاع بعد الجهد الشديد أن يبايعه أربعون ألفًا على الموت وكان قد جعل قيس بن سعد على مقدمته ووجهته أذربيجان. فلم يزل سعد يدارىء ذلك البعث حتى قتل على. وكان الحسن لا يرى القتال ولكنه يريد أن يأخذ لنفسه ما استطاع من معاوية ثم يدخل فى الجماعة. وعرف أن قيس بن سعد لا يوافقه فعزله. وقيل إنه لم يعزله، ولكن الحسن قد اختلف عليه أهل عسكره وهو بالمدائن وقد نزل معاوية بجنده مسكن وسبب هذا الاختلاف على الحسن أن قائلا فى عسكره قال: إن قيس بن سعد قد قتل فانفروا ونهبوا سرادق الحسن حتى نازعوه بساطا كان تحته، فخرج حتى نزل المقصور البيضاء بالمدائن وكان سعد بن مسعود الثقفي عم المختار بن أبى عبيد عامله عليها. فقال له المختار وهو غلام شاب: هل لك فى الغنى والشرف؟ قال وما ذاك؟ قال: توثق الحسن وتستأمن به إلى معاوية. فقال له عمه: عليك لعنة الله، أثب على ابن بنت رسول الله ﷺ فأوثقه، بئس الرجل أنت.

فلما رأى الحسن تفرق الأمر عنه بعث إلى معاوية يطلب الصلح. وقال للحسين ولعبد الله بن جعفر إنى قد كتبت إلى معاوية فى الصلح وطلب الأمان فقال له الحسين: نشدتك الله أن تصدق أحدوثة معاوية وتكذب أحدوثة على. فقال له الحسن: اسكت فأنا أعلم بالأمر منك فلما انتهى كتاب الحسن إلى معاوية أرسل إليه عبد الله بن عامر وعبد الرحمن بن سمرة فقدما المدائن وأعطيا الحسن ما أراد - فكتب

الحسن إلى قيس بن سعد وهو على مقدمته في أثنى عشر ألفًا يأمره بالدخول فى طاعة معاوية. فقام قيس فى الناس فقال: يا أيها الناس. اختاروا الدخول فى طاعة إمام ضلال، أو القتال مع غير إمام. قالوا لا - بل نختار أن ندخل فى طاعة إمام ضلالة، فبايعوا لمعاوية.

ويظهر لى أن هذه الرواية واهية إذ يبعد على قوم مسلمين أن يقولوا ذلك ولعلهم لم يقولوا ذلك إلا بعد أن استوثق لهم بنفسه. وروى الطبرى أن أهل العراق لما بايعوا الحسن بن على طفق يشترط عليهم أنكم سامعون مطيعون تسالمون من سالمت وتحاربون من حاربت فارتاب أهل العراق فى أمرهم حين اشترط عليهم هذا الشرط. وقالوا: ما هذا لكم بصاحب وما يريد هذا القتال. ثم لم يلبث الحسن حتى طعن طعنة أشوته[1]. فازداد لهم بغضا ومنهم ذعرًا. فكتب إلى معاوية يطلب الصلح، فأرسل إليه معاوية صحيفة بيضاء مختوم على أسفلها، وكتب إليه أن اشترط فى هذه الصحيفة ما شئت فهو لك. فلما جاءت الصحيفة إلى الحسن أضعف الشروط التى كتب بها إلى معاوية أولا وهى خسمة ملايين درهم كانت فى بيت مال الكوفة وخراج دار ابجرد، وأن لا يشتم على بمسمع منه فلما رأى معاوية أنه أضعف الشروط استمسك بما كتبه الحسن أولا ولم يعطه ما اشترطه ثانيا.

سار معاوية بعد ذلك حتى نزل الكوفة وأراد عمر بن العاص أن يفضح الحسن ابن على، وأن يبدو عيه للناس فأشار على معاوية أن يخطب فى الناس ويدعو الحسن إلى الخطبة فقام معاويةكارها لذلك، فخطب فى الناس ثم أمر رجلا أن ينادى الحسن ليتكلم فقام فتشهد فى بديهة أمر لم يرو فيه ثم قال: أيها الناس. إن الله قد هداكم بأولنا وحقن دماءكم بآخرنا. وإن لهذا الأمر مدة والدنيا دول. وأن الله تعالى قد قال لنبيه ﷺ ﴿وإن أدرى لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين﴾ فلما قالها قال له معاوية

(١) لم تصبه

اجلس. ولم يزل ضرماً على عمرو وقال له هذا من رأيك. وقد تحمل الحسن بمن معه من أهل بيته إلى المدينة.

وروى الطبرى أيضاً أنه لما تم الصلح بين الحسن ومعاوية بمسكن، قام الحسن فقال: يا أهل العراق إنه سخى بنفسى عنكم ثلاث: قتلكم أبى، وطعنكم إياى وانتهابكم متاعى.

وكان قيس بن سعد قد أبى الصلح، وكان تابعا لابن العباس. وقد كاتب ابن عباس معاوية يطلب إليه الأمان وترك ما أصاب من مال على الدخول فى طاعته فكتب له بذلك وأرسل إليه جنداً، فلحق ابن عباس بجند معاوية سرًا وترك الجند الذى كان فيه بلا قائد سوى قيس بن سعد. فبقى قيس على الجند الذى كان مع الحسن وخاطبه معاوية فى الدخول فى الطاعة فأبى سعد أن يلين له. فأرسل إليه معاوية ورقة مختومة من أسفلها وقال له اشترط فيها ما شئت. فكتب فيها الأمان لنفسه ولشيعة على ولم يزد. وكان هذا من حكمة معاوية لأن عمراً أراده على قتاله فأبى وقال إنا لا نخلص إليهم حتى يقتل عدادهم من أهل الشام وما خير العيش بعد ذلك. وأنا لا أقاتلهم ما وجدت إلى الصلح سبيلا. وكان الصلح فى شهر ربيع الآخر سنة٤١ : وهذه الرواية أراها أثبت وهى تدل أيضًا على نفس عالية كريمة لقيس ابن سعد.

والذى يلاحظه المؤرخ، أنه من ذلك الوقت ترك الطلب بدم عثمان وسكنت الضوضاء وهذا يدل على أن الطلب بدم عثمان حجة داحضة. وأن الغرض الحقيقى لمعاوية ومن معه إنما هو الملك لا طلب الثأر. وقد كانوا حين ثارت الفتنة يعدون دهاة العرب خمسة: معاوية، وعمرو بن العاص، والمغيرة بن شيعة، وقيس بن سعد، وعبد الله بن بديل.

تنزل الحسن بن على

كان من رأى جند على أن يبايعوا الحسن بن على بالخلافة بعد قتال أبيه فبايعوه ولكن الرجل نظر إلى الأحوال التى هو فيها نظرة صائبة.

وجد جندًا لا يركن إلـيه وخصما قـوى الشكيمة، وفوق ذلـك كان يكره الفتن ويحب للمـسلمين الألفة، فـلم ير خيرا لـنفسه ولا لأمـته من أن ينزل لمعـاوية على شروط رضيهـا الطرفان، وكتب إلى معاوية بـبيعته وسلم إليه الكـوفة فى أواخر ربيع الأول سنة٤١ وبذلك تم ما قاله رسول الله ﷺ **«إن ابنى هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين طائفتين عظيمتين من المسلمين»**. وهدأت الأحوال وسمى المسلمون ذلك العام وهو السنة الحادية والأربعون من الهجرة (عام الجماعة).

مدنية الإسلام فى عهد الخلفاء الراشدين(١)

اصطلح المؤرخـون على تسميـة الدولة الأولى من دولة الإسلام بدولـة الخلفاء الراشدين ومدتها تقرب من ثلاثين سنة ونحن الآن ذاكـرون شيئًا من المدنية الإسلامية أو العـربية لـعهـدهم. ونريد بالمـدنية مـجمـوع النظام الـذى اتبعـوه فى أحـوالهم الاجتماعية، سواء فى إدارة أمورهم الداخلية أو فى حروبهم.

الخـــــلافة

أول ما كان لهم من مظـاهر تأسيس (الخلافة الإسلامية). وكـان الرئيس يسمى خليفـة رسول الله ﷺ. فلما جـاء ثانى الخلفاء اخـتار لقب أمير المـؤمنين ثم لم يزل مسـتعملا لقـبًا لجمـيع من أتى بعده من الخلفـاء وهذه الخلافة رياسـة دنيوية أسسـها الدين، وغايتـها حمل الناس على ما فـيه صلاحهم مـتبعاً الخليفـة فى ذلك نصوص الكتاب وما عرف من سنة رسول الله ﷺ.

---

(١) ألممت هذه الكلمة بما جاء فى محاضرات المرحوم الخضرى بك مع زيادة بسط وفضل بيان.

فالخليفة واجب الطاعة فيما يأمر مالم يخالف النصوص أو الشريعة الإسلامية وكان أساس التشريع فى زمنهم هو القرآن والسنة المعروفة فإن عرض لهم ما ليس فيهما عرفوا الأشباه والأمثال وقاسوا ما لا نص فيه على مافيه نص لما بينهما من التشابه. وكان الخليفة فى الاجتهاد والاستنباط كأحد المجتهدين يستفتيهم فيما نزل به من الحوادث فيجيبونه بما عندهم فإن اتفقوا فى الفتوى كان من المحتم عليه أن يتبع رأيهم وهذا ما يسمى فى عرف المسلمين بالإجماع وإن اختلفوا فى الفتيا عمل الخليفة بما يرى من آرائهم، فلم يكن له سلطان دينى أكثر من أنه منفذ لأحكام الدين. فليست الخلافة سلطانًا دينياً كما يزعمون وإنما هى سلطان أساسه الدين.

ولم يكن فى تلك الدولة للخلافة أسرة معينة، بل يختار الخليفة من أى أسرة من أسر قريش. والخلفاء الأربعة من ثلاث أسر. فأبو بكر من بنى تميم، وعمر من بنى عدى، وعثمان وعلى من بنى عبد مناف. وكان أساس الانتخاب الشورى فالخلافة من جهة كونها لا تتعين لها أسرة، وصاحبها يتعين بالانتخاب، ومقيد فيما يعمل بالقانون الشرعى، تشبه رياسة الجمهورية. وتمتاز الخلافة بأنها مختصة بالبيت القرشى.

وكانت الناس تبايع الخليفة على العمل بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وزادوا فى بيعة عثمان «وسيرة الشيخين أبى بكر وعمر» وحذفت هذه الزيادة فى بيعة على لأنه كان أباها لما عرض عليه الأمر عبد الرحمن بن عوف. وكان الخلفاء يستشيرون فيما يعرض لهم من الأمور، إلا أنهم لم يكونوا على درجة واحدة فى ذلك. وكان أكثرهم اهتماما بالشورى عمر بن الخطاب فإنه كان قلما يقدم على أمر إلا بعد أن يستشير ويمحص الآراء وكانت له (شورى خاصة) من أعلام الصحابة ومشيختهم من المهاجرين والأنصار ومشيخة قريش مثل عثمان بن عفان والعباس بن عبد المطلب وعبد الرحمن بن عوف وعلى بن أبى طالب ومن ماثلهم. وكان يلحق بهم عبد الله ابن عباس لما يراه من فقهه وجودة رأية و (شورى عامة) من كل من له رأى من

المسلمين يعرض عليهم الأمر فى المسجد بعد أن يـدعو «الصلاة جامعة» فيقول كل ما بدا له وربما استشار بعد ذلك خاصته. وكان كثيراً ما يرجع عن رأيه متى تبين له الحق وناهيك برجل كان يقول: من رأى منكم فى اعوجاجا فليقومه. ورجال الشورى كانوا مختـارين من قبله إلاّ أنـه لم يكن أحد يمنع من إبداء رأيه مـهما كـان صاحب الرأى صغير القـدر لأن حياتهم كانت مبنيـة على المساواة والديمقراطية الصحـيحة ولم يكن ينتقـص هذا النظام البديع إلا شـئ واحد. وهو تعيين مـن لهم الصوت فى انتـخاب الخلفاء بـوصف بينهم وقد كـان عدم هذا التعـيين سبباً مـن أسباب الفرقـة بين على ومعاوية. لأن عليـا كان يرى أن هذا الحق لأهل المدينة وحدهم لا يشـركهم فى ذلك أهل الأمصار الأخرى فمتى بايع أهل المدينة لواحد تمت بيعته، وليس لأحد منهم بعد ذلك اعتراض ومعاوية ومن معه من أهل الشام كانوا يرون غير ذلك وأن البيعة لا تتم إلا برضا أهل الأمصار مع ما كان يدعيه سوى هذا. فكانت تلك الفرقة الهائلة وتلتها الحرب العظيمة بين المسلمين.

ولم يكن للخـلافة فى هذه الدولة شئ مـن شارات الملك ولا أبهتـه، بل كان الخليفة يسير فى طريقه وفى بيته كسائر الناس لا حاجب ولا حارس والكبير إذا طلب منه أمرًا وأراده على شأن من الشـئون وكان عمر يكره أن يكون لعمـاله حجاب حتى أنه أرسل إلى سـعد بن أبى وقاص من حـرق باب دار الإمارة الذى حال بين العـامة وبين رفع شكواهم إليه إلا بعد الاستئذان.

القضـــــــاء

كان القضاء معتبرًا من عمل الخليفة لأن معناه فصل الخصومات والمنازعات على حسب القانون الشرعى المأخوذ من الكتـاب والسنة، فكان الخلفاء يباشرون هذا العمل بأنفسهم ويستفتون فى الحكم إن كانت هناك حاجة إلى الاستفتاء. ولما كثرت المشاغل واتسعت الفتوح اضطر الخلفاء للاشتغال بـالجيوش وتدبيرها، ففوضوا هذا العمل إلى من فى مكنتهم الاستنباط. ولكنهم لم يتسموا بالقضاة إلا من عهد عمر بن الخطاب:

فإنه بعث قضاة إلى الأمصار ووضع لهم نموذجا يسيرون عليه واستمر الحال على ذلك إلى آخر عهد الخلفاء الراشدين.

ومن أعظم ما كان لأولئك القضاة من الفخر شرف نفوسهم واستقلالهم فى الحكم فلم يعرف عن أحد منهم فى ذلك العصر ميل إلى الدنيا واغترار بزخرفها يعدل بهم عن قول الحق والحكم به. وكان سواء فى نظرهم الشريف والوضيع والخليفة والرعية. ولم يكن لأمراء الأمصار سلطان عليهم فى قضائهم وكان تعيينهم من قبل الخليفة رأساً ، وأحياناً يكتب الخليفة إلى الأمير أن يولى قضاء بلده من يرى فيه الكفاءة وعلى الحالين التعيين صادر من الخليفة وكان للقضاة رزق من بيت المال لما يلزمهم من الانقطاع لهذا العمل وترك ما يرتزقون منه ومن أحسن ما رأينا فى أمر القضاء ما يقال إنه كتبه على بن أبى طالب إلى أحد عماله "ثم اختر للحكم بين الناس أفضل رعيتك فى نفسك ممن لا تضيق به الأمور ولا تمحكه الخصوم ولا يتمادى فى الزلة ولا يحصر من الفيء إلى الحق إذا عرفه ولا تشرف نفسه على طمع ولا يكتفى بأدنى فهم إلى أقصاه ، أوقفهم فى الشبهات وآخذهم بالحجج وأقلهم تبرماً بمراجعة الخصم وأصبرهم على تكشف الأمور وأصرمهم عند اتضاح الحكم ممن لا يزدهيه اطراء ولا يستميله إغراء وأولئك قليل. ثم أكثر تعاهد قضائه وأفسح له فى البذل ما يزيل علته وتقل معه حاجته إلى الناس وأعطه من المنزلة لديك مالا يطمع فيه غيره من خاصتك ليأمن بذلك اغتيال الرجال له عندك) وهذا الكتاب عندى فيه شك وأرى أنه موضوع.

وكان فى كل مصر جماعة اشتهروا بالفقه واستنباط الأحكام ، كان يستعين بهم القاضى ويستفتيهم إذا أشكل عليه أمر. وأهم ما كان يدعوهم إلى ذلك أن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لم تكن مجموعة فى كتاب. بل كانت فى صدور الناس يحفظ منها أحدهم جزءاً والثانى جزءاً. وقد لا يحفظ أحدهم ما يحفظه الآخر فربما عرضت للقاضى مسألة فلا يرى فيها نصا ويكون النص وهو الحديث - عند غيره

لذلك كانـوا يسألون : هل عندكم شـىء فى هذا من سنة رسول الله صلـى الله عليه وسلم ؟ ولم يجـمعوا هذه الفـتاوى ، ولا الأقضيـة فى كتاب خاص يرجـع إليه من بعدهم. وكان مـا ذكرناه من أمر السنة سبباً كـبيراً من أسباب اختلافـهم فى الفتاوى والأقضية.

ولم يكن التـقاضى موكـولا إلى الاجتهـاد الصرف كمـا يظن بعض البـاحثين ويجعل ذلك مـن عيوب القضـاء. وإنما كان موكولا إلى الاجـتهاد فى فـهم القانون الشرعى وتطبيقه على الحوادث والواقعات. حـقيقة إن ذلك القانون لم يعتن بالتفصيل التام ، بل اهتم بالقواعد الكلية. وليس هذا عيـباً في القوانين التى يراد منها البقاء ، بل هو مما يحسنها ويجعلها صالحة لكل زمان ومكان.

الاجتهاد للقـاضى - والحال كما ذكرنا - أمر لابد منه. ولذلك عـده المتقدمون من الشروط المتحتمة.

ولم يكن تعيين القضاة مانعا للخلفاء من نظر أية خصومة تعرض عليهم ، وقد حصل ذلك من الخلفاء فى آنات كثيرة ، فكأن القضاة كانوا نوابا للخلفاء.

وليس عندنا دليل على وجود سجلات يضبط فيها ما يصدر من الأحكام ولا أن صور الأحـكام كانت تعطـى للمحكم لـه ، لأن ذلك لم يكن مـا يدعو إليـه ما دام التنفيذ فى يد القاضى ، فهو الذى يقضى وهو الذى ينفذ الحكم. ويظهر لنا مما قرأناه من أخبارهم أنهم قلما كانوا يحتاجون للتـنفيذ ، لأن من حكم عليه كان يبادر بتنفيذ ما قضى عليه به من الحـقوق : فكان المتنازعون أقرب إلى كونهم مستـفتين ينفذون ما صدرت به الفتوى من تلقاء أنفسهم.

ويظهر لنا أن قـضاء القضاة فى عهـد الخلفاء الراشدين كان قاصـراً على فصل الخصومات المدنية أما القصـاص والحدود فكانت ترجع إلى الخلفاء وولاة الأمصار لأنا رأينا قضايا حكم فيها الخلفاء والأمراء بقتل قصاصا أو جلد السكر ولم يبلغنا أن قاضيا

ليس أميراً قضى بعقوبة منها أو نفذها. وكانت العقوبات التأديبية كالحبس لا يأمر بها إلا الخليفة أو عامله فكانت الدائرة القضائية ضيقة ولم يبلغنا أيضاً أن قضاة الأمصار كانوا ينيبون عنهم قضاة فى غير الحواضر الكبرى وذلك دليل على قلة القضايا والخصومات.

قيادة الجيوش

كانت قيادة الجنود من أعمال الخلافة كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقود الجنود بنفسه ، ولكن الخلفاء لما لم يمكنهم أن يقودوا جميع الجنود المرسلة إلى البلدان المختلفة كانوا يختارون قائداً للجيش ممن يرون فيه النجدة والشجاعة وتكون طاعتهم واجبة كطاعة الخليفة سواء بسواء. وبعد انتهاء الفتح واستقراز الأمر يكون سلطانهم قاصراً على تدبير أمر الجنود والنظر فى معداتهم. ولم تكن هذه الجنود محصورة في ديوان إلا من عهد عمر بن الخطاب فهو الذى دون لهم الدواوين وأحصاهم حتى صار يعرف جنود كل وجه ومن تأخر منهم عن وجهه وكان يعاقب المتأخر بأن يقام فى مسجد حيه ويقال إن هذا تخلف - وهذا التوبيخ كان فى نظرهم أمضً من ضربة السيف ، لما هو معروف عنهم من الشجاعة والإقدام ، ويرون الإحجام عاراً لا يمحى - وكما حصرهم عمر رتب لهم الأرزاق من بيت المال ولم يكن قبل ذلك لهم رزق معين إلا أنه لم يسو بين الجنود فى العطاء وقد سوى بينهم على بن أبى طالب. وكان لكل جند عرفاء يلون أمور الجند ويقبضون أرزاقهم ويوزعونها عليهم.

أما تعبئة الجيوش فقد نالوا منها حظا عظيماً فبعد أن كانت العرب تحارب جاهليتها بطريقة الكر والفر - وهى أن يكر المحارب على خصمه ثم يفر ثم يكر وهكذا لا يتبعون نظاما - رأى قواد الجند من المسلمين أن هذا النظام لا يصلح معه حروب الأمم المنظمة فربطوا مسير الجنود بعضهم ببعض حتى يكون الصف متضامنا وليس لأحدهم أن يتأخر عن صفه أو يتقدم عنه وكان للجيش مقدمة تكون فى الأمام

وهى التى تبدأ المناوشات وتتعرف الطرق وترتاد المواضع وقلب وهو وسط الجيش وفيه أمير الجند ومجنبان يمنى ويسرى - أو جناحان - وساقة وهى الجزء المؤخر من الجيش وإذا كان الجيش تام الأقسام على هذا الوصف يسمى خميساً. ولكل فرقة من الفرق الخمس أمير يأتمر بأمر القائد العام. وكانوا يجعلون على الفرسان خاصة أميراً وكان للاحتفاظ بخطوط رجعتهم الشأن العظيم حتى لا يأتوا من خلفهم وكانوا يحذرون البيانات جهدهم.

ومن أحسن ما أطلعت عليه من الأوامر الخاصة بتيسير الجنود ما كتبه عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبى وقاص من كتاب له فى ذلك حيث يقول "وترفق بالمسلمين فى سيرهم ولا تجشمهم مسيراً يتعبهم ولا تقصر بهم عن منزل يرفق بهم حتى يبلغوا عدوهم والسفر لم ينتقص من قوتهم ، فإنهم سائرون إلى عدو مقيم حامى الأنفس والكراع وأقم بمن معك فى كل جمعة يوماً وليلة حتى تكون لهم راحة يحيون بها أنفسهم ويرمون أسلحتهم وأمتعتهم. ونح منازلهم عن قرى أهل الصلح والذمة فلا يدخلها من أصحابك إلا من تثق به ، ولا يرزأ أحداً من أهلها شيئاً فإن لهم حرمة وذمة ابتليتم بالوفاء بها كما ابتلوا بالصبر عليها فما صبروا لكم فتولوهم خير. ولا تنتصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح. وإذا وطئت أرض عدوك فأذك العيون بينك وبينهم ولا يخف عليك من أمرهم شيء وليكن عندك من العرب أو من أهل الأرض من تطمئن إلى نصحه وصدقه فإن الكذوب لا ينفعك خبره وإن صدق فى بعضه والغاش عين عليك وليس عينا لك. وليكن منك عند دلوك من أرض العدو أن تكثر الطلائع وتبث السرايا بينك وبينهم فتقطع السرايا أمدادهم ومرافقهم وتتبع الطلائع عوراتهم. واختر للطلائع أهل البأس والرأى من أصحابك وتخير لهم سوابق الخيل فإن لقوا عدوا كان أول ما تلقاهم القوة. واجعل أهل السرايا من أهل الجهاد والصبرعلى الجلاد ولا تخص أحدا بهوى فتضيع من رأيك وأمرك أكثر مما حابيت به أهل خاصتك ولا تبعث طليعة ولا سرية فى وجه تتخوف فيه غلبة أو ضيعة أو نكاية، فإذا عاينت العدو فاضمم إليك أقاصيك واجمع إليك مكيدتك وقوتك ثم لا

تعاجلهم بـالمناجزة ما لم يستكـرهك قتال حتى تبـصر عورة عدوك ومقـاتله وتعرف الأرض كلها كـمعرفـة أهلها بها فـتصنع بعـدوك كصنعه بك ثم اذك حـراسك على عسكرك وتيقظ من البيات جهدك" .

الخراج وجبايته

كان الخلفاء من عهد عمر بن الخطاب يعينون للجباية عمالا مستقلين عن العمال والقواد ، وقليـلا ما كانوا يكلون أمـر الجباية إلى العمـال وكانوا يدفعون مما يـجبون أرزاق الجند ومصاريف ما يأمر به الخليفة مما تقتضيه المصالح العامة والباقى يرسل إلى دار الخلافة ليصرف فى مصارفه.

وكانت هـناك إيرادات ثابتة أو عـادية ، وإيرادات غيـر ثابتة. أما الأولـى فهى الخراج والعشر والصدقات والجزية.

والخراج هو ما كـان يوضع على الأرض التى امتلكها المسلمـون عنوة وتركوها فى أيدى أهلها ويؤخذ منهم كأنه أجرة للأرض التى أبقيت فى أيديهم وكانوا يجعلونه أحيانا شيئاً مقدرا كما عمل عمر في السوداء. وأحيانا يجعلونه حصة شائعة مما يخرج من الأرض. أما الأراضى الـتى أسلم أهلها عليـها وهى من أرض العـرب أو العجم كالمدينة واليمن وملكها المسلمون عنوة وأهلـها لا تقبل منهم الجزية كعبدة الأوثان من العرب، فهذه أرض عشـر ومثلها الأراضى التى امتلكها المسلمـون عنوة وقسمت بين الغانمين. والعشر هو عشر ما يخرج من الأرض.

وكان عمـر لما فتح السواد والشام شـاور الناس فى سمة الأرضين التى فتـحها المسلمون. فـتكلم فيهـا قوم وأرادوا أن يقسم لهم حـقوقهم وما فـتحوا. فقـال عمر فكيف بمن يأتى من المسلمين فيجدون الأرض قـد اقتسمت وورثت عن الآباء وحيزت ؟ ما هذا برأى. فقـال عبد الرحمن بن عوف : فمـا الرأى ؟ ما الأرض والعلوج إلا مما أفاء الله عليهم. فقال عمر : ما هو إلاما تقول ، ولست أرى ذلك. والله لا يفتح بعدى بلد فـيكون فيه كبـير نيل. بل عسى أن يـكون كلا على المسلمين فإذا قـسمت

أرض العراق بعلوجها وأرض الشام بعلوجها فما يسد به الثغور وما يكون للذرية والأرامل بهذا البلد وبغيره من أهل الشام والعراق ؟ فأكثروا على عمر وقالوا : تقف ما أفاء الله علينا بأسيافنا على قوم لم يحضروا ولم يشهدوا ولأبناء القوم ولأبناء أبنائهم ولم يحضروا ؟ فكان عمر لا يزيد على أن يقول هذا رأى. قالوا فاستشر فاستشار المهاجرين الأولين فاختلفوا فأما عبد الرحمن بن عوف فكان رأيه أن يقسم لهم حقوقهم ورأى عثمان وعلى وطلحة وابن عمر رأى عمر. فأرسل إلى عشرة من الأنصار خمسة من الأوس وخمسة من الخزرج ومن كبرائهم وأشرافهم ، فلما اجتمعوا حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال :

إنى لم أزعجكم لأن تشتركوا معى فيما حملت من أموركم فإنى واحد كأحدكم وأنتم اليوم تقرون بالحق خالفنى من خالفنى ووافقنى من وافقنى ولست أريد أن تتبعوا هذا الذى هواى ، معكم من الله كتاب ينطق بالحق فوالله إن كنت نطقت بأمر أريده ما أريد به إلا الحق.

قالوا نسمع يا أمير المؤمنين. قال قد سمعتم كلام هؤلاء القوم الذين زعموا أنى أظلمهم حقوقهم وإنى أعوذ بالله أن أركب ظلماً لئن كنت ظلمتهم شيئاً هو لهم وأعطيته غيرهم لقد شقيت ولكن رأيت أنه لم يبق شىء يفتح بعد أرض كسرى وقد غنمنا الله أموالهم وأرضهم وعلوجهم ، فقسمت ما غنموا من أموال بين أهله وأخرجت الخمس فوجهته على وجهه وأنا فى توجيهه ، وقد رأيت أن أحبس الأرضين بعلوجها وأضع عليهم فيها الخراج فتكون فيئاً للمسلمين المقاتلة والذرية ولمن يأتى من بعدهم أرأيتم هذه الثغور ؟ لابد لها من رجال يلزمونها. أرأيتم هذه المدن العظام كالشام والجزيرة والكوفة والبصرة ومصر ؟ لابد لها من أن تشحن بالجيوش وأدرار العطاء عليهم فمن أين يعطى هؤلاء إذا قسمت الأرضون والعلوج ؟ فقالوا جميعاً : الرأى رأيك فنعما قلت وما رأيت إن لم تشحن هذه الثغور وهذه المدن بالرجال وتجر عليهم ما يتقوون به رجع أهل الكفر إلى مدنهم. فقال قد بان لى الأمر فمن رجل له جزالة عقل يضع الأرض مواضعها ويضع على العلوج ما يحتملون ؟

فاجتمعوا له على عثمان بن حنيف وقالوا تبعثه على أهم ذلك فإن لـه بصراً وعقلا وتجربة فأرسل إليه عمر فولاه مساحة أرض السواد فأدت جباية سواد الكوفة - قبل أن يموت عمر بعام - مائة ألف ألف درهم ، وكان وزن الدرهم يومئذ وزن المثقال.

وأرادوا منه أن يقسم الشام كما قسم الرسول خيبر. وكان أشد الناس عليه فى ذلك الزبير بن العوام وبلال بن أبى رباح. فقال عمر : إذا أترك من بعدكم من المسلمين لا شئ لهم. وفعل بالشام كما فعل بالعراق فترك أهله ذمة يؤدون الخراج للمسلمين.

قال أبو يوسف القاضى : والذى رأى عمر من الامتناع من قسمة الأرضين بين من افتتحها توفيقاً من الله كان له فيما صنع ، وفيه كانت الخيرة لجميع المسلمين وفيما رآه من جمع خراج ذلك وقسمته بين المسلمين عموم النفع لجماعتهم. لأن هذا لو لم يكن موقوفا على الناس فى الأعطيات والأرزاق لم تشحن الثغور ولم تقو الجيوش على السير فى الجهاد ، ولما أمن رجوع أهل الكفر إلى مدنهم إذا خلت من المقاتلة المرتزقة.

ولم يكن مدار الخراج معروفا فى عهد الخلفاء الراشدين تمام المعرفة.

الجزية

والجزية هى ما يوضع على رءوس أهل الذمة على الرجال دون النساء والصبيان وكانت تؤخذ منهم جزاء عن حمايتهم ودفع العدو عنهم. ولم يكونوا يأخذونها من المسكين الذى يتصدق عليه ولا ممن لا قدرة له على العمل - روى أبو يوسف القاضى فى كتابه الموسوم بالخراج[1] قال : مر عمر بن الخطاب بباب قوم وعليه سائل شيخ كبير ضرير البصر. فضرب على عضده من خلفه وقال : من أى أهل الكتاب أنت ؟ فقال يهودى. فقال فما ألجأك إلى ما أرى ؟ قال الجزية والحاجة والسن. قال : فأخذ عمر بيده وذهب به إلى منزله فرضخ له بشىء من المنزل. ثم أرسل إلى خازن بيت

(١) من ٧٣ بولاق و ص ١٥١ طبعه المطبعه السلفية.

المال. فقال. أنظر هذا وضرباءه فوالله ما أنصفناه أن أكلنا شبيبته ثم تخذله عند الهرم. إنما الصدقات للفقراء والمساكين. والفقراء هم المسلمون وهذا من المساكين من أهل الكتاب. ووضع عنه الجزية وعن ضربائه. وكانوا يقدرون الجزية على حسب أحوال الناس ويسارهم لا تزيد عن ٤٨ درهما فى السنة. ولا تنقص عن ١٢ درهما. روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال. من ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقته فأنا حجيجه. وكان فيما تكلم به عمر بن الخطاب عند وفاته "أوصى الخليفة من بعدى بذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن يوفى لهم بعهدهم وأن يقاتل من ورائهم وأن لا يكلفوهم فوق طاقتهم".

الصدقات

كانت الصدقات تؤخذ من المسلمين من جميع أموالهم - نعمهم السائمة الإبل والبقر والغنم ونقودهم الدرهم والدينار وما يخرج من أرضهم. وقد بينت الشريعة لكل ذلك نصاباً معيناً لا تجب فيما الزكاة دونه وقدراً معيناً لا يؤخذ فوقه ، بين ذلك فى كتاب كتبه رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل وفاته وعمل به المسلمون بعده. وكانوا يعينون لأهل البادية مصدقين وهم الذين يأخذون الصدقات ليصرفها الإمام فى مصارفها الشرعية.

العشور (الجمارك)

كان تجار المسلمين يذهبون بتجارتهم إلى ديار الحرب فيتقاضى منهم أهل البلاد عشر أموالهم فكتب أبو موسى الأشعرى إلى عمر : أن تجاراً من قبلنا من المسلمين يأتون أرض الحرب فيأخذون منهم العشر. فكتب إليه عمر خذ أنت منهم كما يأخذون من تجار المسلمين وخذ من أهل الذمة نصف العشر ومن المسلمين من كل أربعين درهما درهما ليس فيما دون المائتين شيء. فإذا كانت مائتين ففيها خمسة دراهم وما زاد فبحسابه.

روى أبو يوسف القاضى. أن جماعة من أهل الحـرب من وراء البحر كتبوا إلى عمر بن الخطاب. دعنا نـدخل أرضك تجاراً وتعشرنا فشاور عمـر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم. فأشاروا عليـه به. فكان أول من عشر أهل الحرب وبعث زياد بن حدير على عشور أهل العراق والشام.

ومما يستطرف من خـبر زياد أن رجلا من نصارى تغلب مر عليـه بفرس قومت بعشرين ألفاً فأخـذ منه ألفاً ثم مر راجعاً فى سنته. فقال. أعـطنى ألفاً أخرى. فقال التغلبى كلما مررت بك تأخذ منى ألفاً ؟ قال نعم. فسار التغلبى إلى عمر فوافاه بمكة وهو فى بيته فـاستأذن عليه. فقال : من أنت ؟ قـال رجل من نصارى العرب وقص عليه قـصته. فقـال عمر : "كفيـت" ولم يزد على ذلك فرجع التـغلبى إلى زياد بن حدير وقد وطن نفسه علـى أن يعطيه ألفاً أخرى. فوجد كتاب عمر قـد سبقه إليه : من مر عليك فأخذت مـنه صدقة فلا تأخذ منه شيئاً إلى مـثل ذلك اليوم من قابل إلا أن تجد فضلا. فقـال الرجل : قد والله كانت نفسى طيبة أن أعطـيك ألفا وإنى أشهد الله أنى على دين الرجل الذى بعث إليك الكتاب(١).

وقد اتبع المسلمون سنة عمر فى تعشـير أموال التجارة التى ترد من خارج البلاد الإسلامية إلى بلاد المسلمين. قال أنس بن سيـرين "أرادوا أن يستعملونى على عشور الإبلة فأبيت فلقينـى أنس بن مالك فقال. ما يمنعك ؟ فقلت العشـور أخبث ما عمل عليه الـناس. قال فقال لى. لا تـفعل ، عمر صنـعه فجعل علـى أهل الإسلام ربع العشـر وعلى أهل الذمة نصف الـعشر وعلى المشـركين ممن ليس له ذمة العـشر ولم يريدوا أن يأخـذوا من أمـوال المسلمين التـجاريـة أكثـر مما يجب عليـهم من الزكـاة وضاعفوا ذلك من أهـل الذمة كما فعلوا مع نصارى تغـلب. وعاملوا أهل الحرب بما يعاملون به تجار المسـلمين فى بلدانهم وليس عندنا علم بمجموع مـاكان يرد في السنة إلى بيت المال وفراً ، وكان لبيت المال خازن يخرج منه بمقدار ما يأمر الخليفة.

---

(١) الخراج لأبى يوسف ص ١٦٢ طبعالمطبعة السلفية.

النقود

كان العرب قبل الإسلام يتعاملون بنقود كسرى وقيصر من الذهب والفضة ولم يكن لهم سكة خاصة بهم ، لأنها تتبع المدنية والحضارة والأمة العربية كانت فى ذلك الحين تغلب عليها البداوة. ولما جاء الإسلام لم يتغير. التعامل بهذه النقود بل سار على تلك الحال مدة رسول الله صلي الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر. فلما فتحت الفتوح على عهد عمر واستولى المسلمون على بلاد فارس وكثير من بلاد الروم ، رأى عمر بن الخطاب أن يعين وزن الدرهم لأنه نظر فرأى الدراهم الكسروية المسكوكة مختلفة الوزن فمنها درهم على وزن المثقال وعشرين قيراطا ، ومنها درهم وزنه اثنا عشر قيراطا ودرهم وزنه عشرة قراريط فأخذ عمر جميع هذه الأوزان الثلاثة وهى ٤٢ قيراطا وأخذ ثلثها وهو أربعة عشر قيراطا من قراريط المثقال وضرب الدرهم على ذلك فكان كل عشرة دراهم وزن سبعة مثاقيل لأن كلا منها = ١٤٠ فصارت النسبة بين الدرهم والمثقال كنسبة ١٠ : ٧. - نقل المرحوم على مبارك باشا فى خططه عن المقريزى قال : وفى سنة ١٨ من الهجرة ضرب الدرهم على نقش الكسروية وشكلها بأعيانها غير أنه زاد فى بعضها الحمد لله وفى بعضها محمد رسول الله وفى بعضها لا إله إلا الله وحده. وعلى آخرى عمر. وجعل وزن كل عشرة دراهم ستة مثاقيل. فلما بويع عثمان ضرب فى خلافته دراهم ونقشها : الله أكبر.

والظاهرة أن ولاة الأمور والأمراء كانوا يضربون السكة فى نواحيهم ويضعون أسماءهم عليها. ذكر صاحب تاريخ التمدن الإسلامى أن من ذلك قطعة من الدنانير ضربها خالد بن الوليد فى طبرية سنة ١٥ للهجرة وهى على رسم الدنانير الرومية تماما بالصليب والتاج والصولجان ونحو ذلك وعلى أحد وجهيها اسم خالد بالأحرف اليونانية (Xaled) وهذه الأحرف (Bou) قال ويظن الدكتور مولر المؤرخ الألمانى أنها مقطعة من (أبو سليمان) كنية خالد بن الوليد وصورة القطعة منقوشة فى الكتاب من وجهيها.

وفى الكتاب المذكور. وذكر المرحوم جـودت باشا أنه رأى نقوداً ضربها الأمراء والولاة فى عهد الخلفاء الـراشدين أقدمها ضرب سنة ٢٨ فى قصبـة هرتك طبرستان وعلى دائرها بالخط الكوفى (بسم الله الرحمن الرحيم) ورأى نقداً مضروباً سنة ٣٨ هـ على دائرته هذه العبارة أيضاً. ونقـداً ضرب سنة ٦١ فى يزد على دائرته (عبد الله بن الزبير أمير المؤمنين) بخط بهلوى.

الحج

كان من الأعمال الكبـرى لإمام المسلمين إقامة حجهم. وكان الحج مـعتبراً فى نظر الخلفاء الراشـدين موسماً عامـاً يجتمع فيـه أمراء الجهات ليدلوا إلى الخـليفة بما عندهم من الأحوال فى بلادهم ولتسمع شكوى من يشكوهم من رعيتهم وكان الخلفاء يلونه بأنفسهم وقلما يتخلفون. وكان أكـثرهم توليا لأمر الحج بنفسه عمر بن الخطاب فإنه حج سـنيه كلها لم يـتخلف فى واحدة مـنها ، إلا أنه حصل خـلاف فى السنة الأولى من حكمه فقيل إنه أناب عنه عبد الرحمن بن عوف. وأبو بكر حج بنفسه مرة وأناب عنه مرة. وعـثمان بن عفان حج سـنيه. وعلى أناب عنه كل سنى خـلافته لما شغل به من الاضطراب الذي كان بينه وبين معاوية.

كان الاهتـمام بأمرالحج قـد جعل له مظهـراً عظيمـا وفائدة كبـرى في تعارف المسلمين بعضهم ببـعض ، وكان الخلفاء يجيئهم به الأخبـار مالا يمكن أن يصل إليهم بواسطة الولاة.

الصلاة

كانت إقامة الصلاة من أعمال الخليفة فهو يقيمها بنفسه أو بواسطة نائبه ، وكان في مصر مسجد جامع تؤدى فيه الجـمعة ولا ينصب منبر فى غيره. فلم تكن تقام إلا جمعة واحـدة فى المصر يقيمهـا الخليفة إن كان أو الوالى. ولم يبـلغنا أنه تعددت فى البلد المساجد فى عهد الخلفاء الراشدين.

العلم والتعليم

كانت الكتابة قبل مجيء الإسلام نادرة فى الأمة العربية خصوصاً في الحجاز ونجد. فلما جاء الإسلام ساعد على انتشار الكتابة بين العرب. ففي زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم استخدم جماعة من فقراء أسرى بدر فى أن يعلم كل منهم عشرة من صبيان المدينة الكتابة وكان ذلك فداءة. ولما فتحت البلاد الفارسية. وكان بالحيرة كثير ممن يكتبون. جلبوا جماعة منهم يعلمون الكتابة بالمدينة. وكان أكثر النشء الذى نشأ فى عهد الخلفاء الراشدين يعرف الكتابة - أما الخلفاء أنفسهم فكانوا كلهم من الكتاب وقد كتبوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

ولم يكتب شيء من الكتب فى ذلك العهد إلا القرآن فإنه جمع فى صحف فى عهد أبى بكر. وفى عهد عثمان كتبت منه مصاحف عدة أرسل بها الأمصار ليكون كل مصحف إماما لأهل المصر الذى أرسل إليه. أما سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم تجمع فى كتاب. وكذلك لم يكتب شيء فى العلوم. أما الدينية منها فكانوا مكتفين بما فطروا عليه من معرفة اللغة العربية وفهم أساليبها. والشريعة إنما جاءتهم بهذه اللغة. فكانوا يستقلون بفهمها - وأما العلوم الصناعية فإن الأمة كانت لا تزال على بداوتها وإن كان قد نبغ منها من أمكنهم إنشاء المدن ومسح الأراضى بالمران على ذلك لا بتعلم سابق - وما قيل من أن علم النحو دونه أبو الأسود الدؤلى بأمر الإمام على ، فقد كان شيئاً يسيراً ولم يكن كتاباً مدوناً كما هو المعروف فى الكتب المدونة.

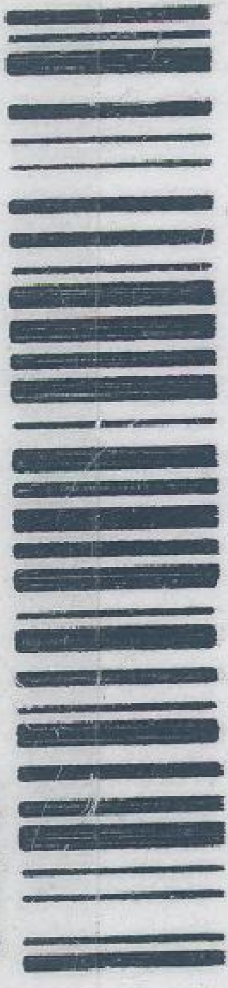
* * *

فهرس

المكتبة التوفيقية

أمام الباب الأخضر - سيدنا الحسين

ت : ٥٩٠٤١٧٥ - ٥٩٢٢٤١٠


Bibliotheca Alexandrina
0667578
